

الأطب في العصر الفاطمي

الأستاذ الدكتور
محمد زغلول سلام

الناشر
بمطبعة دار الكتب
بالأقصر



0147256



Bibliotheca Alexandrina

الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حمزى وشركاه
٤٤ ش سعد زغلول الاسكندرية تليفون /فاكس : ٤٨٣٣٣٠٣

الادب فى العصر الفاطمى

■ ٢ ■

الشعر والشعراء

دكتور

محمد زغلول سلام

الناشر // منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزى وشركاه



الفصل الأول

حال الشعر والشعراء

بسم الله الرحمن الرحيم

حال الشعر :

يبدأ العصر الفاطمي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ، وهو القرن الذي ارتقى فيه الأدب العربي عامة وازدهر الشعر والنثر ، فأخرج كبار شعراء العربية أمثال أبي الطيب المتنبي والشريف الرضي ومهيار الديلمي والصنوبري وأبي العلاء المعري من شعراء الشرق والشام ، كما أظهر من شعراء الغرب ابن هاني وغيره من شعراء الأندلس .

وفضلاً عما خرج في هذا القرن من كبار الكتاب أمثال أبي هلال الصائغ ، وأبي حيان التوحيدى ، وابن العميد ، والصاحب بن عباد ، وبديع الزمان الهمداني ، والخوارزمي ، ومن الأدباء والنقاد وعلماء العربية الكبار كالآمدي ، والقاضي الجرجاني ، وأبي هلال العسكري والحائمي .

وما تلا ذلك من القرنين الخامس والسادس كان امتداداً للقرن الرابع وما أفرزه في ميادين الحضارة والفكر والأدب . وإن اختلفت الدرجة ، وتغيرت الملامح تبعاً لتغير ظروف العصر .

وكان للشعر في القرنين الخامس والسادس دوره الكبير في الحياة الأدبية وإن نافسته الكتابة وحاولت أن تتقدم عليه ، وتدفع به إلى مكانة متأخرة ، ذلك أن الشعراء الكبار الذين كانوا يفرضون وجودهم على الرأي العام الأدبي ، بابتداعهم المتفوق ومكانتهم الفنية قد قلوا بل ندر وجودهم ، على غير الحال في القرون السابقة . ولهذا لم نجد اسماً بارزاً في هذين القرنين يستطيع أن يحتل المكانة التي احتلها المتنبي مثلاً في القرن الرابع ولا أبو تمام والبحترى وابن الرومي في القرن الثالث اللهم إلا من كان علامة ظاهرة كأبي العلاء المعري .

ومن هنا كان الشعراء في هذين القرنين من الطبقة الوسطى في فئمة الشعرى ومكانتهم الإبداعية . كان ذلك لأسباب كثيرة .

وظهر في هذين القرنين طبقات من الشعراء غير « المحترفين » — إذا صح هذا التعبير — لم يتكسبوا بالشعر ، وإن غلب على معظم الشعراء التكسب ، ومن بين غير المحترفين جماعة من الكتاب نظموا الشعر إلى جانب الكتابة ، وألحقوا هذا

النظم بكتاباتهم فاختلف فيها النثر بالشعر وكانت ظاهرة هذين القرنين التي عمت من بعد واتبعها الكتاب في العصور التالية .

وكانت الدولة الفاطمية في مصر ، وقد حكمت خلال القرون الثلاثة ما يقرب من مائتي عام — قد اهتمت بالشعر والشعراء اهتماماً فاق اهتمام الولاة والحكام السابقين في عهد الطولونيين والإخشيديين ، حتى إن عدد الشعراء الذين قيل لهم وقفاً على قبر أحد وزرائهم لرثائه وهو ابن كلس بلغ مائة شاعر^(١) .

وشجع الفاطميون الشعر والشعراء الآن خلفاءهم كانوا عرباً يتذوقون الأدب والشعر ويقولونه . وقد رويت أشعار لمعظمهم ، كما قام على تشجيع الشعر والشعراء وزراء الفاطميين الكبار أمثال يعقوب بن كلس ، والأفضل بن بدر الجمالي ، والصالح طلائع بن رزيك ، وجمع بلاط هؤلاء جماعة من الشعراء ، إلى توافد الشعراء وتكاثرهم حول بلاط الخلفاء ، وإلى مجالس الوزراء وكبار رجال الدولة من القادة ، والقضاة . وأجزل هؤلاء العطاء للشعراء . ورتبت الدولة لهم ديواناً جعلوا عليه قِيَمًا . وكان الوزراء والقادة يعتبرون شعر المديح ضرباً من الخدمة التي يقدم بها الشعراء لساحتهم ، كما كان الخلفاء يعتبرونه كذلك . ولم تكن مناسبة من المناسبات دينية أو اجتماعية أو عيداً من الأعياد العامة كعيد وفاء النيل أو كسر الخليج والنيروز ، وما إليها تمر دون أن يقول الشعراء فيها . وقد خصص الخليفة الأمر في أحد مناظرة طاقات بأسماء الشعراء في خدمته منها يأجلون الجائزة المقررة وعليها صور كل منهم^(٢) .

ولما جاء الأفضل إلى الوزارة أجزل للشعراء الجائزة وفق ما يسمع منه فيطريه . قال المقرئ : « فإن جميع الشعراء لم يكن لهم في الأيام الأفضلية .. ولا فيما قبلها على الشعر جار ، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستجاشه للشعر من الشعراء منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة » .

ومما دعا إلى ازدهار الشعر أن القائمين على شئون البلاد اتخلوا منه وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية . وكانوا يشجعون الشعراء في مدائحهم على الحديث عن

(١) المخطوط ٨/ ٢ .

(٢) روى المقرئ أنهم كانوا يُجَرِّون لبعض الشعراء رواب جارية من عشرين ديناراً إلى عشرة دنانير ، المخطوط ٢/ ٢٤٣ وراجع ١/ ٤٨٦ .

المذهب وأصول الدعوة الفاطمية^(١)، وعقائدهم في الأئمة والعلم الباطن، وكما يتحدثون عن حقهم السياسي في الخلافة.

وهكذا نرى الفاطميين يولون الشعراء عنايتهم لأن الشعراء لسان من ألسن تمجيدهم والذود عنهم أمام أعداء كثيرين أقوياء، فأغداق النعم الفاطمية على الشعراء كان من أشد الأسباب التي جعلت الشعراء يحرصون على إتقان الشعر مع الأكثر من الإنشاء، فكثرت الشعراء وكثرت انتاجهم^(٢).

ويقول أحمد أمين^(٣) « وفي الحق أن الشعر في العهد الفاطمي في مصر كان أول شعر مصري قيم من عهد فتح العرب لمصر، إذ كان قبل ذلك ليس له قيمة إلا للوافدين على مصر من الخارج، أما شعر المصريين أنفسهم فكان محاولات أولية، حتى إذا جاء الفاطميون جاء الشعر وجاد ».

وشعراء العصر لم يكن لهم استقلال في مواردهم المالية، أو موارد العيش غالبا، وإنما كان معظمهم يتكسب من الشعر، ولهذا كان الشعراء يلجأون إلى كسب ود ذوى النفوذ والأمر.

ومن هنا كنا نرى بين شعراء العصر من يبذل نفسه لأجل نيل الحظوة عند هذا أو ذاك من الخلفاء والوزراء والأمراء، على أساس أن المديح وقول الشعر بين يدى فلان أو فلان كان حرفتهم التي يرتزقون منها.

واتخذهم الخلفاء والولاة أدوات للمباهاة بالسلطان، فضلا عن الدعاية السياسية التي أشرنا إليها. وكان مثلهم في ذلك مثل ما تضم مجالسهم من ألوان الترف، وما يجمعون من أسباب النعم، فالشعراء كانوا عند هؤلاء من ضروب الزينة والمتعة والمسامرة أو التسلية، يبذلون لهم ما يريدون كي يرضوا نزعاتهم، ويشبعوا رغباتهم، ويلبوا طلباتهم فيما تهديه إليه مخارقتهم وشطحاتهم.

ونجد في هذا العصر — لا في مصر وحدها — بل في سائر بلاد العرب والمسلمين ودولهم شرقا وغربا — شعراء يغنون على قصور السادة، ويبذلون لهم — وينفذون ما يطلبون منهم، وتنقلب بهم الأهواء، فيتقلبون بتقلبهم معهم، ونسمع كثيرا عن شعراء يمدحون أناسا، ويعودون فيذمّونهم، ثم يمدحون آخرين أعداء

(١) محمد كامل حسين في أدب مصر الفاطمية، ص ١٥٩.

(٢) ظهر الإسلام ٢٠٥/١.

لهم . والعكس ، قد يكون علواً في عصر يهجونه فيعودون لمدحه لأن المنفعة تمل عليهم ونحى الشعر ونظمه .

يقول الدكتور باغى عن شعراء القيروان في العصر نفسه^(١) :

« والغراء الرخى أو الثرف المثرى يدفع بذويه إلى صنوف كثيرة من الفراغ اللاهى حين يتاح لهم أن يخلدوا إلى الفراغ ، فلم يكن يجد المعز (بن باديس) مضجعة للوقت في أن يعقد مجلسا ويستدعى شعراء ، لا لشيء إلا لينظموا في وصف طعام من الأطعمة أو شراب من الأشربة أو صنف من الفاكهة . ومازال يحول بين السلطان ، وبين تسخير الشعر لفراغه حين يركن إلى الفراغ ، ولطوه حين يطلب اللهو ، ولذته حين يطلب اللذة ؟ وهو الذى سخر الشعر في شئونه السياسية وجعل من الشعراء ألسنة تلهج بالمدح الذى يجد فيه متاعا ، وبما يصلح أن يسليه حين تنزل به نازلة أو تصيبه كارثة .

وقد كاد السلطان أن يجعل الشعراء لا يحيون إلا له ، ولا يقولون إلا فيه ، ولا يعبرون إلا عما يدور بخلدته .

فكان الشعراء إذا بعض حاشية السلطان ، لا يرضيه أن يتجه الشاعر بالخدمة إلى غيره ، وهذا ما حدث لابن مكنسة الشاعر المصرى في عصر الأفضل بن بدر الجمالى أيام الخليفة المستمل .

فقد ذكر أن ابن مكنسة لم ينل الخطوة لدى الأفضل لأنه مدح أحد الرجال العاملين بمصر وهو أبو مليح جد الأسعد بن ممان الشاعر المشهور ، وكان أبو مليح هذا من كبار موظفى الدولة الفاطمية ، وكان نصرانيا . وأكثر فيه المديح ، وقصر شعره عليه قبل الإنصال بالأفضل ، قال أمية : « فلما أنتقل الأمر إلى الأفضل تعرض لامتداحه ، فلم يقبله ، ولم يقبل عليه ، وكان سبب حرمانه ما سبق من مديحه لأبى مليح ، ولاسيما قوله فيه :

طويست سماء المكرما	ب وكورت شمس المديح
ما كان بالنكس الذنب	نبي من الرجال ولا الشجيع ^(٢)

(١) حياة القيروان ، ص ٧٩ .

(٢) الرسالة المصرية .

ويبدو أن الأفضل استكثر أن يمدح ابن مكنسة غيره بهذا القول ، لما يمكن من نفسه في الدولة ، فعال الحاكم الأمر ، ولم يكن معقّب على قوله ، حجب الخليفين المستعين والأمر .

ومع ذلك فقد كان الأفضل يجمع في مجلسه كثيرا من الشعراء ، وكان يقد إليه الشعراء من المشرق والمغرب . قصده بن جَيّوس من الشام ، وأمية بن أبي الصلت من الأندلس وغيرهما كثيرون .

يقول المقرئ (١) : « وله مروءة عظيمة ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه أمدائح كثيرة ، مدحة ظافر الحداد وأمية بن أبي الصلب وغيرهما » .

« وعرف كثير من رجال الدولة الفاطمية بتشجيع الشعراء وتقريبهم ، وإجزال العطاء لهم مثل مكين التّولة ابن أبي الحديد قاضي الإسكندرية أيام الأمر .

وكان الوزير الخطير والشاعر الأديب طلائع بن رزيك يعقد في منزله مجلسا في ليالى الجمع ، يجمع بعض جلسائه من المقرئين من الأدباء والشعراء والفقهاء ، ويضم هذا المجلس كثيرا من الشعراء المصريين وغيرهم كالمهذب بن الزبير وعمارة اليمنى والقاضي الجليس ، وأسامة بن منقذ ومجبر بن محمد بن مجبر الصقلی .

(١) الخطط ١ / ٤٨٥ .

موضوعات الشعر

وخاض الشعر في كثير من قضايا العصر ومشكلاته واهتمامات الدولة فضلا عن الموضوعات السائدة والتقليدية من مديح وغزل ورناء وهجاء ووصف ، كما كثر في هذا العصر حديث الشعراء عن صور مباحج الطبيعة ، وزينة الحياة ومسراتها من منازة وأعياد ، ووصف للروض والزهر ، والغناء والآلة ، والموسيقى والرقص ، وألوان المتعة .

وأول ما نعرض له حديث الشعراء عن الدعوة الفاطمية ، وما تناولوه في هذا الحديث من معان وتردد كثيرا في أشعار الدعاة وبعض شعر المديح لقادتهم وخلفائهم . وبعض هذه المعاني تكثر في شعر ابن هانيء الأندلسي في مدائحه للخليفة المعز لدين الله قبل مجيئه إلى مصر .

فإلى جانب الصفات العامة في المديح التي مدح بها ابن هانيء المعز لدين الله ونجده قد مدحه أيضا ببعض الصفات الدينية التي خلعها الفاطميون على أئمتهم فقد سمي المعز (وصي الأوصياء) : «

نُزِمَ وَصِيَّ الْأَوْصِيَاءِ وَدُونَهُ صُدُورُ الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتُ الْبَوَاتِلُ

وقد ذهب في هذا الشعر مذهبه الشعري في المبالغة — وكذلك قوله :

رَأَيْتُ أَنْ سَيُسَمَّى مَالِكُ الْأَرْضِ كُلِّهَا فَلَمَّا رَأَاهُ قَالَ : ذَا الصُّمْدِ الْوَتَرِ

وأرجح أنه لم يأت بلفظ الوتر إلا للقفائية ، ولو لم تكن القافية أتى بلفظ القرآن « الأحد - الصمد » .

وكذلك وصّف الإمام المعز بصفات الله تعالى التي وصف بها نفسه في القرآن كقوله :

مَا شِئْتَ لَا مَا شَاءَتْ الْأَقْدَارُ فَأَحْكَمُ فَأَنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ^(١)

ويقول الدكتور محمد كامل حسين : « قد يكون لابن هانيء بعض الأعذار في أنه مدح الإمام بمثل هذه الصفات ، فقد ذكرنا كيف نفى الفاطميون هذه

(١) الدكتور محمد كامل حسين — ديوان داعي الدعوة ، ص ١٦٠ ، طبع دار الكتاب .

الصفات عن الله تعالى ، وقالوا أنها صفات المبدع الأول الذى هو ممثل الإمام ، وهذا مدح ابن هانىء إمامه بصفات المبدع الأول الباطنية « (١) » .

وذكر ابن هانىء كثيرا من المعانى الفاطمية ومصطلحاتهم الباطنية التى جرت بها تأويلاتهم وعقائدهم ، كالتأويل وأصحابه ووجوب ستره ، وضرورة وجود الإمام فى كل عصر ، وأن الدنيا خلقت للإمام ، كما خلق الجسم للنفس ، وأنه معصوم إلى غير ذلك من الآقاويل « (٢) » .

وقد نهض بالحديث عن تلك المعانى والتبشير بها فى الشعر جماعة من شعراء الدعية وبخاصة « داعى الدعاة المؤيد شمس الدين » « (٣) » .

واهتم شعراء الفاطميين فى مدائحهم للخلفاء والقادة بإبراز جهادهم ضد أعداء الإسلام والملة من خوارج ، وروم وفرنجية ، وكان للعداء بين العباسيين والفاطميين دور كبير فى هذا الجدل الشعرى السياسى والدينى . يقول تميم ابن المعز ، وهو يرد على ابن المعتز فى ادعائه حق العباسيين فى الخلافة ووراثته النبى فى قيادة الأمة وهدايتها :

أتى رَسْمٌ لآلِ هِنْدٍ وَدَارٍ دَرْسًا غَيْرَ مَلْعَبٍ وَمَنَارٍ
يقول فيها ذاكراً الخليفة العزيز بالله أخاه :

هاشميٌّ إِذَا نَسَبْتَ وَمَخْصُو صَّ يَبِيْتُ مِنْ هَاشِمٍ غَيْرِ عَارٍ
أَحْزَلُ الْغَيْظِ فِي قُلُوبِ الْأَعَادِي وَأَحْلَى الْجَبَّارِ دَارِ الصَّغَارِ
ويقول مخاطبا العباسيين :

يَا بَنِي هَاشِمٍ وَلَسْنَا سَوَاءً فِي صِبْغٍ مِنَ الْعَلَا وَكِبَارٍ
إِنْ نَكُنْ نَنْتَمِي لَجَدِّ فَإِنَا قَدْ نَسَبْنَاكُمْ لِكُلِّ فَخَّارٍ
لَيْسَ عَبَاسُكُمْ كَمَثَلِ عَلِيٍّ هَلْ تُقَاسُ النُّجُومُ بِالْأَقْمَارِ

وركز شعراء الفاطميين على وصاية على ، وهللوا واكثروا من الحديث عن يوم « غدير خُحَم » الذى يعتقدون أن النبى ﷺ أوصى فيه لعلى رضى الله عنه ،

(١) دوان داعى الدعاة ، ص ١٦١ .

(٢) المصدر نفسه وراجع له كتاب أدب مصر الفاطمية .

(٣) سيرة الحديث عنه بعد .

وجعله من بعده إماما ولكن أبا بكر وعمر اغتصبا حقه — فيما يدعون —
وأشادوا بفضل يوم « غدير خم » فجعلوه عيدا كما ذكرنا وقللوا من شأن العباس ،
وأشاروا إلى أنه لم يكن سابقا إلى الإسلام كعلي ، بل جاء إسلامه متأخرا رغم ما
أشاع العباسيون من فضله ودوره .

ولا نريد الخوض في تفصيلات موضوعات هذا الشعر ، فقد سبق إلى تفضيل
الحديث فيه غيرنا .

ومن موضوعات شعر المديح للأئمة الخلفاء الفاطميين ووزرائهم وقادتهم
موضوع الجهاد والحروب ، فترى ابن هانيء يشيد بحروب المعز لدين الله في
أفريقيا ضد أعدائه حتى دانت له البلاد ، كما أشاد بحربه مع الروم ومناوئيه من
الأمويين ملوك الأندلس .

وكذا فعل تميم بن المعز في مديحه لأبيه وأخيه بمصر . يقول في أخيه العزيز
مشيرا إلى تصديه لحرب الخوارج والثائرين بالشام من الأتراك والحمدانيين
والقرامطة (١) :

نَهَضَتْ بِهَا إِذَا عَجَزَتْ كُلُّ نَاهِضٍ	وَمَزَنَ رِدَاهَا يَنْهَمِي وَيَصُوبُ
وَقَدْ حَلَّاتِ أَرْضَ الشَّامِ وَقَائِعًا	قَبَائِلَ مِنْ مُرَاقِبِهَا وَشُعُوبُ

ويقول فيها :

وَمَا حَارَبَتْكَ التُّرُكُ إِلَّا وَبَيْنَهَا	وَبَيْنَ الْبُهْدَى وَالْمَكْرُمَاتِ حُرُوبُ
وَمَا جَحَلُوا الْحَقَّ الَّذِي لَكَ فَضْلُهُ	وَلَكِنْ بِهِمْ عَنْهُ عَمِي وَهُرُوبُ
وَلَا يُصِيبُ حَوَائِرَكَ أَوْ رُجَا وَذَيْلُهَا	فَأَنْتَ إِمَامٌ لِلنَّبِيِّ نَسِيبُ

وعارض تميم ابن المعتز في القصيدة التي يدعم فيها حق العباسيين في الخلافة
ويقول مطلعها (٢) :

إِلَّا مَنْ لِنَفْسِي وَأَوْصَابِهَا	وَمَنْ لِدُمُوعِي وَتَسْكَابِهَا
--------------------------------------	----------------------------------

فيقول :

(١) ديوانه ص ٥٤ .

(٢) ديوان ابن المعتز .

وَرَامَ اللَّحَاقَ بِأَرْبَابِهَا
أَرْوُسَهَا مِثْلَ أَطْرَافِهَا
وَأَوَّلَ هَادِمِ أَنْصَابِهَا
فَخَلَّوْا الْمَعَالِيَ لِأَصْحَابِهَا
إِذَا أَبَدَتْ الْحَرْبُ عَنْ نَائِبِهَا
يَذُودُ الْكَتَائِبَ عَنْ غَايِبِهَا
بَيْنَ جِهَادٍ وَمَالِكٍ أَسْلَابِهَا
وَمُعْطَى الرَّغَابِ لَطْلَابِهَا
بِ وَفَتْحٍ مُقْفَلٍ آبِوَابِهَا
غَيْرِ الْمَقَالَةِ كَذَابِهَا
م ، وَيُحَكِّمُ تَنْمِيقَ أَذْهَابِهَا
وَلَكِنْ بَنُو الْعَمِّ أَوْلَى بِهَا
بَنُو الْعَمِّ ، أَنَّى لُغْصَابِهَا
أَتَعْمُونَ عَنْ نَصِّ إِسْهَابِهَا
ه ه وَقَاسَ الْمَطَايَا بِرِكَابِهَا (١)

أَلَا قُلْ لِمَنْ ضَلَّ مِنْ هَاشِمٍ
أَوَّسَاطُهَا مِثْلَ أَطْرَافِهَا
وَأَوَّلَهَا مُؤْمِنًا بِالْإِلَهِ
بَنَى هَاشِمٍ قَدْ تَعَامَيْتُمْ
أَعْبَاسُكُمْ كَانَ سَيْفُ النَّبِيِّ
أَعْبَاسُكُمْ كَانَ فِي بَدْرِهِ
أَعْبَاسُكُمْ قَاتِلُ الْمُشْرِكِ
أَعْبَاسُكُمْ كَوْصِي النَّبِيِّ
أَعْبَاسُكُمْ شَرَحَ الْمَشْكِلَ
عَجَبْتُ لِمُرْتَكِبِ بَقِيَّةِ
يَقُولُ فَيَنْظِمُ زُورَ الْكَلَامِ
(لَكُمْ حُرْمَةُ يَابَنِي بَنِيهِ
وَكَيْفَ يَجُوزُ سَهَامُ الْبَنِينَ
بِذَا أَنْزَلَ اللَّهُ آيَةَ الْقُرْآنِ
لَقَدْ حَارَفَ الْقَوْلَ عَبْدُ الْإِلَهِ

ويشير الشعراء إلى تحاذل العباسيين أمام أعداء الأمة الإسلامية ، وانصرافهم
إلى ضروب اللهو والعبث ، بينما الأعداء يتكالبون عليها من كل جانب على عكس
الفاطميين الذين نذروا أنفسهم للجهاد ، والتصدى للخارجين في كل مكان .
ويصور تميم بطولة العزيز في ميدان القتال ومناجزة الأعداء فيقول (٢) :

بِذَا لَهْمٌ دَارِعًا فِي الْعَجَاجِ
يَكْرُ وَيَسِيمُ فِي مَوْقِفٍ
وَلَمْ يَخْلُ السَّيْفُ مِنْهُ يَدًا
يَقُودُ إِلَى الْحَرْبِ مِنْ جُنْدِهِ
كَصَبْجٍ بِذَا طَالِعًا مِنْ دُجَى
مُصْبُوسِ الْكَمَاةِ بِهِ قَدْ يَدَا
وَلَمْ يَسْكُنِ الرُّوْعُ مِنْهُ حَشَا
أَسْوَدَ رِجَالِ كَاسِدِ الشَّرَى

ويقول في مناسبة أحد الانتصارات بالشام مفتخرا :

(١) يقصد بعبد الإله عبد الله بن المعتز .

(٢) ديوانه ص ١٠ .

وإِنَّا لَنَقُومُ نُرُوعُ الزَّيْمَانَ
وَمِنَّا الْإِمَامُ الْعَزِيزُ الَّذِي
سَعَى لِلشَّامِ وَقَدْ أَصْبَحَتْ
وَلَمَّا تَقَابَلَتِ الْجَحْفَلَاتُ
وَلَمْ يَبْقَ فِي الصِّفِّ مِنْ قَائِلٍ

وَلَسْنَا نُرَاعُ إِذَا مَا مَنَظًا
بِهِ عَادَ سَيْفُ الْهَيْدَى مُتَنَضًى
بِهَا الْحَرْبُ نَزَاعَةً لِلشَّوَى
وَعَادَ كَجَنَاحِ الظَّلَامِ الضُّحَى
هَلَمَّ وَلَا مِنْ مُجِيبٍ أَنَا

ويقول ذاكرة العزيز ومننددا بالبوهميين حكام بغداد (١) :

أَرَيْتُهُمْ وَقَعَاتِ تَزِيدُ
يَعْدَادَ مِنْ ذَكَرَهَا جَوْلَةً
فَأَنْفَسُ دَيْلِمَهَا تَغْتَدِي
إِذَا سَبَّحُوا بِالْإِمَامِ الْعَزِيزِ
يَخَافُونَ مِنْ بَأْسِهِ وَقَعَةً
يَنَادِي بُوَيْهَ بَنِيهِ بِهَا
وَقَدْ قَرَّبَ الْوَقْتُ فَلْيَاذُنُوا

عَلَى وَقَعَاتِ الدُّهُورِ الْأَلَى
تُذَوِّدُ عَنِ الْمَارِقِينَ الْكَرَى
وَتُؤَمِّسِي عَلَى مِثْلِ جَمْرِ الْعَضَا
أَسَاءُوا الظُّنُونُ وَحَلَّوْا الْخَبَا
تُذَوِّرُ عَلَيْهِمْ بِقَطْبِ الرَّحَا
وَيَنْدُبُهُمْ وَهُوَ رَهْنُ الْبَلَا
يُوشِكُ الزَّوَالُ وَسُوءُ الْقَضَا

وكذا يتكرر هذا المعنى ، في مديح الشعراء للخلفاء الفاطميين وهذا داعي الدعاة شمس الدين وقد جاء بعد تميم بن المعز بأكثر من نصف قرن من بلاد فارس ليمدح الخليفة المستنصر بالله ، ويدور في مديحه حول معاني ابن هانيء وتميم بن المعز ، وإن أمعن في ذكر عناصر العقيدة وبيان مكان الأئمة من الأمة ، ووجوب الطاعة على الرعية ، وضلال المخالفين المعاندين ممن ينكرون دعوتهم .

ومن ذلك قوله بولاية الفاطميين (٢) :

وَهُمْ أَوْلَا الْأَمْرِ أئِمَّةُ الْهَيْدَى
مَفْرُوضَةٌ طَاعَتُهُمْ عَلَى الْأَمَمِ
إِقْرَأْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ
ثَلَاثَ يَطَاعَاتٍ غَدَّتْ مَعْلُومَةٌ

عَصْمَةٌ مِنْ لَأَذَ بِهِمْ مِنَ الرَّدَى
قَاطِبَةٌ مِنْ عَرَبٍ وَمِنْ عَجَمٍ
ثُمَّ أُولَى الْأَمْرِ بِهِمْ مَوْصُولَا
فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ مَنْظُومَةٌ

وهو ترجمة لقول المعز لدين الله : « إِنَّ اللَّهَ قَدْ فَضَّلَنَا وَشَرَّفَنَا وَاخْتَصَّنَا وَاصْطَفَانَا وَاقْتَرَضَ طَاعَتَنَا عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَجَعَلَنَا أئِمَّةً عَلَى جَمِيعِ عِبَادِهِ » .

(١) ديوانه ص ١١ .

(٢) ديوان داعي الدعاة ص ٧١ .

ومنه تأويل بعض آى القرآن لصالح عِترَةِ النبی ﷺ كتأويلهم النجوم بأنهم أهله فى قوله تعالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم ، وإنه لقسّم لو تعلمون عظيم) (١) . فقال المؤيد بذلك فى شعره (٢) :

وبه فى القرآن قد أقسم الله هـ ، وحقّ بمثله الأقسامُ
إنّ معنى مواقع الأنجم الزُهر ير ، هم العِترَةُ الهداة الكرامُ

موضوعات الشعر التقليدية :

وطبعى أن تظل موضوعات الشعر التقليدية مجالا لقرائح الشعراء ، ويظل المديح على رأس تلك الموضوعات كثرة ، واهتماما من الشعراء ، لأن المحترفين منهم خاصة كانوا يعتمدون عليه لكسب أرزاقهم .

ومن هنا كان مديح التكسب أول درجات المديح ، وأعمه بين شعراء العصر وكل العصور المتعاقبة ، ومن بعده مديح التملق والقرى من الرؤساء ابتغاء الرضا والقبول ، ومنه مديح الصداقة والعلاقة بين الأدباء أو مديح الوفاء والرجاء .

وعلى رأس من مدحهم الشعراء خلفاء الفاطميين ، وكانوا يفهمون الشعر ويتلقونه ويمجزون عليه الجوائز السنية .

ومديح الخلفاء تدور معانيه حول معانى الإمامة الدينية ، وأحقيتهم فى وراثة النبى ، ومن بعد هذه المعانى الخاصة ، تأتى المعانى العامة التى اعتادها الشعراء فى المديح من الصفات الأخلاقية ، والسداد ، وحفظ الرعية ، والدفاع عن حوزة المسلمين وحماهم ، ومناصرة الدين والعمل على مُنافحة أعدائه ، والعدل فى الرعية ورعاية شئونهم ، وتوفير أسباب الطمأنينة لهم .

ومما خصّ به خلفاء الفاطميين من معانى المديح بلاغة المنطق ، وإجادة الخطب كإشارة تميم بن المعزّ فى مديح أخيه العزيز بالله ، بقوله :

(١) سورة الواقعة آية ٦٥-٧٦ .

(٢) ديوانه ص ٧٦ .

وقمت بهم في منبر المُنك خاطباً
وأفصحت حتى ليس لك مُفصيح
نُبشّر طوراً بالآله وثارة
ياناً ووعظاً قد تناهيت فيهما
وأثبت في الأسماع برهان حكمة
لأنك في بحر البلاغة مُعرق
بما لم يَقم ملك سواك فيخطب
وأسهيت حتى ليس لك أنسهب
تخوف من عصيانه وثرهب
كأنك لم يسبقك قس ويغرب
يُقصّر فيها من يقول فيطنب
وفي باحتي أرض النبوة مُنجب

ويركز تميم في مدحه لأخيه الخليفة على عروبه ، وأنه يتصدى لغير العرب من
الزنج والترك والديلم الذين كادوا للإسلام وأضروا بما ارتكبه من فتن وثورات .
يقول :

وما حازتلك الترك إلا وبينها
وما جحدوا الحق الذي لك فضله
فإن يصبحوا تركاً وزنجاً وديلمًا
ولكن بهم عنه عني وهروب
فأنت إمام للنبي نسيب

ومدح الشعراء كبار الدولة ، وقادة جندها ووزراءها .
وكان يعقوب بن كلس من الممدحين ، مدحه كثير من شعراء العصر ، يقول
أبو الرقعمق :

لم يدع للعزیز في سائر الأر
ولهذا اجتباہ دون سواه
لم تُشيد له الوزارة مجداً
بل كساها وقد تُخرمها الذهب
هكذا كَل فاضل : يد تُنسب
فاستجره فليس يأمن إلا
ض عدوا إلا وأحمد نارة
واصطفاه لنفسيه واختارة
لا ولا قبل رفعت مقداره
سر وكذ الخطوب بالبدل غارة
سى وتضجى نفاعه ضرارة
من تفتيا بظله واستجارة

ومن موضوعاته التقليدية الهجاء ، وتناول الشعراء بالسنتهم رجال الدولة الكبار
وبعض الموظفين ، والقائمين بأعمال إدارية كالقائمين على تحصيل المكوس
الخماسين وغيرهم . كما تهاجى بعض الشعراء . من ذلك هجاء الشاعر عبد الودود
القرطبي في ابن قادوس الدمياطي (١) :

(١) خريدة القصر ١/ ٤١٥ بتحقيق عمر الدسوقي .

تسل فلأيام بشر وتعييس
فلا الثعنى تدوم ولا البوس
وهى قصيدة طويلة يقول فيها :

وقالوا ابن قادوس تقدس اسمه
ومن هو قادوس، فلا كان قادوس
أيا من غدا ضدا لكل فضيلة
ونجمه في طالع السعد منكوس

ويعد الواساني من أشهر الشعراء الهجائيين في العصر . وهو شامي يشبه في هجائه ابن الرومي لكثرة تعريضه بالعمرات ، فقد هجا الوزير المصري منشأ الذي عينه الخليفة العزيز بالله مستولاً عن أعمال دمشق والشام فضائق الناس . وكان منشأ هذا يهودياً ، كرهه أهل الشام وناووه حتى اضطر العزيز إلى عزله ، قال الواساني (١) :

إن منشأ قد زاد في التيه
ولا ابن هيد ، ولا ابن ذى يرن
وهو مغبط على الوصى ومن
يذكر أيام خيسر بهم
وزاد في شامنا تعديه
ولا ابن ماء السما يدانيه
يعزى إليه ومن يواليه
وهم قد جال في مآقيه

وهجا بعضهم القضاة لجورهم في الأحكام أو ميلهم مع الهوى ، أو تقاضهم الرشوة . قال أبو الشرف الدجرجاوى (٢) :

قاض إذا انفصل الخصمان ردهما
يلى الزهادة في الدنيا وزخرفها
مهلل الدهر لا في وقت هيلة
وما أسميه لكنى نعت لكم
إلى الخصام بحكم غير منفصل
جهراً ويقبل سرّاً بعة العجل
ويلزم الصمت وقت القول والعمل
نعتاً أدلكم فيه على الرجل

ومن الشعراء الهجائيين الحسين بن بشر (٣) :

واكثر من هجاء الوزير يعقوب بن كلس ، وعرض برفع العزيز للنصارى وأهل الكتاب بمشورة وزيره . يقول :

(١) بتيمة الدهر ١/ ٤١١ .
(٢) الخريدة ٢/ ٦٦ (قسم شعراء مصر) .
(٣) الرائق بالوفيات ١٢/ ٣٤٣ .

تَنْصَرُّ فَالْتَنْصَرُّ دِينَ حَقُّ عليه زماننا هذا يدل
فيعقوبُ الوزيرُ أبَّ ، وهذا الـ عزيزُ ابنِ ، وروح القدسِ فضلُ

الوصف :

والوصف هو أقرب موضوعات الشعر إلى الفن ، وإلى روح الشعر .
ففيه تتجلى أحاسيس الشاعر ، ومواقفه من الأشياء ، وتذوقه لمجالي الجمال في الطبيعة .

وحظيت بعض منارة القاهرة ومعالمها ، بل معالم مصر شمالا وجنوبا ومشاهد الطبيعة ، وعناصر حسناتها وبنائاتها بقدر كبير من اهتمام الشعراء ، وتجليات قرائحهم .

يأتى النيل ومناظره ، وشواطئه ، ومهرجان وفاته وكسر الخليج في مقدمتها .
قال تميم بن المعز (١) :

نظرتُ إلى النَّيلِ في مَدَّه بموجٍ يزيدُ ولا ينقصُ
كَأَنَّ معاطِفَ أمواجِهِ معاطِفَ جارِيَةٍ تَرْقُصُ
ويقول (٢) :

يَوْمَ لَنَا بِالنَّيْلِ مُخْتَصَرُ ولكلِّ يومٍ مَسْرَةٌ قِصْرُ
وَالسَّفْنُ تَصْعَدُ كَالنُّحْيُولِ بِنَا فِي مَوْجِهِ وَالْمَاءُ ، يَنْحَلِرُ
فَكَأَنَّمَا أَمْوَاجُهُ عَكَنُ وَكَأَنَّمَا دَارَاتُهُ سُرُرُ

وجدير بالملاحظة احساس المتعة في شعر تميم ، وربطه لذة المتعة بالنيل بلذة النساء في مجالها ، فيشبه موج النيل بمعاطف الجارية الراقصة وبجسد المرأة عارية ، وما يجتذب مرأى الرجل فيه من متعة جسٍّ ؛ عكن وسُرر .

ويصف مشاهد النيل في حلوان فيقول (٣) : (يصف نزهة في مركب نيلي بحلوان) :

(١) ديوانه ص ٢٥٥ .
(٢) ديوانه ص ٢٤١ .
(٣) ديوانه ص ٣٢٤ .

ياحبذا خلوان فالتليل
رحت ومركبي به أدهم
كأنه في النيل زنجية
والنيل في روتق شمس الضح
حتى إذا ما درجته الصبا
فهو لمن أبصره جوشن
أو حبك ترصيعها جوهر
ربع بحسن اللهي مأه
على جناح للريح محمول
ها من الموج أكابل
سى سيف صيقل والتن مسلول
ماج منه العرض والطول
على مهاد الأرض مسلول
مبدد فيهن محلول

ومن الشعراء الوافدين من المغرب أو المشرق من وقف أمام نيل مصر معجبا
كالفقيه أبي الفضل يوسف المعروف بأبن النحوى (ولد سنة ٥١٣ هـ) .
قال (١) :

أين مصر وأين سكان مصر
حدثاني عن نيل مصر فأبني
رق قلبي حتى لقد جُدت للقي
ما ترائي أبكي على كل ربع
روشن من رواشن (٢) النيل خير
ومن القصر قصر شداد ذلك المش
إن مصرا لها معان لعمرى
هذه الأرض إنما هي را
بيننا شقة التوى والبياد
منذ فارقه إلى الماء صادي
ه عين أيدي الزوار والعواد
ما ترائي أهيم في كل وادي
يعد من دجلة ومن بغداد
رف المرتقى ، ومن سيناد (٣)
قد تأبث على جميع البلاد
د البكا حاجتي إلى الاستعاد

ويبدو النيل أجمل وأبهى في أيام الإحتفالات والمناسبات والأعياد ، وفي يوم
الاحتفال بوفاء النيل ، وكسر الخليج والمهرجان . ووصف الشعراء هذا فقال أمة
بن أبي الصلت يوم المهرجان واحتفال الوزير الأفضل بن بدر الجمالي له فقال ،
وكتب بها إلى الوزير (٤) :

أبدعت للناس منظراً عجبا
جمعت بين الضدين مقتبرا
لازلت تُحيي السرور والطربا
فمن رأى الماء خالط الالها

(١) خريدة القصر قسم شعراء المغرب ١ / ٤٠٦ .

(٢) الروشن : الشقة .

(٣) شداد ملك من ملوك الين بنى قصرا مشهورا في التاريخ وأما مستاد فقصر عظيم كان بالكوفة .

(٤) الخريدة ١ / ٥ قسم شعراء المغرب تحقيق عمر الدسوقي وعبد العظيم .

كَأَمَّا النَّيْلُ وَالشُّمُوعُ بِهِ أَفْقَى سَمَاءٍ تَأَلَّفَتْ شُهُبًا
قَدْ كَانَ مِنْ بَفْظَةِ فَصِيرِهِ تَوَقَّدَ النَّارِ فَوْقَهُ ذَهَبًا

ويسجل الشاعر هنا منظر النيل وقد أوقدت على شواطئه الشموع ، واحتفى الوزير فأوقد من الشموع على شاطئه ما تلالأت أضواؤها على مياهه ، فبدت سماعا تناثرت فوقها الشهب .

وكان الخلفاء والوزراء في مصر أيام الفاطميين يحتفلون بيوم كسر الخليج . قال المقرئ (١) : « يجلس الخليفة في خيمته الكبيرة غربي النيل قرب قنطرة السكرية ويتقدم إليه أحد رجاله ويسمى النائب فيقدم الشعراء حسب منازلهم ، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة في الإنشاد . وفي إحدى تلك المناسبات تقدم شاعر يقال له ابن جبر وأنشد :

فَتَحَّ الْخَلِيجُ فَسَالَ مِنْهُ الْمَاءُ وَعَلَتْ عَلَيْهِ الرَّأْيَةُ الْبَيْضَاءُ
وَصَفَتْ مَوَارِدُهُ لَنَا فَكَأَنَّهُ كَفَّ الْإِمَامُ فَعَرَفَهَا إِعْطَاءُ

فانتقد الناس عليه في قوله : « فسال منه الماء » ، وقالوا : أى شيء يخرج من البحر غير الماء ؟. فضيغ ما قاله بعد هذا المطلع .

وتقدم شاعر يقال له مسعود الدولة بن جرير ، وأنشد :

بَارِزًا هَذَا السَّدُّ يَنْظُرُ فَتَحُهُ إِذَنْ الْخَلِيفَةُ بِالنَّوَالِ الْمُرْسَلِ
حَتَّى إِذَا بَرَزَ الْإِمَامُ بِوَجْهِهِ وَسَطًا عَلَيْهِ كُلَّ حَامِلٍ مِعْوِلِ
فَجَرَى كَأَن قَدْ دَيْفَ فِيهِ عَنَبٌ يَعْْلُوهُ كَافُورٌ بِطَيْبِ الْمُنْقَلِ

فانتقدوا عليه أيضا قوله في البيت الثاني ، وقالوا أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه ، وإن كان يقصد فتح السد ، بالمعاول ، لكن نظمه كان قلقا . ثم تقدم شاعر شاهد يقال له كافي الدولة أبو العباس أحمد وأنشد قصيدة شهد له جماعة منهم القاضي الأثير ابن سنان ، فإنه عملها بحضوره بديها :

لَمَنْ اجْتَمَعَ النَّاسُ فِي ذَا الْمَشْهَدِ لِلنَّيْلِ أَمَّ لَكَ يَا ابْنَ بَنَاتِ مُحَمَّدٍ
أَمْ لاجْتِمَاعِكُمَا مَعًا فِي مَوْطِنٍ وَافِيَّتِمَا فِيهِ لِأَصْدَقِ مَوْعِدِ

(١) الخطط ١ / ٤٧٨ .

ليس اجتماع الخلق إلا للذي
شكروا لكل منكم لوفائه
ولئن إذا اعتمد الوفاء فقبله
هذا يفي ويعود ينقص تارة
وقواه إن بلغ النهاية قصرت
فالآن قد ضاقت مسالك سعيه
فاذا أردت صلاحه فافتح له
وأمر بفصيد العرق منه فمأشكا
واسلم إلى أمثال يومك هكذا
فأمر له على الفور بخمسين دينارا ، وخلع عليه ، وزيد بجارية .

ومن مشاهد الطبيعة المصرية التي حظيت باهتمام شعراء العصر بركة الحبش (١) . وما اهتموا به بعض الأديرة ، وكان موضوع الأديرة ، وما حولها من منازة وبساتين وما فيها من شراب ، وما يدور من احتفالات دينية .

كان هذا كله يستهوى شعراء العصر كما استهوى الشعراء في بغداد وغيرها من البلاد العربية . ومن أشهر الأديرة التي نالت حظوة الشعراء واستأثرت بقصائد عبرت عن مناسبات مختلفة لهم فيها « دير القصير » بالمقطم قرب الفسطاط (٢) . قال الشاعر محمد بن عاصم الموقفي من شعراء اليتيمة (٣) :

إن دير القصير هاج أذكاري
وزماناً مضى حميداً سريعاً
عرفتني ربوعه بعد تكرر
ولو أن الديار تشكو اشتياقاً
ولكادت نحوى تسير لما قد
وكأني إذ زرته بعد هجر
إذ صعودي على الجياد إليه
هو أيامي الحسان القصار
وشباباً مثل الرداء المعاري
فعرفت الربوع بالإنكار
لشكت جفوتي وبعد مزار
كنت فيها سيرت من أشعاري
لم يكن من منازل ودياري
وانحداري في المصعدات الجواري

(١) راجع ما جاء عنها في الجزء الأول من الكتاب .

(٢) راجع ما جاء عنه بالجزء الأول من الكتاب .

(٣) يتيمة الدهر ١ / ١٢ .

بصقورٍ إلى الدماءِ صَوَارٍ
منزلاً لستُ محصياً ما لِقَلْبِي
منزلاً في علوه كسَمَاءِ
كم خلعتُ العذار فيه ولم أر
كم شربنا على التّصاوِيرِ فيه
صورة من مصوّرٍ فيه ظلت
أطربتنا من غيرِ شِدْوٍ فأغثتُ
لا وحسنِ العينينِ والشّفةِ اللَّمبِ
لا تخلفْتُ عن مزارِي دِيراً
فسقى الله أرضَ حُلوانٍ فالتخل
كم تنهتُ من لذّاذةِ نومي
والنواقيسِ صائحاتٍ تُنادِي
قبل أن يُبْلَى الجديّدُ الجديبِ
إنما هذه الحياةُ عواري

وكلابٍ على الوحوشِ ضواري
ولنفسِي فيه من الأوطارِ
والمصاييحِ حوله كالدراري
عَ مَشِيّاً بِمَفْرِقِ المِسطارِ
بصغائرِ مَحْثُوثَةٍ وَكِبَارِ
فتنةً للقلوبِ والأبصارِ
عن سَمَاجِ العِيذَانِ والمِزمارِ
سَاءَ منها وَخَدَّهَا الجُلنارِ
هي فيه ولا نأى لي مزارِي
فديرَ القَصِيرِ صوبَ العِشارِ
بنعيرِ الرُّهبانِ في الأسْحارِ
حَتَّى يَانائِمَا على الابتكارِ
سَدَ بَلِيلِ مُعَاقِبِ بِنَهَارِ
وعلى المستعيرِ رَدُّ العَوَارِي

والقصيدة هنا حُلم يقظة يسترجع فيها الشاعر أوقاتاً سعيدة له قضاها بدير
القصير ، مستعرضاً مشاهد متعته به وبرحلته إليه ، وما كان يفعله من تصيد
بالخيول والطير الضواري وكلاب الصيد في تلال المقطم ، والحداد إلى النيل مصعداً
إلى حلوان على الجوارى السابحات ، أو تنزه بمنازه حلوان وبساتين النخيل من
حولها .

ونخصّ بالحديث الدير ، فوصف وضعه مشرفاً على مكان عالٍ : « منزلًا في
علوه كسَمَاءِ » .

ويسترعيه ضوء المصاييح من حوله تبدو كالدراري أو كالنجوم .

فالبصيرة التي يرسمها له مقبلاً عليه ، تستدعي صورة السماء بنجومها ،
فالسَّماء للعلو والرفعة ، والنجوم للمصاييح المتألّكة حوله أو تغل أنوارها من
منافذه ويسترعيه من جَنّاته وبساتينه صوت الطيور ، واعتماده أصوات الطيور
لبعث الإحساس بالبساتين والشجر من حوله تحوّل بمخاطبة الوجدان ، أو تمثّل
مشاهد الجمال من مدارك البصر إلى مدارك السمع ، ويستخدم اللفظ المناسب

للطير تعبيراً عن الأثر النفسى فيقول : « فطارت بفؤاد المقيم المستطار » وإن بدت في تراكيبه وأبنية لفظة بعض الكلفة .

وينتقل إلى داخل الدير ، وما كان يفعله من تحرر من قيود الحياة وتكاليف العمر ، فهو قد غادر سن الشباب ، سن المتعة ، والأخذ بأسباب الحياة ، إلا أن الدير وما فيه من مغان قد استفزه ، وعاد به إلى الشباب فخرج عن ثوب الشيب ليعود من جديد إلى حياة الشباب ، اللهو ، والشراب والمتعة .

ويصف الشراب ، ويعود إلى مشاهد البصر فيسترعيه التصاوير على جدران الدير ، وتفتنه الصور ، وصنعة المصور فيقف أمامها وقفة مستمل مستمتع بهجة الجمال الذى يطرب صامتا ، وهنا يمزج بين فتنة البصر وفتنة السمع :

« أَطْرَبْنَا مِنْ غَيْرِ شَدْوٍ فَأَغْنَتْ عَنْ سَمَاجِ الْعِيدَانِ وَالْمَزْمَارِ »

ومضى الشاعر فى وصف صور الدير :

ولا وحوير العينين والشفة اللّيب ساءٍ منها وخجّها الجُلناري
لا تخلفْتُ عن مزارى ديراً هى فيه ولا نأى بى مزارى

ويدعو لهذا الدير وما حوله من منازة حلوان بالخير ، لأنه أسعده فى حياته كثيرا ، فكم تنبّه من نومه على صوت الرهبان يرتلون بالأسحار وصوت النواقيس تفرع فى البكور .

ويحتتم بتذكر آنية الحياة ، وقصر العمر ، وأن تعاقب الزمان بآتيه الليل والنهار سيختم هذه العارية ، وتعود الحياة إلى بارئها :

إنما هذه الحياة عوارٍ وعلى المستعير رَدُّ العواري

وهذه القصيدة الوصفية لدير القصير جنوبى القسطنطينية تمثل نموذجاً فذاً فى هذا اللون الوصفى ، فقد نفّض الشاعر فيها أحاسيسه واجترّ ذكرياته وانطباعاته ، ثم ارتد بعدها إلى نفسه ليعبر عن آنية الحياة ، ذلك الإحساس الذى يؤزق الإنسان — كل إنسان على الأرض .

وهذا الدير قديم ، يقول عنه الشابشتى :

« دير القصور قرب حلوان ، هو على رأس جبل مشرف على النيل ، وغاية في النزاهة والحسن ، وفيه صورة السيدة مريم ، وفي حجرها المسيح ، كان خماروية بن أحمد بن طولون يكثر غشيانه للشرب على الصورة . وقد أمر الحاكم بأمر الله بهدمه لكثرة ما يقع بالدير من آثام !! » .

وصف مباحج الفاطميين وقصورهم :

ومن ذلك وصف مواكب الخلفاء في الأعياد ، وكانوا يحتفلون بها ، ويكسبون الأعياد مظاهر البهجة والأنبة تتجلى في قول تميم بن المعز يصف موكب الخليفة العزيز بالله يوم عيد الفطر من قصره إلى المسجد لصلاة العيد . يقول (١) :

هنيئاً لك العيد الذي أنت بالرضا	من الله للمرضييك فيه بشير
برزت كبدٍ التَّمَّ تقدَّم جَحْفلاً	تكادُ به الأرضُ الفضاءُ تمورُ
فلليضي برق في أعاليه خاطفٌ	وللأسد ركضٌ تحتها وزفير
كأنَّ الدُّرُوعَ السابغاتِ عليهمُ	لما ألقوها سُندسٌ وحرير
وقد منحوكَ اللَّحْظَ من كلِّ جانبٍ	وكلهم صافى الضمير شكور
فمن مُقلَّةٍ منهم عليك حبيسة	ومن أصبح منهم إليك تُشير
ولو نطقت أحجار أرضٍ لسلَّمتْ	عليك المصلِّي أو أثَّرتْ تسيّر
قلماً بلغت المنبر الطاهر الذي	له بك فضل لا يُنال كبير
تواضعت للرحمن ثم علوته	خطيباً، وكلَّ اللَّحْظِ عنك حسيّر
وأسهبت في حمد الإله بخطبة	تفجَّر منها للصواب بحور

ومن الموضوعات الشائعة في الشعر وصف مظاهر الترف المادى في قصور الخلفاء ، وما على جدرانها من صور تمثل اهتمام الفنان المصرى برسم وتصوير مشاهد الحياة والناس ، في تشكيل ممتع يعث المسرة في النفوس .

يقول عمارة اليمنى (٢) في وصف الصور والتماثيل ، ويديع الزخرف في قاعات أحد قصور بني رزيك ، مخاطباً صاحبه :

أنشأت فيها للعيون بدائعاً	رُفَّتْ، فأذهل حُسْنُهُما من أبصر
فمن الرخام مسيراً ومُسَهَّماً	ومنمنماً ، ومدرهماً ، ومُدُنْراً

(١) ديوانه ص ١٤٣ .

(٢) النكت العصرية ص ١٠٣ .

العاج بين الآبنوس كأنه
قد كان منظرها بهيجاً رائقاً
ألبستها يعض السيور وجرها
فمجالس كسيت رقيماً أبيضاً
لم يبق نوع ، صامت أو ناطق
فيها حدائق لم تجدها ديمة
والطير قد وقعت على أغصانها .
لا تعدم الأبصار بين مروجها
أنست نواقر طيرها بسباعها
وبها زرافات كأن رقابها
نوبة المنشأ ثريك من المها
جبلت على الإغناء من إعجابها

وبريك عمارة في هذا التسجيل الشعري لقصر آل رزيك ما جمع القصر من
حدائق وحيوان . ويستريحه الزراف بخلقته الغريبة التي تجمع بين الغزلان والثور .

وصف الغناء والموسيقى :

ولاهتمام الفاطميين بالسماع والطرب ، وإقبال الناس في أعيادهم ومناسباتهم
السارة على الموسيقى والغناء ، ترددت في الشعر صور مجالس الغناء وآلات الطرب
وصور المغنين والمغنيات . وأكثر تميم بن المعز من ذكر مجالس الغناء والمغنى
(وكذلك فعل الشريف العقيلي) .

وظهر في هذا العصر الفاطمي في مصر ضرب من الغناء عُرف « بالزكاش »
كان يُتغنى فيه بالنظم العامي من مثل :

فديتك أين ما قد كنت قلتي أخلتي عن مودتنا وزلتى
وقد غنى به المغنون تميم بن المعز^(١) ، كما نظم هو لهم للغناء فيه . وما قاله أحد
الشعراء في وصف غناء مغنٍ^(٢) :

(١) ديوانه ص ٨٥ .

(٢) الخريدة « قسم شعراء المغرب » ١ / ٦٠ .

إذا غنى يُزيّل الهمَّ عنا ويأتينا بما نهوهُ منه
له وتر يطالبُ كلّ همٍّ بوترٍ ، فالهمومُ تفرُّ منه
ويتصل بالغناء وصف آلات الطرب كالعود ، والناي ، والمزهر ، والطبل ،
والدُف وما إليها .

فكما وصف به تميم العود قوله^(١) :

شكا العودُ بالأوتار شجواً فأطربا وترجم عن معنى الضمير فأعربا
فلم أر شاكٍ مثله بثّ شجوهً فافرح محزوناً وفكّ مُعذباً
وقال أيضاً^(٢) :

وقد حكى العودُ أنينَ الهوى لكنه جودٌ لمّا حكى
وقال^(٣) :

فلما استوى نطقُ أوتاره حكى نقرها حسن لفظ الحبيب
تجسّ الأنامل « دُستانه »^(٤) كما جسّ عرق العليل الطيب
فيسبغنا حركات السرور ويكشف عنا بنات الكروب
ومما قاله في الناي ، وهو يحاور المزهر في جوق الموسيقى^(٥) :

أما ترى كيف نادى النايُ مزهره وأذن الطبل : اللّهُو للغزل
والنّاي يشكو إلى عَجَلِك ضبابته شكوى المحب إلى المحبوب في مهل
كأنّ ضجة صوب الطبل بينهما ضجيج عزّ أرى المتصور في الثول

ولكلّف بعض شعراء العصر بالغناء والموسيقى بكاءً بوصف مجالسه قصائد
المدح على غير عادة شعراء العرب ، وربما كان هذا الاتجاه منهم تطوراً لاتجاه
بعض شعراء بغداد في عصر العباسيين من أمثال ألى نواس يبدء قصائدهم
بوصف الخمر ومجالس الغناء .

(١) ديوانه ص ٤٩ .

(٢) ديوانه ص ٣٠٤ .

(٣) ديوانه ص ٧٤ .

(٤) الدسات مجتمعت أوتار العود في عنقه .

(٥) ديوانه ص ٣٢٤ ، والحنك — فارسي اسم آلة موسيقية .

ولم يتحرج تميم بن المعز وهو الأمير الشاعر من بدء قصائد المديح لوالده المعز لدين الله ، وأخيه الخليفة العزيز بالله بذكر الغناء ومجالسه . والتخلص تخلّصا لطيفا ليربط الغناء بالمديح ، كما كان يتخلص الشعراء من النسيب والغزل إلى ذكر الممدوح في المديح التقليدي .

وكما أنهم أعجبوا بالغناء الجميل ، من المطرب المجيد المتقن صاحب الصوت الطلي المعجب ، ضاقوا بغناء غير المحسن الذي يتصدى للغناء دون صوت طلي ، ولا صورة تريخ السامعين .

يقول الشاعر الصقلي^(١) :

ومغنٌ لو تغنّى	لك صوتين لمّا
سمجُ الخلقة غث	ينحتُ الآذانُ نحتًا
ويغنى ما انتَهَاهُ	لا يغنى ما أَرَدْنَا
كلّما قال : اقترح	قلتُ : اقترّجى لو سكنا!!

والشاعر يجيد التعبير عن جفاء غناء هذا المغنى ، وقبح وقع صوته على الآذان بقوله « ينحت الآذان نحتا » .

ويقول في مغنٍ قبيح :

غنى كمن قد صاح في خايته	لا وهب الله له العافية !
ما أحدٌ يسمعه مرة	فيشتهي يسمعه ثانية

ويقول :

ومغنٌ نحن منه	بين أسقامٍ وكره
يضربُ العودَ ولكن	ضربه يُوجبُ ضربه

يصف أمية بن أبى الصلت (الحكيم) أحد المغنين بمجودة الغناء وقبح الوجه فيقول :

مُسمِعنا ما في الزمان له نِدْ	ولكنّه في قبح صورته قِرْدُ
تباينُ حاله ، فهنا بهذه	إذا ما سمّت حالَ تحيفها الصّدْ

(١) هو أبو عبد الله الطوسي . الخريدة قسم شعراء المغرب ١ / ٦ وذكره المسبّحي ممن لقهم من الشعراء بمصر .

وَيَطْرِفُ طَرْفِي حِينَ يَلْحَظُ وَجْهَهُ
تَعَادَلُ مَرَاهُ بِإِحْسَانٍ فِعْلُهُ
لَهُ وَبِنَعْمَةٍ سَمِعِي دُونَهُ عِنْدَمَا يَشْدُو
كَفَاءً، فَلَا تَخْسِ يَدُومَ، وَلَا تَسْعُدُ

ويتصل بالغناء ، والموسيقى الرقص . يقول الشاعر في وصف راقصة (١) :

وراقصة كالغُصْنِ مِنْ فَوْقِهِ
تُلْهَبُ مِثْلَ النَّارِ فِي رَقْصِهَا
بَذَرٌ يُنِيرُ تَحْتَ ظِلْمَاءِ
وَهِيَ مِنَ النُّعْمَةِ كَالْمَاءِ
كَأَنَّمَا فِي رِجْلِهَا عُودُهَا
سَاحِرَةٌ الرِّقْصِ غَلَامِيَّةٌ
إِذَا بَدَتْ تَرْقُصُ مَا بَيْنَنَا
يَرْقُصُ قَلْبِي بَيْنَ أَحْشَائِي

ومن علامات الذوق المترف ، المتملى لمعانى الحياة وزيتها الاهتمام بالزهر على اختلاف أشكاله وألوانه ، فقد عنى الشعراء بالزهر ووصفوه ، وأعجبوا بحسن كل نوع منه وصوروه .

يقول تميم بن المعز يصف الزهر المتعدد الألوان من بنفسج ورنجس وورد في بستان وقت الربيع (٢) :

لِعَمْرِكَ إِنَّمَا الدُّنْيَا عُرُوسٌ
بِنَفْسِجُهَا وَرَنْجِسُهَا وَوَرْدٌ
جَلَاها الْغَيْثُ مِنْ تَحْتِ النَّقَابِ
خِضَابٌ فِي خِضَابٍ فِي خِضَابٍ
ويقول في البنفسج وقد اهدى إليه أخوه العزيز باقة منه (٣) :

مُدَّ الْعَزِيزُ يَمِينَهُ بِنَفْسِجٍ
فَكَانَ زُرْقَتَهُ عَلَى مُحَمَّرِهَا
وَبُورْدَةٍ مَقْطُوعَةٍ لَمْ تُنْهَجْ
أَثَرٌ يَحْسُدُ نَاعِمٍ مُتَضَرِّجٍ

وقال في السوسن من أبيات بعث بها إلى أخيه العزيز ومعها سنبله وسوسن أحمر :

إِنِّي بَعَثْتُ طَرِيفًا وَهِيَ سُنْبَلَةٌ
وَسُوسَنًا تَمَّ مَرَاهُ وَخَبْرَةٌ
تَمَّتْ، فَتَمَّ لِرَائِيهَا الْأَعَاجِبُ
فَقَدْ تَكَامَلُ فِيهِ الْحُسْنُ وَالطَّيِّبُ
كَانَ مِعْصَمُهُ بِالْكَفِّ مُتَّصِلٌ
لَهُ بَنَانٌ مِنَ الْجَنَائِ مَحْضُوبٌ

(١) النخيلة قسم شعراء المغرب ص ٦٠ .

(٢) ديوانه ص ٥٨ .

(٣) ديوانه ص ٨٠ .

وقال يصف الياسمين والخُرْم (١) :

وأصفر من ياسمين الرياض يلوح على زُرقة الخُرْم
فشبت هذا بالسَّما بدت في صفار من الأنجم
أو الشرر المستتر الذي تطاير عن قسب مُصرم
ويصف زهر النيلوفر على بركة وقد طفا يسبح مزهوا :

وبركة تزهر بنيلوفر نسيمه يشبه نشر الحبيب
مفتوح الأجفان من نومه حتى إذا الشمس دنت للمغيب
أطبق جفنيه على خده وغاص في البركة خورف الرقيب
وذكره وقد امسكت به فتاة وأشارت إليه مُداعبة (٢) :

ياحبذا ثومي بنيلوفر قد ركبته فوق عناية
نشمه طورا وأرواحها على رباح التور غلابه
فقلت: نيلوفره هذه! أم بفرادي أنب لها به!؟

شعر المطاعم والدعوة إلى الطعام :

وظهر بصورة واضحة في شعر العصر الوصف للطعام بألوانه ، والدعوة للمآذب ، ويحكي الشريف العقيلي في شعره صورا لألوان من الطعام وأوصاف لمآذبه ، والدعوة إليها على نحو لا نجد في شعر من سبقوه .

وللأسنان قصيدة فكاهية طويلة نادرة يصور فيها دعوة على الطعام ، ويرسم كيف جاء المدعوون في هيات مضحكة ، وكيف تناولوا طعامه ، فجاءوا على ما كان أعدّه ، وكل قد بدا متحفزا للوليمة يطعم منها ، وما أعد بها من شراب ، وألوان شواء .

وكانت هذه القصيدة الفريدة بمناسبة عقد قران . يقول في ختامها :

لم يكن القران إلا على شؤ مي، فويل من نحس ذلك القران

(١) الخُرْم نبات كاللوز له ورق قبل العرض يتفجى اللون ، وله رائحة حسنة .

(٢) ديوانه ص ٤٩ .

واعجبت الثعالبي أبيتها فقال : « قد أحسن في هذه القصيدة غاية الإحسان ، وأبان فيها عن مغزاه أحسن بيان ، وتصرف فيها وأطال وأمكنه القول فقال » (١) :

من لعيني تجمد بالهملان
يا خيللي أقصيرا عن ملاهي
ولقلب مدله ولهان
وارثيا لي من نكيتي وأرحماني
يقول فيها :

ما الذي ساقنى الحينى إلى حتفى ؟
من عذيري من دعوة أوهنت عظمي ،
وما عالى ، وماذا دهاني
وهدت يوليها أركانى
ويقول :

كان عيشي صافيا فكدره أهـ
فارتوا لي يا مغشّر الناس من ضرى ،
ضرب البوق في دمشق ونادوا
هل سمعتم بمعشر جمعوا الخيل
رحلوا من بيوتهم ليلة المـ
لست أنسى مصيبتى يوم جاءوني
وردوا ليلة الخميس علينا
يقدم القوم هاشمي هريث الشـ
هو نمس الدجاج والبط والإوز ،
سل صفائ بنو ألى صفوان
ومن طول عطلتى وامتحاني
لشقاى في سائر البلدان
وساروا في الرجل والفرسان
فع من أجل أكلة مجان
وقد غص منهم الواديان
في خميس ملء الربا والمخاني
سدى رحب المعى ، طويل اللسان
وذئب النعاج والخرفسان

واهتم الشعر بجوانب الحياة الجادة ، وهوومها وصراعاتها .

ومن جاد الموضوعات في الشعر نقداً للحياة والمجتمع ، وتناول بعض قضايا العقيدة من الجوانب الفكرية والفلسفية . وظهر أبو العلاء المعري مبرزاً في هذا الجانب في القرن الخامس الهجرى ، فكان شعره سجلاً لأفكاره وآرائه في الحياة والناس والدين والمجتمع ، والسلوك والأخلاق . ويقول محمد كامل حسين (٢) : « فالمعري في ديوان اللزوميات ليس بشاعر ، وإنما هو ناظم صاغ آرائه في قالب الشعر ،

(١) يتيمة الدهر ١ / ٤٢٤-٤٢٥ .

(٢) ديوانه المؤيد ص ١٥ المقدمة وراجع حديثنا عن أبى العلاء بعد

والتزم فيه ألوانا من القوافي وضروب الوزن ، فكان تقيده بما لا يلزم ، وما حمل
ألفاظه من آراء علمية وفلسفية سببا في أن يبعد ديوان اللزومات عن دائرة الشعر
الخالص ويجعله أقرب إلى النظم منه إلى الشعر .

ومن موضوعات شعر العصر غير التقليدية وصف الرسائل وتقريظها فمن
ذلك قول ابن أبي الصلت في رسالة بعث بها إليه أحد أصدقائه —
أبو الضوء^(١) :

أبا الضوء وإفاني كتابك يزدهي به التثر من تلك البلاغة والنظم
كتاب لو استدعى به العصم قانص لم استعصمت من أن تخجله العصم
ولما فضضت الختم عنه تضوعت لطيمة سفير فض عن مسكها الختم
وسرحت طرفي في رياض محاسن وشاها الحيا المنهل ، بل علمك الجم
ويقول آخر :

كتاب نفيت اكتشاي به ونلت الأمانى بظل الأمان
أنى من بعيد مرامى الضمير والفكر مرهف غرب اللسان
ذرى فى الترسيل بابن العميد كما قد شأى فى القريض ابن هانىء
فتقرب من فرجى من كل ناء وأبعد من ترجى كل داني
صفى نأى ودنا ذكره فتاب السماع مناب العيان

قال الشاعر ابن البشائر البلتونى — ممن وفد على الأفضل — فى وصف
كتاب^(٢) :

وصل الكتاب وكان أنس واصل عندى وأنس قادم القاه
لا شىء أنفس منه مهدي جامعا شمل المعانى للذى أهداه
ففضضته ، وجعلت الشم كل ما كتبه أو مرت عليه يده
وفهمت ، ودعته فرحت بقطعة جذلان مبتهجا بما أداه
وعجبت من لفظ تناسق فيه ما أعلاه ، ما أجلاه ، ما أحلاه
كالروض باكرة الحيا فتفتحت أزهاره ، وتضوعت رؤاه

(١) خريدة القصر ١ / ٢٤٦ .

(٢) الخريدة قسم شعراء المغرب ١ / ١٥ .

كالعقد وصل لؤلؤاً وزرْجداً فتقابلت أولاد مع أخراه
در ترفع قدره عن قيمة منظومة كبراه مع صغراه

لغة الشعر وموسيقاه :

اعتمد الشعر في هذا العصر لغة الشعر العربي في القرن الرابع ، ودخل البديع عنصراً فنياً من عناصر التعبير دون إسراف أول الأمر ، حتى كان القرن الخامس فزاد اهتمام الشعراء بالبديع ، وأسرف بعضهم فيه ، وبخاصة في بديع اللفظ من جناس ، ومقابلات ، وطباق ، وترصيع وتوشيح وتوشيع .

وظهرت في أخريات عصر الفاطميين في الشام ألوان من الشعر عرفت بالمجانس يعتمد فيها الشعراء إلى التجنيس في القافية ، وهو مغالاة فيما التزمه أبو العلاء المعري في لزومياته .

وكان لوفود الشعراء إلى مصر من المشرق والمغرب أثره في ظهور ألوان فنية متعددة اختلطت وتزاوجت ، ونتج عنها ألوان من التعبير والصياغة ينتمي بعضها إلى أصول مشرقية ، وبعضها إلى أصول مغربية أو أندلسية وبدأت تظهر صور مبكرة للتوشيح أو ألوان مشابهة من النظم خارجة على نظام القصيدة منذ القرن الرابع الهجري من مثل قول تميم بن المعز :

دُمُ العُشَّاقِ مَطْلُولٌ وَدَيْنُ الحُبِّ مَطْلُولٌ
وَسَيْفُ اللَّحِظِ مَسْلُوكٌ وَمُبْدِي الحُبِّ مَعْلُوكٌ
وَإِنْ لَمْ يَصْغِ لِلأَثَمِ

وَأَحْوَرُ سَاحِرِ الطَّرْفِ يَفُوقُ جَوَامِعِ الحُبِّ
مَلِيحُ الدَّلِّ وَالظَّرْفِ جَنَّتِ الحَاظِلَةُ حَتْفِي
فَمَنْ يُعْدِي عَلَى الظَّالِمِ

يُعْتَفِنِي عَلَى حُبِّي وَيَهْجُرُنِي بِلَا ذَنْبٍ
كَأَنِّي لَسْتُ بِالصَّبِّ لِقَهْوَةِ رَيْقِهِ العَذْبِ
أَمَّا فِي الحُبِّ مِنْ رَاحِمٍ

على أن هذه الصورة المبكرة للموشح في شعر تميم بن المعز نادرة في القرن الرابع إلا أننا نعث في القرنين الخامس والسادس من العصر الفاطمي على صور

أخرى لنظم الموشح ، ومن نظموه في القرن الخامس في آخره وأوائل السادس على
بن عباد الإسكندري : قال العماد الأصماني في ترجمته^(١) : « وقرأت له في
مجموع في مدح محمد بن أبي أسامة كلمة ذات أوزان موشحة :

يا من ألوذ بظله في كل خطب معضل
لازلت من أصحابه متماسكا بيد السلامة
آمنا من بأس
في الحوادث والظروف
وأعوذ منه لفضله في كل أمر مشكل
ما لاح فجر صوابه كالشمس من خلف الغمامة
لا تميل إلى شماس
دون موضعها الشريف

ومن نظم الموشح من المصريين في القرن الخامس أو أوائل السادس ظافر
الحداد السكندري .^(٢)

(١) الخريدة شعراء مصر ١ / ٤٤ .

(٢) راجع ذلك في موضعه من هذه الدراسة .

شعراء العصر

كثر الشعراء في العصر كثرة ملفتة ، وكان لتشجيع الفاطميين أثره في وفود كثير منهم من المشرق ومن المغرب . وما ذلك إلا باهتمام الأئمة والقادة والرؤساء بعرض افكار الدعوة الفاطمية ، واتخاذ الشعر منبرا من أهم منابر إعلامهم ، كما كان الشعر معرضا لأحوال الأئمة والرؤساء وتقريبهم من الناس ، وتوددهم إليهم بنشر محاسنهم وجليل أعمالهم .

وكان للشعراء ديوان ومستولون يتولون أمورهم ، وكانوا يجزون الجزاء الآوفى على ما يقدمون ويعلنون ، ويزينون أحيانا .

ومع كثرة شعراء العصر إلا أن ما وصل إلينا من شعرهم قليل ، ولا تتعدى دواوينهم عدد أصابع اليدين ، وتناثرت بقية أشعارهم في الكتب والمصادر .

وهذا نذر يسير لا يشفى غلة لشعراء جاوزوا المئات في عصر دام قرنين . ونقرأ في تلك المصادر عن مؤلفات لعدد من العلماء عن شعراء العصر ونخب من أشعارهم ، لعلها تذهب في نهجها مذهب اليتيمة والخريدة من مثل « جنان الجنان » ، و « رياض الأذهان » . وفي شعراء الفاطميين من المصريين للمهذب بن الزبير ، وقد نقل عنها كل من العماد ، وابن سعيد في كتابي الخريدة ، والمغرب^(١) . ولعلي بن منجب مجموع عن شعراء عصره^(٢) .

وكتاب الحديقة لأمية بن أبي الصلت ، نقل عنه العماد ، وكتاب « المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل العصر » لابن بشرون المهلوي^(٣) .

وتقسم الشعراء على أقاليم مصر ومدنها ، فمنهم من نشأ بصعيدها ، واشتهر ووفد إلى القاهرة والفسطاط ، فمدح الأئمة والرؤساء ، وكبار رجال الدولة وجالس العلماء والفضلاء ، وأنشدتهم من شعره ، فذكروه ، وألحوا إلى بعض أقواله .

(١) راجع الخريدة قسم شعراء مصر ص ٦١ .

(٢) الخريدة شعراء المغرب ص ٢١٠ .

(٣) راجع الخريدة شعراء المغرب ١ / ١١٤ .

وبعضهم نشأ بالإسكندرية ، أو دمياط أو غيرها من بلاد الدلتا ومنهم القاهريون أو أبناء الفسطاط ، ومنهم الوافدون المقيمون ، ومنهم الوافدون العابرون وعدّ العماد من شعراء مصر في الخريدة مائة شاعر .

ونذكر من شعراء الصعيد من تردد ذكرهم :

١— الكاسات — وهو لقب للفقير أبي محمد عبد الله بن أبي سعد ، وترجم له ابن سعيد في المغرب .

٢— وأبو الرضا سالم بن علي بن أبي أسامة ، وكان بنو أسامة من أصحاب الديوان في زمان الحافظ .

٣— وأبو المشرف الدجرجاوي — من دجرجا أو جرجا . ذكره ياقوت في معجم البلدان .

٤— والقاضي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن النضر المعروف بالأديب من صعيد مصر ذكره العماد في الخريدة ، وترجم له الأدفوي في الطالع السعيد^(١) ، تولى القضاء باخميم زمن الأفضل الجمالي .

٥— وأبو الغمر الإنساوي محمد بن علي الهاشمي (توفي سنة ٥٤٤ هـ) وترجم له العماد بالخريدة ، والأدفوي^(٢) في الطالع السعيد .

٦— وأبو الفرج سهل بن الحسن الإنساوي .

٧— وبنو عرام وهم جماعة .

٨— وأبو القاسم عبد الحميد بن عبد المحسن بن محمد الكتامي المقيم بأسيوط .

٩— وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصوفي — عرف بابن يونس واشتهر بالتنجيم (ت ٣٩٩ هـ) .

وكان يقول الشعر ويضرب بالعود ، قال صاحب شذرات الذهب^(٣) :

(١) راجع الخريدة ٩٠/٢ ، والطالع السعيد ٢٢٠ ، وبنية الرعاة ٣٥٣ .

(٢) الخريدة ١٥٨/٢ ، والطالع السعيد ٣١٥ .

(٣) شذرات الذهب ١٥٧/٣ ، وراجع البيمة للثعالبي ٣٤٥/١ ، وابن خلكان بالوفيات ٨٥/٢ ، والتفطى ص ٢١٠ .

« وله شعر حسن ، منه قوله :

أَحْمَلُ نُشْرَ الرِّيحِ عِنْدَ هَبِّهَا رِسَالَةً مُشْتَاقٍ لِرُوحِهِ حَبِيبِ
وكان يحضر مجالس الحكم .
وترجم له الثعالبي ، وابن خلكان والقفطى .
ومن شعراء مصر أو الفسطاط :

١- المهر المحجوب المصرى :

ترجم له ابن سعيد ، نقل عن القُرطبيّ قوله : « إنه من أُنبتته الفسطاط
وتفقت عنه ييضتها ، من الشعراء الذين أجادوا ، وأفرطوا في الرحلة عن أوطانهم
غاية الإفراط » . وهو من شعراء المائة الخامسة .
وترجم له الباخريزي في الدمية .

٢- ومن شعراء الفسطاط الرسيون من آل طباطبا . وكانوا بيتا علويا من
أشراف مصر الحسينيين . وعرف منهم في عصر الفاطميين جماعة أشهرهم :

* أبو عبد الله الحسيني بن إبراهيم بن أحمد بن محمد بن إسماعيل بن القاسم
بن إبراهيم (طباطبا) الشريف الحسيني الرسي (ت ٣٦٥ هـ) (١) .

* وكان أدبيا شاعرا رقيقا . قاسم الأمير تميم بن المعز شرف النسب وعلو
الحسب ، وأمارات الفضل والأدب . وكان بينهما مودة ومراسلات شعرية راققة .
وكان أبوه نقيب الأشراف في مصر وكان جده أبو القاسم أحمد بن محمد ابن
إسماعيل نقيب الأشراف أيضا شاعرا أدبيا مجيدا (ت ٣٤٥ هـ) أو (سنة
٣٥٢ هـ) وعاصر الدولة الإخشيدية وكانت وفاته في عصر كافور وسنه آنذاك
٦٤ عاما .

وكان من السرور والنبيل وجلال القدر على ما هو معروف مشهور . وله أدب
واسع وشعر في الزهر والغزل مليح .

٣- وكانت بلاطات الوزراء مجمعا لشعراء مصر والوافدين عليها وأشهر

(١) راجع ابن خلكان ، والمغرب ص ٨٥ ، وديوان تميم ص ٣٠ .

مجالسهم مجلس الوزير الأفضل ابن بدر الجمال فقد جمع عددا من شعراء العصر أمثال ظافر الحداد السكندري، وعلى بن مُنْجَب الصيرفي الكاتب، ومسعود الدولة، ومحمد بن اسماعيل المعروف بالتاريخ، وحسن بن زيد الأنصاري .

ومن وفد إليه من المشرق ابن حيّوس ، ومن المغرب أمية بن أبي الصلت ومجبر بن محمد بن مجبر الصقلي (ت ٥٤٠ هـ) .

٤- كما ضمت مجالس الوزير الصالح بن رزيك جماعة من مشاهير شعراء القرن السادس الهجري في مصر وغيرها من بلاد المشرق والمغرب من بينهم القاضي الرشيد بن الزبير ، وأخوه القاضي المهذب ، والفقيه عمارة اليمنى ، والقاضي الجليس عبد العزيز بن الجباب (ت ٥٦١ هـ) وأبو محمد يحيى بن الحسن بن جبر^(١) ، وأسامة منقذ .

٥- ومن شعراء الإسكندرية ظافر الحداد ، الشاعر المبدع ، وأبو بكر الطرطوشي الفقيه الصوفي عاش زمن الأفضل وتوفي سنة ٥٢٠ هـ .

وهو محمد بن الوليد القرشي الفهري ، ونسب إلى طرطوشة بالأندلس نزل إلى الإسكندرية ، ووفد إلى القاهرة ورحل إلى المشرق فحلّ ببغداد وأخذ على علمائها .

وكان إماما زاهدا ورعا متقشفا ، متنقلا راضيا بالقليل . له شعر رواه ابن العماد وله كتاب « سراج الملوك » ألّفه للوزير الفاطمي المأمون البطائحي وعاش إلى زمن الأفضل^(٢) .

ومن الإسكندرية ابن معبد القرشي الأسكندري (ت ٥٥٨ هـ)^(٣) ومنها أبو الربيع سليمان (ت ٥١٦ هـ)^(٤) .

ومنها ابن أغسّان الكاتب (ت ٥١٥ هـ)^(٥) .

(١) الخريدة ٢ / ٢٣١ .

(٢) راجع ترجمة ابن خلكان ، وشنوات الذهب ٤ / ٦٣ .

(٣) ترجمته بالخريدة ٢ / ٢٣٣ تولى الأفضل سنة ٥١٥ هـ .

(٤) الخريدة ٢ / ٢٠٠ .

(٥) الخريدة ٢ / ٢٢٧ .

وابن مكنسة الشاعر المشهور (ت في حدود ٥٠٠ هـ) ، وترجم له أمية بن
أبى الصلت في الرسالة المصرية ، أعجب بشعره ، وأورد مقتطفات منه . وكان قد
أنشد الأفضل إلا أنه أعرض عنه^(١) .

وابن قتادة المعدل : أبو الفتح منصور بن ابراهيم^(٢) .

ومن شعراء دمياط :

أبو الفتح محمد بن إسماعيل بن قادوس (ت ٥١١ هـ) . وابنه محمود بن
قادوس من شعراء ابن رزيك .

وكان معظم كتاب العصر الفاطمي المشهورين ممن عرضنا لهم فيما سبق من
حديث — ينظمون الشعر .

وأما الوافدون فكثيرون من المشرق والمغرب ، وأكثرهم من المغرب والأندلس
بدأوا مع وصول ركب المعز من المهديّة إلى القاهرة ، وتعاقبت أرسالهم تطرق باب
الاسكندرية وتعرج على القاهرة .

ومن أشهر الوافدين المغاربة الرقيق القيرواني ، وأمّية بن أبى الصلت ، وابن مجير
الصقلي . وابن القطاع ، والتجيبى .

كما وفد من الشام ابن حيوس أبو الفتيان ، وأسامة بن منقذ ومن قبلهما
الواساني والرقعق والوزير المغربي ، والتهامى .

ووفد من اليمن عمارة اليمنى ، واستقر بمصر حتى مات .

(١) راجع الرسالة المصرية وابن خلكان والخريدة ٢/ ٢٠٣ ، وفيات الوفيات ١/ ٢١ .

(٢) الخريدة ٢/ ٢٢٩ .

الفصل الثاني

شعراء مصريون

في القرن الرابع

— ١ —

تيم بن المعز

يلور شعر تيم بن المعز على محاور ثلاثة .

المحور الأول : الأمير وهموم الإمارة ، واهتماماتها .

المحور الثاني : الإنسان وحياته الخاصة والعامة وسلوكياته وأخلاقه .

المحور الثالث : الفنان وتذوقه للحياة والجمال .

أما الأمير

فقد ولد الشاعر للخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، وكان أكبر أبنائه ، لكن الصلة بينه ووالده لم تكن مستقرة ، وشابها كثير من الغموض ، فلم يكن الأب فيما يبدو محبا لولده كل الحب ، ولا مقدرا فيه الرجل الذي يمكنه أن يحمل أعباء الدولة كما ينبغي ، ربما لأن الأمير كان يميل إلى اللهو ، أو إلى أن يعطى نفسه قدرا من المتعة على حساب الأمور الرسمية ، أو مهام الملك والخلافة ولعل الأمير أدرك ذلك من أبيه ، وأدرك أنه لا يثق فيه كل الثقة بل لعله أدرك أنه يقدم عليه أخويه الآخرين .

ونما هذا الإحساس في قلب الأمير فأرقه ، وأقلقته ، ولعله دعاه إلى زيادة الإنغماس في همومه وملأذه ، واتخذ الشعر وسيلة للتعبير عن هذه الهموم والملأذ جميعا ، بل لعل نفسه حدثته بأن يأخذ حقه لنفسه ، وإن أغضب ذلك والده ، أو بدا لهذا الأب ومن حوله من رجال دولته ، وكأنه يحاول اغتصاب الأمر ، وربما رأى بعض شباب الدولة والطامحين الطامعين في الأمير إرعونه وأدركوا ما يكتم في نفسه فأرادوا أن يدبروا معه أمرا طائشا يمين النفس بالفوز بمنصب إن تم الأمر للأمير الخائق .

ويؤكد هذا ما ذكره الأستاذ جوذر أقرب الرجال إلى المعز كما جاء في سيرته ذكر أنه نعى إليه اتصال الأمير ببعض أمراء البيت الفاطمي ، وابن أمير صقلية ، واتفقوا على تدبير أمر ما ، فأطلع جوذر الخليفة المعز عليه وكان في المهديّة قبل مجيئه إلى القاهرة ، فكان رد المعز بحصافته ودهائه على جوذر أن اكتم الأمر ، وكتب إلى مستشاره يقول :

« يا جودر كثر الله من أوليائنا مثل أحمد — أمير صقلية وولده الأمير الشاب طاهر الذى ظن اتصاله بتميم — فوالله ما كان يشنيه عندنا ، ويصوره بغير صورته إلا بعض أتباعه الذين زينوا لهذا الصبى الشقى ولده . صحبه من كان سبب شقوته فوالله إن ترجعنا به لتوجعنا بمن لنا — يقصد ابنه تميم — لكن ابن أحمد يرجى فيما يستقبل من الزمان ، ومدبرنا نحن لا يرجى أبداً إذ كانت الخطة التى يرفع الله بها أولادنا هلى خطة الطهارة ، ومن عدمها كان كلا على مولاه . والحمد لله على ما ساء وسر . فأما ما أراد أن يفعله أحمد بولده فامنع ، وتشفع له عنده وعرفه أن الصواب إصلاح كل فاسد من غير ظاهر شئنه يلحقه عارها ، ويبقى ذكرها مع الأيام ، فما يخفى عليه أن ذلك يبقى فى الأعتاب . فليمسك ، ويعجل ما يصلح فيما يستقبله فكونه بين أيدينا يصلح فساد كل فاسد كان ليسعى به بينهما »^(١) .

وهذه الرسالة التى وجهها المعز إلى جودر تحمل كثيرا من المعانى التى أشرنا إليها فى مقدمة حديثنا عن تميم والعلاقة بوالده .

وكان دهاء المعز وحسن تدبيره مما دفعاه إلى كتمان مثل هذا العبث الصبيانى حتى لا تصير معرة ، ولا يظهر الخلاف فى البيت الفاطمى أمام الرعية . وهو أعلم بولده وطيشه وانغماسه فيما لا يطهر من ملاذ . وما لا يليق بإمام ينبغى أن يكون قدوة لشعبه ، يبعده عن كل ما يفسد المروءة ، ويشين الصورة النقية ولو فى الظاهر .

وظلت العلاقة هكذا بين الوالد وولده الأكبر تميم الذى لقب نفسه باسمه فكان يكنى المعز بأبى تميم ، ولاشك أن الخليفة كان يشعر فى أعماقه بالأسى لسلوك ابنه الأكبر هذا المسلك ، وكان يحمل بين جنبه صراعا بين الحب الأبوى لهذا الابن ، والألم والأسى لاضطراره أن يبعده عن دائرة المسئولية لأنه غير أهل لها فيما يرى من سلوكه .

وقد أذاه هذا إلى أن ينحيه عن ولاية العهد مرتين ، فيزيد هذا فى حرج الأمير ، وينطوى صدره على آلامه لا يجد ما يفرجها أو يخفف منها إلا المزيد من الانغماس فى اللذات ، وإذابة آلامه فى الشعر .

(١) من سيرة الأستاذ جودر ، ص ١٢٠ .

ويذكر بعض المؤرخين أنه نعى عن ولاية العهد لأنه لم ينجب ، ولأنه كان عقيما ، ولم يكن هذا السبب بالضرورة سببا حاسما ، بل السبب الحاسم هو ما ذكرناه .

وقد ظل الأمير يَحْتَرُّ آلامه ، وجاء إلى مصر مع والده وإخوته ، ومات المعز بعد حضوره إلى مصر ولم يمض بها إلا ثلاثة أعوام تزيد أو تقل قليلا ، وأوصى من بعده لابنه العزيز بالله الإبن الثالث ، وتجاوز عن الأكبر الأمير تميم وتولى العزيز الخلافة ، وعرف أنه اخذ حقا لأخيه ، فكان يجزل له العطاء ، ويفدق المال ، ويدعه يفرق في النعماء ، لعله ينسى أمر الخلافة ، وينزل عن حقه فيها ، إلا أن الأمير تميم تظاهر بالزهد في الملك ، وأبدى من طرف لسانه الطاعة لوالده أولا وللخليفة العزيز بعد توليه ثانيا ، ولم يدع مناسبة إلا أبدى هذه الطاعة في قصيدة يبعث بها إلى والده أو إلى أخيه بعد توليه الأمر لكن ما كان يخفيه في نفسه لم يستطع كتمانها ، بل كان يتسرب وعيا منه أو غضبا ، كلما فاضت نفسه ، ونصت بالضييق . فلا تلبث أن تفلت منه أبيات تنم عما يكتم كأن يقول (١) :

سأطلب حقي إن قضى الله لي به	وأفزع منه كل ما كان مُرتجا
فلست وإن عاقرت كأمي بسائل	من الأمر فيها كل ما كان أسمجا
ولا مشتر بالمجد مستحسن الصبا	ولا مشتر طرق المهالك بالنجا
ولكنني مؤوف لنفسي حقوقها	ورائضا فيما استوى وتعوجا

ولكن العزيز لم يغفل عن رغبة أخيه ، وما كان يخفيه ، وكان يداريه ، ويقبل عليه ، ويقابله الشاعر بالمثل فيبدى الطاعة والولاء ، وقدم بين يدي أخيه الخليفة قصائد المدح في المناسبات . كأن يقول مادحا في مناسبة إقبال شهر رمضان ومهثا (٢) :

يا شهر مفترض الصوم الذي خلصت	فيه الضمائر بالإخلاص في العمل
أرمضت يا رمضان السيئات لنا	بشربنا للثقى علا على نهل
صوم وبر ونسك فيك متصل	بصالح وخشوع غير منفصل
يالي شهرك حول غير منقطع	وليست ظلك عنا غير متفصل
ما أنت في أشهر الحول التي سلفت	إلا كمثل زيار في بني الرسل

(١) ديوانه ص ٨٩ .

(٢) ديوانه ص ٣٤٠ .

ويتضح في هذه الآيات محاولته مداراة مشاعره الحقيقية والنطق بغير ما يجب ، فهو بالنسبة إلى رمضان يظهر القول بتمنى بقاءه حولا ، وهو لا يحب هذا في سريره ، لأن شهر رمضان يمنعه من ممارسة لذاته ، فهو في الحقيقة شهر غير محبوب لديه ، ونلاحظ في نهاية الآيات كيف قرن بين هذا الشهر الذي يظهر محبته ، ويخفى غير ذلك ، كيف قرن بينه وبين أخيه فجعله مثله ، وهذا ظاهر المدح ، لكنه يخفى وراءه ما يخفى !

ويقول في مناسبة العيد يصف موكب الخليفة إلى صلاته^(١) :

لئن أتى العيد من لقيالك في فرج	لقد مضى الصوم من مناك في فكسل
برزت فيه بروز الشمس طالعة	وقد أعاد ضحك النقع كالطقل
والبيض تزهّر والأعلام خافقة	والأرض في رهج والجو في وجل
فليس يعرف لحظ العين مرسله	إلا إلى سابح في الأرض أو بطيل
والشمس فوق مدار الجيش قد حجبت	في جرها بنئون البيض والآسل
حتى بلغت المصلّى خاشعاً تسكياً	خشوع جلك في أزمانه الأول
فقمّت فيهم خطيباً مصقفاً سنياً	بكل مفصل نثراً ومفصل
بلاغة نبوى التنظيم محكمها	وخطبة لم يتلها مهمل الخطيل
أبنت بالحق ما قد كان مشتتها	من الهدى فتجلى كل مشكل

ولا يخفى ما في هذا الشعر من تصنع ، يقربه من أن يصبح إعلاناً رسمياً في هذه المناسبة ، لا ينطق فيه عن عاطفة صادقة ، بل لعنا نحس بأنه يكاد يرصّ الألفاظ رصاً دون إحساس حقيقى ، فالشعرية فيه منعدمة ، والمناسبة الرسمية تملك عليه لفظه ومعانيه .

وربما كانت نغمة الشاعر في هذه المناسبات الرسمية ، وتسجيل مظاهر الخلافة وشعائرها أكثر دفاء ، وبخاصة إذا اتصل ذلك بالعقيدة ، أو مواجهة الأعداء المتربصين بالدولة ، وبالدعوة الفاطمية التى هى عصب ملكهم ، ومناط شرعيته .

وهو في مثل هذه الأمور يرى نفسه جندياً ومسئولاً كأخيه وغيره من أبناء البيت الفاطمى فلا بد له من الدفاع والحماس ، وإظهار القدرة والقوة أمام الطامعين المتربصين بهم جميعاً . يقول — على سبيل المثال — في مناسبة الصراع

(١) ديوانه ص ٣٤١ .

بين الدولة ممثلة في الخليفة العزيز بالله وأحد أعدائها الأقوياء بالشام القائد التركي أفتكين . ومعتزا بنصر العزيز عليه ومفتخرا :

أعدلاً وما عدلتني التهي	ولا طرد الجلم عني الصبا
وكيف تلومين صعب المرا	م وتلجين مثلي كهل الحجا
بلوث الزمان وأحداثه	على السلم منهن لي والوغي
فما قلت حريها لي شبا	ولا ازدت بالسلم عنها رضى
إذا قلت لم أعد فصل الخطاب	وإن صلت أقطعت عني الردى
أرنتي التجارب ما قد بدا	فصنت به كل ما قد تحفى
ولم يبلغ العمر من سته	ثلاثين حتى بلغت المدى

حتى يقول :

تهون على صعب الأمور	وبصغر عني جميع الورى
أنا ابن المعز سليل الأهل	وصنو العزيز إمام الهدى
سما لي معد إلى غاية	من المجد ما فوقها مرتقى
فرحت بها فاطمي النجار	حسينيه علوى الجنى
وإنما لقوم نروع الزمان	ولسنا نراع إذا ما سطا

وروجدان الشاعر هنا هو الذى ينطق ، وضميره المكنون يكشف عن دخيلته فهو الأمير الكبير صاحب الشأن ، فاطمي اننسب والأرومة ، ينتسب إلى الحسين ابن على الشهيد المناضل للحق وبالحق في مواجهة الباطل المستبد ، وفي هذه الأبيات ذات القافية المطلقة والألف المقصورة تتألف فيها موسيقى الكلمة وإيقاع السياق مع نفثة الشاعر من صدر مصدر ، تلذعه حرقه يحس بأوجاعها فيطلقها رنة تتمزج فيها اللوعة والكبرياء ، وتتلاقى فيها آلام الماضي ، وأحزان قومه من العلويين الشيعة ، بآلامه هو فيتذكر أنه فاطمي حسنى علوى ، وكما لاقى فاطمة وابنها الحسين وكما لاقى على !!

ومع ذلك فهو ينتصر على لوعته ، وعلى أحداث الزمان ، ومعاندته وحربه لآل على ، وما يحسه هو ، وشيعته من مرارة لتلك المعاندة وذلك الظلم الذى يتعقبهم ، فهم صامدون رغم ذلك ، لا يستسلمون ولا يخضعون : (نروع الزمان ولسنا نراع إذا ما سطا) .

امتزجت لغة الشاعر إذا مع مخنة قومه عامة ، ولكن شئته وإن عظمت عليه وأقضت مضجعه إلا أنه يضطر إلى كتبها ومداراتها ، لا يفرج عنها ، ولا يتنفس عن مصلوره إلا بينه وبين نفسه أو بينه وبين عشيرته الأقربين تقيّة أو تنجها لأزمات ، ولأحداث قد تجر ويلات ، وتثير نارا يكون وقودها ، ولا يصل إلى مبتغاه .

ظل يراوده إذا حلم الخلافة والمُلك ، وظلت تحترق في نفسه الصور وتتداعى في مخيلته الأحلام ، ويلوم زمانه ، ونفسه ، ويلوم بعض عشيرته الذين أحبههم ولا يملك في النهاية إلا أن يظهر خلاف ما يظن ، وأن يلقي أخاه العزيز الخليفة ورمز السلطان الفاطمي بوجه الأمير الموالي ، والرعية المطيع ، والأخ الحبيب الوفي .

فيمدح العزيز ويجماله في كل مناسبة رسمية أو خاصة ، ولا يفتأ يؤكد ولاءه لأخيه ، كأنه يحس دائما بأنه متهم بعدم الولاء أو عدم الرضا مما دفع بعض الكائدين الذين أشار إليهم كثيرا في شعره ، والذين يصطادون دائما في الماء العكر ، ويتقربون إلى ذوى السلطان بالوشاية ضد من يريدون فيهم كيدا بوشايتهم ، أو ذريعة يتوصلون بها إلى صاحب الأمر . فيتخذ هؤلاء الكيد لتقيم وسيلة للقرى من العزيز ، وتنطق بعض أبياته بهذا فيقول (١) :

أَنْتَ إِمَامٌ لِي بَلَا تَقِيدُ	وَلَا حُمٌّ فَاشْهَدْ ثُمَّ لَا هُمٌّ أَشْهَدُ
إِنْ زَارَا غَايَتِي وَمَقْصِدِي	وَمَوْبِلِي وَمَغْقِلِي وَمُسْنِدِي
وَعُدَّتِي وَعُمْدَتِي وَمَعْنِدِي	وَأَنَا بَرَاءٌ مِنْ عَدَاكَ مُفْتَدِي
إِنْ لَمْ تَكُنْ ذِي بُيُوتِي لَمْ أَسْعِدِ	لَوْلَاكَ لَمْ أَسْمُ وَلَمْ أَسَدِّدِ

ويقول في مناسبة أخرى مشيرا إلى أولئك الكائدين الذين يضمرون له الشحنة (٢) :

كَمْ مُضْمِرٍ لِي عُقْدُ الشَّحْنَاءِ	يَنْسُبُنِي فَيْكَ إِلَى السَّوَاءِ
جَبْهَتُهُ بِالسَّرْدِ وَالْإِقْصَاءِ	وَلَمْ تَمْكُنْهُ مِنَ الْإِصْغَاءِ
حَفْظًا لَطَاعَتِي وَلِلْإِنْجَاءِ	حَتَّى انْشَى مَحْتَرِقَ الْأَحْشَاءِ
وَالْعَدْلُ جَبْهُ الْكَاشِحِ السَّعَاءِ	لَا ، وَالْدَمُ الْجَارِي بَكْرِيَاءِ

(١) ديوانه ص ١٣٧ .

(٢) ديوانه ص ١٧ .

(٣) الجبّة المقابلة بما يكره المرء أن يواجه .

ويقول :

ومن بها من دائم الشواء
بنى على وبنى الزهراء
ذوى التناهي وذوى العلاء
ما جلت عن مستحسن الصفاء
فيك، ولا عن خالص الولاء
فى ظاهر منى ولا خفاء

وليت الأمر استقر بين الشاعر الأمير وأخيه الخليفة ، فالنفوس مهما خلصت
تزلزلها أطماع وآمال ، وترتادها نزوات ، وقد يسمع الخليفة والنفس مهياة لأن
تتلقى قولاً عن أخيه الأكبر ، وقد تتور نفس الشاعر الأمير ، أو تحدته فينطق
علانية في مجالسه الخاصة بين شيعته وأهله ، كلمة لا تسر الخليفة عن حق
معتصب أو عن أمل يراوده ، فيتغضب عند سماعها ، ولا يخفى على ذوى السلطان
خافية ، فلا يعلمون من يشئ ممن . يبنى القرى على حساب الوفاء والمروءة .

وعلى أية حال فإن الأمور لم تصف بين الأخوين ، واعتكر الماء الجارى وربما
أضمر الخليفة أمراً ، أو لعله بعث لأخيه ، من يحمله ، أو يتلقه ، ثم من ينصحه
بالابتعاد عن القاهرة ، ويختار لنفسه منفى .

ويتلقى الأمير التحذير ، فيقع من قلبه موقع المראה على لسان لم يذق إلا حلو
العيش فى بلهنية السلطان ، ورحاب القصور الخليفة ، وبساتين العز .

كان ذلك حول عام أربع وسبعين وثلاثمائة (٣٧٤ هـ) . ويخرج الشاعر
الأمير من القاهرة متجهاً شرقاً إلى سيناء وفلسطين حيث اختار الرملة بها
مقصدًا ، ويشير إلى ذلك فى قوله مسجلاً أحداث ما بين الأخوين :

رضيتُ بحكم سابقه القضاء	وإن أضحت تكدر صفو مائى
وهل يستطيع أهل الأرض خلاً	لِعَقْدِ شَدٍّ من فوق السماء
إلى كم نهيم الأحداث ركنى	وترمينى بجور واعتداء
يعاقبنى الزمان بغير ذنب	وتخذلى يدي وذوو اصطفاى
ويسعى لى لمن لو جاء ساع	به عتلى لخصب بالدماء

حَيَاتِي بَيْنَ وَاشٍ أَوْ حُسُودٍ وَسَاحٍ لِي يُسْرِ لَطُولِ ذَاتِي
فَإِنْ وَشَى عَلَيَّ الزُّورَ بَاغٍ فَصَبْرًا لِلْمَقَادِيرِ وَالْقَضَاءِ
وَمَا أَنَا يَا أَبَا الْمَنْصُورِ إِلَّا كَمَا تَذَرِي عَلَى مُحَضِي الْوَفَاءِ
أَتَعْلَمُ كَيْفَ كَانَ لَكَ انْعِطَافِي وَكَيْفَ رَأَيْتَ قَدَمَا فِيكَ ذَاتِي
أَحِينَ مَلَكَتْنِي وَالنَّاسَ ظَرًّا وَرُحْتَ خَلِيفَةً فِي ذَا الْفَضَاءِ
وَحِينَ رَجَوْتُ نَصْرَكَ لِي فَإِنِّي بِمُلْكِكَ بَالِغٌ أَقْصَى رَجَائِي
يُحْيِيكَ مُبِغِضٌ لِي سَاعِيًّا بِي يَرُومُ لَدَيْكَ تَقْضِي فِي الْخَفَاءِ
فِيحْيِيَنِي وَيرْجِعُ سَالِمًا لَمْ تَهْجُكْ عَلَيْهِ أَسْبَابُ الْإِحْيَاءِ

ويظل يوالى هذا العتاب المر لسماع أخيه وشى الرشاة حتى يقول :

فقد طيبت عيشي في سرور وقد أُنعمت بالي في رخاء
وعيشي زائد طيباً إذا لم يُكثِرهُ لَدَيْكَ بُنُو الزَّناءِ

قصيدة مفعمة بالآلم ، ينفثها قلب مزقته المعاناة في تلك العلاقة الحساسة بين
الأخوين أحدهما صاحب السلطان والكلمة المطاعة ، وكل الناس يتوددون إليهما
والآخر مظلوم مهضوم الحق مع أنه الأكبر سناً ، لكنه رضى بما قسم الله له لآمور
كما يقول تجرى بعقد من السماء لا يحله أبناء آدم على الأرض ، مؤمن بالقضاء
والقدر وأن هذا قدره وهو يحس بأن الزمان يتعقبه ، على الرغم مما يعيش فيه من
نعمة ظاهرة ، لكنها نعمة حس ، تخفى شقاء للروح ، وعذابا للنفس ، وما
أشتى النفس التي تتكبد فيمن تحب ، وتشقى بمن ترنجي على يديه إسعادها .

ويزيد عذابه أن يرى أخاه الأصغر الذي أحبه ، وكان له فيه رأى يرتضيه يرى
هذا الأخ جلاده بعد أن ملك زمام السلطة ، وأمسك بمقاليد الأمور ولكن هكذا
الدنيا .. وهكذا السلطان لا يراعى حرمة ولا رحما . ويصدق في ذلك المثل
« السلطان من ابتعد عن السلطان » .

ويعر الأمير في طريقه إلى منفاه الذي اختاره أو اختير له ، ويعر بعين شمس
فتهجس في نفسه هاجسة ربة الشعر ، ويحوم حوله شيطانه فتلور على لسانه
أبياته (١) :

(١) ديوانه ص ١٤٧ .

ولما أثاروا البزل وهناً وأشأموا
وحال الآسى دون البكا فعيوننا
أعطن دمعسى الملا عن روادف
فلم تعص سلطان المدامع مقلتى
أجذك لا أنفك في كل ليلة

وحث بأقمار الهواج حادى
من الين حسرى والتأسف بادى
رؤاى ولكن الحصور صوادى
ولم يتحصن بالضلوع قوادى
أراع بينى أو أهيم بوادى !!

ويذكر بليس في طريق رحلته الشامية ، وينزل بالعباسة (١) :

هدأ الفراق فمهلاً أيها الحادى
استودع الله من فقدى لرؤيتهم
لولا دموعى في يوم الوداع إذا
فإن قضى بالتلاقي الله ثانية

لا شىء أوجع من بين وإبعاد
أمر من فقد شرب الماء للصادى
لأخرقت زفرائى ثم عوادى
فالشكر أعظم ما صيرته زادى

واستقر به النوى. بالرملة ، وهناك طافت برأسه رؤى الوطن وأحبابه بالقاهرة
ومنازها فكتب يشوق (٢) :

تغير بعدكم خالى
ولا والله ما قلبى
وددت لو أنكم تدرو
ودمعى عند ذكراكم
فهل تلقون ما ألقا
لقاؤكم وقرؤكم
على أنى وإن كنت الم
لأزيم حُبكم قلبى
فهل أنا شغل أنفسكم

وساء لبعدكم بالى
لكم ناسى ولا قالى
ن أشواقى وتلبالى
وأطراقى وإذلالى
ه من وجد وإعوال
منى نفسى وأمالى
حب السيد الغالى
وأجعل حالكم خالى
فأنتم كل أشغالى

كتب من الرملة إلى من تخلف بالقاهرة من الأهل (٣) :

أنتم في المتام حلمى وانتم
كل عضو منى إليكم مشوق

في انتباهى سولى ، وأنتم مرادى
زائد توفه على الإبعاد

(١) ديوانه ص ١٢٢ .

(٢) ديوانه ص ٣٥٢ .

(٣) ديوانه ص ١٤٨-١٤٩ .

لَمْ أَفَارِقْكُمْ وَلَكِنْ جِسْمِي بَانَ عَنْكُمْ وَحَلَّ فِيكُمْ فَوَادِي
فَهْنِيئاً لَكُمْ بِكَائِي عَلَيْكُمْ وَهْنِيئاً لِلْعَيْنِ طَوْلُ السُّهَادِ
كَلَّمَا حَبَّبِي اشْتِيَاقِي إِلَيْكُمْ قَلْتُ لِيْلِكَ أَنْتَ نِعَمَ السُّنَادِي

وبعد فتلك محنة الأمير الشاعر مع الخلافة والآب والأخ ، عبر عنها من خلال هذه النفثات الشعرية التي أطلقها وبقيت منها تلك الآيات في ديوانه ، ولعله نطق كثيرا ولم يبق لنا مما نطق إلا ذلك القدر ، وهو قدر يسمح على كل حال بأن تتصور حاله وإن لم يقفنا على تفصيلاتها ، وتقلب أمورها .

ولقد شغلت أحوال أسرة المعز قدرا من شعر تميم الأمير الشاعر ، كما شغل بنفسه في شعره ، فافخر وكشف عن مخبات صدره ، وعن عقيدته وعلاقاته . بغيره ممن أحب أو كره .

وطبيعي أن يشغل شاعر أمير بأحوال قومه ، وأحوال نفسه فهو لم يتخذ الشعر وسيلة للتكسب والحصول على المال فيمدح هذا من الملوك أو الرؤساء أو ذاك من الأمراء والقادة لقاء جائزة ، فهو غنى عن هذا بما لديه ، وهو إنما يتخذ من الشعر أداة للتعبير عن مواجده ، في أفراحه وأتراحه . فهو إذا مدح فإنما يمدح الخليفة لأنه أخوه ، ولأنه رمز السلطة والدولة الفاطمية والإمام المطاع وولي الأمر ، وواجب عليه الولاء له وتقديم هذا الولاء في كل مناسبة أبياتا من الشعر بين يديه .

وإذا مات أحد أبناء الأسرة الفاطمية رثاه كذلك وتفجع عليه ، فمراثيه كمدائحها كلها في أقربائه وأعز الناس لديه ، لا رياء ، ولا مجاملة ، ولا ابتغاء قربى من أحد .

ومن مراثيه قوله يرثي أخاه عبد الله (١) :

أَيُّ خُطْبٍ أَرَى وَأَيُّ لَيْالٍ دَهَمَ النَّاسَ صَرْفُهَا الْمَحْدُورُ
ويقول فيها :

كيف لم تسقط السماء على الأرض ، ولم تهو شمسها والبُدرُ
يوم مات الأمير بل يوم مات الصَّبرُ فيه ، بل يوم مات السرورُ

(١) ديوانه ص ١٤٩ .

يَوْمَ بَلَّ الثَّرَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّمِ
يَوْمَ تَحَطَّتْ عَمَائِمُ وَأَذَاعَتْ
يَوْمَ أَبْكَى الْعَيُونَ حَتَّى بَكَاهُ
قَبَرُوا شَخْصَةً وَوَارَوْا سَنَاهُ
كَمْ نَصِيرٍ لَهُ هُنَاكَ وَلَكِنْ
حَجَّ وَقَدَّتْ عَلَى الْقَلْسُوبِ الصُّنُورُ
سِرَّهَا فِيهِ آدُورٌ وَخُلُورُ
الْأَسَدُ الْوَرْدُ وَالْعَزَالُ الْغَرِيرُ
وَتَدَلُّوا وَالْفَائِزُ الْمَقْبُورُ
لَيْسَ مِنْ سُورَةِ الْجَمَامِ نَصِيرُ

★ ★ ★ ★ ★

يَا أَخِي ، أَيُّ عِبْرَةٍ لَيْسَ تَهْجِي
يَا أَخِي ، وَإِنْ بَكَتْ عَيْنِي فَأَيُّ
يَا أَخِي عَبْدَ اللَّهِ أَيُّ مُسَاجٍ
يَا أَخِي إِنْ صَاحَبِي وَأَخِي بَعْدَ
وَفَوَادٍ عَنِ السُّلُوكِ عَنِيدٍ
كَتَبَ مِلءَ الْجُنُودِ نُورًا فَأَمَسَ
وَفَوَادٍ عَلَيْكَ لَيْسَ يَطِيرُ
بِالْبُكَاءِ وَالْأَسَى عَلَيْكَ جَدِيرُ
لَمْ يَفْقَهُنَّ سَعْيِكَ الْمَبْرُورُ
كَ تَلْهَابٍ لَوْعَةٍ وَزَفِيرُ
وَمِنْ الصَّبْرِ وَالْعَزَاءِ نَفُورُ
سَتْ مَلُوهَا مَدْمَعٌ عَلَيْكَ غَزِيرُ

هذا رثاء غير رسمي ، من أخ لأخيه ، ولوعته فيه لوعة صادقة ، ودمعه دمع
محترق بالفراق ، وشعوره بأن الدنيا ضاقت وأظلمت شمسها وتهاوت بدورها ،
شعور غير كاذب ، لأنه طبيعي من أخ نحو أخ أحبه ورافقه ، ودرج تحت
عينيه ، ولعبا معا صبيين ، أو صبيا وفتى .

ومثل لوعته ورثائه لأخيه عبد الله كانت لوعته ورثاؤه لأخيه عقيل الذي ولاه
المعز ولاية عهده ، متجاوزا الأمير الشاعر تيمما ، وحقه فيها . ومع ذلك لم يمنع
ذلك الأمير الشاعر من أن يسكب دمه ، ولا لسانه من أن يزفر هذه الزفرة
ليقول (١) :

قِسْمَةُ الْمَوْتِ قِسْمَةٌ لَا تَجُورُ
يَسْتَوِي كُلٌّ مِنْ أَذَاقَتِهِ مِنْهَا
نَحْنُ فِي غَفْلَةٍ وَلِلْمَوْتِ فِينَا
نَسْتَطِيلُ الْمَتَى وَهْنٌ عَوَاصٍ
كَلَّ حَتَّى بِكَاسِهَا مَحْمُورُ
لَا أَمِيرٌ يَبْقَى وَلَا مَأْمُورُ
طَالِبٌ مُدْرِكٌ مُجَدُّ قَلِيلُ
فُنْطِيلُ الْآمَالِ وَهَى غَرُورُ

ويقول فيها :

(١) ديوانه ص ٢٢٦ .

لَمَّا مَاتَ صَفَقَ عَيْشِي وَهَلَّ فِي الْآ
 قَدْ تَذَكَّرْتُ بِالْمَصَائِبِ قَوْمِي
 فَرَقْتَهُمْ يَدِ الْمُنُونِ فَبَادُوا
 سَلَفَ صَالِحٍ وَأَمْلَاكَ صِدْقٍ
 ثُمَّ عِشْنَا ثَلَاثَةَ لَفِمْ الْحَا
 فَعَمَرْنَا بِذَاكَ مُدَّةَ دَهْرٍ
 لَمْ يَعْشُرْ لِلْمَعَزِ نَسْلَ سِوَانَا
 فَأَصَابَتْ يَدَ الْمُنُونِ مَنَا عَقِيلًا
 حِينَ هَزَّ الشَّبَابُ أَعْطَافَهُ الْغَيْبِ
 لَمْ يُجَاوِزْ حَدَّ الثَّلَاثِينَ إِلَّا
 أَيْنَ تِلْكَ الْبَشَاشَةُ الْغَضَّةُ الطَّلَعِ

رُضِيَ عَيْشٌ مَا شَابَهُ تَكْدِيرُ
 وَجُلُودِي إِنِّي لِقَوْمِي ذَكُورُ
 وَحَوْنُهُمْ بَعْدَ الْقُصُورِ الْقُبُورِ
 بِهِمْ تَسْتَوِي وَتَلَوِي الْأُمُورُ
 سِيدٌ مِنْ عِشْنَا الْحَصَى وَالصُّخُورُ
 كَلْنَا ظَاهِرُ الرِّضَا مَسْرُورُ
 كُلِّ مَيْتٍ بِنَجْلِهِ مَذْكُورُ
 وَهُوَ مِثْلُ الْقَضِيبِ غَضٌّ نَضِيرُ
 سَدٌّ وَحِينَ اسْتَوَى لَهُ التَّعْمِيرُ
 بَلِيَالٍ لَيْسَتْ لَهَا تَكْثِيرُ
 سَةِ، وَالْمَنْظَرُ الْبَهِيُّ الْمُنِيرُ

صَارَ مِنْ بَعِيدِ ذَلِكَ الْآنَسِ وَحْشًا
 آهٌ مِنْ لَوْعَةٍ لَهَا فِي سَوَادِ الْعَدِ
 كَيْفَ يَبْقَى أَمْرٌ تَوَلَّى أَبُوهُ
 وَهُوَ فِي قَعْرِ حُفْرَةٍ مَهْجُورُ
 سَيْنٌ دَمَعٌ وَفِي الْقَوَادِ زَفِيرُ
 وَأُخُوهُ فَجَبَلُهُ مَبْتُورُ

وظاهر من هذه الآيات أن أخاه عبد الله توفي قبل أخيه عقيل وبالضرورة قبل نزار العزيز بالله ، ولعل الذي تولى الأمر قبل وفاة أبيه المعز كان عبد الله بشهادة هذه الآيات ، فهو يذكر أن من تبقى بعد وفاة المعز ثلاثة أخوة هم على هذا ومن واقع هذا الشعر عقيل ، ونزار ، والشاعر تميم ، فأما نزار فقد أصبح الخليفة العزيز بالله بعد موت المعز لدين الله . وظل الأمير عقيل وتمام ينعمان بالعيش إلى جوار أخيهما الثالث الخليفة حتى اختار الله إلى جواره عقيلاً فلم يبق من الأخوة إلا تميم ونزار الخليفة .

وهكذا تأتي هذه المراثية وقد فقد الأمير أخاه الأول عبد الله وفقد بعده أباه المعز ، ومن بعدهما عقيلاً ، فالموت تعاقب على أعز أهله وأحبابه ، ومن هنا كانت بداية الحديث أول الشعر عن الموت وقسمته ، وأن كأس المنيّة تدور وتلدور ، ويدور كلها كل حي ، فالموت قريب منه يخطف أعز من أحبهم ، وعایشهم ، ولا يفوته أمير ولا مأمور .

ويشعر بأثر الموت في عيشه ، وعيش أسرته الأقرين ، ومن سلف منهم من
الفواطم أبناء الحسين . فهم كلهم في ملحمة الموت خلف عن سلف :

فرقتهم يدُ المنونِ فبادوا وحوثُهم بعدَ القصورِ القبورُ

وتختلف هذه المراثية في تعبيراتها ومعانيها ، وفي نبضها عن مراثيته في عبد الله ،
وهو اختلاف أدى إليه السن والتجربة ، فالشاعر الأمير قد بلغ مبلغا من التجريب
والعلم ، والسن هدهد فيه من اللوعة ، فلم يكن حزنه صراخا وعويلا وبكاء فياضا
يروى الثرى ولم تهو الشمس ولا تبددت الأقمار ، ولا برزت ربات الخلود ، ومآل
الذين آوتهم القبور في ظلماتها ووحشتها .

هناك فرق لاشك بين هذه الآيات وتلك سببه السن والعلاقة الخاصة بين الأخ
المتوفى والشاعر ، وبين الأخ المتوفى والأسرة مجتمعة في الأول والأسرة وقد غاب عنها
كبيرها وأجد أفرادها ، وتعقبها الموت في الثاني .

تقيم الإنسان

في شعر تميم ملامح إنسانية ، تكشف عما في باطنه من عواطف وأحاسيس إنسانية ، ونجدها في كل إنسان مكتمل البناء ، صحيح النفس ، سليم الباطن فيه شفافية الروح التي أودعها الله إياه ، وميزه عن غيره من سائر الحيوان وتمثل تلك الشفافية فيما تعارفت عليه الإنسانية من سمو الخلق ، والترفع عن الدنيا والحب للناس والأشياء والرغبة في الخير ، والطموح إلى الجمال وإلى كل ما هو جميل .

ونذكر من قراءتنا لشعر تميم أنه رغم انشغال فكره بأحوال دنياه وصراعات الناس من حوله ، ودسائس الملك والسلطان ، وما خيم على العصر من اضطراب وخوف ، وقتال وموت ، وتساؤل عن المصير . أقول على الرغم من هذا كله لنجده يكن في داخله تلك الصفات الإنسانية التي ما تلبث أن تنكشف لنا هنا وهناك في أبيات ينثرها في طيات قصائده .

وأول ما نلاحظه اهتمامه بالصدقة والعلاقات الإنسانية ، والروابط الأخوية بين الأفراد ، تلك العلاقة السامية التي تحكمها سلوكيات تزيد من وثوقها وتلاحمها . ويؤكد معنى وفائه لأصدقائه وأحبابه في قوله (١) :

لا أدعى الفضل قبل يشهد لي به أدنى الدنا وأقصاها
ولا أرى علي للصديق يداً تفسد أنغامها بنعمها
من اصطفاني بوذه قلّه عندي يد كالجبال صغراها

وكان من بين أصدقائه الذين وفي ضم ، وتبادل وإياهم رسائل المحبة والوفاء ، شعرا صديقه الشاعر أبو عبد الله الحسيني بن إبراهيم الرسي كتب إليه مرة :

لا شيء أحسن من خليلي غبطة يتراضعان لبان كّل وفاء
هذا يُناجي ذا هوّي وخبة أبداً ، ولم يستمتعاً ب لقاء

وفي الرسائل الشعرية المتبادلة بينه وبعض خلانه معان كثيرة من الود .

قال — وقد كتب بها إلى بعض أصحابه — وكان قد اعتذر هذا الصاحب عن أمر جرى منه (٢) :

(١) ديوانه ٤٣٩ .

(٢) ديوانه ص ٢٧٥ .

وقد قبلنا اعتذارك المحض لما
وصفحتنا عن زلة لم تكن من
وقد علمنا أنك الخليص الحافظ
لك عني - ففر عينا من المكث
ليس نصري لك الغداة بناء
كم سقينا عداك عند الإمام الع
وكسونا ريشا جناحيك لما
وأنا في الجميل عنك لنفسي
إنني ناظر إليك بعيني

جئت مستجديا لغفر معافي
لك مرادا، ولا أت عن خلاف
للغيب والولي الصاني
ما لا تحصيه مني القوافي
عنك مني ، ولا حفاظي بعافي
ذل إذ فتلوا بسم زعاف
عريا من قواديم وخوافي
شاكر حامد وجار مكافي
من صفا وده صفاء السلاف

وتنطوي هذه الآيات على معاني وسلوكيات محبة في العلاقة بين الصديقين والمحبين . معاني التواصل ، والصفح عن الزلل غير المقصود ، والتماس العذر للصديق ، وعدم تصديق ما قد يقع إلى سمعه من حاسد أو حاقد أو مبغض أو ناقم ، أو غير راضى عما بين الصديقين من تواد وتواصل ، وانتصار للصديق في مواقف الضيق ، والوقوف إلى جانبه ومساندته عند حكم عدل كل هذا إلى الوفاء وجزاء كل عمل جميل من الصديق بما يستحقه من جزاء مقابل ، والتقرب إليه بكل ما يحفظ لتلك الصداقة متانتها ، ويشد من أزرها .

وأنا في الجميل عنك لنفسي
إنني ناظر إليك بعيني

شاكر حامد وجار مكافي -
من صفا وده صفاء السلاف

ومعاني حلوة ، ليتها تكون دستورا للعلاقة بين الناس ، فتصفو لهم الدنيا ، وتحلو من الكدر كصفاء السلاف !!

ومع ذلك فالنفس الصافية قد تلقى في الحياة نفوسا مظلمة ، وكثيرا ما هي فتعاني ضد ما ترغب فيه ، وتعتصر ألما لما تلقاه على غير ما تحب .. من قلة الوفاء والنكران . ولا أشد دلالة من هذه الصرخة (١) :

وي فتحت للناس كل غريبة
ومن كان ذا علم بأهل زمانه
وانهم لا يسترق حفاظهم

ومحكمة ينشق منها الصفا الصلدا
تقن أن الناس كلهم وعد
وفاء ، ولا يغنى لهم أبلا حقد

(١) ديوانه ص ٣٤٠ .

إِذَا فَرَقُوا أَبْدُوا وَدَادًا وَذِلَّةً وَأَنْفُسُهُمْ حَرْبٌ وَأَلْسِنُهُمْ لَذَّةٌ

أولئك الذين جمدت قلوبهم ، وخربت نفوسهم ، لا خير يدفع إليهم بنافع لديهم ولا يسترق حفاظهم وفاء ، ولا يفنى لهم أبداً حقد ، فيهم اخلاق العبيد ، إذا خافوا توددوا وأبدوا المحبة والصفاء ، وإذا أمنوا ، تنمروا ، وانقلبوا ، وغدروا ، وأوقعوا ، ووقعوا ، وسلطوا السنة لئلا !!

تميم الإنسان المعذب في سعيه ، وفي حظه ، والمعذب في علاقاته ، لاشك تمر به لحظات من الضيق ، فلا يجد غير الشكوى ؛ الشكوى من الزمان والناس ، والشكوى من هذا الحظ العاثر .. فنفسٌ شقية تنفث همومها ؛ يقول (١) :

أَقُولُ أَسْرِبُ مِنْ حَمَامٍ عَرْضَنَ لِي	يَغْرَدْنَ مِنْ فَوْقِ الْعُصُورِ وَيَنْدُبُنَا
وَيَسْكُنَنَّ فِي خَضِرَاءَ نَاعِمَةِ الرِّبَا	أَنِيقَةَ رَوْضِ الثَّيْبِ ، أَنَسَةِ الْمُغْنَى
بَوَارِخَ لَا يَحْشَيْنَ بَيْنًا وَلَا تَوَى	رَوَائِعَ لَا يَعْرِفُنَّ هَمًّا وَلَا حُزْنًا
فَقُلْتُ هَنِيئًا لِلْحَمَامِ أَمَانُهُ	وَلِنْ كَانَتْ الْأَيَّامُ لَمْ تُعْطِنِي أَمْنًا
أَسْرِبُ الْحَمَامِ لَوْ لَقِيتُنَّ بَعْضَ مَا	أَلَا قِي لَأَصْبَحْتُنَّ أَوَّلَ مَنْ يَضْنِي
وَلَوْ قَدْ عَلِمْتُنَّ الَّذِي أَنَا عَالِمٌ	لَمَانَاخَ مِنْكُمْ هَاتِفٌ ، لَا ، وَلَا غَنَى
وَمِنْ جَرَّبَ الْأَيَّامُ تَجَرَّبَتِي لَهَا	دَرَى أَنَّهَا لَيْسَتْ تَدُومُ عَلَى مُغْنَى
فَحَسْبُكَ يَادْهَرُ ، اصْطَلَيْتُ بِنَارٍ مِنْ	لَوْ أَنَّكَ سَمٌّ فِي تَرَاقِيهِ مَا أَنَا
وَأَكْثَرُ مَا أَهْجُوكَ يَا زَمَنِي بِهِ	مِنَ الْفِعْلِ أَنِّي لَمْ أَحْسِنْ بِكَ الظَّنَا
ذِمَّتَاكَ يَا صَبْرُ الْخَوَائِدِ فَانْتَصِرْ	وَسُوْنَاكَ يَا رَبَّ الزَّمَانِ فَخُذْ مِنَّا

وتلاحمت هموم الشاعر وأحزانه مع هموم قومه وعشيرته من الشيعة الذين يحسون في أعماقهم اضطهاداً وظلماً ، ذروته وحداثه الدامي مأساة الحسين ، التي كنفتم الظلم الواقع عليهم من المجتمع الإسلامي ككل .. وتراه في مناسبة هذه الذكرى الأليمة ذكرى استشهاد الحسين في كربلاء تفيض نفسه بأبيات ينوح فيها نوح الحمام ، ويثن أنه المكلوم . يقول في واحدة :

أَعَاذِلْ لِي مِنْ فَسْحَةِ الصَّبْرِ مَذْهَبٌ .	وَلِلَّهِ غَيْرِي مَأْلَفٌ وَمَصَادُ
ثَوْتُ لِي أَسْلَافٌ كِرَامٌ بِكَرْبِلَا	هَمُّ لَشُعُورِ الْمُسْلِمِينَ سَدَادُ

(١) ديبانه ص ٤٣٧ .

وعاجلهم بالناكين حصاد
وجار على آل النبي زياد
وكادوهم والحق ليس يكاد
عليهم رماح للتفاح جداد
دهامهم بها للناكين كباد
بها جئت الأبرار ليس تعاد
جواد إذا أغنى الأنعم جواد
وجوة بها كان الفجاح يكاد
ويجزى لمن عاذاهما وبعاد
فيقطر حزناً أو يذوب فواد
أكل قلوب العالمين جماد ١٩

أصابتهم من عبد شمس عداوة
فكيف يلد العيش عفواً وقد سطأ
بشارب بذر طابوهم ومكة
فحكمت الأسياف فيهم وسلطت
فكم كربة في كربلاء شديدة
وكم بأعلى كربلاء من خفاير
بها من ينسى الزهراء كل سبيدغ
معفرة في ذلك التراب منهم
فللهي على قتل الحسين وتسلم
ألا كيد تفنى عليهم صباة
ألا مقلّة تهجي ، ألا أذن تبعي

والإنسان في مسيرته الدنيوية يحس بالموت كلما زال عنه رونق الشباب ، أو جافته أحداث الدهر وتصاريفه ، وليس كشاعرنا إحساسا بالموت لخصتين الأولى أنه شيعي وأن موت الحسين في مأساته إحساس دائم مسلط على نفوس الشيعة ، فهم في حزن أبدي ، والموت عندهم ملجأ ومهرب أحيانا ، ونهاية وعدمية تقلق الجسد الحى ، وإن كانت تسعد الروح لفكاكها من قيد المادة ، وظلم الطين ، وظلمته .

وأبيات تميم هذه تردد المعاني نفسها :

يُرَدُّه عِلَلٌ مِنْ حَيَا
فَلِلرَّيِّ شَيْمٌ بِيَرِّقِ الظُّبَا
عَلَى طَوْلِ مَسْرَاهُ يَشْكُو الْوَجَى
وَلَمْ تَحُلْ أَحْشَاؤُهُ مِنْ جَوَى

تَحْلِيْلُ بِي ظَمًا مَا أَرَاهُ
فَلَا تَسْتَشِيْمَا بُرُوقَ السَّحَابِ
أَعَيْنَا أَمَّا لَكُمَا لَمْ يَبْتَ
وَلَمْ يَسْتَرِخْ قَلْبُهُ مِنْ أَسَى

تميم الشاعر المستمتع الفنان

عاش تميم حياة حافلة ، جمع فيها متع الحياة ، لم يترك فرصة تفلت من بين يديه إلا واقتنصها ليتذوق جمال الدنيا ، ويعبُّ مما تحفل به من الجمال واللذة .

لذا تراه يمارس لذات الحياة بين الخمر والنساء واللهو والصيد والطرب ، والتتزه في الروضات ، وأشباع العين من جمال الدنيا ومفاتيح الطبيعة .

أحب تميم الحياة وعبُّ منها ، وربما كان منشأً على ذلك طبيعة وخلقة ، وأتاحت له حياة القصر ، وثرأ الإمارة كلّ ما رغب فيه فلم يغب عنه وطر ، ولم تقصر همته عن صيد لذة .

والخمر من لذات الشاعر القديم والحديث ، ألم يقل امرؤ القيس :

كأنّ لم أركب جواداً للذة ولم اتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم اسبأ الزق الروى ولم أقل لخلي كرى كرة بعد إجفال

فاللذات الأربع التي ذكرها امرؤ القيس : المرأة والصيد والخمر والغارة ، جمع منها تميم ثلاثاً وأضاف إليها اثنتين هما حب الموسيقى والغناء ، والتغلى من جمال الطبيعة ومباهج الحياة .

وشارك الشاعر في حب الخمر من سبق من رصفائه منذ امرؤ القيس وطرفة والأعشى والأخطى وأبى النّوّاس . وهو يشربها ليتسلى ويدفع هموم النفس ، ألم يقل فيها الشعراء أنها جالبة للمسرة ١١ . يقول (١) :

قهوة تهزم الهموم إذا ما نازلتها وتطرب الندماء
إن دعيتها الأنوف فاحت عبيراً أو رنتها العيون لاحت ضياء
فهى كالورد حمرّة وذكاء وهى كالليث جرة ولقاء

وله كأنى نواس زورات ليلية إلى دور الخمر وحاناته ، ومن ذلك قوله يصف زورة إلى خمار امرأة شطاء ، يقول فيها :

فأفضى بنا الإدلاج بعد تعسّف إلى زولة شطاء منزلها رخب
مؤنّرة أما أبوها فقيصر وحسبك ملك جدّه قيصر حسب

(١) ديوانه ص ٢٣ .

قَصِيرِيَّةٌ دَيْرِيَّةٌ هِرَقْلِيَّةٌ تقاصر منها الخطر وأخذوا بصلب
وقالت لنا أهلاً وسهلاً ومرحباً قليل لكم منى البشاشة والرحب

ولكن الأمير وهو ممتزج بلذاته ، بل إن هموم الأمير قد تتأني على لذاته وتستعصى ، ويريد أن يصرفها بالسلى والإنعماس في ملاذ الحواس ، فتراه في ممارسته لمتعه مع من أحب ، أو وهو يعب كأس الشراب ، تقتحم عليه صفو اللحظة خواطر الإمارة ، ومرارة الذكرى لما عاناه فيما اشرنا إليه ، فيقول مازجا الألم باللذة بعد حديث تنعمه بوصول الحبيب الذى بات ضجيجته (١) :

ولمى لآلئى كل خطب بمهجة يهون عليها منه ما يتصعب
واستصعب الأهل فى كل موطن ويمزج لى السم الزعاف فأشرب
وأغضى على مثل الأسنة صابرا ولو شئت لم أصبر ولل سيف مضرب
ولست بإقبال وإن سر فارحا ولا من عجيب يعجب الناس أعجب

والخمر فى زحمة تلك الهموم لا تقوى على مغالبتها ، فيقول :

تحليلي ما فى أكوس الرّاج راحتي ولا فى المثاني راحتي حين تطرب (٢)
ولكنني للمجد أرتاح والغلا وللجود والإعطاء أصبر وأطرب

ومع هذا فهو لا يقوى على ترك لذاته ، فهي تشده إليها وكأنه خلق لها وخلقت له ، يجمع إلى الخمر المرأة ، وله معها جولات .

تقيم والمرأة :

والمرأة فى شعر تميم ليست صاحبة ، ولا زوجا ، بل هى غالبا غانية أو قينة ، من نساء المتعة ، تمتعه حسا ، بمتع الجسد ، وصوتا ، بلذة الغناء . وغزله عامة يدور فى هذا المجال ، وهو رقيق مناسب لموضوعه . يقول (٣) :

وابأبى الطيبى الذى لو بدّا للبدر قال البدر وأظلمتاه
أثر الألفاظ فى خله فانتصفت منى له مقلته
ثم رمى قلبي بالحاذية وابأبى الحاذية من رمة
كم سفكت أجفائه من دم نمت عليهن به وجنتاه

(١) ديوانه ص ٤١ .

(٢) وتروى « تُضرب » والمثاني الأثر الثانية بعد الأول فى العدد .

(٣) ديوانه ص ٣٩ .

يا قوم ما بال ظلاماتنا
فتمنع المحبوب من زهوه
لا تطلبوا خلقاً يقتلى سوي
لو قيل لي ما تشتهي لم أقل
يا من براني حبه وانتهى
منعتني الطيف بمنع الكرى
والله لا أنسى لها قولها
متى استوث في الحب أقدارنا
في الحب لا ينظر فيها القضاء؟
وننصف العاشق ممن جفاه
فواتر اللحظ وورد الشفا
شيئاً سوي قلج غبون الوشا
لي العنا من هجره منتهاه
منى فكدرت على الحياه
من تخلف سيجف الستر واضيعته
حتى أوتيه وأبني رضاه !!

غزل رقيق ، في بسيط من اللفظ ، وتدله ظريف ، مع عبارات جارية من
متداول الحديث ، عامية ، لكنها تظرف في سياق هذا الخطاب !

والشاعر كغيره من الغزلين يكثر من حديث أحواله مع المرأة ، وتقلبها بين
اللقاء والفراق ، والشوق ولواعجه ، واللقاء ومتمعة بين تقبيل وعناق ودمع بحري
حُرقة أحياناً ، وسعادة أحياناً ، يقول في وصف الفراق في تعبير رقيق لا
كتعبيرات غيره مما ألفناه (١) :

ما ذم يوم الفراق إلا
أولهُ أنا وقوف
لا نتقي فيه عينٍ وأشي
إن هاج حرّ الوداع شوقي
لولا الفراق الذي دهانا
من غاب عن موقف الفراق
للثم والضمّ والعناق
ولا ننداري ذوى التفاق
فبالوداع اشتقى اشتياقي
والبين ما أمكن التلاقي

ويرد هذه المعاني نفسها في موقف الفراق ، وإن بدت متعارضة فيقول :

يوم الفراق أهاج لي حرقاً
قبلت من أهوى برغمهم
واريتهم أنسى أودعهم
لولا الوداع يا مليحة ما
وشفى القواد وسكن الأرقا
في الجهر لا خلساً ولا سرقا
وشربت قهوة خدجهم دققا
قبلت وجهك خمسة نسقا

أرأيت هذا الظرف النواصي ، وكيف جمع بين لوعة الفراق ، ولذة العناق .

(١) ديوانه ص ٣٠١ .

وهكذا حديث تميم في غزله عندما تصفو نفسه من كدر الملك وأعبائه وهمومه
ويخلو إلى نفسه ، ويرق ويعذب قولاً عن المرأة حين^(١) يودّعها فيقول :

قالت وقد نالها للبين أوجعه والبين صعب على الأخباب موقعه
اجعل يدك على قلبي فقد ضعفت قواه عن حمل مما فيه أضلعه
كأنني يوم ولت حسرة وأسى غريق بخر يرى الشاطئ ويمنعه
ويخاورها تارة فيلطف ، ويقول في دلّ عمرى :

قالت: أغدراً بنسافي الحب! قلت لها لا نال غاية ما يرجوه من غدرا
قالت : فلم لم تزرنا؟ قال: زاركم قلبي ، ولم يدرى جسمي ولا شعرا
قالت : كذا يكم العشاق حبهمو فينعمون ويجنون الهوى نضرا ؟
قلت : اسمح لي بتقبيل أعيش به قالت : وأى محب قبل القمرا ؟
ويقول وفي قوله سمة الحضارة والامارة^(٢) :

رائسى وفي كفى ورد أشمه وأرفعه جبا على العين والحد
فقلت: تذكره وجنتي باحبراره فقلت: ولم لا؟ تذكر الورد بالورد
وينظر كذلك في رواية حديث دها تياهة ليقول :

شبهتها بالدر فاستضحكت وقابلت قولي بالندر
وسفّهت قولي وقالت متى سمجت حتى صيرت كالندر
الندر لا يرئو بعين كما آرئو ولا يسيّم عن نعر
ولا يميّط المرط عن ناهد ولا يشدّ العقد في نحر
من قاس بالندر صفتي فلا زال أسيراً في يدى هجرى

ويمزج تميم في شعره بين المرأة ومفاتها ومتعتها بجمالها ، وبين الموسيقى والغناء ،
فيجمع بين لذة الحس والنظر ولذة السمع والطرب ، ويرى أن الغناء جالب له
السرور :

ليس إلا الغناء يظهر بشي ويقوى على جيش السرور

(١) ديوانه ص ٣٠١ .

(٢) ديوانه ص ١٣٠ .

يا نديمي اُتخذ سيواي فاني
سيما اذا بدا بلفظ رَجِيمِ
لست اُحیی بِلونِ مَشَى وزیر
وتروی بِلحِظ طَرْفِ سَحُورِ

ويكشف عن متعة السمع ، وما يحدث الغناء من لذة فيقول (١) :

ألسبت ترى سحابَ اللّهُو يهيمى
ورجع الزمر يشكو ما ألقى
على اللذات أمطار السُرورِ
إلى الأوتارِ من ألم الزفيرِ
وصوت الطبل بينهما يتأذى
فيالك من مُشاهدة تجلى
بظاهِر حُسْنِها هَمّ الصُّلورِ
ألا هبوا إلى شرب الكبيرِ

فالغناء ، والموسيقى بآلاتها بين مزمار وعود ، ويربط وجنك ، وطبل تطهر صدره من عناء الهم .

ويتذكر الحبيب في مجلس الغناء بين الكأس والزهر ، لا كذكرى عترة لبلبة وسط المعركة وبين قتام العجاج حين تلمع فيها السيوف كبارق ثغرها المتبسم ؛ يقول تميم في مجلس أنسه وطربه متذكرا محبوبه :

ذكرتلك ما بين كَرّ الكؤوس
وقد جابَ الزيرُ في جذبه
وقد أقبل اللّهُو مُرَجَى العنانِ
مع الّهمّ ترجيع صوتِ المثاني
وجابَ قمرُيسة فاجت
وعالتهُما نَعَماتُ القيانِ

والزير ونز العود الرقيق ، وهو أحد الأوتارِ نغما ، والبمّ ، وتره الغليظ والشاعر في هذا الحفل الموسيقى الغنائى وسط الطبيعة ، بهج والدنيا كلها فرحة من حوله تتجاوب أغاني القيان مع نغمات العود ، وترانيم أوتاره مع شلو الطير بين أغصان الروضة ، ألا ترى كيف أحس الشاعر في أعماقه بالطرب ، وبأن الحياة كلها من حوله في وحدة حسية ، وسبحة وجدانية يخلق فيها ، بعيدا عن واقعة في أفاق من المتعة والرواء !

ومثله يقول في مقطوعة :

كتب يا واحد الأملاك والبشر
وقد بدا الثأى في شكوى صبايته
والرّاح لم تُبق لى لبّا ولم تدر
مجاوبا لأنين الطبل والزّير

(١) ديوانه ص ١٤٧ .

وَنَحْنُ فِي طَرِبٍ مَا مِثْلُهُ طَرِبٌ
وَفِي غِنَاءٍ إِذَا حَثَّ أَوَائِلُهُ
يَسْتَصْجِبُ اللَّهُو فِي مُسْتَقْبَلِ الْعُمَرِ
أَغْنَى التَّدَامِي عَنْ الْأَنْوَارِ وَالزَّهَرِ

ويؤله أن يفقد من كان يغنيه ويشجيه ، ويذكر بفقده مجلس غناؤه ومتعته ويرى
في فقده ضياع دنياه ولذته ، ألا يقول في رثاء قينة مغنية (١) :

ذَكَرْتُكَ بِالرَّيْحَانِ ذِكْرَةً
فَلَمَّا تَنَاوَلْنَ الْغِنَاءَ شَوَادِيَا
تَتَبَعْتُ الْعَيْنَانِ شَخْصَلِكُ فِيهِمْ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَقَدْ هَامَتْ مِثْلَ مَا شَكَا
كَأَنَّ قَوَادِي مُنْذَ بَانَ بِهَا الرَّدَى
مُرْدَدَةٌ كَادَتْ لَهَا النَّفْسُ تُرْهَقُ
وَاتَّبَعَ مَزْمُومًا مِنَ الضَّرْبِ مُطْلَقُ
فَلَمَّا نَأَى ظَلَّتْ دُمُوعِي تَرَقُّقُ
إِلَى اللَّهِ فَقَدْ الْمَاءَ عَطَشَانُ مُوْتَقُ
جَنَاحٌ وَهَتْ أَجْرَاؤُهُ فَهُوَ يَخْفِقُ

صورة واقعية شجية ، رسمها الشاعر بكلماته الصادقة يعبر عن فقده لهذه
المغنية التي غيبتها الموت فجأة ، لقد اعتاد التطلع إليها وسط رفيقاتها في جوقة
الغناء ، فيحظى طرفه باستجلاء جمالها ، ويحظى سمعه ، بعذب غنائها وغابت
فتطلع الطرف يبحث عنها في لهفة وقد تردد صوت الغناء وارتفع الضرب وحلجل
اللحن ، فلم نزها العينان ، وأحس الشاعر بالفقد فجرت دموعه وغاب عن
مجلسه ليحس بأن الردى اختطف منه أنسه فاقتص من جناحه المحلق في فضاء
المتعة ، فهو ي .

والطبيعة مكملة دائما للمرأة والخمر والغناء والموسيقى وكان غرامه بالطبيعة
كغرامه بغيرها مما يحس فيه بأنس اللقاء ، ومتعة الاندماج والتسامي بوجوداته
وأحاسيسه ، يستمع إلى الناعورة تن في حقول القسطاط أو حولها في حلوان وعلى
شاطئ نيل القاهرة ، تلور ويتدفق الماء من أضلاعها فيقول :

وَنَاطِقَةٌ كَلَّمَا حُرَّكَتْ
بِمِنْ إِذَا دَارَ دَوْلَابُهَا
وَتَبْكِي وَلَيْسَتْ بِمَحْزُونَةٍ
وَتَنْطِقُ بِالصَوْتِ لَا مِنْ قَمٍ
كَأَنَّ لَهَا مَيْتًا فِي الثَّرَى
إِذَا زَمَرْتَ أَطْرَبْتَ نَفْسَهَا
وَلَيْسَتْ بِنَاطِقَةٍ فِي السُّكُونِ
فَتُطْرِبُ سَامِعَهَا بِالْأَيْنِ
بَكَاءَ الْحُبِّ الْكَثِيبِ الْحَزِينِ
وَتَذُرُّ بِاللَّمْعِ لَا مِنْ جُفُونِ
فَأَدْمَعُهَا هُمٌّ كُلَّ حِينٍ
فَعَنْتْ بِمُخْتَلِفَاتِ اللَّحُونِ

(١) ديوانه ص ١٥٠ .

غَنَاءٌ يُرْقِصُ كِيَزَانَهُ
وَتَهَيَّيْ فَوَارِعَ وَ جِه
وَيُظْهِرُ فِيهِ رُثْبَ الْمُحُونِ
وَتَصْعَدُ مِنْهَا مَلَأَ الْعُيُونِ
ويقول فيها مرة أخرى :

ناعورة أَتَتْ أَيْنَ النَهْيِ
أَيْنُهَا صَرَّةٌ تَدِيرُهَا
كَأَنَّمَا الْكِيَزَانُ فِي يَدِهَا
تَقْدِفُ بِالمَاءِ إِلَى رَوْضَةٍ
كَأَنَّمَا السَّرُّ بِهَا نِسْوَةٌ
وَيُحَسِّبُ الْحَشْحَاشُ مِنْ حَوْلِهَا
وَانْفَتَحَ النَّرْجِسُ عَنْ أَعْيُنِ
وَأَقْحَوَانِ كَتُغُورِ الْمَهَا
وَسُوسِنَ كَالْقَرْصِ لَمَّا بَدَتْ
لَمَّا شَكَّتْ حَرٌّ وَسَوَاسِيهَا
وَدَمَعُهَا مَاءٌ قَوَادِيسِيهَا
هَامٌ مُلُوكٌ فِي تَوَاقِيسِيهَا
كَأَنَّمَا رِيَشُ طَوَائِيسِيهَا
قَامَتْ إِلَى قَرْعِ تَوَاقِيسِيهَا
أَيْدٍ أَشَارَتْ بِدَائِيسِيهَا
مُضْفَرَّةٌ الْأَحْدَاقِ مِنْ يُوْسِيهَا
مُفْتَرَّةٌ بَعْدَ تَغْيِيسِيهَا
آثَارُهُ فِي لَيْلٍ نَامُوسِيهَا

وفي الناعورة يقرأ الشاعر أشياء في صوتها ، ويسبح مع خيالاته مستلهما المعاني ونافثا من صدره تَحْيِيَّاتِهِ . والناعورة تسكن وجدان كل مصري فلاح أو من يمر بالحقول ويعيش في طبيعتها ومروجها الخضراء .

والشاعر كثير الخروج إلى المروج والبساتين فسكنت الناعورة وجدانه واستلهمها بعض المعاني ومزج في الناعورة صوت الطرب بالآتين ، أنين الشكوى من الزمن وأنين الشقاء في الهوى ، وتلمس في شعره عن الناعورة هذا الدفق الغريب لأحاسيسه المتعارضة كأنما عقله الباطن ينفذ من بين الكلمات ليعبر عن مواجهه ومواجهه وأفراحه وأتراحه فيمزج الآتين بالطرب ، وينثر ألفاظ الحزن والأسى من بكاء وحزن وكآبة ودمع مع الزمر والطبل وألفاظ الغناء والموت موت الملوك مع اصفرار الأحداق ورقص الكيزان وتفتح النرجس وتغور الأقحوان المبتسم كل هذه الأحاسيس المتعارضة المتضاربة ينفثها في هذا الكلم ويتخذ من الناعورة مادة لنفثاته ، ومعرضاً لمشاعره ومجلى لتجربته النفسية ، وتراه يكرر هذا الشجى الممزوج بالشجن ، والألم الممزوج باللذة ، والحياة الممزوجة بالعدم في حديث عن الشمعة من نفثة شعيرة يقول فيها^(١)

(١) ديوانه ص ٢٥١ .

وَقَاتِفَةٌ ظَلَمَةَ الْجُنْدِ
مُتَوَجِّةٌ فَوْقَ يَا فَوْخِهَا
إِذَا أَوْقَدَتْ نَثْرَتْ أَدْمَعًا
وَإِنْ نَامَ جُلَاسُهَا لَمْ تَنَمْ
وَيَقُولُ فِيهَا مَرَّةً أُخْرَى :

وَصَفْرَاءُ تُكْثِرُ إِيْنَسَهَا
تُعَازِلُهَا الرِّيحُ فِي مَرَّهَا
وَلَمْ أَرْ مَنْ قَتَلَتْ نَفْسَهَا
تَعِيشُ إِذَا قَطَعُوا رَأْسَهَا
وَلَكِنْ تُقَطِّعُ أَنْفَاسَهَا
سِوَاهَا لَتُسَبِّحَ جُلَاسَهَا

ولذة الصيد والطَّراد هي من ملاهي الملوك والسَّادة ، منذ الجاهلية الأولى جمعها
امرؤ القيس إلى متع الخمر والنساء . كذلك فعل غيره من مرفهى الشعراء بعده
على اختلاف العصور ، واتخذوا للطرد وزن الرجز ليتلاءم الإيقاع مع المضمون .
ونذكر بهذا طرديات أبى نواس وما جمعه كشاجم في المصايد والمطارد . يقول
تميم يصف فرسه في طرده للصيد :

مُسْتَكْمَلُ التَّحْجِيلِ مُسْتَوْفَاهُ
أَدِيمُهُ وَبَطْنُهُ أَشْبَاهُ
مُخَالَفٍ أَسْفَلُهُ أَعْلَاهُ
بُدْهَمَةٌ قَدْ مَلَأَتْ قِرَاهُ^(١)
وَانْصَبَّغَتْ مِنْهُ أَلْيَتَاهُ
فَهُوَ دُجْبَى يَحْمِلُهُ ضَحَاهُ
تَسْبِقُ أَقْصَى لَحْظِهِ خُطَاهُ
لَا يَطَأُ التُّرْبَ وَلَا تَلْقَاهُ
رِجْلَاهُ فِي الْعَدْوِ وَلَا يَدَاهُ
كَأَنَّهُ يَطِيرُ فِي مَجْرَاهُ
إِذَا دَعَا لَيْتَ الْقَلَا لَبَاهُ
أَسْرَعُ لِلشَّيْءِ إِذَا ابْتَعَاهُ

(١) قراء : ظهرو .

من مِلْنِ السَّهْمِ لِمَنْتَهُ
مُرْتَبِطُ الرَّجُلِ بِمَا يَرَاهُ
كَالْفَيْضِ مُلْتَفّاً بِهِ مَعْنَاهُ
تَحَسُّدٌ مِنْهُ يَكُونُ رِجَالَهُ
يَسْبِقُ أَخْرَاهُ بِهِ أَوَّلَهُ

وهو وإن كان قد فصل معنى امرئ القيس في وصف فرسه حين قال :
مِكْرٌ مِقْرٌ مِقْبِلٌ مَدْبِرٌ مَعاً كَجُلُودِ صَخْرِ حَطَّةِ السَّيْلِ مِنْ عِلٍ
ووصفه بأنه قيد الأوابد ، إلا أن إيقاع الرجز وتفصيلات الحركة السريعة التي
تتبعها مع أعضاء جواده أرجله وبطنه ، اكتسبت أبيات تميم إيقاع الطرد وثبت فيها
حيوية الأقبال والادبار وسرعة العدو . ويتصل بهذا الموضوع الصيد حديثه عن
البازي من طيور القنص حيث يقول (١) :

وَأَشْهَبُ خَلْبُهُ شَبَاهُ
كَلِّ ذَوَاتِ الرِّيشِ مِنْ عِدَاهُ
بَاتَ يَهْبِجُ جَوْعَهُ غَدَاهُ
كَأَنَّ فَصَى ذَهَبٍ عَيْنَاهُ
يَكَادُ أَنْ يَحْرِقَهُ ذَكَاهُ
لَوْ طَلَبَ الْكُوكَبَ لَالْتِقَاهُ
بَيْنَاهُ يَبْغِي جَائِعاً قَرَاهُ
إِذْ وَقَعَ الْحَبْرُجُ فِي رُؤَاهُ (٢)
وَحَلَّهُ الْقَابِضُ مِنْ يُسْرَاهُ
وَطَارَ يَهْوِي نَحْوَهُ يَغْشَاهُ
حَتَّى إِذَا قَارَبَهُ عِلَاهُ
بِوَقْعَةٍ هَدَّ بِهَا قَوَاهُ
كَمَا وَهَى مِنْ شَطَنِ رَشَاهُ
ثُمَّ بَدَأَ وَهُوَ عَلَى أَقْفَاهُ

(١) ديوانه ص ٢١ .

(٢) الحبرج : من طيور الماء .

وبين من فؤاده حشاؤه مُخصِّباً من دَمِهِ ثَرَاهُ

وإذا كان الشاعر قد وصف البازي من طيور الصيد ، وتتبع هذا الطير الجارح يفتال فرائسه من البغاث ، فقط تعاطف مع نوع آخر من الطير اتخذه الشعراء أليفاً ونحيباً ، أعنى الحمام ذلك الوديع النائح ساكن الطلح ، أو القمرى الغرد فى الروض ، ويعرض لهذا الطير فى معرض الذكرى والنسيب والشوق إلى الحبيب كغيره من الشعراء المحيين ، والذكرى تجمع العاشقين ، فالحمامة تبكى الهديل النَّازح .

والشاعر يقول :

وَعَرَّدَ فِي أَعْلَى الْأَرَاكِ حَمَامٌ	أَنَّ نَاحَ قَمَرِيْ بَغْضَنِ بَشَامَةٍ
لَهُ بَيْنَ أَحْنَاءِ الضُّلُوعِ ضِرَامٌ	أَهَاجَ لَكَ التَّدْكَارُ شَوْقًا كَأَنَّمَا
وَهَلْ بَعْدَ تَوْدِيْعِ الْحَبِيبِ مَقَامٌ	تَحْلِيْلِيْ هَلْ بَعْدَ الْفِرَاقِ تَوَاصُلٌ
عَلَى الْقَرَبِ مِنِّيْ ، وَالذَّنُوْ حَرَامٌ	دَهْتَنِيْ الثَّوِي حَتَّى كَانَ أَحْيِي
وَأَوْهَى جُمَانِ الدَّمْعِ وَهُوَ سِجَامٌ	وَمِمَّا اسْتَهَامَ الْقَلْبَ وَهُوَ مُصَدِّعٌ
وَتَسْهَرُ فِيهِ اللَّيْلُ وَهُوَ نِمَامٌ	مُطَوَّقَةٌ وَرَقَاءُ تَنْدُبُ شَجْوَهَا
عَلَى تَوَجُّعِهَا مَشْهُورَةٌ وَغَرَامٌ	تَنُوحُ بِلا دَمْعٍ ، وَلِلْحُزَنِ آيَةٌ
كَأَنَّكَ مِمَّنْ أَسْكُرْتُهُ مُدَامٌ	أَلَا يَا حَمَامَ الْأَيْلِكِ مَا لَكَ وَالْهَآ
وَكَلَّ مُجِبُّ الْفِرَاقِ يُضَامُ	كَلَانَا مُجِبُّ صَدْعِ الْبَيْنِ سُمْلُهُ

ويغرم الشاعر بجمال الطبيعة ، رياضها ، وأزهارها ، وهو عاشق للزهر يتوسم فيه جمال الخلقة ، وبدع الخالق ، يرى اللينوفر زهر الماء المشوب بزرقة ، والذي يفتتح للشمس بالضحى ، فيشارك الشاعر نشوة الصُّبُوح يقول (١) :

يَقْضِي بِذَلِكَ شَوَاهِدُ اللَّيْنُوفِ	فَضَّلَ الصُّبُوحَ عَلَى الْغُبُوقِ مُبِينٌ
زُرْقِي وَحُمْرِي كَاخْتِلَافِ الْجَوْهَرِ	يَبْكُو إِذَا انْبَسَطَ النَّهَارُ بِأَعْيُنِ
بُورُودِهِ خَوْفُ الرُّقِيْبِ الْمُبْصِرِ	وَيُعْوَضُ تَحْتَ الْمَاءِ إِنْ هَمَّ الدُّجَى

وإحساسٌ تميم بالزمان ، وأنه ينقضى وينقضى معه الشباب ومجتمع اللذات

(١) ديوانه ٣٩٧ .

(١) ديوانه ص ١٧١ .

إحساس عميق ، يقتحم عليه لذاته ، وينغص متعته بنجمال الحياة لأن خيال الموت يراوده ، وهو بين الخوف منه والتعلق بأسباب الحياة في صراح محموم . يقول معللاً شدة إقباله على ملاهيته من زينة الدنيا ومفاتها (١) :

يا لائمي في أن خلعتُ العذار	ما ترك الحُبُّ لِقَلبي العذار
الصبرُ أولى غير أن الهوى	أحلاه ما لم يكُ فيه اصطبار
كم ولهي فيه وكم عبرى	ومحرق من غير نار بنار
ولو تأملت وجدت الصبا	أخف من حلم ثقل الوقار
هل بعد طي العمر إلا الليلى	وهل ورأى الشيب إلا البوار
عصر شباب المرء ضيف له	يمضي وأيام التصابي قصار
فخذ من اللذة من قبل أن	ينأى بلذاتك بعد المزار

وبعد فقد عاش تميم حياته طولا وعرضا ، وانهب اللذات انتهابا ، وكأنه بهذا الصنيع يطرد هموما تطارده ، ويريد أن ينسى ثقل آثيته ، وقصر أيام العمر مهما طال ، ويحدثنا المقرئ عن حال الأمير الشاعر في موكب له بركة الحبش أيام الأعياد فيقول (٢) : « إذا جاء الليل خرج الأمير تميم بن المعز في مائتي فارس بين عبيده بالعسس على المتنزهين بالبركة بالليل أيام الأعياد إلى أن يقضوا من اللهو والنزهة أربهم وينصرفوا فيسكرون وينامون كما ينام الانسان في بيته ، ولا يضيع لأحد منهم ما قيمته حبة واحدة .

ويركب الأمير في عشاري ويتبعه أربعة زوارق مملوءة فاكهة وطعاما وشرابا ، فإن كانت الليالي مقمرة وإلا معه من الشموع ما يعيد الليل نهارا ، فإذا مر على طائفة ، واستحسن من غنائهم صوتا أمرهم بإعادته ، وسألهم عما عز عليهم فيأمر لهم به ، ويأمر لمن يغنى لهم وينتقل منهم إلى غيرهم بمثل هذا الفعل عامة ليلة ، ثم ينصرف إلى قصوره وبساتينه التي على هذه البركة ، فلا يزال على هذه الحال حتى تنقضي أيام الأعياد ويفرق الناس » .

(١) ديوانه ص ٢١٧ .

(٢) خطب المغربي ١٥٤/٢ .

تقيم وهموم الحياة والنفس :

في شعر تميم نلتقي أحيانا بقصائد ذات نغم حزين ، ينفث فيها همومه ، ولعل أحزان الشيعة التقليدية ، تختلط بأحزانه هو فتخرج هذه الآيات المليئة بالشجن ، ومنها هذا الرثاء لآل البيت :

أعاذل لي من فسحة الصدر مذهب	وللهو غيري مالف ومعاد
ثوث لي أسلاف كرام بكر بلا	هم لشغور المسلمين سدا
أصابتهم من عيد شمس عداوة	وعاجلهم بالناكثين حصاد
فكيف يلد العيش صفوا وقد سطا	وجار على آل النبي زياد
بثارات بذر طابوهم ومكة	وكادوهم والحق ليس يكاد
فحكمت الأسياف فيهم وسلطت	عليهم رماح للنفاق جداد
فكم كربة في كربلاء شديدة	دهامهم بها للكائدن كباد
وكم بأعلى كربلاء خفائر	بها جثت الأبرار ليس نعاد
بها من بني الزهراء كل سميدع	جواد إذا أعى الأثم جواد
معفرة في ذلك القرب منهم	وجوه بها كان النجاح يفاد
فلهفي على قتل الحسين ومسلم	وخزي لمن عاذاهما وبعاد
ألا كبد تفنى عليهم صباة	فتفطر حزنا أو يدوب فواد
ألا مقلة تهجي ألا أذن تبعي	أكل قلوب العالمين جماد ١٩

وفي هذا المجال من تحسره على مقتل الطالبين من آبائه يعرض لزم العباسيين فيقول موجها إليهم الإتهام باغتصاب الخلافة :

زعمتم أنكم لنا غصباً	فتمتم ، وبالزعم يخطلكم والدعا
لا ندعي ما ليس يعرفه الوري	منا إذا كذب المفاجر وأدعي
وإذا تصنع للعلا متصنع	لم نأت أفعال الجميل تصنعا
شرف نيتة لنا البتول ويعلها	وأبنائها ، حتى رسا وتمنعا
واستودعوه بعدهم أبناءهم	فبنوا عليه وشيئوا المستودعا
نحن الذين بنا الكتاب منزل	وبنا يحيب الله دعوة من دعا

ويقول معرضاً بالأموية (١) :

(١) ديوانه ص ٤٥٩ .

إني وآبائي وقد	في والكرام الأحمديّة
ذاقوا الردى وتجرّموا	بيد الدعيّ ابن الدعيّة
بيد العويّ ابن العويّ	ابن العويّ ابن العويّة
الناقضين الناكسين	على الشريعة والبريّة
البائعين صوابهم	في كلّ أمر بالخطيّة

ولهموم الشاعر أسباب أخرى غير ما زرع في وجدانه بإعتباره علويّا فاطميّا من
أحزان مقاتل العلويين واغتصاب الأمويين والعباسيين لحقهم ، فنراه يذم الزمان ،
بادئا الحديث بمناجاة الحمام ، فيقول :

أقول لسرّيب من حمام عرضني	يغرّدن من فوق العُصُور ويندبن
ويستكنّ في حضراء ناعمة الرّيا	أنيقه روض الثّيب ، آنسة المغنّى
بوارح لا يحشّين بيتاً ولا نوى	روائح لا يعرفنّ همّاً ولا حُزناً
فقلتُ هنيئاً للحمام أمائه	وإنّ كائن الأيام لم تُعطني أمناً
أسرّيب الحمام لو لقيتُ بعض ما	الآقي لأصبحنّ أول من يضنّى
ولو قد علمتُ الذي أأنا عالم	لما نأح فيكم هاتِف ، لا ولا غنّى
ومن جرّب الأيام تُجرّبتني لها	درى أنها ليست تلوّم على معنّى
فحسبك ما أهجوك يا زمينى به	من الفعل أنّى لم أحسن بك الظنّا
ذمّناك يا صرف الحواديث فانتصبر	وسؤناك يا صرف الزّمان فخذ منّا

ويشكو هذا الظما النفسى ، فيقول في قصيدة يمدح أخاه العزيز تزاراً :

خليلى لي ظمّاً أراه	يُردّه علّيل من حيّا
فلا تستشيماً بروق السحاب	فأجدرى شيم بريق الظبا
أعينا أنا لكما لم يث	على طول مسراه يشكو الرّجى
ولم ينشّرخ قلبه من أسى	ولم تُخل أحشاؤه من سجوى

كذلك وفاءه وصافى الصدق في علاقاته ، يقول (١) :

لا شىء أحسن من خليلي غبطة	يتراضعان لبان كلّ وفاء
هذا يُناجى ذا هوى وتحافظاً	أبدأ ولم يستمتعا بِلِقَاء

(١) ديوانه ص ٣١ .

ويقول في المعنى نفسه :

لا أدعى الفضل قبلَ يشهد لي به أداني الدنا وأقصاها
ولا أرى لي على الصديق يداً تُفسد إنعامها بنعمائها
من اصطفاني بوده فله عندي يد كالجبال صغراها

وشعره المتبادل مع صديقه أبي عبد الله حسين بن إبراهيم الشريف الرّسى يكشف من صداقة وثيقة ، تبادل فيها الصديقان أجمل مشاعر المحبة والوفاء^(١) .

صنعتة الشعرية :

يبدو من شعره أنه شاعر موهوب ، أو هو شاعر بالفطرة ، يحس الجمال ويعيشه بجوارحه ، ويتعاطف مع مجاليه في كل مظهر ، في الإنسان والحيوان والطير والنبات والجماد ، ويقرأ قسماته في الشكل واللون والصوت والحركة . أحس الشاعر بموهبته ، فاقبل على الشعر ، ولم يبخل عليه الشعر بوارداته ، وأفانينه بل أعطاه ، ما فرغ له .

لاحظ النقاد في صنعتة الشعرية أشياء تتصل باللفظ ، ولم يكن متكلفاً لكلماته ، بل ساقها كيفما خطرت على باله ، لم يعن نفسه في البحث عن كلمة غريبة ، بل جاءت كلماته سهلة سلسلة ، قد تحس بأن الشاعر أحياناً لم يراجع نفسه فيها بل تركها تنفذ وتأخذ مكانها من نظمه ، فهو ليس من الشعراء الصناع المتكلفين ، ولا النظاميين المحترفين .

وقد اتهمه بعض حساده ، والحاquدين بأنه لا يصنع شعره بنفسه ، بل هناك من يرفده ، وهذه إفريّة يرمى بها كل موهوب ، وقد وهب الأمير حظين في الحياة حظ الأمانة وعيش الثراء والنعمة ، والتمتع بكل أسباب النعيم ، وحظ الشعر فكان هدفاً لحسد الحساد وحقد الحاقدين .

ونجد في شعره رداً على هؤلاء ، ونفياً لاتهمهم إياه بالاعتماد على غيره . يقول :

أرى أناساً ساءَ بي ظنُّهم في كلّ ما قلت من الشعرِ
فقد تطاطا بهم علمُهم قاسوا بأقدارِهِم قَدْرِي

(١) راجع ذلك فيما يلي من شعر الحسين الرّسى .

قالوا : سواء صانع كل ما
لو فهموا أو عَقِلُوا لَأَسْتَحُوا
قيسوا بشعري شِعْرَهُمْ تَعْلَمُوا
من بطل الحق هجا نفسه
فناظروني فيه أو فاشرخوا
أولا فقولوا : حسد قاتل
يأتى فى السر والجهر
أن يجعلوا المريح كالبدري
تضائق النهر عن البحر
بجهله من حيث لا يدري
شعري أن أنكرتموا أمري
مُستمكن فى القلب والصدر

ويقول أحد النقاد من درس شعره^(١) : « ولا حاجة إلى القول بأن اهتمام الشاعر تميم بن المعز كان يشاركه في عمل شعره إنما هو اهتمام يحتاج إلى دليل وما هو ذا ديوان تميم بن المعز كله على ضخامته بين أيدينا نقرأه مرة ومرة ثم نبدي ونعيد النظر فيه ، ثم نتقل من صفحة إلى صفحة ومن قطعة إلى قطعة ومن قصيدة مطولة إلى أخرى ، فنجد النفس فيها مستويا لا دخل لنفس آخر فيه . »

ولعبت العصبية السياسية والدينية دورا في التقليل من شأن الشاعر وشعره بل وفي إهماله ، وإهمال أخباره وأحواله ، مع إفاضتهم في أخبار غيره ممن يقلون عنه شأنًا ومكانة اجتماعية وفنية ، فلم يعره المؤرخون والمترجمون لحياة الأدباء من بعده الأهتمام الذى يستحقه لأنهم كانوا من أهل السنة ، فقد غلب هذا المذهب على مصر واضطهد علماءه كل من انتمى إلى الدولة الفاطمية أو تشيع من الشعراء والأدباء والعلماء ، وكان الإنكار والتجاهل والتخامل ديدن علماء الدولة الأيوبية التى أعقبت الدولة الفاطمية على مصر ، وجعلت همها نحو كل أثر لتلك الدولة إلا من عصم ربه من هذا التعصب من بعض الأدباء كابن سعيد المغربي الذى أشار إلى تميم في كتاب المغرب الجزء الخاص بمصر أكثر من مرة ، ونوه ببعض شعره في كتاب « عنوان المرقصات والمطربات » ، فاختار من شعره المرقص قوله متغزلاً :

أطلع الحُسن من جبينك شمساً
فوق وردٍ من وجنتيك آطلاً
فكان العذار خاف على الورد
جفافاً فمد بالشعر ظلاً
ذلك أورد له صاحب الدمية قوله :

(١) محمد عبد الفتى حسن في كتابه الأمير الشاعر تميم بن المعز من منشورات دار الرفاعي بالرباط .

وباليلة بات فيها البدر مُعْتَقِي
وأمست الشمس لي من بعضي جَلَامِي
وبت مُسْتَعْنِيَا بِالْتَّعْرِ عَنْ بَرْدِ
وبالحُودِ عَنْ التَّفَاحِ وَالْأَسْرِ
كما أورد بعضا من أبياته الثونية التي حاكى فيها عبد الله بن قيس الرقيات
وهي :

أَسْرَبَ مَهًا عَنْ أُمِّ سِرْبُ جَنَّةِ
حَكِيَّتُهُنَّ وَلَسْتُ نَ هُنَّ
أَلْتَنُّ أَنْجُمُ ذَا الْجُرِّ أُمِّ
بُرُوجُ النُّجُومِ جَلَابِيْنَه
ولم أرغيدا سواكن مسن
فاشبهن في لينهن الأعنة

ويمكن من شعره أن ندرك حفظه لشعر كثير من الشعراء المعروفين ، ويحاول
عامدا أو غير عامد أن يستعين بصياغتهم ، أو قد تفلت على لسانه قوال تعبيرة
لهم ، وتحس أحيانا في بعض أوزانه أنه وضع نموذجا لقصيدة شاعر بعينه أمامه
فاقتدى به أو تأثر بأسلوبه كهذه الأبيات التي اشرت إليها معتمدا قصيدة لابن
قيس الرقيات يقول فيها :

بَكَرْتُ عَلَى عَوَازِلِ يَلْحِيْتَنِي وَالْوُهْمُ هُنَّ
وإن لم يماثله وزنا بل قافية .

وعارض داعي الدعاة تميما على الوزن نفسه ، كما ركه أيضا أبو العلاء ، في
قوله من اللزوميات :

لَأَمْوَاهُ الشَّيْبَةِ كَيْفَ غِضْنَتُهُ
وَرُوضَاتِ الصَّبَا كَالْبَيْسِ إِضْنَتُهُ
وكا اقتدى بالمتنبي في مدحه العزيز بالله تزار إذ قال (١) :

مَا قَالَ أَوْهُ لَفَقِدَهُ وَاهَا
كُمُسْتَرِيحِ الْقَوْلِ أَوَاهَا
تَبَرُّمُ النَّفْسِ مِنْ بَلَابِلِهَا
يُفْسِدُ إِقْرَارَهَا وَدَعْوَاهَا

وهما صياغة مماثلة لصياغة المتنبي في قوله : « أوه بدليل من قولتي واهاه » ، وكا
جاء في شعره يمدح أخاه العزيز كذلك :

أَرَى أَنَا سَاءَ وَلَكِنْ جَلَّهْمُ نَعَمَّ
كَثْرَ قَلِيلٍ وَمَوْجُودُونَ قَدْ عُدُّوْا

(١) ديوانه ص ٣٤ .

من قول المتنبي ووزنه :

أرى أناساً ومحصول على غنم

ونستطيع القول بأنه حين نظم هذه القصيدة كان مستحضراً في ذهنه قصيدة المتنبي الميمية هذه .

وكا يستعين بالشعر القديم ، فهو متأثر كذلك بأسلوب القرآن لفظاً وصياغة كقوله في ارجوزه مفتخراً بنسبه للنبي ﷺ (١) :

أنا ابن من شَفَّعَ يومَ المحْشَرِ
وابنُ الذي خُصَّ بنهرِ الكَوْثَرِ
وابنُ المعالي والفَخارِ الأشهرِ

ويقول مادحا العزيز (٢) :

يا حُجَّةَ الله التي أشرقتَ فينا ويا صاحبَ كنزِ الجِدارِ

يشير إلى قوله تعالى في سورة الكهف « وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما » (٣) ، ويطلق الجدار في التأويل الإسماعيلي على الدعوة ، وكنز الجدار على الإمامة ومنه قوله مادحا :

يكفَى عدوك أن الله يلعنه	وأنه لا يرى إلا على حنرٍ
وإنَّ كلَّ قَوادٍ عنه متقبضٌ	وكل قلب له أقسى من الحَجَرِ
جفت الخلافَةُ لما أن دعوتك كُما	واقى لميقاته موسى على قَدَرِ
كالأرض جادَ عليها الغيثُ مُنْهَمِلًا	فزانها بضروب الرُّوضِ والزَّهرِ
ما أنتَ دونَ العالمينَ نبوي	روح من القُدسِ في جِسمٍ من البَشَرِ
نورٌ لطيفٌ تناهى فيك جَوهَرُهُ	تناهى حازَ جوَّ الشمسِ والقَمَرِ
معنى من العلة الأولى التي سَبَقَتْ	تخلَقُ الهيكلَ ويسطُرُ الأرضَ والمدَرِ

قوله معنى من العلة الأولى يشير إلى مثل ومثوله العقل الكلي أو المبدع الأول الذي سماه هنا العلة الأولى ، وهذه كلها معانٍ من عقائد الإسماعيلية وبهنا هنا

(١) ديوانه ص ٢٤٠ .

(٢) ديوانه ص ٢١٩ .

(٣) سورة الكهف آية ٢٢ .

توظيفه لبعض عبارات القرآن الكريم في سياق معانيه التي مدح بها الخليفة كقوله : « كما وافى بميقاته موسى على قدر » وقوله روح من القدس وقد يستعمل مصطلح العقائد والمثل كقوله : (١)

تَشِيْعُ الحُسْنُ فِيهِ إِذْ أَلَمَّ بِهِ وَقَلْبُهُ نَاصِيصِي لَيْسَ يُقْتَفَرُ (٢)
ويستخدم في بعض الأحيان من قاموس الشعر العربي القديم ألفاظاً لأسماء الأماكن والنبات والحيوان التي كثر دورانها فيه كقوله : (٣)

رَبْعٌ لَأَسْمَاءَ يَرْبِيعُ دَارِ بَيْنَ نَقَا الصَّمَانِ فَالضَّمَارِ (٤)
تَابَدَتْ إِلَّا مِنَ الْإِقْفَارِ وَمِنْ شَجِيحٍ فِي الثَّرَى مُوَارٍ (٥)
وَشَطْرٌ ثَوِي دَارِسِ الْأَثَارِ كَأَنَّهُ مُقْسَمُ السُّوَارِ
أَخْنَى عَلَيْهَا كُلَّ غَادٍ سَارٍ وَإِنِّي الرَّيَابِ شَابِجِ الْأَقْطَارِ (٦)

فهذه الأبيات من أرجوزة بدوية الطابع ، جاهلية البناء واللفظ والأخيلة والصور يقول فيها واصفا السحاب والمطر :

وَاهِي الْكَلَى مُنْفَتِحِي الْأَزْزَارِ كَانَ لَمَعَ بَرْقِهِ الْمُكَارِ
يَفْتَرُّ مِثْلَ أَوَارٍ الثَّارِ أَوْ مُنْتَضِي سَيْفًا مِنَ الثُّنَارِ
أَوْ لَاعِبٍ فِي الْأَفْقِ بِالشَّرَارِ يَكَاذُ أَنْ يَذْهَبَ بِالْأَبْصَارِ
حَتَّى إِذَا أَرْتَحَى عَلَى الْقِفَارِ هِيدْبُهُ لَيْلًا بَلَا انْفِجَارِ
وَكَمَحَلِّ الْجَوِّ بِبَيْثِلِ الْقَارِ وَقَامَ فِيهِ الرُّعْدُ كَالْمِزْمَارِ
غَنَتْ لَهُ الرِّيحُ بَلَا أَوْتَارِ مَا ظَلَّ فِي رَفِيعٍ وَفِي انْجِدَارِ

ويخلو له أحيانا في مثل هذا الرجز البدوي أن يمتن بعض الرجاز المعروفين من أمثال رؤية والعجاج كقوله (٧) :

- (١) ديوانه ص ١٣٢ .
- (٢) والناصبة عند الشيعة هم أهل السنة لأنهم نصبوا خليفة لهم من عند أنفسهم وتركوا صاحب الحق الشرعي وهو علي بن أبي طالب في رأيهم .
- (٣) ديوانه ص ١٧٥ .
- (٤) القمان والضمار مواضع بالجزيرة العربية .
- (٥) الشجيج الوتد .
- (٦) الرياب السحاب .
- (٧) ديوانه ص ١٨٠ .

وصامت الخو بعينه الفرقد
مَرَّتْ الرِّيا عاري العراء قدفد
مشتبه الأعلام جهنم المشهد
يحار فيه كل هاد مهتد
صلد السباريت صليب الجلمد
يمرض فيه الريح بعد المقصيد
والسباريت جمع سبروت وهو القفر لا نبات له .

ألا ترى كيف تبدى تيم وخلع عن نفسه ثوب الحضارة .
وأراجز تيم البدوية تنفرد وحدها عن قصائده ولها خصائصها الفنية المميزة .
وأما معانيه فكثيرا ما تلبس ثياب القديم ، أو قل هي الصور التقليدية للمعاني
وإن كان يدخل عليها بعض التجديد من قاموس المحدثين والمولدين .
فمن تشبيهه للبرق بالسيف :

يلوح ويخو في السماء كأنه
سيف بأرجاء السماء تقلب
وهذا يذكر بيت الشعر القديم :
يلو وتضمه التلاع كأنه
سيف على شرف يسلم ويغمد
وكذلك معاني ذو الرمة في تعبيرة عن سلوكه الليل في الصحراء ومعه راحلته
وسيفه يقول^(١) :

وليلة أسريت فيها ولا
كالمقلة الدعجاء زنجية
وصاحبي ذو رونق صارم
أنحف من ضعف نسيم الصبا
حتى طرقت الحى من وائل
والقوم من سوره كأس الكرى
بلد ينير الأرض إلا سرار
كافرة لمع نجوم المدار
مدرج المتنين ماضى الغرار
حدا ، وأمضى من ظبا الأحوار
والجو مكحول النواحي بقار
كأنما يهملوا بصرف العقار
لكن الشاعر هنا يمزج ما أخذه من معنى ذى الرمة بأخيلة جديدة من عنده
فهو يكسوه ثيابا جديدة فضلا عن تفصيله وتوليد .

ومن صورته التشبيهية التي احتذى فيها المحدثين قوله يصف الروض غب
المطر^(٢) :

(١) ديوانه ص ٢١٧ .

(٢) ديوانه ص ٣٠٤ .

أما ترى الرعد بكى واشتكى
فاشرب على غيم كصبغ الدجى
والبرق قد أومض فاستضحكا
أضحك وجه الأرض لما بكى

اعتمد فيه قول الشاعر العباسي :

كل يوم بأقحوان جديد
وعلى أن بعض معانيه الغزلية تجري
تضحك الأرض من بكاء السماء
المعروفة من مثل قوله :

إن الطعائن يوم رحلة عاجل
أبرزن من خلل الستور محاجرا
ملكن كل حشى لكل غرام
مكحولة بملاحة وسقام
واردن تسليما وخفن مراقبا
وسمن عن كالدر العس أشنب
فبعثه بإشارة الإيهام
وسفرن عن كالشمس تحت ظلام
حتى يقول :

لو كنت أقضى بالتناسخ في السورى
ولانغماسه في لذة النساء والخمر تراه يشفق منها بعض تعبيراته ويشفق
لحسبت أنى عروة بن حزام
استعاراته ، من مثل قوله :

كان برد نسيم الغيم حين بدا
ويغرب أحيانا في خيالاته وصوره فيصور خصلة الشعر مضربا وتفتح الخد
بردارتشاف حبيب زار في السحر
كرة ، فيقول :

كأنما صولجان عارضة
وتكثر صورته الجديدة في موضوعاته الحضرية ، في خمرياته ، وغزلياته ،
وروضياته .

يقول ذاكرة مجلس شراب وسط روضة غناء :

شرينا على نوح المطوقة الورق
معتقة أفنى الزمان وجودها
وأردية الروض المفوفة البلق
فجاءت كفوت اللحظ أورقة العشق
لنا ، وكأن الراح فيها سنا البرق
كان السحاب الغرأصبحن أكوسا

فبتنا نحث الكأس حثاً وإننا لنشربها بالحث صرفاً، ونستقي
إلى أن رأيتُ النجم وهو مغرب وأقبلن رايات الصباح من الشرق

ويصف الصبح مرة أخرى وهو يذوب على الهواء ، فيقول :

والصبح قد ذاب على الهواء كالثلج أو كالفضة البيضاء

وفي مجالس الخمر والطعام صورٌ شعرية لتلك المجالس ، يفيض عليها من خياله
ضروباً من التعبيرات الاستعارية ، والتشبيهات الغريبة كأن يصف مجلساً له ويطلب
إلى الساق أو النديم أن يسقيه في وزن موافق وقافية بائية ساكنة ملائمة في إيقاعها
لصخب المجلس . يقول^(١) :

فقم إلى الراح فشب	بالماء منها ما صلب
وسقني بنت العنب	واقض من اللهو الأرب
أما ترى العود اصطخب	وقد مشى الزمر خبيب
والطبل يحبو ويشب	والراح ترمى بالحبيب
تدور في غير قطب	تقتل سكرًا من شرب
إن ترم ندمانًا تصب	فعقله لها سكب
لكن يعود عن كتب	فاشرب وثب من ذى النوب
ما لأن واترك ما صعب	وعد عن ليت ورب
فالدهر قدما ذو شغب	فاقطع لياليه طرب
فكم نأى ما قد قرب	وارتد مرا ما عذب
وتعاد بالأمن الرهب	والهم عجز وتسعب

فهذه الباء الساكنة مع المجزوء الدافق لهذا البحر الذى اختار لايقاعه يماثل
صوت الطبل ، وتردد ضرباته ، فى صخبة وعريدته .

ويصف لنا مجلساً من مجالس العزيز بالله نزار غنى بأصناف الطعام والفاكهة
والزهر فيقول :

ومجلس قد حاز من حسنه	مثل الذى حاز من المجد
يضحكك للتفاح نارنجه	ويغمز النرجس للورد

(١) ديوانه ص ٧٣ .

وألبس التارنج ما بينها
وانتصب الليمون من حوله
صفرة من عذب بالصيّد
مثل انتصاب النّهد للنّهد

وفى صورة للطبيعة من رياض وبساتين يصور النرجس صورة خيالية فيقول ومن حوله النسرين والآس :

إذا رنا نرجسك المشتبه
كأنما فاجأها كاشح
بأعين فبهن إطراق
بكل ما تكره سباق
فابيض منها لمناجاته
وابتسم النسرين من حوله
واستأبس الآسى من الملتقى
فهو من الرعدة خفاق

وفى صورة الخيالية للسحاب وقد انقشع فأطلت الشمس من ورائه لتلقى بأشعتها على الروض ثم تعود فتختفى^(١) :

أو ما ترى شمس النهار ودونها
ينجاب عنها تارة فيبينها
من مستهل الغيم ستر مسجف
وتغيب طورا في دجاء فتكسف
فكأنما لبست قباء أزرقا
وبدا لنشر الروض من بعد الندى
ورد حكى خجل الخدود ونرجس
فعيون ذاك بعسجد مكحولة

فهو ينفق فى صورة من ما عون بيته كما كان حال ابن المعتز ، فأدواته من الخز والعسجد وما إليها .

ومن غرائب خيالاته فى التشبيهات المفردة قوله يصف السماء ليلا والنجوم تتخللها :

وكأن الدجى غدائر شعر
وكأن النجوم فيه مدارى
وهى صورة غريبة فى تركيبها ، وإن كانت جزئياتها مطروقة ، فتشبيه الليل بالشعر أو الشعر بالليل جار فى كلام الشعراء ، لكن جعل النجوم كالمدارى تتخلل ظلام الليل أو سواد السماء ، فهذا هو الخيال الغريب .

(١) ديوانه ص ٢٢٢ .

كذلك تعبيره عن زوال الليل واشراق الصباح بنوره وهم في سكرة من كؤوس
الخمر :

لم نزل فلهم الكؤوس إلى أن دفن الليل في فؤاد النهار
مرأى خيال غريب في قوله : (دفن الليل في فؤاد النهار) !

وصوره كما قلنا مأخوذة من عالمه الذى يعيش فيه ، عالم القصور بما تحوى من
فاخر الرياش وأواني الذهب والفضة ، والحلى وثياب الخز والمطارف والطرز ومن
الجواري الحسنان وصور الغلمان والعبيد من الروم والسودان ، ومن البساتين
العامرة بألوان الزهور والتجار والمياه الجارية .

كما أخذها من مختزنه الثقافي ، من صور الشعر القديم ، ومن مختزنه التاريخي
والعقيدى من سير الأسلاف ، وأحداث التاريخ ، وما اتصل منه بالأحداث التي
لحقت بأئمة الشيعة والعلويين ، ألا تراه يوظف مقتل أئمتهم في قوله مبتغزلاً (١) :

لا تمكن لحظ عينيك من قتلى فما اللحظ فيه بالمغдор
لا تكن للنبي فيه خصيما عند رب النبي يوم النشور

فما أنه أحد أبناء الحسين حفيد النبي ﷺ ، فإن قتله يغضبه ، فيكون
خصيما يوم الحشر فلا يشفع له حين يشفع لأمة .

بناء القصيدة :

والقصيدة عند تميم عامة يتردد في بنائها بين القديم والحديث ويأخذ نفسه
أحيانا بنهج شعراء العباسيين في القرن الثالث ، ففلت من إसार القديم حين يخلو
لأحاسيس الذاتية ، ويأدر لذاته من خمر وغزل غير رسمى في مقدمات قصائده .
وذكرنا أنه يبنى قصائده شعرا على أوزان الخليل المعروفة ، وإن كانت تروج عنده
بحور بعينها يكثر من استخدامها ، كما يكثر كالحديثين من مجزوءات البحور .

وله بالرجز ولع خاص ، فهو غير قليل في ديوانه ، يمكن كما أشرنا أن يفرد ،
ويصنع به صنيع أى نواس ، يستخدمه في طردياته ، وهو لائق بها إيقاعا ويصف
رحلات الصيد ، والخيل والبازى من طيور القنص .

(١) ديوانه ص ٢٢٢ .

رحلات الصيد ، والحيل والبازي من طيور القنصر ، كما يركبه أحياناً في وصف
محاسن اللهور .

وتراكيبه الشعرية يعترتها الوهن أحياناً ، وتعوزه القافية المتمكنة فيأتي بأخرى
قرينة تحس بقلقها في مواضعها ، فهو على سبيل المثال يصف جواده بالسرعة
فيقول :

يسابق البرق المثار بخطوه ويزيد فيه على الصبا والشمال

فاحس هنا بأن القافية غير موفقة في موضعها ، فالمعنى يقتضى قافية أخرى ،
هو يريد أن يصف سرعة الجواد بسرعة الريح ، وريح الصبا ليست ريحا قوية ، بل
هي ريح رقيقة حبيبة لدى العشاق لأنها تحمل روائح الأحبة مع عطر رياض نجد ،
وتترانها بالشمال غير موفق من الشاعر ، فالشمال ريح باردة ، تلقى بيدها
يردها ، وتقذف وجوه الغادين بحاصبها .

ونرى في هذه القصيدة نفسها ببعض أبيات مختلفة التركيب كقوله :

فكأنما لبس الحدود ولاح في جلد بريعان الضحى متسرل
تلقى وراء قداله من طوله في السرج فارسه عن المستقبل

فضلا عما في البيتين من تهافت المعنى .

ونرى أن القافية أقحمت على بيته الذي يقول فيه :

وبدا لنشر الروض من بعد الندى ريح كريح المسك بل هو أشرف

فضلا عما تحسه من هلالة في النسخ .

وقد يلجأ تميم في بناء أبياته إلى الضرورة ، من تغيير في بناء اللفظ أو تحريك
ساكن ، وتغيير لإعرابه ، أو لجوء إلى بنية شاذة ، ولفظ غريب وما إلى ذلك من
نضورات التي يلجأ إليها الشعراء لمواءمة الوزن ، والشاعر الذي يكثر من الضرورة
غير متمكن من الصنعة ، ولا يملك زمام لغته .

ويستخدم الشاعر البديع من جناس وطباق ومزاوجة في نسيج شعره بقليل ،
ولا يسرف فيه إسراف غيره من المحدثين العباسيين ، كما يستخدم في خيالاته
تشبيه والاستعارة ، ويستعين بالتلميح والإشارة ليطلق كامن ما يوحي به من

مختزن المعاني والصور ، وما تستدعيه من صور ربطية ، وهو لا يفرق إغراق ابن المعتز ، وإنما يأتي بالتشبيه غالباً متسقاً مع موضوعه وخيالاته التي يطلقها .

وأما بناؤه الموضوعي للقصيدة ، فهو لا يلتزم بنسق بعينه ، وبالضرورة فهو لا يلتزم النظام التقليدي من البدء بالنسب أو الغزل ثم الخروج منه إلى الرحلة والراحلة ثم يعدل إلى الموضوع .

وقد يلزم بجزئية من هذا النظام ، في بعض قصيده بدوى الطابع أو رجزه ، ولكنه كثيراً ما يعدد مسالكه ، وصور بنائه ، فيبدأ قصيدته مفتخراً أو شاكياً ، أو متغزلاً ، أو واصفاً لمجلس خمر أو مجلس غناء أو منظر روض .

وقد بدأ قصيدة المديح بحديث عن الغناء والموسيقى كأن يقول في مديح والده المغز :

شكوا العود بالأوتار شجوا فأطربا وترجم عن معنى الضمير فأطربا

وكل هذه السمات التي نلاحظها في بناء تميم لقصائد شعره ترجع إلى أنه شاعر مطبوع ، غير صاحب صنعة ، محترف ، لا يقول الشعر تكسباً يراعي فيه مملوحاً ، ويلائم بين قوله ، ومقامه ، ولكنه يقول الشعر هواية يتغنى به ولا يعبأ كيف جاء ، ولا يعنى نفسه بتثقيفه أو إعادة النظر فيه . ومن هنا كانت هذه التلقائية التي تغرب به أحياناً ، والتي قد توقعه في أخطاء اللغة القياسية أو بعض تجاوزات إيقاع العروض الخليلي .

—٢—

الرَّسَّيُون

وهم جماعة من شعراء الأشراف الحسينيين ينسبون إلى الشريف الرّسى أحمد بن محمد بن إسماعيل بن القاسم بن إبراهيم بن طباطبا المتوفى سنة ٣٥٢ هـ بمصر في عهد كافور الإخشيدي .

ويختلط اسمه أحيانا بالشاعر الناقد الأصفهاني محمد بن أحمد بن طباطبا المتوفى سنة ٣٢٢ هـ^(١) صاحب كتاب عيار الشعر ، وكثيرا ما تناقل الكتاب أشعارهما ، ونسبة بعضها إلى غير صاحبها من الشعراء لاشتراكهما في الكنية « ابن طباطبا » .

ورقع في هذا الوهم ابن خلكان في ترجمته لأحمد بن محمد الرّسى ، حيث يقول^(٢) : « ومن شعره المنسوب إليه في طول الليل ، وهو معنى غريب :

كأنّ نجوم الليل سارت نهارها فوافت عشاءً ، وهي أنضاء أسفار
وقد نعيمت كى يستريح ركابها فلا فلك جارٍ ولا كوكب سارى

ثم وجدت هذين البيتين في ديوان أبى الحسن بن طباطبا من جملة قصيدة طويلة . ثم يقول بعد ذلك : « ولا أدري من هذا أبو الحسن . ولا وجه النسبة بينه وبين أبى القاسم المذكور . والله أعلم » .

ويشارك أبو القاسم الرّسى هذا مع جدّهما الأعلى إبراهيم المنعوت بطباطبا . فشاعرنا أبو القاسم أحمد ينتهى نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم طباطبا . وأما صاحب عيار الشعر الأصفهاني الإقامة فينتهى إلى محمد بن إبراهيم طباطبا . وكلاهما يكنى بابن طباطبا . ومن هنا جاء الخلط .

ويبدو أن آل إسماعيل غادروا أصفهان إلى مصر واستقروا بها زمن الدولة الأخشيدية وبلغوا عند المصريين مرتبة رفيعة ، فتولى أبو القاسم أحمد نقابة الأشراف كما يقول ابن خلكان . يقول :

« الشريف الحسن الرّسى المصرى . كان نقيب الطالبين بمصر ، وكان من

(١) راجع مقدمة عيار الشعر ، بتحقيق المؤلف .

(٢) ونهايات الأعيان ١/ ١٣٠ ، بتحقيق د. إحسان عباس ، طبع بيروت .

أكابر رؤسائها » . ونسبته إلى الرس من بطون السادة العلوية على قول ابن خلكان (١) .

قال : « وله شعر بليغ في الزهد والغزل ، وغير ذلك . وينقل عن الثعالبي في اليتيمة بعض خيره وشعره » .

وكانت له علاقة بكاتب السر الحسن بن علي الأسدي . يذكر الثعالبي أنه بعث إليه يطلب كتابه المعروف « بالأنيس » ، فأجابه الأسدي شعراً بقوله :

قد بعثنا بمؤنس لك في الوحش سة خل ، يدعى كتاب الأنيس
فيه ما يشتهي الأديب من العلم وفيه جلاء هم النفوس
فيه ما شئت من بدور معاني ضاحكات إلى وجوه شمس
والنفيس البهي مازال يهدي كل حين إلى البهي النفيس
فلما قرأ الرس رقعة كتب على ظهرها ارجالا :

قد قرأت الكتاب يا خل نفسي فهو لي مؤنس ، وأنت الأنيس
فهو تأليف ذي ذكاء وفهم وهو وقف على العلوم حبيب
وما ذكره الثعالبي من شعره ، قوله يتغزل في ساق :

يا بنر بادِر إلى بالكاس فرب خير آتى على يأس
ولا تقبل يدي فإن في أولى بها من يدي ومن راسي
لا عاش في الناس من يلوم على حي وعشقي لأحسن الناس
وقوله :

قل للذي حسنت منه خلائقه باكر صبحك واسبق من تسابقه
أما ترى الغيم مجموعاً ومفتراً يسير ، هذا إلى هذا يعانقه
كعاشق زار معشوقاً يودعه قبل الفراق ، فآلى لا يفارقه

وقال في الحب والغزل :

قالت : أراك خضبت الشيب قلت لها : سترته عنك يا سمعي ويا بصري
فاستضحكت ثم قالت من تعجبها : تكاثر الغش حتى صار في الشعر

(١) المصدر نفسه ، ص ١٣١ .

وقال :

عُذِرْتَنِي بِالنُّومِ جَوْرًا وَظُلْمًا
إِسْمَعْنِي حُجَّتِي ، وَإِنْ كُنْتُ أَدْرِي
لَمْ أَنْمَ لَذَّةً ، وَلَا نَمْتُ إِلَّا
وقال مما يتغنى به :

قَالَتْ لَطِيفُ خِيَالٍ زَارَنِي وَمَضَى
قَالَ : أَبْصَرْتُهُ لَوْ تَمَاتَ مِنْ ظُلْمٍ
قَالَتْ : صَدَقْتَ ، الْوَفَاءُ فِي الْحُبِّ عَادَتُهُ

وقال :

خَلِيلِي إِنِّي لِلثَّرَا لِحَاسِدٍ
أُبْقِي جَمِيعًا شِمْلَهَا وَهِيَ سَبْعَةٌ
كَذَلِكَ مِنْ لَمْ تُحَرِّمُهُ مَنِيَّةٌ

ويقول :

سَأَعْتَبُهَا حَقًّا مَا اسْتَعْتَبْتُ
وَسَوْفَ أَجْرِيهَا بِالصُّلُودِ
وَأَنْ لَمْ تَكُنْ أَبَدًا ، مُعْتَبَةً
وَمَنْ يَشْرِبُ السَّمَّ بِالْتَجَرِبَةِ ؟

وينتقى ابن سعيد من مליح شعره قوله (١) :

أَتَرَكُ الشَّرْبَ وَالْأَنْوَاءَ دَائِمَةً
وَالْغَصْنَ يَهْتَزُّ كَالنَّشْوَانِ مِنْ طَرَبٍ
لَا وَالَّتِي تَرَكَتَنِي يَوْمَ فَرَقْتَهَا
وَالطَّلَّ مِنْهَا عَلَى الْأَشْجَارِ مَشْوَرٌ
وَالْوَرْدُ فِي الْعُودِ مَطْوِيٌّ وَمَنْشُورٌ
كَأَنَّمَا الرَّمْلُ فِي عَيْنِي مَشْوَرٌ

وهكذا نجد معظم ما قال من شعر في الخمر والغزل ووصف الطبيعة كما نقل
كُلَّ مِنَ الثَّعَالِبِيِّ وَابْنِ سَعِيدٍ ، وَلَا نَجِدُ بَيْنَ تِلْكَ الْمُخْتَارَاتِ مَا يَتَّصِلُ بِالزُّهْدِ عَلَى مَا
ذَكَرَ ابْنُ خُلِكَانَ وَلَمْ يَوْرِدْ مِثَالًا عَلَيْهِ .

(١) المؤلف ص ٢٠٣ .

وذكر ابن سعيد أياتاً في موت الاخشيدي مطمع بعض وراثيه في الملك : يقول :

مات إخشيدينا فها نحن في أمس
كلكم طالب بنجد وجرص
يا ولاة الأمور إن لم تنبؤوا
لانتظام فقد تنأثر عقد

ونقل عن المسبحي المؤرخ المصري قوله : وكان أديباً شاعراً متصرفاً في العلم .

ويضيف مختاراً من شعره في موضوعات الوصف والغزل والعتاب . يقول :

وكان الهلال لما نبذ
أو كقوس قد انحث أو كنوي
شطر ضوق المرأة للتدهيب
أو كنوي في مهريق مكتوب

وكقوله : (معاتباً) :

أتكفر بما أوليت في كل مخلف
وتأني بذنب كلما جفت عاتبا
بغيب ، وتلقاني كأنك شاكر
فكم أنت ذو جهل وكم أنا صابر

وقال :

بنتم وخلتم أننى متغير
لا والذي جعل الدموع بمقلتي
ما اخترت تبديل المودة ساعة
أنا ذاك لا عهدى يُغير بالتوى
وإذا وثقت بود من أحبيته
بالبين عند ترجل الأظعان
أبدأ تجود بعارضي هتان
بعد الذى هجر الحمى وجفاني
أبدأ ، ولا وجهي يميل لثانى
فعبادة ودنوه سيان

قال القرطبي : وكانت وفاته ببلده في مصر مدة كافور سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة
وكانت سنة يوم توفى أربعاً وستين سنة .

وترك من أبنائه الشعراء اثنين هما أبو محمد القاسم ، وإبراهيم .

وإن كان أحمد لم تتصل أسبابه بالدولة الفاطمية لوفاته قبل وفود المعز وبناء
القاهرة بسنوات قليلة إلا أن ولديه أبا محمد القاسم ، وأبا اسماعيل إبراهيم عاصراً

صدر الدولة الفاطمية كذلك فعل حفيده أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم بن أحمد (ويكنيه ابن سعيد بأبي إبراهيم)^(١) .

وكان هؤلاء الثلاثة من الشعراء ، وشعرهم أشبه بشعر الأب والجد ، إلا أن ما أختاره الثعالبي للثلاثة لا يشفى غليلاً ، وكذلك ما فعله ابن سعيد لمحمد . وربما كان ، حظ الحفيد الحسين بن إبراهيم أوفر من أبيه وعمه .

وهو في الثعالبي في اليتيمة أن أبا الرعمق أحمد بن محمد الانطاكي ، اتصل بإبراهيم بن أحمد ومدحه يقصيدة يقول فيها^(٢) :

حَبَّذا الرَّمِي مولى	رَضِيَ النَّاسُ وِلاهُ
جَعَلَ اللهُ أَعَادِيـ	هُ مِنْ السَّوِّ فِئَاهُ
فَلَقَدْ أَيقِنَ بِالشُّورَةِ	مِنْ حَلِّ ذَرَاهُ
مَنْ رَفَى حَتَّى تَنَاهَى	فِي الْمَعَالِي مَرْتَفَاهُ
فَاتَ أَنْ يَتَلَعَّ فِي السُّ	يُودِدُ وَالْمَجْدِ مَنَازِلُهُ
مَلِكٌ مَذْكَانٌ بِالسُّ	تَطَوُّرٌ مِمَّنْوَغٍ جِمَاهُ
بَحْرٌ جَوْدٍ لَيْسَ يُدْرَى	أَيْنَ مِنْهُ مُنْتَهَاهُ
لَمْ يَضُغْ مِنْ كَانَ إِبرَا	هِمٌ فِي النَّاسِ رَجَاهُ
لَا وَلَا يَفِرُّ مِنْ صَرْفِ	زَمَانٍ إِنْ عَرَاهُ
مَنْ بِهِ اسْتَكْفَى أَدَى الْأَيَا	مِ وَالذَّهْرِ كِفَاهُ
كَيْفَ لَا أَمْدَحُ مَنْ لَمْ	يَخْلُ خَلْقٍ مِنْ تَلَاهُ

وكان الحسين الحفيد ، وهو أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم بن نبيه الأشراف الحسين بن عهده العزيز نزار بن المعز لدين الله ، وكان أديباً شاعراً ، وله مكانة ووجاهة في الفسطاط عصر الفاطميين ، وكان على قدر من الثراء ، لأن الفاطميين كانوا يقدرون على الحسين والحسينين من الأشراف لقرايتهم ، ويجرون عليهم رواتب فكانت لهم الضياع والبساتين والقصور . وعاشوا عيشة راضية .

وجمعت الصداقة والأخاء بين الشاعر الحسين والأمير تميم بن المعز ، وكانت بينهما أشعار ومجاوبات ، يقول ابن خلكان : « كان شاعراً أديباً رقيقاً ، قاسم

(١) المقرب ص ٢٤٩ .

(٢) يتيمة الدرر ١ / ٣٩٠ .

الأمير تميم بن المعز شرف النسب وعلو الحسب ، وترث الفضل والأدب . وكان بينهما مودة ومراسلات شعرية رائعة (١) .

وقال ابن سعيد (٢) : « وهذا الشريف الرسى هو الذى كان بينه وبين تميم بن المعز مجاوبات بالنظم ، وكان يكثر التنزه معه فى بساتينه وفرجه » .
وذكر له الثعالبي أبياتاً هى قوله (٣) :

شَمَّ النسيمَ لذيذاً	من قبل أن لا تُشَمَّه
واصرِفَ عن القلبِ ما است	سطعت بالمسرة همة
وغالطَ الدهرَ إن كُت	ت لست تملك حكمة
وقد نصحتك جهدي	فلا تصم وتكلمه

وقوله فى الغزل :

صدفت عينا نواراً	ولقد كانت تزور
ثم قالت كيف أودى	ذلك الغصن التضرير
قلت : إن أنصفت هذا	لابن خمسين كثير

وتمثل له ابن سعيد بيت يقول فيه :

لم تبت ، وهى فاقت الناس حسناً وحقيق يمثلهما أن يتيها

وكان أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم صديق الأمير تميم قد عاش فى كنف أبيه ثقيلاً للأشراف ثم تولى هو نقابتهم بعد وفاته ، وكان تميم على علاقة وطيدة بإبراهيم ، وكان إبراهيم هذا دائم الاتصال بالأمير يقدم له الهدايا فى المناسبات ، والأمير يبادله .

ويبدو أن دارهما كانت متجاورتين على النيل ، كما كان للرسين بساتين قرب بستان الأمير على بركة الحبش جنوبى القسطاظ وبالجيزة وغيرها .

(١) وفيات الأعيان ١ / ١٢١ .

(٢) المغرب ص ٢٤٩ / ٢٥٠ .

(٣) بتيمة الدهر ١ / ٥٠١ .

وتوطدت العلاقة بين الأمير وأبي عبد الله ، فلم يصبر أحدهما على فراق الآخر . ويشهد ديوان تميم بالمطارحات الشعرية والرسائل المتبادلة ، تحمل حرارة المدة ، ودفع الصداقة .

فمن هذه الرسائل الشعرية رد على أبي عبد الله الحسين وقد استهدى من الأمير غروساً من الزهر لبستانه فكتب إليه بعد وصولها .

وصلت هديتك التي أرسلتها
فحككت لنا طيباً خلّاتك التي
فاسلم وعش فيما تحب فإنه
هي جوهر في البيت إلا أنها
فأجابه الأمير بقوله :

أما الرياض فإنها مسروقة
إني بعثت بها إليك وأنها
كالشئ يستهديه متى ربه
منك استعاذ الحسن كل محسن
وظرفت حتى فقت كل مظرف
ديباخ لفظك فوق كل منور
لا شئ أحسن من خليلي غبطة
هذا يُناجي ذا هوى وتحافظاً

وكان الأمير تأخر عن تعزيتة في وفاة والده إبراهيم ، فكتب إليه الأمير معتزلاً ، فرد الحسين على الأمير قائلاً :

يا سيدي وأمي
إني فقدت بفقد
فقدت منه تلامي
فقدت منه ميعني
فصرت فرداً وخيلاً
لا أعرف السهل والوع

ما إن له من نظير
أبي ، جميع السرور
فقدت منه نصيري
فقدت منه مجيري
وإنني ذو عشير
ر إن قصدت مسيري

قد كنتُ أخشى عليه
كأنما الدهرُ أودى
فمن عذيري من دم
هلاً بكته دماء
فكل أمر كبير
من البضعيف إذا ما
فوضتُ أمري إلى من
وأجابه الأمير بقوله :

يا من صفًا وذُ صدي
ومن تكدر عيني
ما مات ركنك لا بل
لو كنتُ أملك عمري
أو كنتُ أملك دفعاً
دافعتُ عنه المنايا
ما كان إلا يميني
لئن تولّى حميداً
لحسبه بك فينا

له ، وسري وجهري
لرؤيه صفو دهرى
ركني وفخري وذخري
وهبته شطر عمري
عنه بروحي ووفري
زكل فادح أمر
ومقلتي وأزري
بكل مدح وشكر
نجلًا وخلفه فخر

وتبدو من القصيدتين مدى العلاقة التي ربطت بين الأمير تميم وإبراهيم وابنه
الحسين على ما اشرنا إليه .
ويقول تميم ذاكراً مودته ، وحبّه للحسين وسعادته بمشاركته ملاذه وأنسه
وباقتراب داره منه (١) :

زاد ربي دثو ربعك منه
ساعة من جنى حديثك ما يب
ومعاطاتك الكؤوس على رو
هو عندي ألد من ملك كسرى

أنساً في القلوب والأبصار
من سماع الغنا وشرب العنابر
ض المعاني ورقة الأفكار
وافتناض الكواعب والأبكار

(١) ديوان تميم ص ٢٠٠ .

ويقول تميم في ذكر بيته الذي بناه الحسين على النيل :

أبهج النيل ما بنيت عليه كاتهاج السماء بالآقمار
وكذاك البقاع تفخر بالاحج ساد فخرأ يحظ كل فخار

وشارك الحسين صديقه تميماً في معارضة أبيات لابن المعز يقول فيها :

شغلت بليدة القبل ووعد الكتب والرسل
فعارضه تميم بأبيات أولها :

شغلت بخلسة المقل ومزج الكحل بالكحل
وما اغفلت به الألحاح ظ في أجفاتها الشجل

فقال الحسين بن ابراهيم الرسي :

وحق تورذ الحجيل وطيب تقرب الأمل
وحق الحب إذ يأتي بحسن تكسر المقل
وما أبداه من أهوا ه من صد ومن عليل
وحقك يا أميرى ظل ست في قصف وفي جذل
لشعرك مشبه الماء ال لذي يروى صدق الغلل
وثوب البرء يلبسه ال لذي أشفى على العليل
وحلته إذا نش سرت تضغضغ سائر الخلل
فقول كلكه صدق وعبد الله يشهد لي

يريد أن يقول إن أبياته فاقت أبيات ابن المعتز ، مجاملة ، وكان كل منهما ينشئ على شعر الآخر ويقرظه مجاملة .

—٣—

ابن وكيع التنيسي

ولد ابن وكيع ونشأ في مدينة تنيس على بحيرة المنزلة ، وكانت تقع في شمالها الشرقى قريبا من مدينة بورسعيد وشمالها الغربى مدينة دمياط .

ويصف أحد العلماء العرب ممن وفدوا إلى المدينة بحيرة المنزلة وتنيس فيقول (١) :

وبحيرتها التى هى عليها مقدار إقلاع يوم فى عرض نصف يوم ، ويكون ماؤها أكثر السنة ملحا لدخول بحر الروم إليه عند هبوب الشمال . فإذا انصرف نيل مصر فى دخول الشتاء وكثر هبوب الريح الغربية فإن أهل تنيس يحزنون الماء فى جباب ويعلمونه لستهم .

ويقول ياقوت : وهناك فوهة يدخل منها ماء البحر الأعظم إلى بحيرة تنيس ، وإذا تكاملت زيادة النيل فى الفيضان غلبت حلاوته على ماء البحر ، فصارت البحيرة حلوة ، وعندئذ يحزن أهل تنيس الماء على ما ذكر فى صهاريجهم ومصانعهم لستهم (٢) .

ويذكرها المسعودى فيقول : تنيس كانت أرضا لم يكن بمصر مثلها اسواء وطيب تربة ، وكانت جنانا ونخلا ، وكروما وشجرا ومزارع ، وكانت فيها بحار على ارتفاع من الأرض ، ولم ير الناس بلدا أحسن من هذه الأرض ، ولا أحسن اتصالا من جناتها ، وكرومها ، ولم يكن بمصر كروم يقال أنها تشبهها إلا الفيوم (٣) .

اشتهرت تنيس فى تاريخها القديم بالزروع والخمر . وقال ابن وصيف شناه « وحولها الزرع والشجر والكروم ، وقرى ، ومعاصر الخمر وعمارة لم يكن أحسن منها . وكثر بها الطير والسماك » ، ونقل ياقوت : « ولتنيس موسم يكون فيه من أنواع الطير ما لا يكون فى موضع آخر ، وهى مائة ونيف وثلاثون صنفا منها السلوى والقمرى ، والزرزور والفاخته والنواح ، ويصل إلى تانيس طير كثير لا

(١) ياقوت — معجم البلدان ١ / ٨٨٢ .

(٢) المصدر نفسه ١ / ٨٨٤ .

(٣) خطط المقرئى ١ / ١٧٧ حسين نصار فى مقدمة ابن وكيع .

يعرف اسمه صغار وكبار ، ويعرف بها من السمك تسعة وسبعون صنفا منها
اليورى ، والبلمو ، والبرو ، واللبب^(١) .

وأما أهلها فكان بها عدد من النصارى يحترفون صناعة النسيج وقد كانت عامرة
بالسكان كثرة الكنائس ، ومع هذا الخير الوفير الذى بها إلا أن أهلها كان فيهم
فقر ، وكان النصارى منهم يتشكون من البؤس .

وقال أحد الرحالة العرب عندما ذهب إليها والتقى بهم : إني لم أر من البؤس
في بلد أكثر من بؤس أهلها وقد سألتهم ، فأجابوني أن مدينتنا محاطة بالماء فلا
تستطيع زرعاً ولا تربية ماشية والماء الذى نشره يجلب لنا من بعيد ، ونشتري الجرة
منه بأربع دراهم . ولا شغل لنا سوى نسيج الكتان ، فنسأؤنا تغزله ونحن ننسجه
ونعطي على ذلك نصف درهم في اليوم من تجار الأقمشة ، ومع أن أجرتنا لا
تكفى لأطعام كلابنا ، فإن كلا منا يدفع ضريبة مقدارها خمسة دنابر — كل
علم — لأنهم أهل ذمة .

ولاشك أن هذا كان حال جماعة من فقراء تنيس النصارى .

وقد وصف أهلها لكثرة الغرائب بينهم بأن اخلاقهم سهلة مُقادة وطبائعهم
مائلة إى الرطوبة والأنوثة^(٢) .

وهم يحبون النظافة والدماثة والغناء واللذة ، وأكثرهم بيتون سكارى .

وقد نشأ ابن وكيع في هذه البيئة البحرية المصرية ، وجاء شعره بكثير من
ملاحظاتهما ، وتبلو منه فرحة الإقامة ، ومتعة الانتاء للبلد ، ونشوة السعادة بمغانها
أحياناً بين لذات الخمر والغناء فيقول :

وأشرب عقاراً طالَ فينا كوثها	يَصْفُرُّ من خورف المَزَاج لوثها
من كل ظبي من بنى النصارى	أَلْبَابُنا في حُسْنِه حيارى
لاسيماً مع مُسمع وزاير	قد سَلِمَا من وخْشَةِ التَّافِرِ
دُونك هَذِي صفة الزمان	مَشْرُوحَةٌ في أَحْسَنِ الْيَآنِ

(١) المهرزى ٦ / ١٧٧ .

(٢) المهرزى ١ / ١٧٧ .

وقد اشتهرت تنيس بثيابها الفاخرة المنسوبة اليها : فقال المقرئ :

وأكثر أهلها حاكه ، وبها تحاك ثياب لا يصنع مثلها في الدنيا .

وقال آخر : وبها تعمل الثياب الملونة والفرش والأبقلمون وهي ثياب من الحرير متغير اللون قيل أنه يبدو في ألوان متغيرة في كل ساعات النهار^(١) .

وبها يصنع الدقيق ، والمقصور الشفاف ، والأردية ، وأنواع المناديل الفاخرة والفرش المعلم ، والطرار .. وبها خمسة آلاف منسج لنسج الأقمشة وكثيرا . نسجت كسوة الكعبة بها .

ومع هذا الاهتمام بالنسيج ، وغلبته على صناعة أهلها إلا أنهم اهتموا بالعد والعلماء ، بالأدب والشعر ، فقد نبغ فيها شاعرنا ابن وكيع .

ولم يكن ابن وكيع مصريا أبا وجدا ، بل هو مهاجر إلى مصر ، مستوطر جاءت أسرته من الأهواز شرق العراق . وكانت تنسب إلى بني ضبة في أصوبه العراقية وبني ضبة ؛ قبيلة عربية مصرية . وربما كانت هجرة أسرة الشاعر من العراق إلى مصر بسبب ما انتاب العراق في أوائل القرن الرابع من اضطرابات وحروب شملت أرض الجزيرة وبغداد وجنوب العراق بالبصرة والكوفة ، وكان أعنفها ثورة الزنج ، وغارات القرامطة .

ولد ابن وكيع في تنيس من أب عربي ، ويذكر ابن خلكان أنه كانت في لسانه عجمة لعلها لحقته من لسان أهله الذين ربما تأثروا بإقامتهم في الأهواز فاختلط لسانهم باللسان الفارسي .

واسم ابن وكيع هو أبو محمد الحسن بن علي بن أحمد بن محمد بن خلف ، وصفه الشعالي بأنه شاعر بارع ، وعالم جامع ، برع في إبانة على أهل زمانه ، فلم يتقدمه أحد في أوانه ، وله كل بديعة تسخر الأوهام وتستعيد الآفهام .

وقال ابن خلكان : « وله ديوان شعر جيد ، وله كتاب بين فيه سرقات أبي الطيب المتنبى سماه المنصف » . وتوفي بمدينة تنيس ودفن بها سنة ٣٩٣ هـ .

(١) ويطلق على هذا النوع حاليا التافته . ولعله اسم غري دخيل .

وشعره يجمع بين الظرف وخفة الروح ، ويدور معظمه في وصف الخمر
مظاهر الطبيعة والزهر .

قال في خمريته ، ويصِف فيها الزهر والساق :

اشرب فقد طابث العقار
من قهوة ما انبرت لهم
فما جيوثر من الملافى
لألاؤها في الدجى نهار
إذا استقرت في حشا لب
حبابها جسمه لجينى
كانها تحت كمنيت
لما لدى حزن شاربها
فالحزن عن أهلها مطار
فلا انتصار لها عليها
يسمى بها جودر غريب
كان صدغاً له تراه
ميدان آس بدا جنيا
ويست من الحسن لى إليه
بشارة البيت كل عام
قلت له إذ بدأ وقلبي
يا جامع الحسن كل حسن
ما فضل الغانيات عندي
ويقول من قصيدة أخرى :

أنظر إلى زهر الربيع وما جلت
أبدت لنا الأمطار فيه بدائعا
ما شئت للأزهار في صخرائها
من أبيض يقي وأصفر فاقع
ناحت لنا الأطيار فيه فأرهجت

فيه عليك طرائف الأنوار
شهدت بحكمة منزل الأمطار
من درهم بهج ومن دينار
مثل الشمس قرن بالآقار
عرس السرور وماتم الأطيار

لم يحفلوا بنعيم تلك الدار
مازال يسكن حانة الخمار
يسك تضيوعه يد العطار
ذوب تحلل من عقيق جاري
يسبي العقول بطرفه السحار
عند التأمل وهو غرس الباري
حتى ظنناه بلا زئار
بالحسن منه حجة الكفار
ويرى فساد صنيعة في النار
أن لا تنافر رثة الميزمار

دار لو اتصل البقاء لأهلها
فانهض بنا نحو السور فإنه
فاشرب معتقة كان نسيما
وكأنها والكأس ساطعة بها
لاسيما من كف أغيد شادين
فضل الغصون لأنها من غرسنا
قد غيب الزنار دقة خصره
مقتصر قويث على إسلامنا
قالوا: أيصنع مثل هذا ربكم
مع مسبيج حلت له أوتاره

وسؤال رسم الدار والأحجار
يكي على الأطلال والآثار

ذا العيش لانعت المهاميه والفلا
لا فرج الرحمن كربة جاهل

وقال في الربيع :

وبدت لنا حلال الربيع المزهر
في وصفها وتكون غير مقصر
يختلن بين تمايل وتبختر
لو أنه يبقى بقاء الجوهر
فأذاعه ، فأذاع أحسن منظر
طيب الجنان لكان أريح متجر
من فوق جلول مائه المتفجر
أمرا ، فبين مقلص ومشمير
خلع العذار بحسنه لم تعذر
إقبال جد بعد أمر مدير
وكان هذا جاء وجه مبشر
فتراجعت تحلى بفرط تخير
أكرحظن من العقيق الأحمر

فرش الفضاء بأخمر وبأصفر
خال تعد إذا اجتهدت مقصرا
هذي الرياض كأنهن عرائس
في جوهر فاق الجواهر قيمة
سر أسر به السحائب للثرى
زمن أغر فلو شربت بطيه
والسرو تشيه الرياح لواعبا
كالجنيد في خضر الملايس حاولوا
زمن منى أبصرته وكففت عن
وافي على أثر الشتاء كأنه
فكان ذا إذا جاء وجه مهلدي
ورد كوجنة كاعب قد موزحت
فكأنما النارنج في أغصانه

وَكَاَنَ زَهْرَ الْبَاقِلَاءِ دَرَاهِمَ	قَدْ ضُمَّخَتْ أَوْسَاطَهَا بِالْعَبِيرِ
وَكَاَنَّهُ مِنْ فَوْقِ خُضْرِ غَصُونِهِ	يَرْتَوِ بِمِقْلَةٍ أَقْبَلِ أَوْ أَخَوِ
وَكَاَنَّمَا الْأَتْرَجُ أَكُوسَ عَسَجِدِ	وَلَهَا مَقَابِضُ مِنْ حَرِيرِ أَخْضَرِ
وَالْتَرَجَسُ الرِيَانُ بَيْنَ رِيَاضِهِ	يَرْتَوِ بَعَيْنَ الْبَاهِتِ الْمُتَحِيرِ
وَالْجَلَنَارُ يُرِيكَ فِي أَثْوَانِهِ	نَوْعَيْنِ بَيْنَ مُزَعْفَرٍ وَمَعْفَرِ

وهكذا نلاحظ في شعر ابن وكيع اهتماما بالزهر والخمر والغناء ، وهو بهذا شبيه بالصنوبرى في غرامه بأوصاف الروض . ولا يفوتنا ما يعمد إليه من ميل إلى التشبيه . سالكا بذلك نهج أصحاب التشبيه كابن المعتز ومن سار على منواله .

ويتبع نهج المحدثين عامة في نبذ البناء التقليدى للشعر ، فيدعو إلى ترك البدء بحدث الديار والأطلال ، والعدول عن وصف الصحراء والفيافي والقفار .

وشعره عامة عليه طلاوة الحضارة ، وحلاوة الروح المصرية لفظا وبناء ، ومعانى ، وصورا تخيلية .

—٤—

الشريف العقيلي ، أبو الحسن

هو عليُّ بنُ الحسين بن حيدرة بن عبد الله بن محمد ينتهي نسبه إلى عقيل بن أبي طالب .

ولد ونشأ في مدينة الفسطاط ، وكان له بها متنزهات بجزيرة الفسطاط كما يقول صاحب المغرب^(١) بلجئاتها وقد تشوق إلى الفسطاط في شعره فقال :

أحزني إلى الفسطاط شوقاً وإنني لأدعو لها ألا يحل بها القطرُ
وهل في الحيا من حاجة ليجئنيها وفي كل قطر من جوانبها نهرُ
تبدت عروساً والمقطمُ تأجها ومن نيلها عقدٌ كما انتظم الدرُّ

وكانت حياة الشاعر في أخريات القرن الرابع ، وامتدت حتى حكم المستنصر في القرن الخامس ، وربما امتدَّ به العمر حتى منتصفه^(٢) ، وربما عمر حتى الشيخوخة إذا تجاوزنا في تفسير بعض نصوص مما جاء في شعره مثل قوله :

لله أيام لذات قضيتُ بها حقَّ الشَّبَابِ وظلَّ العيش ممدودُ
مازلت ألبسها والدهر ينشرها فأسودَّ أبيضُها وأبيضُت السُّودُ

كان الشريف العقيلي من الأشراف الطالبيين الذين ظلت منهم فئة تعيش في مصر ، وأقاموا لهم نقيباً منهم ، وأشهرهم بنو طباطبا ، وقد كان منهم النقيب عند مجيء المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر .

ويعتز الشاعر بنسبه إلى الأشراف في شعره كقوله :

أنا عبد لآل عبد مناف عترة النُسلِ والتَّقَى والعَقَافِ
ليس من أجل أن ترائي شريقاً لا ترائي من شبيعة الأشرافِ

وحاول الفاطميون عند استقرارهم بمصر أن يجتذبوا الأشراف إليها وأن يصطفوهم ، ولكنهم مع ذلك لم ينجحوا في أن يجعلوهم ممن يدينون بأرائهم ويعتقدون عقيدتهم . وشعر الشريف يخلو من الآراء والعقائد الفاطمية التي

(١) المغرب ٥٢/٤ .

(٢) خطط المتري ١٠/٣٤٠ .

نراها مبثوثة في شعر غيره من أبناء الفاطميين، كإبي شعر تميم الذي عرضنا له وعترتهم ، وفي شعر الدعاة من أمثال القاضي النعمان وداعي الدعاة أو شعر الذين اصطفاهم الفاطميون وصاروا لسان دعوتهم مثل ابن هانيء الأندلسي شاعر المعز .

ومع هذا فإن الشريف العقيل اتصل ببعض رجالات الفاطميين وكانت له فيهم مدائح كالحسين بن جوهر الصقلي قائد القواد في عهد الحاكم بأمر الله في قوله :

ألا هاتبا راحا لها ربيع عنبر على حسّ طنبور وأيقاع مزهر
فللدولة الحسنة جيد مقلد بجوهر تدبير الحسين بن جوهر
أخو همم غر إذا هو حثها لتلحق بالعلياء لم تتعثر
إذا قائد القواد أعمل رأيه رأى نفسه ما بين مجيد ومفخر

وثقف الشاعر الثقافة العربية ، وتعلم الموسيقى والغناء ، فكان يضع الألحان ويغني ببعض أشعاره .

وكانت حياة الشريف حياة مترفة ناعمة كحياة هذه الطبقة ، فكان له من شرف الحسب ، والغنى الذي ظهر فيما اقتنى من المال والضياع ما مده بأسباب تلك الحياة . ويشهد على نفسه بالغنى حين يقول :

بي فقر إلى المدام وإن لم أك ممن يُعد في الفقراء

وذكره ابن سعيد بين من لهم الثراء والضياع قال(١) : « كان له متزهات بجزيرة الفسطاط ، ولم يكن يشتغل بخدمة سلطان ولا مدح أحد » فلم يتكسب إذا بالشعر اكتفاء بشرفه ، وبما عنده من المال .

ويدور معظم شعره حول حياته الخاصة ، وما يعتاده من مجالس الشراب والغناء والطرب واللهو ، وما يصفه من مباحج الطبيعة والحياة ، وما يعرض له أحيانا من أحداث وهموم الحياة ، وربما عرض بالمدح لبعض خاصته ومن اتصل بهم من غلبة القوم والقادة وعظماء الرجال .

(١) المغرب لابن سعيد بتحقيق د . زكي محمد حسن ود . شوق ضيف الجزء الأول من القسم الخاص بمصر ص ٣٠٥ ، طبع مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣ .

ونظوف بديوانه فستجلى مغاني الحياة من شراب ومنتعة ، وغناء وسماح
موسيقى وطرب ، وطواف بالحدائق والبساتين والبرك ، ووصف للثمار
والزهور ، والماء والجوارى الحسان والغلمان إلى غير ذلك من الصور التي يعمر
بها شعره .

ولنبدا الطواف بما قاله في منازة مصر والقاهرة في عهده .

يقول في بركة حولها بستان وزروع :

وروضة كالحلّة الخضراء مجدقة ببركة حسناء
قد لبست عقد طيور الماء لبس السماء أنجم الجوزاء

ويقول في بركة أخرى :

وبركة قد أفادنا عجباً ما عالج من مائها وما انسكبنا
يدركها الورد كلما ارتعدت منه بجمر يظل ملتهبنا
من حول فؤارة مركبة قد انحنى ظهر مائها تعبنا

وكان للشریف بساتين في جزيرة الروضة المقابلة للفسطاط ، وقد وصف
بستانا له فقال :

فقد دهم الفجر طرف الدجى فصير أدهمه ألقا
وأبدى لنا الزهر ياقوته فبين مستجاد ومن منتقى
وزخرف جنة بستاننا وألسها منه إسترقا
وفتحت القضب أطواقها فزادت حدائقه رونقا
لما كان منها وقاحاً رنا وما كان محتشماً أطرقا
ولاح الشقيق ولو لم يلح لما نعيم الترب بعد الشقا

وكان بأحد بساتينه بركة ماء ، يعرّى فيها الطير ويسبح بطها ، فيتلاأ
عقودا من الدر كما شبهها في بعض شعره إذ يقول :

وعندنا طارمة رسمها في كل يوم مثل ذا يتصب
بين يديها بركة ماؤها جار مع الأيام لا يتصب
ما حط مذ أنشأها سالفاً قط على سالفها طحلب

يرقصُ في جافاتها بَطْها إذا غدا بلبها يَلْعَبُ
وربما تُطْلِعُ أمواجها كواكباً من وقتها تَغْرُبُ

وهو مغرى بأصناف الزهور ، والرياحين ، يصفها وصف محب متأمل ،
يقول :

أصبحتُ أكثرُ خلقي الله كُلِّهم عِشْقاً لروضٍ قد اهترَّتْ جوانبُهُ
رَيَّاهُ نُكْهَتُهُ وَالْقَطَرُ مَضْحَكُهُ والوردُ وجنته والآسُ شاربُهُ

ويقول في زهر الأقاح الأبيض :

فغَدُّ العيشِ إِمَّا باغْتِياقِ تلذُّ به وإما باصْطِياحِ
فاحسُنْ ما تكونُ الأرضُ رِيَّاهُ إذا انتَقَبْتُ يَفِضُّ الأَقاحِ

ويقول في الياسمين والأقاحي :

فأشربُ على فِطْسةٍ ودُرٍّ من ياسمينٍ ومن أقالحِ
فالأرضُ قد أصبحتُ عُرُوساً تُجلى من الزهرِ في وشاحِ

ويقول في زهر البنفسج :

أشربُ على زهر البنفسجِ قهوةً تُهدى السرورُ إلى الحزينِ المَكْمَدِ
فكانه قرصٌ بخدِّ مُهْفَهِفٍ أو أعينٌ زُرْقٌ كَجَلَنٍ بِأَمِيدِ

ويشتق من الزهر استعاراته وتشبيهاته في معان وموضوعات غير الزهر
كالغزل ووصف كاسات الخمر .

يقول متغزلاً :

يامن له خدُّ غداً حائِراً شقائق النعمانِ من ورْدِهِ
أئن عِنانَ الهَجْرِ عن عاشِقٍ قد طالَ رُكُضُ الدَّمعِ في خَدِّهِ

ويقول في وصف الخمر وكأسها :

جِسْمُ زجاجٍ وروحُ راح كأنها الشَّمْسُ في الصُّباحِ
إن ضحكَ الجَلَناءُ منها أراك تُغْرا من الأقالحِ

وأما الثمار فيستعربه حب الشمس وقد تساقط من شجره على الأرض

فيقول :

على الرياض الرياح
لناظري أبحاح

مشمش نثرته
كأنه إذ تراءى

يقصد بالأبحاح صفار البيض .

ويقول في النارج وهو يترنح في أغصانه على الشجر :

ونارنجة بين الرياض نظرتها
إذا ميلتها الريح مالت كأكره
على غصن رطب كقامة أغيد
بدت ذهباً فبى صولجان زمرّد

وكثيراً ما يمزج في قصائد وصفه بين مشاهد المياه والرياض والزهور
والحسان من الجوارى الجميلات ، أو الغلمان الصباح وكؤوس الخمر تدار .

فيقول :

بين نبت من حبيب
وأقاح من ثُجور
وبروق من ثُجور
وضباب من بُحور
كان في ظل السرور

نحن في روض نُضير
وشقيق من تُحدود
بين سحب من كؤوس
وندى من ماء ورد
نزهة من كان فيها

ويقول في مجلس شراب وهو :

والزهر مفروش التمارق
منه المجالس والمرافق
مثل الترائب والمخائق
فيه الشقاء مع الشقائق
طرقاته كل الطرائق
رق الهموم بشر عاتق
بيض النواصي والمفارق
كحلت بها حدق الحدائق

الغيم ممدود السرايق
والقاش^(١) قد فريشت لنا
أشجاره وثماره
وطن يموت مخافة
قد غنت الأطياف في
فاعتيق فؤادك فيه من
فالأقحوان غصونه
ومراود الأمطار قد

ويجمع إلى الخمر أطايب الطعام :

إلى اللهو من غيره أشوقاً

فلا تله بالشغل عمن غداً

(١) والقاش روض أو بستان جهة القسطنطينية كان يرتاده .

فقد قام طَبَّاحُنَا فَائِقٌ
وَعَبَّاءُ الْبَوَارِدِ فِي جَوْنَةٍ
وَوَافِي بَعِيقَيَانِ سَنُبُوسَجٍ
وَأَبْدَعُ فِي سَلَقِ هَلْيُونِهَا
وَعِنْدِي فَدَيْتُكَ مِنْ بَعْدِهَا
بَلِيلٌ أَعْدَدْنَا الْفَيْقَا
أَجْنٌ مِنَ الْخَوْفِ أَنْ تُطْبِقَا
فَالْبَيْتُهَا مِنْهُ دُسْتِيْقَا
لَأَنْتَى أَمَرْتُ بِأَنْ يُسَلَقَا
عَصِيرٌ مِنَ الْكَرْمِ قَدْ عُنُقَا

ويقول في وصف مائدة دعا إليها أصدقاءه :

وعندي طها بجة وجدي باردٌ
ونفائقي ما مِنْهُ واحدةٌ بدتْ
ومضيرةٌ كالْفَيْضَةِ الْيَضَاءِ
إِلَّا كَمِثْلِ الْبُسْرَةِ الْخَمْرَاءِ

وبذكره بأن نواس حين يغدو إلى حانوت خمار ليلاً ليشرب عنده،
يطلب إليه أن يخلو عليه من الخمر كؤساً فيقول :

وعنَّامِرُ دَخَلْتُ عَلَيْهِ وَهْنًا
عَلَى هَوَجَاءٍ تَنْثُرُ فِي الْفَيْافِي
إِذَا وَخَدَتْ تَحَالَ الرِّيحُ تَحْتِي
فَقَالَ : مَنْ الْفَتَى ؟ فَأَجَبْتُ ضَيْفٌ
فَقَالَ : وَمَا تَرِيدُ فَدُنْكَ رُوحِي
فَقَامَ إِلَى دِنَانٍ مُتْرَعَاتٍ
وَفَضُّ سَخْتَامٍ أَقْدَمَهَا فَلَاحَتْ
وَأَبْرَزَ مِنْهُ فِي الْإِبْرِيْقِ رَاحًا
كَأَنَّ حَبَابَهَا طُلَّ تَنْدَى
وَحَجَاءٌ بِأَهْيَافٍ عَذِبِ الشَّيَا
تَرَاهُ يَتِيَهُ مِنْ أَدَبٍ وَظَرْفٍ
بِقَوْلٍ إِذَا رَأَاهُ كُلُّ لَاحٍ
هِيَ الْأَيَّامُ تَنْدَرُجُ انْدِرَاجًا
فَصَبْلٌ قَصْفًا بِقَصْفٍ وَاعْتِبَاقًا

وَجُنْحُ اللَّيْلِ مَسْوَدُ الْجَنَاحِ
لُغَامًا فِي الْغُدُوِّ وَفِي الرِّوَاغِ
وَأَنَّ كَانَتْ أَخْفَ مِنَ الرِّيحِ
تَسْرِبَلُ بِالْمَكَارِمِ وَالسَّمَاحِ
فَقُلْتُ لَهُ : أَرْخِ رُوحِي بِرَاحِ
مُعَمَّمَةٍ بِكَافُورٍ رِبَاجِي
عَلَى الظَّلْمَاءِ أَنْوَارِ الصَّبَاحِ
أَلَدُّ إِلَى الْأَسِيرِ مِنَ السَّرَاحِ
عَلَى وَرْدٍ بَجْنِي فِي أَقَاحِ
دَقِيقِ الْخَضِرِ غَرْنَانِ الْوِشَاحِ
وَمَنْ يَتِيَهُ عَلَى الْغَيْدِ الْمِلَاحِ
مُحِبُّكَ مَا عَلَيْهِ مِنْ جُنَاحِ
وَصَرْفِ الدَّهْرِ ذُو وَجْهِ وَقَاحِ
بِافْرَاحٍ ، وَلِهَوَاٍ بِاصْطِبَاحِ

ومع هذه الكثرة من الحديث عن الرياض والبرك والأنهار والأزهار ،
والخمر ، والكأس ، والطعام ، والساق ، مع هذا كله ، ومع عرضه لمعارض

الجمال فيها جميعاً ، نجده يخلطُ جمال الطبيعة بجمال الحياة مثلاً في الوجه الجميل والقوام المعتدل والتكوين البديع ، ولهذا فهو يجمع بين جمال المرأة وجمال الطبيعة ، فالحند مختلط بالورد ، والعين بالرجس والأسنان بالبرد والأقحوان .

وتمتزج بهذا كله لذات الحس من تمل بالنظر ، وتمتع بالدوق باللسان ونشوة اللذة بالبدن ، كما مزج الوجه الصباح والطعام بطعوم المذاق في رشفة الخمر وقبلة الثغر ، ولقمة الطعام .

ولتأمل هذه الأبيات التي تعمر بالخيال العجيب الذي يمزج فيه الشاعر بين الكائنات ، بين المرأة والطبيعة والخمر والسحاب والمطر مزجاً عجيباً لا تقع عليه في شعرنا العربي . يقول :

السَّحْبُ تُرْضِعُ مِنْ ثَبَاتِ الْأَرْضِ مَا	جَعَلَ الرَّيِّعُ لَهَا الْغُصُونُ نَهْودَا
وَالرَّاحُ قَدْ نَظَّمَ الْمَزَاجَ لِحَيْدِهَا	دَرِ الْحَبَابِ قَلَانِدَا وَعَقُودَا
فَاسْتَجَلْ مِنْهَا مَا إِذَا افْتَرَعْتَ غَدَا	مِنْهَا السَّرُورُ لِبَعْلِهَا مَوْلُودَا
وَأَنْعَمَ بِهَا فِي ظِلِّ صَحْتِكَ الَّتِي	أَضْحَى عَلَيْكَ رَوَاقِهَا مَمْدُودَا

ويتنزل في المرأة ، لكنه غزل يعرض فيه محاسنها من حسن وجهه ، وثغر وعين وقوام مع ما يعد له من صور الزهور وبدر السماء :

مَرَبْنَا فِي مَوْرِدِ شَرْقٍ	كَأَنَّهُ الْبَدْرُ لَاحَ فِي الْغَسَقِ
مَنْعَمَ حَلِيهِ اللَّحَاطُ إِذَا	أَقْبَلَ تَجْرَى إِلَيْهِ فِي طَلْقٍ
كَأَنَّمَا وَجْهَهُ لِكَثْرَةِ مَا	فِيهِ مِنَ الْحَسَنِ مَوْسِمِ الْحَدَقِ

وفي البيت الأخير يمزج بين جمال الوجه وجمال الروض بما فيه من أفانين الزهر ، والزهر عروس تجلي توجهها الحبيب ، والجو كله عرس تهتف حمائمها وتغني بلابله . وخیاله حافل حين يصف الروض والشراب يرؤى السعادة ممثلة في جلوة العرس ، ومرأى العروس .

عَرَايِسُ الرُّوْضِ تَجَلِي	عَلَى كَرَاسِي الرُّوَايِ
وَمَجْلِسُ الرُّوْضِ فِيهِ	فَرَشَ مِنَ الْعَنَابِ
فَاقْنَعِمَ وَلِئْدَ بَيْكِرٍ	قَدْ تَوَجَّتْ بِالْحَبَابِ

ويقول :

قد ضحكت غرة الصباح وأندفع الديك في الضياح
وطاف بالراح كل ساق رضائه فوق كل راح
فأشرب على فضة ودر من ياسمين ومن اقاح
فالأرض قد أصبحت عروسا تجلى من الزهر في وشاح

والحب علاقة الحبيب بالحب ، وما يتقلب بها بين وصل وهجران ، وفرحة لقاء ، ودمعة وداع ، تلتقى به هنا وهناك في ديوان الشاعر كأن يقول :

أنا في الغدو وفي الرواح قلّ على قلبي الوشاح

ويقول :

قامت قيامه روجها لرواحي إن التوى لقيامه الأرواح
فبكث فصار الدمع في وجناتها مثل الحجاب على كؤوس الرّاح

ويقول :

لما قضى القرب بداء البعد وصار من فراقنا في لحد
لطمت بالدمع عليه خدي لأنني فيه أصيت وخدي

ويقول :

شكوت إليها يوم ودعتها وخدي فألفيت منه عندها فوق ما عتدي
ومازال الأجنان تنثر دمعها على خدّها طوراً وطوراً على خدي
فلولا غليل الشوق ما كان طرفها لينضح ماء الورْد منه على الورْد

والشاعر يريد أن يعب من متاع الدنيا ولذتها قبل أن يزول رونق الشباب ويأتى خريف العمر فتذبل وردة الصبا ، وتغيب شمس اللذات فيعود التذكر

وتذهب النفس حشرات :

لله أيام لذات قضيت بها حقّ الشباب وظلّ العيش مملود
مازلت البسها والدهر ينشرها فأسودّ أبيضها وأبيضت السود

وتلتقى في بعض أبياته الغزلية برقيق من القول مطرب مرقص كقوله :

غزال تدله دله على قتل من هو عبد له

وَذَلِكَ أَتَى مَلَكْتَهُ قِيَادِي وَمَلَكْنِي وَصَلَهُ
كَعَصْنَيْنِ فِي دَوْخَةٍ بَعْضُنَا يَمُدُّ عَلَى بَعْضِنَا ظِلَّهُ
إِلَى أَنْ أَمَرَتْهُ أَفْعَالُهُ وَوَعَّرَ إِعْجَابُهُ سَهْلَهُ
فَخَلَّصْتُ حَبْلِي مِنْ حَبْلِهِ وَمَنْ مَلَّ صَاحِبُهُ مَلَهُ

وفي الحب والصدقة والصديق يرتبط القلب ، وكان الشريف العقيلي محباً
لأصدقائه يصلهم ويصلونه ، ويدعوهم إلى مشاركته لذات مجالسه وشرابه
وطعامه بين الرياض ومجالى الطبيعة .

أَلَا رُبَّ ضَيْفٍ تَقْتَضِيهِ وَجِيدُ السَّمَاءِ كَثِيرُ اللَّالِي
فَحَضَرْتُ مَا كَانَ عِنْدِي لَهُ مِنْ الزَّادِ فَعَلَّ كِرَامِ الرُّجَالِ
وَقَدَّمْتُ رَاحًا سَبَتْ عَقْلَهُ بِلَوْنِ الْخُلُقِ وَرِيحِ الْغَوَالِي

ويقول :

وَصَدِيقِي سُرُورُهُ بِالصَّدِيقِ كَسُرُورِ الْغَشِيْقِ بِالْمَعْشُوقِ
كُلُّ يَوْمٍ أَرْوَحُ مِنْهُ وَأَغْدُو بَيْنَ لَفْظِ رَطْبٍ وَخُلُقِ رَقِيقِ
وَحَرِيفٍ مِنَ الْوَفَاءِ تَضِيرُ وَرَبِيعٍ مِنَ الْحِفَاظِ أُنِيقِ
فَقَضَى اللَّهُ حَقَّهُ مِنْ تَقْصِيْرِ يَفْتَضِيْ نَفْسَهُ قَضَاءَ الْحُقُوقِ

خصائص شعره :

لما سبق من نماذج لشعر الشريف تلاحظ أنه إهتم إهتماماً واضحاً بموضوعين
خصهما بمعظم شعره . وهما الروضيات والخمرة ومجالسها ، ويليهما الغزل
ووصف المطاعم ولم يقل في موضوعات الشعر الأخرى كالمديح والفخر والهجاء
إلا مقطوعات أو قصائد قصيرة قليلة العدد .

ومديحه كما أشرنا لبعض أصدقائه ، وبعض كبار رجال الدولة كقائد القواد
الحسين بن جوهر الصقلي ، وهو يضيف عليهم صفات المدح المعروفة ، وكان
فخره بنفسه منشوراً بين أبيات قصائده ، ويعتد فيه بنسبه وشاعريته ، وأما
الهجاء فكان منصباً على جماعة ممن عاصروه من ولاية الأقاليم كوالى سخا ،
وعامل دمياط الذى يقول فيه :

عاملٌ دِمِيَّاطٌ فَنِي قَلَمًا يَحْصُلُ مِنْ رِفْدٍ عَلَى شَاكِرٍ
فَعَالُهُ تُسَخِّطُ بَعْدَ الرِّضَا وَيُفْسِدُ الْأَوَّلَ بِالْآخِرِ
وَإِنْ وَفَى عَادَ إِلَى غَدْرِهِ لَضَعِيفٍ رَأْيٍ وَعَمَى خَاطِرِهِ
لَا خَيْرَ فِي الْمَرْءِ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَاطِنُهُ خَيْرًا مِنْ الظَّاهِرِ

كذلك هجا بعض موظفي الدواوين كالكتاب النصراني عيسى بن مرقس
كتاب الدولة ، يتهمه بالبخل . فيقول :

جوابُ عَيْسَى لِسَائِلِيهِ مُدَّكَانٌ لَا تَطْمَعُوا بِخَيْرِي
فَأَنْتَنِي لَمْ أَزَلْ بِخَيْلَا أَمْنَعُ دَرَى وَدُرٍّ غَيْرِي
وَيَسْخِرُ مِنْ كَاتِبِ آخِرِ اسْمِهِ خَيْرُونَ فيقول فيه :
لَا خَيْرَ فِي خَيْرُونَ مِنْ كَاتِبِ يَخْتَرِقُ الْبَخْلَ بِخَطْوٍ سَرِيعٍ
إِنْ ثَلَمَ الضَّيْفَ رَغِيفًا لَهُ بَكَى عَلَيْهِ بِأَحْرُ الدَّمُوعِ
فَلَا تَخَالَطُهُ فَإِنَّ الْفَتَى يَفْزَعُ أَنْ يَخْرَا لَكَلَا يَجُوعُ

ومن مهجويه شاعران استأثرا بكثير من لاذع أبياته ، لأنهما تعرضا له
ولشعره وانتقدها فنالهما بلسانه . يقول في أولهما واسمه أبو اسحاق إبراهيم :

أَبُو إِسْحَاقَ فِي تَعَبٍ يَحَاوُلُ أَنْ يُشَبِّهَ بِي
وَهَلْ فِي النَّاسِ مِنْ أَحَدٍ يَقِيسُ الرَّأْسَ بِالذَّنْبِ
فَلَا يَذْهَبُ بِهِ هَوَسٌ فَلَيْسَ الصَّفْرُ كَالذَّهَبِ

ويقول فيه :

أَبُو إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمُ مَمَّنْ تَحَامَلَهُ عَلَى شِعْرِي قَدِيمٌ
أَمَّا يَخْشَى زَبَانِيَةَ الْقَوَافِي إِذَا وَقَدَتْ لِأَفْكَارِي جَحِيمٌ
فَدَغَّ شَيْطَانُ غِيَّتِهِ وَشِعْرِي فَإِنَّ سَمَاءَهُ فِيهَا الرُّجُومُ

والشاعر الآخر هو غياث بن جارود . يقول فيه :

يَا صَاحَ لَا تُصْغِ إِلَى لَفْظَةٍ يَفْتَحُ عَنْهَا شَفْتِيهِ غِيَاثُ
ذُو خَاطِرٍ رَخْوٍ ضَعِيفِ الْقُوَى يَأْتِيكَ مِنْهُ بِمَعَانٍ إِنَّاثُ

ويبدو أن غياثا هذا كان شيخاً يتكلف الشعر فيأتى به سخيفاً رديئاً ولا

يكتفى الشاعر بهجاء لفظه ، ولكنه يتعداه إلى شكله وصورته ، ويبدو أنها كانت تثيره إلى الضحك . فيقول :

شَيْخٌ إِذَا اسْتَدْعِيَتْ أَلْفَاظُهُ جَاءَتْكَ بَيْنَ الزُّورِ وَالْإِفْكِ
مُسْتَطُولُ الرَّأْسِ عَرِيضُ الْقَفَا مُضْطَرَبُ الْأَنْيَابِ وَالْفَكِّ
لَوْ مَاتَ لِي إِلْفٌ وَأَبْصَرْتُهُ لَبِثْتُ فِي ثَوْنِي مِنَ الضَّحْكِ

ويمتاز شعر الشريف بالركة ورصانة السبك ، مع سهولة في اللفظ حتى إن بعض زملائه من الشعراء راجعه فيما يبدو بسبب تلك السهولة فقال : ومالي وصعبه — ويقول الدكتور زكي المحاسنى — (١) : « أما اللون الذى غلب على شعر العقيلي فهو المرح والإشراق ، ولا تجد إلا القليل في أبياته من الموعظة ، والمعاتبة والشكاية على عادة الشعراء . وما خلا من هجاء ولوم لحسود أو غزول أو لمن تتبع الشاعر بالمشاكسة كمحسن بن الملاح الذى تناولته الأبيات بالذم والسخرية » .

ويقول عن عشقه للطبيعة والخمر « ... أما الشاعر العقيلي فكان تصويره مادياً ملموساً ممزوجاً بالفكاهة والملحة والدعابة ، وأنه ليعد من أبرز شعراء الطبيعة وهم قلة على اختلاف العصور ، وما أشبه العقيلي في حب الطبيعة وتعشق جمالها وفنونها بابن خفاجة الأندلسي » .

وكان من أسباب فتون العقيلي ومن قبله كل من ابن وكيع وتميم بن المعز بما كان في مصر من مباهج ومنازه ، وبخاصة في الفسطاط والجيزة وما جاورهما وقد أشاد كثير من العلماء والرحالة بهذه المباهج والمنازة .

ويقول الدكتور المحاسنى : « وكان بمصر في عصر الفاطميين تنسيق فني مرموق يحدثن عنه بتطويل وتفصيل المقرئ في خططه فقد جعل كتابه مقصوراً في أغلب أبوابه على الكلام في جمال مصر واقطاعها وأحياء مدنها ، ومباهج نيلها وبساتينها الخضر المونقة » (٢) .

ويقول : « هذا هو الشاعر الملهم الذى نظم الشعر على طبيعته فخالف سنة الشعراء الذين عاصروهم ، إذ كان أغلبهم خاضعاً للملق والتكسب ، فتجافى

(١ - ٢) مقدمة الديوان طبع البان الحلى بمصر .

عن أن ينزل إلى مطاعهم وهو الغنى بنفسه وأدبه وماله عن الحكام والخلفاء ،
ولئن لم يعكس شعره أطوار المجتمع بصورها المختلفة ، فحسبه أن يعكس صور
حياته الخاصة التي تجد فيها منازع التفرد في عصره . فهو بحق شاعر مترف
غنى على قيثار نفسه ليضطرب روحه ، ويؤنس عمره » .

وكان الشاعر يستخدم عناصر التعبير الشعرى المختلفة ، منها ما يتصل
بمخرف اللفظ ، من حيث إيقاعه وموسيقاه ، ومقابلاته ، وتجنيساته
وتوربته :

ومن أهم معالم صنعته الشعرية تلك الخيالات الجديدة الغريبة التي صاغها في
صور من التشبيه والاستعارة غير مألوفة عند غيره من الشعراء من مثل قوله :

ولما أقلعت سفن المطايا يريح الوجد في لجج السراب
جرى نظري وزاعم إلى أن تكسر بين أمواج الهضاب
ومنه قوله أيضاً :

لا تُصغين إلى العُدول وسقني مشمولة في حُمر الباثونج
أو ما ترى زهر النجوم كجوهي نثرته غانية على فيروزج
والبدر في أفق السماء كوردة يضاء تضحك في رياض بنفسج

ويتخذ من المرأة بمزاتها وجسدها وثيابها ملامح لبناء تشبيهاته واستعاراته
كقوله :

فأحسن ما تكون الأرض زياً إذا انتقبت بفضي الأجاجي
وكقوله :

فلي رقيق حواشي نعمة الجسد كأنما ثغره عقدان من برد
كأنما ردفه من عزّة أسفى كأنما خصره من ذلة جلدي
وكقوله :

فاعتق فؤادك فيه من رق الهموم بعثي عايق
فالأقحوان غصونه يرض النواصي والمفارق
ومراود الأمطار قد كحلت بها حدق الحدائق

وانظر إلى رخات المطر وكيف تراءت في مخيلته مرادود تكحل عيون الحداثق
وهى زهورها !!

ويولد الشاعر العقيل من الكلمات معاني توليد ابن الرومى ، وبخاصة فى
الهجاء ، ومن ذلك قوله فى محسن بن الملح وإتخاذه من كلمة الملح معاني
للهجاء :

يا ابن الأجاج الملح لا تستخصم العذب الفراتا
ويقول كذلك :

أيا مُحسِنُ قُلْ لى بما تبيه وتفخر
هذا وجدك ملح فكيف لو كان سكر

وتلمح فى قاموس لفظه وتعبيراته مزيجاً من اللفظ البدوى والحضرى ،
والمولد والمغرب والدخيل ، منه بعض ألفاظ الطعام والشراب الفارسية التى
دخلت قاموس العربية فى لغة العباسيين وتداولها الشعراء فيما بينهم ، كاللوزينج
والسنبوسج ، وأسماء بعض الزهور كالجلنار ، والبهار ، واللازورد .

ويستخدم فى تعبيراته بعض عناصر من تراث الشعر ومن الآيات والسور
القرآنية ، ومن الأخبار والتاريخ الإسلامى والعربى القديم ، وبه تضمينات
أحياناً من بعض طقوس الدين وعباداته ، كاستخدامه للكعبة والطواف فى قوله
يلدح :

يا من يطوف بكعبة إلا حسان منه المستبيح
إن ظل عازر قصداً ميتاً فجداؤه المسيح
أو طاف طوفان بنا من عسرة فنداه نوح

فيسخر هذه العبارات والإشارات الدينية فى معانى المديح .

ويقول فى موضع آخر مستغلاً أيضاً الكعبة والحج والطواف فى الشراب :

قم فانحر الراخ يوم النحر بالماء لا تضح ضحى إلا بصهباء
أدرك حجيج الدامى قبل نفرهم إلى متى قصفهم مع كل هيقاء
وعن على مكة الروحاء مبتكرا فطف بها حول ركن العود والناء

— ٥ —

شعراء مصريون آخرون من القرن الرابع

عرفت مصر من القرن الرابع وفي ظل الفاطميين جماعة من الشعراء قصدوا المعز لدين الله ، والعزیز عثمان والحاكم بأمر الله ووزرائهم كيحيى بن كلس ، والقائد بجوهر الصقلي .

وتذكر منهم المصادر الحسين بن بشر^(١) وابن أبي الجوز عبد الله بن محمد^(٢) وكان الحسين بن بشر على قول الصفيدي هجاء ، هجا ابن كلس وغيره من رجال الدولة ، وأمر العزیز عثمان بتعزيره ، ومات لقاء تهجمه^(٣) . قال عنه ياقوت في معجم الأدباء :

« شاعر مشهور مذكور ، جيد الشعر ، على الطبقة ، مشهود له بالفضيلة » وقال عنه عبد الحسن الصوري الشاعر : « ما رأيت فيمن شاهدته من الشعراء أعلى طبقة من ابن بشر ، ولا أحسن طريقة » .

قال الصفيدي : « وشهادة عبد الحسن له بذلك ، مع تقدمه وفضله ، والإجماع على إحسانه فضيلة له لا تمجد ، ومزية لا تدفع . وشعره نحو خمسة آلاف بيت » .

ويذكر من شعره قوله عن نفسه :

حصلت من الدنيا على الشعر رتبة قُضرائي فيها أن يُقال مُجودُ
فأكرمهم من برئي باستماعه وأجودهم من قال شعرك جيدُ

ويبدو أنه سافر من مصر إلى الشام والتقى بمدينة يافا بالشاعر عبد الحسن البصري ولازمه زمناً أو لعله لقيه بمصر .

ويبدو أنه لم يعتمد على الشعر في رزقه ، وإن كان بعض أولى الأمر يَحْشُونَهُ

(١) ترجم له الصفيدي بالوافي ١٢ / ٣٤٣ .

(٢) ترجم له الصفيدي بالوافي ١٢ / ٥٢٧ .

(٣) الروي بالوفيات ٢ / ٣٤٥ .

وكان يمدح الوزير ابن كلس كما قلنا ، وروى له المقرئ أياتاً فيه أشد
إباحتها بمناسبة ألم أحسن به الوزير في يده ، ويشير إلى الخليفة العزيز فيقول (١) :

يُدُّ الوزير هـى الدُّنيا فإنَّ أَلَمَتْ
تَأْمُلُ الْمَلِكُ ، وَانْظُرْ قَرِطَ عِلَّتِهِ
وَشَاهِدِ الْبَيْضَ فِي الْأَعْمَادِ نَائِمَةً
وَأَنْفُسَ النَّاسِ بِالشُّكُوى قَدْ اتَّصَلَتْ
هَلْ يَنْهَضُ الْمَجْدُ إِلَّا أَنْ يُؤَيِّدَهُ
لَوْلَا الْعَزِيزُ وَآرَاءُ الْوَزِيرِ مَعًا
فَقُلْ لِهَذَا وَهَذَا أَنْتُمَا شَرَفٌ
كِلَاكُمَا لَمْ يَزَلْ فِي الصَّالِحَاتِ يَدًا
وَلَا أَصَابَكُمَا أَحْدَاثٌ دَهْرَكُمَا
وَلَا انْمَحَتْ عَنْكَ يَا مَوْلَايَ عَافِيَةٌ

رَأَيْتَ فِي كُلِّ شَيْءٍ ذَلِكَ الْأَلَمَا
مِنْ أَجَلِهِ ، وَاسْأَلِ الْقِرْطَاسَ وَالْقَلَمَا
عَنِ الْعِدَا ، وَكَثِيرًا مَا رُويَ دَمًا
كَأَنَّمَا أُشْعِرْتُ مِنْ أَجَلِهِ سَقَمًا
سَاقٌ تُقَدِّمُ فِي إِنْهَاضِهِ قَدَمًا
تَحْيِفُنَا خَطُوبٌ تَشْعُبُ الْأَمَمَا
لَا أَوْهَنَ اللَّهُ رُكْنِيهِ وَلَا انْهَدَمَا
مَبْسُوطَةً ، وَلِسَانًا نَاطِقًا وَفَمًا
وَلَا طَوَى لَكُمَا مَاعِشَتُمَا عِلَمًا
فَقَدْ مَحَوْتُ بِمَا أَوْلَيْتَنِي الْعَدَمَا

ويذكر الثعالبي جملة من شعره . كقوله :

أَظُنُّكَ يَا سَيِّدِي إِذْ جَفَوْتُ
وَنَحَلْتُ بِأَنْتِي مَلَاً سَلَوْتُ
وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنِّي عَلَيْكَ
تَوَهَّمْتُ لِي نَبْؤُهُ الْغَايِرُ
وَلَسْتُ بِسَالٍ وَلَا صَايِرُ
كَ أَشْفَقُ مَنَى عَلَى نَاطِرِي

وَقَالَ فِي مَلِيحٍ يَمْسُكُ بِشَمْعَةٍ :
صَالِحُ يَا مُشَبَّهَ بَدْرِ الدُّجَى
وَجْهَكَ فِي اللَّيْلِ كَشَمْسِ الضُّحَى

بِالْحَسَنِ وَالْإِشْرَاقِ وَالرَّفْعَةِ
نُورًا ، فَمَا تَصْنَعُ بِالشَّمْعَةِ

وَقَالَ فِيهِ :

يَا أَطِيبَ النَّاسِ رِيحًا
وَمَا بِهِ أَتَصَدِّيهِ الْ-
هَاتِ اسْقِنِي أُوتِرَا
وَأَحْفَظْ عَلَيَّ قَوَادِي

وَأَطِيبَ النَّاسِ رَاحًا
إِطْرَابَ وَالْأَفْرَاحَا
نِي لَا أَعْرِفُ الْأَقْدَاحَا
أَنْ لَا يَطِيرَ ارْتِيَاخَا

(١) المخطوط ٧/٢ .

لو كُنْتُ كاسْمِكَ يَا صَا لَحُ اعْتَمَدْتُ الصَّلَاحَا
لَكِنْ أَيْ اللَّهُ إِلَّا أَنْ تُفْسِدَ الْأَرْوَاحَا

وكتب إلى بعض أصحابه ليستدعيه وقد أوشك شعبان على الإنقضاء
وأصبح رمضان على الأبواب :

شعبان قد صارَ نَضْوَا ولم يُفِدْ فيه لَهْوَا
وليس ذلك مَسْنَا جهلاً ، ولا كان سَهْوَا
فبالمُـرُودَّةِ إِلَّا بكَرْتِ لِلْقَصْفِ عَذْوَا

أبو الفتح ابن البينى :

ومن شعراء المصريين في القرن الرابع : أبو الفتح ابن البينى^(١) (ت سنة
٤١٥ هـ) واسمه منصور عاش في مصر في أخريات القرن الرابع ، ومدح
رجالها ، ومن بينهم القاضى محمد بن النعمان قال فيه مخاطباً حاجيه^(٢) :

فَقُلْ لَأَنْى عَيْدِ الْإِلَهِ بِأَنْبَى سَقِيمٌ إِلَى الْآسَى شَكَايَةِ دَائِهِ
وَلَيْسَ التَّشْكَى شِعْتَى غَيْرَ أَنَّهُ يَفِيضُ إِنَاءً زَيْدٌ فَوْقَ امْتِلَائِهِ

وَيَسُطُّ آمَالِ حَيَاءٍ بِوَجْهِهِ وَبَعْضُ حَيَاءِ الْمَرْءِ تَرْبُ سَخَائِهِ
وَيَخْلُقُ كَأَمِ الْمَرْءِ فِي ظِلِّ صَخْرَةٍ تَرَى فِيهِ مَا قُدَّامَهُ مِنْ وَرَائِهِ
تَرَى كُلَّ عَيْنٍ فِيهِ مَا فِي ضَمِيرِهَا كَذَلِكَ لَوْنُ الْمَاءِ لَوْنُ إِنَائِهِ
أَلَسْتُ إِلَيْهِ جَبْتُ كُلَّ تَتَوَفَةٍ يَضِلُّ بِهَا قَرْنُ الضُّخَى عَنْ دُكَائِهِ

ويذكر في أثناء وجوده بمصر أنه خرج إلى جهة المقس على شط النيل ولقى
فتاة سمراء فنظم فيها أبياتاً ، قال المسيحي : قال : خرجت إلى المقس متنزهاً ،
فلقيت جارية سوداء مليحة فتبعتها فقلت :

وغزالة غازلتها في المقس من أولاد حام

(١) ترجم له المسيحي انظر الجزء الذى قام بتحقيقه د . حسين نصار ، والمغرب قسم مصر بتحقيق .
زكى محمد حسن ود . شرق ضيف ص ٢٧٢ ، والينيمه للثعالى ١ / ٣٤٣ .
(٢) المصدر السابق ص ١٠ المسيحي طبع المعهد العلمى الفرنسى .

نَضَرْتُ بَغِيضِي ضَيْيَةً
وَتَسْمُوتُ فَكَأْتُهُمَا
نُتُّ مَشَتْ مَشَى الْمَاهَا
حَتَّى وَصَلْنَا بَيْتَهَا
وَجَعَلْتُ أَفْتَحُ مِمْهَا
كَانَتْ - لِعُمْرِكَ - سَاعَةً
وَنَظَرْتُ مِنْ عَيْنِي فَطَامِي^(١)
بَرَقَ تَأَلَّقَ فِي غَمَامٍ
وَتَبِعْتُهَا رَثَكُ الثَّغَامِ
فَحَصَلْتُ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ
لَمَّا جَشَوَتْ لَهَا بِلَامِي
جَمَعْتُ غُرَابًا مَعَ حَمَامِ

ونلاحظ هذه التورية في غزله المكشوف أو فعله .

ومن حديث الشاعر وما ورد من أخباره القليلة ندرك أنه سافر إلى الشام ،
وحل ببعض بلاده ومدح رجلا هناك وذكر المسيحي أنه كتب إلى من يسمى
أبا الحسين على بن نخوار وهو بحلب يقول :

سَرَى فِي سَبِيلِ الْقَوْمِ ظَبْيٌ مَرَبَّبٌ
وَأُنَى اهْتَدَى، وَالْأَرْضُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
فِيَالِكَ مِنْ لَيْلٍ طَوَى النَّأْيَ فَالتَقَى
وَمَارَا لَتِ الْعُتْبَى تَرَدَّدُ بَيْنَنَا
وَدُلَى وَعَيْنِي تُرْسِلُ الدَّمْعَ خَلْفَهُ
فَقَمِيتُ كَأَنِّ عُلَّقْتُ قَلْبِي بِنَظَرِهِ
لِكُلِّ أَمْرٍ عَمَرٌ بِمَالٍ يَنَالُهُ
وَلَيْلَةٌ لَيْلَى وَالرَّقِيبُ كَأَنَّهُ
عَمِيتُ تَرَى الْحِرْبَاءَ تَغْبِرُ فِي الدُّجَى
وَقَدْ مَدَّ كَفَّيْهِ إِلَى الشَّمْسِ مَائِلًا
سَلَامٌ كَابِهَامِ الْقَطَاةِ لِبَسْتِهِ
وَمَا زِلْتُ أَرْمِي بِالتَّجْنُبِ مِنْهُمْ
وَمَا زُرْتُهَا إِلَّا كَخَفَقَةِ طَائِرٍ
وَفِي ذِيْلِهِ ذُبُّ مِنَ الْإِنْسِ أَطْلَسِي
وَفِي مُنْصِلِ التَّصْلِ الْيَمَانِي بَرَقَ

هَزِيْعًا، وَهَلْ لِلظُّبَى فِي اللَّيْلِ مَسْرَبٌ
وَمِنْ فَوْقِهَا غَيْلُ الدُّجَى الْمُتَأَسِّبُ
بِهِ مَشَرَّقٌ حَتَّى الصَّبَاحِ وَمَغْرَبٌ
إِلَى أَمْدٍ مَا خَلْفَهُ مُتَعَتِّبُ
وَقَدْ حَارَ جَفْنَيْهَا خِيَالُ مُحِبِّبُ
تَهَادَى بِهَا فِي طَرَةِ الْعَرَبِ كَوَكَبُ
وَعُمَرُ بِمَا قَدْ نَالَهُ كَيْفَ يَسْلُبُ
عَلَى أَفْقِهَا عَيْنُ الرَّقِيبِ تَرْقُبُ
وَتُنْشَرُ فِي صَنْدَرِ النَّهَارِ وَتُصَلِّبُ
كَمَا مَدَّ كَفَّيْهِ إِلَى اللَّهِ مُذْنِبُ
وَكَانَ كِظْلُ الرُّحَى مَا جِئْتُ أَطْلُبُ
وَرَبَّنَا غَرَّ الرَّقِيبَ التَّجْنُبُ
عَلَى عَجَلٍ وَاللَّيْلُ بِالصَّبْحِ أُشِيبُ
تَوَجَّسَ لَيْثٌ مِنَ الْوَحْشِ أَغْلَبُ
إِذَا لَمَعَتْ كَانَتْ دَمًا يَتَصَبَّبُ

(١) النظامي : المتمر .

فَضِيضًا عَلَيْهِ شَعْلَةٌ تَنْلَهَبُ
يَقْدُ ثَمَالًا أَوْضِيًا حِينَ أَضْرِبُ
إِذَا كَانَ حَقًّا مَا إِلَى الْعَوْلِ يُنْسَبُ
تَنَاهَتْ ، وَفِي شَرْخِ الشَّيْبَةِ مَلْعَبُ
لِيَذْوِي ، وَمُحْضَرٌّ لِيَنُمُو وَمُعْشَبُ
وَيُنَزَّعُ عَنْهُ حُسْنُهُ حِينَ يَنْضَبُ
مِنَ الْآلِ بِحَرٍّ ، أَوْ مِنَ الْبَحْرِ سَبَبُ
صَدَعَتْ بِهِ عَنْ زُرْقَةِ الْمَاءِ طَحْلُبُ
تِلَافًا أَرَاهَا مِثْلَهَا حِينَ تَحْبُبُ
يَرَى خَافِيَاتِ الْغَيْبِ وَهُوَ مُغَيَّبُ

إِذَا سَلَّ خَلَّتِ الْغَمْدُ أَسْلَمَ جَذْوَلًا
يَقْدُ الْمَفَاضَ السَّرْدَ رَهْوًا كَأَنَّهُ
فَمَا كَانَ إِلَّا ضَرْبَةُ الْعَوْلِ بَيْنَنَا
أَطَعْتُ الصَّبَاحَ حَتَّى ارْعَوْتُ لِي خَلِيقَةً
وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالثَّبَاتِ مُصَوِّحُ
يُسْرِبُهُ مَاءُ الشُّبَابِ نَضَارَةً
دَعَانِي ابْنُ نَحْوَارٍ عَلَيَّ وَبَيْنَنَا
فَعَجِبْتُ عَنِ الْفَجْرِ الظَّلَامِ كَأَنَّمَا
بَعِيسٌ أَرَى مِنْ خَلْفِهَا فَرَطُ خَلْقِهَا
إِلَى مَلِكٍ كَالْقَلْبِ خَلْفَ حِجَابِهِ

حتى يقول :

وَتَلْبَسُ أَثَوَابَ الدُّجَى حِينَ يَغْضَبُ
يَعْنِي تَحُلُو فِي فَوَادِي وَتَعْدُبُ

كَذَا تُشْرِقُ الدُّنْيَا إِذَا كَانَ رَاضِيًا
كَرِيمٌ مَتَى أَعْجَمَ أَمِيرَةً وَجْهِهِ

ويختم بقوله :

تَوَجَّهَ لِقَاةُ صَدِيقٍ وَمَكْسَبُ
فَيَسْتَعِي إِلَى شَيْءٍ سِوَاهَا وَيَنْصَبُ
وَيَعْمُرُ مِنْ دُنْيَاهُ مَا يَتَخَرَّبُ
بَلِيغًا ، وَفِي صَرْفِ الزَّمَانِ مُؤَدَّبُ

إِذَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَقْلٌ فَحَيْثُمَا
يَنَالُ الْفَتَى بِالْخَفْضِ بُلْغَةً عَيْشِيَةً
يُتَخَرَّبُ مِنْ أَخْرَافِهِ مَا لَيْسَ فَاثِنًا
عَلَى أَنْ فِي الْأَيَّامِ لِلْمَرْءِ وَاعْظَا

ونلاحظ في هذه القصيدة التي رواها المسيحي ملاح من صنعة البيئي الشعرية وأولها تأثيره ببعض مصطلح الشعر القديم وصياغاته دليلاً على حفظه للكثير منه ومن ذلك قوله واصفاً قصر الظلام : « ظلام كإبهام القطاة » و « كظلم الرمح » و « الليل بالصبيح أشيب » .

وأنه حل أو فصل معنى لذي الرمة ، تناول الشعراء كثيراً ، وهو يصف قطعه البيداء على راحلته ومعه سيفه .

ونلاحظ بناء القصيدة التي مدح بها هنا على النهج القديم بادئاً بالفزل ،

كنه صورته نسيباً بدوياً ، يرحل فيه إلى محبوبته رحلة المخاطر ، وقد أعد لها من
جرأة القلب والسلاح ما يتغلب به على صعاب الطريق .
وينغم القصيدة بأبيات من الحكمة .

ونلاحظ في صناعته الشعرية غرابة بعض التشبيهات والصور على غير المألوف
ومنها تشبيه الحرباء وقد مدت كفيها بأنها كمن يمد كفيه بالدعاء ، مبدلاً صورة
الشاعر القديم الذى شبه الحرباء فى الضحى وكأنها كمن يمسك بالقوس والرمح
مستعداً للرمى . وتشبيه الزيارة وقصرها بأنها كخفقة طائر . وتشبيه الدرع
بالثمال وهو الماء القليل فى قوله :

يَقْدُ الْمَقَاضِ السَّرْدَ وَهَوَا كَأَنَّهُ يَقْدُ ثَمَلاً، أَوْضِيًا حِينَ يَضْرِبُ

ويعتمد فى تشبيه الناس بالزرع على القرآن الكريم فى قوله :

وَمَا النَّاسُ إِلَّا كَالْثَّابِتِ مَصْرُوحٍ لِيَذُوبَ وَيَخْضَرُ لِيَنُومَ وَمُعْشِبُ

ومن غريب تشبيهه كذلك قوله :

إِلَى مَلِكٍ كَالْقَلْبِ خَلْفَ حِجَابِهِ يَرَى خَافِيَاتِ الْغَيْبِ وَهُوَ غَيْبٌ

ومثل هذه القصيدة فى بنائها البدوى ، قصيدة أخرى أوردها له المسيحي
فى مدح محمد بن جعفر بن فلاح أحد أمراء الفاطميين ، ممن تولوا دمشق
وامارة الشام فى عصر المعز والعزیز يقول فى مطلعها^(١) :

صَدْتُ وَمَنْزَلُهَا مِنْ مَنْزِلِ صَدْدِ^(٢) وَأَخْلَفْتُكَ عَلَى الْعَلَاتِ مَا تُعَدُّ

ويغرب فى صورها وتشبيهاتها كما فعل فى القصيدة السابقة ، كقوله :

كَأَنَّ خُفْيَ قَضِيبٍ فى صَنْوَبَرَةٍ تُجَادِ، فَلَمَاءٌ عَنْ أَوْرَاقِهَا يَدُّ

ومن صورته التى تكررت قوله يشبه النجوم حول البدر أو المجرة البيضاء فى
السماء المسماة بدرج التبانة بالطير تحوم على غدير الماء ، وهى صورة غريبة ،
وإن كررها فى قصيدته :

(١) تاريخ المسيحي ص ١٦ .

(٢) صدد الشيء قبالة وأمانه .

فقد ذكر في هذه القصيدة قوله (١) :

ولاحَ بدرُ الدُّجَى نَهْياً وأنجُمُه طيراً تَرِفُ حَوَالِيَه ولا تَرُدُّ (٢)

ويذكر في القصيدة نهر حلب المسمى بِقُوقٍ ، مشبهاً البيض حَف الزرد بحافاتِه ، فصورة الماء في هذا النهر القليل الغور ، وهو ينساب حول الحصى والصخر في مجراه يشبه تلك الصورة التي رسمها من خياله وهى صورة غريبة في تركيبها ، وإن لم تكن غريبة في جزئياتها لأن تشبيه الماء المنساب في الجدول بالزرد أمر وارد متكرر في شعر القدماء .

وهو مغرم بالأمثال والحكم يسوقهما كل حين في أثناء قصيدته ، كأن يقول في القصيدة :

وما دُنُوكَ مِن لا حِفَاطَ لَهُم على المودة إلا النأى والبعد
وكقوله :

دَغ مِن قِلاكَ وواصل مِن ظَفِرَتِ بِهِ ما تَعْلَمُ اليَوْمَ ما يَقْضِي عَلَيْكَ غَدُ
كل البرية عِمِيانَ يَقودُهُم دَهْرٌ طرائقه مَجْهُولَةٌ قَدْ دُ
ويُضْمِنُ شِعْرَه أَمْثالاً قَدِيمَةً كقوله :

أَبْقَى الزمانُ على لَبَّاتِه عِدَّةً وإنما يُنَجِّزُ الأحرارُ ما وَعَدُوا
مِنَ المثل السائر : أُنْجِزْ حُرٌّ ما وَعَدَ
وأورد له المسيحي أرجوزةً خميرية يقول فيها :

نَبْهَنِي دِيكَ صَدَحَ	فَقَلْتُ قَوْمِي يَا مَلَحَ
وَالصَّبْحُ قَدْ بَانَ لَهُ	فِي كَفَلِ اللَّيْلِ وَضَحَ
وَالطَّلُّ فِي ذَنَلِ الدُّجَى	إِنْ لَمْ يَسْلِ مِنْهُ رَشَحَ
فَأَقْبَلْتُ فِي حُلَلِ	كَالشَّمْسِ فِي قَوْسِ قُرْخَ
وَالْبَدْرُ أَبْدَى صَفْحَةَ	مِنْ جِيدِهِ حِينَ سَبَحَ
تَحِيلُ لِي رُجَاجَةَ	مَلَأَى مُدَامًا ، وَقَدَحَ
وَانْدَفَعَتْ تَسْكُبُ لِي	مِنْهَا سُرُورًا وَقَرَحَ

(١) السبحى ص ١٧ .

(٢) النسي الفندى .

حتى يقول :

فلم نزل نشربها حمراء كاليسك نفع

ويقول فيها :

جدد لي عهد الهوى من بعد ما عفى ومع
لست امرؤا إذا اغتدى يعرف في الطير الروح
إذا أصبت فرحة سألمة من الترح
فما أبالي في غد حاب قد جى أم نجح

وقد ذكر له ابن رشيقي بيتاً في الشمعة يقول :

قد شابهتني في لون وفي قصف وفي اختراق وفي دمع وفي سهر

وذكره العالبي وعلق عليه بقوله : « هذا تشبيه خمسة بخمسة ، وقد أجاد غاية الجودة » .

ومنهم :

أبو الحسين محمد بن عثمان الفصيح (١) :

يذكر له المسيحي قصيدة رائعة طويلة جيدة ، مدح بها أبا محمد الحسن بن
عمار أمين الدولة وأحد وزراء الحاكم بأمر الله (قتله في شوال سنة
٣٩٠ هـ) . يقول في هذه القصيدة :

أبا صاحبي رجلي أجد مسير ألا فانظراني والتائف زور
وقفنا وقداما لثنا نشوة الكرى وللنوم في عين المهابة فتور
وما زاد ظمء الشوق إلا ركية مرثها شمال قرّة ودبور

وتبدو سمات البداوة واضحة في اللفظ والأخيلة ، ويمضي ليصف التوق وقد
أجهدتها الرحلة إلى المملوح حتى بلغته :

فجاءتك أمثال القطا الجوني صرصرث عليهن في الجور المنيع صقور
بطان. ترى المسكى والروض موني به ، ويردن الماء وهو نيم

ويعرض على نسق صاحبه المنصور ابن البيني في صياغة معانيه على طريقة
الأمثال والحكم يتابعها في أبيات متتالية في نسق فيقول :

فلا تنأين اليوم يسلم نفسه ألا إن يوم الترهات غرور
فقد تفضح النار الدجى وهى جمره ويقطع حد السيف وهو قصير
وريتما هيب الفتى وهو عاجز وعظم شأن الأمر وهو حقير

ويشير فيها إلى أنه من رجال الحاكم ومدير عسكره إذ يقول :

وإن السيوف الحاكمة قطع وعند رقاب الخالعين ثور
يشق العصا العبد اللئيم وإنه إلى مثلها في الثأيات فقير

أتراه هنا يشير إلى عصيان أبى ركة وثورته على الحاكم أم يذكر أمرا آخر ؟
ومعروف أن محمد بن عمار هذا مغربى من كتامة . وهى القبيلة التى عاضدت
المعر وجاءوا معه إلى مصر ، واتخذ الخلفاء منهم رجالاً فى مناصب الدولة
الكبرى وخلعوا عليهم ، وقربوهم . يقول :

وهل أنجم العلياء إلا كتامة فليست .. وإن غار الزمان .. تهور
وأى وحزب الله لا حزب غيره هم وأمير المؤمنين أمير

ومنهم : ابن رشد بن أبو على صالح^(١) :

ذكره الثعالبي فى اليتيمة وقال إنه أحد أئمة الكتاب المهرة فى سائر الآداب
صحب المتنبي وروى شعره . وكان جيد المعانى . وعاش حتى لحق بالدولة
الفاطمية ومدح رجالها مثل أبى الحسن على بن جعفر بن فلاح الكتامى الذى
ولى دمشق والشام كما تولى فى مصر بعض المناصب الكبرى حتى قتله الحاكم .

وكان يغشى مجلس حسين بن جوهر القائد . وعرف الشريف الرسى أباً عبد
الله محمد بن على نقيب الطالبين بمصر ، والأمير أبى تميم سلمان بن فلاح وله فى
كل هؤلاء أبيات ذكرها المسبحى ، وهى من الشعر الوسط سهل اللفظ الذى
عرف به الكتاب فى القرن الرابع ، وترجم له الثعالبي فى اليتيمة ، وجاء ببعض
أخباره متفرقة ، كما ترجم له ابن سعيد فى المغرب^(٢) .

★ ★ ★

(١) المسبحى ص ٣ .

(١) فوت ١٤٢ - ١٤٣ .

(٢) المغرب ج ٣ ص ٢٥٣ .

الفصل الثالث

شعراء وافدون في القرن الرابع

- (١) أبو الرقعمق الأنطاكي (ت ٣٩٩ هـ)
- (٢) الرقيق القيرواني (ت حوالي سنة ٤٢٥ هـ)
- (٣) صريع الدلاء البغدادى (ت سنة ٤١٢ هـ)
- (٤) عبد المحسن الصوري (ت سنة ٤١٦ هـ)

—١—

أبو الرقعمق
أحمد بن محمد الإنطاكي — أبو حامد
(ت سنة ٣٩٩ هـ)

انطاكي النشأة كما تدل نسبته ، ولم تورد المصادر شيئاً عن ولادته ، قدم إلى مصر بعد أن ثبت قدمه في الشعر .

ذكره الثعالبي في اليتيمة^(١) وقال عنه : هو نادرة الزمان وجملة الإحسان وهو أحد المداح المجيدين والشعراء المحسنين . هو بالشام كاهن الحجاج بالعراق . قدم مصر ، وذكر أن ذلك كان في بداية الدولة الفاطمية زمن المعز لدين الله . وأقام بها طويلاً فعاصر من الخلفاء العزيز بالله ، والحاكم بأمر الله .

قال ابن خلكان^(٢) : « إنه أقام بمصر طويلاً ، وإن معظم شعره قد نظم في مدح أمرائها ورؤسائها » ، فمن مدح المعز والعزيز والحاكم ، وجوهر الصقلي والأمير تميم بن المعز ويعقوب بن كلس .

كما اتصل ببعض الأشراف الرّسّيين ، ومدحهم .

وذكر أنه لقب بالرقعمق لرقاعته في شعره ومجونه^(٣) . وذلك لقوله :

ولم أكسب الحق لكنني خلقت رقيقاً كما قد ترى
لقد فقت فيه كما الفارس في الرمي فاق جميع الوري

وقوله :

قد أجمع الناس أن حُمقي أحسن من عفتي وديني
قد عشت دهرًا أعول عقلي والناس إذ ذاك يعلوني
فمذ تحامقت قد كسائي حُمقي ، وقد عالني جُنوني

قال عنه صاحب اليتيمة إنه مع اشتهاره بالحق والمجون إلا أن له الشعر الجاد

(١) ٢٣٩٨/١ .

(٢) وفيات ٤٨/١ .

(٣) يتيمة الدمر ٧٩٧/١ .

في المديح ، قال : « ومن تصرّف بالشعر الجزل في أنواع الجّد والجزل واحرز قصب الفضل . وهو أحد المّداح المحيدين ، والفضلاء المحسنين » .

قال ابن خلكان : وأقام بمصر طويلاً وأظنه توفي بمصر سنة ٣٩٩ هـ .

شعره :

ونبدأ الحديث بشعره الجاد في المديح . واعتبر الثعالبي وغيره قصيدته في العزيز بالله ويعقوب بن كلس الرائية من عيون شعره وغرره . قال الثعالبي : « فمن غرر بحاسنه قوله بمدح من قصيدة أولها :

قد سمعنا مقالَه واعتذارَه	وأقلناه ذنبَه وعشارَه
والمعاني لمن غيبت ولكن	بك عرّضت فاسمي يا جارة
من مراديه أنه أبد الدهر	ر تراه محلاً أزاره
عالم أنه عذاب من الله مباح	لأعين النظارة
هتك الله سيرة فلکم قت	ك من ذي تستر استارة
سخرني الحاظه وكذا كل	مليح الحاظه سحارة
ما على مؤثر التباعد والإعرا	ض لو آثر الرضا والزارة
وعلى أنني وإن كان قد عد	ب بالهجر مؤثر إثارة
لم أزل لأعديته من حبيب	أشهى قرنه وآى نفارة

وتلك المقدمة الغزلية ، تبلو مغاية في نهجها لما اعتدناه في الشعر العربي التقليدي . يميل فيها إلى الروح الشعبية في الحديث ، واللفظ ، ولا تخلو من روح تحامق أو عبث . ويقول في مديحها يعنى الوزير يعقوب بن كلس :

لم يدع للعزيز في سائر الأثر	ض عدواً إلا وأخذ ناره
فلهذا اجتبه دون سواه	واصطفاه لنفسه واختاره
لم تشيد له الوزارة مجداً	لا ، ولا قيل رفعت مقداره
بل كساها وقد تخرمها الدهر	ر جلالاً وبهجة ونضارة
كل يوم له على ثوب الدهر	ر ، وكر الخطوب بالبدل غارة
ذو يد شأنها القرار من البخر	ل ، وفي حومة الوعى كرامة
هي قد قلت عن العزيز عداه	بالعطايا وكثرت أنصارة
هكذا كل فاضل يده تمسب	سى وتضجى نفاعه ضرارة

فاستجِرْهُ فَلَيْسَ بِأَمْنٍ إِلَّا
فَإِذَا مَا رَأَيْتُهُ مَطْرَقًا يُعْمَبُ
لَمْ يَدْعُ بِالذِّكَاةِ وَالذَّهْنِ شَيْئًا
لَا وَلَا مَوْضِعًا مِنَ الْأَرْضِ إِلَّا كَا
زَادَهُ اللَّهُ بَسْطَةً وَكِفَاهًا
مَنْ تَفِيًّا بِظُلْمَةٍ وَاسْتِجَارَةً
سَلَّ فِيهَا يُرِيدُهُ أَفْكَارَةً
فِي ضَمِيرِ الْغُيُوبِ إِلَّا أَنْارَةً
نَ بِالرَّأْيِ مُدْرِكًا أخطَارَةً
خَوْفُهُ مِنْ زَمَانِهِ وَحَذَارَةً

مديح يخرج عن طرق التقليد فيه ، فلم يجز على ما اعتاده الشعراء من ذكر
الشجاعة والكرم واستخدام العناصر التعبيرية المعتادة من اللفظ والصور البيانية في
حديث الشجاعة بالاقدام وقهر الأعداء ، وحديث السيوف والرماح ، ولا جاء في
الكرم بذكر الغيث والسحاب والمطر . بل عرض معاني السماح والذكاء والحنكة ،
وهي خصائص ميزت الممدوح ، فلم يكسبه صفات ليست به ، ولا بالغ بمبالغة
تخرج عن قبول الذوق لها ، وتصبح مجرد بطاقات يعلقها الشاعر على ممدوحه
مستعارة في معظمها .

وفي حديث العباسي في معاهد التنصيص خبر غريب يخالف فيه الثعالبي وابن
خلكان . إذ يشير إلى أنه لحق بعصر كافور الإخشيدي ، قبل وفود المعز إلى
القاهرة .

يروى العباسي على لسان أبي الرقعق قوله^(١) :

« كَانَ لِي إِخْوَانٌ (أَرْبَعَةٌ) ، وَكُنْتُ أَنَادِمُهُمْ أَيَّامَ الْأُسْتَاذِ كَافُورِ الْإِخْشِيدِيِّ
فَجَاءَنِي رَسُولُهُمْ فِي يَوْمٍ بَارِدٍ ، وَلَيْسَتْ لِي كِسْوَةٌ تُحَصِّنُنِي مِنَ الْبَرْدِ ، فَقَالَ
إِخْوَانُكَ يَقْرَعُونَكَ السَّلَامَ وَيَقُولُونَ لَكَ : قَدْ اصْطَبَحْنَا الْيَوْمَ وَذُبَحْنَا شَاةً سَمِينَةً ،
فَاشْتَرَيْنَاهَا عَلَيْنَا مَا نَطْبِخُ لَكَ مِنْهَا . قَالَ فَكَتَبْتُ إِلَيْهِمْ :

إِخْوَانَاتِنَا قَصِدُوا الصَّبُوحَ بِسَحَرَةٍ فَأَتَى رَسُولُهُمْ إِلَيَّ خُصُوصًا
قَالُوا اقْتَرَحَ شَيْئًا نَجِدُ لَكَ طَبْخَةً قُلْتُ اطْبَخُوا لِي جُيَّةً وَقَمِيصًا

وتشير هذه النبذة من حديث العباسي إلى وفوده لمصر قبل الفاطميين . ونعود
إلى حديث المديح في شعره الجاد بمدح الوزير ابن كلثوم كذلك . يقول^(٢) :

(١) معاهد التنصيص ٢ / ٢٥٢ .

(٢) بتيمة الدهر ١ / ١٨١ .

إِنَّ رِيعاً عَرَفْتَهُ مَأْلُوفَ
 غَيْرِثِ آيَةٍ صُرُوفِ اللَّيَالِي
 مَا مَرَّرْنَا عَلَيْهِ إِلَّا وَقَفْنَا
 أَلْفَا فِيهِ لِلْبُكَاءِ كَأَنِّي
 حَاسِدٌ لِلْجَفُونَ لَمَّا أَرَاكَ
 إِنَّ يَعْقُوبَ قَدْ أَفَادَ وَأَقْنَى
 سَلَّ سَيْفًا مِنَ الْبَصِيرَةِ وَالرَّأَى
 بِإِذَا لِلْعَزِيزِ دُونَ حِمَاهُ
 لَمْ تَزَلْ دُونَهُ تَخُوضُ الْمَنَآيَا
 نَاصِحًا مَشْفِقًا مَحِبًّا وَدُودًا
 لَيْسَ تُخْشَى فِسَادَ أَمْرِ تَوَلَّا
 مَا رَأَيْنَاهُ قَطُّ إِلَّا رَأَيْنَا
 وَرَأَيْنَا قِرْمًا كَبِيرًا هُمَامًا
 لَكَدْ طَعِمَ الْعَطَاءَ فَهُوَ إِذَا جَا
 خَلَقَ مِنْهُ مِنْذُ كَانَ كَرِيمٌ
 وَيَرِيشُ الْفَقِيرَ بِالْبَذْلِ وَالْجُو
 فَأَرَانَا الْآلَهُ صَرَفَ اللَّيَالِي

كَانَ تَلْيِيزُ مُرْبَعًا وَمَصِيفًا
 وَغَدَا مِنْهُ حَسَنُهُ مَصْرُوفًا
 وَأَطَلْنَا شَوْقًا إِلَيْهِ الْوَقُوفَا
 لَمْ أَكُنْ فِيهِ لِلْعَوَالِي الْوَقَا
 فِي مَغَانِيهِ دُمَعَهَا الْمَذْرُوفَا
 وَأَعَادَ النَّدَى وَأَغْنَى الضَّعِيفَا
 يَ، فَأَغْنَاهُ أَنْ يَسْلُ السَّيُوفَا
 مَهْجَةً حُرَّةً وَرَأْيَا حَصِيفَا
 وَتَرَدُّ الرَّدَى وَتَلَقَّى الصَّفُوفَا
 قَائِمًا فِي رِضَاهُ، صَعْبًا عَسُوفَا
 هُ، وَأَضْحَى بِرَأْيِهِ مَكْنُوفَا
 خُلُقًا طَاهِرًا، وَفِعْلًا شَرِيفَا
 مُنْعِمًا، مُفْضِيًا، رَحِيمًا، رَعُوفَا
 ذَ وَأَعْطَى يَرَى الْكَثِيرَ طَفِيفَا
 يَسْتَلِدُّ النَّدَى وَيَقْرَى الضَّيُوفَا
 دَ، وَيَعْطَى وَيَسْعَفُ الْمَلْهُوفَا
 أَبَدًا عَنْ فَنَائِهِ مَصْرُوفَا

وهذا المديح السهل الجارى بلغة الحديث طابعه وميزته ، ومع كل من مدح لم
 يتَّخَلَّ عن هذا الطبع . ويقول معرضاً بهذا المسلك في مديحه :

لِمَنْ أَمْدَحُ بِالشَّعْرِ ؟
 إِلَى مَنْ إِنْ دَجَا خَطْبُ
 قَدْ - وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ
 تَحَيَّرْتُ فَمَا أَدْرَى الَّذِي
 عَلَى أَتَى بِالذَّهْرِ وَالْأَيَا
 وَلَكِنِّي لِلْحَيْرَةِ سَ -
 كَأَنِّي لَسْتُ مَخْلُوقًا
 وَمَنْ كُنْتُ قَمْدُفُوعُ

لِمَنْ أَقْصِدُ ؟ لَا أَدْرَى
 وَنَابَتْ نَوْبُ الذَّهْرِ
 وَمَنْ أَقْسَمُ بِالْفَجْرِ
 أَصْنَعُ فِي أَمْرِي
 مَ ذُو خُبْرٍ
 كُرَانَ بَلَا سُكْرِ
 لَغَيْرِ الْجَهْدِ وَالضَّرِّ
 إِلَى الْفَاقَةِ وَالْفَقْرِ

فما أصنعُ في مصر
وفي الآفاق أقومُ
ونبئتُ بأنَّ القومَ
فقيم الترك للسير ؟
وقد قدّمتُ أثقالى
فأما أكثر الحمق
وباقية معى يذهبُ
ولا أترك في مصر
إذا لم أحظ في مصرِ
يميلون إلى شعري
لا يخلون من ذكرى
وهل في ذاك من عُذرِ
وسرى غرة الشهرِ
فقد سيرتُ في البحرِ
في البرّ على ظهري
لذكرى الحمق من أثرِ

وهذا الحديث عن حمقه أو تحامقه في مطلع قصائده يشير إلى أنه بضليعة التي يتفقُ بها شعره عند سامعيه بمصر ، ولهذا لا نعجب أن يبدأ بعض قصائد المديح بهذا اللون . وهذه الأبيات نفسها مقدمة لمديحة ينتقل عنها إلى موضوعه فيقول :

ألا يا مُنتهى الجودِ ويا ذا الجِدِّ والفخرِ
ويا ابنَ السادة العُرِّ ويا ابنَ الأنجم الزُّهرِ

ومن مدائحه التي تبدأ بهذا التحامقُ قصيدة في الخليفة العزيز نزار . قوله :

أُخذ في هَنَاتِكَ مما قد عرَفَتْ به
واخلجُ العَصَافِيرُ صَبِي صَبِي صَبِي
فليكَ مَا شِئْتَ مِنْ حُمَقٍ وَمِنْ هَوْنٍ
كَمْ رَأَيْتُ إِدْرَاكَه قَوْمٌ فَأَعْجَزَهُمْ
لَا تُنْكِرَنَّ حِمَا قَاتِي لَأَنَّ بِهَا
وَلَسْتُ أَبْغِي بِهَا بَخْلًا وَلَا بَدَلًا
أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِمَّا قَلَّتْهُ عَيْشًا
أَقُولُ لِلنَّفْسِ لِمَا اسْتَشْعَرْتُ جَزْعًا
إِنَّ الْإِمَامَ نَزَارًا مَدَحَهُ فَتَقَى
هُوَ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَ اللَّهِ مِنْ أَحَدٍ
مُسْتَمِرٌّ فِي الْمَعَالَى ذَنْبِلٌ مَجْتَهِدٌ
مما به أنتَ معروفٌ ومشهورُ
إذا تجاوزتني في الصبحِ العَصَافِيرُ
قليله لكثير الحُمَقِ إِكْسِيرُ
وكيف يدرك ما فيه قنَاطِيرُ
بِلَوَاءِ حُمَقِي فِي الْآفَاقِ مَنْشُورُ
هيهاتَ غَيْرِي يَتْرَكَ الْحُمَقِ مَعْنُورُ
لغير شيءٍ ، ومافي الصحفِ مَسْطُورُ
وباتَ يَرُدُّعُهَا خَوْفٌ وَتَحْذِيرُ
ذخْرٌ لِمِثْلِكَ عِنْدَ اللَّهِ مَذْخُورُ
سِوَاهُ فِي النَّاسِ مَحْمُودٌ وَمَشْكُورُ
وما له في سِوَى الْعُلِيَاءِ تَشْمِيرُ

فالتحامقُ إذا كان مدخله إلى مدح من مدح من الخلفاء والملوك والأمراء ، ولعلهم وجازا فيه مادة تسلية وترويح ، وتغيا عن جارى الشعر الذى ربما شعروا

بالمثل من سماعه فأحبوا أن يسمعوا مثل قول أبي الرقعمق فتأدى فيه وراج به عندهم .

ومن اتصل بهم في مبصر الأمير تميم بن المعز ، وكان محباً للشعراء ممدحاً منهم ، كثير الانفاق عليهم . ويقول فيه على طريقته :

وبإحسانٍ تميم	عُدْتُ من عظم مصابي
بالأمير السيد الما	جِدِّ والقَرَمِ اللَّبابِ
والهامم المنعم المفضال	والبَحْرِ العُبابِ
والذي لا فرق ما بين	بَنِ جَدَّاهِ والسَّحابِ
لم أزره قط إلا	عُدْتُ محمودَ الإيابِ
ذكره أعذب في الأنف	سي من ذكر الشَّبابِ
ولقد رَقَّ عن الما	ءِ وعن طبع الشَّرابِ
أَكثُمُ في الرَّأْيِ وفي الفض	لِ وقَسَّ في الخطابِ

ومما قاله في المديح في الشاعرين الشريف الحسيني الرسي وإبراهيم الرسي . يقول في إبراهيم :

حبذا الرسي مولى	رَضِيَ النَّاسُ ولاه
جعل الله أعاديـ	ه من السَّوءِ فداه
فلقد أيقن بالثر	وة من حلِّ ذراه
من رقي حتَّى تناهى	في المعالي مرَّقاَه
لم يضع من كان إبرا	هم في الناس رجاَه
لا ولا يفرق من صرف	زمانٍ إن عراه

ويقول في الحسيني متحامقاً (١) :

عجب ما مثله عجب	فعلوا بي غير ما يجب
قرقرت بطنى فواخرني	ذقن من بالسَّلحِ يختضب
هرباً من شرها هرباً	فَعَسَى أن ينفع الهرب

(١) اليتمة ١ / ٣٨٩ .

وَلَكُمْ بَتْنَا عَلَى طَرِبٍ
وَكُزُوسِ الصَّفْعِ دَائِرَةٍ
وَكَانَ الصَّفْعُ بَيْنَهُمْ
وَرَعُوسِ الْقَوْمِ تُسْتَلَبُ
مِلُّوْهَا اللَّذَاتُ وَالطَّرِبُ
شَعَلُ النِّيرَانِ ثَلْتِهَبُ

ويخرج إلى المديح فيقول :

وعجيبُ والحسينُ له
أَنْ شِيرِي عِنْدَهُ يَرْتَقِ
وهو القَيْثُ المِلْثُ إِذَا
فَالِي الرُّسَى مَلَجُونَا
رَاحَةً بِالْجُودِ تُنْسَكِبُ
وَلَدَيْهِ مَرَبَعِي جَذِبُ
أَعُوزَتْنَا دَرَّهَا السُّحْبُ
مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ وَالْهَرَبُ

ولأن الرقعمق في الغزل ما رأيناه في بعض مديحه . وهو مطبوع كذلك بطابعه كما
أُخْبِنَا . ومنه قوله :

أُظِنُّ وَدَادَهَا مِنْ غَيْرِ نِيَّةٍ
فَنَاءٌ لَا تَمَلُّ عَذَابَ قَلْبِي
وَلَا ذَنْبٌ لَهُ إِلَّا التَّوَاتِي
وَيَعْجِبُنِي التَّمَتُّعُ وَالتَّشَاجِي
فَوَا أَسْفَا عَلَى حَرٍّ يُعْزَى
وَهَلْ هِيَ فِيهِ إِلَّا مُدْعِيَةٌ
وَلَا تَخْلِيهِ وَقْتًا مِنْ أَدْيَةٍ
لَمَنْ فِي الْحَبِّ لَيْسَتْ بِالْوَقِيَّةِ
مِنْ الْخُودِ الْمُنْعَةِ الشَّجِيَّةِ
أَخَا رُزْءٍ عَلَى عَظِيمِ الرُّزْءِ

أعجب عبد الرحيم العباسي بشعر أبي الرقعمق ، وذكر أنه سار على طريقة ابن
أخجاج البغدادي في التحامق ، وأورد له منظومة رائية يقول فيها :

كُتِبَ الْخَصِيرُ إِلَى السَّرِيرِ
فَلَا مُنْعَنَ جِمَارَتِي
لَا هُمْ إِلَّا أَنْ تَطْ
وَلَا تُخْبِرَنَّكَ قِصَّتِي
إِنَّ الَّذِينَ تَصَافَعُوا
أَسَفُوا عَلَيَّ لِأَنَّهُمْ
لَوْ كُنْتُ ثُمَّ لَقَلْتُ هَلْ
وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَى الصَّدِيقِ
مَتَشَمِّرًا مَتَبَخَّرًا
فَأَذَرْتُ حِينَ تَبَادَرُوا
أَنْ الْفَصِيلَ ابْنَ الْبَعْرِ
سَتَتِينَ مِنْ أَكْلِ الشَّعْرِ
سِيرَ مِنَ الْهَزَالِ مَعَ الطَّيْرِ
فَلَقَدْ سَقَطَتْ عَلَى الْخَبِيرِ
بِالْقَرْعِ فِي زَمَنِ الْقُشُورِ
حَضَرُوا وَلَمْ أَكْ فِي الْحُضُورِ
مَنْ أَخَذَ بِيَدِ الضَّرِيرِ
الْبَيْتَ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ
لِلصَّفْعِ بِالذُّلُوكِ الْكَبِيرِ
دَلَوِي فَكَانَ عَلَى الْمَدِيرِ

بالرجال تصافعوا فالصَّعُ مفتاح السرور
هو في المجالس كالبحور وكالقلاب في الشُّحور

وهذه القصيدة أو النظم المتحاشق ، على وزن قصيدة جاهلية مشهورة
مطلعها :

ولقد دخلت على الفتاة الخدر في اليوم المطير

وهو ضرب من العبث النظمي الذي يخرج فيه الشاعر أو الناظم عن جدية
الموضوع إلى ضرب من المجون عند ابن حجاج والعبث اللامعقول عند أبي
الرقعمق وهو ضرب من النظم أرى أن مبدعه أبو الرقعمق ، وسأر على دربه جماعة
من المتحاشقين ، وقد عرف هذا الضرب من بعده بمصر وغيرها في العصور التالية
بشعر « الحماق » ظهر بصورة واضحة عند ابن دانيال وغيره من شعراء
المصريين في القرنين السابع والثامن .

وأورد له العباسي مثلاً آخر مطلعاً (١) :

وقوققى وقوققى هديّة في طبّق
أما ترون بينكم تيساً تطويل العنق

ومن قوله في هذا اللون نفسه :

كفّى ملامك يا ذات الملام
كأننى وجنود الصّقع تبغنى
قسيس دبر تلاً زمارة سخرأ
وقد مجنت وعلمت المجون فما
وذاك أتى رأيت العقل مطرحاً
إني سأدخل عدلى على عدلى
أفدى الدين نأوا والدار دانية
كم قد نقت سبالي في صدودهم
سقى ورعياً لأيام لنا سلفت

فما أريد بديلاً بالرقاعات
وقد تولت مزامير الرطانات
على القسوس بترجيع ورتأت
أدعى بشيء سيوى رب المجانات
فيجت أهل زمانى بالحماقات
في الحب إن عدلونى في الحرامات
وشئتوا بالجفا شمل المودات
والصدأ أصعب من تيف السبالات
بالقفص قصرها طيب اللذات

(١) معاهد التنصيص ٢ / ٢٥٥ .

إِذْ لَا أَرْوَحُ وَلَا أَغْدُو إِلَى وَطَنٍ
أَيَّامَ أَسْحَبُ أَذْيَالِ الْهَوَى مَرَحًا
عَوِضْتُ مِنْهُمْ أَحْزَانًا تَوَرَّقَنِي
إِلَّا إِلَى رَيْحِ خَصَائِرٍ وَخَائِلَتِ
مُصْرَعًا بَيْنَ سَكْرَاتٍ وَنَشْوَاتٍ
بَعْدَ السُّرُورِ وَفِرْحَانٍ بَتْرَحَاتٍ

ويعضى أبو الرقعمق في مثل هذا الشعر الذى يبدو أنه راج به عند معاصريه
فهدر ملححة وسط صرامة الجَدِّ ، وتحرَّر كما يقول من قيد العقل ، قد يحتاج إليه
الإنسان ، يحتاج إلى مثل هذا الجنون ، أو اللامعقول .

ونختم حديثنا عن هذا الشاعر العجيب بهذه الآيات التى نظمها فى زيارة له إلى
مدينة تبتس على بحيرة المنزلة ، وكانت مدينة عامرة ، مزدهرة بالبساتين والزهور ،
يؤمها أهل الخلاعة ، وطلاب المتعة ، للشرب ، فقد كانت مشهورة بمحورها
لكثرة ما يزرع أهلها من الكروم ، ومنها يعصرون ويعتقون الشراب . وكان
معظمهم من النصارى . ويذكر بعض منازة النيل والجزيرة ودير القصير . يقول :

تَلْبِي بَتْبَسَ لَيْلِ الْخَائِفِ الْعَانِي
أَقُولُ إِذْ لَجَّ لَيْلِي فِي تَطَاوُلِهِ
لَمْ يَكْفِ أُنَى فِي تَبْتِسٍ مُطَرَّحٍ
حَتَّى يُبْلِثَ بِفَقْدَانِ الْمَنَامِ فَمَا
مَا صَاعِدَ الْبَرْقِ مِنْ تَلْقَاءِ أَرْضِهِمْ
وَلَا حَنَنَتْ إِلَى نَجْرَانٍ مِنْ طَرِبٍ
لَا تَكْذِبَنَّ ، فَمَا مَصْرُوَانُ بَعْدَتْ
لِيَالِي النَّيْلِ لَا أَنْسَاكِ مَا هَتَفَتْ
أَصْبُو إِلَى هَفَوَاتٍ فَيْلِكَ لِي سَلَفَتْ
مَعَ سَادَةِ نَجْبٍ ، غَرَّ ، غَطَارِقَةٍ
وَذِي دَلَالٍ إِذَا مَا شَعْتُ أَنْشَدَنِي
سَقْيْتُهُ وَسَقَانِي فَضْلَ رَيْقَتِهِ
مَا زِلْتُ أَجْنَى بِلَحْظِي وَرَدَّوْجَتِهِ
مَا زَالَ يَأْخُذْهَا صَفَرَاءُ صَافِيَةٍ
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا بِي مِنْ صَبَابَتِهِ

تَفَنَّى اللَّيَالِي ، وَلَيْلِي لَيْسَ بِالْفَانِي
يَالَيْلُ أَنْتَ وَطُولُ الدَّهْرِ سَيَانٍ
مُخَيِّمٌ بَيْنَ أَشْجَانٍ وَأَحْزَانٍ
لِلنَّوْمِ إِذْ بَعُدُوا عَهْدَ أَبْجَانِي
إِلَّا تَذَكَّرْتُ أَيَّامِي بِنِعْمَانٍ
إِلَّا تَكْنَفْنِي شَوْقٌ لِنَجْرَانٍ
إِلَّا مَوَاطِنُ أَطْرَانِي وَأَشْجَانِي
وَرُقَّ الْحَمَامِ عَلَى دَوْجٍ وَأَغْصَانِي
قَطَعْتُهُنَّ وَعَيْنَ الدَّهْرِ تَرَعَانِي
فِي ذُرْوَةِ الْمَجْدِ مِنْ ذَهَلٍ بِنِ شِيَانٍ
وَإِنْ أَرَدْتُ غِنَاءَ مِنْهُ غَنَّانِي
وَجَادَ لِي طَرْفُهُ عَطْفًا وَمَتَانِي
وَاسْتَطِيرَ عَلَى ثَفَاجِ كَيْتَانِي
حَتَّى تَوَسَّدَ يُسْرَاهُ وَخَلَّانِي
وَمَا عَلَيَّ جَنَاحُ طَرْفِهِ الْجَانِي

عني تصاحبُ نايابَ وعيدانِ
بأثت تجود عليها سحُبُ نيسانِ
عنْ أَصْفَرِ فاقعٍ ، وعن قاني
كَانَ أَجْفَانَهُ أَجْفَانِ وَسَنَانِ

كمْ بالجزيرة من يومِ نعمتْ بهِ
سقىا لليلتنا بالديرين رُبَا
والطلُّ منحلرٌ ، والرَّوضُ مبهتسِمٌ
والنرجسُ الغضُّ منهلٌ مداِمُهُ

مالي وللعقل ، ليس العقلُ من شائني
أحدوثه ، وبحبِّ الحمقِ أغرائني
ولا له في اصطناعِ العرفِ من ثائني
رحبُ المكارمِ سمحٌ غيرُ مَنَانِ

أستغفر الله من عقلي نطقْتُ بهِ
لا والذي دونَ هذا الخلقِ صيرني
ما للشذائبي من مثلٍ يقاسُ بهِ
مهذبِ الرأي محمودٌ خلأثقه

الرَّقِيقُ الْقَيْرَوَانِي

إبراهيم بن القاسم أبو إسحاق (ت سنة ٤٢٥ هـ)

لقب بالرقيق (بقافين بينهما ياء مشددة) (١) ، نشأ بالقيروان ، في عصر
ثُلُثة الفاطمية بها وبلغ الشباب عند انتقال المعز من القيروان والمهدية إلى
القاهرة المعزية سنة ٣٦١ هـ .

وأخبار الرقيق شحيحة بالمصادر . وغاية ما حصلناه منها أنه تعلم بالقيروان
ونبغ في الأدب كتابة وشعراً ، وعمل كاتباً في ديوان الصنهاجين وعرف بأنه
كاتب الحضرة في الدولة الصنهاجية ، وظل بهذه الوظيفة ما يقرب من نصف
قرن ، خدم الأمير المنصور بن يوسف بن زيري ، وبأديس ابنه والمعز بن
بأديس .

وتوجه مرتين أو ثلاثة من القيروان إلى القاهرة مبعوثاً من أمراء صنهاجة
مُقيروان إلى خلفاء الفاطميين أيام أن كانت إمارة الصنهاجين تابعة للدولة
الفاطمية ، في حكم المعز والعزير والحاكم .

وأول مرة توجه فيها إلى القاهرة كانت سنة ٣٨٦ هـ مبعوثاً من الأمير
منصور لتهنئة الحاكم بأمر الله بالخلافة ، وقد حمل معه هدايا ثمينة مع سجل
التهنئة .

وأشدد الحاكم قصيدة التهنئة يقول في مطلعها :

إِذَا مَا ابْنُ شَهْرٍ قَدْ لَبَسْنَا شَبَابَهُ بَدَا آخِرٌ مِنْ جَانِبِ الْأَفْقِ يَطْلُعُ
إِلَى أَنْ أَقْرَّتْ جِيزَةُ النَّيْلِ أَعْيُنًا كَمَا قُرَّ عَيْنًا طَائِعِينَ حِينَ يَرْجِعُ

قال عنه ابن رشيق : « الكاتب النديم ، شاعر سهل الكلام محكمه ، لطيف
الطبع قوي ، تلوح الكتابة على ألفاظه . قليل الشعر . غلب عليه رسم الكتابة
وعلم التاريخ ، وتأليف الأخبار ، وهو بذلك أحذق الناس ، وهو كاتب

(١) راجع نموذج ابن رشيق القيرواني ، ص ٢٨ ، طبع زين العابدين السنوسي دار المغرب العربي بتونس
سنة ١٩٧١ م .

الحضرة منذ نيف وعشرين سنة إلى الآن » . لعل ذلك كان في حدود سنة ٤٢٠ هـ .

قال حسن حسنى عبد الوهاب^(١) : « المعروف بالرفيق وبالكاتب والنديم ، فإنه تولى في حجر البلاط الصنهاجى ، وياشر الكتابة الخاصة ، وترأس ديوان الرسائل مدة ثلث قرن ، وتردد سفيراً إلى الدولة الفاطمية أكثر من مرة » وسما ذكره في أفريقية (تونس) ومصر ، وشاعت تأليفه التاريخية والأدبية في الآفاق .

وكانت له عناية بالفنون ، لا سيما بالأنغام والألحان . وتقد. وضع كتاباً خاصاً عنوانه « الأغاني » .

ويقول ابن رشيق : « وكان قد وفد على مصر سنة ٣٨٨ هـ أو سنة ٣٨٦ هـ على حد قول المقرئى ثمانية وثمانين وثلاثمائة بهدية من نصر الدولة باديس بن زيرى إلى الحاكم ، فقال قصيدة ذكر فيها المناهل ثم قال :

إذا ما ابن شهر قد لبسنا شبابه بدا آخر في جانب الأفق يطلّع
إلى أن أقرت جيزة النيل أعيناً كما قر عينا ظاعن حين يرجع

يقول فيها بعد مدح كثير ووصف جميل :

هدية مأمون السرية ناجح أمين إذا خان الأمين المضيع
وما مثل باديس ظهير خلافة إذا اختير يوماً للظهير موضع
نصير لها من دولة حاكمة إذا ناب خطب أو تفاقم مطعم
جسام أمير المؤمنين وسهمه وسم دُعاف في أعاديه منع

وانتهز الرفيق وفادته إلى القاهرة ليلتقى فيها بجماعة من الشعراء والأدباء ، ولتمتع نفسه بمنازة مصر والقاهرة ، ويرتاد الأماكن التى يعتادها هؤلاء ، ويعقدون بها مجالس الأنس والشراب ، وقد ترددت أسماؤها كثيراً في شعر العصر مثل بركة الحبش ، ودير القصير بالمقطم وشاطئ النيل بالجيزة والمقس ، والروضة .

(١) ورقات ٢١٩/١ .

وكان الرقيق نزها ، رقيق الروح ، مرحاً ، محباً لللهو والشراب يأنس له كل من جالسه ، فلا غرو أن لقي من المصريين محبة طيبة أحبهم وأحبوه . وأوحشهم فراقه ، كما شعر هو بالشوق إليهم وإلى مغاني القاهرة ومصر عند عودته إلى تونس والقيروان .

ونظم يتذكر مشتاقاً لتلك الأوقات الطيبة الممتعة ، والصحبة السعيدة يقول^(١) :

تَوَدَّى تَحِيَانِي إِلَى سَاكِنِي مَصْرٍ
وَحَمَلْتُهَا مَاضِقًا عَنْ حَمْلِهِ صَدْرِي
شَمَمْتُ نَسِيمَ الْمِسْكِ مِنْ ذَلِكَ النَّشْرِ
فَلَيْسَ بِخَالٍ مِنْ ضَمِيرِي ، وَلَا فِكْرِي
فَطَابَتْ لَنَا إِذْ وَاقَفْتُ غُرَّةَ الدَّهْرِ
فَلَسْتُ بِمُعْتَدٍ سِوَاهَا مِنَ الْعُمَرِ
فَيُنْقِذُ رُوحَ الْوَصْلِ مِنْ رَاةِ الْهَجْرِ
مِنَ اللّٰهُو مَا تَنْفُكُ مِنِّي عَلَى ذِكْرِ
مَصَائِدُ غَزْلَانِ الْمَطَارِدِ وَالْقَفْرِ
جَزِيرَتُهَا ذَاتُ الْمَوَاحِرِ وَالْجَسْرِ
أُنِيقُ إِلَى شَاطِئِ الْخَلِيجِ إِلَى الْقَصْرِ
إِلَى دَيْرٍ مَرَحْنَا إِلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ
إِلَى الْبَرْكِهَ الزَّهْرَاءِ مِنْ زَهْرِ نَضْرِ
مِنَ السُّنْدُسِ الْمَوْشِيِّ تُنَشِّرُ لِلتَّجْرِ
نَهَارِي بَلِيلِي ، لَا أَفِيقُ مِنَ السُّكْرِ
إِذَا هَتَفَ التَّاقُوسُ فِي غُرَّةِ الْفَجْرِ
تَشَكَّتْ أَذَى الزَّنَّارِ مِنْ دِفْعَةِ الْخَصْرِ
لِمَا نَلْتُ مِنْ لَذَائِهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ
وَإِنْ غَنَيْتُ بِالْبَيْلِ عَنْ مُقْبَلِ الْقَطْرِ

هل الريحُ إن سارَتْ مشرقةً تُسِرِّي
فَمَا خَطَرْتُ إِلَّا بِكَيْثُ صِبَابَةٍ
تُرَانِي إِذَا هَبَّتْ قَبُولًا بِنَشْرِهِمْ
وَمَا أَتُسُّ مِنْ شَيْءٍ خِلَا الْعَهْدِ دُونَهُ
لِيَالٍ أُنِسْنَاهَا عَلَى غُرَّةِ الصَّبَا
لِعَمْرِي لَيْنٌ كَانَتْ قِصَارًا أَعْدَهَا
أَخَادِعُ دَهْرِي أَنْ يَعُودَ بِفَرْحَةٍ
وَتَرْجِعَ أَيَّامٌ تَحُلَّتْ بِمَعَاهِدِ
نَكَمٍ لِي بِالْأَهْرَامِ أَوْ دَيْرِ نَهْيَةٍ
إِلَى جِيْزَةِ الدُّنْيَا وَمَا قَدْ تَضَمَّنَتْ
وَبِالْمَقْسِرِ وَالْبُسْتَانِ لِلْعَيْنِ مُنْظَرٌ
وَفِي سَرْقُوسٍ مُسْتَرَادٍّ وَمَلْعَبٌ
وَكَمْ بَيْنَ بُسْتَانِ الْأَمِيرِ وَقَصْرِهِ
تَرَاهَا كَمَرًا بَدَتْ فِي زَفَارِفِ
وَكَمْ بَتْ فِي دَيْرِ الْقُصَيْرِ مُوَاصِلًا
تُبَادِرُنِي بِالرَّاحِ بِكُرِّ غَرِيرَةٍ
مَسِيحِيَّةٍ خُوطِيَّةٍ كُلَّمَا انْتَشَتْ
وَكَمْ لَيْلَةٍ لِي بِالْقَرَاةِ خِلْتُهَا
مَتَى اللَّهُ صَوَّبَ الْقَصْرَ تِلْكَ مَغَانِيَا

(١) راجع المخطوط للمقريزي ١/ ٢٧٠ .

ومعجم الأدباء لياقوت ١/ ٢٨٨ ، ومقدمة المختار من قطب السرور ، ص ١١ وما بعدها .

وللرقيق مقطعات ، وأجزاء من قصائد رواها ابن رشيق في الأتمودج ،
تكشف إلى حد ما عن صناعته الشعرية التي رصدها ابن رشيق وهدانا إليها فيما
علق به على أبياته التي أوردتها في أغراض متعددة ، وإن كانت هذه الأبيات لا
تشفي غليلنا في زيادة التعرف على الشاعر .

ومما أوردته ابن رشيق أبيات في إخوانياته ، ورسائل شعرية تبادلها مع
أصدقائه . يقول ابن رشيق^(١) : « ومن شعره جواباً على أبيات كتبها إليه
عمار بن جميل ، وقد انقطع عن مجالس الشراب :

قريضٌ كابتسامِ الرُّبِّ	ضِ جَمَشْتَه نَسِيمُ صَبَا
كعقيدٍ من جُمانِ الطَّلِّ	لِ منظومٍ وما نُقِبا
ومشورٍ كثرَ اللَّذِّ	رُ من أسلاكِهِ انْسَرِبا
فأهدى نُشْرَ زَهْرَتِهِ	فَتَيْتَ المِسْكِ مُتَهَبَا
إذا أَمَّارُهُ جُنَيْتٌ	جَنَيْتَ العلمَ والأدبا
يَهْزُوكَ حينَ تُنْشِدُهُ	كَأَنَّكَ مُنْشِرُ طَرِبا
حَبَاكَ بهِ أَخٌ يَرْعَى	لَكَ العهدَ الَّذِي وَجِبا
صديقٌ مثلُ صَفْوِ الما	ءِ بالصَّهْبَاءِ قد قُطِبا ^(٢)
كَتَرَتْ مَوَدَّةٌ مِنْهُ	كَفَتْ أَنْ أَكْثَرَ الذَّهَبَا
إذا عُدَّ امرؤُ حَسَبَا	فحَسْبِي ذِكْرُهُ حَسَبَا
أَلَدُّ مِنَ الحَيَاةِ لَدَى	ى ، لَكِنْ قَلْبُهُ قَلْبَا
فَهَانَ عَلَيْهِ مَا أَلْقَى	وَظَنَّ تَجَلْدِي لَعِبَا

★ ★ ★

جَفِوَتْ الرِّاحُ عَنْ سَبَبٍ	وَكَانَ لَجَفَوَتِي سَيَا
فَصُرْتُ لَوْحْدَنٍ كَسَلًا	لَدَى الإِخْوَانِ مُجْتَبَا
وَذَاكَ لَتَوْبَةٍ أُمْلَأْتُ	أَنْ أَقْضَى بِهَا أَرْبَا
فَهَا أَنَا تَائِبٌ مِنْهَا	فُزِرْنِي بُصِيرُ الْعَجَبَا

(١) الأتمودج ص ٢٨٠ ، ومقدمة جزء من تاريخ أفريقية للمنجي الكعبي ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٢) قطب الشراب : مزج .

أبيات إخوانية عذبة العتاب ، لا تخلو من مداعبة الصديق ، والدل عليه بما في قلبه من مودة .

ويتغزل الرقيق فيظرف ، ويرقق القول ، وإن لم يخرج في لفظه عن قاموس الغزل العربي السابق . يقول :

وَخَفَّ مِنْ فَوْقِهَا خَصِرٌ وَمُنْتَطَقٌ	إِذَا أَرَجَحْتُ بِمَا تَحْوِي مَآزِرُهَا
عَلَى كَتِيبٍ بِهِ مِنْ دِمِهِ لَقُتُ (١)	ثَنَا الصَّبَا غُصْنًا قَدْ غَاَزَلْتُهُ صَبَاً
وَلِلْغَزَالِ أَحْوَارُ الْعَيْنِ وَالْعَنْقُ (٢)	لِلشَّمْسِ مَا سَبَّرَتْ عَنَا مَعَاجِرُهَا
وَالْبَدْرُ يَكْسِفُ أحياناً وَيَتَمَحِّقُ	مَظْلُومَةً أَنْ يَقَالَ الْبَدْرُ يُشَبِّهُهَا
جَبِينُهَا تَحْتَ دَاجِي لَيْلِهَا فَلَقُ	يُجَلِّلُ الْمُتَنِّ وَحْفٌ مِنْ ذَوَائِهَا
بَنُورِهَا يَرْتَبِي فِي حُسْنِهَا الْحَدَقُ	كَأَنَّهَا رَوْضَةٌ زَهْرَاءُ حَالِيَةً

ومن هذا اللون من الغزل ، مما اختاره ابن رشيقي قوله (٣) :

أَجَلُّهُ الْمُتَمَنَّى عَنْ أَمَانِيهِ	رَيْثُ إِذَا مَا مَعَارِضُ الْمَنَى خَدَّارَتْ
أَمْ خَمْرُ دَارَيْنِ مَعَ يَسْلُكٍ عَلَى فِيهِ	يَا إِخْوَتِي أَفَاجِي فِي مُقْبَلِهِ
أَمْ حَسَنُ ذَاكَ التَّهَادِي فِي ثَنِيهِ	أَمْ حُسْنُ ذَاكَ التَّرَاخِي فِي تَكْلَمِهِ
أَمْ عَطْفُهُ ، أَمْ نَوَاهُ ، أَمْ تَدَانِيهِ	أَمْ سُخْطُهُ أَمْ رِضَاؤُهُ فِي تَجَنُّبِهِ
يَا قَاتِلِي كُلِّ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهِ	نَفْسِي فِدَاؤُكَ ، مَالِي عَنْكَ مُصْطَبِرٌ

ونقف مع قوله في البيت الثاني « يا إخوتي أفاجي في مقبله » فنرى كيف صاغ هذا القول السهل الجارى في عبارة شعرية أخاذة ، بها حلاوة الصدق ، ورقة التعبير .

ويعمد الرقيق إلى بدء قصائد المديح بالغزل ، وقد ينحو فيه نحو القدماء ويصطنع طرقهم ، إلا أنه يمزجها بروحه فيبدو غزلاً قديماً محدثاً كأن يقول :

يمدح محمد بن أبي العرب التميمي أحد رجالات الدولة الصنهاجية :

أَظَالِمَةُ الْعَيْنِينَ يَخْلُطُهَا السَّحَرُ	وَإِنْ ظَلَمَ الْخَدَّانِ وَاهْتَضَمَ الْحَصَرُ
أَعُوذُ بِبَرْدٍ مِنْ ثَنَائِكَ قَدْ ثَنَى	إِلَيْكَ قُلُوباً يَلْبُءُ أَحْشَاءُهَا جَمْرُ

(١) ويروي صدر البيت : « ثنى العبير غصيناً غازلته صبا ، والثنى التلألؤ .

(٢) العنق : طول العنق وجماله .

(٣) الأتمودج ص ٣٣ .

ستبرى عظامي بالنحول ولا تتر
أطاع لها الحوذان والسلم النضر
أغن قصير الخطو في لخطيه فتر
ولكن عدائي من تغنصها البحر

لقد ضمنت في الحب أن ضمانتي
وما أم ساجي الطرف خفاقة الحشا
إذا ما رعاها نصت الجيد نعوه
بأصلح منها منظراً ومقلداً
يقول في مدحها :

منعمة هيفاء أو غادة بكر
عن الدم إلا أن يدال له الورر

تصبأ أبكار الكلايسر بينها
يخال بأن العرض غير موفر

ويقول فيها يصف ممدوحه بالهمة وقيادة الجيش في النزال :

شهاب عظيم من طلّعه الدغر
عليها بنو الهيجاء ذرعهم الصبر
سريجة بيض وخطية سمر
وجوه الردى حمراً خواقنها الصفر

وملمومة شهباء يستحي أمامها
يزجي بنات الأعوجية شرباً
أسود وغي تحت العجاجة غابها
صيححت بها دماء قوم أرثهم

ويصف فيها بلاغته وكتابه فيقول :

يكاد يرى روضاً يوشحه الزهر
ويشرق من تحبير ألفاظها الحبر
وتبدى له أعقاب ما غيب الفكر

يوشح دياج البلاغة أحرفاً
ويفصح لفظاً حظاً من فصاحة
يصيب غيون المشكلات بديهية

ويرى ابن رشيقي جودة هذه القصيدة وأنها من أعجب ما سمع .

ومما جاء من وصفه قوله يصف واقعة حربية ، من قصيدة يمدح الأمير أبا

مناد باديس بن زيري سنة ٤٠٥ هـ :

وقد تضايق فيه ملتنى الحدق
من سافح الدم يجري قاني الفلق
مثل النجوم تهاوت في دجى العسق
كالشمس في الجولا تخفى عن الحدق
وبأسها في الوري أشقى على الغرق
كأنه قمر في حمرة الشفق
أبو مناد تبدى مات من إفرق

لم أنس يوماً بشئ راع منظره
والخيل تعبر بالهائمات خائضة
والبيض في ظلمات النقع بارقة
وقد بدا معلماً باديس مستهراً
وآى راحته لو فاض نائلها
تجلو عمانته الحمراء غرته
لو صور الموت شخصاً ثم قيل له :

ومن قوله في الرثاء (١) :

أهون ما ألقى وليس بهين
وإني وإن لم ألقك اليوم رائحاً
فلا يبعدنك الله ميتاً بفقره
تردني نجيباً حين بزت ثيابه
مضاء سنان في سنانٍ مذلّجٍ
فإن المنايا بالتفوس رواصيد
لصريف رزاياها لقيتك في غدٍ
معفر تحذ في الثرى لم يوسد
كأن على أعطافه فضل مجسد
وفتك حسام في حسامٍ مهتدٍ

★ ★ ★

(١) الأملوج ، ص ٣٤ .

— ٣ —

صريع الدلاء

أبو الحسن علي بن عبد الواحد البغدادي (ت سنة ٤١٢ هـ) (١)

لُقِّبَ بقتيل الغواشي أي ذى الرِّقاعتين .
وصف بأنه الشاعر المشهور .

نقل ابن خلكان عن القاضي الرشيد ابن الزبير ، قوله : « كان يسلك في شعره مسلك أبي الرقعمق » . قال : وله قصيدة في الجون ختمها بيت لو لم يكن له في الجدِّ سواه لبلغ به درجة الفضل ، وأحرز معه قصب السبق . وهو قوله :

من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلبُ على حدِّ سوا
وقال الثعالبي (٢) أن اسمه على وقيل محمد . القصَّار . « وهو بصريُّ المولد والمنشأ ، إلا أنه استوطن بغداد ، ولما رأى سخف الزمان وأهله وميلهم من الكلام إلى هزله أخذ في طريق السَّخف ، ونزع ثياب الجدِّ وتلقب بصريع الدلاء ، وتشبهه بابن الحجاج ، وهيئاته ! » .

ويذكره صاحب تاريخ ميفارقين على أنه علي بن عبد الواحد (٣) . وينعته بأنه الفقيه البغدادي الشاعر . وأنه كان شاعراً ماجناً . ويذكر أنه مدح صاحب ميفارقين أبا منصور نصر الله بن مروان .
وربما كان ذهابه إلى ميفارقين في رحلته مغادراً بغداد والعراق في حدود سنة ٤١٠ أو ٤١١ هـ .

ومر في هذه الرحلة بالشام ، وعرج على المعرة . والتقى بأبي العلاء المعري في محبسه بيته ، وطلب من أبي العلاء نفقه ، فبعث إليه بقدر قليل واعتذر بأبيات يقول فيها :

تفهتُم يا صريع البين بُشرى أت من مُستَقِيل مُستَقِيل

(١) ترجمته — وفیات الأعيان ٣ / ٣٨٤ . وتنمية النيمة ص ٢٢ .

(٢) نعمة النيمة ص ٢٢ .

(٣) تاريخ ميفارقين ١٤٣ .

يقول فيها :

دُعيت بِصَارِعٍ فتداركتهُ مبالغةً فَرَدَّ إلى فعيل
وانتقل صريع الدلاء إلى القاهرة ، ويقول ابن خلكان إنه جاءها سنة
٤١٢ هـ في خلافة الظاهر بن الحاكم ، وفي خبر آخر أنه لحق الحاكم قبل اختفائه
ومدحه .

ولا نعث في المصادر الشحيحة بأخباره وشعره إلا بالأبيات القليلة التي لا
تشفى غليلاً .

قال الثعالبي ولما أنشد فخر الملك على بن خلف وزير عضد الدولة
البويهى - قصيدته التي منها :

يَا إِذَا الْجَلَالَاتِ وَيَا إِذَا النِّعَمِ الْمُنِيسَةِ
يا نعمة الله على جميع مَنْ قد خَلَقَهُ
لو فَاخِرُ الدَّهْرِ الْوَرَى عُلُوتِ مِنْهُ عُنُقُهُ
قد وَالَّذِي يُثْقِلُ لِي مَا انْقَطَعَتْ بِي النِّفْقَةُ
وَبَعْتُ مِنْ دَفَاتِرِي مَا كَانَ جَدَى وَرَقَهُ

وهي هزلية طويلة ، فأعطاه ما أغناه ، فبهتَ ريحُه ، ونفقت سُوْقُه ودرت
الصَّلَاتُ به ، وتداول أهل بغداد قصيدته التي عارضَ فيها أبا العنيس في تأخير
النفقة ، وذكر التميمي أنه قالها .

وأكثر شعره في داره ، وأنه كان يسميها باديته . وأول القصيدة :
قَلَقَلْتُ أَحْشَاءَ تَبَارِيحِ الْجَوَى وَبَانَ صَبْرِي حِينَ حَالَفْتُ الْأَسَى
يقول : ومنها - وهي مُطْمِئنة مؤيسة :

يا سَادَةً بَانُوا وَقَلْبِي عِنْدَهُمْ
وَسَوْفَ أُسْلِي عَنْكُمْ صَبَابَتِي
فِي ظَرْفِ نَظْمِهَا مَقْصُورَةٌ
مَنْ صَفَعَ النَّاسَ وَلَمْ يُمَكِّنْهُمْ
مَنْ مَضَعَ الْأَحْجَارَ أَدَمَتْ فَكَّهُ
مَنْ نَامَ لَمْ يُصَيِّرْ بَعْنَى رَأْسِهِ
مَذْغَبْتُ قَدْ غَابَ عَنْ عَيْنِي الْكَرَى
بِحَقِّقَةٍ يَعْجِبُ مِنْهَا مَنْ وَعَى
إِذْ كُنْتُ قَصَّارًا صَرِيحًا لِلدَّلَا
أَنْ يَصْفَعُوهُ بَدَلًا قَدْ اعْتَدَى
فَالضَّرْسَ لَمْ يُخْلَقْ لِتَلِينِ الْحَصَى
وَمَنْ تَطَاظَا رَاكِعًا قَدْ انْخَنِى

من رامح الخيل كسرن ساقه
من صام أسبوعاً تماماً ليله
من قطع النخل وظل راجياً
ومن طلى بالجبر صحن وجهه
ومن حدى فى نوميه فقد هذى
مع النهار لم يوافق الحوى
ثمارها ، فذاك مقطوع الرجاء
حكى بما سؤد ليلاً قد دحا
قال الثعالبي وهى طويلة تُرى على المائة . وقد أعجز الشعراء أن يزيدوا فيها
بيتاً واحداً .

وأشار إليها ابن العماد بقوله : وهو صاحب المقصورة المشهورة . وقال
ابن خلكان إنه ختمها بيت لو لم يكن له فى الجسد سواه لبلغ درجة الفضل
وهو :

من فاته العلم وأخطاه الغنى
فذاك والكلب على حدّ سوا
وذكر أنه لم يغش طويلاً بعد حضوره إلى مصر . قال ابن خلكان « وكانت
وفاته فى سابع رجب سنة ٤١٢ هـ فجأة من شرقة لحقته عند الشريف
البطحائى » .

—٤—

عبد المحسن الصوري

(ت سنة ٤١٩ هـ)^(١)

هو أبو محمد عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري قال عنه ابن خلكان : « الشاعر المشهور ، أحد الفضلاء المجيدين الأدباء . شعره بديع الألفاظ ، حسن المعاني ، رائق الكلام ، مليح النظام . من محاسن أهل الشام » .

وقال صاحب الشذرات : « الشاعر المشهور . أحد المتقنين الفضلاء المجيدين الأدباء . شعره بديع الألفاظ ، حسن المعاني ، رائق الكلام ، مليح النظام ، من محاسن أهل الشام » .

وهو نص كلام ابن خلكان .

وذكره ابن عساكر في تاريخ دمشق ، رواية عن الشاعر ابن حيّوس قال : « سمعت جدي القاضي يحيى بن علي القرشي يذكر عن أبي الفتيان ابن حيّوس أنه كان يقول : إني ليعرض لي الشيء من شعر أبي تمام والبحترى وغيرهما من المتقدمين ، فأعمل في معناه ، فأبلغ مرادى منه ، ولا أقدر من موازنة شعر عبد المحسن الصوري ما أريد لسهولة ألفاظه وعذوبة معانيه وقصر أبياته » .

ونشأ عبد المحسن بمدينة صور جنوبي لبنان الآن ، وعاش بها زمناً . وقال الشعر صبيّاً . ومن شعره في صباه قوله :

إنّ أحبّابنا الذين استقاموا في طريق الهوى سهرت وناموا
حجّبوا ، فاحتجبت عني فمالي في عهد ولا بهم والسلام

واتصل في صور بجماعة من أعيانها وأشرافها يمدحهم ويأخذ جوائزهم ، ومنهم أبو القاسم الحسين بن علي بن كردى العامل بصور . قال فيه^(٢) :

(١) راجع ترجمته في بتيمة الدهر ١/ ٣١٢ ، وتمتة اليتيمة ص ٣٥ ، وفيات الأعيان ٣/ ٢٣٢ ، شذرات

الذهب ٣/ ٢١١ ، والعبر ٣/ ١٣١ ، والنجم الزاهرة ٤/ ٢٦٩ ، وراجع الأفضليات ص ١٣١ ،

ص ١٣٥ ، ص ١٥٦ .

(٢) ديوانه ٢/ ٥ .

إذا ما عُقِدَ الكاتِمَ وَحَلَّ المدمعَ الساجِمَ

وفي القاضي أبو إسحاق بن وديع الحاكم بصور^(١) :

مالِريمَ الكِناسي ليس يريمُ أثارُهُ مستشعراً ما يُرُومُ ؟

كما مدح بعض بن حيدرة العلويين بصور وطرابلس ، وكانوا من رجال الفاطميين المواليين .

ومدح من إمراء الجند وقادة الفاطميين الأمير بكجور قائد الخليفة العزيز بالله سنة ٣٧٤ هـ ، كذلك مدح برجوان رجل العزيز القوى ، ووزير الحاكم بأمر الله قبل أن يقتله .

ويبدو أن الصوري تنقل في بلاد الشام من صور إلى دمشق إلى طرابلس ، إلى الرملة إلى طبرية ، ولقى في كل بلد حلَّ به جماعة من الرؤساء والقضاة ، والولاة ، والمسؤولين عن الحكم من رجال الفاطميين .

وله قصيدة في الوزير المغربي علي بن الحسين المغربي ، والد الوزير والشاعر المشهور أبي القاسم الحسين بن علي . وهي من مشهور شعره مطلعها^(٢) :

أترى بشأراً أم بديني علقْتَ محاسنها بعينى

وليس لدينا ما نؤكد به أو ننفي إن كان قد أنشدها إياه بمصر أيام وزارته للحاكم ، وقبل أن ينكبه سنة ٤٠٠ هـ أو سنة ٣٩٩ هـ .

ومدح الأمير بنجكتين أمير دمشق بقوله^(٣) :

تعوَّدَ أن يحوَّلَ وأن يَحُونَا إذا أعطى بزورته يمينا

ومدح القائد أبا الجيش حامد بن ملهم والى دمشق سنة ٣٩٩ هـ بقوله^(٤) :

أبا الجيش حسب الشعر ما أنت صانعُ
فقد عجزت عن فعل ذاك القصائدُ
أما انصلحت للمال منك طويَّة
فتصيحهُ ، حتى متى أنت حاقِدُ
سبقت بني الدنيا فما هبَّ قائمُ
سواك إلى جودٍ ولا قام قاعِدُ

(١) ديوانه ص ٧ .

(٢) ديوانه ص ٤١ .

(٣) ديوانه ص ٣٤ .

(٤) يتيمة الدهر ١ : ٣١٧ .

ومدح أحد أبناء المفرج بن دغفل بن الجراح وهو عبد الله . ولعله أنشدها إياه بالرملة (١) . يقول فيها :

أنا معجبٌ بالمعجبِ التياهِ متغلبٌ في حبه متاه
وفي مدحته هذه لعبد الله بن المفرج تعرض بالشكوى ، وأن الزمن الليالي
والأيام تعانده . فقيم كانت المعاندة هذه ؟. على أية حال فهو يقول :

يا ابن المفرج ، والليالي أنعم يا ابن المفرج ، والليالي أنعم
يأتين طول الدهر أن يلقينني يأتين طول الدهر أن يلقينني
قصرت يداي فدق جاهي عندها قصرت يداي فدق جاهي عندها
وأراك في طلب العلاء ذا قوة فأمنك بهارم الضعيف الواهي

لقد كان آل المفرج الطائيين كما أشرنا في حديثنا عن التهامي رجال الدولة
الأقوياء في جنوب الشام ، يملكون اللد والرملة ، ويتحالفون مع غيرهم من أمراء
العرب بالشام ، فيكونون تارة في طاعة الفاطميين إذا قويت شوكتهم ، ويخرجون
عليهم حيناً إذا رأوا فيهم ضعفاً ، أو في بعض خلفائهم غفلة ، أو حدثتهم النفس
مع غيرهم من القبائل العربية القوية ، بانتهاز الفرصة لافتراف جزء من الملك
لخزوتهم .

ولعل عبد المحسن آنس في عبد الله هذا قوة ، وارتجى عنده مأرباً كفيوه من
الشعراء . لقد رحل من بلده صور بالشام متوجهاً إلى الرملة جنوباً ، في رحلة من
رحلاته لطلب المال والقربى من ذوى السلطان ، وفي فلسطين أو جنوى الشام .
ويذكر على بن يظافر أن الصوري كان يتردد على دمشق ، وأنه كان ينزل
يسوق القمح بمنزل هناك (٢) .

وبهنا وفوده إلى مصر ، ويشير شعره ، وتنبئ أخباره أنه قصد مصر ،
ونزل بالقاهرة أو الفسطاط ، وأنشد الخليفة العزيز بالله ، كما مدح الحاكم بأمر الله
أبيه .

(١) ديوانه ١٠١/٢ .

(٢) راجع نذائع البدائنه ، وملحق الديوان ص ١٣٣ .

قيل إنه أنشده يوم عاشوراء ، وذكر وزيره ، ورجله القوي برجوان وأشار إلى
هزيمة ملك الروم باسيل أو باسيليوس فقال :

إلى أن رَجَى سَهْمًا فَصَرْتُ أَسَاهِمُهُ
بِجَفْنِيهِ، أَمْ لَا يَعْدِلُ السَّقَمَ قَاسِمُهُ
فَفِي الْعَيْنِ عُنُونَاتُهُ وَتَرَاجُمُهُ
وَلَكِنْ لَأَنَّ اللَّوْمَ لَيْسَ يَلَايِمُهُ
فَمَا طَلِبْتُ حَتَّى تَجَلَّتْ غَمَائِمُهُ
مِنَ الشُّغْلِ عَنْهُ، قُلْتُ مَا قَالَ نَائِمُهُ
فَوَالَاةُ يَوْمٍ شَاخِبُ الْوَجْهِ سَاهِمُهُ
خَبَا نَوْرُهُ لَمَّا اسْتُجِلَّتْ حَارِمُهُ
إِلَى الشَّمْسِ مِنْ طَعْنَانِهَا مُتَرَاكِمُهُ
هَتَفْتُ بِمَا قَدْ كُنْتُ عَنْهَا أَكَاثِمُهُ
فَلَا تُنْكِرُوا أَنْ قَوْمَ الدَّهْرِ قَائِمُهُ
وَحُكْمُ فِي الدِّينِ الْخَفِيُّ حَاكِمُهُ
دَعُوا جَدُّهُ تَبْكِي عَلَيْهِ صَوَارِمُهُ
إِذَا هِيَ حَنْتُ مِنْ قَتِيلِ جَمَاعِمُهُ
فَلَا أَنْتَ مَبْقِيَةٌ وَلَا اللَّهُ رَاخِمُهُ
يَخَافُ عَلَى أَبْوَابِهَا مِنْ يَزَاجِمُهُ
إِذَا أَنْتُمْ أَرْكَائِهِ وَدَعَائِمُهُ
تَبَدَّلْتُ بِسَعِيدٍ، خَاتَمَ الدَّهْرِ خَاتِمُهُ
فَمِنْ جَانِبِ أَرَاوُهُ وَعِزَائِمُهُ
عَلَى النَّاسِ، إِمَّا بِأَسْنِهِ أَوْ مَكَارِمُهُ
عَلَى غَيْرِهَا مَا شَاءَ، فَالْسَيْفُ هَادِمُهُ
لَأَنَّ كَفِيلَ الشَّيْءِ إِنْ ضَاعَ غَارِمُهُ
فَانْهَضُ مَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ عِزَائِمُهُ
أَحِينَ بَدَا مِنْ كُلِّ جَيْشٍ ضَرَاعِمُهُ
يُرَوِّحُ بِهَا أَعْلَاجُهُ وَغَنَائِمُهُ

خَلَا طَرَفَهُ بِالسُّقْمِ دُونِي يُلَازِمُهُ
فَأَصْبَحَ نِي مَا لَسْتُ أَذْرِي أَمَثَلُهُ
لَئِنْ كَانَ أَخْفَى الصَّدْرُ صَدْدًا مِنَ الْجَوِي
وَلَمْ يُخْفِهِ أَنْ الْهَوَى حَقٌّ حَمَلُهُ
وَيَارُبُّ لَيْلٍ قَصَرَ الذِّكْرُ طَوْلُهُ
وَمَا نَمْتُ فِيهِ غَيْرَ أَنْ لَوْ سَأَلْتَنِي
وَلَكِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الصُّبْحِ لَوْنُهُ
كَمَا جَاءَ يَوْمٌ فِي الْمَجْرَمِ وَاحِدُ
طَعْتُ عَبْدَ شَمْسٍ فَاسْتَقَلَّ مَخْلَقًا
فَمَنْ مَبْلَغُ عَنِّي أُمِّيَّةٌ أَنْنِي
مَضَتْ أَعْصَرُ مُعْجَزَةٍ بَاعَوْجَاجِكُمْ
وَجَدَّدَ عَهْدَ الْمُصْطَفَى بَعْضُ أَهْلِهِ
فِيهَا أَيُّهَا الْبَاكُونَ مَصْرَعُ جَدِّهِ
أَلَا أَيُّهَا الثُّكَلَى الَّتِي مِنْ دُمُوعِهَا
لَقَدْ خَسِرَ الدَّارَيْنِ مِنْ صَدِّ وَجْهِهِ
حَرِيصًا عَلَى نَارِ الْجَحِيمِ كَأَنَّهُ
إِلَى مَنْ تَرَاهُ فَوْضَ الْأَمْرِ غَيْرِكُمْ
فِيَالْكَ مِنْهَا دَوْلَةُ عَلَوِيَّةٍ
إِذَا نَزَلَ الْأَسْتَادُ مِنْهَا بِجَانِبِ
وَمَهْمَا اقْتَضَى تَدْيِيرُهَا كَانَ مَاضِيًا
بَنَاهَا عَلَى مَا شَاءَ، فَلْيَيْنِ غَيْرُهُ
وَكَلَّلَهَا رَأَى الرَّئِيسَ فَلَمْ تَضِيعْ
إِذَا اجْتَمَعَتْ فِي الْمَلِكِ كُلِّ عَظِيمَةٍ
وَمَا بَالُ بَاسِيلِ تَوَلَّى مُشْمَرًا
فَالَا أَتَاهَا وَقْفَةٌ دَوْقَسِيَّةٌ

هذه الآيات واضحة الدلالة على غرض الشاعر ومناسبة القول ، وهى سند تاريخى لأحداث واقعة ، كما أنها شاهد على عصر صاحبها ، وعلاقته بالفاطميين ورجائهم ، وما شغل الناس من فكر روجوه ، وإذاعوه ، ومن أحداث فى الدولة وحارجها ، كذلك تنبىء عن موقف الشاعر وغيره من الشعراء ، ممن جاروا البيت الفاطمى فى آرائه ومعتقداته ، أو اعتنقوا تلك الآراء والمعتقدات موقنين ، وهى أبيات تتحدث عن الصراع بين الفاطميين ودولة الإسلام عامة ، وعدوهم التقليدى الروم البيزنطيين . وما لقيته بلاد الشام فى عصر الفاطميين ومن قبلهم من جولات ، وكر وفر ، ومشاركة المصريين بجهدهم وسلطانهم وجندهم فى معارك فرضت عليهم ، وخاضوها ذوداً عن بيضة الإسلام ، وحضارته .

وقد أحسن الشاعر بناء قصيدته ، فاختار هذا المدخل أو الاستهلال الذى شكاً فيه هوى يكتمه ، ويظل ، يعضه طوال ليله ، ويقطعه بالذكر حتى تطل شمس النهار ، وقد خلج عليها أو خلج الشاعر على صبحه فتوراً مما أحسه طوال معاناته بالليل .. كلها أحاسيس يهد بها لهذا الانتقال إلى الحدث الحزين الموافق للموقف . يوم عاشوراء يوم الحزن والبكاء عند الشيعة الفاطميين ، ويفرخ عن كلمات يرضى بها غضبتهم ، ويطلب العزاء فيما سيلقى الجناة من عذاب أذخره الله لهم .

ويخرج فى المناسبة على الحاكم وقائده ، ويذكر النصر الذى تحقق على يدى برحوان ورجال الحاكم على باسيلوس ملك الروم ، ويراه علامة تأييد من الله . ولعبد المحسن قصيدة نونية عُنوت بأنها فى أهل البيت^(١) . ضمنها كثيراً من آراء الشيعة والفاطميين . يقول فيها :

جَعَلَنَ لِكُلِّ فَوَادٍ فُتُونَا	عَمِيونَ مَنَعَنَ الرُّقَادَ الْعُيُونَا
وَكُنَّ لِمَنْ رَامَهُنَّ الْمُنُونَا	فَكُنَّ الْمَنَى لَجَمِيعِ الْوَرَى
عَلَى مَا تَشَاءُ شِمَالاً يَمِينَا	وَقَلْبٌ ثَقَلَبَهُ الْحَادِثَاتُ
وَمَدْمَعُهُ يَسْتَدِلُّ الْمَصُونَا	يَصُونُ هَوَاةً عَنِ الْعَالَمِينَ
وَقَدْ كَانَ مَا خَفْتُهُ أَنْ يَكُونَا	فَمَالِي وَكَمَانِي دَاءِ الْهَوَى
فَلَمَّا تَمَكَّنَ أَنْسَى الْجُنُونَا	وَكَانَ ابْتِدَاءُ الْهَوَى لِي مَجُونَا

(١) دهرانه ٢ ص ٦٧ .

فَلَا قِيَتْ مِنْهُ عَذَابًا مُهِينًا
رَأَيْتُ جُفُونًا تُنَاجِي جُفُونًا
مَنْ الْأَوَّلِينَ أَوْ الْآخِرِينَ
فَحُبُّهُمْ أَمَلُ الْأَمَلِينَا
نَجَاتِي، هُمْ الْفُوزُ لِلْفَائِزِينَا
وَهُمْ عُرْوَةُ اللَّهِ لِلْوَائِقِينَا
فَكُنْ بِمَحَبَّتِهِمْ مُسْتَعِينَا
وَأَنْتُمْ بِتَكْذِيبِهِمْ كَاذِبُونَا

وَكُنْتُ أَظُنُّ الْهَوَى هَيْنًا
فَلَوْ كُنْتُ شَاهِدَ يَوْمِ الْوَدَاعِ
فَهَلْ تَرَكَ الْبَيْنُ مِنْ أَرْتَجِيهِ
سِوَى حُبِّ آلِ نَبِيِّ الْهَدَى
هُمْ عُدَّتْ لَوْفَاتِي، هُمْ
هُمْ مَوْرِدُ الْخَوْضِ لِلْوَارِدِينَ
هُمْ عَوْنٌ مَنْ طَلَبَ الصَّالِحَاتِ
هُمْ حِجَّةُ اللَّهِ فِي أَرْضِيهِ
هُمْ النَّاطِقُونَ، هُمْ الصَّادِقُونَ

وفي شعره في أحد قادة العزيز نزار بن المعز والد المنصور الحاكم بأمر الله نجد النعمة نفسها ، وفيها ما يثبت حضوره إلى مصر ولقائه للعزيز ، يقول (١) :

فَقَفَا عَلَى شَحْطِ التَّوَى وَتَبَيَّنَا
وَتَفَارَقَا إِلَّا مَسِيئًا مُحَسَّنَا
مَا زِدْتُمَاهُ بَعْدَ لِيهِ إِلَّا عَنَّا
مَا لَا تُدَلُّ عَلَيْهِ أَثْوَابُ الضَّنَا
لَمْ تُطْلَقِ الْعِشَاقُ فِيهَا الْأَلْسُنَا
يَأْتِي بِهِ قَدْرٌ فَيُعْدِلُ بَيْنَنَا
جَمْعًا ، وَلَيْسَتْ لِلظَّعَائِنِ أَعْيُنَا
ثَمَرُ الْقُلُوبِ ، وَمَا أَرَاهَا تُجْتَنِّي
إِذْ لَا يَقُولُ لَهَا أَنَا إِلَّا أَنَا
فَأَجَبْتُ صَارِخَهَا ذَلِيلًا مَذْعِنَا
تَرْكْتُهُ مِنْهُ يَسْتَحْجِرُ الْأَرْمُنَا
فَيْنَا ، فَكَانَ اللَّهُ يَرْفَعُ مَا بَنَى
مِنْ تَحْتِ شَكِّ كَانَ أَوْ مَثِقْنَا
سُبُلَ الْهَذَى ، وَضَحَّتْ بِنِعْمَتِهِ لَنَا
عُلُوبَةُ الْأَنْسَابِ عَالِيَةِ السَّنَا
سُبُرُ الْبِرَاعِ وَزُرْقُ أَطْرَافِ الْقَنَا

طَالَ الزَّمَانُ فَلَا ثَنَاءَ وَلَا انْتِنَى
هَلْ أَعْرِفَانِ الْبَيْنَ يَوْمَ تَعَانَقَا
كَلَّا وَفَضْلُ غِنَاكُمَا فِي عَذْلِهِ
يَا ضَاحِكِي الْمُنْكَرِينَ مِنَ الْهَوَى
تَحْتَ السَّرَائِرِ فِي الضَّمَائِرِ لَوْعَةٌ
وَعَسَاكُمَا فِيمَا تَرِيدَانِ الْهَوَى
مَا لِلْسِقَامِ أَتَى يِعْمُ جَوَارِحِي
مِنْ كُلِّ عُصْنٍ تَجْتَنِي ثَمَرَاتِهِ
أَنَا لِلْخَطُوبِ إِذَا دَعَتْ أَقْرَانَهَا
وَلَطْلَامًا صَرَحَتْ صُرُوفُ الدَّهْرِ بِي
حَتَّى اسْتَجَرْتُ مِنَ الزَّمَانِ بِرَاحَةٍ
بَسَطَ الْعَزِيزُ بِنُ الْمَعَزِّ بِنَاءَهَا
مَوْلَى الْمَوَالِفِ وَالْمُخَالَفِ عَنُودَهُ
وَمَحَبَّةَ اللَّهِ هَادِيَةً إِلَى
وَمَقِيمَهَا مِنْ بَعْدِ طَوْلِ قَعُودِهَا
يُضَاءُ بِجُلُوهَا الْوَزِيرُ بُحَلَّتِي

(١) ديوانه ٢ / ٨٧ .

يَرْمِي جَوَانِبَهَا بِرَأْيِ مُهَذَّبٍ مُتَجَنِّبٍ فِيهِ الْخِيَانَةَ وَالْخِنَا
حَتَّى أَتَيْنَا وَهِيَ ذَاتُ قَلَائِدٍ جَعَلَ الْإِمَامُ فَرِيدُهُنَّ فَرِيدَنَا

وَيَمْضِي فِي مَدِيحِ هَذَا الْقَائِدِ حَتَّى يَقُولُ :

حَصَلَتْ بِمِصْرٍ هِمَّتِي وَاسْتَوَطَنْتُ وَأَفَادَ لِي عُدْمِي سِوَاهَا مَوْطِنَا
فَغْدَوْتُ لِلخُطْبِ الْكَبِيرِ مُصَنِّعًا فِيهَا وَلِلْأَمْرِ الشَّدِيدِ مُهَوِّنَا
وَقَدْ اعْتَمَدْتُ عَلَيْكَ إِفْجَاعِ بَيْنِنَا وَخَذَ الْحَوَادِثُ قَبْلَ فَتْكَيْهَا بِنَا
فَلَكَ الْهَنَاءُ بِدُونِ مَا بُلَّغْتُهُ وَبِدُونِ مَا بُلَّغْتُهُ وَجِبَ الْهَنَا

فيشير إلى مجيئه إلى مصر في هذا الوقت — خلافة العزيز — ولجوئه من أحداثٍ لعلها التي أثارها أحد قادة الأتراك ، وكان قد استولى على بعض بلاد الشام حتى تمكن العزيز من هزيمته وأسرهِ ، وأعانه على ذلك آل المفرج بالرملة .

هُمُ الْوَارِثُونَ عُلُومَ الرُّسُولِ فَمَا بِالْكُمْ لَكُمْ وَارِثُونَ
حَقَّقْتُمْ عَلَيْهِمْ حَقُودًا مَضَتْ وَأَنْتُمْ بِأَسْيَافِهِمْ مُسْلِمُونَ
جَعَلْتُمْ مَوَالَاةَ مَوْلَاكُمْ وَيَوْمَ الْغَدِيرِ بِهَا مُؤْمِنُونَ
وَأَنْتُمْ بِمَا قَالَهُ الْمِصْطَفَى وَمَا نَصٌّ مِنْ فَضْلِهِ عَارِفُونَ
وَقَلْتُمْ رَضِينَا بِمَا قَلَّتْهُ وَقَالَتْ نَفُوسُكُمَا مَا رَضِينَا
فَأَيُّكُمْ كَانَ أَوْلَى بِهَا وَأَثَبْتَ أَمْرًا مِنَ الطَّيِّبِينَ
وَأَيُّكُمْ كَانَ بَعْدَ النَّبِيِّ وَصِيًّا ، وَمَنْ كَانَ فِيكُمْ أَمِينًا
وَأَيُّكُمْ نَامَ فِي فَرْشِيهِ وَأَنْتُمْ لِمَهْجَتِهِ طَالِبُونَ
وَمَنْ شَارَكَ الظُّهَرَ فِي طَائِرِي وَأَنْتُمْ بِذَاكَ لَهُ شَاهِدُونَ
لِخَالِ اللَّهِ قَوْمًا رَأَوْا رُشْدَكُمْ مَبِينًا ، فَضَلُّوا ضَلَالًا مُبِينًا

وما جاء بالقصيدة من الدفاع عن آل البيت ، والفاطميين وحقهم في الخلافة واضح ، غني عن الإشارة ، وهو يُردُّ أقوال شعراء الشيعة ، ودعاتهم وسياسيهم في أحقية الإمامة بالوصاية يوم الغدير عن النبي ﷺ لعل بن أبي طالب ، فضلا عما كان لعل من مكانة السبق إلى الإسلام وفداء النبي بنفسه يوم الهجرة إذ نام مكانه ، وهو يعلم أن المحاصرين ممن يتربصون بالنبي من قریش يزعمون قتله بليل .

والخطاب في القصيدة موجه إلى العباسيين بالدرجة الأولى ، فهم المنافسون للفاطميين بالشام ، وكانت في عصر الشاعر في النصف الثاني من القرن الرابع مجالاً للصراع بين القوتين العباسية والفاطمية ، وكانت صور وطرابلس مؤثلاً كثيراً من العلوية والأشراف الحسينيين والحسينيين . وكان الشاعر قريباً منهم يتحدث بما يحبون ، ويدفع دعاوى منافسهم من العباسيين ، إلا أننا نلاحظ أنه لم يصرح بالهجوم على العباسيين ، بل عمى القول ، مُحسباً ، وتقيةً ، فالقصيدة تعكس الجو العام بالشام ، والصراع المستتر والمعلن ، وهو صراع لم يحسم تماماً لأحد من الطرفين ، بل اعتورته موجات تحسم الأمر لهؤلاء أحياناً ، ثم تعود موجة أخرى لتغلب الفئة الأخرى . وهكذا .

لقد ظل عبد المحسن الصوري يقول الشعر ويتنقل به في ربوع الشام ومصر حتى أعيته السبعون عن الحركة ، فأقام ببلده حتى بلغ التسعين . يقول وقد بلغ السبعين :

جزاك الله عن ذا الفصح خيراً	ولكن جاء في الزمن الأخير ^(١)
وقد حدث لي السبعون حدثاً	نهى عما أمرت من المسير
ومد صارت نفوس الناس حولي	قصاراً عدت بالأميل القصير

استقر الصوري إذا في بلده ، وثقل جسمه عن أن يحمله إلى البلاد كما كان حاله في شبابه وكهولته ، والآن وقد أصبح شيخاً ضعيفاً ، آثر أن يقضى ما تبقى له من العمر بين أهله في وطنه .

وقد عمّر حتى نيف على الثمانين ، وتوفي سنة ٤١٩ هـ . وكان الحاكم قد اختفى من مسرح الأحداث ذلك الاختفاء الغامض ، وابعقه ابنه الذي عرف بالظاهر .

وعاصر الصوري في آخريات حياته بعض الأحداث العاصفة في دولة الفاطميين بالشام ، ومنها حركة التمرد التي قادها الوزير المغربي بالرملة بمشاركة حسن ابن المفرج ، وتنصيبهم خليفة جأؤوا به من الحجاز .

ويبدو من حياة الرجل أنها لم تكن صاخبة كحياة الشاعر التهامي ، فلم تحدثه نفسه بعظائم الأمور ، ولم يكشف شعره عن ثورة وطموح ، بل كان مواطناً يسير في ركاب الحكام كغيره من الشعراء .

كما كان عبد المحسن شاعراً حضرياً ، يغلب عليه طبع أهل الحضرة ، ليس فيه جفاء الأعراب ، ولا عنف مشاعرهم . كذلك كان شعره سهلاً ، ليناً ، قال عنه ابن خلكان : « شعره بديع الألفاظ ، حسن المعاني ، رائق الكلام ، مليح النظام » . ويقول : « له ديوان شعر أحسن فيه كل الإحسان » .

وأعجب ابن خلكان ، كما أعجب من قبل الثعالبي بقصيدته النونية في مدح أبي الحسين على بن الحسين المغربي :

الرّبي بشار أم بدين	علقت محاسنه بعيني
في لحظها وقوامها	ما في المهمل والرديني
وبوجهها ماء الشبا	ب خليط نار الوجتين
بكرت على وقالت اخذ	سر خصلة من خصلتين
إما البصود أو الفرا	ق ، فليس عندي غير ذين
فأجبتها ومدامعي	تتهل فوق الوجتين
لا تفعلني ، إن حان صدك	أو فراقك حان حني
فكأنني قلت انهضني	فمضت مسرعة ليني

ولا حاجة إلى التنبيه على ما في هذا الشعر من سهولة ، وليونة ، هما أقرب إلى المزاج الحضري المترف في لفظه وإيقاعه وقافيته اللينة ، وحديثه الأنيق الرقيق في حكاية قول المحبوبة ، وحوارها .

وقد عقب ابن خلكان على القصيدة بقوله : « وهي قصيدة طويلة جيدة » (١) .

ويبدو أن إعجاب معاصريه بمن سمع أبياته هذه شجعه على أن يعيد النظم في وزن مشابه ، وقافية مقاربة . حيث يقول في أبيات أخرى :

بعين الله هجرك ، لا بعيني	لعل الفرق بين النظرين
تردك أو ترد علي صبري	عليك فإنها إحدى اثنين

واعجب العلماء غزله لهذه الرقة التي اكتسبها من لفظه حتى إن ابن عساكر روى عن ابن حيوس أنه قال : « يُقال إن أغزل ما قيل قول جرير :

(١) وفيات طبع إحسان ، بيروت ٢/ ٢٣٥ .

إِنَّ الْعِيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ
يَضْرَعْنَ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَ بِهِ
قَتَلْتَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا
وَهُنَّ أضعف خلق الله إنساناً
وقول عبد المحسن أغزل منه :

بِالَّذِي أَلْهَمَ تَعْذِيبي ثَنَائِكَ الْعِذَابَا
مَا الَّذِي قَالَتْهُ عَيْنَا لِي لِقَائِي فَأَجَابَا

وله في موضوعات أخرى غير المديح والغزل ، ومنها الهجاء ، وهجاؤه غالباً مقطعات بين بيتين وخمسة أبيات . وتعرض ببعض من كان ينال من شخصه أو شعره ، وقد يُقذع في هجائه ، وقد يكبفي بالتعريض دون التصريح بالعورات والقبيح من اللفظ .

وتأتى بعض الموضوعات الأخرى عرضاً في قصيدة المديح ، كالوصف وذكر الخمر والشراب ، أو الغناء والمغنين ، وله في المناسبات قصائد قصيرة ومقطوعات كالتهنئة بالصيام ، أو بمولود ، أو بشفاء من مرض أو التعزية وما إلى ذلك .

وكثير من شعره يدور في هذه الدائرة من الجملات ، والإخوانيات .

ولا نعثر في شعر الصوري على صور بارعة ، فشاعريته تتركز على سهولة اللفظ ، ورقة التعبيرات ، وخفة التراكيب والأذواق ، وقليل ما تراه يستعين بحفظ من الشعر القديم ، أو يعيد بعض معانيه وصوره ، كذلك قليلاً ما ترد في الفاظه ألفاظ قرآنية ، كما لا يستعين كثيراً بأبي القرآن وقصصه .

ومن حيث الصفة البديعية ، فهو غير مسرف فيها ، ولا متكلف لها إنما قد تجيء في أثناء كلامه سهلة يسيرة . كأن يقول مجانساً :

وَعَلَّقَتْهُ شَادِنًا شَادِيًا عَلَيْهِ الشَّجِي وَعَلَى الشَّجَنِ
إِذَا مَا التَّقِينَا فِيمَنْ جُدَّ وَزِدْ وَصِلْ وَتَعَطَّفْ ، وَمَنْ لَا وَلَنْ
وَمَنْ مَهْجَةٍ مُذْ نَأَتْ مَا ثَوْتُ بِأَرْضِي ، وَمَنْ سَكَنَ مَا سَكَنَ
قَفُوا تَعْرِفُوا مَا أَسْرَ الْهَوَى فَأَعْلَنَ لَمَّا أَسْرَ الْعَلَنَ

وعلى أن الصوري يملح أحياناً ، ويمترج قوله بالفكاهة في تصوير نزوله على أحد أصدقائه البخلاء . إذ يقول :

وأُخِ مَسَّهُ نَزُولِي بَقَرِجٍ مَثَلُ مَا مَسَّنِي مِنَ الْجَوْرِ قَرِجٍ
قِيلَ لِي إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ وَالْفَتَى يَغْتَرِيهِ بِخَلِّ وَشُجِّ
بَتْ ضَيْفًا لَهُ كَمَا حَكَمَ الذَّهَبُ وَفِي حَكْمِهِ عَلَى الْحَرِّ فِجْ
قَالَ لِي إِذْ نَزَلْتُ وَهُوَ مِنَ السَّكِّ سَرَّةَ وَالْهَمِّ طَامِحٌ لَيْسَ يَصْحُو
لَمْ تَغْرَبْتُ ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : وَالْقَوْلُ مِنْهُ نُصْحٌ وَنَجْحٌ
سَافِرُوا تَغْنَمُوا . فَقَالَ : وَقَدْ قَالَ تَمَامُ الْحَدِيثِ : صُومُوا تَصِحُّوا

وهكذا فإن عبد المحسن الصوري كما رأينا إنسان شاعر عادي لا تفوق في شعره ، عاش في ظل الفاطميين وفكرهم ، وصراعاتهم مع منافسيهم وكان وجوده بصور مما أتاح له المشاركة في تلك الأحداث والصراعات التي شهدتها طوال حياته منذ منتصف القرن الرابع وحتى نهاية العقد الثاني من القرن الخامس .

ومع أنه كان إنساناً عادياً ، وشاعراً من بين شعراء عديدين عاشوا في العصر إلا أنه لم يعدم ميزة تفردة عن غيره ممن عاصروه ، أشرنا إليها ، وفي رأينا أن رأى ابن خلكان والثعالبي من قبله فيه وكذلك مواطنوه وتلاميذه من شعراء الشام في القرن الخامس كان مبالغاً فيه .

وذكره معاصره علي بن منجب في كتاب الأفضليات ، ووقف عند أبيات من شعره ، قارن بينه فيها وبين أبيات لابن رشيق^(١) ويذكر له بيتين في الخمر^(٢) ، ويذكر وصفه لحمام . يقول^(٣) :

وقال عبد المحسن في الحمام :

ومنزِلُ أَقْوَامٍ إِذَا نَزَلُوا بِهِ تَشَابَهَ فِيهِ وَغَدُهُ وَرِئِيسُهُ

وهذا مما يصلح أن يوصف به قبر . وتمايم الأبيات من مستحسن ما وصف به الحمام . وهو :

يُخَفِّفُ وَجْدِي أَنْ تَزِيدَ كُرُوبُهُ وَيُؤْنِسُ قَلْبِي أَنْ يَقْلَ أُنْسُهُ
إِذَا مَا أَعْرَتْ الْجَوَّ طَرَفًا تَكَاثَرَتْ عَلَيَّ بِهِ أَقْمَارُهُ وَشُمُوسُهُ

(١) راجع الأفضليات ص ١٣٠-١٣١ .

(٢) ارجع نفسه ص ١٣٥ .

(٣) ارجع نفسه ص ١٥٦ .

الفصل الرابع

شعراء مصريون من القرن الخامس

ظافر الحداد

ابن مكنسة

ظافر الحدّاد السكندري (ت سنة ٥٢٩ هـ)

هو أبو منصور ظافر بن عبد الله الجروى الجذامى ، ينتمى إلى قبيلة جذام اليمنية ، أستقر أهلهم بالإسكندرية ، واشتغل أبوه بحرفة الحدادة ، وورثها عنه ابنه ظافر ، ولكن نشأ الابن محباً للعلم والأدب ، فبدأ يرتاد مجالسهما بالإسكندرية وتعرف على كثير من أعلامهما .

كان مولد ظافر في حوالى منتصف القرن الخامس ، ولحق أخريات خلافة المستنصر بالله الفاطمى أطول خلفاء الفاطميين حكماً ، وآخر كبارهم حيث بلغت الدولة درجة من الأزدهار والقوة ، وإن اثبات حكمه بعض السنين العجاف ، فقد اشتدت بالناس المجاعة والشدة المستنصرية ، وكانت من أشد ما عانته مصر في عصور ما بعد الفتح الإسلامى .

وعاصر الخليفة الأمر ، كما عاصر من الوزراء أمير الجيوش بدر الدين الجمالى وابنه الأفضل بن بدر الدين وهما من أشهر وزراء الفاطميين فى القرن الخامس ، كذلك عاصر الوزير المأمون البطائحي .

وعاش ظافر مرحلة شبابه بالإسكندرية ، وكانت له بها ذكريات جميلة ، وقد تفتحت بها شاعريته ، وطاف بمغانها ، وسجلها فى شعره معجباً ، ومنها خليج الإسكندرية الذى يمدّها بالماء العذب .

وكانت تزدهر حوله الحقول والبساتين الغناء التى أكثر من ذكرها كقوله يتذكر أيامه بالإسكندرية :

أَسْفَى عَلَى ذَاكَ الزَّمَانِ لَوْ أَنَّهُ	بِالصَّخْرِ قُتَّتْ مِنْهُ صُمٌّ صِلَايِهِ
يَا لَيْتَنِي أَحْظَى بِشَمِّ نَسِيمِهِ	وَبِدَيْعِ مَنْظَرِهِ وَلَثِمِ ثُرَايِهِ
حَيْثُ الْعُصُونُ رَوَاقِصٌ وَيَمَامُهَا	يَشْكُو لِطَيْبِ الزَّمْرِ مِنْ دَوْلَايِهِ
تَعَرَّتْ نَوَاعِيرُ الْمِيَاهِ وَأَتَرَعَتْ	تِلْكَ التَّرَاغُ أَوْفَضُ فَيْضِ عُبَايِهِ

كما اعتاد الرمل ، وبساتين التين والكثبان ، وشاطئ البحر ونسيمه .

يَا هَلْ إِلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ أُوْبَةٌ	فَيَسَّرُ قَبْلَ مَمَاتِهِ بِإِيَابِهِ
فَيَرَى مَكَانَ شَبَابِهِ وَنَصَابِهِ	وَحَبَابِهِ وَضَحَابِهِ . إِرْعَايِهِ

وندى رياض الرمل عطر ثيابه

حيث النسيم الساجلى يزوره

ويقول :

فالعيش منذ رجلى عنه لم يطب
بالرمل بين غصون التين والعنب
من حوفا قضب الأغصان كالطنب
فيه كالسر بين الرقي والصحب

هل إلى الثغر من غود ومقلب
تري أزور القصور البيض ثانية
وفوقنا شاهقات الكرم أحيبة
وللنسيم العليل الرطب وسوسة

وعن حديثه عن الإسكندرية ومعالمها وبيوتها ومساجدها ، يصورها مدينة
زاهرة تتشح منازلها بالبياض وكذا مساجدها ومنارتها ، فتبدو من بعيد تلبس
ثوب البياض وكأنها العروس على ما صورها في شعره .

يقول :

بياضاً مثلما تزهو الكعاب
وفى فائوسها عجب عجاب
قصير طال بينهما العتاب
ودرت في مذاهبها الذقاب
حبيبا كان أبعد اجتناب
يذكرني للثره الذهاب
وفى أرج الرياح له اضطراب
وللدولاب زمر واصطخاب
كرقص الغيد ماذبها الشراب
رخيما للقلوب به انجذاب
به رشا جلته لنا القباب
تحف به الأحيه والصحاب
ويزيد حين يقلقه الهباب
فيولاً حين يرفعها العباب

تضئ بها المساجد فهي تزهو
تجاورها منارتها وفيها
فتاة غادة بإزاء شيخ
سقى الله السوارى بالسوارى
فكم عيد بها أهدي وأذى
وفى الباب القديم قديم عهد
وسيف تحليجها كالسيف حدا
وإيقاع الضفادع فيه عال
وترقص فى جوانبه غصون
وتشدو بينها الأطياف شدوا
وكم لى بالكيسة من كناس
وكم لى بالمجالس من جلوس
وبحر الملح مثل الفحل يوغو
وتحسب سفنه صفة ولونا

وأثناء تردد ظافر فى شبابه بالإسكندرية على مجالس العلم والأدب تعرف على
الحافظ السلفى ، والتقى بصديقه الشاعر أمية بن أبى الصلت بها ثم عاد ليلتقى
به مرة ثانية بالفسطاط .

وقبل أن نترك الإسكندرية وحياة ظافر بها ، نحب أن نجول معه جولة في ديوانه للتعرف على بعض ما كان يرتاده من معالمها ، وكيف صورها لنا شعراً ، وما تركت له من ذكريات قبل أن يتركها في حدود سنة ٥٠٠ هـ .

ونلاحظ كثرة تردد أسماء معينة لمعالم الإسكندرية ، لخليجها أو ترعة المحمودية الآن والبحر والمنارة والرمل ، وربوة ابن العاص ، ولعلها كوم الدكة أو كوم الشقافة ، وقصر الدخان ، ويقع غرب الإسكندرية في الطريق إلى المقس ، والقليدة .

وكان يحب خليج الإسكندرية العذب الذى يحمل إليها ماء النيل فيروى رياضها وبساتينها ، كان يحلو له أن يخرج إليه مع صحبة من رفاقه ليتمتعوا بالطبيعة ، وربما التقى هناك أو صاحب بعض حبيباته وأحبابه .

ولم يخل صحبته من بعض رجالات الأدب والقضاة أو العمال الذين عرفهم بشعره وأدبه ، ويروى أنه صاحب مرة القاضي أبا المكارم أحمد بن عيميد الدولة في بعض العشيات على شاطئ خليج الإسكندرية ، والنسيم قد جهش وجه الماء ، ومبادئ الكلا قد برقعت بحيا الأرض ، وطوقت أجساد النخيل بقلائد الثمار فأنشد :

وعشية أهدت لعينك منظرًا	قَدِمَ السرورُ به لقلبك وإفدًا
روضٌ كمخضر العذار وجدول	نُقِشَتْ عليه يدُ النسيم مباردًا
والنخل كالهيئ الجسان تزينت	فلبسن من أثمارهن قلايدًا

ولعل تلك النزهة كانت في أخريات الصيف ، ومطلع الخريف ، وقد تلونت فيه ثمار النخيل .

وربما كان سكن ظافر بالإسكندرية القديمة بمكان كان يسمى بالظاهرة يقع غرب الحى الرومانى أو اليونانى أو جنوبيه الغربى ، وقد جاء ذكر الحى الرومانى أو اليونانى ، وربما هو ما كان اسمه هرقله نسبة إلى قيصر هرقل . ربما كان قريباً من محطة الرمل أو ما بينها وبين حى الشاطئ ، يقول عن هذا الحى :

وفى عذبات الرمل تون هرقله	مستارح نسعى بينها ومتراسع
رياض إذا هب النسيم يخالها	سعى وهو واهى الخطو فيهن ظالع

ومن معالمها التي ذكرها الكنيسة ، ولعلها الكنيسة المرقسية قرب محطة
الرميل الآن ، يقول :

وشرق المحجة لى غزال	تُحجِّبه الصوارم والجِراب
وكم لى بالكنسية من كناس	به رشاً جلثته لنا القباب
وكم لى بالمجالس من جلوس	تحف به الأجهة والصحاب
وأذكر قصر فارس والمعلّى	ففيه لكل موعظة مناب

ولعله تعلق زمن تردده على الكنيسة بتلك الفتاة النصرانية التي ذكرها في
شعره .

ومعظم حديث ابن ظافر عن هواه كان في شبابه بالإسكندرية حيث تتوارد
عليه صور تلك الأوقات السعيدة فيقول :

ديارٍ ليستُ اللهو منها مع الصبا	فنعم الحلى فيها ونعم الملايس
ليالى أعطى الحبّ فضلةً مقودى	ذلولاً، وعند العتب واللوم شامس

أصيّدُ المها فيهنّ ، ثم يصدّنينى	فكلّ لقلبي بالشباب فرائس
تساوت بنا حال الصباية والصبا	فكل لكل مُشبةً ومُجالس
فأرشفُ ذُرّاً لم يثقبهُ ناظم	ونور أقاح، قد تَمته المغارس
واقطف ورد الحد والورد زاهر	والزم غصن البان والغصن مائس
زمان كطيف زار وازور وشك ما	تصافح جفنا مغرم وهو ناعس

وكانت رياضته مع حبيبائه أو أصحابه وقت الأصيل إذ كثيراً ما ينوه
بالأصال ، في نزهته تلك سواء على الخليج أو بالرميل على شاطئ البحر ، كان
يقول :

هذا الخليج فمرحياً بزمانه	يا حبذا الأصال بين جنايه
فامرّح بطرفك كيف شئت ترى به	معنى يَفكُ القلب من أجزائه

ويقول في سرحة له على شاطئ البحر أصيلاً :

وآصالنا فى ساحل البحر نعتلى	به الرمل ما بين الكتيب إلى الوهد
نغازل من غزلانه كلّ سابع	له مقلّة عادائها قنص الأسد

جَكَثَ لَنَا الْأَمْوَاجُ أَثْقَالُ رِذْفِهِ فَأَوْتُهُ تُخْفِي وَأَوْتُهُ تُبْدِي
إِذَا قَابَلَ الشَّيْأَ هَيْفَ قَدُودَهَا أَرْتَا فَعَالَ الرِّيحَ بِالْقَضْبِ الْمَلْدِ
لِيَالٍ وَأَيَّامٍ تَقْضَتْ كَأَنَّهَا جَوَاهِرُ نَظْمٍ خَائِنُهَا الْعَقْدُ مِنْ عِقْدِ
والتقى بالوزير الخطير شاهنشاه الأفضل بن بدر الجمالي بالفسطاط ،
فحظي لديه ولزمه ونظم فيه القصائد الطوال حتى كانت مدائحه فيه ديواناً
كاملاً .

وسجل في شعره بعض معالم الفسطاط ومصر والقاهرة وما حولها من
الخليج المصري أو الذي سمي بالخليج الناصري ، والذي كان يخرج من شمال
الفسطاط ، وتحوطه البساتين والمناظر والمتنزهات ، ومن أشهرها كما عرفنا عند
الحديث عن تميم بن المعز والشريف العقيلي القاش ، وبركة الحبش ، وكانت
بركة الحبش تقع جنوبي الفسطاط وكانت من منازله مصر المشهورة ، كذلك
ذكر المقطم ، وما كان قرب الفسطاط من الأديرة التي يؤمها بعض سراة
القوم ، للتنزه كدير القصير .

ورغم أنه نال في الفسطاط ما تمنى ، لكنه لم يسئل عن الإسكندرية قال :
يا ساحل الثغر كم أنأى وأغترَبُ أما إليك مدى الأيام مُنْقَلَبُ
ويا أوائل أيام الشباب به هل لي إليكنَّ فيه ساعة سببُ
والله ما اخترتُ مصرًا عنك عن مِقَّةٍ وإن غدا العيش لي فيها كما يَجِبُ
ولو جرى لي نيلها فِضَّةٌ وغدا سفحُ المقطم منها وهو لي ذَهَبُ
ومع ذلك فإن إقامته بالفسطاط ، وقربه من النيل ورؤيته له ربطته بها برابط
عاطفي ، فكان يشدو بهما ، ويحن إلى الفسطاط إذا غاب عنها : يقول :

أحنُّ إلى الفسطاط ما لم أكن به حنينٌ طليح الركب بعد ذهابه
وأستقبل الركبان من كلِّ جهةٍ لعلَّ بمصر ذاكرًا في خطابه
وأهجرُ عذب الماء من طول غُلَّةٍ إذا لم يُنلني النيلُ عذبَ رُضابه
وتسودُّ في عيني البلادُ تذكُّرًا لخُضرة شطبه وبيض قبابه
وكم لي على سفح المقطم وقفةً لها أثرٌ في وهديه وهضابه
فضضنا بها سلك الحديث فخلته يمدُّ بنا زهواً لطيب عتابه

ويقول في بركة الحبش :

وفي البركة الغناء للطرف مسرح
نهى ما انطوى من جفنيه من مآبه
وهكذا عاش ظافر في شبابه بالإسكندرية محدود الرزق ، وفي القاهرة على
شيء من اليسار ، ومع هذا فإنه لم يستطع أن ينسى بلدته ، وقضى حياته غريباً
في القاهرة يرضى عنها وعيه ويحرص عليها ، ويسخط عليها باطنه ويرفضها
فعاش معذباً يعاني التمزق النفسى والشعور الحاد بالغربة والحنين الجارف إلى
الإسكندرية التى مثلت له الجمال والشباب والحب فمئنا أجمل ما صنع من
شعر بصور مشاعرة تلك^(١) . وظل بالفسطاط زمناً يعيش بالمديح ، ويلتقي
بأدباء الفسطاط والقاهرة ويعقد معهم المجالس ، حتى اشتهر وأصبح شاعراً
مرموقاً تردد ذكره فى أوساط الأدب والعلم فى مصر كلها ، واتصل بالوزير
الأفضل بن بدر .

ويبدو أنه نال حظاً من الثروة فى جنابه .

وكتب علامة الإسكندرية ومحدثها الكبير الحافظ السلفى ، وبعث إليه
قصائد من شعره ، يقول الحافظ فى معجم السفر^(٢) « كان من مقلقى شعراء
ديار مصر ، وقد كتب لى من شعره غير قصيدة بخطه ، وكتبت أنا عنه أيضاً
بخطى بمصر وقبل ذلك بالإسكندرية ، مقطعات وقصائد ، وكتبته وأجاب عنه
بشعر وهو عندى وتوفى سنة ٥٢٨ هـ فى ذى الحجة على ما كتبه إلى ابن
موهوب من مصر ، وكان قد استوطنها ، وما عرفنا له قط حربة ، أى فساداً
فى الدين — كمثلى الشعراء » .

وذكره عماد الدين الأصبهاني فى خريدة القصر قال : كنت سمعت به
قديماً ، وأنشدنى له الشريف أحمد بن حيدرة الحسينى الزيدى سنة خمس
وخمسين .

قال : أنشدنى ظافر الحداد لنفسه ، وهو قريب العصر غريب النثر^(٣)

(١) الدكتور حسين نصار فى مقدمة الديوان ص ز .

(٢) معجم السلفى نسخة مصوره بدار الكتب المصرية الورقة ٩٧ .

(٣) ذكر السلفى أن وفاته كانت فى ذى الحجة سنة ٥٢٨ هـ كما ذكرنا وذكر ياقوت وابن خلكان أن
وفاته كانت سنة ٥٢٩ هـ ، وبينما ذكر ابن تفرى بردى والسيوطى وابن العماد وفاته بعد ذلك سنة
٥٦٣ هـ وهو غير صحيح ، بمراجعة ما ذكره السلفى وابن العماد وهما أقرب إليه من هؤلاء .

وشعر ظافر كما قال ابن خلكان جيد ، وهو غريب النظم على ما ذكر العماد ، وجودة شعره وغرابته معاً تتبينان فيما وفره له من سهولة الأسلوب مع تمكن من العبارة ، وشاعرية واضحة ، ومقدرة فنية على صياغة معانيه في صور جديدة ، وإن استوحى التراث في بعضها .

وكثيراً ما يبدأ قصائده بالغزل ، ولكنه ليس غزلاً كغزل القدماء بل مزج فيه باقتدار بين معاني الغزل المتداولة ، وجديد التناول والرؤية الخاصة المستوحاة من العصر والبيئة .

ونقرأ قوله في مقدمة إحدى قصائده :

هذا الفراقُ وهذه الأظعانُ	هل غير وقتك للدموع أوانُ
إن لم تُفضِّضها كالعقيق فكلُّ ما	تدعوه من سنن الهوى بهتانُ
هذا الغرامُ على ضميرك شاهدُ	عدل، فماذا ينفع الكتمانُ
إن كنتَ تدخِّرُ الدموعَ لبيّنهم	فالآن قد وقعَ الفراقُ وبأنوا
عذرُ المتّيم أن يكونَ بقلبه	سقرٌ، وبين جفونه طوفانُ

فتحس أن الشاعر استوحى بعض معاني شعراء الغزل ، ومن قالوا في هذا المعنى ومزج بينه وبين عناصر إسلامية استقرت في ضمير العالم من مصطلح العلم الإسلامي وبعض لفظ القرآن .

ويقول في أخرى :

بمنازلِ الفسطاطِ حلُّ فؤادى	فاربع على عرصاتها ونادٍ
يامصرُ هل عرّضتَ لغصن فوقه	قمرٌ بربعك إربةً لمعادى
انزقَ يميّله الصبا ميلَ الصبا	بقوامِ نحوِّ البائة الميادِ
أترى أنالَ النيلَ بعضَ رضائه	فعذبَن منه مياهُ ذاك الوادِ
فأفاد منه الطعمَ لكن شربَ ذا	يروى وذاك يزيدُ كرب الصّادِ
وأها على تلك الديارِ فإنها	أوطانُ أحبّائى، وأهل وداى
ولقد أحسنَ لها ولسنّ منازلِ	وأودّها شغفاً ولسنّ بلاى
دمنَ لبستُ بها الشّبابَ ولمتي	سوداءُ ترفّل في ثياب جِدادِ
والعيشُ أنحضرُ، والدّيارُ قرية	وأبيتُ من أهلى على ميعادِ

والقلبُ حبُّ القلبِ رهنَ والطُّبا
حَدَّقُ الطُّبَاءُ الغَيْدَ قَيْدُ العَادِي
شُتَّتْ شَمْلَ الدَّسَعِ لَمَّا شَتُّوا
شَمْلِي، وَصِيحْتُ بِهِ بَدَادِ بَدَادِ

وهنا نجد الشاعر يمزج بين قديم المعنى وصنعة البديع ، والجناس منه خاصة ، مع استلهامه عناصر البيئة المحلية المصرية في التعبير ، كتشبيه رضاب الحبيبة في عذوبته بماء النيل .

واعتماد الشعراء قديماً ذكر صعوبات لقاء الحبيبة ، لما يحيطها به أهلها من حرس شديد ، ورماح ، لا يقوى على اقتحامها العاشق ، فيحتال لها أو يعد لنفسه من الشوك ما يلقي به ظبي الحى وأسنته .

وقد أبرز المتنبي هذا المعنى في صورة جميلة رائعة من قصيدته اللامية المشهورة :

ليالى بعد الظاعنين شكول
طوال وليل العاشقين طويل
بين لى البدر الذى لا أريده
ويخفين بهدرا ما إليه سبيل
وما شرق بالماء إلا تذكرا
لماء به أهل الحبيب نزول
يحرمه لمع الأسنة حوله
فليس لمشتاق إليه وصول

ويتناول ظافر هذا المعنى تناولاً جديداً فيعرضه عرضاً خاصاً به ، مستخرجاً إياه في خيالات ورؤى معجبة ، تكشف عن مقدرة فنان وإحساس شاعر ماهر .

كم مهمم جئت من أجل الهوى فرقا
يكبو لحيفته الساعي من الرعد
وليلة مثل عين الطلي اذاجية
عسفتها ونجوم الصبح لم تقيد
كان أنجمها في الليل زاهرة
نراهم والثريا كف مُنتقِد
لو هم مُوقَد نار أن يرى يده
فيها ولو كانت الزرقاء لم يكيد
وفي يميني يمين الموت مائلة
في صورة السيف لم تنقص ولم تزد
حتى تأملت حيا عز ساكنه
تحفه أسد غاب من بيني أسد
من كل أزوغ لا كف لمعصمه
سيوى الحسام ولا جلد سيوى الزرد
غير أن يكثر سل السيف متهما
من ظنه ويبيع الثوم بالسهم
في جانب الجلد مما تحف لم يجد
فجئت أخفى خطأ لو وطئت بها

حتى لثمت فتاةً الحى فانتبهت
فسلمت وهى ونهى من مخافتها
ففظلت ألتها طوراً وأشعرها
وقلت للقلب لما خاف بادرة
فودعتنى وقالت وهى باكية
وسرت والليل قد ولت عساكره
ترئو إلى بعينى جؤذرٍ شرد
جيرانه، تمزج الترحيب بالحد
فعل الهوى بى وقد مالت على عضدى
ذا موردٍ عز أن تعاضه فرد
إنى أنخاف عليك الموت أن تعد
والدهر يأكل كفيه من الحسد

وفى هذه المقطوعة الغزلية التى جعلها مطلعاً لمديحه ضمنها بعض المعانى التقليدية الأخرى زيادة على ذلك المعنى الرئيسى الذى أشرنا إليه ، وهو منعة الحبيبة فى أهلها ، ولا شك أنه استوفى كذلك بعض معانى الشعراء القدامى فى الليل واعتساف الطريق كقول ذى الرمة مثلاً: (١) أحجم علافى قطعته بأربعة وهو فى العين واحد .

واستوحى قصصاً شعرياً لأمرىء القيس وعمر بن ربيعة بمثل زورات العاشق الليلية للمحبة رغم منعة أهلها فى حمى قومها ، وما قاله واقتنصه معها من اللذات ، وما قاله ، وخافته وخافت عليه .

وهو مع هذا الاستيحاء لا يقلد ، ولا تحس بأنه يحتذى أو يأخذ أخذاً مباشراً ، ولا يمسخ المعنى ، ولا ينسخه ، لكنه يأتى به فى رشيح من اللفظ ، وحلو العبارة حتى يدفعك إلى الإعجاب بصنعتة ، والتعجب من مقدرته وشاعريته .

وهو يرى الغزل فى مطلع قصيدة المديح ضرورة فنية يقتضيها القول الشعري وليس مجرد تقليد للقدماء فيما أنشدوا (٢) :

الحب مذ كان معنى يصحب الأدبا
وأحسن الشعر ما أضحي تنزله
والفهم كالنار والتشبيب إن خمدت
كم فكرة أنتجت معنى للتهب
وحكمة العرب الماضين كامنة
فإن تغزلت فى مدح فلا عجب
إلى المدائح فى انشاده سببا
يشبها بلطيفي فكرة وصبا
بالشوق لو رامه فى غيره عزيا
فى الشعر فليقف من يعنى به العربا

(١) ديوانه ذى الرمة .

(٢) ديوانه ص ٣٤ .

فهل تعاطاه فحل في فصاحته إلا بكى سكنا أو ناج أو ندبا
والشعر تلقين شيطان الغرام فلا على غرائبه إلا لمن نسبا .

ومع ذلك فإن الشاعر يتغزل غزلا صرفا ، بعيدا عن قصائد المديح وتحس في
غزله صبرة حقيقية ، وهوى لا عجا ناش قلبه ولوحه ، وإلا لما قال مثلا (١) :

لو ذقت حين عتبت أيسر حبي لعلمت خلو غرامي من صبايه
ومن البلية أن يلوم أئحا الهوى من ليس يعلم سهله من صغية
ما أنت منه إذا تطاول ليله قلقا وكجث مقلتاؤه بشهيه
وثملت من كأس الهوى ، ويذاهوى تسقى جوارحه بميسم كربه
أنا بعض من سبت اللحاظ فؤاده فسرى ولم يحفل بلامه حربه

قال هذه القصيدة في هوى له بالفسطاط ، أو مصر فهل كان هواه الحقيقي
هناك ، أم أن حبه وهواه الأول كان بالإسكندرية ، ومن يتعقب أقواله وأشواقه
بالإسكندرية يحس بحقيقة هذا الهوى ، وأنه لم يفارقه أبدا حتى وإن كان قد
جدد هوى بالفسطاط ، ألا أن هوى الإسكندرية تمثل له دائما ، وفي كل
طريق يسلكه سواء أسلك إلى مصر والفسطاط أم القاهرة وقد صرح بهذا
الهوى السكندري في قصيدة يتشوق بها إلى ملاعب ذاك الهوى فقال (٢) :

يا بلدي إن يغيب معنك عن نظري فإنه في سواد القلب لم يغيب
وأها على ذلك العيش الذي ذهب أيامه فيه بين اللهو والطرب
وللشيبه شيطان يساعديني على الهوى ويؤايتني على أرى
فإن دعاني الهوى ليث دعوته وإن دعاني لسان العتب لم يجيب
أجرت ذيل غرامي غير مكترث بالحادثات ولا بالك على الثوب

لقد امتزج هذا الحب إذا بحب بلده الإسكندرية ، وتقلبت بهما الأيام فإذا
هما هوى واحد ، إذا تذكر الإسكندرية ذكر هواه ، وإذا ما ثار في قلبه لأعجب
حبه تذكر ملاعبه بالإسكندرية بين قصور الرمل ، وعلى ضفاف خليجها
وسط الزروع والبساتين ، أو على شاطئ بحرها الهادر ، يبعث بأمواجه على
الشاطئ ، ويبه نسيمه فيطوف بوجهه ، ويحييه ، بل يصافحه ويقبله .

(١) ديوانه ص ٩ ..

(٢) ديوانه ص ٢٠ .

وقد أحسن ظافر وصف مشاعر الحب ، والتعبير عن عواطفه كلما طرق هذا الموضوع حتى إذا اصطنع فيه القول ، أو قاله مبتدئاً في قصائد المديح .

مدائحه :

قال أشهر مدائحه في الأفضل بن بدر الجمالي ، ولعله نظمها في مرحلة حياته بالفسطاط ما بين عامي ٥٠٠ هـ إلى ٥١٥ هـ وقد تكون القصيدة التي مطلعها (١) .

بدا شيبه قبل ابتداء شبابه وولّى الصبا عنه عقيب اغترابه
أول ما قال من مديح في الوزير ، أو من أوله لشواهد فيها تنبئ بذلك ، منها هذا المطلع الذي يشير إلى غربته عن بلده الإسكندرية الذي تعلق به وصعوبة تلك الغربة على نفسه ، وتكون الغربة شديدة على النفس في أولها وربما كان آنذاك غير مستقر بالفسطاط يتردد بينها وبين بلده ، يفهم ذلك من قوله :

ولما حباى الدهر منه بعودة
وهب لقرى سرى بنعيمه
فإن كنت في مصر غريباً فجعل ما
ينال الغريب العز عند اغترابه
ورددت بها بحر التوال مشرقاً
وعرج حظى بعد طول اجترابه
جناية بعد ساعى بعقابه
ينال الغريب العز عند اغترابه
وعرب غیری آملا لسرابه

وأظن هذه العودة حدثت بعد رحيل أمية بن أبى الصلت عن مصر والقاهرة ، وحدث ما حدث من سجن ، فقارق بلاط الأفضل وخلفاء الفاطميين مغاضباً إلى القيروان حيث الصنهاجيون أعداء الفاطميين أو من أصبحوا أعداءهم بعد حلف ومصاحبة ولعل التلميح إلى من يغرب من الشعراء في البيت الأخير يعنى أمية .

وتختلف مناسبات مدائحه للأفضل بين التهنئة بالأعياد ، أو بمناسبة زواج ولده .

فمن تهنئه بالعيد قوله :

نهاية ما سما لعلاك أرض
وأشرف ما زكا لنداك بعض

(١) ديوانه ص ٤٦ .

يقول فيها :

لَعْنَةُ وَجْهِكَ الْيَتِيمِينَ نُورٌ لَعْنِ الشَّمْسِ تَحْتَ سَمَاءٍ وَمُضْ
كَانَ مُلُوكُ أَهْلِ الْأَرْضِ نَقْلٌ إِذَا اعْتَمَدُوا الْفَخَّارَ وَأَنْتَ أَرْضُ
ويقول بعد عباراتٍ من الثَّناء المبالغ فيه على عادة الشعراء في مدائح أولئك
القادة والوزراء :

بِقَاوِكَ زَهْرَةُ الدُّنْيَا فَمَهْمَا بَقِيَتْ فَعِيشُنَا خِصْبٌ وَخَفْضُ

ويفسفه في مديحه بالعدل إلى صفات الشجاعة وإخافة الأعداء ، كما يشير إلى
رعايته للدين وقيامه على حمايته ، ويجدها فرصة سانحة للإشادة بعمل أبيه بدر
الجمالى في انفاذ ملك الفاطميين من أعدائهم ، يقول :

أَبُوكَ مَغِيثُ هَذَا الدِّينِ قَدْ مَأَى غَدَاةَ لَهُ مِنَ الطَّائِفِينَ دَخَضُ
تَدَارِكُ نَصْرَهُ بِدَرَاكِ ضَرْبٍ تُقَدُّ بِهِ الْجَمَاجِمُ أَوْ تُرَضُّ

حتى يصل بعد هذه المفارح والمآثر إلى التهئة بالعيد ليقول :

لَيْسَ الْعِيدُ أَنْ وَافَاكَ فِيهِ وَمُلْكُكَ زَاخِرُ الْأَكْنَافِ بَضُ

ومما قاله في مناسبة زواج ولده :

يَا بَاسِطَ الْعُدْلِ فِي بَدْرِ وَفِي حَضَرٍ وَرَافِعَ الْجَوْرِ عَنْ أَنْكَى وَعَنْ ذَكِرٍ

يقول فيها :

يَا أَفْضَلَ النَّاسِ لَمْ يُنْسَبْ إِلَى لَقَبٍ وَلَا وَفِعْلِكَ أَوْفَى مِنْهُ فَافْتَحِرِ

ويقول في مناسبة مماثلة :

عَبَقَتْ بِطَيْبِ ثَنَائِكَ الْأَقْطَارُ وَتَجَمَّلَتْ بِمَدِيحِكَ الْأَشْعَارُ
وَعَظُمَتْ صُنْعًا فِي السَّمَاعِ فَمُذَبِّدًا لِلْعَيْنِ نُحْبْرُكَ هَائَتْ الْأَنْجَارُ

ويمضى كعادته في المديح في إفاضة صفات المديح المبالغ فيها من مثل قوله :

وَالْأَرْضُ مِلْكٌ وَالزَّمَانُ كَأَهْلِهِ خَدَمَ وَبَعْضَ جِيوشِكَ الْأَقْدَارُ

وقوله :

جِجَدَ الكَمَالُ مِنَ الْوُجُودِ فَمَذْ بَدَا لِلنَّاسِ فَضْلُكَ أَنْكَرَ الْإِنْكَارُ
إِنْ كَانَ هَذَا الْخَلْقُ أَصْلَ وَجُودِهِ طِينَ فَأَصْلُكَ جَوْهَرَ وَنُضَارُ

وقوله :

كَأَدَ الْمُقْطَمُ أَنْ يَمِيدَ مَسْرَةً لَوْ لَمْ يُصَيِّهُ مِنَ لَذْنِكَ وَقَارُ

وهكذا تحوى مدائحه فى الأفضلى من المبالغة التى تخرج عن جادة القول
ويبدو أن الأفضلى وغيره من الملوك آنذاك كانوا يحبون أن يبالغ الشعراء فى
صفاتهم حتى يبالغوا لهم فى العطاء ، وعرف الشعراء ذلك فىهم فكألوا لهم ما
شاءوا مما يخرج عن كل حد معقول ، ويكاد يصبح من هذر الكلام .

ومدائحه فى الأفضلى لا تجرى كلها على سنن المديح التقليدى فى بدئه
بالنسيب بل هو يبدأ أحياناً قوله مباشرة دون تمهيد ، وتقتصر قصيدة المديح
غالباً على صفات المديح وحده لا يشركه فيها شئ ، وعلل ذلك بقوله :

وَالشُّعْرُ تَلْقِينُ شَيْطَانِ الْغِرَامِ فَلَا يُعْمَلُ غِرَائِبُهُ إِلَّا لِمَنْ نَسَبًا
إِلَّا مَدَائِحَ شَاهِنشَاهٍ مَا بَرَحَتْ تُشْرِفُ اللَّفْظَ وَالْمَعْنَى إِذَا اصْطَحَبَا

وانقطع للأفضلى فصّار شاعره قال :

فَأَصْبَحْتُ فِيهَا خَادِمَ الْأَفْضَلِ الَّذِي زَحَمْتُ مَلُوكَ الْأَرْضِ تَحْتَ رِكَابِهِ
جَلُوتُ عَلَيْهِ كُلُّ عَدُوٍّ مَا ارْتَضَتْ يُبْعَلُ إِلَى أَنْ هَرُولَتْ بِجَنَابِهِ

ولأنه كان منقطعاً إلى الأفضلى ويعد من شعراء بلاطه ، فقد كان يواسيه فى
ما ينتاب أهل بيته من النوائب فيرثى من فقد له ، كما كان يهنئ بالأعياد
والأفراح ، فيقول راثياً المظفر أخا الأفضلى :

إِذَا كَانَ عُقْبَى مَا يَسُوءُ التَّصَبُّرُ فَتَعْجِلُهُ عِنْدَ الرَّزِيَّةِ أَجَلُ
وِغَايَةُ أَحْزَانِ النُّفُوسِ سَلُوهَا فَأُولَى بِهَا تَقْدِيمِهِ وَهِيَ تُوَجَّرُ

وكما هو الحال فى إغداق صفات المديح والمبالغة فيها بالنسبة إلى الأحياء
فكذلك كان حاله مع المتوفين ، كأن يقول فى هذه القصيدة :

لَقَدْ زَعَزَعَتْ شُمُّ الْعِجَالِ رَزِيَّةً أَلَمْتُ وَلَكِنْ طَوْدُ جِلْمِكَ أَوْفَرُ
وَفَضْلُكَ مِثْلُ الشَّمْسِ ثَوْرًا وَرِفْعَةً وَحَاشَاهُ بَلِ أَعْلَى ، وَأَسْنَى وَأَسِيرُ

فهكذا لا تقلت منه مناسبة الرثاء بل يقتنص الفرصة للمديح ، فتراه يراوح بين رثاء المتوفى ومدح الأفضل في القصيدة .

ومعاني مديحه ورثائه وكل قصائده التي يقدمها ليكسب أو يحصل على المال من عطايا الملوك والرؤساء يغلب عليها المبالغة ، وتردد الصفات المعروفة في مدائح الشعراء ، ويبدو التكلف والصنعة على اللفظ والأسلوب .

وقصد بالمديح جماعة من أعيان العصر كالوزير البطائحي بعد قتل الأفضل ومن يسمى بالأمير فخر الدولة ، وبعض بني أسامة وهم من بيوتات العز في العصر الفاطمي في دولة المستنصر ومن بعده وكان أبوهم من رجال الأفضل ، يقول في أحدهم :

لعبت بالزمن الماضي فخلّفتني	من بعده في زمانٍ ظلّ يلعبُ بي
هذا بذاك ، فطبع الدهر مختلف	لا بدّ من راحةٍ فيه ومن تعب
لكن تعوّضت بالشّيع الأجل أبي	حمدٍ خيرٍ أوطانٍ وخيرٍ أب
صرح منيف أسامي له ثمر	من جوده تجتنيه الكف من كلب
إن كان للفضل عين فهو ناظرها	أو نسبةً فالإيه أقرب النسب
أعطى الجزيل بلا من ولا عِدّة	ولا سُوالٍ فأغنى النَّاس عن طلب

ومحمد بن أبي أسامة كما ذكر من رجال الأفضل ، وربما كان وسيلته إلى الوزير الخطير ، وربما كانت أيامه التي عانى فيها تلك التي سبقت معرفته بأبي أسامة ، ومن ثم قبل قبوله في بلاط الأفضل .

وكان شاعراً مهاجراً من وطنه ، مبعداً عن أهله ، تلقى من هذا الرجل اقبالاً عوضه وطنه وأهله .

ومدح بعد مقتل الأفضل الوزير البطائحي (تولى سنة ٥١٥ هـ) وللشاعر فيه أربع قصائد منها قوله :

كم قدّر ما أخفى الهوى وأصون
والدمع يُعربُ والسقام يُبينُ

ونلاحظ غلوه في البناء الذي اعتاده في مدائحه للأفضل ، فقد بدأ هنا بالغزل وحديث الحب الذي أعرض عنه أحياناً بمحض إرادته ؟! فقد استطرد في هذه القصيدة الطويلة نسبياً في موضوع النسيب وذكر الحجة ، واصطنع في

ختام المقدمة الغزلية حواراً مع حبيبته أعاد فيها إلى الأذهان نهج القدماء ،
وبخاصة ما استجد عند بعض العباسيين أمثال أبي نواس في مدحته للخصيب
أمير مصر ، وعند أبي تمام في بعض مقدماته . وكذا عند بعض القدماء كحاتم
الطائي^(١) .

يقول ظافر^(٢) :

يَأْرُبُ لَائِمَةٌ شَجَاهَا أَنْسَى	سَمَّحَ بِمَالِي ، وَالزَّمَانُ ضَنِينُ
قَالَتْ : أَضَعْتُ الْمَالَ وَهَلْ لَكَ عَنْهُ مَا	تَعْتَاظُ ؟ . قُلْتُ : الْحَمْدُ وَهُوَ ثَمِينُ
قَالَتْ غَنِيَتْ ، فَقُلْتُ : حَسْبُكَ فَاغْلِمِي	إِنَّ الْبَخِيلَ بِمَالِهِ الْمُتَبُونُ
قَالَتْ : فَإِنَّ الْفَقْرَ هَوْنٌ ، قُلْتُ لَمْ	يُهْنِ الْكَرِيمُ ، بَلِ اللَّئِيمُ يَهُونُ
قَالَتْ : فَإِنَّ الْمَالَ نَعْمَ مَعُونَةٌ أَلْ	إِنْسَانٌ ؛ قُلْتُ لَهَا : إِلَهٌ مُعِينُ
قَالَتْ : فَإِنَّ الْوَفْرَ زِينٌ ، قُلْتُ : كَسْ	بُ الْحَمْدِ يَرْفَعُ أَهْلَهُ وَيَزِينُ
وَالْمَالَ يَذْهَبُ وَالثَّنَاءُ مَحْلَدٌ	يَحْتَيُّ بِهِ الْإِنْسَانُ وَهُوَ دَفِينُ
يَا هَذِهِ مَاذَا أَفَادَ بِمُلْكِهِ	فِرْعَوْنُ ، أَوْ بَثْرَائِهِ قَارُونُ
قَالَتْ : فَهَلْ لَكَ مَا يُعَوِّضُكَ الْغِنَى ؟	قُلْتُ : الْأَجَلُ السَّيِّدُ الْمَأْمُونُ ^(٣)

ثم يمضي في مديحة المعهود ، والذي تكررت معانيه في مدائحه ، وإن تغير
بعضها بما يناسب مقام الممدوح . فهو هنا يهتبه بالوزارة ، ويشير إلى كفاءته ،
وأنه قوة للخلافة :

أَصْبَحْتَ سَيْفًا لِلْخِلَافَةِ حَالِيًا	حَيْثُ ازْدَهَى بِكَ عَاتِقُ وَجِينِ
فَاخْزُ فَاَنْتَ وَزِيرُهَا ، وَمُشِيرُهَا	وَأَمِينُهَا ، وَظَهِيرُهَا الْمِيمُونُ

وفي قصيدة أخرى ربما كانت أول ما أنشده يستنجد به ويظهر كثرة عياله
فيقول :

مَوْلَايَ قَدْ أَوْلَيْتَ عَبْدَكَ نِعْمَةً	فَلَهُ عَلَيْكَ بِهَا ثَنَاءٌ سَرْمَدُ ^(٤)
وَالْآنَ قَدْ أَضْحَى حَوَاشِي حَالِهِ	هَدْبًا ، فَلَا تُرْفِي وَلَا هِيَ تُعْقَدُ

(١) ديوانه ص ٣٢٠ .

(٢) نلاحظ في بعض حديثه مع صاحبه عن المال وإنفاقه صلة بما قال حاتم الطائي في قصيدته المشهورة :

أَمْأَى إِنْ الْمَالَ غَادَ وَرَالِحَ .

(٣) ديوانه ص ١٠٣ .

(٤) يقصد المأمون البطاحي الوزير .

فَكَأَنَّ بَعْضَ الْمَلَائِكَةِ الَّتِي
وَتَكَاتَرُ لِبُكَائِهِمْ فِي مَأْتَمٍ
وَتَعْتَرُ الْجَارِي أَضْرَّ بِحَالِهِمْ
لَا تَعْتَدِي، وَكَأَنَّ بَيْتِي مَسْجُدٌ
طَوَّلَ الزَّمَانَ وَمَا لَنَا مِنْ تُفْقَدٍ
يَاضِرُنِي وَهُوَ الْقَلِيلُ الْأَنْكَدُ
وَمِنْ مَدَائِحَةِ لَانْمَةِ الْفَاطِمِيِّينَ مَدْحَةٌ لِلْأَمِيرِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ ، يَقُولُ (١) :

هَنَّاكَ الْفَخْرُ يَا شَهْرَ الصِّيَامِ بِقَرَبِ الْأَمْرِ الْمَلِكِ الْهُمَامِ
فَحَسْبُكَ مِنْهُ مَنْزِلَةٌ وَمَجْدًا زِيَارَةٌ مَرَّةً فِي كُلِّ عَامٍ

وَبِكَيْلٍ لَهُ مَدِيحًا عَادِيًا بِصِفَاتٍ يَكِيلُهَا لِغَيْرِهِ مِنْ هُمْ أَدْنَى مِنْهُ مَنْزِلَةٌ ، وَإِنْ
كَانُوا مَتَمَلِّكِينَ لِمَصَائِرِ الْخُلَفَاءِ كَالْأَفْضَلِ ، إِلَّا أَنَّهُ يَأْتِي هُنَا بِيَعُضِ الْمَعَانِي اللَّائِقَةِ
بِمَقَامِ الْخَلِيفَةِ الْفَاطِمِيِّ عَلَى مَا تَعَارَفَهُ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فِي خُلَفَائِهِمْ مِنْ تَأْيِيدِ السَّمَاءِ
لَهُمْ . وَأَنَّهُمْ أَوْصِيَاءُ وَائِمَةٌ بِتَوْكِيفٍ مِنَ السَّمَاءِ . قَالَ :

لَهُ جَيْشٌ سَمَاوِيٌّ خَفِيٌّ كَظَاهِرِ جَيْشِهِ اللَّجْبِ الْهُمَامِ
تُقَدُّ صَوَارِمُ الْعُلُوِّ بَدَا إِذَا الْأَرْضُ هَمٌّ بِضَرْبِ هَامٍ

كَأَيُّهُ بَابَائِهِ مِنْ آلِ عَلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَجَدَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَهْنَهُ بِنَصْرِ كَنْصَرِ
النَّبِيِّ يَوْمَ حُنَيْنٍ :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَنَّاكَ نَصْرٌ قَرِيبٌ جَاءَ بِالتَّحْفِ الْجِسَامِ
كَنْصَرِ أَيْلِكَ فِي يَوْمِي حُنَيْنٍ وَبَدْرٍ عِنْدَ مُعْتَرِكِ الْجِمَامِ

وَيُخْتَمُ قَصِيدَةُ أُخْرَى بِمَا اعْتَادُوهُ مِنْ إِعْتَابَرِهِمْ عَلَيَا وَصِيِّ الرَّسُولِ ، وَأَنْ
الْوَصَايَةَ انْتَقَلَتْ مِنْهُ إِلَى أَبْنَائِهِ مِنْ فَاطِمَةَ . يَقُولُ (٢) :

فِيَا ابْنَ الْبَتُولِ سَلِيلَ الرَّسُولِ أَبُوكَ الْوَصِيُّ ، وَأَنْتَ الْإِمَامُ
وَيُضْمَنُ بَعْضُ أَلْفَاظٍ وَمَعَانِي سُورَةِ النَّجْمِ وَمَا أَكْرَمَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ مِنَ الْإِسْرَاءِ
بِهِ وَالْمَعْرَاجِ وَتَقْرِيبِهِ إِلَى مَقَامٍ لَمْ يَنْلَهُ نَبِيٌّ قَبْلَهُ . يَقُولُ :

أَبُوكَ الَّذِي سَارَ فَوْقَ الْبَرَاقِ وَفِي يَدِ جَبْرِيلَ مِنْهُ زِمَامُ
فَلَمَّا انْتَهَى سُدْرَةَ الْمُتَنَهَى مَقَامًا لَهُ جَلٌّ ذَاكَ الْمَقَامِ
دَنَا قَابَ قَوْسَيْنِ مِنْ رَبِّهِ عَلَى يَقْظَةٍ ، لَمْ يَشْبَهْهَا مَنَامُ

(١) ديوانه ص ٢٨٩ .

(٢) ديوانه ص ٢٩١ .

فما كَذَبَ القَلْبُ مما رآه فهل حجةٌ في خِلافِ نُقَامِ
فضائلُ جاءَ بهنَّ الكتابُ وآياتهُ المحكماتُ العِظامُ
ويختم القصيدة كما ختم الأخرى بالصلاة والسلام على الخليفة . ويقول :
وصلَّى الإلهُ ، وأهلُ السَّماءِ عليك صلاةٌ يليها سلامُ
وله مِدْحَةٌ أخرى في الخليفة الإمام الحافظ ، لا يبدأ بالنسيب ولا الغزل ،
ولكن بالشكوى هذه المرة من ذهاب الشباب . يقول (١) :

لا غرؤ أن رحلَ الشَّبَابُ وباتنا ما كانَ أولُ من صحبت فحانا
ويُتبعُ هذه الشكوى من الشيب وتولى الشباب حديثَ الذكريات عن الأيام
الحوالي أيام الصبا والصبوة يبدأ بقوله :

كم قد جريتُ مع الصِّبا في حَلْبَةٍ ولزمتُ فيها ذلك الميْدَانِ
حتى سبقتُ السابقين لِشَاوِها وهويتُ أوطاراً وحُرْتُ رَهائنا

لقد بلغ الشاعر في عهد الحافظ مرحلة الكهولة ، ضعف جسده ، وأبيض شعره وسكنت فيه سُورَةُ الحياة ، وبلغ شاطئَ النهاية ، وفي هذه المرحلة يحلو للإنسان أن يتذكر ، وأن يعيد إلى مخيلته شريط الذكريات ليحيها من جديد ، مادام لا يستطيع رد ما مضى من الأيام ، ولا أن يعود به القهقري ، أفلا أقل من أن يعيش ماضيه في الخيال !

ويخلص من حديث الذكريات إلى ممدوحه الحافظ . ليقول :

يا من مضى فاعتضتُ عن أَيَّامِهِ أوفى نظام المدح في مؤلانا
الحافظ الدين ، الذي غمر الوري عدلا وعمَّ جميعهم إحسانا
هو رحمةُ الله التي أحيت بها ال ثقلين حتى الجود والإيمان

ويردد ما يردده أتباع الإمام من مثل قوله :

يا حُجَّةَ الله التي أبدت لنا بكمالها الآياتِ والبرهانا
من كان يلتبسُ الدَّلِيلَ فقد بدت حُجَجٌ ملآن مسامعا وعيانا

ويعيد مرة أخرى قصة الإسراء والمعراج التي شرف بها الله نبيه .

والشاعر في هذه القصائد مضطر أن يسلك هذا الطريق في مديحه ، ونرى

أنه يقول بطرف اللسان ، ولم يصدر عن عقيدة صحيحة ، أو تصديق لما ينسب
إلى أولئك الأئمة والخلفاء ، لكنه مضطر إليه كما قلت والمضطر يركب
الصعب ، والصعب هو هذا الذى يقوله ولا يعتقه .

* * *

الوصف فى شعره :

يتنوع موضوع الوصف فى شعر ظافر ، وتنوع طرائقه ، فهو إما وصف
مباشر لمشهد رآه ، أو تسجيل لبعض ما يمر به ويعبر من الرؤى فى مناسبة ، أو
قد يحمي الوصف فى سياق حديث آخر كالغزل والمدح ، والقول فى الخمر
والشراب ، أو قد يكون استعادة لذكريات الأيام الخوالى ومشاهده أو نزهاته
فى الروضات وشاطئ البحر ، وأماكن النزهة واللهو كالأديرة وغيرها من
مظاهر الطبيعة المصرية كالليل ، أو الآثار والأبنية كالمنار والأهرام .

وتجىء أوصافه للرياض ، وأماكن البحر والرمل والساحين والساحات فيه
بالإسكندرية ، على رأس أوصافه ، وفى مقدمتها ، بل وأجملها وأعذبها نفسا
وتليق بهذه أوصاف جزية للزهر ، والنواعير ، والطير والكؤوس
والشراب ، والأطعمة ، والرسائل .

ولا نجد لظافر إهتماماً بمجالس الغناء والموسيقى ، فلم ترد فى شعره أوصاف
لآلات الطرب ، ولا القينات كما فعل غيره من شعراء عصره أو من سبقوه ممن
عرضنا لهم ولا شك أنه شهد مجالس الطرب والغناء فى قصور من يغشى دورهم
من الوزراء والأعيان أمثال الأفضل ، وغيره بالفسطاط ، وكانت آنذاك عامرة
بهذه الملاهى ، وإن لم يشهدا فى تلك المجالس الخاصة ، فلعله وقف عليها فى
الأعياد والمواسم التى كثرت واهتم بها الناس فى مصر الفاطمية ، واتخذوا من
الغناء ومن الموسيقى ، والطرب عامة ، مظهراً من مظاهر تعبيرهم عن الفرح
والسعادة بمناسبة تلك الأعياد .

ونبدأ حديث الأوصاف عنده بتلك الصور المشرقة التى رسمها لمانزه
الإسكندرية والقاهرة أو الفسطاط ، ومطارج اللهو بهما ، ونبدأ بالبحر
وشاطئه بحر الإسكندرية وشاطئ الرمل :

يصف البحر فيقول :

وبحر الملح مثل الفحل يرغو ويزيد حين يقلقه الهباب
ونحسب سفنه صفة ولونا فيولا حين يرفعها الهباب

ويقول في وصف البحر والسباحات الحسنات :

وآصلنا في ساحل البحر نعتلى به الرمل ما بين الكثيب إلى الوهد
نُغازِلُ من غزلانهِ كُلِّ سابع له مقلةٌ عاداتها قنصُ الأسد
حكّت بيننا الأمواجُ أثقالَ رذِفِه فأونةٌ تنقُي، وآونةٌ تُليدُ
هو الماءُ فوقَ الماءِ: هذا نِعاْفُه أجاجاً، وهذا فيه أخلِي من الشَّهيد
إذا قابلَ التيارَ هيفَ قُدودِها أرّتنا فَعالَ الرِّيحِ بالقُضْبِ المَلِيدِ

وصور خليج الإسكندرية والرياض حوله ، والزهور والطيور .

ولظافر في هذا المجال إبداعات فنية ، وصور بهجة ، لهذه المنازة الجميلة
بشاطيء خليج الإسكندرية في عصره ، تجعل القارئ لشعره يستعيد تلك
الصور ، ويحس بما أحس به الشاعر من سعادة وبهجة وسط تلك المجال :

يا ليتني أحظى بشم نسيْمِه وبديع منظرِه ولثم ثْرانِه
ويعلّني ذاك الخليجُ بشريةً سيما إذا انتسجت دروغُ حَبانِه
وصفاً وزاق وعادَ مدُّ زلالِه كالسيفِ جُردٍ من خلالِ قِرائِه
فكأنّه والريّحُ تنقشُ متنه حرزٌ عليه يدقُ خطُّ كتابِه
كالبردِ المنقوشِ نقشاً خففت آثارَ موقعه يدا ضراً به
كضيقِرة الخواصِ أمكنه لها سعفٌ ضفيرنَ فرقَ ضفيرٍ لِباهِ
حيثُ الغصونُ رواقصٌ ويماها يشدو بطيبِ الزمرِ من دُولايِه
تعرّت نواعيرُ المياهِ وترعت تلكَ التّراغُ وقضّ فيضُ غِمانِه
حتى يُجرّدَ سيفُه أسياها بجداولٍ جُدُلنَ في أعشايِه

نلاحظ بعض تشبيهاته التي عرض فيها ملاح من حقله الشعبي كالإيراد
وصانع الخوص في هذه المقطوعة التي رسم بها الشاعر صورة للخليج وقد
امتد ولمغ ماؤه الأبيض ، وتفرعت منه قنوات وترع تسقى الزرع ، وشبهها
بالسيوف المصلطة المسلولة ، وهي صور وقع فيها الشاعر في أسر القوالب

التقليدية لتشبيه الجداول ، ولم يبدع فيها ، بل لم يوفق في نقل الصور التقليدية غير الموافقة لمشهد المسرة في الخليج والمروج من حوله .

ويكرر هذه الصورة أو هذا التشبيه للخليج أكثر من مرة فيقول :

وسيفُ خليجها كالسيفِ حِداً وفي أرج الرياحِ لهُ اضطرابُ

ويرشح حديث السيف الجوشن والدرع والمبرد وكل هذه المصطلحات البيانية في وصف المياه التي تدرجها الرياح ولا تجد مبرراً واضحاً لهذا القالب التشبيهي عند شعراء العرب في جملتهم .

إلا أنه على الرغم من هذا المصطلح والقوالب التخيلية المتداولة لا نعدم تشكيلاً مبدعاً لعناصر الطبيعة في صور الشاعر للخليج الإسكندري ومزوجه فهو يدخل أصوات الحمام ، والضفادع ، وزمر الدولاب ، ورقص الغصون لتعبر هذه العناصر عن أحاسيس الفرحة والسعادة إلى جانب مشاهد السيوف والمدى والجواشن وما إليها التي تثير خيال الحرب المنفزع الخفيف وسط هذا الجو المليء بالمتعة والتعيم ، ولعله تنبه إلى أن هذا الوصف الإصطلاحي يفعل ذلك دون إرادة منه ، إنما هو كما قلت قد وقع فيه أسر التراث التعبيري في الشعر ، يقول :

وتكسوه الرياحُ دُرُوعَ حرب ولا طَعْنُ هُناكَ ولا ضِرَابُ

ولولا هذه العناصر المقحمة لثم للصورة الشعرية تماسكها وتناسقها .
يقول :-

وترقصُ في جَوانِبِهِ غُصُونُ كرقصِ الغِيدِ مَآذِبِها الشَّرَابُ
وتشَلُو بينا الأَطْيَارُ شَلْوا رَضِيّاً للقلوبِ به انجِدَابُ

وفي صور الإسكندرية الرَّمْلُ ، وقصورُ الرملِ وكرومُهُ وزهورُهُ البرِّيَّةُ كالشقائق الحمراء ، والأقحوان الأبيض ، يقول :

وكم يوم لنا بالرَّمْلِ فيه حديثٌ مثل ما نثر السحاب
حديثٌ كاسمِهِ فينا حديثٌ كما يَسْقِي أَخْطامُها ثَغابُ^(١)
جلسنا والرَّمالُ لنا حشايَا وأوراقُ الكُرومِ لنا حِجابُ

(١) الثغاب ما بقى من الماء في بطن الوادي .

على الكتبانِ أكتبةٌ سِمانٌ وفي الأغصانِ أغصانُ رطابُ
به القصرانِ كالرجلينِ لاحَا على بعدِ يُقلُّهما السرابُ
أقاما صاحين مع الليالي ولم ينعُب بينهما الغرابُ
ويذكر قصرى فارس والمعلَى ، وكانا من القصور الأثرية الشاهِصةِ في أيامه على ما يبدو :

وأذكرُ قصرَ فارسَ والمعلَى ففيه لكلِّ موعظةٍ منابُ
وهى من بعدِ قُوَّتِهِ فاضْحَى كما بركتْ على الغبراءِ نَابُ
وأفنتْ ملكَ ساكنيه الليالى وكم فاضتْ بعسكره الشعابُ
فأصبحَ دِمنةٌ تغلُو السَّوافى عليه وقصرُهُ ققرٌ يَبابُ
تنوحُ الهاثقاتُ على ذراهُ وتُعشِبُ في أسافلهِ الرِّحابُ
ففى تلكَ الشَّقائِقِ منه شاقَّتْ شقائقُ شَقَقَتْ منها الثِّيابُ
تراثتْ من كَمائِمِهِ فكاثتْ كحُميرِ اللّاذِ أيدَتْها العِيابُ
تَمَرَّكُها الصُّبا فتَحالُ فيها بحارَ دمٍ يُموِّجُها انصبابُ
كانَ الخمرَةُ الحمراء راقَتْ وأوراقُ الشَّقِيقِ لها قَعابُ
وتحسبُ فحمةً في كلِّ ساقِ أحاطَ سوى التَّيسيرِ بها التَّهابُ
كانَ الأَقحوانُ به ثُغورٌ مفلجَّةٌ مؤشِّرةٌ عذابُ
وقد بَهَرَتْ دَنائيرُ دَعَوَها بهاراً كَثُرَها ذاكَ العِجابُ

فراها هنا يلجأ إلى تصوير الزهور التشبيهات المعتادة والصيغ المتوارثة في الشعر العربى ، وبخاصة تشبيه المعتاد عند القدامى في بادية العرب من الزهور البرية كالشقائق والأقحوان غير أنه تَلَفَّتْنا في أول الأبيات صورة غريبة إذ يشبه القصر بناق عجوز باركة .

وإذا ما انتقلنا من مشاهد الطبيعة بالإسكندرية وموجها وبحرها ورملمها وخليجها وبساتينها إلى القاهرة والفسطاط فأكثر ما حدثنا عنه النيل ، وقد جاء ذكره في مدائحه للخلفاء والوزراء بمناسبة فيضه ومواسم الأعياد وما إلى ذلك .

إلا أنه يخص بركة الحبش التى كانت تستمد ماءها من النيل شرقى جزيرة الروضة قرب الفسطاط بوصفه فيقول :

تَأْمَلْتُ بَحْرَ النَّيْلِ طَوْلًا وَخَلْفَهُ من أَيْرِكَةِ الْغُبَاءِ شَكْلَ مُدَوَّرٍ
فَكَانَ وَقْدًا لَحْتِ بِشَطِيهِ خَضْرَى وَكَانَتْ فِيهَا الْمَاءُ بَاقِي مُوَفَّرٍ
عِمَامَةً شَرِبَ فِي حَوَاشِرِ خَضْرَى أَضِيفَ إِلَيْهَا طِيلَسَانُ مُقَوَّرٍ

صورة غريبة قصدت فيها إلى التشبيه المستمد من بيئة أصحاب العمام الخضر
والطيلسان من أعيان القاهرة . ويصف الأهرام على الشاطئ الغربي للنيل أمام
الفسطاط وبالجيزة الفيحاء كما كان يسميها الشعراء . يقول :

تَأْمَلْ هَيَاةَ الْهَرَمَيْنِ وَانْظُرْ وَيَنْتَهُمَا أَبُو الْهَوْلِ الْعَجِيبُ
كِعْمَارَتَيْنِ عَلَى رَحِيلِ بِمَجْبُوسِي بَيْنَهُمَا رَقِيبُ
وَمَاءُ النَّيْلِ تَحْتُهُمَا دُمُوعُ وَصَوْتُ الرِّيحِ عِنْدَهُمَا نَجِيبُ
وَزَاهِرُ سَجْنِ يُوسُفَ مِثْلُ صَبِّ تَخْلَفُ فَهُوَ مَحْزُونٌ كَيْبُ

ويبدو أن سجن يوسف هذا — على عرف القدماء من العرب — هو معبد
الوادي بجوار أبي الهول والصورة هنا غريبة نبعت من خيال بدوي ، وهي
صورة رسمتها ذاكرة الشاعر من حصيلة ما حفظ من الشعر لا ما عاين من
الواقع ، مع قدر غير قليل من المبالغة .

وله في دير القصير ، ما يبارى فيه شعراء الخمريات الذين جعلوا هذا
الموضوع من عناصر قصائد الخمر ، وأكثر فيه وأبدع شاعر الخمر الأول في
العصر العباسي أبو نواس وأبياته في دير حنا وغيره من أديرة الحيرة متداولة
مشهورة .

كذلك لظافر ديرية في دير القصير يحاكي فيها أبا نواس .

وله غير حديث الوصف للمنازة ، وأماكن اللهو والمرح ، ومسارح المتعة
حديث عن الربيع كقوله (١) :

جاء الربيع أخو حياة الأنفس وَجُمِّلَ الدُّنْيَا بِأَفْخَرِ مَلْبَسٍ
فَاغْنَمْنَا بِنَا مُلْحَ الزَّمَانِ مِبَادِرَا وَتَمَلَّ مِنْهَا حَظٌّ مِنْ لَمْ يُتَحَسَّرِ
وَاسْتَقْبَلَ الْأَرْجَ الْمَعْطَرُ كُلُّمَا مَرَّتْ عَلَيْهِ الرِّيحُ كَالْمَتَنَفِّسِ
فَكَانَمَا زَهْرُ النَّبَاتِ قَلَائِدُ تُبْرِثُ عَلَى صَفْحَاتِ بُسْطِ السُّنْدُسِ

(١) ديوانه ص ٣٣٩ .

(٢) ديوانه ١٦٥ .

والوردُ ينجلي حينَ قبلَ خدّه
فكأنه غيران أدهشه الهوى
وكأنما الأغصان تطربُ كلما
وكان هتف الوردِ في أغصانها
والماء قد عبث به أيدي الصبا
وكأنما حُبك الرياح على الثقا
والطيرُ تسرحُ في الرياضِ غواديا
والوحشُ بين سوانح وبوارح
تردُ الغديرَ وُروُد من لا يشتقي
والشمسُ تجلي في مطالعِ شرقها

صور جديدة متتابعة من خيال يختلط فيه صور تراث العربية في يديها ،
ومشاهد الحضارة بمصر والإسكندرية .

وفيه يقول^(١) :

هذا الربيع أتى بأحسن منظر
فانهض إلى داعي السرور واخلنى
واسرق بنا خلس الزمان مبادرا
والروضُ يقلقه الصبا فيثير من
وكان مُصفرُ الأصيلِ بخلاؤه
والشمسُ قد حوت المغارب شطرها
والجو من شفقِ الغروب مُفروّز
وبدا الهلال لليلتين كأنه
والماء يُبدي للتسليم تلقاً
والطيرُ يطربُ شجوها أغصانها
والليلُ يختلس النهار كعصبة

ونلاحظ بعض أوجه الشبه بين رؤى الشاعر في القصيدتين مع أن الأولى
يصف مشهداً في الصباح ، والثانية وقت الأصيل قرب الغروب ، وتشابهان

(١) ديوانه ١٣١ .

كذلك في امتزاج صور الموروث الشعري بالحديد من حقل تجاربه ومشاهداته .

أوصاف أخرى

وهناك أوصافه لأشياء متنوعة كالحمامات والأطعمة ، وكقوله في فقاع (١) :

وَأَفَى بِفَقَاعٍ أُرِخَ	يُحْيِي بِنَكْهَتِهِ الْمَهْجَ
شَيْخٌ مَضَتْ مِنْ عَمْرِهِ	فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى جَجَجَ
مَرْجَتْ يَدَاهُ الطَّيْبَ فِيهِ	فَكَانَ أَظْرَفَ مِنْ مَرْجَ
وَحِشًا قُلُوبَ سَدَابِهِ	مَنْهُ بِكُلِّ فَمٍ حَرَجَ
فَكَائِهِ يَحْشُو بِهِ	قِطْعَ الزُّمُرُودِ فِي السَّبِيحِ

ومن السوق يصور ظافر أصحاب الصنائع فيقول في حلاق :

لَا أَسْعِدُ اللَّهَ مَسْعُوداً فَصَنَعْتُهُ	كَوَجَّهَهُ كُلُّ مَتِجٍ مِنْهُ مُحْتَضِرُ
لَا يَخْلُقُ الرَّأْسَ إِلَّا مَرَّةً وَبِهَا	تَغْنِيهِ عَنْ عَوْدَةٍ مَا مَدَّهُ الْعِمْرُ
لَأَنْ أَلْطَفَ لِمَسْرٍ مِنْ أَنْامِلِهِ	سَلَخَ، وَهَلْ بَعْدَ سَلَخٍ يَنْبِتُ الشَّعْرُ
فَلَوْ ثَوَى خَلَقَ شَعْرٍ فِي ضَمَائِرِهِ	بِفِطْنَةٍ كَادَمَتَهُ الْمَخُّ يَنْشُرُ

وقال في صانع كثافة :

وَحَازِقٍ مُحْكِمٍ كَثَافَتُهُ	لَا تَشْبَعُ الْعَيْنُ مِنْهُ بِالنَّظَرِ
كَأَنَّمَا بَسِطَتْهُ الْعَجِينُ عَلَى	أَكْرَاهُ لَمَّا حَفَّتْ بِمُسْتَعْرِ
يَنْسَجُ غَيْثًا مِنَ السَّحَابِ عَلَى	وَامْضُ بَرَقَ يَكْتَنُّ بِالْمَطَرِ
كَأَنَّهُ يَفْتَحُ الْفَوَاقِعَ ذَارَاتٍ	عَلَى رَاكِدٍ مِنَ الْقُلُوبِ

وقد ألم بتشبيه ابن الرومي في صانع رفاق .

وله في الشكوى ، وأحوال الحياة والناس قصائد يقف فيها متأملاً ناصحاً وكأنه في أخريات حياته يستعرض ما مر به من أحداث تتقلب به بين المرارة والحلاوة وتخوض به أيامها في سهل وصعب . يقول :

خَانَ الشَّبَابُ وَمَا وَفَى بِمَا وَعَدَا فَلَا تَتَّقِ بِحَيِّبٍ بَعْدَهُ أَبَدَا

(١) الفقاع شراب يتخذ من الشعير ، وسمى كذلك لما يعلوه من الزبد والفقاع ويبدو أنه قريب مما كان يعرف في أوساطنا الشعبية بـ « السوياب » .

(٢) ديوانه ص ٣٤ .

قد كُنتُ أعقدُ عزمي في أوامره
حتي رأيتُ من جنودِ الشَّيْبِ بادره
فكلما رُمْتُ نصرًا منه يخذلني
فبُظِلْتُ أعْيَبُ نفسي في محبته
ويقول ناصحاً :

لا تفرحن برتبةٍ أعطاك —————
وإنظر مكانك في الفضأ
أنت الفقيرُ مع الغني
هَبْكَ اقتدرت على الظوا
لا يغررُك من يها
فمن البليّة أن تُزِرَّ
فإذا بليت بفقيهه
وقال في شكوى الدنيا :

أف لها دُنيا فلا تستقر
جميلة المنظر لكنها
قد دخل العالم في سجنها
فقيرها يطلب نيل الغنى
فذاك للإملاق في حسرة
والزاهد العابد في كلفة
وخوف ما يلقاه من ربه
وهنه في القوت من حله
والفاسق المذنب في وصمة
ليس بمؤمن ولا آمن
وعيشها بالطبع مُرٌ كثير
أقبح شيء عند من يختار
فكل جنس تحت بوس وضر
وذو الغنى يجتمع كى يذخر
وذاك خوف الفقر غيد الحذر
من شعث الصوم وطول السهر
في آخر الأمر إذا ما حشر
صعب شديد مُستحيل غير
مُسَقَّةُ الرأي قبيح الأثر
مذموم في قومه مُحْتَقَر

وهكذا يمضي في القصيدة مُستعرضاً أحوال الدنيا وما فيها من العجائب
والمتناقضات والمسررات والمنغصات .

ولظافر في ديوانه رسائل شعرية إلى أصدقائه من الشعراء والأدباء وغيرهم ،
منه رسالته إلى أمية بن أبى الصلت الشاعر القيرواني الوافد إلى مصر .

يقول فيها : (وكتب بها إليه بعد مغادرته مصر إلى القيروان) (١) :

ألا هل لدائي من فراقك إفراف
فيا شمسَ فضلٍ غرُبَتْ ولضوئها
سقى العهد عهداً منك عمر عهده
يُجدّده ذكرٌ يطيبُ كما شَدَتْ
لك الخلقُ الجزلُ الرُفيعُ طرازه
لقد صاولتني ياباً الصلّتْ مُذْ نأت
إذا عزّني إطفأوها بدماعي
سحائبٌ يحلوها زفيرٌ يجره
وقد كان لي كنزٌ من الصبرِ واقعٍ
وسيفٌ إذا جردتُ بعضَ غراره
إلى أن أبانَ البينُ أنْ غرّاه
أخي سيدي مولاي دعوةً من صفا
لئن بُعدتْ ما بيننا شقّةُ النوى
ويبدُ إذا كُلفتُها العيسَ قصرتُ
فعندي لك الودُ الملازمُ مثلما
ألا هل لآيامي بك الغرُّ عودةً
ليالي يُدنينَا جوارَ أعادنا
وما يبتاعُ من حُسنٍ لفظك روضةً
حديثٌ حديثٌ كلما طال موجزُ
يُزجّيه بحرٌ من علومك زائجرُ
معانٍ كأطوادِ الشواخِ جزلةً
به حُكمٌ مستنبطاتٌ غرائبُ
فلو عاشَ رَسَطا ليسَ كانَ له بها
فيا واحدَ الفضلِ الذي العلمُ قُوتهُ
لئن قصرتُ كسبي فلا غرو أنه
كتبْتُ وأفاتُ البحارَ تردّها

هو السُّمُّ ، لكن في لقائك دِرياقُ
علي كُلِّ قُطرٍ بالمشارقِ إشراقُ
بقلبي ، عهدٌ لا يَضيعُ وميثاقُ
وريقاءُ كَتَبَتْها من الأيكِ أوزاقُ
وأكثرُ أخلاقِ الحليقةِ أخلاقُ
ديارك عن داري هُمومٌ وأشواقُ
جرتَ ولها ما بينَ جفني إحراقُ
خلالَ التراقِ والترائبِ إشهاقُ
فلي منه في صعبِ التوابِ إنفاقُ
لجيشٍ يُخطوبُ صدها منه إرهاقُ
غرورٌ ، وأن الكنْزَ فقرٌ وإملاقُ
وليسَ له من رِقٍّ ودكٍ إعناقُ
ومُطرِدٌ طامى العوارِبِ تحفاقُ
طلائعُ أنصافها ذميلٍ وإعناقُ
ثلازمُ أعناقِ الحمايمِ أطواقُ
كهدي وتغرُّ الثغرُ أشبُّ برّاقُ
من القربِ كالصنّوينِ ضئُلهما ساقُ
بها حسدتُ منا المسامعَ أخداقُ
مفيدٌ إلى قلبِ المحدثِ سباقُ
له كُلِّ بحرٍ فائضُ اللُجِّ رِقراقُ
تضمُّنها عذبٌ من اللفظِ غيداقُ
لأبكارها الغرُّ الفلاسيفُ عُشاقُ
غرامٌ ، وقلبٌ دائمُ الفكرِ تَوّاقُ
وأهلُهُ له مشتاقونَ شَمٍّ وذَوّاقُ
لعائقي عذري ، والمقاديرُ أوهّاقُ
فإن لم يكنْ رَدٌّ إليّ فأغراقُ

(١) ديوانه ص ٢٢٦ .

بحارٌ بأحكامِ الرياحِ فإنَّها مفاتيحُ في أبوابهنَّ وأغلاقُ
ومن لي بأنَّ أحظى إليك بنظرةٍ فيسكنَ مِقلَقُ ، ويرقاً مُهراقُ

وهي قصيدة تنبض بما كان بين الشعاعين من ود وميثاق .
ولظافر في ديوانه موشحات ، لعله عالجها في محاولات أولى ليحرب هذا
اللون الوافد من النظم وربما تعرف عليه من ابن أبى الصلت الوافد من بلاد
الأندلس ، أو غيره ممن التقى بهم بالإسكندرية والفسطاط والقاهرة وكانوا كثرا
في أيامه ومن قبله .

فمن موشحة قوله (١) :

ثغر لاج	يستأثر الأرواح	لما فاح	ما الخمر ؟ ما التفاح
	أجاني		ذا التائه الجاني
	أنساني		نظرة إنساني
	أفاني		طير بأفاني
	أحياني		في بعض أحياني
لما صاح	ما خلته ياصاح	للأرواح	ذا نشوة من راح
	قلبي مال		فيه إلى الآمال
	مالي حال		يا قوم لما حال
	لولا الخال		ما كنت إلا خال
	لما غال		قلبي فصبري غال
ذا المزاح	عاتبته مازاح	والإصلاح	أن أترك الإصلاح
	أعلى لى		موقى بأعلالى
	أوصالى		نيران أوصالى
	بل بالى		أولى يلبالى
	ياحالى		أنظر إلى حالى
قد ساح من مقلتي سحاح		ذو إفصاح	بالسر ، بالإفصاح
بدر بان		في مثل خوط البان	
وجه زان		قدا كعود زان	
فالإخوان		في اللوم لي خوان	
والعينان		لما جفا عينان	

جسم راح يدنيه لمس الراح لما لاح لم أحتفل باللاح
يا فساك بالقتل من أفساك
ما أسراك ليلا إلى أسراك
ما أحلاك سبجان من أحلاك
ما أسناك وجهها، وما أسناك
كالمصباح نورا، بل الإصباح كم ارتاح للقرب لوترتاح

ونلاحظ على هذا الموشح أنه مركب القفل ، ولم يلتزم الخرجة في آخره
ونظامها على عادة أكثر الوشاحين الأندلسيين ومن سار على نهجهم ، وهو غير
معرب في معظمه ، أو لا يلتزم الإعراب ، يعتمد فيه إلى صفة الجناس في القفل
والغصن ، ويربط في الغصن بين جناس أول البيت وقافيته ... فهو يمزج فني
التوشيع والجناس وإن جعل صدر الغصن أقصر من عجزه .
وله موشحة أخرى تجارى فيها صنعته هنا .

وسار على المنوال يقول . فيها^(١) :

بالاح في سمر كالسمر مهلا فإن صبرى كالصبر
لم تغمض مدجفانى أجفانى
وصار دمعى شانى فى شانى
والحب مذ بلانى أبلانى

فالقفل متعدد البناء ويجرى على نفس النهج في قفل الموشح الأول مع
إختلاف القافية بالطبع لكن الأوزان والتفعيلات واحدة ، والتغير في الغصن إذ
يبدأ على عكس الموشح السابق بالمقطع الأطول فيجعله صدر البيت ويجعل
المقطع الصغير من كلمة واحدة مجانسة لآخر كلمة في المقطع الأول وهكذا في
بقية الأغصان مع تغير القوافي ... ويزيد في هذا الموشح أنه يأتي بخرجة محكمة
على تقليد الوشاحين في التمهيد للخرجة في آخر قفل .

يقول في الغصن الأخير بهذا الموشح :

أنظر لسوء حالى يا حالى
ملكتنى بخالى يا خالى
ها فاسمع مقالى يا قالى
دق عليك كالشعر موشح يزهر كالزهر

فجاء بالخرجة القفل الأخير ، ومهد لها في البيت الأخير من الغصن بقوله
« ها فاسمع مقالى يا قالى » .

وبعد فإن نظم ظافر في القصيد هو عماد فنه الأول ، وإن حاول الموشح
وكان له من النثر في الرسائل والمقامة محاولات كذلك على ما سنورده بعد
قليل .

وكما رأينا فإن شعره جيد بصورة عامة ، ترتفع شاعريته في الحنين والغربة
وتذكر وطنه الإسكندرية ووصف مجاليها ، وأيام صباه ، وصبوته ، وأماكن
طرحه ولحوه على الخليج وفوق رمال الشاطئ ، وقرب السورى ، والظاهرية
وما إلى ذلك مما كرر ذكره من معالم الثغر .

وبناء القصيدة عنده متغير ، فهو يعمد أحياناً في مديحة إلى البناء التقليدى
حيث يبدأ بالغزل ويتبعه الرحلة في أفراد من القصائد ، ثم يجيء بالمديح ، لكنه
أحياناً يبدأ مديحة للخلفاء والوزراء والأعيان من الأمراء والولاة والقادة بالموضوع
مباشرة عن طريق الاشادة بالممدوح كأن يقول في الأمير القائد أبى عبد الله
محمد بن أبى شجاع فاتك :

رجاؤك في نيل السعادة باب وما دون من يغبى نذاك حجاب

ولغته الشعرية ومصطلحة التعبيرى ، وقوالبه التركيبية كلها من تراث
الشعر القديم ، ونحس في شعره بمحفوظه الواسع من هذا الشعر . يستوحيه
معانيه في كل موضوع ، فتراه في المديح يرتاد أبا تمام والبحتري والمتنبي ، وفي
الوصف أبا نواس ومسلم بن الوليد وابن الرومى ، ويعتمد كثيراً على أبى نواس
كلما طرق موضوع الخمر والشراب ، أو تحدث عن الدير ، وما يلقاه فيه ،
ومن يحل به من الرهبان والشماميس . أنظر إلى قوله (١) :

قم نصطبّخ عند نقرات النواقيس واشرب على حُسن الحان الشّماميس

ويولع بالجناس أحياناً ، ويسوقه في تراكيب مُتقابلة ، أو مترادفة كصنعة
حبيب كقوله :

فدِيرُ شَهْوَانٍ مشهورُ الجَمالِ على ما فيه من عِظَمِ تَقْدِيرِ وَتَكْيسِ

(١) ديوانه ص ٣٣٨ .

وكقوله يقلّد إسراف أُنّى تمام وانتبى أحيانا :
سقى العهد عهداً منك عمرَ عهدٍ بقلبيّ، عهدٌ لا يضيّع وميثاقُ
ويشبه ما جرى فيه المتنبى حبيبا في هذا البناء المتجانس المعيب في قوله :
وقلقت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل غيش كلهن قلاقل
ويُردّد في بعض ألفاظه من ألفاظ القرآن والحديث ، لكنه غير مكثر ، كما
يُردد بعض ألفاظ الحضارة ، وأسماء الفلاسفة كأرسطاليس .
وتراه يعمد إلى التشبيه ، فيحلّوله في الوصف استخدامه ، في صور متتابعة
كما يلجأ إلى الاستعارة والكناية ، كقوله :

أَيَّامَنَا بِالشَّخَرِ هَلْ لَكَ عَوْدَةٌ	إِلَى حَافِظٍ لِلْعَهْدِ لَمْ يَتَغَيَّرْ
وَهَلْ أَتَمَلَّى مِنْ نَسِيمِكَ سَحَرَةً	يَصَافِحُ مَطْلُولَ الْبَنَاتِ الْمُنَوَّرِ
وَأَرْفُلُ فِي ثَوْبِي صَبَا وَصَبَابَةٍ	وَأُسْحَبُ ذَيْلِي مَشْيَةً الْمُنْبَجِرِ
وَدَمْعُ الثَّدْيِ فِي وَجْنَةِ الْوَرْدِ خَائِرٌ	كَجَامِ عَقِيقٍ تَحْتَ دُرٍّ مُنْشَرٍ
وَنُورُ الْأَقَاجِ الْعُضْرِ يَحْكِي إِذَا بَدَا	تَبَسُّمُ خُودٍ عَنْ شَتِيَّتِ مُؤَشِّرِ
كَأَنَّ يَبَاضَ الْمَاءِ فِي كُلِّ جَلُولٍ	إِذَا لَاحَ فِي غَصَنِ مِنَ الرُّوضِ أَخْضَرِ
غُلَّالَةٌ شَرِبَ ضَمَمُهَا فَوْقَ لَابِسٍ	رَشِيقٍ قَبَاءُ أَخْضَرٍ لَمْ يُزْرِ

* * *

كَأَنَّ غَصُونَ الْمَائِسَاتِ رَوَاقِصَ تَثْنَتْ عَلَى إِيْقَاعِ دُفٍّ وَمِزْهَرٍ
وخيالاته مستمدة من جوه العام ، ومن بيئته التى طوّف في جنباتها
بالإسكندرية والقاهرة ، وتراه يشبه كثيراً بأشياء من مكتسبات حضارة
عصره ، وآنية القصور وأدواتها . وللبحر في صوره وخيالاته نصيب ، كذلك
للنيل ، والنار والفحم ، وكلها في الجديد من صوره فضلاً عما أعاد عرضه من
الصور التقليدية .

نثر ظافر الحداد

ولظافر نثر جميل اللفظ والعبارة ، حسن المعاني ، شبيه بشعره . كتب إلى صديق له يقول من رسالة (١) .

« وصلت رقعتك — أدام الله رفعتك — مضمّنة من خطه ولفظه ما كان به قبل اليوم كأل الأنس ، وقوائم النفس ، مذكرة ودادا قد درّس ، وحظاً فيه قد تعس لا لقلّة وفاء مني ، ولا لجفاء صدر عتي ، لكن أنخلقت أخلاقه القبيحة ، وأهذمتهم عدم مودّته الصّحيحة . وفي ذلك أقول ممثلاً :

لا تشكون إليّ وجداً . بعدما هذا الذي جرّث عليك يداكا
وأظنه لما أنهج قشيبه ، وصوّح رطيبه ، أخذ يلاطفني بزخارف مكائبتيه ،
وأما حيل مدهنته لكي يعود ما مضى ، أو يرجع ما قد انقضى ، وهيأت
هيأت أن يعود ما فات ، فبحقّ الإسلام تأمن ترك السلام . والسلام .
وله مقامة يقول فيها (٢) « أصبحت ذات يوم في منزل ، وقد كل بناتي
وجناتي ، ولساني وإنساني من الدّاب في الطلب ، والإكباب على الكتاب ،
ومتابعة المراجعة في التّسخير والمطالعة ، بين معنى أحكمه أو لفظ أنظمه ، أو
يحط أرقمه ، فتأثقت النفس إلى الإحماض بمفاكهة أديب والارتياض بمذاكرة
ليب .

وإذا الغلام قد دخل وأسرع ، وقال : الباب يُقرع ، فقلت له : ما
الشأن ؟ فقال : جماعة من الإخوان ، منهم فلان وفلان . فذكر لي كل صديق
صديق ، ورفيق رفيق ، وشقيق شقيق ، وقد اختلفت بينهم الموارد ، واتفقت
منهم المقاصد ، فكأثروا كسيهام التبع إذا سددها النزغ ، فوافقت الثّرجاس ، ولم
تخط القرطاس . فقلت : ويحك ! . عجل بفتح الباب ، وأذن للأحباب ، فهم
نزهة النفس وثمرّة الأنس .

ثم استنهضني السرور إلى تلقيم بالبشر والحيور ، وقلت لهم : ما نظم لي
هذا العقد إلا الجدد ولا تتم لي هذه الإرادة إلا السعادة . ثم أنشدتهم من

ساعتي :

(١) ديوانه ٢٣٥ .

(٢) ديوانه ٢٤٩ .

يا سادة قد كُمنوا خُلِقا وَخُلِقَا وَشَرَفَ
أَظُنُّ دَهْرِي نَادِمًا عَلَى الَّذِي كَانَ اقْتَرَفَ
رَأَى عَظِيمَ ذَنْبِهِ عِنْدِي فَتَابَ واعْتَرَفَ
وَقَدْ حَبَلَنِي بِكُمْ كَفَارَةً لِّمَا سَلَفَ
وَلَوْ دَرَى مِقْدَارَ مَا أَهْدَيْتُ مِنْ هَذِهِ التُّخَفِ
لَا تَنْقَضَتْ قُوَّتُهُ وَمَاتَ غَيْظًا وَأُسْفَ

ثم رقمنا برود المحاضرة ، بالحكايات المختصرة ، ونظمنا عقود المذاكرة
بمعاني الأبيات المبتكرة ، كما قيل :

حديث إذا تم استعيد كأنه لذادة عذب الماء في فم صائيم
فما هو إلا أن استقت الآذان مُجَاجَات جرياله ، وترشفت الأذهان
مُجَاجَات سلساله إذا الغلام يُومى إلى بخفيف الغمز ، ويُنجى إلى بخفي
الرمز ، فخرجت من بينهم خُروج الحوت من البحر في الشبك ، والظبي من
الرياض في الشرك . فقلت له : ويلك ! مالك ؟ وما غير حالك ؟ دع ناظري
يرتفع في هذى الرياض ، وخاطري يكرع من هذى الحياض فاستدنانى إلى
الذهليز ، وأسر إلى بلفظ وجيز ، وقال : يا مولاي ، ما عندنا اليوم للإنفاق
إلا الإملاق ، وما نُضيف به الناس إلا الإفلاس ، فدبر عما يُقترض ، أو يُباع
من العرض ، إلا إن عوَّثتم على الصيام ، فلا كلام

فبينما نحن نتجاذب في الوسيلة ، وتعامل في أعمال الجيلة ، وإذا بالبَاب قد
قَرَعَ فقلت له : أجب ، لعله ضيف مُنتاب بعين الأصحاب على أكل ذلك .

الطعام البائر ، والمأكول الحاضر . فخرج وجلا ثم جاء باسمًا جَدِلا ،
وقال : يا ملأى ! رسول صاحبنا الشواء الذى تخلصناه بالأمس من تلك
الورطة ، وانقذناه من تلك الضغطة ، واستخرجناه من حبس الشرطة ، ومعه
سطل به جُودَايَة^(١) يجذب الأنف أرجها ، ويعجب النفس بهجها ، عطرية
الأنفاس ، هشة بين الضراس ، تتبرج من حسنها ، وتترجرج في دهنها ،
تحفها عدة من الرغفان ، زاهرات الألوان ، صافية تفور ، ببخار التنور ،
كأنها أوجه الخرائد البيض ، إذا أحجلها التقبيل والتعضيض .

(١) الجوداية طعام يتخذ من سكر وأرر ولحم .

قلت : وينحك بالكع ! ما أقبح ما صنع ، وأفضح ما بكع^(١) ، أف لهذا الخلق ! ، أنبيع جاحنا بيع الخلق ؟ اردد على هذا السفساف متاعه ، ونزهننا عن هذه الشناعة .

فقال : يا مولاي ! ، أما ما ذهبت إليه ، وعولت عليه فهو الذى تقتضيه المروعة ، وترتضيه الفتوة وتعتقده الهمم الشريفة ، وتنقده الشيم الظريفة ، لكن إفلات ما تحصل ، وفوات ما توصل مع ما نحن فيه من حضور الضيفان ، وفصول الإمكان ، وفوات هذه الفرصة أعظم غصة . بل من الرأي الصواب ، أن نجعل للرجل الخطاب ، وتأخذ ما حضر ، وتقبل ما تيسر . فإذا أيسرنا وفينا فكافأناه ، فنكون قد بلغنا أغراضنا ، وطهرنا أغراضنا . ونبرأ من وصمة ما أبدى بأضعاف ما أهدي :

فقلت : يا فريد ، فى الأمثال السائرة عن أبى عبيد : تجوع الحر ولا تأكل بثديها . قال : يا مولاي ! الضرورة تحسن ما قبح من هذه الصورة .

فقلت : اللهم غفرا ، فقد أبلت عذرا . يا غلام ! اصرف الرسول ، وتسلم المأكول . فلما حاز الجذابة ، وأغلق بابها قال : يا مولاي : إنك عودت زوارنا الضيفان ، وطراق المكان من سماحتك ، إذا نزلوا بساحتك الأكل ، فلا أقل من البقل والحل .

قلت : دعنى من الهذر . شرط الكرم لضيافة ما حضر . وما القبيح إلا مذهب الشحيح . قدم الإخوان للإخوان ، وجملته بالزعران ، واحضر السطل ، واحذر المطل .

فلما حضرت المائدة ، وظهرت التحفة الوافدة ، ظن القوم أنه اهتمام قد قصيد وإكرام قد تضيد ، وصنيع محمل ، ودست مكمل ، فجعل كل منهم يأكل ويقصر ، لكى يتظهر ، إلى ما يصحب الجذائب فى الترائب من جملان الشواء وجامات الحواء ، فتم لى بذلك لسان الفراسة وإدمان السياسة ، فتزاوريت فى زاوية البيت ، واستخرجت جاما من زجاج — كان عندى — من

(١) بكع استقبل بما يكره .

غشائه وكتبته في سوائيه^(٢) على الاستعجال ، بقضية الحال ، وقلته نظماً ،
وأثبتته فهماً :

يا سادة حازوا المناصب	والمراتب والمناقب
وتحصنوا بالمكرمات	من المعايب والمثالب
فاقوا البرية مثلاً	فاقت على الثرب الكواكب
لا تحسبوا أنني جهل	الحكم في سنن الجدائب
فلها شروط كل شتر	ط شائع في الناس دائب
طوراً تكون بسكر	في اللوز تحت الدهن راسب
زهراء قد ستر الرجا	ج شعاعها من كل جانب
والطيب يفتشى سيرها	بين الأبايد والأقارب
والرربة الوسطى يقد	مها تبابعة وحاجب
مثل الخروف وجامه ال	حلواء تأتي في العواقب
وأقل ما تأتي إذا	حضرث بعصيان أطايب
إلا جذبتنا فقد	جاءت مخالفة المذاهب

★ ★ ★

لم نتخذ في وقتها	شيئاً سوى الأشنان صاحب
فكلوا فليس بحازم	من باع موجوداً بغائب
فلنا حديث باطن	لم تعلموه من الغرائب

ثم غطيت الجلام ، وقلت للغلام : ويحك ! أكمل هذه الدعاية ، واجعل
الجلام موضع الجودابة .

فلما كشف ما حجب ، وقرىء ما كتب ، وفهم القوم القريض ، وما فيه
من التصريح والتعريض ، استفزهم الضحك والطرب ، واستهزهم العجب
والعجب ، واستعادوا السطل واستجأوا الأكل باسترسال وبشر صراح ،
وبشاشة الإرتياح للأرواح .

فلما أخذوا من الطعام حد الكفاية ، وأمد النهاية ، وامتلا جناني بهم

(١) التراث الصلر .

مُسْرَةً ، وإنساني بهم قُرَّةً ، قالوا . هاتِ الأَشْنَادَ الذي انفردتُ به الجُودَابَةُ
صَاحِبًا ، وإن ٠ يكن لها مناسِبًا

فَمَا هُوَ : إِلَّا أَنْ غَسَلُوا أَيْدِيَهُمْ مِنْ أَثَرِ الزُّهْمِ (١) ، حتَّى بَادَرُوا إِلَى الْقِرْطَاسِ
وَالْقَلَمِ وَاسْتَدْرَكُوا مَا فَاتَ ، مِنْ إِثْبَاتِ الْآيَاتِ ، وَكَرَرُوا لَفْظَهَا ، حتَّى اتَّقَنُوا
حِفْظَهَا .

ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى حَدِيثِ أَعْذَبِ مَنْ ضَمَّ الْخُلْسَ . وَلَثِمَ النَّفْسَ . فَلَمْ نَشْعُرْ إِلَّا
وَذُكَاءً قَدْ وَدَّعْتُ الْأَفْقَ ، وَتَقَنَّعْتُ بِوَرْدِي الشُّفْقِ ، وَتَصَرَّفَ النَّهَارُ ،
وَانصَرَفَ الزَّوَارُ »

★ ★ ★

(١) الزُّهْمُ : الدُّهُنُ .

ابن مكنسة (أبو طاهر إسماعيل بن محمد (ت ٥٠٠ هـ)

شاعر مصرى سكندرى عاش فى النصف الثانى للقرن الخامس الهجرى فى ظل خلافة المستنصر ، وتبخل المصادر بأخباره ، فقد ظلم فى حياته شاعراً ، فلم يبلغ ما يستحق لأن الأفضل الجمالى الوزير الخطير غضب عليه واقضاه عن جنباه وظلم ميتاً لأن بعض ترجمته ضاع . وذكر نتفا من حياته وشعره بعض من اتصلوا به أو نقلوا عنه ترجم له . فمن اتصل به فى حياته وجالسه وأنشده شعره ، فنقل عنه الكاتب الأديب الشاعر المصرى على بن منجب الصيرفى كاتب الأفضل الجمالى ، فقد ذكر بعضاً من أخباره ، وأبياتاً من شعره فى الأفضليات^(١) .

وأمية ابن أبى الصلت فى الرسالة المصرية^(٢) ، كما نقل عماد الدين فى الحريدة عن أمية ، وعن كتاب جنان الجنان المفقود لابن الزبير وكتاب الحديقة لابن أبى الصلت^(٣) ، ونقل عنهما ابن شاعر فى فوات الوفيات^(٤) ، وما يمكن معرفته عن الشاعر لا يزيد على أنه ولد وعاش جانباً من حياته بالإسكندرية والتقى فيها بجماعة من العلماء والأدباء والشعراء ، ثم انتقل إلى القسطنطينية ، فاتصل ببعض أعيان المصريين ومدح أحدهم من كبار النصارى ورثاه وهو الخطير جد ابن ممتا .

قال ابن أبى الصلت : ومن شعراء مصر المشهورين أبو الطاهر إسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة وهو شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف ، مفتن فى وشى جد القريض وهزله ، وضارب بسهم فى رقيقه ونزله .

قال : وكان فى ريعان شببته وعنفوان حدائته يعشق غلاماً من أبناء عسكرية المصريين يدعى عز الدولة فائق ، وهو الآن فى عصر المستعلى والأمر

(١) راجع الأفضليات بتحقيق وليد قصاب طبع دمشق صفحات ٢٤ / ٦٩ ، ٧٠ ، ١٨٠ ، ٢٣٤ ، ٢٧٩ ، ٣١٠ .

(٢) ص ٤٣ وما بعدها طبع ضمن مجموعة رسائل بتحقيق عبد السلام هارون .

(٣) الحريدة القسم المصرى ٢ / ٢٠٣ بتحقيق د . أحمد أمين وشوق ضيف .

(٤) فوات الوفيات ٢١١ بتحقيق د . إحسان عباس ونشر بيروت .

في النصف الثاني من القرن الخامس من رجال دولتها المعدودين ، وأكابرها المتقدمين . قال أمية ولم يزل مقيماً على عشقه له ، وغرامه به إلى أن محاسنه الشعر ، وغير معالمه الدهر . ولم يزل معز الدولة هذا متعهداً له محسناً إليه ، مشتملاً عليه إلى أن فرق الدهر بينهما .

قال : وكان في أيام أمير الجيوش بدر الجمالي منقطعاً إلى عامل من النصارى يعرف بأبي مليح ، وأكثر أشعاره فيه ، فلما انتقل الأمر إلى الأفضل بتولية الوزارة خلفاً لأبيه . تعرض لامتناعه ، فلم يقبله ، ولم يقبل عليه وكان سبب حرمانه ما سبق من مدحه لأبي مليح ، ومراثيه له ميتاً ، ولا سيما قوله :

طُويْتُ سماءَ المكرماً بَيت ، وكُورَتْ شمسُ المديحِ
ما كان بالنكيرِ الدنـ ——— سي من الرجال ، ولا الشَّحِيحِ
كفرَ النصارى بعدما عَقَدُوا به دينَ المسيخِ

فلما إنصرف عنه الأفضل ، كفله عز الدولة فائق ، وقام بحاله إلى أن مات . ويذكر العماد أن ابن مكنسة كتب إلى الأفضل يقول :

مثل بمصرَ وأنت ملكٌ يقالُ ذا شاعرٌ فقيرُ
عطاؤك الشمسُ ليس يخفى وإنما حظِّي الضَّيرُ

وذكر العماد أنه نقل عن رجل التقى به في شيراز سنة خمس وخمسين وخمسمائة من أشراف مصر يقال له فخر العرب أحمد بن حيدرة الحسني الزيدي المدني الأصل المصري المولد ، كان يرتاض الشعر وله شعر حسن كما يقول ، فأخبره عن ابن مكنسة قائلاً أنه كان يلتقى به بالفسطاط بمصر قال : وكنت جالساً معه على دكان أبي عبد الله الكتبي بمصر ، فمر بنا غلام في ثوب أزرق ، فقال ابن مكنسة فيه بديهاً :

مرَّ بنا في ثوبهِ الأزرقِ كبدرٍ تمَّ لاح في المشرقِ
لا باركَ الرحمنُ فيمن رأى حسنَ عِذارِيهِ ولم يعشَقِ

ويبدو من حديث ابن أبي الصلت عنه واختياره كثيراً من شعره ، أن صلة ما عقدت بينهما في أثناء وجود أمية بمصر أول مره ، وظلت هذه العلاقة قوية

حتى عاد أمية مرة ثانية إلى مصر فتلقيه ابن مكنسة مهتأ بأبيات بعد عود الأول من المهديّة هي (١).

وما طائرٌ قصَّ الزمانُ جناحهُ وأعدَمَه وكرأ ، وأفقده إلفا
تذكرُ فرحاً بين أنفانٍ بانيه خوافي الخوافي ما يطرنُ به ضعفا
إذا التحفَ الظلماءُ ناجى همومهُ بترجيع نوح كاد من دقة يخفى
بأشفق منى مذ أطاحت بك النوى هوائية مائية تسبق الطرفا
تولت وفيها منك ما لو أقيسه بما هي فيه كان في فضله أوفى

ومعالي الأبيات تشير إلى قوة وحرارة العلاقة بين الشعارين .

وكان على صلة بعلامة الإسكندرية الإمام الحافظ السلفي ، ولعل ذلك كان في آخر القرن الخامس وأول السادس ، وهو ما يعنى أن تلك الصلة لم تحدث في بواكير حياته بالإسكندرية ، فالحافظ لم يكن هناك آنذاك .

وصلة ابن مكنسة بالحافظ ، تجمعها بالشاعر السكندري الآخر في هذا العصر وهو ظافر الحداد ، وقد تعاصر الشاعران بالإسكندرية ومصر ، وربما التقيا بالفسطاط ، أو جمعتهما معا مجالس الأدباء ، فقد تحدث على بن منجب الصيرفي عن كليهما في الأفضليات .

ويعجب ابن منجب بابن مكنسة وينقل بعض شعره في كتابه المذكور . ويبدو مما جاء في بعض شعره أنه سافر إلى الشام ، مصاحباً لصاحبه من قادة المعسكر وأنه أوفى على الخمسين من العمر .

ومما وقع إلينا من شعره في الكتب التي أشرنا إليها قليل نستطيع أن نلقى عليه نظرة عامة ، ليست فاحصة ولا أخيرة ، وإنما هي مجرد ملامح تراءت لنا من خلال تلك المقطعات والأبيات المفرقة ، ولم نعثر بينها على قصيدة مكتملة .

ومعظم شعره الذي اختاره أمية ، ونقل عنه العماد يدور في الغزل بنوعيه ، وفي الخمر والشراب ، وبعضه في موضوعات تتصل بالمدح والإخوانيات ، والهجاء ، وروياً أبياتاً في الوصف ، وبعض شئونه الخاصة ، كأبياته التي قالها في منزله الذي ضاق به ، وبعض أبيات في التحامق والعبث .

(١) الخريدة ٢ / ٢١٥ .

وشعره الغزلى قريب المعانى معتادها ، تتردد فيه بعض المعانى التقليدية ،
فيحتذى شعر من سبقه ، ويشير العماد إلى مأخذه منهم .

قال العماد (١) : وله من قصيدة :

وعسكى أبداً جيشما تلقاهُ يلقاك بكلّ السّلاح
حاجبة قوسٍ وأجفائه نبّل، وعطفاهُ تثنّى الرّماح
راح وفعل الرّاح فيه كما يفعل بالعُصن نسيم الرّياح

أغار في هذا البيت على خالد الكاتب في قوله :

رأث منه عيني منظرين كما رأث من الشمس والبدر المنير على الأرض
عشية حيائي بورٍ كأنه تُحدودُ أضيفت بعضهنّ إلى بعض
ونالني كأساً كأنّ مزاجها دُموعى لمّا صدعن مُقلتي غمضي
وراح وفعل الرّاح في حركاته كفعل نسيم الرّيح في العُصن الغضّ

وله من أبيات يمزجُ معانى الخمر والغزل (٢) :

يا من صفا ماء النعيم بوجهه كم عشية كدرتها بصفائه
وزجاجة قابلتها فتبسمت عن ثغره ورُضايه وسنايه
مُزجت فلانت مثلما مُزجت بها أخلاقه، فأطاع بعد إبايه
مازلت أرشفها ويغضب ريقه لما جعلت الخمر من نظرائه

ويقول في الطيف :

بنفسي خيال زار وهو قريب أحقاً عليه في المتام رقيب
سرى وغدير الليل طام جمامه وللشّهيب فيه طفوة ورُسوب
وقد أعجلته للصباح التفاتة فلم تلك إلا خفقة وهبوب
ولولاكم لم أرض أن تستقرّ لي زخارف حلّم صدقهنّ كدوب
وكم لامة أيقظتم نفسي بها لها بين أحناء الضّلوع ندوب
تجاوز فيها بين هام وجاجم لعيني وقلبي جذول ولهب

ومنها :

(١) خريدة القصر ٢ / ٢٠٦ .

(٢) الخريدة ٢ / ٢٠٧ .

أَمَسْتُكُمْ رِيحُ الصَّبَا، إِنَّ نَشْرَهَا
وَيَشْفِي غَلِيلَ أَنْ تَمُرَّ مَرِيضَةٌ
إِذَا هَبَّ مِنْ بَلْقَائِكُمْ لِيَطِيبُ
وَبُرْدُ غَلِيلِي بِالْعَلِيلِ عَجِيبُ
ومن غزله الرقيق لفظاً ومعنى ، وإن أجرى فيه معاني القدماء بتصرف في
الصياغة قوله : (١)

مَدَى صَبْرِي وَإِنْ وَصَلُوا قَصِيرُ
وَفِي أَسْرِ الْغَرَامِ إِذَا اسْتَقَلُّوا
وَأَنْجُمُ لَيْلٍ شَوْقٌ مَا تَعُورُ
وَلَكِنْ لِحَظَةِ أَسَدٍ هَاصُورُ
وَهَلْ سَوْدُ الْعَيُونِ سَوَى أَسْوَدِ
وَقَفْنَا وَالْهَوَادِجُ مَشْمَسَاتُ
وَإِذَا أَذْكَى لَطَى الْأَشْوَاقِ كَيْرُ
وَأَنْجُمُ لَيْلٍ شَوْقٌ مَا تَعُورُ
وَلَكِنْ لِحَظَةِ أَسَدٍ هَاصُورُ
وَهَلْ سَوْدُ الْعَيُونِ سَوَى أَسْوَدِ
وَقَفْنَا وَالْهَوَادِجُ مَشْمَسَاتُ
وَإِذَا أَذْكَى لَطَى الْأَشْوَاقِ كَيْرُ

ففى هذه الآيات تنجلي بعض نماذج صناعته الشعرية ، فهو كما أشرت يعيد
صياغة بعض المعاني السابقة ، والجارية في الغزل ، فيأخذ معنى قتل العيون
الذى صاغه جرير في بيته المعروف :

إِن الْعَيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوْرٌ قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا (٢)
فِيصَوِّغُهُ صِيَاعَةً أَقْلَ لَفْظًا فَيَقُولُ : (وَلَكِنْ لِحَظَةِ أَسَدٍ هَاصُورٌ) وَيَتِمُّهُ بِقَوْلِهِ :
وَهَلْ سَوْدُ الْعَيُونِ سَوَى أَسْوَدِ تَأْمَلُ كَيْفَ يَفْتَرِسُ الْقُتُورُ

ويوظف المعنى للملاءمة الصنعة اللفظية من الجناس والطباق في هذا البيت
السابق ، وفي قوله في البيتين اللذين يليانه ، وهو مغرى بصنعة الجناس
والطباق ، لكنه يأتي بهما في غير إسراف ينقل الكلام .

وكغيره من شعراء العصر والمصر يستخدم قاموس الشعر من اللفظ القديم ،
كما جاء في قوله (٣) :

قُلْ لِأَيَّامِنَا الَّتِي قَدْ تَقَضَّتْ
أُتْرَى الْبَانُ فِي رِيَاضِكَ يَنَادُ
بِالْغَضَا هَلْ لَنَا إِلَيْكَ سَبِيلُ
إِذَا مَسَّهُ النَّسِيمُ الْعَلِيلُ
أَمْ تَرَى الشَّائِنَ الْقَرِيرَ لَهُ يَبْشُرُ كَثِيرُكَ مَسْرُحٌ وَمَقِيلُ

(١) الخريدة ٢ / ٢٠٧ .

(٢) خريدة ٢ / ٢٠٩ .

(٣) المصدر نفسه ص ٢١١ .

أَسْمَالُ تَمْسُهَا أَمَّ شَمُولُ
إِنَّ عُمَرَ الْبِكَاءِ فَيْكَ طَوِيلُ
هُ، فَغَيْرُ الْجَمِيلِ صَبْرٌ جَمِيلُ

سَلْ بَوَغْسَائِهَا الْخَمَائِلُ تُجَلَى
إِنْ يَكُنْ عَنْكَ عَزٌّ صَبْرٌ فَصَبْرًا
وَإِذَا بَانَ عَنْكَ مِنْ كُنْتَ تَهْوَا
ومما قال في جواب رسالة :

فناهيك من جوهر ملتقط
من الخط مطلولة بالنقط

نشرت كتابك عند الورود
ولم أر من قبله روضة
وقال في المعنى كذلك :

وَعَرَسَ الطَّرْفُ فِيهَا أَيْ تَعْرِيسُ
أَنْ الْبَسَاتِينَ تُهْدَى فِي الْقَرَاتِيسِ

أَهْلًا بِهَا جَنَّةُ أَهْدَتْ ثَمَارَ نُهَى
مَا دَارَ فِي تَحْلِيدِي لَوْلَا كِتَابُكُمْ

ومن شعره المتعلق بأحواله وحياته ما قاله حين دُعي للسفر إلى الشام مع
أحد القواد من أمراء العسكر لقتال الغز (الأكراد) . قال (١) :

فَانْقَضَى مِنْ مَلَامَتِي أَوْ فَرِيدِي
قَمْتُ فِيهِ لَهُ مَقَامُ الْقَبِيدِي
وَدَثْتُ غَايَتِي ، وَرَثْتُ جَدِيدِي
الْأَرَى نَارَ حَرِيهَا فِي وَقُودِ
وَأَرْضٍ وَحُوشِهَا مِنْ أَسُودِ
قِيلَ هَلَا أَمْتَلَاتِ؟ هَلْ مِنْ مَزِيدِ
آخِرَ النَّاسِ فِي لَفِيفِ الْحُشُودِ
مُعْضَلَاتٍ، مِنْ الْحَوَادِثِ سُودِ
سُ، فَلَا تُنْسَ، فَهَوِيْتُ الْقَصِيدِ
حِينَ يَلُوكُ لَهُ بَرِيقُ الْحَدِيدِ
حِينَ لَا يَبْقَى لِسَانِي وَلَا يُثْنِي
إِنْ رَأَيْتُ رَأْيِي لَغَيْرِ رَأْيِ سَدِيدِ
بَدُخُولِي جَهَنَّمَ فِي خُلُودِ
فَأَقْلَنِي عِثَارَهَا وَابَقَ لِلْحَمْدِ

غَيْرُ عَاصِرٍ عَلَيْكَ تَقْوِيمُ عُودِي
قُلْ لِمَوْلَايَ إِذَا دَعَانِي لِأَمْرِ
ضَعُفْتُ جَيْلَتِي ، وَقُلْ غَنَائِي
أَنَا مَالِي وَلِلشَّامِ وَإِنِّي
بَلَدُ جَنَّتِهِ عَفَارِيَةُ الْعُرُ
وَالْجَفَارُ الَّتِي تَقُولُ إِذَا مَا
وَكَاَنَّ بِي عَلَى بَعِيرٍ ثَرَانِي
أَسُودُ الْوَجْهِ نَاطِرًا فِي أُمُورِ
وَإِذَا قِيلَ فِي غَدٍ يَلْتَقِي النَّاسُ
حِينَ لَا نَاطِرِي تَرَاهُ حَدِيدًا
حِينَ لَا يَبْقَى لِسَانِي وَلَا يُثْنِي
إِنْ رَأَيْتُ رَأْيِي إِذَا تَسَدَّدَ نَحْوِي
وَإِذَا مَا قُتِلْتُ كُنْتُ خَلِيقًا
فَأَقْلَنِي عِثَارَهَا وَابَقَ لِلْحَمْدِ

(١) الرسالة المصرية لأمية بن أبي الصلت ص ٥٠ - ٥١ .

ويبدو من أبياته هلعه من الذهاب للحرب ، فهذه ليست حرفته ، إنما حرفته الكلمة والقلم ، ويخشى رهب السيف ، ورهج المعارك ، على أن كلامه في هذه الأبيات يكشف عن روح مرح وفكاهة ، ويبدو أن الشاعر كان على قدر من الدعاية ، يكشف عنها أحيانا في أبيات مفردة تغلت منه في بعض القصائد الجادة ، أو قد يخصها بأبيات وقصائد ذوات عدد . كقوله يصف قبح منزله وضيقه^(١) :

لَيْ يَيْتْ كَأَنَّهُ يَيْتْ شِعْرِي	لَا بِنَ حَجَّاجٍ مِنْ قَصِيدِ سَخِيفِ
ضَايِقْتَنِي بَنَاتُ وَرْدَانَ حَتَّى	أَنَا فِيهِ كَفَّارَةٌ فِي كَيْفِ
أَيْنَ لِلْعَنَكَبُوتِ يَيْتْ ضَعِيفِ	مَثْلُهُ ، وَهُوَ مَثَلُ عَقْلِي الضَّعِيفِ
وَإِذَا هَبَّ فِيهِ رِيحُ السَّرَاوِيلِ	فَسَلَّمَ عَلَى اللَّحَى وَالْأُتُوفِ
بُقْعَةٌ صَدَّ مَطْلَعُ الشَّمْسِ عَنْهَا	فَأَنَا مُذْ سَكَنْتُهَا فِي الْكُسُوفِ
وَهُوَ لَوْ كَانَ بَيْنَ حَجِّي وَنُسْكِي	صَدَّ فِي بُغْضِهِ عَنِ التَّطْوِيفِ
أَنْتَ وَسَعَتْ يَيْتَ مَالِي فَوْسَعَتْ	مَنْزِلُ فَهُوَ مَنْزِلُ للضُّيُوفِ
وَأَجْرُنِي مِنَ الضَّنَى وَأَجْرُنِي مِنْ	كَ فِي حُسْنِ خُلُقِكَ الْمَأْلُوفِ

وحين نقرأ الأبيات نحسُّ بنفس ابن الرومي ، ومحاولة لتأثر ابن حجاج^(٢) ، وهو يأخذ بنهجه في بعض شعره الذي يتحامل فيه . كقوله :

أَنَا الَّذِي حَدَّثْتُكُمْ	عَنْهُ أَبُو الشَّمَقْمَقِ
وَقَالَ عَنِّي إِيْنِي	كَنْتُ نَدِيمَ الْمُتَّقِي
وَكُنْتُ كُنْتُ كُنْتُ	مِنْ رُمَاةِ الْبُنْدُقِ
حَتَّى مَتَى أَبْقَى كَذَا	تَيْسًا طَوِيلَ الْعُنُقِ
بِلَحِيَةٍ مُسْبَلَةٍ	وَشَارِبٍ مُحَلَّقِ
يَا لَيْتَهَا قَدْ خُلِقْتُ	مِنْ وَجْهِ شَيْخٍ تَخْلَقِ

وقال في أخرى على الطريقة نفسها^(٣) :

عَشْتُ خَمْسِينَ بَلْ تَزِيدُ رَقِيعًا كَمَا تَرَى

(١) الخريدة ٢ / ٢١١ ، وابن حجاج شاعر بغدادى من القرن الرابع كان يتحامل ومكثر من السخف في شعره .

(٢) ابن حجاج شاعر بغدادى من القرن الرابع كان يتحامل ومكثر من السخف في شعره .

(٣) الخريدة ٢ / ٢١٤ .

وَكَذَا الْمَلَحْ سَكْرًا	أَحْسَبُ الْمَقْلَ بِنْدَقًا
شَيْءٌ مَسْدُورًا	وَأُظُنُّ الطَّوِيلَ مِنْ كُلِّ
تَ ، وَعَقْلِي إِلَى وَرَا	قَدْ كَبُرَ بِرِيزِ بَرِّ
أَرَاهُ تَغْيِيرًا	عَجَبًا كَيْفَ كُلِّ شَيْءٍ
كُلِّ إِلَّا مَقْشَرًا	لَا أَرَى الْبَيْضَ صَارِيؤُ
رَ ، زَجَاجَ تَكْسَرًا	وَإِذَا دَقَّ بِالْحَجَا

وهذا نهج من الشعر درج عليه جماعة من الشعراء قديماً وفي عصر الشاعر ، أما قديماً ، فأبو الشمقمق وأبو دلامة ، وابن الرومي ، وابن سكرة وابن الحجاج ، وأما في عصر الشاعر أو قبله بقليل فالرقعمق ، والواساني . وظل هذا النهج بعد ذلك ، فأخذ به بعض شعراء المصريين في القرون التالية ، مثل ابن دانيال والجزار ونقف مع الشاعر وقفةً في أبيات له يصف رمداً طال بعينيه ، فقال :

وما لليلي ما شقه الفلق	ما لنهارى كآله الغسق
تغرق في مائها وتغرق	وما لعيني أرى بها عجباً
وتستغيث الجفون والحق	ولي طيب تشكو مروءة
مر بعيني وكحل الأرق	شيفته تطرد الشفاء إذا
وقائدي العصي والحق	وإن تمادى على زرتكم
جفون عيني كأنها الشفق	لم يبق من صبغة الرواء سيوى
لابد منها وتركها حرق	ولي من الداء ما حكايته
هذا، وهذاك ليس ينطلي	طبعي ووجه البخيل في قرن
قد نفذ العين فيك والورث	يا عين حثام أنت باكية

وللأدباء والنقاد المعاصرين واللاحقين آراء في شعر ابن مكنسة بين مقدم ومقرظ ومنتقد أو مؤاخذ . وأولهم ممن أعجب بشعره صديقه الشاعر المغربي أمية ابن أبي الصلت ، وقد أورد مختارات كما قلنا من شعره ، واختاره ، ونوه به من بين شعراء عصره ممن يقيم بالفسطاط في آخريات القرن الخامس كذلك نقل ابن الصيرفي على بن منجب بعضاً من شعره في الأفضليات مختاراً ، أو معجباً

بعض معانيه ، أو سرعة بديته . فمما أعجب به قال^(١) : وعلى ذكر العين والحد فقد أبدع ابن مكنسة في قوله :

لم أرَ قبلَ شعرِه ووجهِه ليلاً على صُبحِ نهارِ عُسُسا
والسكر في وجنتِه وطرفِه يفتحُ وردًا ويغضُّ نرجسًا

على أن من تشبيهاته التي ابتكرها قوله من أبيات في الخمر :
ما لاحَ وجهُك يُجَتَلَى في مجلس إلاَّ وجلَّى عنه وجهُا أربدا
يكرُّ إذا إشرعتْ أخذتْ شعاعها يبدى، وقلتُ لأهلها هذا الردى
وقال في تجديده للمعاني^(٢) :

« على أن ابن مكنسة ذكر الحجر الأسود غير مرصوف ، فلم يشكل المراد فيه ، وسبب ذلك ما قرنه به رحمه إليه ، فقال من قصيدة أولها :
لمثل ذا اليوم كان السعد ينتظر

منها :

كأنك البيتُ قد طافَ الحجيحُ به وفي ركايبك حلَّ الركنُ والحجرُ
وعن بديته قال ابن الصيرفي^(٣) « وحدثني ابن مكنسة قال : حضرت جنازة ألى الطائي المقرئ فرأيت من إعظام الناس له — وهو محمولٌ على نعشه — ما لم يكن له منهم في حياته فقلت بديها :

أرى ولد الطائي أصبح يومة يُعظَّمُ الأتوام أكثر من أمس
وقد أكرموه في الممات تراهم يظنُّون أن الجسمَ أركى من النفس

ومما وصلنا من شعر ابن مكنسة يمكننا القول بأنه شعر متوسط الشاعرية ، يمزج فيه بين طريقة القدماء وطريقة المحدثين ، وتبدو في ألفاظه ومعانيه سمات مصرية ، كالإيل إلى النكتة ، وروح الفكاهة ، والتورية في القول ، ورقة اللفظ وعذوبة البناء مع صياغات ومفردات عامية .

★ ★ ★

(١) الأفضليات ١٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٠ .

الفصل الخامس

شعراء وافدون من المشرق

(في القرن الخامس)

- ١- التهامي: أبو الحسن علي بن محمد بن فهد (ت ٤١٦ سنة هـ)
- ٢- أبو الفتيان ابن حيوس (ت ٤٧٣ هـ)
- ٣- داعي الدعاة (ت سنة ٥٤٧ هـ)

—١—

(التهامي) أبو الحسن علي بن محمد بن فهد
(ت ٤١٦ هـ)

يقول الصفدي^(١) : مولده ومنشؤه باليمن وهو منسوب إلى تهامة ، وتهامة هي الجزء الساحلي الجنوبي المخاضى لشاطئ البحر الأحمر من ناحية الحجاز ويفصل بين مرتفعات الحجاز والبحر ، وهو سهل زراعى في الجنوب منه ، ويقع شمالى اليمن ، وتصب إليه وديان سلسلة جبال السراة المتجهة إلى البحر غرباً . ومعظم سكانه من أصل يمنية ، واختلطت بهم أصول غير يمنية من غرب الشمال ، وأشهر قبائله في العصر الجاهلى وصدر الإسلام بطون من أزد شنوءة .

وأهم مدن تهامة نجران وجيزان ، ولسنا على يقين من أصل التهامي ، أهو من إحدى القبائل اليمنية ، أم أنه ينتمى إلى قبيلة مضرية تسكن بعض أطراف تهامة .

مولده :

وقد نسب النبي ﷺ إلى تهامة أيضاً مع أنه من مكة . على أية حال ، فإن هذه الإشارة إلى مولده ونشأته باليمن لم ترد إلا عند الصفدي ، والمراجع الأخرى تنسبه إلى الحجاز أو تهامة .

وطبيعى أن ينتقل إلى الحجاز ، ويعيش بعض الوقت في مدينتيه الكبيرتين مكة والمدينة حيث الأشراف العلويون من الحسينيين والحسينيين ، وكانوا يولون أمر الحجاز في أيام الدولة الفاطمية وقبلها ، وكانوا على جانب من الثروة والجاه .

واتصل التهامي في شبابه ببعض ممن كانت لهم الصدارة ، وإمارة الحجاز أو إمارة إحدى المدينتين .

وحياته في تهامة والحجاز تركت آثارها في شعره ، فهو يحن أبداً إلى الحجاز وأهله ، ويتذكر حبيبته الحجازية التي يرتحل إليه طيفها أينما كان في غربته . ويتذكر تهامة في مديحه لأحد رجالات بني عامر في الجزيرة من أرض العراق أو الشام وهو أبو الفتح المظفر بن عبد الجبار فيقول :

(١) الرواق ج ٢٢ ص ١١٦ .

لا يُطِمِعَنَّكَ نور كوكب عامر
حتى سيوف رجاله وهى القضا
فوراء قرب سناه بعد سنائه
أشوى جراحاً من عيون نسائه
لله عزم من وراء تهامة
نادى فثرت ملياً لندائه

ولعلنا نزعم أن الشاعر قال هذه القصيدة في بواكير رحلاته من تهامة والحجاز إلى الشام ليتصل برجالات العصر من شيوخ ورؤساء القبائل العربية المستقرة في بادية الشام وبلاد الجزيرة الفراتية ، في ديار بكر وديار ربيعة ، ونعلم من أحداث تاريخ العصر أن بعض بطون قبائل مضر وعامر على وجه الخصوص كانت تتنافس فيما بينها ، وتنافس غيرها من قبائل نجد كأسد وطى على الزعامة والنفوذ ، والفوز بقسط وافر من الأرض في خلافة العباسيين التي توزعتها الخلافات والنزعات منذ القرن الرابع ، والخلافات بين الدليم والأتراك خاصة من أجل السيطرة على مقدرات الدولة الإسلامية .

وقد أذكى هذه الخلافات ذلك التنافس المرير بين الخلافتين العباسية في بغداد والفاطمية في القاهرة .

ومهما يكن من الأمر فإن الشاعر في هذه المدحة قد ذكر هذا الممدوح العامري وتقرب إليه بنجد ، لأنه موطن قبيلة الممدوح ، ومنازلها الأولى قبل النزوح إلى أرض العراق والشام :

أهدى لنا في النوم نجداً كَلَّهُ
يسوره وغصونه وظبائه
ويجد الفرصة سانحة وهو يمدح عامراً أن يلمح إلى ما أشتُهرت به من ملاحه
نسائهم وأن عيونهن تجرح قلوب العشاق أكثر من سيوف رجالهم .
حتى سيوف رجاله وهى القضا
أشوى جراحاً من عيون نسائه
وإن كان وقعها أشد وأنكى .

وربما كان الشاعر قد أقام بالبحرين رديحاً من الزمن قبل مجيئه إلى الشام واتصاله بآل المفرج بالرملة وبعض زعماء القبائل في البادية ، ونعلم العلاقة بين قرامطة البحرين وقبائل الشام ، وآل المفرج خاصة ، فقد تعاون الجميع على حرب المعز لدين الله الفاطمي بعد مجيئه إلى مصر ، وحاصروا القاهرة ، لولا أن المعز استطاع بمكره وذهبه أن يفرق الحلفاء ويوهن عزمهم فبنتصر عليهم .

خرج التهامي من بلاده تهامة إذاً قاصداً الشام أو العراق ، ومنحدرًا إلى شاطئ الخليج يتجول هناك بين بعض الزعماء .

ويبدو أن الشاعر طوّف بأرض الجزيرة من العراق زمنًا ، ولم يظفر هناك بطائل فولى وجهه جهة المشرق لعله يلقي ما يريجي ، ويعلم آنذاك أن المشرق يحفل بمفاجآت ، بين الطامعين مختلفي الجنسيات من فرس وترك وعرب ، كل يحاول أن ينال من غنيمة الخلافة وأرضها بقدر ما يملك من قوة ومقدرة على التآمر والمناورة ، والتحالف مع القوى الغالبة .

ولعل الشاعر لم يظفر في هذه الرحلة المشرقية بما كان يرجوه ، فولى وجهه مرة أخرى شطر الشام يسعى في أرجائه ، وينتقل بين ربوعه وأصقاعه .

وحياة الشاعر غامضة لا تكاد تظفر منها بقبس يضيء لنا الطريق للتعرف على وقائعها لولا ما يمكننا استشعاره والاهتداء إليه من ثنايا شعره .

وسنحاول عن طريق الديوان أن نترسم خطاه ، ونقف على بعض من لقيهم من الأمراء ، والملوك والرؤساء في الجزيرة بتهامة والحجاز وبادية الشام وأرض الجزيرة بالعراق بديار ربيعة ، وديار بكر والموصل وميفارقين ونصيبين وأمد .

كما سنحاول تتبع خطاه بالشام وبلادها وثورها في دمشق وبيروت وطرابلس وصيدا وصور والرملة ، حتى ينتهي به المطاف إلى مصر والقاهرة فالسجن بخرانة البنود وموته بها مسموماً كما يُقال سنة ٤١٦ .

قال صاحب الدمية^(١): وحدثني محمد التجاني ، قال : حدثني أبو كامل تميم بن مفرج الطائي أن التهامي هذا كان في ابتداء أمره من السوق ثم انقطع إلى بني الجراح يمتدحهم ويستعين بهم .

ويشهد على أنه كان في أول أمره من السوق كما جاء في عبارة البخارزي قوله يمدح من اسمه الحميدى^(٢) .

(١) دمية القصر ١ / ١١٠ .

(٢) ديوانه ص ٤٠٨ .

ما أنت فاعله الغداة بشاعر
قد طاف في طلب العلا وادى القسرى
والى عمان وفارس ثم انتحى
وأقام في شيراز سبعة أشهر
رث الثياب مشعث القدمين
والأرض من عدن إلى السدنين
بالرى نحو جزيرة البحرين
وأثاب من كل بخف حنين
ولعل هذه الأبيات ترسم خط الرحلة منه في بادىء أمره قبل اتصاله بآل
المفرج إذا ما أخذنا في الاعتبار ترتيب الأماكن التي زارها في الأبيات وفق تعاقبها
الزمنى .

ويبدو من هذه الأبيات أنه لم يذكر الشام ، ولعل ذلك يوحي بأن ممدوحه
الذى لقيه بعد مجيئه من المشرق وأقامته في شيراز سبعة أشهر بلا جدوى ، كان
بأرض الشام قبل لقائه بآل المفرج .

ودعنا نفترض أن هذا الممدوح وهو الحميدى بن عباس هو أول ممدوح لقيه
بالشام ، وتتسم قصيدته فيه بروح بدوية غالبية ، وبخاصة في هذه المقدمة الطللية
التي يبدوها بقوله :

حَيْثُما من دمتى طَلَلين	عُطَلين مُوحشن مُقْفَرين
عَفَى عِراضَهُما على طول البلى	نَوَّ الرشا وبوارح الفرعين
ومَحَاهُما من آل مَحَوَّة والصَّبَا	أذِيال غاديتين رائحتين

وصل التهامي إذا إلى الشام ولا ندرى متى كان وصوله ولا مدى استقراره في
بلاده وكل ما نعلمه محققاً أو قريباً من التحقق أنه كان بالرملة عند آل الجراح في
سنوات فرار أئى القاسم الحسين بن على الوزير المغرنى إليها في حدود سنة
٣٩٠ هـ وجاء في أخباره التي ذكرها الصفدى أنه تولى بها الخطابة وتزوج .

وينفرد الصفدى^(١) بقوله إن مولده كان باليمن ، ولعل ذلك يفسر لنا ذكر
عدن في أبياته المتقدمة ، قال الصفدى : مولده ومنشؤه باليمن ، ثم قال : وطراً
على الشام وسافر منها إلى العراق والجليل ، ولقى الصاحب بن عباد وقرأ عليه ،
وانتحل مذهب الاعتزال ، وأقام ببغداد وروى بها شعره ثم عاد إلى الشام وتنقل في
بلادها وتقلد الخطابة بالرملة ، وتزوج بها .

(١) الواي بالوفيات ج ٢٢ ص ١١٥ ترجمة رقم ٦٧ .

وفى خبر الصفدى خلاف مع كلام التهامى فى أبياته واتفاق ، فأما الخلاف فإنه ذكر أن أول خروجه من بلاده كان إلى الشام ثم اتجه مشرقاً حتى شيراز ولعله لقي بها الصاحب ، وأما الاتفاق فإنه ذكر شيراز وبعض بلاد العراق وإن لم يُحدد بغداد التى نص عليها الصفدى ، وقال إنه روى بها شعره .

وقد يفيدنا خبر الصفدى عن وفود التهامى إلى شيراز ولقائه للصاحب وقراءته عليه وانتحال مذهب الاعتزال ، فربما تأثر به ، وإن لم يرد فى الديوان ما يشير إلى مديحه للصاحب ولا ذكره تصريحاً أو تلميحاً .

وإذا صح خبر الصفدى عن لقاء الشاعر للصاحب فإنما يكون ذلك قبل سنة ٣٩٠ هـ ولنفترض : أنه كان بين سنتى ٣٨٠ ، ٣٨٥ هـ إذ توفى الصاحب سنة ٣٨٥ هـ ، ونفترض كذلك أن التهامى غادر شيراز بعد وفاة الصاحب ، فيكون قد تجول فى بلاد العراق والشام نحو من سنتين ، ربما قضاهما كلها قبل مجيئه إلى الرملة أو لعله قضى أربعاً منها متجولاً ، وقضى عاماً أو بعض العام أو ما يزيد على ذلك فى الرملة قبل مجيء أبى القاسم إليها سنة ٤٠٠ هـ .

وفى سنة ٤٠٠ هـ تحدث الفتنة التى شارك فيها الوزير المغربى وربما تورط التهامى الشاعر بحكم علاقته بآل مفرج بن الجراح وتعرفه فى صُحبتهم إلى الوزير المغربى .

يقول التويرى^(١) فى أحداث سنة ٤٠٠ هـ : « وفيها سَخِطَ الحاكمُ على وزيره ابن المغربى ، وقتله وقتل أخاه وابنه — يقصد علياً بن الحسين — ومحمد بن الحسين ، وهرب ابنه الآخر — يعنى أباً القاسم الحسين بن على — إلى الشام » .

وقال^(٢) : « ثم حَسَنَ ابن المغربى لبني الجراح أن يخرجوا عن طاعة الحاكم ، فوافقوه على ذلك ، وقتلوا بارتكبن أحد الأمراء الحاكمية المقيم بالرملة ، ثم حَسَنَ لهم أن يقيموا أباً الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى خليفة ، وهو أمير الحرمين يومئذ ، وأن يحضروه من مكة فأجابوه إلى ذلك » .

(١) نهاية الأرب ٢٨ / ١٨٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٦ .

وندع مرحلة إقامة التهامي بالرملة مع آل المفرج إلى حين لنصحبه في رحلته
ببلاد الشام وقد ترددت على دمشق وطرابلس ، وأور ما نلاحظه في تلك الرحلة ،
تردده على جماعة من الأشراف العلويين سواء أكانوا حسنيين أو حسينيين .

وكان ممدوحه الشريف أبو عبد الله محمد بن الحسين العلوي قاضي دمشق
وخطيبها ، ونقيب الأشراف بها في مقدمتهم

ونفق من بين هؤلاء جميعا وقفة مع أحد ممدوحيه واسمه هبة الله الحسن بن
على بن حيدرة ، وكان من رجال الحاكم بالشام .

قال النويري^(١) : « فلما كان في شهر رجب سنة تسع وأربعمائة
(٤٠٩ هـ) ظهر رجل يقال له الحسن بن حيدرة الفرغاني الأنحرم يرى حلول
الإله في الحاكم ويدعو له إلى ذلك ، ويتكلم في إبطال النبوة ، ويتأول جميع ما
وردت به الشريعة ، فاستدعاه الحاكم ، وقد كثر تبعه ، وخلع عليه خلعا سنية ،
وحمله على فرس يسرجه ولجامه ، وركبه في مركبه ، وذلك ثلثي شهر رمضان منها ،
فبينما هو يسير في بعض الأيام تقدم إليه رجل من الكرخ على جسر طريق المقيسى
فألقاه عن فرسه ، ووالى الضرب عليه حتى قتله » . ونقرأ قول التهامي في ذلك
الرجل^(٢) :

أَذْهَبَتْ رَوْثُ مَاءِ الصُّبْحِ فِي الْعَدَلِ فَارِيعَ فَلَسْتَ بِمَعْصُومٍ مِنَ الزَّلَلِ
لِكُلِّ سَهْمٍ يُعَدُّ النَّاسُ سَابِقَةً رَدُّهُ عَنْكَ إِلَّا أَنَّهُمُ الْمَقِيلِ

حتى يقول :

فَدَأْحَكُمُ الْحَاكِمُ الْمَعْصُومُ دَوْلَتَهُ بِآلِ حَيْدَرَةٍ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ

وكان آل حيدرة من طرابلس الشام وله بمدح آخر منهم كان قاضي طرابلس
أيضا ، وتولى قضاء صور زمانا . يقول التهامي فيه^(٣) :

أَعْدَى نَدَى كَفَيْهِ صُورَ وَأَهْلَهَا وَالْبَذْرُ يَقْلِبُ طَبْعَ كُلِّ ظَلَامِ
وَلَوْ أَنَّ صُورًا جَنَّةً مَا اسْتَكْثَرَتْ وَأَيْبُكَ مِنْ غِلْمَانِهِ بَقْلَامِ

(١) نهاية الأرب ص ٢٨ / ١٩٧

(٢) ديوانه ص ٣١٦

(٣) ديوانه ص ٣٧٣

ويشير إلى أهل بلدهم طرابلس فيقول :

أَلْفَيْتُ مِنْهُمْ فِي طَرَابُلُسٍ نَدَى تَرَكَ الْكِرَامَ لَدَى غَيْرِ كِرَامٍ

وفي صور يمدح من يُدعى محمد بن سلامة الصوري ، والحسين بن عبد الواحد وفيه يقول ، ويذكر وقعة له مع بني كلاب بالشام (١) :

وَتَرَكْتُ أَعْيُنَهُمْ بِصُورٍ فِي الْوَعْيِ صُورًا ، وَقَدْ جَاخَ الْوَرَى مَا جَاخَا

كما يذكر حلب في هذه المناسبة فيقول :

شَاءَ الْمُهَيْمَنُ أَنْ تَصِيرَ مَشْرِقًا حَلَبًا فَيَقْضِي مَا جَرَى وَأَتَاخَا

ويذكر الروم فيقول :

أَتَى تَرُومُ الرُّومُ قَرْنِكَ بَعْدَمَا صَلَيْتُ بِحَرْبِكَ مُخْرِبًا مَلْحَاخَا
لَمْ يَزِمَ قَطَّ بَكَ الْإِمَامُ مُرَادَهُ إِلَّا جَلَوْتُ عَلَى الْفَلَاجِ فَلَاخَا

والحسين بن عبد الواحد هذا لم يذكر صراحة في مصادر التاريخ ولعله كان من رجال الحاکم كذلك . وعلاقته به كعلاقته بآل حيدرة ، تكشف عن ولاء للحاکم ورجاله ، وقد ذكر الشاعر الحاکم ولقبه الإمام ، وهذا يثير تساؤلات عن مدى ولاء التهامي للفاطميين ورجالهم ، وهل تقلبت هذه العلاقة بين الولاء والعداوة ، ومتى كان الولاء ، ومتى انتهى وبدأت العداوة ؟ . أكان الولاء قبل لقائه بالوزير المغربي ومؤامرة الرملة ضد الحاکم سنة ٤٠٠ هـ ؟ أغلب الظن أنه كان كذلك ، ولم يكشف ديوانه عن هجوم مباشر أو هجاء للفاطميين أو أحد من رجالهم ، بل ربما كان عكس ذلك صحيحا فقد كان على ولاء وعلاقة صداقة وألفه مع أكثر رجالهم بالشام والجزيرة الفراتية . وتكرار الحديث عن هزيمة بني كلاب على أيدي بعض رجال الحاکم وابنه الظاهر دلالة على هذا الولاء حتى قبيل دخوله مصر متسللاً ، أو مظاهرا .

وسأبقى الحديث عن ذلك في حينه . هكذا جاء التهامي آل المفرج وهو على ولاء للحاکم والفاطميين بمصر ولم يدر بخلفه أن يتآمر ضدهم ، وأقام بالرملة ما أقام ، وتزوج وتولى الخطابة ، ولا يكون ذلك إلا بموافقة الحاکم ثم آل المفرج لأنهم كانوا

(١) ديوانه ص ٧٨ .

يتولون الرملة بأمره قبل خروجهم عليه ، بتدبير من الوزير المغربي الحاقد الذى وجد في أطماع آل المفرج ، وطموح الشاعر مشجعا على الثورة والانتقام من الحاكم . ونعرضُ الآن لبعض شعره في آل المفرج ، نستشف منه موقفه منهم وموقفهم منه ، وموقفهم جميعا من الفاطميين .

ونرجح ذهاب التهامي إلى الرملة في أخريات عهد العزيز عثمان ، لأنه يعرض لحادث مناصرة آل المفرج للفاطميين ضد أفتكين أحد قادة الأتراك أعداء الفاطميين ، يقول :

نَصَرْتُ ابن النبي كما نصرْتُم أباهُ لقد حَدَوْتُ على مِثَالِ
يقصد أن بنى الجراح من طي وهم من عرب اليمن نصرُوا العزيز بالله الفاطمي
كُنْصَرَةِ الأنصار من عرب اليمن كذلك للنبي في الهجرة ويوم بدر .
وجدير بالذكر أن هذه المأثرة ظلت متوارثة في عرب اليمن القحطانية عبر
العصور واستغلها الشيعة والعلوية ، فانتصروا بالقبائل اليمنية على بعض المضربة ممن
ناصرُوا الأمرين والعباسيين .

ومدح ال مفرج كذلك بقوله في هذه المناسبة نفسها وهي قَهْرُ أفتكين ونُصرة
العزيز عثمان على عدوه التركي ، قائلا أنه بهذه النصرة علا نجم الدين ، يقول :

علا بك نجمُ الدين فاشتدَّ ناصِرُهُ ورَقَرَفَ بالتَّوفيقِ واليَمينِ طائِرُهُ
تسايرك العَلِيَاءُ والمجد مثلما يصاحبُ شخصاً ظِلَّهُ ويُسَيرُهُ

ولكن هذا التاريخ متقدم ، وهو يطرح تساؤلا هل كانت هذه القصيدة في
مرحلة سابقة على سفره إلى المشرق ، أم أنها قيلت في هذه المرحلة نفسها أعنى في
حدود سنوات من ٣٩٨ إلى ٤٠١ هـ .

والقصيدة على أية حال لا تكشف عن إقتدار شعري ، وكونه قالها في المفرج
بن دغفل ربّ هذه الأسرة الطائية تجعل احتمال قولها في مرحلة متقدمة من إقامته
بالرملة أمرا وارداً ، لأن أشهر أبناء المفرج وأكثرهم مشاركة في أحداث العصر
الحاكمي وهو حسان كان قد غلبَ على والده وإخوته في اتخاذ القرار والمبادرة ،
وكانت له اليد الطولى في أحداث المؤامرة المشهورة وانقلاب أوى الفتوح أمير
مكة ، ثم عودته مرة ثانية إلى طاعة الحاكم بأمر الله .

إلا أنه في قصيدة بائية في مدح المفرج بن دغفل يشير إلى طيء ومصر وإلى
نصرة الطائيين للإمام وهو العزيز أو الحاكم ، ضد التغلبيين وهم آل حمدان ،
وكانت بين الخليفين وبينهم وقائع بالشام للسيطرة على دمشق وحلب زنا .

يقول التهامي :

به طالت على مُضَرٍّ وَلَنْ تَقُومَ لها في الحربِ تغلبها الغلبُ

حتى يقول مشيرا إلى إمام الدين خليفة مصر الفاطمي :

يَسْرِي بهم نَحْوَ السَّراةِ وَقَدْ طَعَنُوا	وسادُوا، إمامُ الدين وهو لَهُمُ قُطْبُ
وَصَبَّحَهُمْ في دارِهِمْ شَرٌّ صَبَّحَهِ	عَلَيْهِمْ وَقَدْ وَالاهُمْ الطَّعْنُ وَالضَّرْبُ
أَبادَ حُمَمةَ القومِ واجْتاحَ أرضَهُمْ وَلَوْ	لَا لم يَطْرُقَ لِمَعْقِلِهِمْ خَطْبُ
وَقَدْ عَلِمَ المولى الإمامُ بَأَنَّهُ	أَخو عَزَمَةٍ تُحَدِّثُهَا السَّبْعَةُ الشُّهُبُ

ولعله يشير بالسبعة الشهب هنا إلى أبناء الذؤاد السبعة الذين سادُوا في حياته
ومدح بعضهم الشاعر .

ويشير في هذه القصيدة نفسها إلى أنه جاء آل المفرج فقيرا فأغنوه ، الأمر
الذي يُرجَّح أنها من بَنَوِ كَبِيرِ قصائده بالشام .

ممدوحوه من رؤساء دمشق :

حيدرة بن يعلول :

وهو من رجال الفاطميين ، ويبدو أنه ممن شارك في التصدي للكلبيين من
بنى مرداس في عصر الحاكم ، وكانوا يثيرون القلاقل بنواحي الشام .

وفي مديحه لحيدرة هذا يقول مشيرا إلى الإمام — الخليفة الفاطمي :

أما الإمام فإنه لك شاكر والله أرضى منه عنك وأشكر

ويقول :

بالنصح قدمك الإمام على الررى ومن الفعال مقدم لا ينكر

أما توليه بدمشق فيشير إليه بقوله :

فدمشق قد ضاءت بحسن رياضها إذ كان فيها منك سعد نير

والشريف أبو الحسن عباس بن غياث .

وفي دمشق يتصل أيضا بأحد الأشراف من الرؤساء ، ويبدو أن له مكانة كبيرة بين أهلها ، وكان له من نفوذه وعلمه ونجاهه ما يدفع الشاعر إلى قصده وإلى أن يقول فيه :

إقدام حيدرة وبأس محمد	فيه أن يعدوها أبواه
نسبا ترى عنوانه في وجهه	فلو أن أميا يراه قراه
اشبهت في العلياء جدك أحدا	إن المكارم في العلا أشباه

ويغلب أنه شريف علوى للتنويه بذكر الإمام على هنا ، اللافت للنظر أن معظم من قصدهم التهامي كان شريفا علويا من بنى الحسن أو الحسين ، أو من يدينون بالولاء للعلويين والفاطميين ، وهذا يدفعنا إلى السؤال عن مدى موقفه من الفاطميين خاصة ، وهل كان نصيرا لهم ؟

وإذا فلم اشترك في التآمر ضدهم ؟ وعلى أية حال فالرجل لم يصرح بدم أو قدح ولم يلمح بشيء يسئ إلى دولة الفواطم في ديوانه .

وفي القصيدة ما يشير إلى جاهه ، فقد لقبه بلقب ملك ، ولا ينعى بهذا إلا من ولي ولاية وأمارة ، يقول :

ملك يقر بفضلله ويبدله	ويعدله أحبابه . وعسده
يُجِيلُ الأنام على الخلاف ولا أرى	رجلين يختلفان في علياه

ويشير إلى غربته عن وطنه تهامة ، وهجوم الشتاء — الشامى — ولم يعتده في بلده فيلوذ بالمدح لينقذه من بأسه ، كما اعتاد شعراء العرب اعتقاد الأجواد وقت الشتاء خاصة ، يقول :

ولقد علمت بأن موقى عنده	عز يفوق العيش عند سواه
لكننا هجم الشتاء وعنده	ممن تكون تهامة مشواه
يا أيها الملك الذى لم أغترب	عن أرض قومي خطوة لولاه
أيجوز أن أشكوك ضيقة عيشة	والمال عندك راهن والجاه

ترى هل كان هذا حكاية صادقة لحال الشاعر ، أم أنه مجرد خطاب شعري لحض الممدوح على العطاء ؟

فإذا كان الأمر ما قاله حقيقة ، فإننا نظن بأن الرجل كان أول من قصد بالشام ، أو لعله كان من أولهم ، قبل التحاقه بآل المفرج ونزوله في كنفهم ، يؤيد هذا الظن شكواه من الفقر الذي فارقه بعد مكثه بالشام وتولييه خطابة الرملة واستقراره وزواجه وحصوله على المال مما أعطاه آل المفرج وغيرهم .

مع بعض الأشراف والرؤساء في الشام ومصر :

ونجد بالديوان مدائح لجماعة من الأشراف والرؤساء بالشام ومصر لا نستطيع على وجه التحديد أن نُعيّن زمن لقائه لهم ، وربما بعث إليهم بمدائحهم ولم يلقيهم .

ومن لقيهم بالشام من الرؤساء وقدم مدائحهم فيهم جعفر بن علي بن الحسين المغربي ، واسمه ينم عن صلته بآل المغربي ، وربما كان ابن عم الوزير أبي القاسم ، ولا ندرى هل لقيه قبل محنة آل المغربي ومقتلهم بمصر وهل قتل معهم أم أنه لم يرحل إلى مصر مع أبيه الذي قال المؤرخون إنه قتل بين من فتك بهم الحاكم ؟ ونجد ابنه أبا الفرج بين من تولى الوزارة بمصر أيام الظاهر .

كذلك من بين ممدوحيه الفضل بن أبي الفضل جعفر بن الفرات ، وهو كما يبدو من اسمه ابن الوزير الخطير أبي الفضل بن الفرات والمشهور بابن حترابة الذي تولى الوزارة للاخشيد ، وكان من رجال كافور ، وعاصر المتنبى عند وفوده إلى مصر ، وكان من أعدائه .

وقد تولى ابن الفرات الأب الوزارة للفاطمين بعد ابن العداس زمن العزيز عثمان سنة ٣٨٢ هـ ، كما تولى ابنه من بعده أيام الحاكم في اخريات عهده سنة ٤٠٥ هـ وكان والده توفي قبل ذلك سنة ٣٩١ هـ .

وبما نلاحظه وكما يشير التهامي في قصيدته التي مدحه بها أنه التقى به في الرملة ، ولعل ذلك كان قبل اختفاء الحاكم وكان مبعوثا له إلى آل المفرج للصالح والعودة إلى الولاء بعد فتنة أبي الفتوح والوزير المغربي .

ونقف عند قوله في القصيدة^(١) :

(١) ديوانه ص ٣٨٨ .

تتوكف الآمال صَوَّبَ غمامه
حُبَّ أَرَى لَقِيَاكَ فِي أَحلامه
عقباه للمشتاق قرب حمامه
صد الجفون عن الكرى ولمامه
أيام قريك كن من أيامه
يجرى إليها البر في أقسامه
حسن التصبر عنك في أوهامه
أهواه بعد جماحه وعرامه
ما قربت كفاك بعد مرامه
أولى الوزير القرب من إنعامه

للوزير ابن الفرات ولم تزل
إن صدني عنك الزمان فأننى
إن ينأ عنك فرب نأى حسنت
أوعدت بالصبر الجميل فإنه
فبأى وجه اشتكى الزمن الذى
ووحق ودك وهو أبعد غاية
ما حال قلبسى عن هواك ولا جرى
إنى وإن عاد الزمان إلى الذى
لا أشكر المعروف إلا منك أو
أو حيث لا يجب الثناء بغيرها

وفى الديوان قصيدة أخرى^(١) غير معنونة بمن مدح بها من الرجال ، إلا أن
مضمونها يرجح أنها فى الفضل بن الفرات بعد توليه الوزارة ، وربما صرح باسمه فى
أحد أبياتها إذ يقول :

فضل لو أن الدهر قدم عصره لأبان نقص زياده وهشامه
والقصيدة على وزن وقافية القصيدة الأولى ، إلا أنا تقول أن هذه القصيدة التى
مطلعها :

ذكر الحمى فبكى لسجع حمامه وغدا غريما للنوى بفرامه
بسابقة على الأخرى ، ويبدو أنه هنا بها الفضل بعد توليه الوزارة ، ثم اتبعها
الثانية ، يعرض حاله ، ويمد يده إليه يرجوه أن يناله منه عون من مال أو جاه وهو
فى منأى بعيد لعله كان بالرملة أو خارجها متجولا بين بلاد جزيرة الفرات .
إلا أن فرحة التهامى بتولى صاحبه الفضل الوزارة لم تتم ، فسرعان ما خاب
أمله ، فقد غضب الحاكم فى ثورة من ثوراته على ابن الفرات وقتله سنة ٤٠٥ هـ .
ومقتل ابن الفرات فى هذه المرحلة من مراحل الخلاف المحتوم بين الحاكم واخته
يثير الشك .

(١) ديوانه ص ٣٩١ .

ومن ممدوحيه بالشام أو العراق الأمير أبو سنان غريب بن محمد بن تعن من أمراء العقيليين ولعله جد الأمير عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي العقيلي الأمير الشاعر الأديب أبو محمد وقد كان من أمراء الخفاجيين أصحاب الحديث ، وكان امير خفاجة في زمنه سنة ٤١١ سلطان بن الحسين بن ثمال (١) .

وقصيدته في غريب بن معن الخفاجي التي نرجح أن تكون سنة ٤١١ هـ وهي السنة التي قصد فيها قرواشا العقيلي مع الأمير نور الدولة ديبس بن مزيد الأسدي فقاتلوا قرواشا فانهمز ومن معه وأسر في المعركة ونهبت خزائنه واثقاله .

وتمكن قرواش من الخلاص من الأسر ، وعاد لمقاتلة غريب بن معين مستعينا هذه المرة بأحد أمراء خفاجة وهو سلطان بن الحسين بن ثمال ، وكانت وقعة غربي الفرات بين الفريقين انهزم فيها قرواش مرة ثانية ، وفي هذه المرة مد نواب السلطان البويهبي أيديهم إلى أعمال قرواش في الموصل وما حولها ، فأرسل إلى بغداد يسأل الصفح عنه ويبدل الطاعة فرفع السلطان أيدي عماله عن قرواش وأعماله .

ويشير التهامي الذي زامن هذه الأحداث جميعا في مديحه لغريب بشجاعته وفروسيته فيقول (٢) :

فَلَيْقَ سَلِمْتَ لِأَقْضِينَ لِبَاتِنِي	بذميل كل شَهِيلَةٍ مَذْعَانِ
أَرْمَى الْفَجَاجَ بِهَا لِأَلْقَى رَحْلَهَا	فِي حَيْثُ تَلْقَى أَرْحَلَ الْفَتِيَانِ
عِنْدَ الْأَمِيرِ غَرِيبَ بْنِ مُحَمَّدٍ	مَلِكِ الْمُلُوكِ وَفَارِسِ الْقُرْسَانِ

ويمضي في مديحه التقليدي حتى يقول :

لَهُ دَرِيدُ الْخُطُوبِ فَإِنِهَا	صَدَاءُ اللَّثَامِ وَصَيْقَلُ الْفَتِيَانِ
جَرْدَنٌ مِثْلُ أَبِي سِنَانٍ صَارِمَا	فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ لَهُ حَدَانِ
كَالْلَيْثِ إِلَّا أَنَّ جَارَكَ آمَنَ	وَاللَيْثُ لَيْسَ بِأَمْنِ الْجِيرَانِ

حتى يقول ، وربما ألمح بالأحداث التي أشرت إليها :

يارب جيش قد كففت بمثله والخيـل تعثر في النجـيع القاني

(١) راجع الكامل لابن الأثير ص ٨ ، ١٣٣ .

(٢) ديوانه ص ٤٠١ .

التهامى وقرواش

قصد الشاعر قرواش بالموصل ، ولعل ذلك كان بعد ذهابه إلى ميفارقين ،
وبقائه زمنا عند نصر بن أحمد ، وكانت العلاقة بين الأمير الكردي ، والأمير العربي
العقيلي العامري تجمع بين التنافس والتحالف ، وصارت بينهما مصاهرة .

ونعلم أن الوزير المغربي انتقل من ميفارقين إلى الموصل كذلك حيث وزر
لقرواش سنوات عاد بعدها إلى ميفارقين لبقى بها حتى توفي سنة ٤١٨ هـ .
جاء التهامى إذا إلى الموصل مادحا ، ومتطلعا ، وليحصل على المال والتأييد
ليدفع ، فيما يبدو بطموحه الذى يحبسه فى حناياه إلى أمل التحقق لكنه ، فيما
يبدو لم يجد من قرواش استجابة ، أو قبولا ولعله لم يترح له الشاعر ، أو أن الأمير
لم يرع للشاعر حقا كان يريجه .

فلم يلبث هناك طويلا ، ولا نجد فى ديوانه إلا قصيدة واحدة يمدحه ، عادية ،
باردة الاحساس فى المديح ، لا تجد فيها شيئا جديدا ، بل لعله تكلفه فبدت
الصفات مرصوفة رصا ، كأن يقول :

له يد محسن وحياء جان	وجود مبذر وعلا جموح
ورأى مجرب وقتال غر	وذمة حافظ وندى مضيع
إذا ذكر النوال اهتز شوقا	إليه كهزة السيف الصنيع
يحن إلى العطاء جخين قيس	إلى ليلي لعرفان الربوع

أرأيت إلى هذا التكلف والبرود !

ومع هذا فالمقدمة الغزلية ، قد اشفى فيها الشاعر شاعريته وهوم نفسه مع
خيال حبيته ، فبدأ بقوله :

ألم خيالها بعد الهجوع فعادت إذ رأت سيفى ضجيعى

نعجب لهذا المطلع الغريب ، والمعنى الغريب كذلك ، الذى لا نلقاه فى
مطالعه الأخرى ، وهو يلقي الحبيبة فى المنام ، ترى أهنالك أمر ما غير من
أحاسيسه ، أو أن شيئا ما أصبح يساوره ويختزنه فى عقله الباطن نمت عليه هذه
الرؤيا الغريبة ؟!

وَيَمْضِي الشاعِر لِيَنْفِثَ أَحْاسِيْسَهُ فِي هَذِهِ الرُّؤْيَا لِيَقُولَ بَعْدَ الْاسْتِهْلَالِ :

وَهَاجَتْ نِي بِزَوْرَتِهَا زَفِيرَا يَكَادُ يَقِيمُ مَعْوَجَ الضَّلُوعِ
فَبَاتَ بَيْنَ أَعْنَاقِ الْمَطَايَا تَرْدَدُ فِي الْمَجْمَى وَفِي الرَّجُوعِ
فَقَمْتُ مَنَادِيَا فَإِذَا سَهِيلٌ مِنْ الْخَفَقَانِ كَالْقَلْبِ الْمُرُوعِ
كَأَنَّ نَجْمًا لِيَلِكُ حَتَّى أَلْقَى مَرَاسِيَهُ مَسَامِيرَ الدَّرُوعِ

وَأَقُولُ هَذِهِ رُؤْيَا أَوْ رُؤْيَا كَشَفْتُ مَخْتَزِنَا فِي مَكْنُونِ الضَّمِيرِ وَلَمْ تَفْصَحْ عَنْهُ كُلُّ الْأَفْصَاحِ ، بَلْ رَمَزَتْ إِلَيْهِ ، وَجَدِيرُ بِالْقَوْلِ أَنَّ شَعْرَ هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ مِنْ حَيَاةِ الشَّاعِرِ كَانَ حَافِلًا بِمَثَلِ هَذَا الرَّمْزِ الَّتِي عَدَلَ إِلَيْهِ عَنِ التَّصْرِيحِ الَّذِي صَاحِبُهُ فِي الرُّمْلَةِ وَمَعَ آلِ الْجِرَاحِ .

كَأَنَّ الشَّاعِرَ كَانَ يَهْبِيءُ نَفْسَهُ لِأَمْرِ مَا ، وَدَوَّرَ خَطِيرَ يَقُومُ بِهِ وَيَتِمُّ حَبْكُ خَطْوَتِهِ ، وَكَانَتْ أَيَّامُ الْحَاكِمِ فِي مِصْرَ قَدْ وَلَتْ ، وَشَمْسُهُ قَدْ أَفْلَتْ ، وَلَعَلَّ رَغْبَةَ الْإِنْتِقَامِ قَدْ عَاوَدَتْ الْوَزِيرَ الْمَغْرِبِيَّ بَعْدَ مَوْتِ الْحَاكِمِ ، فَأَغْرَى صَاحِبُهُ عَلَى أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا مَا ، أَوْ لَعَلَّ رَغْبَةَ الشَّاعِرِ فِي أَنْ يَحْصَلَ عَلَى غَنِيمَةٍ كَمَا يَحْصُلُ غَيْرُهُ بِالْمَغَامَرَةِ ، هِيَ الَّتِي دَفَعَتْهُ إِلَى أَنْ يَبْحَثَ عَنْ تِلْكَ الْغَنِيمَةِ وَيَعِدُّهَا عَدَّتُهَا بِالْمَالِ الَّذِي صَرَحَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ بِأَنَّهُ يَجْمَعُهُ لِأَمْرِ قَرَرَهُ فِي نَفْسِهِ .

وَهَكَذَا اخْتَفَى الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ مِنْ مَسْرَحِ الْحَيَاةِ الصَّاحِبَةِ فِي هَذِهِ الْمُنْطَقَةِ ، وَتَاهَبَتْ الْأَعْدَاءُ لِللُّثُوبِ ، لِيَرْثُوا مَلِكَهُ ، وَقَدْ كَانَ الْأَمْرَاءُ يَخْشَوْنَهُ ، بَعْدَ أَنْ تَمَكَّنَ مِنَ الْقَضَاءِ عَلَى الْمُؤَامَرَاتِ الَّتِي حِيَكْتَ ضَدَّهُ مِنْذُ قِيَامِ أَيْ رُكُوتِهِ بِثَوْرَتِهِ الْعَارِمَةِ فِي بَرْقَةِ وَصَعِيدِ مِصْرَ سَنَةِ ٣٩٧ هـ وَانْتَهَائِهَا بِالْقَضَاءِ عَلَيْهِ قَضَاءً وَحْشِيًّا بَعْدَ تَعْذِيْبِهِ وَإِذْلَالِهِ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ تَحَدَّثَهُ نَفْسُهُ بِالْخُرُوجِ .

كَذَلِكَ انْتَهَتْ مُؤَامَرَةُ آلِ الْمَفْرَجِ إِلَى الْفَتْوحِ بِالْفُشْلِ ، وَأَمْسَكَ الْحَاكِمُ بِزِمَامِ الْأَمْرِ بَعْدَهَا بِإِحْكَامٍ وَخَشْيَتِهِ الْبِلَادَ الشَّامِيَّةَ ، وَأَذْعَنَ لَهُ الْأَمْرَاءُ وَرُؤَسَاءُ الْعِشَائِرِ وَخَطَبُوا لَهُ حَتَّى فِي بَعْضِ الْأَمَارَاتِ الَّتِي كَانَتْ تَحْتَ حُكْمِ الْعَبَّاسِيِّينَ فِي الْعِرَاقِ كَأِمَارَةِ الْمَوْصِلِ وَمِيَاقَرَيْنِ .

عَاوَدَتْ الْأُمَالُ إِذَا الْأَعْدَاءِ وَالطَّامِعِينَ بَعْدَ اخْتِفَاءِ الْحَاكِمِ وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ وَعَدَّتْ الشَّاعِرُ نَفْسَهُ بِإِتِّهَازِ الْفُرْصَةِ ، وَهَكَذَا عَادَ مِنْ رُبُوعِ الْعِرَاقِ إِلَى الشَّامِ لِيَدْبُرَ أَمْرًا مَعَ مَنْ يَعِدُّ لِلانْقِضَاضِ لِيُشَارِكَ فِيْفُوزَ بِنَصِيبِ .

حتى يقول :

فرب صب تمنى أنه حجر
إن الحجاز — سقاه الله غادية
في البيت حين أكتبت تلثم الحجر
أرضى مولدة في الأعين الحورا

وفي قصيدته الثانية الميمية يقول مفتتحا :

أخذت زمام الدمع خوف انسجامه فلما استقلوا حل عقد زمامه

وبلغت نظرنا في المقدمة الغزلية لهذه القصيدة أنه جعل محبوبته من هلال بنى
عامر بن صعصعة النجديين ، ولما كنا نرجح أن الشاعر اعتاد على التغزل
بمحبوبات من قبائل المدوحين في مهد العروبة بالجزيرة ، فإننا نظن بأن صاحب
آمد هذا كان عامريا ، وكان لبنى عامر من الرجال جماعة في أرض الجزيرة ، وكان
لبطولتها شأن في أحداثها ، ويكرر التهامي في هذه القصيدة حديث السعي
للمجد بغير القلم والشعر ، يقول :

ومن فاته نيل العلا بعلومه وأقلامه فليغتها بحسامه
صرب شبا الإقلام عند كلامها فداء صليل السف عند كلامه
ورأيك في الريح المقوم إنما قوام العلا مستودع في قوامه
وجدرا جعلنا أmdا أmdا لها بيضاء يوم المرء فيها كعامه
يلوك بهيم الخيل فيها لجمامة إلى أن تراه أرثما بلغامه
يذرن حجام الماء من كل منهل ليكرعن مشرب العلا في حجامه

وهذه الشنشنة عهدنا عند أئى الطيب وتذكرنا بشعره له كثير تتقلب فيه هذه
المعاني نفسها بل والألفاظ والعبارات ، ومنها قوله :

حتى رجعت وأقلامى قوائلى إلى المجد للسياف ليس المجد للقلم
أكتب بنا أبدا بعد الكتاب به فإنما نخنى للأسياف كالخدم ؟

ويشير في هذه القصيدة إلى ما يحاك حوله من مؤامرات ومكائد ، يحوكها
بعض أعدائه من منافسيه وأصحاب صهره الذى قتله واغتصب الامارة منه :

وكم غادر قد شب نار عداوة له قد حاه كيده في ضرامه
فصفحا فما زال الزمان كما ترى أكارمه جريمة بلغامه

وربما حدثته نفسه بأن يفعل كما فعل ابن دمنة وامثاله مما اغتصب الامارة تأمرا
وغلبة في ذلك الزمان الذى تكررت فيه أحداث الغفلة والانقلاب والاستيلاء على
الملك بالسيف، كعادة العرب فى بداوتهم، الغلبة للقوى، كأن الإسلام لم يهذب
من هذه الطبيعة المتأصلة ، وهى خلق لازم للبدواة .

وما كانت نفس التهامى الشاعر البدوى لتحذنه بالملك كما حدثت نفس المتنبى
صاحبها به لولا أن رأى ذلك شريعة عصره .

وكانت تجربته مع الوزير المغربى وآل المفرج والانقلاب الذى دبروه ضد الحاكم
والذى كاد أن يكتب له النجاح ، كانت هذه التجربة حافزا له على أن يكرر
المحاولة ، وقد اختصر هذا الخاطر فى قلبه ، وظل يراوده طوال بقائه متنقلا بين مدن
الجزيرة الفراتية بالشام قبل عودته إلى الرملة ليعد نفسه للقيام بدور له فى مصر ،
وينتظر الفرصة المواتية للوثوب .

التهامى والأمير نصر بن مروان صاحب ميفارقين :

اتجه التهامى شرقا إلى ميفارقين بأرض الاكراد شمالى شرق الجزيرة العراق
وصاحبها آنذاك نصر بن مروان، وكان كُردياً، غلب على ميفارقين بعد فصل
أميرها، من صاحب آمد، وكان رجلا عاقلاً على علاقات طيبة بجيرانه من أمراء
الجزيرة والموصل، وبديولتى العباسيين والفاطميين وصاحب الموصل كذلك. يقول
الفاروق^(١): وقصده التهامى الشاعر وامتدحه وامتدحه وزيره المغربى. وهذا الخبر يؤيد
ما قلناه من أن رحلته هذه إلى البلاد الشرقية وجزيرة الفرات كانت مع الوزير
المغربى أو فى وقت ذهابه من الرحلة إلى تلك البلاد ، وكان الأمير ناصر الدولة
نصر بن مروان هذا قد ولى الامارة سنة ٤٠١ هـ يقول فى مستهل مديحه :

عيسن من شعر بالرأس مبتسم مانفرابيض مثل البيض فى اللمم

ولا ينبج فى القصيدة نهجه فى غيرها من مدائحه لأمرء العرب ، من ذكر نجد
والحجاز واعتساف الأرض فى الرحلة والتغزل بالفتاة البدوية من الحجاز أو من بنى
عامر فى نجد . ولا يذكر الشيخ والعرار والخزاعى وما إلى ذلك مما يشताقه عرب
البادية وإنما يعرض للحديث عن موضوعات عامة فى النسيب بذكر الطيف

(١) تاريخه ص ١٤٤ وراجع وفيات الأعيان ٧٨-٧٧/ ٢ والشذرات ٢٩٠/ ٣ .

ومحاسن المحبوبة انتى تزوره فى المنام حتى يتخلص من أنصيف إلى شكوى الدهر
قائلا :

وصل الخيال ووصل الخود إن سمحت سيان ما أشبه الوجدان بالعدم
قل نصر دولة دين الله نى أمل قولاً وقد نلت أقصى عاية التهم
لا تحمد الدهر فى بأساء يكشفها فلو أردت دوام البؤس لم يدم

ويخاطب نصر الدولة مؤملاً عنده الفضل والسؤدد والمجد :

يا طالب المجد فى الأفاق مجتهدا والمجد أقرب من ساق إلى قدم
قل نصر دولة دين الله نى أمل قولاً وقد نلت أقصى غاية الهمم

ويشير إلى مناصرته لقره وارش على بعض عشيرته من عقيل العامرين :

قد عظم الله أملاكاً ملكت بها بنى عقيل وما يحوون من نعم
لو لم يُجرّها أباً نصر لما وجدت كفّاً يشاكل فى شكل ولا كرم
زادت إلى عزّها عزا به مضر وربما صيلات العلياء بالحرم

يذكر الفارق أن التهامى التقى بالوزير المغربى ، فى بلاط نصر الدولة هذا
ومدحه وفى الديوان قصيدتان فى مدح أى القاسم إحداهما قالها وقد استبطأه
الوزير فى مديحه ، وربما كانت هذه بداية الشام الشمل بعد فراق الرحلة ، وقد
أحسن الوزير بأن الشاعر أغفله ومدح الأمير ، وكان ما بينهما من قديم أصرة
يسمح له بهذا العتاب ، فما كان من الشاعر إلا أن نظم أبياتاً قدمها معتذراً بين
يدى قصيدة مدح انشدها بعد ذلك ، يقول الشاعر معتذراً :

أتانى عن تاج الزمان تعتب يضيق وسع الأرض فضلاً عن الصدر
ولم أمتدحه آخراً لجهالة وهل للذى لا يعرف الشمس من عذر
ولكننى لما رأيت صفاته ختمن العلاطرا ختمت به شهرى
وقد أخرج الله النبى لفضله وقدمه فى رتبة الفضل والأجر

وفى ديوانه قصيدة حائية فى مدح الوزير أى القاسم ، لا نجد ما يؤكد أو ينقض
إنشادها إياه فى ميافارقين ، وإنما نحس حدساً ، ونظن — وقد لا يصدق الظن
أنه قالها آنذاك لبعض المعانى التى وردت فيها ، ربما كانت من وحى الظروف التى
مر بها الوزير فى محنته مع الحاكم ، وفراره ولجؤه إلى آل المفرج بالرملة ثم ما حدث

هناك من فشل التآمر ضد الحاكم واضطرار الوزير إلى الخروج إلى الجزيرة واللجوء إلى ميفارقين والموصل وبغداد والتنقل بينهما :

يقول بعد المقدمة :

وللمعالي رب في العلا	الرأى ثم الكيد ثم الكفاح
وليس بعد الحرب من غاية	من حظوظ مثل ضرب القдах
ولا يالي عند فل العدى	أهيبة فلتهم أم جراح
حامى عن الملك فأضحى حمى	من بعد أن شارف أن يستباح
فصار عرينا لليث الثرى	وكان مرعى للسوام المراح

ونتوقف عند قوله : « حامى عن الملك ... إلخ »

حتى يقول :

توفر الأمر ألا إنما رأسان في تاج خلاص الصلاح

ونقول هل يقصد بذلك الإشارة إلى محاولة ابن المغربى أن يقيم خلافة أخرى في ولة الفاطميين بمبايعة أبى الفتوح شريف مكة إلى جانب الحاكم خليفة مصر يؤيد هذا الظن ما قاله فى البيت التالى :

ثم انتهى إذ كفروا سعيه	لكل مطواع ذلول جماع
ذو سحب تنبت أعداءه .	وحاسديه فى جميع النواح

المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر (٤١١-٤١٦) :

سمع الشاعر باختفاء الحاكم بأمر الله وتولى ابنه الصبى الظاهر على بوصاية عمته ست الملك الفاطمية ، فحدثت كل طامع نفسه بأن يرث من خلافة الفاطميين ما يستطيع قهراً أو تدبيراً وتآمراً ، ولم يكن بلاط الفاطميين ولا القصر خالصاً في الولاء للظاهر على ، بل كان ولاء رجال القصر موزعاً شيعاً ، بين ست الملك الحاكم الحقيقي للخلافة وبين الصبى ومن والاه من رجالات القصر .

وكانت الدسائس بين الفريقين ، ما تفتأ تثور ليتولى رجال ويسقط آخرون ، ويتعدد الوزراء والقادة والأمراء ، ويتدخل خدام القصر ونسائه فيمن يتولى ومن يعزل .

في هذا الجو المضطرب انتهر أمراء العشائر العربية بالشام الفرصة للانقضاض على الخلافة الفاطمية في القاهرة ووراثتها سلطاتها ، وكان أقوى تلك الأحلاف الحلف بينى بين الطائيين بزعماء آل الجراح أصحاب الرملة ، يقدمهم هذه المرة حسان بن المفرج ، فقد توفى أبوه المفرج سنة ٤٠٤ هـ ، وبعضه بتوكلاب الجنيون يتزعمهم المرداسيون ويقدمهم صالح بن مرداس ، وكانوا يسيطرون على جزء كبير من شمالي الشام ، وكانت صراعاتهم مع الحمدانيين للسيطرة على الشام أيام سيف الدولة وخلفائه قائمة لا تهدأ .

في هذا الجو بدأ التهامي يتحضر للقيام بدور ، والفوز بمغنم واختار لنفسه مصر للقيام بدور فيها ، ويبدو أنه رجع إلى حسان بن المفرج وعاهده على أن يعمل عملاً ما بمصر ، وكان أن اختار قبائل بنى قرة في الغرب والصعيد ، بإقليم البحيرة وبرقة والفيوم وكانت بينهم وبين الحاكم محن وصراعات ، لا تزال جراحها دامية .

وكما اختار المتنبى من قبل الكلايين ليثور بهم ضد الانشيد في مصر والعباسيين في بغداد في أوائل القرن الرابع ، كذلك فعل التهامي حين اختار بنى قرة ، ويعيد التاريخ نفسه في أوائل القرن الخامس ، يقول الباخريزي^(١) : « رحل إلى مصر بكتب من حسان بن المفرج الطائي إلى بنى قرة فاعتقل في مصر وحبس ثم قتل سرا في سجنه » .

(١) دمية القصر ١/ ١١٠ .

ويقول ابن خلكان^(١) : « وكان التهامي المذكور قد وصل إلى الديار المصرية متخفيا ومعه كتب كثيرة من حسان بن الفرّج بن دغفل البدوي ، وهو متوجه إلى بنى قرة فظفروا به ، فقال : أنا من بنى تميم ، فلما انكشف حاله ، عرف أنه التهامي الشاعر ، فاعتقل في خزانة البنود وذلك لأربع بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٤١٦ هـ ، ثم قتل سرا في سجنه في تاسع جمادى الأولى من السنة المذكورة » .

ويقول النويري^(٢) : « ووصل الخبر من جهة بنى قرة في البحيرة أنهم أقاموا عليهم إنسانا بريقة ولقبوه أمير المؤمنين » . هكذا جاء الخبر وكان ذلك عام ٤١٥ هـ ويتفق هذا مع ملابسات مجيء التهامي إلى مصر ، فهل وفد سنة ٤١٥ هـ قبل القبض عليه بعام أو جاء قبل ذلك وأعد العدة سرا للدعوة لنفسه ويكون بذلك قد اتخذ من حسان سلما لبلوغ غايته .

ويقول الصفدى : « وكانت نفسه تحدّثه بمعالى الأمور ، وكان يكتم^١ نسبه ، فيقول تارة أنه من الطالبين ، وتارة من بنى أمية ، ولا يتظاهر بشيء من الأمرين ، وكان متورعا صلف النفس » ، ويقول : « وكان قد وصل إلى الديار المصرية مستخفيا ، ومعه كتب كثيرة من حسان بن مفرّج بن دغفل البدوي ، وهو متوجه إلى بنى قرة فظفروا به ، فقال : أنا من تميم . ويزيد الصفدى في خبر التهامي معلومات ربما كشفت لنا عن بعض أمره ، وعن سر رحلته المثيرة إلى مصر متخفيا ، فأما المعلومة الأولى فهي قوله : أن نفسه كانت تحدّثه بمعالى الأمور ، وهذا ما كشفنا عنه في شعره ، وقت إقامته مع آل المفرّج ، وفي أثناء تجواله بالجزيرة والموصل وديار بكر وديار ربيعة حتى عاد إلى آل المفرّج في سنوات ما بعد اختفاء الحاكم سنة ٤١٤ أو سنة ٤١٥ هـ .

وأما المعلومة الثانية فهي أنه كان يتكتم نفسه ولا ندرى أتبع في ذلك قرينة المتنبي الذي أخفى نسبه كذلك ليوهم الناس بأنه علوى وربما الإمام المنتظر أو شيئا من هذا القبيل .

(١) وفیات الأعيان ٣/ ٣٨١ طبع دار الثقافة بيروت بتحقيق د. إحسان عباس .

(٢) نهاية الأرب ٢٨/ ٢٠٥ طبع الهيئة العامة للكتاب بمصر .

فتارة كما يسئ الصفدى يدعى أنه من الطالبيين حتى يرى أن هذا النسب يشفع له ويقربه من الاشراف والعلوين ، خاجة وأنا علمنا من مدائحه أنه اتصل بكثير منهم ، ومنهم من غالى فى غلوته كآل حيدرة ، ومنهم من اعتدل .

وتارة يدعى أنه من بنى أمية ، ولعل هذا الادعاء الأخير كان فى مصر حين حل ببنى قره ، ونعلم أن بنى قره كانوا أنصار أبى ركة الذى ادعى الأموية ، ودعا إلى خلافة سنية وحارب الخلافة الشيعية الفاطمية إلا أن امره انتهى إلى الفشل والهزيمة والقتل .

أترى ادعى بين بنى قره ما ادعاه أبو ركة ليحظى بتأييدهم ؟ ثم ما علاقة هؤلاء ببنى الجراح ، وهل كانت هؤلاء الطائين ميول أموية ؟! ثم نتساءل ، لم ادعى نسبا تميميا عند القبض عليه ؟ أليبعد عن نفسه شبه الدعوة للأموية ؟

وهل كان يدعو لنفسه بإمارة المؤمنين حقا وهى دعوة سنية تقابلها دعوة الإمامة ، عند الشيعة ، أكان يريد لها خلافة سنية يكون هو أمير المؤمنين فيها ، وأن يعيد إلى الدولة العربية مجدها الأموى القديم بعد أن تهاوت الدولة العباسية ومزقتها الخلافات والصراعات وتغلبت الديلم والأتراك ، أتراه ندب نفسه ليعيد إلى الدولة العربية مجدها القديم ، ويعيد للعرب ، والعروبة هيبتها ؟ ربما طاف هذا كله فى مخيلته ، وتأتى الرياح بما لا تشتهى السفن .

والآن دعنا نقرأ شعره فى هذه المرحلة لنستشف منه ما يمكن أن يجلى لنا حقيقة أمره .

يقول فى قصيدة له بعث بها من سجنه إلى صديق له (١) :

لنفسك لم لا عنرقد نغد العذر	بنا حكّم المقلور إذ قضى الأمر
لقد لفظتني كلّ أرض وبلدة	وما لفظتني عن مواطنها مصر
لعمري لقد طوفت فى طلب العلا	وحالفنى بر وحالفنى بحر
فشرقت حتى لم أجد لى مشرقا	وغربت حتى قيل هذا هو الخضر
أروم جسبات الأمور وإنما	قصارى أن أبقي إذا بقى الدهر
ولو كنت أرضى بالكثير وجدته	ولكن فى نفسى أمورا لها أمر
ظللّت بمصر فى السجون مخلدا	وإنى لسيف جفنه فوقه ستر

(١) نهاية العرب ٢٨ / ٢٠٥ طبع الهيئة المصرية للكتاب بمصر ، وراجع ديوانه ص ٤٢٦ .

من تراه هذا الصديق ؟ أظنه ليس من الفاطميين ، بل لعله من أصحابه ،
وقد يكون فيمن أيد دعوته .

ويقول في القصيدة نفسها شارحا بعض ما يظن أنه أدى به إلى السجن :

جنيت على نفسى بسعى إليهم وحظى من أوفى موافقهم غدر
من هم هؤلاء الذين سعى إليهم وغدروا به ؟ أهم بنو قرة الذين أسلموه
للفاطميين ولم يدفعوا عنه خشية أن يلقوا ما لقوا من فعل على يد الحاكم ، وبخاصة
أن الظاهر استبعاد قبضته على الأمور ، وبدأ يعد العدة بالاستعانة ببعض كبار
دولته وقادته المظفرين من الأتراك كالكائد أمير الجيوش بوشتكين الذى أعده
لاستعادة هيبة الدولة .

ويعاود التهامى أن ينفى عن نفسه القيام بعمل ضد الدولة ، معتذرا بأن ما
أخذ عليه لم يكن سوى القول وبما جاء على لسانه فى الشعر وفرق بين القول
والفعل كما قال المتنبي من قبل ، ويقول التهامى :

ومالى من ذنب سوى الشعر إنسى لأعلم أن الذنب فى نكبتى الشعر
لعل اللبائى منصفات أخا النوى بأحشائه من فرط حسرتة جمر
أسير لدى قوم بغير جناية ألا فى سبيل الله ما صنع الدهر

أتراه إذا صدقنا قوله هم ولم يفعل ؟ أم نصدق قول التاريخ بأنه هم وفعل لكنه
لم يوفق ونحاب سعيه فكان ندمه وحرقة ، لقد كان شعره دليل الاتهام ضده فهو
ثابت عليه ، إذا لم يجد محاكموه دليلا على ادعائه الخروج والثورة .

ويقول من قصيدة أخرى فى سجنه (١) :

وضاعف وجدى لما سجنيت مقالة من غاب من طرفه
يقول ، وبعض مقال السفية يقتل إن هو لم يخفه
أهذا التهامى من مكة برجيله يسعى إلى حتفه
ألم يكفه أن ثوب الحياة ضاق عليه ، ألم يكفه
أراد يطير مطار الملوك وظن الاسنة من زفه

(١) قصيدته ص ٤٣٠ من الديوان المطبوع .

وكان كذائد جيش الضلال
أصيفر يعرف من نعره
وأحسب سيف ابن بنت النبی
أرى ملك الموت يدنو إليه
أبا لشعر ويحك تبغى الفلا
ولم تك أهلا لأن تستقر
أرقت دما بعدما صنته
وأشفيت منتظرا للبور
لعمرك إن ليب الرجال
إلى الله أشكو أمورا جرت
وكم قائل سجنوه على
أیطلب الملك من ليس منه
ومن كان ذا حنكة بالعلوم
إذا نشف العود من أصله

عاین جبریل فی صفه
إذا رعى المرء من أنفه
يخضب بخديه من عرفه
وهو يعرض على كفه
ح وأنت تقصر عن وصفه
على خسة الشعر مع ضعفه
واشعلت جمرها ولم تُطفئ
وصدرك حران لم تشفه
من كف أو غرض من طرفه
على غير قصد واستعفه
تطلبه الملك من كهفه
ولا من بنیه ولا صنفه
قارية البؤس من صرفه
فذلك أدعى إلى قصفه

هذه القصيدة كافية شافية في أمر التهامي واسباب سجنه ، فهو يعترف اعترافا واضحا وصريحا ، لا مواربة فيه ، كاعتراف المحكوم عليه بالموت وهو يحس بالسيف يقترب من عنقه ليقضى على حياة هذه النفس الأمانة التي زينت له طريق الضلال على حد قوله ، ومتمته بآمال عراض ، وحدثته حديث الملك دون أن يكون من جنسه ولا ابنائه ولا كان مؤهلا له ، وندم لأنه صدق أوهامه بأن الشعر كفيل بأن يصنع منه إماما ، أو ملكا ، وما هو الا سراب زينه الوهم فظنه ماء ، فإذا ما جاءه لم يجده شيئا ووجد الموت عنده .

ومن قصائده في السجن هذه القصيدة اللامية التي حاكى بها قصيدة مشابهة للمتنبي يقول (١) :

هبوا أن سجنى مانع لوصاله فما الخطب أيضا في امتناع خياله
وقدم هذه القصيدة لمن يدعى احمد بن سعد بن سيرين ، فيذكره بقوله :

(١) ديوانه ٣١١ .

كذلك ابن سيرين بنفثة يوسف
وأنتم أناس فضلهم غامر الورى
أأبصرتمونى شافعا بسواكم
وإذ صار سعد وابنه معقلا له
تكلم فى الرؤيا بمثل مقاله
فما بال مثلى دائرا فى انخماله
وانتم بعيد وهو فى ضيق جاله
فما العذر من إطلاق من عقاله

ولم تسعفه شفاعه ابن سيرين ، فلم يستطع أن يمد إليه يدا لإخراجه من
السجن فمضى حسيرا كسيفا يجتر آلامه ، ويعصره الندم ، حتى لقي ربه ألما
وكمدا أو غيلة وغدرا .

شعر التهامى

يبدو على شعر التهامى بصفة عامة طابع التقليد وهو بدوى النهج والصيغة
وموضوعاته غالبا المديح ، وقليل منه فى الغزل ، والوصف ، والعتاب ، والثناء ،
ومديحه يبدوه فى معظم القصائد بالنسيب والغزل والرحلة ووصف بعض مشاهد
الطبيعة بالحجاز ونجد أو بالشام .

وقصائده فى المديح لا تطول كثيرا ، فهى متوسطة تتراوح بين ثمانية أبيات
وخمسين بيتا .

وله مقطعات قليلة قالها فى مناسبات يتبادل فيها النظم مع بعض رفاقه أو
ممدوحيه ممن قصدهم من الأمراء والوزراء والرؤساء والقضاة .

وقد يبدأ قصيدة المديح مباشرة دون التمهيد بالنسيب والرحلة ، كذلك التى قالها
فى أبى العلاء المطهر بن عطاء كاتب ابن حميد . قال مباشرة (١) :

لأبى العلاء فواضل مشهورة حلت محل الفرقدى علاء

ومعالي المديح عنده محدودة تكاد تكون محصورة فى صفات الكرم ، والجود
والشجاعة والإقدام والهمة ، وهذا طبيعى ، لأنه شاعر متكسب يسأل بشعره ،
أو هو شاعر محترف يستخدم الشعر كغيره من الشعراء المحترفين وسيلة لكسب
العيش . ومن هنا كانت مبالغته فى صفات كرم ممدوحه ، وكان اسرافه فى إضفاء
الثناء حتى إنه ليخرج كثيرا عن حدود المعقول والمقبول إلى مستوى من الملق
والتزلف المجوج المسترذل .

(١) ديوانه المطبوع ص ٢٥ .

على أن الظواهر الواضحة في شعر التهامي مزج صفات البلاغة ، والخطابة
بالسياسة والشجاعة والكرم وبعد الهمة ، وذلك لأن كثيرا من ممدوحيه كانوا إما
من الوزراء الكتاب أصحاب القلم ، أو من القضاة والعلماء ، كما كان بعضهم
يجمع بين الرئاسة أو الإمارة والشعر كالأمير قرواش بن المقلد العقيلي صاحب
الموصل .

كأن يقول في أحدهم^(١) :

لولاه لم يقضي في أعدائه قلم ومخلب الليث لولا الليث كالظفر
فيه المنى والمنايا كالشجاع به ال درياق ، والسهم جم النفع والضرر

وأما معاني المديح التقليدية وأولها الكرم فقد أدارها التهامي في شعره مكرره
أحيانا بلفظها ، وأحيانا بقوالها التعبيرية المعتادة عند غيره ، وقد يلجأ إلى التغيير
والإغراب في عرضه كأن يشبه الطعنات وأثرها في الأعداء بالأعكان المحيطة
بالسرر .

ما ضر إلا وضلت ييض أنصله في الام أو سمر الأرماع في الثغر
وغادرت في العدى طعنا يحف به ضرب ، كما حفت الأعكان بالسرر

وهو إغراب عجيب ، وتشبيه لا يتوقع في هذا المعنى ، وهو تشبيه جنسى في
موضع الحرب ولكن متعة الجنس تقترب أو تقترب في الوقع عند بعض البدو
والمحاريين بمتعة الجنس .

ويبدو لعين الناقد أنه وضع اللفظ في غير موضعه كوضع السيف في غير
موضعه في (الندى) كقول الشاعر :

ووضع الندى في موضع السيف في الوغى مضر كوضع السيف في موضع الندى

وأشار هو نفسه إلى هذا العمد إلى الأغراب حيث قال^(٢) :

يارب معنى بعيد الشأو أسلكه في سلك لفظ قريب الفهم مختصر
لفظا يكون لعقد القول واسطة ما بين منزلة الإسهاب والخصر

(١) ديوانه ص ١٨٧ .

(٢) ديوانه ص ١٨٧ .

وفي معانيه الجديدة قوله مادحاً ، واكثر من ترديده :

وما تنجح الأقلام إلا بكفه
ومخلب غير الليث في كفه ظفر
يعيده مرة أخرى فيقول :

لولا لم يقض في أعدائه قلم
ومخلب الليث لولا الليث كالظفر
ومن تلك المعاني ما يدور حول السيادة ، والخطابة والإمامة وسداد الرأي وما
إلى ذلك ، كأن يقول :

يغضى لهيبته الزمان إذا انتضى
عضب المناير باتر الحدين
متقلد من رأيه وحسامه
سيفين قد نيطا إلى كتفين
وفي الكبرياء — جر الرءاء كقوله :

لا زلت في رتب المعالي ساحبا
ذيل المكارم مسبل الكمين
ويذكر القتال من عمل الرماح معنى جدد في صورته ، فالحق دامى قالوا إن
الممدوح يسلك في رمح الرؤوس وغير ذلك ولكنه يعدل فيه فيقول :

كأن سنان الرمح سلك لناظم
غداة الرغى ، والدارعون جواهر
ترد أنابيب الرماح سواعد
ومن زرد الماذى فيها أساور

ومن معانيه الجديدة في المديح التي ذكرها الصنفى قوله في مديح ابن المفرج :

تلبية من آل المفرج إن دعا
أسود لها بيض السيوف أظافر
تراه لقرع البيض في البيض مصغيا
كأن صليل الباترات مظاهر
وحفت به الآمال من كل جانب
كما حف أرجاء العيون المحاجر

ويتعقب كثيرا من الشعراء السابقين ، وعلى رأسهم أبو الطيب المتنبي ، فقد
أكثر الاعتماد عليه ، وربما كان ذلك لتقارب طبع الشعارين ، واتفاقهما في بعض
هموم الحياة .

يقول :

أكلف أقلامي تبغنى المنى
وقد عجزت عنه الرديئة السمر
وإن لم تل بالبيض نخضها الدما
فأهون بأقلام ينخضها الخبر

وهو من قول المتنبي :

حتى رجعت وأقلامى قوائلى
المجد نُسيف ليس المجد للقلم
وإن كان أصله عند أبى تمام فى قوله :
السيف أصدق أنباء من الكتب
ويقول التهامى :

فلا يغرر الأعداء منه ابتسامه
فإن قُصوب السيف عند ابتسامه
وهو من قول أبى الطيب :

إذا رأيت نيوب الليث بارزة
فلا تظنن أن الليث مبتسم
وينظر إلى معانى أبى تمام فى مثل قوله :
قرى البين جفنيها على الخد فالتقى
وفى قوله :

ذرينى أهب للمجد شرح شبيبتي
فإن لم أبادرها استبد بها العمر
فقد ألم يقول الطائي :

عَدْتُ تستجير الدمع خوف نوى غد
وأجرى لها الإشفاق دمعا موردا
وعاد قتادا عندها كل مرقد
من الدم يجرى فوق خد مورد
ويقول أبى نواس :

ذرينى أكثر حامدك برحلة
وفى غزله يبتكر كذلك بعض المعانى ، ويلتقى مع سابقه فى كثير منها ، وتراه
يتبدى أحيانا ، فيقول (١) :

ريانة الخلخال ظامئة الحشا
هر كولة خرعوبة الساقين
ويسلك طريقة المحدثين وأهل الحضر فيقول :

(١) ديوانه ص ٤٠٦ .

قلت لخلي وزهور الربا مبتسمات ، وثغور الملاح
أيهما أحلى ترى منظرا فقال : لا أعلم كل أقاح

ويعيد صياغة هذا المعنى في معرض آخر ليقول :

وضاحكن نور الأقحوان فقال لي خليلي أي الأقحوانين أعجب ؟
فقلت له لا فرق عندي وإنما ثغور الغواني في المداقة أعذب

ويعيد معاني القدامى في لفظ جديد ، كأن يقول في المعنى القديم لعمل عيون
المرأة في العاشق :

قالوا: قتلت بصارم من طرفه فيما زعمت ، وما نراه بقان
فأجبت: خير البيض ماسفك الدما فمضى ولم يتخضب الغريان
وغربا السيف جانباه .

ويتأثر بالمتنبى في هذه المعاني الغزلية كما تعقبه في معاني المديح فيقوله في دموع
الفراق على خدى المرأة :

لم أنسها تشكو الفراق بأدمع ما اعتدن بالخذ الأسيل مسيلا
وهو من قول المتنبى :
بكت غير أنسة باليكا ترى الدمع في مقلتيها غربا
ويقول (١) :

كيف السبيل إلى لقائك في الدجى والليل حيث حللت منه مقمر
من قول أبي الطيب :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء إذ حيث أنت من الظلام ضياء
ويكرر هذا المعنى التهامي في قوله بصياغة مغايرة وإن كانت تلم بعناصر من
صياغة المتنبى في قوله (٢) :

الليل حيث حللن فيه نهار فلذا ليالى وصلهن قصار

(١) ديوانه ص ٢٢٨ .

(٢) ديوانه ص ٢٠٨ .

ويركز التهامي في غزله على الطيف ، ويأتى فيه بكثير من المعاني الجيدة ، وقد اختار الصفدى من معانيه في الطيف قوله :

خليلي هل من رقدة أستعيرها لعل بأحلام الكرى أستزيرها
ولو علمت بالطيف عاقبه دوننا لقد أفرطت بخلا بما لا يضيرها^(١)
ومن شعره في الطيف قوله :

زارني في دمشق من أرض نجد لك طيف أسرى ففكك أسرى
فاجتني يدور نجد بأرض الشام بعد المكنو بدرا فبدرا
وأراد الخيال - لثمي فصيرت للثمي دون المرافف ستر
فأصرف الكأس من رضا بك عنى حاش لله أن أرشف خمرا
ولو أن الرضاب غير مدام لم تكوني في حالة الصحو سكرى
قد كفانا الخيال منك ولو زرت لأصبحت مثل طيفك ذكرى

وفي غزله غزل رقيق ، وفيه شكوى انصراف الملاح عند طلوع الشيب من مثل قوله :

صددت إذ عاد روض الرأس ذاهر الشيب عندك ذنب غير مغتفر
لا در در بياض الشيب إن له في أعين الغيد مثل الوقر بالإبر
سواد رأسك عند الهائمين به مُعَادِلٌ لسواد القلب والبصر
قد كان مغفر رأسي لا قدير له فصيرته قتيلا صبغة الكبر

وللتهامي في شكوى الزمان والكبر أبيات كثيرة جيدة ، وعلى أن وجيعته التي خلدها شعره فقد له لابنه ، وقد أعجب بها العلماء وردوها في كتبهم ، وذكرها الصفدى من بين ما ذكر من عيون شعره كاملة وهي رائيته التي يقول عنها : وله القصيدة الرائية المشهورة التي رثى بها ابنه ، وقد سارت مسير الشمس وهي من الكامل^(٢) :

حكم المنية في البرية جار ما هذه الدنيا بدار قرار
بيننا يرى الانسان فيها مخبرا حتى يرى خيرا من الاخبار

(١) الواقي بالوفيات ٢٢ / ١٢٨ .

(٢) المصنوع نفسه ١٢١ .

طبعت على كدر وأنت تريدها صَفَوْا من الأقداء والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنما تبني الرجاء على شفير هار
العيش نوم ، والمنية يقظة والمرء بينهما خيال سار
فاقضوا ما ربكم عجلا إنما أعماركم سفر من الأسفار

ويروى الصفدى كما روى غيره من قبل أنه رثى بعد موته في المنام ، ققيل له :
ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي . قيل له بأى الأعمال ؟ ، قال : بقولى في مرثية
ولد لي صغير وهو :

جاورت أعدائى وجاور ربه شتان بين جواره وجوارى

ألفاظه وتعبيراته وصوره :

قلنا إن شعر التهامي يتردد بين روح البداوة والحضر وقد كانت البداوة غالبية
عليه أول الأمر ، حين وفد من البادية أو تهامة ، لكن هذه البداوة خفت حدتها ،
وقلت آثارها في شعره بعد إقامته في الشام وحواضر العراق زمنا ، وخالط من فيها
من الأدباء والشعراء فرقت ألفاظه ، وتشكلت تعبيراته وصوره بألوان حضرية ،
وإن عاودته من حين إلى آخر بداوته .

ومن الصور البدوية في لفظ بدوى قوله مرتجزا :

وَعِزَّةٌ زِيَاةٌ تَحْذِفُ الْحَصَى غُرَيْرَةٌ يَغْتَالُهَا الْقَيْدُ وَاللَّصِبُ (١)
طَوَاهَا النَّوَى وَاجْتَا حَهَا لَأَزِمُ السَّرَى فلم يبق منها لا عنيق ولا جذب
قَطَعْتَ عَلَيْهَا بِالْدِيَا جِىً وَبِالضُّحَى وفى حومة التهجير والآل منصب
إِلَى بِلَدٍ ذَلَّتْ لِعَزِّ مَلُوكِهِ ملوك البرايا والأعاجم والعرب

وكذا في قوله من غزل يذكر بنسيب القدامى في الجاهلية :

سَقَى الْعَهْدَ مِنْ هَنْدٍ عَهْدًا مِنْ الْحَيَا ضَحُوكُ ثَنَائِي الْبَرْقِ مَتَحِبِّ الرِّعْدِ
يَحُلُّ عَقُودَ الْقَطْرِ بَيْنَ مَعَاهِدِ تحل بها من قبل درية العقد
فَتَاةٌ أَرَى الدُّنْيَا بِمَا فِي نَقَائِهَا وألقى بما في مرطها جنة الخلد
هِيَ الشَّمْسُ تَحْفَى الشَّمْسُ عَنْهَا إِذَا تَنَحَّتْ قَضَاعِيَةِ الْأَحْوَالِ مَهْرِيَّةُ الْجَدِ

(١) العيرانة : الناقة الشطة — وغريرة نسبة إلى غرير فعل من الإبل ، اللَّصْبُ : الجلد اللاصق باللحم من

الغزال .

وتراه يستخدم في أساليبه التصويرية عناصر من طبيعة الصحراء ، في وهادها وحيوانها ونباتها كعادة الشعراء القدامى من ساكنى البادية ومن شاكلهم أو سار على طريقتهم . ومن صوره المملوطة التى تتردد فى قصائده صورة السماء بنجومها ، يقول من قصيدة :

فسرت أعر في ذيل الدجى ولها	والجو روض وزهر الليل كالزهر
وللمجرة فوق الأفق معترض	كأنها حبيب يطفو على نهر
وللثريا ركود فوق أرحلنا	كأنها قطعة من فروة الثمر
وأدهم الليل نحو الغرب منهزم	وأشقر الفجر يتلوه على الأثر
كأن أنجمه والصبح يغمضها	قسراعيون غفت من شدة السهر
فروع السرب لما ابتل أكرعه	فى جدول من خليج الفجر منفجر

فهذه الخيالات البدوية الغريبة التى خيلت له من نظره للسماء سمة واضحة من سمات شاعريته ، نقف أمام تشبيهه للثريا بفروة الثمر ، وصور النجوم فى ضوء الصباح المثل من المشرق آخر الليل بالسرب الذى ابتلت أكرعه — أرجله — فى جدول الماء .

وإذا كان قاموسه اللغوى قد حوى كثيرا من لفظ القدامى ، فهو يستخدم أحيانا بعض التعبيرات القرآنية والإسلامية مثل قوله :

إذا أنشدت فى ناد قوم أكارم
يخرون للأذقان إن ذكر الرب
قوله ويذكر الخضر العبد الصالح :

وشرقت حتى لم أجدل مشرقا
وغربت حتى قيل هذا هو الخضر
يحلوه له أحيانا استخدام بعض صور البديع كالجناس على طريقة أى تمام من مثل قوله :

وتركت أعينهم بصور فى الوغى
صورا، وقد جآخ الورى ماجاحا
وكقوله :

أنى تروم الروم حريك بعدما
لم يترم قط بك الإمام مراده
صليت بحريك محربا ملحاحا
إلا جلوت عن الفلاح فلاحا

وكتفوله :

وإذا هزك الإمام للحرب أو لسلم ، فأنت نصر ونصل

وقوله :

وهذا ابن يحيى إلى فضله تنض الركاب ، وتنضى المطى

* * *

-٢-

المؤيد في الدين داعي الدعوة^(١) (ت سنة ٤٧٠ هـ)

هبة الله بن موسى بن عمران الشيرازي
نشأ في بلده ، من أسرة اعتنقت الإسماعيلية مذهباً ، ودانت للفاطميين ولاء
وكانت شيراز موطن الأسرة ، وإليها نسب الداعية الشاعر ، وبها عرف . ونبغ
وتفقه في الدعوة ، وكانت به موهبة الشعر والجدل ، عرف بقوة العارضة
والذكاء وحسن البيان .

ولما بلغ مبلغ الشباب طمحت نفسه إلى أن يجد له مكاناً بين الدعوة ،
واتصل بأبي كاليبجار السلجوقي وعاشه زمناً حتى طلب إليه مغادرة البلاد .
وكانت سنة آنذاك تسعاً وعشرين عاماً . وكانت تهمته محاولة الدعوة
للمستنصر الفاطمي . .

وجاء إلى مصر سنة ٤٣٨ هـ بعد أن تجول زمناً في العراق والشام .

قال الدكتور محمد كامل حسين : « سار المؤيد إلى مصر وهو بين عاملين ، كان
عنده أمل فيما سيلقاه من نعيم وتقديم ، إذ كان وحيداً في علمه وحجته ، خدم
الدعوة وأيدها بمنطقه وبيانه ، وكان بجانب أملة هذا يائساً أشد اليأس لأن
إمامه غير متصرف في شئون بلاده ، وأن قوة أخرى كانت تدير البلاد ، هي أم
الخليفة المستنصر »^(٢) .

وعند وصوله إلى مصر كان متولى الوزارة القلاحي فخر الملك صدقة بن
يوسف (قتل سنة ٤٤٠ هـ) ، فأكرمه الوزير ، وأمر بأن تجهز له دار . قال
عنها : « ديرة فرشت لي هي من الكرامة في الدرجة الوسطى من الحال » .

(١) قام الدكتور محمد كامل حسين بدراسة جامعة والية له ولشعره في مقدمة ديوانه ونقّس هنا من
هذه الدراسة ما يعرف بهما .

راجع ديوان المؤيد بتحقيق وتقديم الدكتور محمد كامل حسين طبع دار الكاتب المصري سنة
١٩٤٩ م .

(٢) مقدمة الديوان ص ٣٥ .

وكان يتولى الدعوة أو منصب داعي الدعاة أهر حفدة القاضي النعمان الداعية ، واسمه القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان . كان يتولى القضاء والدعوة معاً ، وخشي من منافسة هبة الله له ، فعمل على إبعاده من مصر . وكان قد عزم على الرحيل لِمَا أحس بضيق الناس من حوله ، ومنعهم له من الاتصال بالخليفة المستنصر .

وتمكن من الوصول إلى الخليفة في شعبان سنة ٤٣٩ هـ ، وسجد عنه رؤيته تحية له ، وألجم عن الكلام وانعقد لسانه قال يحيى ذلك : « ولما رفعت رأسي من السجود ، وجمعت على ثوبي للعود رأيت بنائاً يشير إليّ بالقيام لبعض الحاضرين في ذلك المقام ، فقطب أمير المؤمنين — يعني المستنصر — خلد الله ملكه — وجهه عليه زجراً ... ومكثت بحضرته ساعة لا ينبعث لساني بتلق ، ولا يهتدي لقول . » .

وعين أستاذاً بدار الخلافة ، وقويت علاقته بأمر المستنصر ذات التفوذ وعين في الوزارة الجرجاني فاليازوري . وكانت بينه وبينهما أحداث . وتولى دار الإنشاء . وكان يطمع في مرتبة داعي الدعاة ، وما زال يسعى لها حتى بلغها واشترك في مؤامرة البساسيري للدعوة للفاطمين بالعراق سنة ٤٤٦ هـ ، ولكن المؤامرة فشلت ، واستعاد طغرل بك السيطرة على بغداد وشمال العراق . ولم يجد المؤيد يداً من الهرب فغادر العراق بعد مقتل البساسيري إلى حلب ثم عاد إلى مصر ، وعين داعياً للدعاة سنة ٤٥٠ هـ ، وظل كذلك حتى توفي سنة ٤٧٠ هـ وصلى عليه المستنصر ودفن بدار العلم بالقاهرة .

شعره

هذا عن حياة المؤيد ، واجتهاده في الدعوة للفاطمين ، وأما شعره فقد نبض بحماسة للإسماعيلية كمجالسه ، وكان خطاباً ينفث من خلاله تعاليمهم واعتقاداتهم . ولا نقف طويلاً عند هذه المعاني فقد وفاها غيرنا^(١) والمجال لا يتسع للحديث فيها . ويهنا بالدرجة الأولى شعره الخالص الذي لا يستهدف الدعوة ، وليس بوقاً خالصاً لها ، وإن لم يخل شعر له من ذلك .

(١) ذلك الدكتور محمد كامل حسين في دراسته التي أشرنا إليها .

وكان لألامه بالديانات والمذاهب أثره في شعره ، كما كان لسعة اطلاعه في العلوم العقلية والنقلية آثارها كذلك ، ويشبهه الدكتور محمد كامل حسين بأبي العلاء في ذلك . يقول : فأبو العلاء والمؤيد هما الشاعران اللذان استطاعا أن يصفيا في شعرهما اختلاف عقائد الناس في عصرهما ، وأن يتحدثا عن الفرق الدينية والآراء الفلسفية ، وغير الفلسفية ، وعن الحياة وعن الموت ، وعن دقائق الكائنات العلوية والسفلية .

ولتمكن هبة الله من البيان ، ولما وهب من شاعرية ، اكتسب قوله الشعرى جمالاً ، ورونقاً ، ولم تؤثر فيه القضايا العقلية والمذهبية ، بحيث تذهب برونقه جميعاً ، ويصبح مجرد صحائف دعوة وحجاج .

ونعثر بكثير من قصائده التي يخلو فيها إلى نفسه ويتحدث عن هموم ذاته وعواطفه ومواجهه ، آماله وآلامه ، وأحاسيسه بالحياة والناس من حوله . ومعظم شعره في هذا الجانب غير العقائدي يدور حول ذاته ، ولم يهتم بما حوله من صور الحياة والطبيعة ، فلم يتحدث عن النيل ومصر ومتنزهاتها وبساتينها وأديرتها كما فعل غيره من الشعراء من السابقين أمثال تميم والعقيلي ، ومن عاصره كذلك قبل جماعة الأفضل .

وكان إحساسه بالذات متضخماً ، فانعكس على قوله بالمبالغة في الاعتداد وقد يتصاغر أمام الأحداث ، فتهزه بداخله ، وتذعره ، فيقول :

فالطير إن طار صرث مرتجفاً والطيء إن طاف أنزوي المأ
على جراته واقنتاره في اقتحام الأخطار ومواجهة الأحداث في حياته .
وفي شعره رنة أسمى حزين ، وصوفية تتردد أصدائها هنا وهناك أحياناً ، فيخبر عن رغبته في الموت للخلاص من عناء الجسد وحياة المادة إلى دنيا الروح ، ويُمثِّلُ الجسد سجناً كالصوفية :

ريحانتي الموت وباب أمني إذ كنت أرجو مخلصي من سجنى
ولا شك أن هبة الله قد حفظ كثيراً من الشعر العربي القديم وتأثر به ، فأثار ذلك بادية في مواضع كثيرة من قوله . وكان للمتنبى نصيب وافر من شعره في

اللفظ والمعنى ، وقد أشرنا في مواضع من كتابنا هذا إلى ما كان للمتنبي من أثر على شعراء العصر . وقد يضمن من قوله كما قال :

فغلبت بالآواء مفصوم العرى من طول ما تعتادني الآواء
مترنماً دهرى ببيت قاله من ليس ينكر فضله الشعراء
« وشكيتي فقد السقام لأنه قد كان لما كان لي أعضاء »

ويستعين بالقرآن الكريم ، فيضمن آياته ، ويشير إلى قصصه وأخباره ويوظفها في معانيه . كقوله :

فلما طفى الماء أجزى به سفينته ربه في العباب
مستعيناً بالآية : (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) .

ونمثل ببعض شعره ليقفنا نصه على مضامينه وفنه . ونقتبس من أول شعره في الديوان قوله في وزن الرجز على شكل الشعر التعليمي . يقول :

حَمَدًا لربِّ قاهر السلطان فردِّ عليك باهر البرهان
أتقن كلَّ صنعة وأحكمها من ذا يرُدُّ ما به قد حكما
حكمتُه خافقة الأعلام تريك وجه الحق ذا ابتسام

ويقول فيها :

كم ناظر بعقله لا يُبصر ومبصر بالقلب لا يستبصر
ونظرُ المرءِ له شرائط تاركها في الظلمات خابط
كذلك العقل لدى التبصر بذاته في حيز التحير
إلا بنور عاضد من خارج فعنده يعرج في المعارج
ولما أمتنا تفرقوا إذ بين ذا وبين ذاك فرقوا
وأصبحت عقولهم مختلة سقيمة ، نفوسهم معتلة
فسلبوا سداد قول وعمل وعرضوا لكل خطيئ وخطل
ونقضوا قواعد الشريعة كلَّ له مقالة شنيعة

وهي أرجوزة طويلة تعليمية كما قلنا ضمنها أصول العقيدة ، وأراد بها الدعوة لمذهبه .

ويقول في مدح الفاطميين والأمة الإسلامية :

فديت خيرة أمة قد أخرجت للناس تنفي الرّيب عنا والخلل
الراكعون الساجدون في الدّجى والطّيون الطّاهرون والشّبل
الفاطميون الصناديد الأولى هم من جبال الفضل والفخر القلّل

ويوجه حديثه إلى الخليفة الفاطمي :

بك اعتلى في الأفق نجم للهدى ومنك حقاً ناجم الكفر أقل
يا قبلة الأزواح يا من نحوه توجّهت في الشّرق والغرب القبل

ونلاحظ أنه كثيراً ما يعتمد في مدائحه للأئمة إلى البدء مباشرة في الموضوع ، وإلا فيبدأ بالشكوى ، فمما بدأ به مباشرة قوله :

الله ينشر راية المستنصر بالله ، مولانا الإمام الأطهر
ويتم نور أي تميم حالياً بسناه أعناق الظلام الأكدر
ويديم دولته ويجبر كسرنا في «الظاهر» العنصر الرطيب الأخضر

ومما بدأ به بالشكوى قصيدة يستهلها بالحديث عن الغربة ، ولعله يقصد الغربتين الجسدية والنفسية حيث يقول : (ولعله قالها بمصر أيام أزمته مع داعي الدعاة واليازوري) .

يا للغرب أنت بئس الداء فغناك فقر ، والعطاء عناء
والعز ذل ، والسعادة شقوة واليسر عسر ، والبقاء فناء
والعرف منك التكر إن يوماً أتى ألى وحالك كلها نكراء
يا غربة أغربت منها في مدى من دونه قد أغربت عنقاء
ومسافة عرض البسيطة كونها قطعها فرئت لي البیداء
أضللتني في الأرض بل القيتني في اليم ما لي في النجاء رجاء
وسفحت ماء العين إذ فوئتني روق الشباب فمنه غيض الماء
مزقتني بالذل كل ممزق والذل يصلي ناره الغرباء
قد كنت أفرس الأسود بفارس فالآن تنهض لافتراسي الشاء

ويمضي في هذه الشكوى من الغربة. حتى يصل إلى ممدوحه المستنصر فيقول :

قَطُّعَ الزَّمانِ بِحُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ
وَلِقَاءَ كُلِّ شَدِيدَةٍ مُسْتَسْهَلٍ
خَيْرِ الْأَنامِ أَيْ تَمِيمٍ ، مِنْ لَهُ
مُسْتَنْصَرٌ بِاللَّهِ أَيْدُ نَصْرِهِ
وَصَلِّ ، وَدَاءُ الثَّائِبَاتِ دَوَاءُ
وَالسَّعْدِ فِي أَيْمانِ تَلْقَاءُ
كُلِّ الْبَرِيَّةِ أَغْبَدُ وَإِماءُ
رَبُّ لَهُ الْإِيلاءُ وَالْإِنْشاءُ

ويستنجد به ليرفع عنه الضر فيقول :

إِنِّي أَتَيْتُكَ يَا ابْنَ بَنْتِ مُحَمَّدٍ
أَأَيْتُ فِي الْبَلَدِ الْأَمِينِ مُرَوَّعاً
مُسْتَعْدِياً مَسْتَيْبِي الضَّرَّاءُ
وَحِمَاكَ مِنْ صَرَفِ الزَّمانِ وَقَاءُ؟

وله في التشويق والحب في مطلع مديحة أخرى :

غدا البينُ من حُبِّنا مستحيلاً
فلهفِي على مَهْجَةٍ بَيْنَها
فَدَيْتَ الَّذِي بِكَمالِ الْجَمالِ
فَلَمَّا رَأَيْتِي مُسْتَأْسِراً
يَشُدُّ الرِّحالَ يَريدُ الرِّحِلا
وَيَينُ الْمَسْرَةَ مُدَّ حالَ حِلا
تَمَلَّكَ قَلْبِي قَلِيلاً قَلِيلاً
غدا بِاللِّقاءِ عَلَينا بِحِلا

ويستخدم بعض العبارات القرآنية :

وَقَلْبِي عَلَى النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ
سَلاهُ لِمَاذا اسْتَحَبَّ الْبِعادَ
فَلَوْ حَمَلْتَ بَعْضَ ما بِي الْجِبالِ
وَيَذْكَرُ بَينَهُ وَجَمِلاً :
وَنومِي قَلِيلاً وَلِلي طَوِيلاً
فَصَبُّ عَليَّ الْعِذابِ الْوِيبالِ
رَأَيْتُ الْجِبالَ كَثِيباً مَهِيبالِ

وكان وكنت بفرط الهوى
وهو في شعره لا يتعمد التصنع ، وأسلوبه جار ، نثرى التركيب والأداء لا
يلقى بالاً إلى رصانة البناء ، وانظر إلى قوله (١) :

أَهلاً بِأَهْلِ وَدَدِنا
أَهلاً بَيْنَ قَلْبِي لَهْمُ
فَرَّقَتْ شَملي يا فِرا
ما كُنْتُ أَرْضى عِيشَةً
أَهلاً بِذَكَرِهِمْ وَسَهلاً
بَيْتٌ وَقَدْ سَكُنُوهُ أَهلاً
قُ وَخائِئِي جَلَدِي فَمَهلاً
فِي فِرْقَةِ الْأَحْبابِ كَلالاً

(١) ديوانه ص ٢٢٨ .

ويميل كثيراً إلى الصنعة البديعية ، وبخاصة الطباق والمقابلة والجناس ، ويوظفها جميعاً لمعانيه ولا يتكلفها كأن يقول^(١) :

يا أنيسَ الفؤادِ بُعداً وقرباً لم يَدْرَ لى الفراقِ عقلاً وقلْباً
كانَ حَرُّ الأهوازِ عنْدِي برداً وشراباً ، عذابه لى عذبا

وبجانب في هذه القصيدة نفسها .
فيقول :

شُقُّ مَتَى الفؤادُ شَقّاً وأشَقَّى بالضُّنَّا شِقّاً إلى الوصلِ صَبّاً
وصنيعه هنا شبيه بصنيع المتنبي في قوله :

ورقلقتُ بالهمّ الذى قلقل الحشا قلاقل عَيْشٍ كُلُّهُنَّ قلاقلُ
وهو قريب الخيال والصورة ، لا يغرب ، ويتناول الجارى القريب كقوله
فى مديح الفاطمى :

قل لابن عباسٍ ليهنِكَ إِنِّي حيث اعتزرت به أذلُّ ذليل
ولطالما رهقتك منى ذِلَّة من قبل تدنى للحمولِ حُمُولِي
ورما بنا قَوْسُ الثوى عن عهدكم كم لى هنا لِكَ من أخٍ وعَدِيل
أسرى ، وأسرى مركبى وندامتى زَادِي ، وخوفى فى الفلاةِ دَلِيلِي
وشققت جيبَ الأرضِ شَقّاً نحو من وقفت لديه ركايبُ التأميل
فرايْتُ نيلاً فائضاً تمساحه مُتَشَمَّرٌ يحمى حَرِيمِ التَّيْلِ

وقد وظف صورة البيئة المصرية فى النيل وتماسيحه .
ويستعير بعض خياله الدينى من القرآن فيقول :

ونفسٌ حُلَاهَا نقشُ توحيدِ ربِّها فنعم الحلّى التاجُ والقرطُ والشَّنْفُ
نُضِيءُ كمصباحٍ بدا فى زجاجةٍ خلافاً لأقوامِ قلوبهم غُلْفُ
وآلِ النبىِّ المصطفى كهفها الأولى لها بالولا فى طودِ مجدهم كَهْفُ

وشعره عامة لا يرقى إلى مرتبة المحترفين ، وربما غلب عليه ، وعلى قريحته
أفكاره الدينية ، وعمله كداعية ، ومرشد يعلم الناس أصول العقيدة ومن هنا
كانت بساطته وتسهيله فى العبارة وقرب المورد وكثرة الاستعانة بالقرآن الكريم لفظاً
ومعنى ، وكثرة الاستعانة بمصطلح علوم الدين .

—٣—

ابن حيّوس (محمد بن سلطان)

(ت ٤٧٣ هـ)^(١)

هو أبو الفتيان محمد بن حيّوس الشاعر الشامي الأمير الدمشقي الموطن والنسبة ، أحد الشعراء المعروفين في القرن الخامس ، بل لعله أشهر شعراء الشام في النصف الثاني من هذا القرن . له ديوان شعر كبير . وقد اهتم بجمع ديوانه جماعة من رواة وتلاميذه .

وأجوده ما جمعه ابن البرين المعري نزيل مصر . فهو أكبرها وأجمعها . ولد ابن حيّوس سنة ٣٩٤ هـ بدمشق ، وتنقل في ربوع الشام بين دمشق وحلب وقصد القاهرة فمدح بعض خلفائها الفاطميين ، وكان ذلك في عصر المستنصر وابنه الأمر . وقصد الوزير الخطير الأفضل بن بدر الجمالي ، والتقى في قصره ببعض شعراء المصريين وغيرهم .

ومدح من قادة الفاطميين الأمير المطفر أنوشكين الدزيري البربري أمير الجيوش ومن كبار قادة المستنصر بالله .

وشارك بشعره في تسجيل أحداث العصر الفاطمي في هذه المرحلة الخطيرة من مراحل الصراع بين الفاطمية والعباسية ، والفاطمية والأتراك السلاجقة وما خلّده ، وقعة البساسيري في سنجار وانتصاره على طغرل بك السلجوقي سنة ٤٥٠ هـ وإقامته الخطبة لل خليفة الناصر ببغداد . يقول :

عجبتُ لِمُنْعَى الآفاقِ مُلكاً	وغايتهُ ببغداد الرُّكُودُ
وَمِنْ مُسْتَخْلِفٍ بِالْهُونِ يَرْضَى	يُذَادُ عَنِ الْحِيَاظِ وَلَا يَذُودُ
وَأَعْجَبُ مِنْهُمَا سَيْفٌ بِمِصْرَ	تُقَامُ بِهِ بِسَنْجَارِ الْحُلُودُ

وكان ابن حيّوس منذ شبابه متعلقاً بالقائد الدزيري رجل الفاطميين القوى بدمشق وأميرهم بالشام ، والذي مكن للملكهم بقهر كثير من أعدائهم من أمراء العرب وقادة السلاجقة . وبخاصة هزيمته للمرداسيين الكلايين بحلب .

لقد عاش ابن حيّوس بدمشق إلى جوار أميره المفضل الدزيري ، يمدحه بالقصائد الطوال ، ويذود عن الفاطميين بشعره ، ويهاجم أعداءهم من العباسيين

والمرداسيين والسلاجقة . وبعد وفاة الدزيرى مدح خليفته ، وبعض أمراء دمشق من قبل الفاطميين ، واتجه بهيمته إلى القاهرة قَصَبَةُ الملك ومركز الخلافة . وكان اتصاله بالوزير المثقف القوى اليازورى ، وبعض الوزراء من بعده .

وتعددت رحلات ابن حيّوس إلى القاهرة بمدح اليازورى وغيره من وزراء المصريين حتى تغيرت أحوال الدولة في حكم المستنصر وتآلب الأعداء على القصر من الداخل والخارج ، وعمت الفوضى الشام ومصر وتدخل بعض الثوار بالشام في شئون الدولة ، وعصى بعضهم واستقل بأجزاء من الشام .

وعانت دمشق من الفوضى والإضطراب . وطردت أميرها الأرمنى بدر الجمالى ، وعاد هذا القائد إلى مصر فاستنصره المستنصر ، وتمكن من اخماد الفتنة ، واستعادة الأمن والانضباط .

وخلفه بعد وفاته ابنه الأفضل ، فسار على سياسة والده ، بقية خلافة المستنصر بالله .

ولم يجد ابن حيّوس بدأ من مغادرة دمشق بعد أن نهبت داره وأخذت أمواله . وعاد لا يملك ما يكفل له الحياة الكريمة التى كان يحياها من قبل في صحبة الدزيرى .

فغادر دمشق كسيف البال ليجول جولة في بلاد الشام وثغورها قاصداً بعض القضاة ذوى النفوذ في طرابلس وصور .

ويلتقى بابن منقذ جدّ الشاعر أسامة ، فيصل بينه وأمير حلب من المرداسيين ويظل ابن حيّوس بحلب حتى وفاته .

وفى حلب ، وهو يخدم آل مرداس الكلايين العامريين ، أعداء الفاطميين يضطر إلى أن يغير من أقواله ، وأن يعتذر أحياناً عما كان قاله من قبل في هجائهم وهو بدمشق أيام كانت علاقته بأنوشتكين الدزيرى قوية ، وكان شعره عندئذ مليئاً بالحماس والتأييد له وللفاطميين . والهجوم على أعدائهم عباسيين وسلاجقة وغيرهم .

عاصر ابن حيّوس إذاً من خلفاء الفاطميين الظاهر ابن الحاكم والمستنصر وعرف من كبار وزرائهم أبا الفرج البابلي واليازورى الوزير الخطير ، وبدر الجمالى .

ودار معظم شعره في المديح ، واضطر إلى الدفاع عن عقائد الاسماعيلية وسلطان الفاطميين على غير عقيدته السنية .

وهكذا كان ابن حيوس في حياته وشعره دائراً في فلك الدولة وامرائها منجذباً إليهم ، تابعاً ، ليست له شخصية مستقلة واضحة المعالم ، يختلف في ذلك عن الشاعر التهامي الذي عمل زمناً مع الفاطميين لكن كانت له طموحاته ، وشخصيته المتميزة في شعره .

وشعر ابن حيوس يمثل هذه المرحلة بعينها ، وهو في أسلوبه وبنائه يتطبع بالطابع التقليدي ، يميل إلى طريقة أبي تمام ، لكنه بعيد عن ابداعه وصياغته الفذة ، فهو يحوم حول حماء ، ويحكي لكن فاتة الشنب كما قال الشاعر المتأخر .

ومن الملاحظات التي أشار إليها محقق الديوان طول نفس الشاعر في قصائده . يقول : « وهو من أطول الشعراء بنفساً ، تتراوح أبيات قصائده بين السبعين والمائة ، وقد تزيد ، وليس له من المقطعات إلا مقدار يسير ، يشابه في طول نفسه ابن الرومي ومهيار الديلمي ، ويقصر عن الأول في ابتكار المعاني وتعدد المناحي » (١) .

وليس في شعره ألمعية تميزه ، وهو صانع للكلام ، غير مبدع للمعاني . له قاموس لفظي يتردد في قصائده ، حصله من محفوظ كثير للشعر العربي وقراءات متعدد لجوانب من التراث الديني واللغوي والتاريخي .

وكل شعره على تعدد مراحل حياته لا تتفاوت جودته بصورة مميزة وإن بدا في آخريات حياته أجزل صياغة ، وأكثر اقتداراً على امتلاك وسائل التعبير .

ونسوق أمثلة من مراحل حياته المميزة في شبابه ، وكهولته وهرمه منها ما قاله في دمشق في ممدوحه الذي استغرق معظم شعره في مراحل الشباب وأعنى أنوشكين القائد التركي وإلى الشام .

يقول فيه : (سنة ٤٢٨ هـ) ، ويذكر هزيمته مع الروم :

عَادَ بالصَّفْحِ من أَحَبِّ البَقَاءِ	وَاحْتَمَى جَاعِلُ الخُضُوعِ وَقَاءَ
فَلتَمَّ أمةَ المسيح طويلاً	كَفَّ من يَمْنَعُ العَدَى الإغْفَاءَ

(١) مقدمة الديوان ص ٣٢ .

مَلِكٌ بَطَلَبُ الْمَلُوكِ رِضَاهُ
قَسَمْتُ رَاحَتَهُ جُوداً وَفَتَكَاً
مَا بَهَرْتُ الْعُقُولَ يَا مَعْجَزَ الْآيَا
هُدَنَةٌ بَقِيََتِ النُّفُوسَ عَلَى الرَّوِّ
وَلِنْ اسْتَعْجَمَ الْمُقَالَ فَدَى الْأَفْعَالِ
حَتَّى يَقُولَ :

لَوْ تَيَمَّمْتُ أَرْضَ خُفَّانَ يَوْمًا
لَأَحَلَّتْ الزَّرِيرَ فِيهَا عَوَاءً

* * * * *

أَيُّ خَيْفٍ وَلِلْخَلَاةِ سَيْفٌ
فَلْتَفَاخِرْ بِحَدِّهِ بَعْدَ عِلْمٍ
مَا تَخَلَّفَتْ عَنْ صِلَاحٍ لِهَذَا الدَّيْبِ
رُقُتُهُمْ بِالْأَبَاءِ وَالنُّصُجِ ، فَالَا
وَأَبْنَتْ الْغَنَى لَهُمْ عَنْ جَمِيعِ الدِّ
ثُوقُ الدَّارِ فِي الظَّلَامِ وَلَكِنْ
وَيَقُولُ :

لَمْ تَزَلْ مُبِيدَعَا ، فَلَمْ أَذِرْ إِلَهَا
أَمْ أَصَارَ السُّمُوءُ قَسَمَكَ مِنْ
مَا عَرَفْتَ الْإِعْجَازَ أَمْ إِيْحَاءَ
عَلِمَ مِنْ قَبْلِ آدَمَ الْأَسْمَاءَ

وقال يمدح الوزير اليازوري : (في حلود سنة ٤٤٢ هـ) : ويذكر مشاركته
وتدبيره مع البساسيري في الخروج على الخلافة ببغداد والدعوة للفاطميين :

لِيَهَيْئَكَ مَا أَنَا لَكَ الْجُلُودُ
مَرَامٌ شَطَطٌ مَرَمَى الْعَزْمِ فِيهِ
وَأَمْرٌ قَمَتَ فِيهِ بِلَا ظَهِيرٍ
وَمِثْلَكَ لَا يَضِلُّ الْحَزْمُ عَنْهُ
أَبَيْتَ فَلَمْ تَنْمُ نَوْمَ ابْنِ هِنْدٍ
وَأَنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ
فَلْيَوْنَ مَدَاهُ يَبْدُ لَا تَبِيدُ
وَأَهْلُ الْأَرْضِ مِنْ فَشَلٍ قَعُودُ
فَهَلْ أَنْبَاكَ بِالصُّدْرِ الْوَرُودُ
عَلَى حَقِّ فَنَبَّهُهُ وَلِيدُ

(١) ابن ذكاء يقصد الصبح ، وذكاء الشمس .

وأعفيت المسامح من حديث
نبا ضاقت بيسوان خثور
فكذب ظن من عاداك صدق
وعيد غادر المراق صرعى
فلولا كونه مع يوم بذر
يعن فتشعر له الجلود
له ونبت بأطفال مهرد
تساوى فيه وعذك والوعيد
وعيد ما أتى مائاه غيد
لقلنا إنه اليوم الوحيد

ويشير في هذه القصيدة السياسية التاريخية كمعظم قصائده إلى التاريخ السياسي للمرحلة التي اشتد فيها الصراع بين الخلافة الفاطمية في القاهرة والخلافة العباسية في بغداد واستعانة العباسيين بالسلاجقة الأتراك لدعم ملكهم ، وتثبيت أركان خلافتهم التي اهتزت بضربات الفاطميين ورجالهم طوال قرن من الزمان منذ استقرار المعز لدين الله بمصر سنة ٣٦١ هـ . فيقول معرضاً يطغريك السلاجوق :

لقد طاح الرجاء بطغلبك
وكم أمل إلى أجل يقود
ويشير إلى الخليفة العباسي الذي لا حول له ولا قوة في هذا الصراع بين الأتراك :

عجبتُ للمدعى الآفاق ملكاً
يصول على رعاياها اعتداء
ومن مستخلف بالهون راض
له حرم هنالك لم يحرم
ثلاه خوفه بأشد منه
ولولا الجلب ما أكل الهبيد^(١)
وغايته ببغداد الركود
ويحجم كلما صل الحديد
يذاد عن الحياض ولا ينود
به إلا السلامة والهجو
وحتى يقول منوهاً بالمستنصر الفاطمي :

وما البطش الشديد مفيد عز
وأعجب منهما سيف بمصر
إذا لم يُمضيه الرأي السديد
تقام به بسنجر الخلود

ويلمح في هذه الأبيات إلى ما كان يروجه الفاطميون عن انغماس الخلافة في بغداد في الملامى وانشغالها عن 'رعاية مصالح الرعية' ، وإيكالها إلى هؤلاء القادة من الترك يعثون بها كيف شاعوا . يقول مخاطباً اليازورى وزير المستنصر :

(١) الهبيد الخنظل وكأنه يضرب مثلاً بأن الضرورة تبيح المحظورات .

رَمَيْتَهُمْ بِكَلِّ سَلِيلِ غَابَ يَعِيشُ بِفَرْسِهِ ضَبْعٌ وَذَيْبُ
يُرُوقُ فَوَادَهُ نَائِي وَعُودُ يُغِيدُ السَّيْرَ لَا نَائِي وَعُودُ
وَيَعْجِبُهُ النُّهْدُ إِلَى الْأَعَادَى مُشِيحًا لَا الْقَنُودُ وَلَا النُّهْدُ
وَيَطْرِبُهُ صَلِيلُ الْبَيْضِ فَوْقَ الْقَلَا نَسِينِ لَا الْبَسِيطِ وَلَا النُّشِيدُ

ونلاحظ اعتماد الجناس والطباق ، كفعل أئى تمام فى صنعته الشعرية وقدمنا اقتداءه به ، واهتدائه بصباغته . وترددت شواهد فى شعره على هذا التأثير يصرح فيها أحيانا كقوله (١) :

وشبه عن جهل حبيب ، ولورأى زمانك لم يعدل به زمن الورى
يريد بحبيب أبا تمام ، ويشير إلى قوله فى موسى بن ابراهيم الرافقى :
ومن زمن ألبستيه كائنه إذا ذكرت أيامه زمن الورى
وقال فى الوزير الفاطمى أبى الفرج البابلى سنة ٤٥٢ هـ (٢) :

أما الزمان فقد ألبسته الجدا والمكرماث فقد أنشأتها جددا

والمتابع لهذه القصائد التى صاغها فى مديح وزراء مصر فى المرحلة الوسطى من حياته يلاحظ فى شعره استواء ورصانة أكثر من تلك التى صاغها بالشام قبل ذلك فى شبابه ، ولاشك أن مرور ربع قرن من الزمان زادت الشاعر تجربة ، وعركته الأيام ، ووسعت معرفته برجال الدولة ، ومجالسته للعلماء والأدباء من معارفه ، فترى ثراء قصائده بالمعلومات وذكر الأحداث والأنساب ووقائع التاريخ التى يستغلها فى معانى مديحه .

ونأتى المرحلة الثالثة من حياته وشعره فى كنف المرداسيين بحلب فى الستينات من المائة الرابعة ، ومن ذلك قوله يمدح نصر بن محمود ويرثى والده سنة ٤٦٧ هـ وأنشدها إياه فى عيد الفطر (٣) :

كفى الدين عزاما قضاة لك الدهر فمن كان ذا نذر فقد وجب النذر
لقد ظلت هذى البلاد سحابة بوارقها بشر وإماضها تير

(١) ديوانه ص ١/ ١٩٥ .

(٢) ديوانه ص ١/ ١٩٨ .

(٣) ديوانه ص ١/ ٢٤٢ .

إذا ما غمامٌ حصَّ أرضاً بغيتةً هَمَى هاطلاً في كلِّ قطرٍ لها قطرٌ
ثمانيةً لم ... تفرق إذ جمعتها فلا افرقت ماذبً عن ناظرٍ شفرٌ
يقينك والتقوى، وجودك والغنى ولفظك والمعنى، وعزمك والنصر
بك انجابت اللأواء، وامتدَّت المنسى وضوعفت الآلاء، وافتخر العصر

ويشير إلى رحلة والده محمود إلى مصر وزواجه من إحدى عقيلاتا بقوله :
فياطيب ما حيث به مصر بابل ويأحسن ما أهذت إلى حلب مصر
وكانت تلك العقيلة بنت الوزير البابل ، ويشير إلى هذه الرحلة إلى مصر
وزواجه بها ومغادرة حلب بقوله :

لم يترك تلك البلاد لأنها بعث بدلاً منه، ولا أن نبأ دهر
ولكنه كالسيف فارق غمده ليشهد حداه بما خبير الأثر

وبعد فإن شعر ابن حيوس في معظمه مديح لرجال العصر وقادته ، ومنه
نستشف بعض الأحداث ، وهو في جملة موضوعي تسجيلي ، يهتم بالمناسبة التي
ينشد فيها ، والاشادة بالمآثر ، والأعمال التي يُبلى فيها الممدوح أو أُنبل ، فضلاً
عن التنويه به ويقومه ، وتمواليه من الخلفاء إن كان أميراً أو وزيراً ، كما يعرج على
المعارضين والأعداء فيزري بهم ، ويقلل من شأنهم ، ويوظف الأحداث التاريخية
لأغراضه ومراميه الشعرية مديحاً أو هجاء .

ومن هنا كان الجانب الذاتي الابداعي في شعر ابن حيوس متواضعاً شديداً
التواضع والمباشرة والموضوعية غالبية ، والخطابية طابعه العام .

على أن بعض معاصريه أعجب بما جاء في شعره من الصنعة البديعية . ونذكر
منهم على بن منجب الصيرفي . فقد أعجب بحسن التقسيم في قوله ؛ قال (١) :
« ومن مليح التقسيم قول ابن حيوس :

لعمري لقد أيدَّ الملوك جميعهم بأربعة في غيره لن تالفا
بأمن لمن يخشى ، وقهر لمن طغى وسبق لمن جازى ، وعف لمن هفأ

وقوله أيضاً :

(١) الأنصليات ٤٦ .

قَصُرَ السَّابِقُونَ دُونَ مَذَاهِهَا وَتَمَلَّكَتْهَا بَسَتْ خِصَالُ
مَكْرَمَاتٍ مَعَ اعْتِدَارٍ وَعَفْوٍ بِاِقْتِدَارٍ ، وَعَفْفَةٍ فِي حِجَالِ

وقال (١): « ومن البديع قول ابن حَيُّوس :

قَدَّتِ الْجَحَافِلُ لَمْ يَقْدُ مَعَاشِرُهَا كَسَرَى الْمُلُوكُ ، وَلَا رَأَى تَبْعُ
قَوْمٍ إِذَا رَأَوْا مِمَّا لَكَ غَيْرُهُمْ خَصَّوْا بِيِضِ الْهِنْدِ مَا لَمْ يَزْرَعُوا

(١) المصدر نفسه ص ٦٥ .

الفصل السادس

شعراء معاصرون بالشام

- ١ — أبو العلاء المعري
- ٢ — ابن سنان الخفاجي
- ٣ — ابن الخياط

أبو العلاء المعري حيرة العقل — ولغز البيان (٣٦٣ — ٤٤٩ هـ)

أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي حكيم المعرة الشاعر الفيلسوف عيّن هذا العصر ونجمه الطالع . الذي اختصم حوله الناس في شعره وكتابته وفي عقيدته وفكره ، وظل مع هذا الخلاف علماً بارزاً لا تأخذ منه الأقاويل ولا تحط من قدره الادعاءات والافتراءات .

ظل أبو العلاء المعري بهذا الشموخ دلالة على حرية الفكر العربي والإسلامي في القرنين الرابع والخامس ، وسعة عطاءه ، وتنوعه ، كما ظل أبو العلاء علامة وسمة بارزة على العصر ، تجمع في إنتاجه الأدبي والشعري معارف العصر ، وإنتاجاته السياسية والدينية والثقافية والأدبية والفكرية ، فكان دائرة معارف شاملة جامعة ، ومراة ، يرى فيها الباحثون ملامح عصره ، عصر الدولة الفاطمية ، ونافذة يُطل منها على آفاق الحياة العربية والإسلامية في تلك المرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي والحضارة العربية الإسلامية .

وسبقت أشارتنا عابرة إلى بعض مواقفه في رسائله من مشكلات عصره وما دار بينه وبعض أعلام الزمن من جدل حول قضايا عقدية وأدبية ، ولغوية .

والآن جاء الدور للحديث عنه شاعراً فحلاً ، ومفكراً عملاقاً من خلال هذا الشعر ، لم يكتف بيش مخاطراته حول قضايا عصره ، بل وقف موقف المصلح المجدد الحر الفكر دون خشية الجريء دون تطاول على أحد ، مع الاعتداد بالرأي يلقيه إذا اقتنع به فيما بينه وبين نفسه ، غير عاىء بمن يعارض ، ولا منافق لحاكم أو صاحب سلطان أو مال ، فقد زهد في قرى أصحاب السلطان وأصحاب المال جميعاً ، وارتضى لنفسه حياة سهلة هنية ، بسيطة ، توفر له حرية الفكر ، دون ضَغْطٍ من ظروف الحياة ، وأطماعها .

لقد احتبس أبو العلاء نفسه في داره ، بعد أن قضى الله عليه ، وشاءت مشيئته أن يُحْبَسَ نظره عن رؤية الناس ، والدنيا باصرته ، ولكن الباري عـ

عوضه عن رؤية البصر ، رؤية السمع ، وجلوة الفكر والنفس ، فألقى إليه السمع بما يعوضه النظر ، وأتاحت له جلوة الفكر في ظلمة الجسد سبحات في آفاق العقل ، وتأملات حرة دون قيود متطلبات الجسد وهمومه اليومية .

لقد أتاحت محابس أبي العلاء المعري الثلاثة : فقدان البصر ، والخلوة ، وحبس النفس في هذا الجسد ، أو إلزام الجسد بقاء الرغبة . أتاحت له هذا التفرغ العظيم للدرس والاطلاع ، والتأمل ، والتأليف ، والنظم ، والتعليم .

عاش أبو العلاء في أسرة تجمعها المحبة ويظهرها العلم ، وكان يكنى لوالديه عاطفة عميقة في قلبه ، وتعلق بأمه خاصة ، وكان لوفاتها أثرها البالغ في نفسه . خرج أبو العلاء إلى الحياة والقرن الرابع يؤذن بنهايته ، وكان أول ما رأى نور الدنيا ببلدة المعرة بالشام ، في هذا الوقت الذي تنازعتها الأحداث وتعاقب عليها الغزاة والمغربون بين شرق وغرب وجنوب . وكانت الحياة السياسية على ما عرضنا له في مقدمة حديثنا ، كما كانت الحياة الاجتماعية كذلك في المجتمع الإسلامي شرقاً وغرباً تضطرب بكثير من التيارات والتغيرات فلم يكن هذا المجتمع على ما عرفناه في أول عصر الدولة العريية الإسلامية ولا في عصر الأمويين وصدر عصر العباسيين من حفاظ على القيم الإسلامية وبعض القيم العريية المثل التي حافظ العرب في أول عهدهم بالحياة خارج بلادهم بعد الفتوح والهجرة من الجزيرة عليها ، ولم يفرطوا فيها . وظل مجتمع تلك العصور الأولى متماسك الأواصر ، تسوده فلسفة واحدة ، ويستظل بظل العقيدة الإسلامية بقيمها النقية حتى رانت على تلك الفلسفة الواحدة للحياة فلسفات ، اكتسبها المجتمع العري الإسلامي من آثار الحضارات القديمة التي نزع إليها المسلمون والعرب ، فخالطت أفكارهم ، وتمشت في تراثهم العري والإسلامي بصور متعددة ، كان نتاجها تلك الحركات الفكرية والثقافية والاجتماعية والمذهبية العريضة التي شملت العالم العري والإسلامي من مشرقه إلى مغربه طوال القرنين الرابع والخامس .

وقد أدت تلك التيارات والحركات التي اضطربت بها الحياة العريية الإسلامية طوال هذين القرنين إلى تغيرات كثيرة ، بل وتحولات شاملة في العقيدة والنظرة إلى بعض أصولها ، فنجم ما نعرفه ويعرفه تاريخ الفكر

والحضارة الإسلامية من شطحات أو خروج عن الخطّ الواضح الذى توارثته الأجيال للحياة العربية والعقيدة الإسلامية ، وتطبيقاتها فى المجتمع ، على تلك الصورة التى احتازتها الشريعة ، وحدد معالمها الأئمة المجتهدون من زعماء المذاهب وكبار علمائها وفقهائها .

ولكن هذه التغيرات التى أدت إلى الخروج عن ذلك الخط كانت من القوة والتعدد والكثرة فى مشرق العالم العربى والإسلامى بحيث بدت فى هذا القرن الخامس وكأنها تغالب الخط المتوارث وتقتحم عليه مجاله ، وتكاد تحجبه عن الظهور فى أوساط كثير من المثقفين ، وبخاصة من ألم منهم بعلوم الأوقل ، أو بعلم خارج عن نطاق العلم الشرعى من علوم الأمم الأخرى يونان وهنود وفرس وغيرهم ، وما يضم من عقائدهم وعاداتهم ، وفلسفاتهم ، ورؤيتهم للكون والإنسان ، فظهر فى أفق الفكر الإسلامى آراء ، واجتهادات اعتبرت عند المحافظين على الخط الموروث من الإلحاد ، والزندقة ، والخروج عن جادة العقيدة والدين الصحيح .

جاء أبو العلاء المعرى إذا إلى الحياة والمجتمع العربى الإسلامى يضطرب بهذا كله قال ابن الجوزى^(١) :

« ... ولد يوم الجمعة عند غروب الشمس لثلاث بقين من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة . وقال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وله أشعار كثيرة . وسمع اللغة ، وأملئ فيها كتباً ، وله بها معرفة تامة ، ودخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة وأقام بها سنة وسبعة أشهر ثم عاد إلى وطنه ، فلزم منزله ، وسمى نفسه « رهين المحبين » لذلك ولذهاب بصره . وبقي خمسا وأربعين سنة لا يأكل اللحم ولا البيض ولا اللبن ، ويحرم إيلام الحيوان ، ويقتصر على ما تنبت الأرض ، ويلبس خشن الثياب ، ويظهر دوام الصوم .

ولقيه رجل فقال : لم لا تأكل اللحم ؟ فقال : أرحم الحيوان . قال : فما تقول فى السباع التى لا طعام لها إلا لحوم الحيوان ؟ . فإن كان الخالق الذى دبر ذلك فما أنت بأرأف منه ، وإن كانت الطباع المحدثه لذلك ، فما أنت بأحذق منها ، ولا هى أنقص عملاً منك^(٢) .

(١) خلاصة كلام داعى الدعاة المؤيد شمس فى رسائله إليه كما سبق أن عرضاه فى الجزء الأول .

(٢) المنتظم نقله ص ١٩ من تعريف القدماء .

قال المصنف رحمه الله^(١) : وقد كان يمكنه ألا يذبح رحمة ، فأما ما قد ذبحه غيره ، فأى رحمة بقيت في ترك أكله ؟

وكانت أحواله تدل على إختلاف عقيدته .

وقد حكى لنا عن أبى زكريا أنه قال : قال لى المعرى : ما الذى تحقد ؟ — فقلتُ في نفسى اليوم أعرف اعتقاده — . فقلتُ : ما أنا إلا شاكُّ ! فقال : هكذا شيخك .

وكان ظاهر أمره يدل على أنه يميل إلى مذهب البراهمة (الهنود) ، فإنهم لا يهرون ذبح الحيوان ، ويجحدون الرسل . قال ابن الجوزى :

وقد رماه جماعة من العلماء بالزندقة والإلحاد . وذلك أمره ظاهر في كلامه وأشعاره ، وأنه يرد على الرسل ، ويعيب الشرائع ويجحد البعث . » .

قال ابن الجوزى^(٢) : « ونقلت من خط أبى الوفاء ابن عقيل قال : من العجائب أن المعرى أظهر ما أظهر من الكفر البارد الذى لا يبلغ منه مبلغ شبهات الملحدين ، بل قصر فيه كل التقصير ، وسقط من عيون الكل ، ثم اعتذر بأن لقوله باطنا ، وأنه مسلم في الباطن ، فلا عقل له ولا دين ، لأنه تظاهر بالكفر وزعم أنه مسلم في الباطن . وهذا عكس قضايا المنافقين والزنادقة ، حيث تظاهروا بالإسلام وأبطنوا الكفر . فهل كان في بلاد الكفار حتى يحتاج إلى أن يبطن الإسلام ؟! » .

قال المصنف (ابن الجوزى) رحمه الله : وقد رأيت للمعرى كتاباً سمّاه « الفصول والغايات » يعارض به السور والآيات . وهو كلام في غاية الركة . والبرودة . فسبحان من أعمى بصره وبصيرته . وقد ذكره على حروف المعجم في آخر كلماته . فمما هو على حرف الألف :

« طوبى لركبان النعال ، المعتمدين على عصا الطلح ، يعارضون الركائب في الهواجر والظلماء ، يستغفر لهم فخت القمر وضيء الشمس . وهنيئاً لتاركى التوق في غيطان الفلا ، يحوم عليها ابن داية ، ويطيف بها السرحان . وشتان أوارك ثرة الألبان ، وأخرى لبنها أفقد من لبن العطاء . » .

(١) ابن الجوزى .

(٢) عن المنتظم ، ص ١٩ — تعريف القدماء بأبى الملاء .

قال ابن الجوزى : وكله على هذا النمط الباردا (١) .

قال ابن الجوزى : وقد نظرت في كتابه المسمى لزوم ما لا يلزم وهو عشرة مجلدات وحدثني ابن ناصر عن أبى زكريا عنه بأشعار كثيرة . فمن أشعاره :
إذا كان لا يحظى برزقك عاقلٌ وترزق مجنونا وترزق عاقلا
فلا ذنب يارب السماء على امرئ رأى منك ما لا يشتهي فترندقا »

والبيتان المذكوران ليسا في ديوانيه سقط الزند واللزوميات ، وربما سقطا من نسخهما أو إنتحلا عليه لثبوت اتهام الكفر والزندقة . وقد أورد ابن الجوزى أبياتا أخرى غير واردة في الديوان كقول ابن الجوزى : وله :

فلا تحسب مقال الرسل حقا ولكن قول زور سطره
وكان الناس في عيش رغيد فجاءوا بالخال فكشروه
حقا لقد جاء في اللزوميات بعض أبيات يقترب معناها من هذا القول من مثل (١) :

هفت الخيفة والنصارى ما احدثت ويهود حارث والجوس مضللة
اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، ودين لا عقل له
ولكن شتان بين مضمون هذين البيتين والبيتين السابقين ، فالأخيران لا يفهم منهما هذا التصريح الذى يتضمنه البيتان السابقان . ويمكن تأويل البيتين الأخيرين بما لا يخرج الرجل من دينه أو يدينه بالإنكار .

ومعلوم أن الشيخ ابن الجوزى واعظ سنّى محدث ، وأن شيخه ابن ناصر السلامى محدث ، وأبو زكريا التبريزى كذلك ، وقد التقى بأبى العلاء ، ومعلوم كذلك عداوة المحدثين والفقهاء للفلاسفة ومناهجهم منذ ظهور حركة المعتزلة والمعرفة التى دامت بين الفريقين طوال القرنين الثالث والرابع .

وربما كان القفطى أكثر اعتدالا فى الحديث عن أبى العلاء ، وإن ساق ما رُمى به من زندقة وإلحاد ، ولم يسلبه قدره فى الأدب والشعر فقال : « كان حسن الشعر جزل الكلام ، فصيح اللسان ، غزير الأدب ، عالما باللغة حافظا »

(١) التعريف ص ٢١ .

خا . ويذكر له من بديع شعره رثاءه لأحد أقاربه من فقهاء الحنفية والتي اشتهرت له :

غير مجيد في ملتى واعتقادي نوح بك ولا ترثم شاد

وقال فيما نقل عنه في عبارات معتدلة : « وكان يترهد ، ولا يأكل اللحم ويلبس خشن الثياب . وصنف كتابا في اللغة ، وعارض سوراً من القرآن وحكى عنه حكايات مختلفة في اعتقاده حتى رماه بعض الناس بالإلحاد . »

ومهما يكن موقف العلماء على اختلاف اتجاهاتهم من فكر أبى العلاء وشعره وما يتضمنه ذلك الشعر أو أدبه بصفة عامة من آراء واتجاهات تدل على سعة علم وتبحر فإن الرجل يظل عالماً من أعلام الأدب العربى عامة وفى هذا القرن الخامس عصر الدولة الفاطمية خاصة .

وقد أهله دراسته للتزود بالعلوم ، فقد روى أنه « عندما بلغ سن الطلب أخذ العربية عن قوم من بلده ، كبنى كوثر أو من يجرى مجراهم من أصحاب ابن خالويه وطبقته . وقيد اللغة عن أصحاب ابن خالويه أيضاً ، وطمحت نفسه إلى الاستكثار من ذلك فرحل إلى طرابلس الشام ، وكانت بها خزائن كتب قد وقفها ذوو اليسار من أهلها ، فاجتاز باللاذقية ، ونزل دير الفاروس وكان به راهب يشدو شيئاً من علوم الأوائل ، فسمع منه أبو العلاء كلاماً من أوائل أقوال الفلاسفة ، حصل له به شكوك لم يكن عنده ما يدفعها به ، فعلق بخاطره ما حصل به بعض الانحلال ، وضاق عطفه عن كتبان ما تحمله من ذلك حتى فاه به فى أول عمره ، وأودعه أشعاراً له ، ثم ارعوى ورجع ، واستغفر واعتذر ووجه لأقواله وجوهاً احتملها التأويل . » (١) .

ذكر هذا القفطى ، وحكاية الراهب وأثره فى فكر أبى العلاء حملها بعض الدارسين كثيراً ، وبالغوا فيما أخذه أبو العلاء عن الراهب النصرانى باللاذقية ، ولم يكن لقاء العلماء المسلمين ولا الأدباء غريباً فى العالم الإسلامى الذى انتشرت فيه الرهبة ، وتعددت الأديرة فى بلاد المشرق ومصر على السواء ، وليس خافياً ما كان يحتفظ أولئك الرهبان من كتب الأوائل من فلاسفة اليونان

(١) أنباء الرواه — عن التعريف بأبى العلاء . ص ٣٠ — ٣١ .

وعلمائهم . وقد أفادوا من تلك الكتب والفلسفات في علوم اللاهوت عندهم . وكانت هناك لقاءات ومحاورات في هذا العصر الفاطمي بين بعض رهبان النصارى وعلماء المسلمين على ما بينا من ذلك الحوار الذي حدث بين أبي القاسم الحسين بن علي الوزير المغربي والمطران النصراني . وعلمنا ما كان في عصر الفاطميين وفي ظل دولتهم من حرية الأديان والسماح للنصارى واليهود بممارسة شعائهم والمشاركة في الحياة العامة على قدم المساواة مع المسلمين حتى إن كثيراً منهم قد ولي مناصب هامة في الدولة .

وفي ظل تلك الحرية الدينية لا نعجب من حدوث لقاءات فكرية ، وتأثير وتأثر من كلا الجانبين إيجاباً أو سلباً . ولا شك أن في أدب المعري أثراً واضحة على معرفته بكثير من أقوال النصارى واعتقاداتهم إلى جانب إلمامه الواضح بعلوم الفلسفات المشرقية والغربية على سواء . وليس ذلك بمستغرب على أبي العلاء ذي العقل الطليعة إلى العلم ، والذي لم يشغله عن المعرفة مشاغل السعي للحصول على العيش أو بلوغ منصب أو جاه ، بل تفرغ تماماً لتحصيل المعرفة من كل مورد ، ومنهل .

عرف أبو العلاء بقوة العارضة والمقدرة الفائقة على الحفظ ، مع الذكاء المفرط ، ودقة الملاحظة لما ينمى إلى سمعه من قول أو حركة . وقد ساعده هذا كله على استيعاب ما حوله والإحاطة بما يدور في الحياة والمجتمع في عصره .

ويحكى السمعاني عن مقدرته على الاستيعاب لما يسمع رغم عدم معرفته بلغة المتكلم نادرة تقول إنه سمع اثنين يتكلمان بلغة أذربيجان ، منهما واحد من جلسائه ، فلما فرغا من الحديث سأل المعري صاحبه : أى لسان هذا ؟ قال : هذا لسان أهل أذربيجان . فقال : ما عرفت اللسان ، ولا فهمته غير أنى حفظت ما قلتما . قال الرجل : ثم أعاد لفظنا بلفظ ما قلنا^(١) .

ويروى من قوة ذاكرته إلمامه بأسماء ما قرأ واطلع عليه من الكتب ووعيه بمحتوياتها . روى القفطي أنه « حضر خزانة الكتب التي بيد عبد السلام البصري ، وعرض عليه أسماءها فلم يستغرب فيها شيئاً لم يره بلور العلم بطرابلس سوى ديوان « تيم اللات »^(٢) .

(١) الأنساب للسمعاني — نقله التعريف ، ص ١٤ .

(٢) التعريف ص ٣٣

وروى كذلك أن رجلاً منهم وقع إليه كتابٌ في اللغة سقط أوله ، وأعجبه جمعه وترتيبه ، فكان يحمله معه ، ويحجج ، فإذا اجتمع بمن فيه أدبٌ أراه إياه ، وسأله عن اسمه واسم مصنفه ، فلا يجد أحداً يخبره بأمره . واتفق أن وجد من يعلم حال أبي العلاء ، فدلّه عليه ، فخرج الرجل بالكتاب إلى الشام ، ووصل إلى المعرة ، واجتمع بأبي العلاء ، وعرفه ما حاله ، وأحضر الكتاب ، وهو مقطوع الأول ، فقال له أبو العلاء : إقرأ منه شيئاً ، فقرأه عليه . فقال له أبو العلاء : هذا الكتاب اسمه كذا ، ووضعته فلان . ثم قرأ عليه من أول الكتاب إلى أن وصل إلى ما هو عند الرجل . فنقل عنه النص ، وأكمل عليه تصحيح النسخة . وانفصل إلى اليمن فأخبر الأدباء بذلك . وقد قيل إن هذا الكتاب هو « ديوان الأدب » للفارابي اللغوي ^(١) .

واتصل أبو العلاء المعري ببعض علماء عصره ، وكبار أدبائه ، فذهب إلى بغداد عاصمة الفكر سنة ٣٩٨ هـ وهي مركز الحضارة الإسلامية في القرن الرابع ولقى بها الربيعي اللغوي ، ولم يلق منه قبلاً ، فتركه ، واتصل بالشريف الرضي وجرى ذكر المتنبي في مجلس من مجالسه ، وكان الشريف لا يحب المتنبي على عكس أبي العلاء الذي كان يقدمه ويحمله ، واختلفا حوله ، ولم تطل صحبة أبي العلاء للرضي على ما كان يعرف عنه من حبه للعلم والعلماء ، والأدب والأدباء .

واستقر أبو العلاء في المعرة منذ سنة ٤٠٠ هـ . قال ^(٢) : « لزمْتُ مسكني منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت أن أتوفر على تسييح الله وتحميده ، إلا أن اضطرب إلى غير ذلك فأملت أشياء ، وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن هاشم — أحسن الله معونته ، فألزمني بذلك حقوقاً جمّة ، وأيادي يضاء ، لأنه أفتى فيّ زمني ، ولم يأخذ عمّا صنّع ثمنه ، والله يحسنُ له الجزاء ، وبكفيه حوادث الزمن والأرزاء » .

وظل في معرة النعمان يملئ كتبه ، ويدرس ، وينظم الشعر ، حتى علا صيته وسار في الآفاق ذكره ، وقصده الطلاب من المشرق والمغرب ، وكان من

(١) التعريف ص ٣٤ .

(٢) إرشاد الأدب — التعريف ص ١٠١ .

تلاميذه جماعة من مشهورى العلماء والأدباء من أمثال أبى زكريا التبريزى ،
وابن سنان الخفاجى الحلبي . وأجله أمراء المنطقة وحكامها ، وتقربوا إليه ،
وبعث إليه المستنصر الخليفة الفاطمى فى مصر ليقدم إليه المال ليعينه على الحياة ،
وعلى نفقاته .

روى ياقوت (١) : أن المستنصر صاحب مصر بذل لأبى العلاء ما يبيت المال
بالمرة من الحلال فلم يقبل منه شيئاً ، وقال :

كأنما غانة لى من غنى فعدّ عن معدن أسوان
سرت برغى عن زمان الصبا يُعجلني وقتى وأكوانى
صدّ أبى الطيب لما غدا منصرفاً عن شعب بوان

وأشار إلى بلاد غانة فى أفريقيا لشهرتها بكثرة معدن الذهب بها فى زمانه
وكذلك أسوان بوجود معادن الزمرد والذهب ، وكان الفاطميون يستغلون
مناجمها فى الحصول على حاجتهم من هذين المعدنين النفيسين فيما شيدوا من
قصور ، وتزينوا به من حلى ، وما جمعوا من أموال وكنوز .

وعزف أبو العلاء عما قدّم إليه وعرضه المستنصر لزده وإعراضه عن
مباهج الحياة ، فقد كان الزهد فى الدنيا فلسفة ارتضاها لنفسه حتى إنه حرّم
عليها ما أحل الله من متع وزينة ، ومطاعم .

مؤلفات المعرى :

أتاح تفرغ المعرى له الوقت للدرس والتأليف ، فأخرج عديداً من المؤلفات
تنوع بين الرسائل ، والكتب الأدبية الجامعة ، وكتب النقد والتراجم
الشعرية ، والكتب اللغوية ، والشعر الوجداني ، وشعر المناسبات ، والشعر
الفلسفى .

ويذكر ياقوت فهرست كتبه ، وأولها الفصول والغايات ، وهو من شعر (٢)
الزهد . قال : « فمن ذلك الكتاب المعروف بالفصول والغايات ، والمراد
بالغايات القوافى ، لأن القافية غاية البيت ، أى متناه . وهو كتاب موضوع

(١) المصدر نفسه ٩٩ .

(٢) الكتاب مجموعة من الخواطر والنظرات ، مسجوعة فيها الزهد والآداب والمواعظ والفلسفة
والدين .

على حروف المعجم ما حلا الألف . وفيه فنون كثيرة من هذا النوع .
وقيل إنه بدأ بهذا الكتاب قبل رحلته إلى بغداد . وأتمه بعد عودته إلى المعرة «
وكتاب « السادن »^(١) : وهو في ذكر غريب هذا الكتاب ، وما فيه من
اللغز .

وكتاب « إقليد الغايات » : لطيف مقصور على تفسير اللغز . مقداره عشر
كراريس .

والكتاب المعروف « بالأليك والغصون » . وهو كتاب الهمزة والردف ،
يبنى على إحدى عشرة حالة الهمزة على حال افرادها وازادتها .
والكتاب المعروف بـ « تضمين الآي » .

وكتاب « سيف الخطبة » : جزآن يشتمل على خطب السنة ، فيه خطب
للجمع والعديد ، والخسوف والكسوف ، والاستسقاء ، وعقد النكاح .
وهي مؤلفة على حرف من حروف المعجم ، فمنها خطب عمادها الهمزة ،
وخطب بنيت على الباء ، وخطب على الدال ... وهكذا .

ومن مؤلفاته : « سجع الحمام » ، يتكلم فيه على لسان حمام أربع . وكان
بعض الرؤساء سألوه أن يصنف له تصنيفاً يذكره فيه ، فأنشأ هذا الكتاب ،
وجعل ما يقوله على لسان الحمامة في العظة والحث على الزهد . قال غيره : هو
أربعة أجزاء ، مقداره ثلاثون كراسة^(٢) .

وديان « لزوم ما لا يلزم » ، وهو في المنظوم . بنى على حروف المعجم ،
يذكر كل حرف سوى الألف بوجوه الأربعة ، وهي الضمة والفتحة
والكسرة ، والوقف . ومعنى لزوم ما لا يلزم أن القافية يُردد فيها حرف لو غُيّر
لم يكن مغلاً بالنظم ، كما قال كثير :

خليلِيّ هذا ربُّعُ عَزّةٍ فاعْقِلَا قلو صيْكُما ثم انزلا حيثُ حَلَّتْ
فلزم اللام قبل التاء ، وذلك لا يلزمه .

(١) التعريف ص ١٠٢

(٢) ياقوت - نقله بالتعريف ، ص ٤

ويحتوى على أحد عشر ألف بيت من الشعر^(١) .

وكتاب : « زجر النابح » يتعلق بلزوم مالا يلزم . وذلك « أن بعض الجهال فهمكُم على أبيات من « لزوم مالا يلزم » ، يريد بها التثيير والأذية ، فالزم أبا العلاء أصدقائه أن ينشئ هذا فأنشأ هذا الكتاب وهو كاره .

وكتاب : « ملقى السيل » صغير فيه نظم ونثر .

وديان « سقط الزند » قاله فى مطلع حياته ، وأبياته ثلاثة آلاف بيت وكتاب يعرف بـ « جامع الأوزان » فيه شعر منظوم على معنى اللغز يعُم الأوزان الخمسة عشر التى ذكرها الخليل بجميع ضروبها ، ويذكر قوافى كل ضرب من ذلك^(٢) .

وكتاب يعرف بـ « السجع السلطاني » يشتمل على مخاطبات للجنود والوزراء وغيرهم من الولاة . وكان بعض من خدم السلطان وارتفعت طبقته ، ولا قدم له فى الكتابة سأل أن يُنشأ له كتاب مسجوع من أوله إلى آخره ، وهو لا يشعر بما يريد ، لقلة خبرته بالأدب ؛ فألف له هذا الكتاب . وهو أربعة أجزاء .

وكتاب يعرف « بذكرى حبيب » فى غريب شعر أى تمام ، سأل فيه صديق لأبى العلاء من الكتاب . وهو أربعة أجزاء .

وكتاب « عبث ، الوليد » فيما يتصل بشعر البحتري . وكان سبب إنشائه أن بعض الرؤساء أنفذ نسخة ليقابل له بها ، فأثبت ما جرى له من الغلط ، ليعرض ذلك عليه . وهو جزء واحد .

وكتاب يعرف بـ « الرياشى المصطنعى » فى شرح مواضع من الحماسة الرياشية عمل لرجل يلقب بمصطنع الدولة ، ويخاطب بالإمرة واسمه كليب بن على ، ويكنى أبا غالب . أنفذ نسخة من الحماسة الرياشية ، وسأله أن يخرج على حواشها شيئاً لم يذكره أبو رياش مما يُحتاج إلى تفسيره ، فخشى أن تضيق

(١) المصدر نفسه ص ١٠٥ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٠٦ .

الحواشي عن ذلك ، فألف هذا الكتاب ، وجمع فيه ما سنع مما لم يفسره أبو رياش^(١) .

وكتاب « شرف السيف » عمل للقائد أنوشتكين اللزهرى أمير الجيوش حاكم الشام في عصر الظاهر ابن الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٤١٩ هـ والمتوفى بحلب سنة ٤٣٣ هـ . وكان السبب في عمله أنه كان يوجه إلى أنى العلاء بالسلام ويخفى المسألة عنه ، فأراد جزاءه على ما فعل^(٢) .

وله مجموعة من الكتب المتعلقة باللغة والنحو هي :

« تعليق الجليس » يتصل بكتاب الجمل للزجاجي ، وكتاب « اسعاف الصديق » متعلق به كذلك

وكتاب « قاضي الحق » على كتاب أوى جعفر النحاس المعروف بـ « الكافي » .

وكتاب « الخير النافع » مختصر في النحو . وكتاب آخر في النحو متعلق به يعرف بـ « الطل الطاهرى » ألفه لمن يعرف بأوى طاهر الحلبي . وكتاب في النحو يتصل بكتاب الظهير العضدى .

وكتاب في الرسائل الطوال فيها « رسالة الغفران » .

وكتاب « خطب الخيل » يتكلم فيها على ألسنتها ، ومقداره عشرة كراريس .

وديان رسائل . وهو ثلاثة أقسام : الأول رسائل طوال تجرى مجرى الكتب المصنفة مثل كتاب « رسالة الملائكة » ، و « كتاب الرسائل السندية » . وكتاب « رسالة الغفران » ، وكتاب « رسالة الغرض » ونحو ذلك .

والثانى رسائل دون هذه في الطول مثل كتاب « رسالة المنيع » وكتاب « رسالة الإغريض » والثالث كتاب « الرسائل القصار كنحو ما يجرى به العادة في المكاتبه قيل إنه أربعون جزءاً »^(٣) .

(١) المصدر نفسه ص ١٠٨ .

(٢) التعريف بأوى العلاء ص ١٠٨ .

(٣) المصدر نفسه ص ١١١ .

وكتاب « خادِم الرِسائِل » في تفسير ما تضمنته هذه الرسائل مما يحتاج إليه المبتدئون في الأدب .

وكتاب « اللامع العزیزی » في تفسير شعر المتنبي عمل للأمر عزيز الدولة وغرسها ابن تاج الأمراء أبي الدوام ثابت بن ثمال بن صالح بن مرداس . من أمراء بني مرداس أصحاب حلب في القرن الخامس في عصره .

وهذا بعض ما اشتهر من كتبه ، وهو قليل من كثير^(١) .

وما يهمنا هنا هو أبو العلاء الشاعر ، وما قاله من الشعر . وشاعرية أبي العلاء لأمرء فيها ، فقد اعترف بها العلماء قديماً وحديثاً ، ووجدوا في شعره شيئاً جديداً لم يكن عند غيره من الشعراء من حيث البناء والصور والأخيلة والأساليب والموسيقى ، واستخدامات الألفاظ ، وفي المضامين ، وما احتواه من المعاني الجديدة الجريئة ، التي قد تبلغ حدَّ الشطط والخروج عن المتعارف والمألوف .

ولم يذهب أبو العلاء بشعره مذاهب غيره من الشعراء ، فلم يجعله وسيلة للكسب ولا أداة للحصول على الماء من أصحاب السلطان والجاه ، فلم يقصد به واحداً من هؤلاء ولم يسترشد خليفة أو أميراً . قال الذهبي^(٢) : « لو تكسب بالشعر والمدح لنال دنيا ورئاسة » .

وقال ابن النديم : « ذكر أبو العلاء في مقدمة « سقط الزند » أنه لم يكن من طلاب الرشد والصلة ولم يمدح إلا اليسير من الناس في صدر عمره ، قبل انقطاعه عن الناس ، ولم يمدح لعطاء ولا نائل ولم يقبل هدية ولا صلة من شريف ولا وضيع »^(٣) .

وذكر أبو العلاء صراحة في شعره أنه لم يدنس نفسه بالاستجداء^(٤) ، قال :

أُخَوَّانَا بَيْنَ الْفَرَاتِ وَجَلَّقِي يَدَ اللَّهِ لَا خَيْرَ تُكُّمِ بِمَحَالِ
أُنْبِئُكُمْ أَنِّي عَلَى الْعَهْدِ سَالِمٌ وَوَجْهِي لِمَا يُتَبَدَّلُ بِسَوَالِ

(١) راجع مجمل فهرست كتبه في ترجمة ياقوت له بمجمع الأدباء .

(٢) سقط الزند ١ / ٢١ — وتاريخ ابن النديم ٤ / ١٥٣ .

(٣) راجع أبو العلاء ولزوميته للدكتور كمال اليازجي ص ٢٨ .

وبهذا فقد تخلص شعر أبي العلاء من آفة من آفات الشعر العربي ، وبخاصة في تلك العصور أعنى آفة التشكُّب بالشعر ، لأنها تُدخل على هذا الفن كثيراً من الزيف ، والتدنى بالفكر والفن والروح الإنسانية الرفيعة التي كرمها الله لتبدع . ومن هنا خلا شعره من كثير من أصداف القول وبهرجه مما يتعلق بالملق ، وكيال الصفات لغير موصوف بها ، والتعريض بالطلب وبذل ماء الوجه ، والتدنى ، وتحقير الذات بذكر الحاجة واستجداء المال لسد الرمي ، والتغلب على عناء الفقر . أو الرغبة والطمع ، والجرى وراء زخرف الحياة ، وطلب الاستمتاع بملاذها في كنف من يملكون الدنيا ، غصباً ، أو سعيًا غير محرر من دنيا وأثام ، وسلوك دروب تأبأها الشيم الكريمة وتعف عنها النفوس الأبية .

واستعاض أبو العلاء عن رفق المال برفد العلم ، فاستزاد منه ورحل في سبيل تحصيله ، وقصده بشعره ، وجعله موضوعه الذي يشغل ألبابه وقوافيه على اختلاف أنواعه ودرجاته .

وهكذا كانت رحلاته كما يقول في سبيل المعرفة لا لطلب المال قال : « وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال ، ولكن آثرت الإقامة بدار العلم » وذلك في تبرير رحلته إلى بغداد ، وجاء في رسالة بعث بها إلى أهل المعرة إثر عودته إلى بلده من بغداد (١) .

والمأمل في شعره عامة وفي « سقط الزند » و « اللزوميات » خاصة يلاحظ غلبة الموضوعات التقليدية على ديوان « سقط الزند » الذي نظمته في مطلع حياته ، ففيه مدح بعض السادة ، وأعيان القوم وبعض الشيوخ من العلماء ، ومن عقدت بينه وبينهم أواصر ما ، كما نلمح بعض صور حياته ووصف أحواله وتقلباته ، ورثاء بعض أقربائه ومعارفه ، وهو في هذا الديوان يتناول معاني موضوعات الشعر تناولاً تقليدياً أحياناً ، يسترجع كثيراً من صياغات القدماء وتعبيراتهم ، فيوردها أحياناً سافرة ، وأحياناً يلفها بخمار من اللفظ الغريب ، أو يدخل عليها بعض حلى البديع ومحسناته . وأما في اللزوميات فقد اتخذ لنفسه نهجاً آخر حيث نظم قصائده في محبسه وقد اعتكف ، واعتزل

(١) رسائل أبي العلاء ص ٣٤ .

الناس ، وألزم نفسه في الشعر ما ألزم جسده في الحياة من نظام قاسر ، صارم . وقد غلب عليه المفكر المجرد في قضايا الحياة والموت ، والكون والفساد ، والعقائد والديانات . كما ألزم نفسه اجتهادات في الصياغة والتعبير يصعب على القارئ العادي فهم معانيها .

ديوان سقط الزند :

ذكر الرواة والعلماء الذين أرخوا له أنه نظم الشعر حدثاً لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره^(١) . « ومهما يكن فقد نظم الشعر في سنّ الحداثة ، ولم ينقطع عن النظم أثناء رحلاته العلمية ولكنه نظم أكثر شعر شبابه في الفترة التي قضاها في المعرة بين رحلتيه الشامية والعراقية . وهو جلّ ما في (سقط الزند) »^(٢) .

وعده كثير من العلماء والنقاد بارعاً في الشعر . وتتجلى براعته في هذا الديوان فيما تمثله من الشعر القديم ، والمعارف اللغوية ، والتاريخية والدينية ، وحفظه للقرآن الكريم ، وتوظيف هذا كله في فنه الشعري من حيث بناء القصيدة ، وصياغة المعاني ، وبناء عباراته ، وتشكيله للفظ في مقدرة قد تبدو للقارئ إغراباً وخروجاً على نهج الشعراء السابقين .

بناء القصيدة :

وينبئ أبو العلاء قصيدته الشعرية في « سقط الزند » البناء التقليدي في شكله العام أي يبدأ القصيدة بالغزل ، لكن هذا الغزل ليس كغزل الجاهليين ، ولا الإسلاميين ولا حتى المحدثين أصحاب البديع ، أو أصحاب طريقة العرب . بل يبدو في غزله صاحب اتجاه جديد في معانيه وأبنيته ، وإن لم يخرج عن الإطار العام ، أو عمود المعاني في الغزل . ونضرب مثلاً بقصيدته الثانية في الديوان . يقول :

يا ساهِر البرق أيقظ راقِد السَّمَرِ لعل بالجزع أعوانا على السهر
وإن بخلت عن الأحياء كلهم فاستقِ المَواطِرَ حياً من بني مَطَرٍ

(١) راجع التعريف فيما جاء من ترجمته عن ياقوت ٣/ ١٠٨ ، والذهبي ١٣٠ ، وابن خلكان ٤٧/ ١ .

(٢) راجع كتاب « أبو العلاء ولزمياته » للدكتور كمال اليازجي ، ص ٥٦ ، طبع دار الجيل ببيروت .

حمل الحُلَى لمن أعيأ عن النظر
سرى أُمَامِي وَثَأَوِيًّا على أثري
أَلْفَيْتُ ثُمَّ خَيْالاً مِنْكَ مَتَطِيرِي
وَزَيْدٌ فِيهِ سَوَادُ الْقَلْبِ وَالْبَصِيرِ
وَالْعَذْبُ يُهَجَّرُ لِلْإِفْرَاطِ فِي الْحَصِيرِ
حَمَلًا وَتَحْنٌ عَلَى عَشْرِ مِنَ الْعُشْرِ
يَسْتَجْدِيَانِكَ حُسْنَ الدَّلِّ وَالْحَوِيرِ
لَكِنْ سَمَحْتَ بِمَا يَنْكَرُنْ مِنْ دُرِّ
مِنَ الطَّبَائِ وَلَا عَارٍ مِنَ الْبَقْرِ
وَفَزَتْ بِالشُّكْرِ فِي الْأَرَامِ وَالْعَفْرِ
وَكَانَ يَرْفُلُ فِي ثَوْبٍ مِنَ التَّوْبَرِ
وَمَنْزَلًا بِكَ مَعْمُورًا مِنَ الْخَفْرِ
بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ

ويا أسيرة حجلها أرى سفها
ما سرتُ إلا وطيف منك يصحيني
لو حطَّ رحلي فوق النجم رافعه
يودُّ أن ظلامَ الليل دام له
لو اختصرتم من الإحسان زرتكم
أبعد حول تناجي الشوق ناجية
كم باتَ حولك من ريم وجازية
فما وهبت الذي يعرفن من خلقي
وما تركت بذات الضال عاطلة
قلدت كل مهابة عقد غانية
وربَّ صاحبٍ وشيء من جازرها
حسنتُ نظمَ كلام توصفين به
فالحسن يظهر في شئين رونقه

وهذا المطلع الغزلي كما نرى مصنوع صنعة عقلية ؛ استن فيه أبو العلاء سنة
بعض من سبقوه من الشعراء ، واستخدم أساليبهم الفنية ، وأضاف إليها ميلاً
ذاتياً إلى قدر من رياضة العقل في التعبير عن المعنى بترويض اللغة أو محاولة
إخضاع اللغة لهذا اللون من اللغز التعبيري إذا صح التعبير .

وبمراجعة معاني أبي العلاء في هذه الأبيات نجد أنه يخرج تقريباً عن معاني
الغزل التقليدية ، أو المعروفة المتداولة بين الشعراء منذ القدم . فالحديث عن
سهر الليل ، والشوق والتفكير في المحبوبة ، والدعاء للأيام الجميلة الماضية التي
قضياها في مكان المنزل ، الدعاء لها بالخير والسقيا ، والتذكر للحبيبة على
البعد ، ومصاحبة طيفها للمحب الشاعر- أينما ذهب ، وتمنيه أن يطول الليل
حتى تطول ملازمة الطيف ، ولا يفارقه بطلوع النهار ويقظته . وتذكر هذا
كله بعد مرور حول من الزمان .

ووصف المحبوبة بالريم ، والبقرة الوحشية في الدل ، وجمال العيون .
ولكن هذه المعاني القديمة الجارية في الغزل ، ظهرت في صياغة أبي العلاء ،
وكأنها معاني جديدة لما أدخل عليها من ضروب اللغز في التعبير ، والتعقيد الذي

يجرى فيه على طريقة أئى تمام من الإيغال فى الاستعارة ، وتداخل التراكيب
بحيث تتعاظم المعانى . فأى معاطلة أكثر من قوله فى هذا المطلع :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعوانا على السهر
وإن بخلت عن الأحياء كلهم فاسق المواطر حياً من بنى مطر
فهو يريد أن يقرن بين السهر والدعاء بالسقى ، أى بين معاناة الحب
بالسهر من فرط التفكير والشوق ، والدعاء لأهل المحبوب وحيه بالخير . ساق
هذين المعنيين أو سلكتهما معاً مسلكتاً متراكباً ، أو متراكماً ، أو متولداً بعضه
من بعض .

واستخدم « الجزع » وهو اسم لمكان يكثر فى شعر الجاهلين ومن تبعهم ،
وبنى مطر إسم حتى ، وهو اسم رمزى ، وليس اسماً حقيقياً ، فاستخدم اسم
المكان ، واسم الحى رمزى على ما تعارف عليه الأقدمون ، أو هو استخدم
هذين اللفظين ليثير معنى ما أراده القدماء ، ولم يأت هو بجديد ، فهو يجتر
مختزنة من الشعر فى هذا التعبير ، ويخرجه فى صورة من هذه الصياغة أو
المعرض العلائى .

والأشد معاطلة هذا البيت الثالث الذى يريد ببساطة أن يعبر عن معنى
جمال حجلها فى ساقها فجاء بهذه الصياغة :

ويا أسيرة حجلها أرى سفها حمل الحلى لمن أعيا عن النظر
وقد اعتاد الشعراء وصف ساق المرأة بالامتلاء ، حتى يضيق عنها الحجل
فعبر عن ذلك بأن ساق الحبيبة أسرتا حجلها ، ورمى من لا يقدر جمال الحجل
فى الساق بأنه عى النظر لا يقدر الجمال ، فيصبح من قبيل الشفه التجميل
بالحجل لمن لا يقدر قيمة جماله بالنظر .

أرأيت كيف شق أبو العلاء على نفسه ، وشق بالضرورة على الناس ؟ فى
تذوق شعره فضلاً عن فهمه .

ومن لوازمه فى هذا المطلع ما يغلب عليه من المبالغة ، والشطط فى الخيال فى
قوله :

لو حط رحلى فوق النجم رافعه ألفت ثم خيالاً منك متظري

وهي مبالغة لا تجدي في إضافة لحة من الجمال ، بل قد تزرى بالمعنى ولا تجمله .

وكذلك قوله :

يودُّ أن ظلام الليل دام له وزيد فيه سوادُ القلب والبصر
وأين هذا من قول بشار الذي أحسب أنه أراد الاستعانة به ، وتقليده ولكنه
جاء تقليداً نائياً ، ومجارة غير مقبولة ولا مستباعدة ، فسواد القلب ، ليس بما
يزيد الليل طولاً ، وهو نقطة سوداء أو حبة سوداء فيما يعتقد القدماء ، ولا
وجود لها في حقيقة الأمر ، وسواد البصر إنسان العين . يقول بشار :
وودَّ الليلَ زيْدَ إليه ليلٌ ولم يُخلق له أيداً نهارٌ
جفت عيني عن التغميض حتى كان جفونها عنها قصار
وأراد أبو العلاء أن يُغرب فوقه في المحال ، أو في اللغز المعنى . وأين من
هذا بيان بشار ، وجمال تعبيره ووضوحه .

وهكذا يمضي أبو العلاء في سائر القصيدة مُعمّياً في لفظه وصوره باعثاً قارئه
إلى الحيرة فيمن يتغزل بها ، يومه أول الأمر بأنه يتغزل في موجود شاخص ،
فإذا به يكشف أن أبا العلاء غرر به ، يدينه من هذا الوهم الذي لفه فيه . من
بداية القصيدة ، ويبيعه عنه كلما مضى مسترسلاً في قراءة أبياتها .

فإذا هذه التي يتغزل بها قريحته ، أو موهبته الشعرية التي تجسد له الجمال في
بيت من الشعر ، يدينه منك بيتٌ من الشعر .

بعد هذه المقدمة التي وضعها على الطريقة التقليدية ، إلا أنه صاغها
بطريقته ، وسواء أكانت غزلاً أو نسيباً ، أو شيئاً آخر عمّا عنا ، فإنه ينتقل
منه إلى المديح العادي في معانيه لكنه علائ الصياغة . حتى في هذه المرحلة
المتقدمة من شعره في سقط الزند .

فقصائد سقط الزند ، وإن كانت سابقة على قصائده اللزوميات إلا أنها
حوت كلَّ خصائص شعر أبي العلاء ؛ صنعته الشعرية ، وأفكاره ، وعقائده
وسلوكياته ، ومواقفه من الناس والحياة والكون والخلق .

حتى يصل إلى من رثى فيقول :

قصَدَ الدَّهْرُ من أُنَى حَمَزَةِ الْأَوَا بَ مَوَلَى حَجْبَى وَخَذَنَ اقْتِصَادَ
وَفَقِيهًا أَفْكَارُهُ شِدْنَ لِلتُّعْمَا نَ مَا لَمْ يَشِدُّهُ شِعْرُ زِيَادَ
فَالْعِرَاقِيُّ بَعْدَهُ لِلحِجَازِيِّ قَلِيلُ ————— لُ الْخِلَافِ سَهْلُ الْقِيَادِ
وَخَطِيئاً لَوْ قَامَ لَبْنٌ وَحَوْشٌ عَلَّمَ الضَّارِيَاتِ بَرُّ النَّقَادِ (١)
رَاوِيًا لِلْحَدِيثِ لَمْ يَخُوجِ الْعَصْرُ ————— رُوفٌ مِنْ صِدْقِهِ إِلَى الْإِسْنَادِ

لقد جعل المعرى من مناسبة رثاء الفقيه الحنفى موقفاً ييوح فيه بما يحمله في نفسه من أحاسيس تجاه العالم المحسوس والغيبى ، أو عالم الشهادة وعالم الغيب ، وأعمل فكره في الحياة والموت ، واتخذ من عناصر الوجود الحى رمز الحماة التى تبكى الهديل ، وهى تتزنى للحياة ، فالحياة والموت يتعاقبان في المخلوقات ، يستقبل الخلق الجديد — الولادة — بالمسرة والفرحة ، ويودع الموت باللوعة والحسرة ، وساعة الفراق أشد وأكثر لذعاً في النفس لأن الوليد مقبل جديد لم تمكن له العشرة والمعايشة والتآلف في النفوس وموت العزيز من الأحياء بعد إلف ومعايشة السنين حقيق بأن تجزع النفس له وتحس بالفقد .

لقد كرس المعرى سقط الزند لموضوعاتٍ جارية في الشعر العربى إلا أنه عالجها من منظوره هو ، ورؤيته هو ، فبدت فيها ملامح العلائقية واضحة في اللفظ والتراكيب والصور ، قد يلجأ إلى المعانى التقليدية أو يستعيد معانى شعر القدماء ، ومحفوظة منه كثير وفير ولكنه ينجح إلى الشعراء أصحاب المعانى ، يستعيد معانهم وصنعتهم ويضيف إليها من معرفته وثقافته وفكره .

ومن هنا قد تلتقى في قراءتك لذعر سقط الزند بمعانٍ لأبى تمام والمتنبى وهما الأيتريين لديه ، لكن هذه المعانى تبدو أطيافاً ، بعد أن أعاد المعرى صياغتها بطريقته .

واستمد المعرى الرمز والتشابه في اللفظ في إلغازه العقدي على ما سنبينه بعد .

(١) النقاد ضعاف الغنم .

حفل عصر أئى العلاء بقدر من الصراع السياسى والعسكرى جنباً إلى جنب مع الصراع الفكرى والدينى بين العرب المسلمين ، وبين العرب والعرب ، وبين المسلمين العرب والمسلمين الترك والروم وبين الفاطميين والعباسيين ، وبين المسلمين والروم .

وكانت الشام مسرحاً لمعظم هذه الصراعات .

وأدى هذا الصراع المتلاحم بين الديانات الإسلام والمسيحية ، بين المسلمين والروم والذى استعرت حذته فى عصره أدى به التساؤل عما فى هذا الصراع من دوافع ، ولم يقتل الانسان أخاه لعقيدته ، والأدبان إنما كانت لتأخى أبناء البشر والتراحم بينهم . فيقف هذا الموقف المتعادل بين الديانات الثلاث . هذا الموقف الذى بدا فى آراء مفكرى العصر واتجاهاتهم ، واتجاه بعضهم إلى التوحيد بينها كما رأينا عند رجال الصوفية ومفكرهم ، وإلى التسامح الفكرى والدينى عند الفاطميين وتعرف أن هذا التسامح بين الديانات الثلاث : الإسلام والمسيحية واليهودية كان إتجاهاً واضحاً فى سياسة الفاطميين . يقول أبو العلاء :

يا آل إسرائيل هل يُرجى مسيحكم هيهات قد ميز الأشياء من حُلُبنا
قلنا: أئانا، ولم يُصلَّب. وقولكم ما جاء بعد . وقالت أمة صُلُبنا

فيعرض لشخص المسيح بين الديانات الثلاث ، وينطرق إلى ما سواها من القصائد وينظر فى أمر الخلاف بينهما نظر العقل ، فلا يفرق بينها ، ويرأها عقائد متوارثة وشرائع فرضت على الأجيال عن الآباء والأجداد . يقول :

العقل يعجبُ والشرائعُ كلُّها خبيرٌ يُقلِّدُ ، لم يقسُهُ قياسُ
مُتمجِّسونَ ومُسلمونَ ، ومعشِرُ متنصِّرونَ ، وهائلدونَ رَسائِسُ
وييوتُ نيرانَ تَزَارُ تَعْبُداً ومساجِدُ معمورةٌ وكنائِسُ
والصَّابِثونَ يعظِّمونَ كواكباً وطباغُ كلُّ فى الشُّرورِ حبايِسُ

ويقول مرة أخرى :

دينٌ . وكفرٌ ، وأنباءٌ تُقصُّ وفُرِّ قانٌ يُنصُّ ، وتوراَةٌ ، وإنجيلُ
فى كلِّ جيلٍ أباطيلٌ يُدانُ بها فهل تفرَّدَ يوماً بالهُدى جيلُ

وَيَرى بالتعطيل ، ويرى في الفروض الإسلامية مما ينفع الناس أولى بالاهتمام كالزكاة والعمل الصالح والسلوك الخير لا في العبادات كالصوم والصلاة :
 ما الخَيْرُ صَوْمٌ يَذُوبُ الصائِمُونَ بِهِ وَلَا صَلَاةٌ ، وَلَا صَوْفٌ عَلَى الْجَسَدِ
 وَإِنَّمَا هُوَ تَرْكُ الشَّرِّ مَطْرَحاً وَنَفْضُكَ الصَّدْرَ مِنْ غُلٍّ وَمِنْ حَسَدٍ
 فالشر هو الذي ينبغي أن يقاوم ، ويقاوم بالدعوة إلى تخليص النفوس من
 الحقد والحسد والدعوة إلى التأخى والمحبة .

ومن هنا ما لم تنه العبادات عن الشر ، ولم تدع إلى الخير فلا جدوى منها :
 ويقف موقفاً معتدلاً من عقائد الفرق الإسلامية ، فلا يرى رأى غلاة
 الشيعة ويستنكر الخلاف بينهم وبين السنة المعتدلين ، ويأسف لانقسام العلويين
 وظهور الخوارج ، ويحمل على مذهبهم الذي يتخذ العنف طريقاً إلى تحقيق
 عقيدتهم ، ويعرض لشطحات الصوفية ، وممارساتهم فيسخر من حلقات
 الذكر التي يعتقدونها منشدين راقصين . ولا يرى مبرراً للخلاف بين مذاهب
 السنة الأربعة التي بلغ العداء بين أتباعها مبلغاً يثير التساؤل والاستنكار .
 يقول :

أَجَارَ الشَّافِعِيُّ فَقَالَ شَيْئاً وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ لَا يَجُوزُ
 فَضْلُ الشَّيْبِ وَالشَّبَابُ مِنَّا وَمَا اهْتَدَتْ الْفَتَاةُ وَلَا الْعَجُوزُ
 وعنده أن رجال الدين هم أصل الخلاف وهم مُشعلوه ومُوججوه ،
 فيحمل عليهم متهماً إياهم بالكذب والمراعاة ، وأنهم يصطنعون القراءة والوعظ
 احتيالاً على الرزق ، ومن هنا بدعو الناس إلى عدم الركون إليهم ولا الثقة
 بهم .

ويتناول بعض ما تحفل به عقول الناس من أساطير وخرافات أسسها أقوال
 أنصاف العلماء في كتبهم عن جهل أو غفلة . ويحذر من الإسراف في الغيبيات
 التي لا يملكون لها تحقيقاً . كأن يقول :

فَانْشِ الْمَلِيكَ ، وَلَا تَوْجِدْ عَلَى رَهَبٍ إِنَّ أَثْتَ بِالْجَنِّ فِي الظُّلُمَاءِ خُشْيَتَا
 فَإِنَّمَا تِلْكَ أَخْبَارٌ مُلَفَّقَةٌ لِحَدْعَةِ الْغَائِلِ الْحُشْوَى حُوشِيَتَا

في كل من الحروف بالحركات الثلاث والسكون ، ولزوم بعض الحركات والحروف مع الروى .

ونظمه بعد عودته من بغداد أى بعد سنة ٤٠٠ هـ .

وأشار في المقدمة إلى الغايات التى استهدفها في الديوان قائلاً :

« وبعضها تذكير للناسكين ، وتنبيه للغافلين ، وتحذير من الدنيا » .

ويلمح إلى هذه الغايات حيث يبرر عودته إلى النظم بعد إعراضه عنه بقوله : « لكثرة ما شاع في المجتمع من الكذب والسخف » .

وعليه فيكون قصده التحذير من شر الدنيا والحث على فعل الخير ، التماساً لشواب الآخرة^(١) .

هذا من حيث المضمون ، ومن حيث الشكل فقد نعى على شعراء العصر مناهجهم وما أرتادوه من المعانى . قال في المقدمة : « وقد وجدنا الشعراء توصلوا إلى تحسين المنطق بالكذب ، وهو من القبائح ، وزينوا ما نظموه بالغزل وصفة النساء ، ونعوت الخيل والإبل وأوصاف الخمرة ، ونسبوه إلى الجزالة بذكر الحروب ، واحتلبوا أخلاف الفكر ، وهم أهل مقام وخفض في معنى ما ، يدعون أنهم يعانون من حث الركائب ، وقطع المفاوز ، ومراسي الشقاء » .

فهذه التقاليد الشعرية التى اعتنقها معاصروه صارت في رأيه أموراً لا ينبغي الأخذ بها ، والشعر أسمى من ذلك مكانة ، فقد اتخذ لنفسه نهجاً يخالف مناهجهم وبخاصة في هذه المرحلة المتأخرة من حياته بعد بلوغه سن الأربعين وتجاوزها .

كان المعرى في الشباب وحتى الكهولة قبل عودته من بغداد إلى بلده يجرى على طريقة شعراء العصر بالقصد إلى المديح ، واتخاذ ما يتخذونه وسائق لارضاء المملوح واحتلاب أخلافه — كما يقول — ليجود بأكثر ما يستطيع بعد هذا الإساس من كسب ودّه ، والتقرب إليه بالغزل ، وكيل صفات المدح نفاقاً ،

(١) راجع أبو العلاء ولزومياته للدكتور كمال اليازجى ، ص ٨٨ .

وذكر ما يلقاه في الوصول إليه من مشاق . وقد يعرض بالسؤال أحياناً يقول
كالم اليازجي^(١) :

« وقد جرى المعري هذا المجرى في شعر شبابه إلا أنه تحوّل عنه في عهد
نضجه والذي حمّله على أن يعود إلى النظم اعتقاده أنه يستطيع أن يحرر شعره
من التقليد المبتذل ، وينزّهه من الرذل الساقط ، ويطهره من الكذب
الممقوت ، ولذلك جعل منه هدفاً أسمى ، جعله عظة للسامع ، وتنبيه للغافل ،
وتحذيراً من الدنيا كي يبتدى به الضالون ويسترشد به المترددون » .

فهل كان شعره في اللزوميات مجرد موعظة فيها تنبيه للغافل ، وتحذيراً من
الدنيا ... إلخ كما جاء في قول الدكتور اليازجي ؟

الحق أن خطاب المعري الشعري في اللزوميات لم يكن مجرد موعظة ، بل
كان إفضاءً بموقف اتخذته المعري من الحياة والناس بعد عودته من بغداد مركز
الفكر والأدب والتوجه الحضاري والسياسي .

وعلى اختلاف الرأي في أسباب عودته من بغداد إلى المعرة بعد أن لقي فيها
ما لقي من مواجهة مع بعض رجالها وعلمائها ، وما شهدته فيها من أمور لم
تقع في نفسه موقعاً مريحاً . يقول في رسالته إلى أهل المعرة عن أسباب العودة :
« وهو أمر سرى عليه بليل ... ليس بنتيج الساعة ، ولا ريب الشهر
والسنة ولكنه غدئ الحقب المتقدمة ، وسليل الفكر الطويل » .

يقول في الرسالة المذكورة :

« ... أما الآن فهذه مُناجاتي إياهم منصرفي عن العراق مجتمع أهل الجدل ،
وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحداثة فأنقضت ، وودعت الشبيبة
فمضت ، وحلبت الدهر أشطره ، وجربت خيره وشره ، فوجدت أوفق ما
أصنعه في أيام الحياة عزلة تجعلني من الناس كبارح الأروى من سانخ النعام ،
وما ألوث نصيحة لنفسي ولا قصرت في اجتذاب المنفعة إلى حيزي ، فأجمعت
على ذلك ، واستخرت الله فيه بعد جلّائه على نفر يوثق بخصائلكم ، فكلهم
راه حزماً . وعدّه إذا تمّ رشداً . وهو أمر سرى عليه بليل ... وأحلف ما

(١) أبو العلاء ولزوميته .

سافرتُ أستاذك من النشب ، ولا أتكثر بقاء الرجال ، ولكن أثرت الإقامة بدار العلم ، فشاهدتُ أنفُسَ مكان لم يسعف الزمان بإقامتي فيه ، والجاهل مغالب القدر ، فلهيت عما استأثر به الزمان ... » حتى يقول : « وبحسن الله جزاء البغداديين ، فلقد وصفوني بما لا أستحق ، وشهدوا لي بالفضيلة على غير علم ، وعرضوا على أموالهم عرضَ الجد ، فصارفوني غيرَ جدلٍ بالصفات ولا هشاً إلى معروف الأقبام ، ورحلتُ وهم لرحيلي كارهون ... » .

وتعلق الدكتور بنت الشاطيء على الرسالة قائلة^(١) :

« والرسالة صريحة في الكشف عن مطاردة من نفسه لا من فقهاء بغداد أو غيرهم — طال عناؤه بها ، وتفكيره فيها حتى انسحب والقوم لرحيله كارهون » .

هذه الهموم النفسية هي التي أشرنا إليها من ممارسته عن قرب لصور الحياة ، وأحوال الناس في عاصمة الدولة ، ومركز الخلافة ، ولا شك أنه رأى على مستوى القيادتين السياسية والدينية ما لا يرضى عنه ، كما رأى من أحوال الناس واختلاط المفاهيم بينهم ما رأى ، وتملك الجهالة والشبه لكثير من عقول العلماء مما لم يرض عنه ، كذلك رأى أحوال الناس وانصرافهم إلى متع الحياة وتمسك بالدنيا دون القيم الرفيعة التي أرساها الإسلام وجاءت بها رسالة محمد بن عبد الله . يقول مخاطباً أهل بغداد :

وكان اختياري أن أموت لديكم	حميداً ، فما ألفت ذلك في الوسع
فليت جماي حُم لي في بلادكم	وجالت رَمامي في رياحكم المُسنع
أفدونكم خفض الحياة فإننا	نصبنا المطايا بالفلاة على القطع

ألا نجد في هذا القول ترديداً لقول المتنبي في رفض الحياة الحضرية التي رأى فيها المتنبي خروجاً على التقاليد والقيم العربية التي أرساها الإسلام وثبتها ، ودعوة إلى العودة للبدواة .

وهكذا ما أن استقر المعري في حلب حتى بدأ يسترجع ما لم يرض عنه مما

(١) أبو العلاء المعري من سبلسلة الأعلام ، طبع الطبعة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٥ * ص ١٢٥ .

سمع إولامسَ في تلك المرحلة البغدادية خاصة ، والتي أوقعت في يقينه أن عصره شر العصور . يقول :

هل يغسل الناسَ عن وجه الثَّرى مطرٌ فما بقوا لم يُبارحْ وجهه دَنَسُ
والأرضُ ليسَ بمرجُو طهارتها إلا إذا زَالَ عن آفاقها الأَنَسُ
تناسَلوا فمنا سرٌّ بنسَلِهِم وَكَم فجورٍ إذا شبَّاهم عَنَسُوا

ومن هنا وقف أبو العلاء من الحياة والناس والدين والفكر موقف الشك والحيرة أهو شكٌ فلسفى ؟ ، أهو شكٌ وجودى ؟ ، أهو شكٌ عِبَتِي ؟ ، أم هو مجرد احتجاج وغضب لما رآه ولمسه من فساد واختلاط ، أدى به إلى اليأس فى الإصلاح والنظرة المتشائمة للحياة والناس .

ورأى الدكتور طه حسين لتعاطفه مع أبى العلاء ومحاولته الدفاع عنه من وجهة نظره هو وقناعاته هو أن شكَّ أبى العلاء كان شكًا إيجابيًا . يقول (١) :

« إن أبى العلاء يصوّر فى شعره شكًا مَهْمًا يعنفُ فهو لا ينتهى بصاحبه إلى هذا التمرد الوقح الذى نجده عند كثير من الذين أسرفوا فى الثقة بعقولهم ، وإنما ينتهى به إلى الخوف والإشفاق ، والغلو فى الحذر ، والاحتياط للنفس ، والاجتهاد فى الخير » .

ولعل طه حسين كان يستحضر صور بعض المتمردين من الشعراء والعلماء ممن دعاهم بأصحاب التمرد الوقح ، وربما كان بين هؤلاء بشار بن برد وأبو نواس وابن الراوندى ونعرف موقفه من بشار ، وأنه كان موقف غير الراضى .

ونلتقى فى ديوان اللزوميات بهذه الرؤية الشاملة التى آرتها أبو الطيب فى عصره قبل عصر أبى العلاء بقرن من الزمان إذ يقول :

أتى الزمانُ بنوه فى شببته فسرَّهم وأتيناهُ على الهرم
ويقول :

أنا فى أمة تداركها الله كصالح فى ثمود

(١) مع أبى العلاء ص ١٨١ .

شعر اللزوميات :

وديون اللزوميات يلى ديوان سقط الزند ، وهو فى مرحلة اعتزاله ، ونضجه يث فيه فى هدوء فلسفته ويعرض موقفه من عصره ومجتمعه . لقد أقام فى محبسه بالمعرة سنوات ، يعتزل الناس والناس لا يعتزلونه ، التقى به نفر من علماء القرن الخامس فى نصفه الأول ، وجمعت الصداقة بينه وبين جماعة من الأعلام فى السياسة والعلم والأدب ، أمثال الوزير المغربي أبى القاسم الحسين بن على ووالده ، وشمس الدين الشيرازى داعى الدعاة ، وابن سنان الخفاجى تلميذه والشاعر الشامى المشهور ، ولقى الشاعر المعروف .الدمشقى ابن حيوس وناظره فى محسن الصورى والمتنبى ، وكان ابن حيوس يعرف كلف المعرى بالمتنبى .

ومر به جماعة من العراق كالشاعر صريع الدلاء .

وراسل المصريين ، واتصل بجماعة من رجال الفاطميين ، فقد كان قريباً منهم ، ودعى إلى مصر ، ولم تمكنه الرغبة فى العزلة من الرحلة إلى مصر . ولا نستطيع أن نغفل علاقة المعرى بالفاطميين على الرغم من عدم لقائه بهم ، ولكنه التقى برجالهم . وظهرت آثار الإسماعيلية واضحة فى كثير من شعره وكتاباتة . لربما لم يصرح تماماً بفكره الإسماعيلى ، لأنه لم يعتقد فكراً معيناً ، إلا أنه كان يميل إليه ويتعاطف معه وأعجب لعبارة الدكتور طه حسين التى تقول :

« ولم يكن أبو العلاء يحب الفاطميين ، ولا يرضى عنهم ، بل لم يكن أبو العلاء يحب الشيعة عامة ، ولا من يتصل بهم من قريب أو بعيد ، فهو يعرض بالفاطميين ويهاجم الإسماعيلية والإمامية » .

ولا يأتى لنا بنص صريح فى هذا التعريض أو الهجوم .

ولكننا نشبت لأبى العلاء قربه الفكرى من الفاطميين وفكرهم الإسماعيلى ، والفكر الشيعى عامة بما روى عن حديث عن لقائه لأبى يوسف القزوينى .

فقد حكى أنه قال يوماً لأبى يوسف : ما رأيت شعراً من مرثية الحسين بن على يساوى أن يخط ، فقال القزوينى : بلى فقد قال بعض أهل سوادنا :

رَأْسُ ابْنِ بَنْتِ مُحَمَّدٍ وَوَضِيهِ
وَالْمُسْلِمُونَ يَنْظُرُونَ بِمَسْمُوحٍ
لِلْمُسْلِمِينَ عَلَى قَنَازَةِ يُرْفَعُ
لَا جَازِعَ مِنْهُمْ وَلَا مُتَفَجِّعُ
إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْآيَاتِ .

فقيم يكون سؤال المعري واستنكاره ؟ لو أنه لم يكن من شيعة الحسين ابن
على ، أو من يحبونه ويجلونه ويرفعونه إلى مقام رفيع لا يرى أحداً من الشعراء
اقترب من الفجيرة عليه بما ينبغي من القول .

ولقد اهتدى أبو العلاء بالعقل في نظره إلى الحياة والناس ، وإلى العقائد
والتقاليد والعادات ، وبدأت في أشعاره روح صوفية ، وإن لم يتصوف عملاً
وهو يعارض أهل الظاهر ، ومن يعتمدون النقل ، ويقدمونه على العقل .
يقول :

لَقَدْ صَدَّتْ أَفْهَامُ قَوْمٍ فَهَلْ لَهَا
وَكَمْ غَرَّتْ الدُّنْيَا نَبِيَّهَا وَسَاءَ نَبِيُّهَا
صَقَالٌ ، وَبِحَتَاكِ الْحَسَامِ إِلَى صَقَلٍ
مِنَ النَّاسِ حَيْفٌ فِي الْأَحَادِيثِ وَالنَّقْلِ
سَاتَبِعُ مَنْ يَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ جَاهِدًا
وَأَرْحَلُ عَنْهَا ، مَا إِمَامِي سِوَى الْعَقْلِ
وَلَقَدْ تَمَرَّدَ عَلَى عَقَائِدِ عَصْرِهِ ، وَقَالَ فِي لَحْظَةٍ مِنْ لَحْظَاتِ تَمَرُّدِهِ مَخَاطَباً لِنَاسٍ
عَصْرِهِ :

تُحِلِّقُ مَرِيضَ الْعَقْلِ وَالِدِينَ فَالْقَنَى
لَتَسْمَعَ أَنْبَاءَ الْأُمُورِ الصَّحَائِحِ
وربما كان من شبه حبه لكل ما هو مفكر علوى النهج شيعي المذهب ميله
الشديد إلى تقديم كل من أئمة تمام والمنتبي ، ونعلم ما قيل من ارتباطهما بالشيعة
أو القرامطة بالنسبة إلى المنتبي ، بل ولعله بالفكر الإسماعيلي أيضاً على ما يرى
بعض الباحثين .

وعلى أية حال فالمعري عاش في ظل الدولة الفاطمية ، والفكر الشيعي عامة
والإسماعيلي خاصة توج به آفاق البلاد في مصر والشام ، ومن لم يكن شيعياً
بالانتماء فقد تكلم بكلام الشيعة والفاطمية ، أو انتحل رموزهم ومعانيهم بحجارة
ومحابة .

ويقع ديوان اللزوميات في نحو ثمانمائة صفحة ، وسماه لزوم ما لا يلزم لأنه
الترم فيه ثلاثة أشياء : بناء القصائد على جميع حروف المعجم ، وإيراد الروى

كما يقول عن الملائكة والشياطين :

قد عشتُ عمراً طويلاً ما عَلِمْتُ به
جِسْماً بِحَسِّ الْجَنَى وَلَا مَلَكٍ
ومنه ما زعموا من أساطير اعتقد فيها العرب ورويت عنهم وعن كهانهم
مثل شق وسطيح :

وجدتُ الغيبَ تجهله البرايا فما شقُّ هديت ولا سطيحُ
والوعاظ الذين يفرغون فأذان الناس فيضاً من هذه الأشياء مسرفون
مغررون بالناس. يقول مخاطباً المواطن المعاصر :

رُؤْيُكَ قد غُرِّتْ ، وَأَنْتَ حُرٌّ بصاحبِ حيلةٍ يعظُ النَّساءَ
يُحَرِّمُ فيكم الصَّهْبَاءَ صُبْحاً ويشربُها على عميدِ مساءٍ
يَقُولُ لكم غدوثُ بلا كِساءٍ وفي لذاتها رهنَ الكِساءِ
إذا فعلَ الْفَتَى ما عنه يَنْهَى فمن جهتين لا جهةٍ أساءَ

ونقف مع طه حسين وقفةً لنستطلع رأيه في هذا الموقف من أُنَى العلاء حيال
قضايا الدين ورجاله . يقول (١) :

« ... ولكن أبا العلاء معذورٌ بعضُ العذر فيما تورط فيه ، ودفع
إليه من ألوان الجدل في الدين والفلسفة ، فهو إذا مضطر إلى أن يُثبت وينفى ،
وإلى أن يُعرِّف وينكر ، وإلى أن يقبل ويرفض . وليس هو الذي ابتكر هذه
المشكلات التي عرضت له أو عرض لها ، وإنما أقبل إلى الحياة ، وبلغ الشباب
فوجد هذه المشكلات قد وضعت موضع البحث منذ أقدم العصور ، وكثر
فيها الاختلاف ، واشتد فيها الأحاد والرد ... ونشأ عن ذلك شرٌّ عظيم في حياة
الناس ، وفسادٌ منكراً في أمورهم ، فلم يكنْ له بدٌّ من أن يستعرض ما
استعرض الناس من قبله ، ويستقبل ما استقبلوا . ويقول فيه مثل ما قالوا ، أو
غير ما قالوا . وقد فعل ، وانتهى به هذا كله إلى هذه الحيرة المؤلمة المهلكة » .

ويعرض طه حسين لوجوه التشابه في أفكار أُنَى العلاء التي بثها في
اللزوميات وتلك التي ترددت في كتابه المهم به في تقليد القرآن وهو
« الفصول والغايات » (٢) .

(١) مع أُنَى العلاء ص ١٨٠ .

(٢) مع أُنَى العلاء ص ٢٠٧ ، و ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

ويقول عن إيمان أنى العلاء إنه كان يؤمن بالله في كليهما في الفصول والالزوميات ويؤمن بحكمته ، وانقطاع الصلة بين الله والناس إلا عن طريق العقل .

وإذا فهو غير مطمئن إلى النبوات ، وهو محتاط في إعلان شكه بالنبوات وهو ينكر في الالزوميات من أمر الحج كما أنكره في الفصول والغايات ، ويثبت وجوب الطاعة والتقوى وإقامة الصلاة والبر بالفقراء ، ورياضة النفس وأخذها بما تكره من الشدائد .

ومن قضايا الالزوميات الفوضى السياسية وطغيان الحكام في العراق والشام :
يقول :

إِنَّ الْعِرَاقَ وَإِنَّ الشَّامَ مِنْ زَمَنِ صِفْرَانِ مَا بِهِمَا لِلْمُلُوكِ سُلْطَانُ
سَاسَ الْأَنَامِ شَيَاطِينُ مُسَلِّطَةٌ فِي كُلِّ مِصْرٍ مِنَ الْوَالِيْنَ شَيْطَانُ
مَنْ لَيْسَ يَخْفَلُ خَمَصَ النَّاسِ كُلَّهُمْ إِنْ بَاثَ يَشْرِبُ خَمْرًا وَهُوَ مَبْطَانُ
وَفِي ظَلَمِ الْحُكَّامِ :

مُلُّ الْمَقَامِ ، فَكَمْ أَعَاشِرُ أُمَّةٍ أَمَرْتُ بِغَيْرِ صَلَاحِهَا حُكَّامُهَا
ظَلَمُوا الرِّعْيَةَ ، وَاسْتَجَازُوا كَيْدَهَا فَعَدُوا مِصَالِحَهَا وَهُمْ أَجْرَاؤُهَا
وَفِي عَدَمِ حُكْمِ الرُّؤَسَاءِ بِالْعَقْلِ :

يُسَوِّسُونَ الْأُمُورَ بِغَيْرِ عَقْلِ فَيَنْقُذُ أَمْرَهُمْ وَيُقَالُ سَاسَةُ
فَافٍّ مِنَ الزَّمَانِ ، وَافٍّ مِنِّي وَمَنْ زَمَنِ رِئَاسَتِهِ خِصَاسَةُ

ويعرض لما كان يحدث في زمنه من غارات الجند بالجيوش المسلمة والرومية وغارات غيرهم من الناس ممن يملكون أسباب القوة والسطوة . يقول :

وَالشَّرُّ جَمٌّ وَمَنْ تَسَلَّمَ لَهُ إِبْلٌ مِنْ غَارَةِ الْجَيْشِ يَتْرُكُهَا لِحُرَابٍ
وَفِي جَشَعِ التِّجَارِ وَغَارَاتِ اللَّصُوصِ وَقَطَاعِ الطَّرِيقِ :

يَا تَجِرُ الْمِصْرَ مَا أَنْصَفَتْ سَائِمَةً كَذَّبَتْهَا فِي حَدِيثٍ مِنْكَ مَشْوَقٍ
إِنْ تَشْكُ قِطْعَ طَرِيقٍ بِالْفَلَاةِ فَكَمْ قَطَعَتْ مِنْ قَبْلِ طَرَقِ النَّاسِ بِالسُّوقِ

ولأنّ العلاء وثبات شعرية ، ولحاث وامضة تنير إعجاب القارئ ، وتقديره لشاعريته . ومن هذه اللمحات قوله على لسان طفل مات صغيراً :

تقول : حللت عاجلتى بكرهى	فَعِشْتُ ولم لِدِدْتُ ولم سَقِيتُ
رقيت الحول شهراً بعد شهر	فَلَيْتَنِي فِي الْأَهْلَةِ مَا رَقِيتُ
فلما صبح بي ودنا فطامى	تَتِمَّنِي الْجِمَامُ فَمَا وُقِيتُ
تركت الدار خاوية لغيرى	وَلَوْ طَالَ الْمَقَامُ بِهَا شَقِيتُ
نقيت فما دنست ولو تَمَادَتْ	حَيَاةً بِي دَنَسْتُ فَمَا نَقِيتُ
رقتى الراقيات وحُم يومى	فَعَادَرْنِي كَأَنِّي مَا رُقِيتُ
وما يذريك باكيتى عسانى	بِسُكْنَى الْفُوزِ فِي الْأُخْرَى انْتَقِيتُ
ومن صنع المليك إلى أنى	تَعَجَّلْتُ الرَّحِيلَ فَمَا بَقِيتُ

وهى وإن تضمنت فلسفة ألى العلاء التشاؤمية ، فإنها تنبىء عن رغبة فى رحمة الطفولة من صراعات الحياة ، والخشية على أن تلوث براءتها ، وما غرس الله فيها فطرة بشور الناس بعد أن يشبوا عن الطوق ، وتباين رغبتهم ، وتشابك أطماعهم .

ومن شعر اللزوميات ذى المذاق الخاص ، قوله من أبيات يخاطب فيها الديك (١) :

عليك ثياب خاطها الله قادراً	بها رثمتك العاطفات الروائم
وتأجلك معقود كأنك هُرمز	يَبَاهِي بِهِ أَمْلَاكُهُ وَيَوَائِمُ
وعينك سقط ما خبا عند قرّة	كَلِمَةٍ بَرَقَ مَا لَهَا الدَّهْرُ شَائِمُ
ورثت هدى التذكار من قبل جرهم	أَوَّانَ تَرَقَّتْ فِي السَّمَاءِ النَّعَائِمُ
ومازلت للدين القويم دعامة	إِذَا قَلِقْتُ مِنْ حَامِلِيهِ الدَّعَائِمُ
ولو كنت لى ما أُرهِفْتُ لك مُدِيّة	وَلَا رَامَ إِفْطَاراً بِأَكْلِكَ صَائِمُ
ولم يُغْلِ ماءً كى تُمَزَّقَ حُلَّةٌ	حَيْثُكَ بِأَسْنَاهَا الْعُصُورُ الْقَدَائِمُ
فإن كتب الله الجرائم ساخطاً	عَلَى الْخَلْقِ لَمْ تُكْتَبْ عَلَيْكَ الْجَرَائِمُ

(١) راجع الفصول والغايات ص ٨٨ .

قته الشعرى

يتمتع المعرى بمقدرة شعرية فذة ومميزة ، وتتأيد هذه المقدرة بمحصول وافر من الثقافات المتعددة ، والتمكن من اللغة والتراث الشعرى والفكرى . والإحاطة بأقوال أصحاب المذاهب والفرق وأصحاب الديانات ، بل لم يدع جانباً من جوانب المعرفة إلا وأحاط به حتى الفنون من موسيقى وغناء كشف عن معرفته بهما في أحد فصوله بالفصول والغايات ، فقد عرض لأضرب الغناء وفصلها ، وفسرها تفسيراً يعكس إلماماً وفهماً لأسرارهما^(١) .

ونرى أنه أفاد من إلمامه بالموسيقى ، في توفير قدر من الإيقاع والموسيقى التى تنسرب من سياق عباراته ، وتتجاوب إلى حد كبير مع معانيه وإيقاعاته . وقد أفاض في حديثه عن أعاريض الشعر وقوافيه .

وندرک أن عنصر الموسيقى في الشعر عنصر مؤثر فيما يوحى به من تأثير غير مباشر في النفس يشارك في وقع المعنى الشعرى مع الخيال على وجدان المتلقى .

ومما يذهب إليه من توفير أصوات متجانسة أو متألّفة تتفق وتختلف في النوع والدرجة هذا الجنس الذى يعتمد إليه في أبياته ، والطباق أو المقابلة ، والتبادل الإيقاعى في التراكيب وصنعتة في القافية ، وبخاصة في اللزوميات ، تشير إلى هذا الميل إلى اكساب هذا الصوت المتردد في آخر أبياته أبعاداً صوتية أعمق وأكثر تركيباً . وقد تبعه في هذا اللزوم بعض شعراء الشام ممن جاءوا بعده ، فأستخدموا جناس القافية وأصبح لوناً من ألوان البديع الشعرى المستحدث منذ القرن الخامس ، وصياغته الشعرية صياغة مركبة ، قد تبدو متكلفة تحسُّ بمعاناة الشاعر فيها ، لأنه يريد أن يوفق بين المعنى العقل البعيد والعبارة ، ولا يحب لهذا المعنى الذى ينشده أن يفرغ مدلوله في سهل من اللفظ ، بل يعتمد إلى تعقيده بتلك الصياغة الصعبة .

ويعلق طه حسين على عمل أبى العلاء هذا بقوله :

(١) راجع الفصول والغايات ص ٨٨ .

« وفي آثار أنى العلاء شدة على الناس ، شدة في ألفاظها ، وشدة في معانيها ، وشدة في أساليبها أيضاً ، ولكن في هذه الآثار شدة على أنى العلاء نفسه ، فقد لقي في إنشائها عناءً وجهداً »^(١) .

وهو يعتمد إلى الإغراب في اللغة ، ويساعده على ذلك معرفته الواسعة بها ، يقول طه حسين^(١) : « فما أعرف أحداً وعى اللغة العربية كما وعها أبو العلاء ، وما أعرف أن أحداً صرّف هذه اللغة في أغراضه وحاجاته الفنية كما صرّفها أبو العلاء » .

ومن عناصر الغموض الذى يقرب إلى اللغز في شعره ميله إلى أن يعبر عن معناه بأكثر من صورة من صور التعبير كالمثالة والمغايرة ، والتفصيل ، والتلميح .

ومن ضروب المماثلة التشبيه ، والإستعارة ، ومراعاة النظر والتشثيل والتوجيه .

وقد يعتمد إلى التعمية ، بأن يوهم من ظاهر الكلام بمعنى غير ما يخفى من حقيقته . وهو واع لهذا ويتمده . يقول في أحد أبياته :

لا تُقَيِّدْ عَلَى لَفْظِي فَإِنِّي مَثَلٌ غَيْرِي ، تَكَلِّمِي بِالْجَازِ
ويخبرنا في غير موضع ، وفي أكثر من عمل من أعماله بأنه يؤثر الرمز ويصطنع الإلغاز ، ولا يكره التحرّز بالتقيّة .

وقد صرح بميله للغز في كتاب « زجر النابح »^(٢) .

وقال يوسف البديعى^(٣) : « وإن أبا العلاء ألف كتاباً في اللغز لشدة ولعه به سماه « كتاب الألغاز » . يقول البديعى : وكتاب الألغاز كبير الحجم ، رتبته على جميع حروف الهجاء ، مشتمل على كلّ بحور الشعر ، وأغراضه ، وضروبه » .

(١) مع أنى العلاء ص ٢٠٧ .

(٢) زجر النابح ، تحقيق الدكتور أنجد الطرابلسي ، ص ٤٥ .

(٣) ألوج التحرى عن حيشة المعرى ، بتحقيق إبراهيم الكيلاني ، ص ١٠٤ .

كذلك أشار بعض شراحه إلى هذه الظاهرة في شعره عامة . فقال البطليوسي تعليقا على قوله :

فهل حَدَّثَ بالحرباءِ يَلْقَى برأسِ العَيْرِ موضحة الشَّجَاجِ
« وأبو العلاء يُلَغِزُ كثيراً بالأسماءِ المشتركة ، فيوهم أنه يريد معنى ، وهو يُريد معنى آخر ، ويصف أحدَ الإسمين المشتركين بصفة الآخر » (١) .

وذكر صاحب جوهر الكنز جملة من ألغازه ، منها قوله (٢) :
أَحِبُّ مُحَمَّدًا وَهَوَايَ فِيهِ وَمَا صَلَّيْتُ قَطُّ عَلَى النَّبِيِّ
وَأَهْرَبُ مَا اسْتَطَعْتُ مِنَ الدُّنْيَا فِرَارَ الشَّيْخِ مِنْ رَهَبِ الصَّبِيِّ
والنبي اسم موضع ، والصبي هو السيف .
وقال أيضاً :

إِذَا مَا صَادَفْتُ زَيْدًا وَعَمَرًا أَتَاهَا بَعْدَهُ أَوْسٌ وَنَصْرٌ
بَقْفَرٍ لَا تَزَالُ تَرُودُ فِيهِ وَيَجْمَعُهَا وَسِرْبُ الْوَحْشِ قَصْرٌ
فزيد من الزيادة ، وعمرو من العمر ، وأوس أى عوض ، ونصر من نصر
الغيث إذا أتاه ، والقصر آخر النهار .
وقال :

رَأَيْتُ يَهُودَ وَافَقْتُ النَّصَارَى عَلَى بُغْضِ الْمَسِيحِ فَلَمْ يُلَابُوا
وَالْمَسِيحُ : الْعِرْقُ مِنَ اللَّحْمِ .
وقال :

لَقَدْ عَايَنْتُ مَرْتَجِزًا بِشِغْرِ تَمْنَى مِثْلَهُ أَهْلُ الْعُرُوضِ
يَعِيشُ بِهِ الْفَقِيرُ وَكَمْ فَقِيرٍ أَبَى إِلَّا الْمَعِيشَةَ بِالْقَرِيطِ
فقوله : مرتجزا يعنى السحاب الذى فيه رعد ، والشعر اسم جبل ، والفقير
الفحل من الإبل ، والقريض الجزء .

(١) شروح سقط الزند ، ص ١٧٢٣ .

(٢) جوهر الكنز ، ص ١١٣ .

وقال :

تُؤَدُّونَ النِّوَافِلَ كُلَّ يَوْمٍ وَضَاعَتْ فِي دِيَارِكُمُ الْفُرُوضُ
الفروض : جمع فرض ، وهو نوعٌ من الشعر .

وقال :

دَعَا قَاضِيَكُمْ يَوْمًا شُهُودًا فَمَالَ بِهِمُ عَنِ الدِّينِ الشُّهُودُ
فالشهود جمع شهد ، وهو العسل .

وقال :

لَقَدْ سُرُّوا وَحَقَّ لَهُمْ سُرُورٌ إِذَا بَالَ الْهَزَبُ عَلَى الصَّرِيرِ
وَكَمْ بَعَثُوا ضَرِيرًا مِنْ عَوَالٍ وَأَيْدِيَهُمْ مَعَاوِيَةُ الصَّرِيرِ
لَهُمْ فِي السَّبَبِ وَالتَّوَرَةِ تَحْطُ إِذَا عَزَمَ الْمَقِيمُ عَلَى الْمَسِيرِ
وَمَا عِيدَ الْفَطِيرِ لَهُمْ بَعِيدٌ وَهُمْ وَالْهَائِدُونَ مِنَ الْفَطِيرِ
جُنُوبُهُمْ عَلَى عُفْرِ الْمَوَامِسِ وَأَيْتَقَهُمْ تَزُودٌ عَلَى السَّرِيرِ

الهزير : الأسد، وهو من الكواكب الذى تقول العرب مطرنا بنوء كذا نعى
بذلك الكوكب الغارب وقت طلوع الفجر في ذلك الوقت . والضرير جانب
الوادي ، والصرير المال المصروع ، وضربٌ من الصَّير ، والتوراة مثل التورية
وهى التغطية ، والفطير مصدر الفطرة وهى الحلقة ، والسريز أكرم مكان
بالوادي .

وقال :

رَأَيْتُ الْبَدَرَ أَذْرَكَهُ مَشِيْبٌ وَأَصْبَحَ طَالِبًا قُوْتَ الْعِيَالِ
وَكَمْ أُرَوَى الْأَهْلَةَ مِنْ نَجِيعٍ وَزَادَ الْمَغْرِبِينَ مِنَ الْهَلَالِ

وتكفى هذه الأمثلة للدلالة على ما أشار إليه كل من طه حسين والبطليوسى
من مقدرة على اللغة ، واللعب على التشابه اللفظى والاختلاف المعنوى والمعرفة
بأسرار اللغة ، والاشتقاقات والصياغات المجهولة والمهجورة ، أو ما يسمى
بحوشى اللغة وغيرها .

ومع اقتدار أى العلاء على اللغة ، وغزارة محصولة فيها ، وقوة ذهنه وذكاؤه

مما مكنته من هذا التشكيل المملغز نجد ذلك يملك قدرةً على تعريف التراث والتعامل معه بشئى مجالاته من معارف ونصوص دينية قرآن أو حديث ، وسيرة وتاريخ ، وأنساب وقبائل وشعر ... إلخ .

وتراه يعتمد إلى الأسلوب المملغز فى توظيف بعض أسماء القبائل كأسد وهى قبيلة معروفة ، وأسم أحد شعراء هذيل الكبار وهو أبو ذؤيب فيقول :

ليالٍ ما تُفِيْقُ من الرِّزَايَا فوَيْحِي من عَجَائِبِهَا وَوَيْبِي
أَعَادَتِ أَسَدَهَا أَسَدًا أَكِيلاً وَأَوْدَى ذُبُوبَهَا بِأَبَى ذُؤَيْبِ

والأسد الأولى لليالى ، وأسد الثانية القبيلة ، وذئب الليالى جانس بينه وبين اسم الشاعر أبى ذؤيب ، كما جانس بين أسد الليالى وأسد القبيلة . ملمحاً ومشيراً إلى قصة أبى ذؤيب وقد أودى الطَّاعُونَ بأولاده الأربعة ، فرتاهم بقصيدته المشهورة .

ويلعب بالجناس كما قلنا فى هوايته العقلية اللغز فى شعره بديوان اللزوميات .
ومن استعانت به بآيات القرآن قوله :

انفرد الله بسلطانه فما له فى كلِّ حالٍ كفاء
وضمَّن ألفاظ الآيَةِ (ولم يكنْ له كفواً أحد) .

وفى قوله :

ألم ترَ للدُّنيا وسوءَ صَنِيعِهَا وليسَ سِوَى وَجْهِ المَهِيمِ ثَابِتٌ
من قوله تعالى (ويبقى وجه ربك ذى الجلال والإكرام) .

ويقول :

ويظُنُّهَا نَارَ الخَلِيلِ سَلَامَةً ويكاد يأخذ من سناها القابس
يشير إلى قوله تعالى : (يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم) .

ويقول :

ويَدَايَ فى دُنْيَايَ وهى حَيِيَّةٌ كَيْدَى أبى هُب غدا فى الآجَلِ

يشير إلى قوله تعالى : (تبت يدا أُنَى هُب وَتَب) مشيراً إلى أن ذلك سيكون مصيره في الآخرة .

ويقول :

وما لبسَ الإنسانُ أبهى من الثَّقى وإنَّ هو غَالِي في حِسَانِ الملايسِ
من قوله تعالى : (ولباسُ التقوى ذلك خير) .

وأمثلة استعانته بالشعر القديم كثيرة نذكر منها إشارته لأرجوزة رؤية القافية :

وَقَاتِمِ الأعْمَاقِ نَحَاوِي المُخْتَرَقِ
مُشْتَبِهِ الأَعْلَامِ لَمَاعِ الحَقَقِ

فيقول أبو العلاء :

مَالِي غَدَوْتُ كَقَافِ رُؤْبَةٍ قُيِّدْتُ في الدَّهْرِ لم يُقَدَّرْ لها إِجْرَاؤُهَا
ومنه قوله :

أَيْنَ امرؤُ القيسِ والعذارى إن مَالٌ من نَحْتِهِ الغَيْطِ
مشيراً إلى قول امرئ القيس :
تقول وقد مَالَ الغَيْطُ بنا معاً عَقَرْتُ بَعِيرِي يَا امرأَ القيسِ فَانْزِلِ
ويقول المعري :

وما جَبَلُ الرِّيَّانِ عِنْدِي بِطَائِلِ وما أَنَا عن نُحُودِ الحِسَانِ بِرِيَّانِ
يريد نقض معنى جرير في قوله :

يا حبذا جبل الرِّيَّانِ من جبلٍ وَحَبَّذَا سَاكِنُ الرِّيَّانِ من كَانَا
وتوظيف محفوظ المعري للشعر القديم ، جاهلياً كان أو إسلامياً أو عباسياً
على مستويات متعددة ، كما نلاحظ في الأمثلة التي سقناها . واهتم الباحثون
بتتبع هذا الموضوع في شعره^(١) .

(١) راجع على سبيل المثال « أبو العلاء ولزومياته » للدكتور كمال اليازجي ، طبع ونشر دار الجيل ببيروت سنة ١٩٨٨ م .

وكم ورد في شعره من توظيف لأحداث التاريخ ، وصراع الفرق والمذاهب منذ الجاهلية وطوال عصور الإسلام حتى عصره .

يتحدث عن الأنبياء ، فعن سليمان الحكيم وقصة استكثاره من النساء ونزاع قاييل وهابيل ، وحديث العرب البائدة عاد وثمود وجرحهم ، وهلاك عاد بريح صرصر .

وأيام العرب كيوم داحس والغبراء ، ويوم حليلة ، ويوم النصار ، ومقتل كليب .

ومن أحداث السيرة ذكر النبي ﷺ وما لقيه من أكلة خبير المسمومة ، ومواقع أحد وبدر ، ويوم غدير خُـم وحديث « من كنت مولاه فعلى مولاه » . ويشير إلى اختلاف الأخذ بهذا الحديث بين الشيعة وأهل السنة : شيعٌ أجَلَّتْ يوم خُـم واثنت أخرى تعارضُها يوم الغار وهو ينبذ التعصب ولا يتعصب لواحد من الفريقين :

ضمنتُ فؤادي للمعاشير كُلِّهم وأمسكتُ لَمَّا عَظُمُوا العَارَ أوْخُـمًا

ويجري حديثه عن أحداث المسلمين بعد وفاة النبي كحديث السقيفة والنزاع بين المهاجرين والأنصار ، وفتنة عبد الله بن الزبير ، واغتيال عبد الرحمن بن ملجم لعل بن أبي طالب ، وقتل الحسين ، وحروب الشام والعراق ، واختلاف طارق بن زياد وموسى بن نصير ، ومقتل مروان بن محمد بمصر وانتهاء الدولة الأموية .

وثورة الزنج بالبصرة والقرامطة بالكوفة والأحساء .

كما يشير إلى بعض ما حدث للشعراء جاهليين ومحدثين ، فيعرض لامرئ القيس ويوم دارة جلجل ، وليلى والمجنون ، ولبنى وابن دُرَيْج ، وعن أبي العتاهية وجه لعتبة ، وتوبته ونسكه .

إلى غير ذلك مما حفل به ديوانه ووظفه فيما إستهدفه من معانيه ومضامينه على صورة صريحة ، أو بطريق الإيحاء والإشارة .

ويبقى بعد هذا حديثنا عن خيالات المعرى ، فنرى أنه مغربٌ في خيالاته
وصوره إغرابُهُ في ألفاظه وصياغاته . . .
وصوره البيانية غالباً ما تكون صوراً مجنحة ، فيها غموضٌ ، أو تعجبها
حجبٌ يريد لها أن تبقى مغلفةً بها ، وقد يرمى بهذه الصور غير واضحة المعالم
إلى الإيحاء بمعان لا يرغب في الكشف عن مستورها .

— ٢ —

ابن سنان الخفاجي

عبد الله بن محمد بن سنان (ت سنة ٤٦٦ هـ)

ولد بحلب ونشأ وتعلم بها ، ورحل إلى المعرة فأخذ الأدب عن أبي العلاء المعري ، وتنقل بين بعض بلاد الشام ، ولقى جماعة من الفضلاء بها .

وكان يرى رأى الشيعة الإمامية .

وقصد بشعره بعض رؤساء الشام مادحاً ، ومنهم جد أسامة بن منقذ مخلص الدولة مقلد بن نصر بن منقذ الكنتاني^(٢) ورثاه بعد وفاته وكان بينه وبين أبي نصر بن النحاس وزير محمود بن صالح المرداس مودة مؤكدة . وكان الخفاجي قد خرج من حلب ، وبينه وبين أميرها المرداسي أمور . وأراد الأمير أن يستدرجه للعودة إلى حلب ، فكتب إليه ابن النحاس رسالة يستدعيه بأمر محمود بن صالح ، وكان قد نَمَّ في كتابته عما يوحى بتأمر القوم عليه ليقتلوه . وفي أثناء طريقه إلى حلب عاود ابن سنان الفكر في رسالة صديقه ابن النحاس ، فرجع^(٣) .

ورد على أبي نصر ابن النحاس بخطاب ملغز كذلك يشير إلى أنه لن يدخل حلب ماداموا فيها يعنى أعداءه .

وكتب إليه صديقه يستصوب رأيه فكتب إليه الخفاجي :

خُف من أمنت ولا تركزن إلى أحدٍ فما نصحتك إلا بعد تحريـبٍ
إن كانت الترك فيهم غير وافيةٍ فما تزيد على غدر الأعرابِ
تمسكوا بوصايا اللؤم بينهم وكاد أن يدرسوا في المحاريـبِ

ولا نعلم أسباب هذه العداوة بين الشاعر وأمير حلب المرداسي، وإن كان يلح إلى غدر الأعراب ، وهم من أعداء الفاطميين ، وهم من السنة وسبق أن ذكرنا ما وقع بينهم وبين الفاطميين من وقائع ، وما كان من علاقة الشاعر ابن حيوس بهم في هذه المرحلة من ستينات القرن الخامس .

(١) ترجمته في الرواى للصمدى ووفيات الأعيان ، والأفضليات لابن منجب .

(٢) راجع وفيات الأعيان ٥ / ٢٧٠ ، حامد عباس .

(٣) راجع انوائى ، وفوات الوفيات ٢ / ٢٢١ .

والغريب أن ابن النجاس عاد فغدر بصديقه الحفاجي ، وكان رسول الموت إليه ، بعد أن هدده محمود بن نصر ، فأمره بأن يحمل إليه طعاماً مسموماً ، لأنه يأمنه .

وهكذا كانت مئة ابن سنان على يد صديقة^(١) .

وهكذا مات ابن سنان مسموماً على يد هذا الصديق سنة ٤٦٦ هـ وحمل إلى حلب فدفن بها .

وللحفاجي ديوان شعر ، ومجموعة مصنفات في الأدب والبلاغة أشهرها « سر الفصاحة » .

وفي شعره بعض معاني الشيعة وأقوالهم . من ذلك قوله في علي بن أبي طالب :

وقالوا قد تغيّرت الليالي وضيعت المنازل والحقوق
فأقسم ما استجدّ الدهر خلُقاً ولا عدوانه إلاّ عقوق
أليس يُردُّ عن فديك عليّ ويملك أكثر الدنيا عتيق

يشير إلى عدم اشراك أبي بكر لعلي بن أبي طالب في غزوة فديك . ويعرض في الأبيات لما قد يكون وقع عليه من الظلم في حلب فاضطر إلى مغادرة دياره خشية اغتياله .

واختار صلاح الصفدي مجموعة من شعره اقتطعها من قصائده أو مقطعات مفردة . وما أختاره قوله :

سلاطينة الدغساء هل فقدت خشفاً فإنّا لخنا من مراعها طرفاً
وقولا لخرط البان فليمسك الصبا عليها ، فإنّا قد عرفنا بها عرفاً
سرت من هضاب الشام وهي مريضة فما ظهرت إلاّ وقد كاد أن تخفى
عليه أنفاس تدأوى بها الجوى وضعف ولكن قد وجدنا بها ضعفى
وهاتف بالبان ثمل فراقها وتتلو علينا من صابتها صُخفاً
عجبت لها تشكو الفراق جهالةً وقد جاوبت من كل ناحية إلفاً

(١) راجع القصة كاملة في فوات الوفيات ٢ / ٢٢١

وما فهموا مما تَغَثَّتْ به حَرْفا
لما لبست طوقاً ، ولا خَضَبَتْ كُفاً
وأضربت ناراً للصبابة لا تُطفا
مواعيد لا يُنكرن ليلاً ولا تُخلفا
جعلن لها في كل قافية وصفاً
من السود لم يَطْوِ الصَّبَاحُ لها سِجْفاً
بحكم الثريا قد قطعنا لها كُفاً
ولم نبق للجوزاء عقداً ولا شيفاً
مُدَبِّرُ حَرْبٍ قد هَزَمْنَا لَهُ صَفَاً
مُفْتَحَةُ الْأَنْوَارِ أو نَثْرَةُ رُغْفَاً
سَلْبَنَاهُ جَاثِمًا أو فَصَمْنَا له وَقْفاً
من الدمع يبدو كلما ذرقت ذرفاً
فَقَرٌّ ولم يشهد طراداً ولا زَحفاً
تخطفها عجلان يقذفها قذفاً
به سِنَّةٌ ما هَبَّ منها ولا أَعْقَى

ويشجى قلوبَ العاشقين حينها
ولو صدقت فيما تقول من الأسى
أجارتنا أذكرت من كان ناسياً
وفي جانب الماء الذي تَرِدِينِ
ومَهْزُوزَةِ اللِّبَانِ فيها تَمَائِلُ
لَبَسْنَا عليها بالثنية لَيْلَةً
لعمري لئن طالت علينا فإننا
رَمِينَا بها في الغرب وهي ضعيفة
كَأَنَّ الدُّجَى لما تَوَلَّتْ نَجْمُوهِ
كَأَنَّ عليه للمجرة روضة
كَأَنَّا وقد ألقى إلينا هلاله
كَأَنَّ السُّهَاءِ إنسان عين غريقة
كَأَنَّ سهيلاً فارس عابن الوغى
كَأَنَّ سَنَا المَرِيخِ شُعْلَةٌ قابس
كَأَنَّ أَفْوَلَ السَّرِّ طرفٌ تعلقت

وصفها الصفدى بأنها من الطنانات (١) .

وهي قصيدة فريدة . فيها تأمل ، وخيال ، وسبح مع السماء ونجومها
وانطباعات ورؤى وصور مما يخيّل له وجدانه ، وكثيرون وصفوا السماء
ونجومها ليلاً ، ولكن ابن خفاجة تفرد من بينهم بهذه التشبيهات التي أبدع في
أكثرها ، وشارك في جزئيات منها من سبقوه .

ونلاحظ تأثره الواضح بأستاذه أبي العلاء في وصف المطوّقة . بقصيدته الرائية
في قوله : « عجبت لها تشكو الفراق » حتى قوله :

ولو صدقت فيما تقول من الأسى
لما لبست طوقاً ، ولا خَضَبَتْ كُفاً
ويقول أبو العلاء مخاطباً بنات الهديل الحمام ذوات الأطواق :

ما نسيئن هالكا في الأوان الحَا
يِدُ أُنَى لا أَرْضِي ما فَعَلْتُ ———— نَ ، وأطواقكن في الأجيادِ

(١) الواو ٥٠٧ .

وفيما لاحظناه من شعر الخفاجي أسى وشكوى من الزمان والناس يديه
أحياناً ، ويستره أحياناً في أشواقه وحنينه ونسييه . ومنه قوله (١) :

بقيت وقد شطت بكم غربة الثوى
وعلمتموني كيف أصير عنكم
فما قلت يوماً للبكاء عليكم
وما الحب إلا أن أعد قبيحكم
وقوله :

هل تسمعون شكاية من عاتب
أما الوشاة فقد أصابوا عندكم
فمئلثم من صابر ورقدثم
وأقل ما حكم الملأل عليكم
وقال :

ما على محسنيكم لو أحسبنا
قد شجانا اليأس من بعدكم
وعُدوا بالوصل من طيفكم
لا وسخر بين أجفانيكم
وحديث من مواعيدكم
ما رحلت العيس عن أرضكم
وقال في أبيات :

وعلى الغضا إن كنت من جيرانه
ومحللون عن المناهل بعدما
ومشتت العزمات ينفق عمره
أمل يلوح اليأس في أثنائه
يمري غفافة ثروة لو أنها
نار تقسم حرها العشاق
شرق بجمّة مائها الطراق
خيران لا ظفر ولا إخفاق
وغنى يشف وراءه الإملاق
نوم لما شعرت به الأخداق

(١) فوات الوفيات ٢ / ٢٢٢ .

وقال (١) :

عَطَّرَ الشَّاءَ تَعَطَّرَتْ أَوْصَافُهُ
مَا كَانَ يَعْلَمُ قَبْلَ صَوْبِ ثَنَائِهِ
وَلَوْ أَنَّ لِلْأَيَّامِ نَارَ ذِكَابِهِ

وقال :

مَلَالَةٌ ضَيَّعَتْ وَدَى بَعْدَمَا
أَمْ شِئْتَ تَعْلَمُ أَنَّ جُودَكَ لَمْ يَدْعُ

وقال :

إِذَا تَجَوَّزْتُكُمْ لَمْ أَحْشَ سَطَوَاتِكُمْ
فَحِينَ لَمْ يَكْ لَا خَوْفَ وَلَا طَمَعٍ
وَإِنْ مَدَحْتُ فَمَا حَظُّي سِوَى التَّعَبِ
رَغِبْتُ فِي الصَّمْتِ إِشْفَاقًا عَلَى الْكَيْدِ

وفي هذه المختارات من شعر ابن سنان آثار واضحة لصنعة الشعرية فالرجل ، لا يهتم بالبديع ، ولا يتكلفه تكلف غيره من شعراء الشام المعاصرين ، وقد أشرنا من بينهم إلى ابن حيوس ، وأبي العلاء . وإن كان لكل منهم وجهته في استخدام البديع . كذلك تحس في شعر ابن سنان شاعرية صادقة وعاطفة غالبية على صنعة الكلام ، وتعميق القول وأحياناً تغلب على تأملاته روح صوفية علوية .

وقد أورد له ابن منجب مختارات من شعره ، وعلق عليها ، منها قوله (٢)

قال عبد الله بن محمد بن سنان بن سبيع بن الحفاجي الحلبي :

لَا يَدْعَى الْفَصْحَاءُ فَيْكَ غَرِيْبَةً
إِنْ أَحْسَنُوا عَنْكَ الشَّاءَ فَأَنْهَا
عَجَبًا لَوَجْهِكَ كَيْفَ بَارَقَ بِشْرِهِ
وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ يِضَ سَيُوفِهِ
وَالْبَيْضُ تَنَثَّرُ ، وَالْأُسْنَةُ تَنْظُمُ
نَطَقَتْ بِمَدْحِكَ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا
تَهَيَّ سَحَابِيَّةً ، وَلَا يَتَعَيَّمُ
تَبْكِي دَمًا ، وَكَأَنَّهَا تَبْسَمُ

فأما الأول فمن مليح التورية . وقد أتى بها في قوله :

وَصَفُّوا بِيَاضَ يَدِ الْكَلِيمِ بِمَعْجَزِ
وَأَسْتَطَفُوا إِحْيَاءَ عَيْسَى مَيِّتًا
فِيهِ ، وَكَمْ لَكَ مِنْ يَدٍ يَبْضَاءِ
فَرْدًا وَجُودَكَ بَاعَثُ الْفُقَرَاءِ

(١) الوالي للصندي ح ١ ، ص ٥٠٧ .

(٢) الأفضليات ص ٤٠ - ٤١ .

وقال (١) :

من القوم صال الدهر إلا عليهم وصالوا بيض الهند حتى على الدهر
أشد احتقاراً بالردي من حساميه وأذنى إلى سير الأعادي على الذعر
له خلقت في المخيل غيث وفي الصبا نسيم، وفي جُحج الدجى غرة البدر

وقد استعمل تركيب هذا البيت في موضع آخر فقال :

ما هزة طرب العُقار وإنما أعطته نشوة كاسيها الأخلاق
هي في الهوى وغد الوصال وفي الكرى طيف الخيال، وفي الوداع عتاق

وهو من قول ابن نباته :

إنها في السحاب وبُل، وفي الر يج نسيم، ونشوة في الشراب
وأما قوله :

أشد احتقاراً بالردي من حساميه

فهذا الصدر يصلح أن يعجز بقول أبي الطيب :

وأقدم بين الجحفلين من التبل

على أن صدر بيت أبي الطيب مناسب للعجز المذكور ؛ لأنه قال :

أقل بلاءً بالرزايا من القتا

فيصير هذا العجز مع صدرين . (٢) .

وبقارن بين أبيات لابن عمار الوزير الشاعر الأندلسي في مدح المعتمد بن
عباد ، وأبيات لابن سنان . يقول في ذكر بلدة افتتحها ابن عباد وأحرقها :

فأرملتها بالسيف ثم أعزتها من الثار أثواب الجداد على القفد
فيها حسن ذاك السيف في راحة الهدي ويأثر ذلك الثار في كيد المجيد

(١) في مدح محمود بن نصر صاحب حلب .

(٢) الأفضليات ص ٤٢ — ٤٣ .

يقول ابن منجب : « فقولهُ أَرَمَلَتْهَا بالسيف ، وألبستها حداداً بالنار من أحسن تركيب ، وأبدع تشبيه . ولقد ذكر عبد الله بن محمد (بن سنان الخفاجي) مثل وهو وأبو بكر متقاربا الزمن متباينا الوطن ، فهذا بالعدوة الدنيا ، وهذاك بالعدوة القصوى فقال وأحسن ما شاء :

غادرَتْهَا دِمْنًا على أَطْلَالِهَا يَبْكِي الخَلِيطُ ، وتَذَكَّرُ الأشواقُ
وشرَعَتْ دِينَ قِرَاك في عرصاتها فَالتَّارُ تُضْرَمُ ، والدِّمَاءُ تُرَاقُ
قال ابن منجب : « وعلى البيت من البهجة وحسن الدِّياجة مالا أعلم لأحد مثله . » (١) .

وذكر له بيتين نظر فيهما إلى العلوم الشرعية ، وهما قوله (٢) :

وأَمَسْتُ صِبَاهُ تَبْتُ الحَدِيدَ ————— وَتُسْنِدُ عن بَائِةِ الأَجْرَعِ
وَتَقْسِمُ أَلَى أَهْبَاكُمُ وَلَيْسَ اليَمِينُ على المَدْعَى
يريدُ أنه وظَّف في هذين البيتين علم الحديث والشرعة .

ويشير إلى أخذه معنى بيت المتنبي :

طَوَى الجزيرةَ حتى جَاعَتِي نَعَبْرَ فَرِغْتُ فيه بآمَالِي إلى الكَذِبِ
قال ابن منجب (٣) : « وقد أخذه ابن سعيد الحلبي (ابن سنان) ، فقال وأحسن :

أَتَانِي وَعَرَضُ اليَدِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ حَدِيثٌ لِأَسْرَارِ الدُّمُوعِ مُذِيعُ
تَصَامُنْتُ عن رَاوِيهِ حَتَّى أَرَبَّتُهُ وَلَانِي على مَا غَالَنِي لَسِيعُ ،
ويذكر أخذه معنى لمهيار (٤) .

(١) الأفضليات ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ١٦٨ .

(٣) المصدر نفسه ٣١٠ .

(٤) المصدر نفسه ٣١٤ .

ابن الخياط الدمشقي

(أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي (ت سنة ٥١٧ هـ)

ولد بدمشق سنة ٤٥٠ هـ في عهد الخليفة المستنصر ، وكان أبوه خياطاً فاشتهر بالنسبة إليه . وكانت داره قرية من دار الشاعر الدمشقي الكبير ابن حيوس والملقب بأبي الفتيان .

وربطت بين الشاعر الفتي محمد بن الخياط وجاره أبي الفتيان وشائج الشعر وحبه ، وقد رأى تقلب أبي الفتيان في النعمة ، واهتمام الناس به وارتفاع منزلته عندهم بسبب الشعر ، فامتلاً قلبه طموحاً بالنبوغ فيه وبلوغ مرتبة تقرب من مرتبة الشاعر الكبير .

وحفظ ابن الخياط كثيراً من أشعار الأقدمين ليُدرب قريحته ، ويهذب طبعه ، ويثري مادته .

وكانت أحوال دمشق في صبي الشاعر غير مستقرة تحت حكم الفاطميين ، فثاروا سنة ٤٦٠ هـ بوالى الشام أنفذ بدر الجمالي ، واحرقت بعض دور دمشق ، واصطدم أهل دمشق بجند الفاطميين ودامت تلك الأحداث حتى سنة ٤٦١ هـ .

ثم كانت بعد ذلك مسرحاً للصراع بين جند الفاطميين والسلاجقة الأتراك الذين بدعوا الاغارة على أملاك الفاطميين بالشام ، فهاجمها أتسر السلاجق من قبل ملكشاه حتى استولى عليها سنة ٤٦٨ هـ كما عرفنا بعد مقاومة عنيفة من أهلها أدت إلى انتقامه منهم باعتقال وجوههم وترحيلهم إلى طرابلس .

وظلت دمشق في شباب الشاعر تعاني من الجور والفاقة ، واضطراب الأحوال وكانت الأمور كذلك في مصر والقاهرة في الشدة العظمى ، فاضطر الشاعر إلى أن يغادر بلده في ظل تلك الظروف القاسية متوجهاً إلى بلد آخر بالشام حيث القى عصاه بمدينة حماه ، فأوى إلى أمير هناك ، سكن إليه بعضاً من الوقت ، وعمل بالكتابة له وخدمته ونظم الشعر في مديحه ومنه قصيدته التي مطلعها :

سَقَوْهُ كَأْسَ فِرْقَتِهِمْ دِهَاقًا وَأُسْكِرَهُ الْوَدَاعُ فَمَا أَفَاقًا

وكان الشاعر ابن حيوس قد غادر دمشق كذاً قاصداً حلب حيث رحب به أمراؤها بنو مرداس الكلايين ، وأجزلوا له العطاء . وسمع ابن الخياط باستقرار ابن حيوس هناك وبسماحة آل مرداس ، فحدثه نفسه بزيارة جاره ، وأستأذه في الشعر .

وفي حلب التقى بأبي الفتيان ، فعرض عليه بعضاً من شعره فقال : قد نعانى هذا الشاب إلى نفسى . وكان ما انشده قوله :

لم يبقَ عندي ما يباعُ بدرهم وكفالكِ مِنِّي منظرٌ عن مَخْبِرٍ
إلاَّ صُبابَةٌ ماءٍ وجهِ صُنَّتْها عن أن تُبَاعَ وأينَ أينَ المشتري

فقال له ابن حيوس : لو قلت « وأنت نعم المشتري » . لكان أحسن . لقد كرمْتُ عندي ونعيت إلى نفسى ، وكان الشاعر الكبير أبو الفتيان قد أسنَّ ، ونصحه بقصد بنى عمار بطرابلس لأنهم يحبون الشعر وبذل له الثياب والمال .

وتقلب بين أمراء الشام فمدح بعضهم كالأمير وثاب بن محمود بن نصر بحماه ، والأمير سديد الملك أبى الحسن على بن مقلد بن نصر بن منقذ صاحب قلعة شيزر سنة ٤٧٦ هـ وجلال الملك من بنى عمار فى طرابلس ، والأمير فخر الملك .

وكان أبو الفتيان قد توفى سنة ٤٧٤ هـ ، وصحت نبوءته فى ابن الخياط ، فأصبح شاعر الشام من بعده .

استقر ابن الخياط إذا فى طرابلس ، وأحسن الصلة بأمرائها من بنى عمار فأحسنوا صلته ، واكرموا وفادته ، ومدحهم بقصائد تعد من أجود شعره ، منها قوله فى فخر الملك :

أعطى الشباب من الآرابِ ما طلبا ورأى يختال فى ثوبى هوى وصيّا

وكانت حياته بطرابلس حافلة ، التقى فيها بالعلماء ، وجالس الأدباء ، وخالط عليه القوم ، ومدح بعضهم ، وتطارح الشعر مع آخرين .

وقضى ما قضى بطرابلس من الزمن ، فعاوده الحنين إلى بلده دمشق ، وكانت فى أيدي السلاجقة ، يحكمها الأمير تاج الملك تنش بن ألب أرسلان ، ووزيره

هبة الله الأصفهاني ، فلقى الشاعر عنده ما كفاه إذ وقع له بصلة جزلة ،
وصحبه زمناً ومدحه بقصائد ، وسافر معه إلى الرى ، وقال فيه :

وما كان لى لولاك بالرى منزل وإن شَعَفْتُ غَيْرِي وَتَيْمُ حُبِّهَا

وجال جولة فى بلاد العجم ، ولم تطل هناك رحلته ، فعاد إلى بلده دمشق .
فأتصل ببعض أمراء العرب من الكلبيين ، ومدحهم ، كما مدح غيرهم من
الأمراء ، والوجهاء ، واختص منهم بأحدهم واسمه غضب الدولة وصحبه فى
مجالسه ومسرّاته ، حتى توفى هذا الأمير . فرثاه .

واتصل من بعده بصاحب دمشق آنئذ من السلاجقة وهو تاج الملوك بورى بن
طغتكين . وحسنت أحواله بدمشق حتى توفى سنة ٥١٧ هـ .

وكان ابن الخياط شاعراً مطبوعاً يقول الشعر ، لا عن درس ، بل عن هواية
وطبع وقلنا إنه حفظ كثيراً من الشعر القديم ، فنظم على سننه ، وراض قريحته
على منهجه فجاء شعره ، وقد حفل بملايح شعر بعض من حفظ لهم ، تسميه
سمات التعبيرات التقليدية ، والصور الجارية فى معظم الشعر القديم ، كذلك
صيغه وتراكيبه وإن كان يدخل عليه أحيانا بعض الصنعة مما ساد فى عصره ،
وعند من سبقه من أصحاب البديع من مثل قوله مجانسا :

يَقِينِي يَقِينِي حَادِثَاتِ النَّوَائِبِ وَخَزَمِي خَزَمِي فِي ظُهُورِ النَّجَائِبِ

وقوله :

لَقَدْ وَجَدْتُ وَجْدِي الدِّيارُ بِأَهْلِهَا وَلَوْلَمْ تَجِدْ وَجْدِي لِمَا سَقَمْتُ مَقْمِي

وأغرم بغريب الاستعارة متأسياً أحيانا بأبى تمام كقوله فى التهئة بمولود :

أَطْلَعْتُ بَدْرًا فِي سَمَاءِ مَمَالِكِ سَهَرِ الْجَمَالِ وَتَأَمَّ فِي تَلَوِينِهِ

وفى قوله مادحاً :

هَرَبْتُ مِنْ ارْتِيَاكِ حِينَ أَتَحَى عَلَى حَمْدِي بَعْضُ نَدَى ثَقِيلِ
وَلَمَّا عَذْتُ بِالْعَلِيَاءِ قَالَتْ لَعَلَّكَ صَاحِبُ الشُّكْرِ الْقَتِيلِ

فسهّر الجمال ونومه وعضبُ الندى الثقيل ، والشكرُ القليل ؛ كلها من
الاستعارات الغريبة التى كان أبو تمام مُغرّى بها كمثّل قوله « ماء الملام » وغيره .

كما أن نفس المتنبي بدا في أكثر من قصيدة ، وقد فرض هذا الشاعر الكبير أسلوبه على العصر كله طوال القرنين الخامس والسادس . ومنه قوله :
وهل من ضمّر الجرد المذاكى كمن جعل الطراد لها ضميراً
وكقوله^(١) :

إذا ما النار كان لها اضطرامٌ فما الداعي إلى قدح الزنادِ
رجوتُ فما تجاوزهُ رجائي وكان الماء غايةً كل صاذِ
إذا ما رُوّضت أرضي وساحتُ فما معنى انتجاعِي وارتياذِي

ولغة ابن الخياط تمتاز بالجزالة ، وإن خالف أحياناً بعض ما يجري على ألسنة المتقنين من صحيح اللفظ ، وقويمه ، وقد أخذ عليه ذلك ، وأرجع إلى قلة اتقانه لعلوم اللغة ، وإن حاول استدراك ذلك في أخريات حياته ، فاعتدلت لغته وصحت موازينه .

ولاحظ خليل مردم ترديده لبعض الألفاظ التي أغرم بها ، كاستخدامه للفظ أم في كل ما يريد تضخيمه ، وتفخيمه من مثل قوله :
لقد طرقت بك أم العلاء بيوم له كل يوم حسودُ
وكقوله :

بصرتُ بأمانات الحيا فظننتُها أناملهُ. إنَّ السحائبَ أشباهُ
وباعتباره شاعراً مسلماً ، والقرآن من أخص ما يحفظه المسلم ويتمثل به ، ويتأثر بلفظه ومعانيه ، فالشاعر ابن الخياط ، لا يفتأ يقبس من القرآن الكريم بعض لفظه كقوله^(١) :

إذا ما الكأس لم تَكُ كأسَ بين فليست بالحميم ولا الغساقا
وقوله :

يطبّق غيثهُ أرضَ الأمانِي ويسمُو سعده السَّبْعُ الطَّباقا

(١) ديوانه ص ٧ من قصيدة يمدح الأمير أبا الفوارس محمد بن مالك بحمة .

وبين قصائده في المديح أحيانا بناء الأقدمين إذ يبدأ بالغزل ، ويخلص منه إلى المديح ، وقد يذكر الرحلة ويتخلص إلى الممدوح ومنه قوله :

هَبْوَاطِيكُمْ أَعْدَى عَلَى النَّأْيِ مَسْرَاهُ فَمَنْ لِمَشُوقٍ أَنْ يُهَوِّمَ جَفْنَاهُ
وَهَلْ يَهْتَدِي طَيْفُ الْخَيَالِ لِنَاحِلِ إِذَا السَّقَمَ عَنْ لِحْظِ الْعَوَائِدِ أَخْفَاهُ

* * * * *

أَحْنُ إِذَا هَبَّتْ صَبَا مُطْمَئِنَّةً حَتَّى مَطَايَا الرِّكَبِ أَوْشَكَبَ مَغْدَاهُ
خَوَامِسَ حَلَاهَا عَنِ الْوَرْدِ مُطْلَبَ بَعِيدَ عَلَى الْبَزْلِ الْمَصَائِبِ مَرَاهُ
هَوَى كَلِمَا عَادَتْ مِنَ الشَّرْقِ نَفْحَةً أَعَادَ لِي الشَّرْقَ الَّذِي كَانَ أَبْدَاهُ
وَمَا شَعَفَنِي بِالرَّيْحِ إِلَّا لِأَنَّهَا تَمَرُّ بِحَيٍّ دُونَ رَامَةٍ مَثْوَاهُ
أَحَبُّ تُرَى الْوَادِي الَّذِي بَانَ أَهْلُهُ وَأَصْبَحُوا إِلَى الرَّبْعِ الَّذِي مَحَّ مَغْنَاهُ

* * * * *

أَلَا حَبِذَا عَهْدُ الْكَيْثِ وَنَاعِمَ مِنَ الْعَيْشِ مَجْرُورُ الذِّيُولِ لِبَسْنَاهُ
لِيَالِي عَاطَتْنَا الصَّبَابَةَ ذُرَّهَا فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا مَنَهْلٌ مَا وَرَدَّ نَاهُ

* * * * *

وَبِالْجَزْجِ حَتَّى كَلِمًا عَنْ ذِكْرِهِمْ أَمَاتَ الْهَوَى مَنَى فَوَادًا وَأَحْيَاهُ
تَمْنِيَتِهِمْ بِالرَّقْمَتَيْنِ وَدَارُهُمْ بَوَادِي الْعَضْبَا يَا بَعْدَ مَا أَمْتَنَاهُ
وَهَذَا يَتَخَلَّصُ مِنَ الْغَزْلِ بِقَوْلِهِ :

سَقَى الْوَابِلَ الرَّيْعَى مَا جَلَّ رِبْعُكُمْ وَرَاوَحَهُ مَا شَاءَ رَوْحٌ وَغَاذَاهُ
وَجَرَّ عَلَيْهِ ذَيْلَهُ كُلَّ مَا طَرَّ إِذَا مَا مَشَى فِي عَاطِلِ الثَّرْبِ حَلَاهُ
وَمَا كُنْتُ لَوْلَا أَنْ دَمَعِي مِنْ دَمٍ لِأَجْمَلِ مَنَاءٍ لِلنَّسَابِ بِسَقْيَاهُ
عَلَى أَنْ فَخَّرَ الْمَلِكُ لِلْأَرْضِ كَافِلَ بِفَيْضِ نَدَى لَا يَلْعُ الْقَطَرُ شَرَوَاهُ

ويعضى في معاني المديح المعروفة يسوقها في ما اعتاد الشعراء التعبير عنها من معارض لفظية متعددة .

ونلاحظ فيما قدمنا من غزله سيره على غير ما اعتاد الشعراء من البدء بالوقوف أو مخاطبة الصاحب أو الصاحبين بالوقوف أو التعرّيج ، ثم الوقوف

والبكاء ، والذكرى وما إلى هذا . بل ساء متغزلاً في اغيوب ، فذكر الطيف ، وأنه يعود فيذكره به ، ويتذكر بالريح التي تنقل عبق هذا الحبيب ، ثم يختم بذكر الديار فيدعو لها بالسقيا .

وهو في كل هذه المعاني التي تتكرر عند الغزلين والبادئين بالنسيب من الشعراء بصطاد المعنى الذي يروقه وينسج على منوال بعض السابقين ، وإن اختلف نسيجه وتغيرت ألوانه . ونلاحظ أنه يكثر من استخدام الطيف ، والريح ، والنسيم كعادة الغزلين المحدثين .

وقد لا يبدأ القصيدة بهذه البداية التقليدية ، بل يدخل إلى موضوع المديح دون تمهيد .

وله في غير المديح في موضوعات شتى ، إلا أن المديح غالب ، لأنه كان شاعراً متكبساً على ما عرفنا من وقائع حياته يقصد الحكام والأمراء وعلية القوم ، وله مع هذا في تلك الموضوعات أبيات جيدة تناقلها الرواة ومؤرخو الأدب معجبين من مثل أبياته في الغزل التي يقول فيها^(١) .

خذنا من صبا نجد أماناً لقلبيه	فقد كاد رباها يطير بلبه
وإياكم ذاك النسيم فأنه	إذا هب كان الوجد أيسر خطبه
خليلى لو أحببتما لعلمتما	محل الهوى من مغرم القلب صبه
تذكر والذكرى تشوق ذوى الهوى	يتوق ، ومن يعلق به الحب يصبه
غرام على يأس الهوى ورجائه	وشوق على بعد المزار وقريه
وفي الركب مطوي الضلوع على جوى	متى يدعه داغى الغرام يلبه
إذا خطرث من جانب الرمل نفحة	تضمن منها داءه دون صحبه
أغار إذا آنست في الحى أنه	حذاراً وخوفاً أن تكون لحيه

ويستخدم ابن الخطيب في غزله أسماء بعض الأماكن التي اعتاد الشعراء ذكرها في نسيبهم وهذا الاستخدام يختلف فيه المدلول والايحاء ، فالقداى الجاهليون يذكرون تلك الأماكن على أنها مواطن الأحباب والأهل وأوطان القبيلة ، ومراتع الصبا ، أما المحدثون فيذكرونها اعتماداً على إحياءاتها في الشعر القديم ، والعربى محب للشعر يحفظ كثيراً منه ، وهذه الأسماء إحياءات محبة لديه مما أطلقه ، ورسخه

(١) ديوانه ص ١٧٠

الشعر القديم في وجدانه ، والشاعر هنا يستخدمها على هذا الاعتبار من مثل قوله في هذه القصيدة :

« خذا من صبا نجد » ، وقوله :

ألا ليت أتى لم تحل بين حاجر
وبيني ذرا أعلام رضوى وهضبه
وقوله :

أهيم إلى ماء بركة عاقل
وأستاف خرب الرمل شوقاً إلى اللوى
وله في العتاب واسترضاء المملوح ، والتنديد بالوشاة والكاشحين (١) :

متى ارتجعت مواهبها الكرام
أيصعد عائداً في السحب قطر
أرى العلياء من تقصير أمرى
جمال الملك غيرى منك يذهي
أعيذك من رضى يتلوه سخط
أيرجع جفوة ذاك التصافي
أتبريني يد راشيت جناحي
ويغري بن الحمام أخو سماج
أعزى طرق عدلك تلقى عرضاً
وحقق بالتأمل كشف خالي
إذا ما افترى يرقك في سمانى
أنغرقنى وليس الماء منى
وأونخذ في جماك بذنوب غيرى
وأين خلايق ستحول عنها
فلا تلقى إلى الواشين سمعاً
وإن الود عندهم نفاق

وهل يسترجع الغيث الغمام ؟
تنزل في الوهاد به الرهائم ؟
بها خجل وبالمجد احتشام
وغيرك من تغيره اللثام
ومن نغمى يكدرها انتقام
ويخفر ذمة ذاك الذمام
ويخسبني ندى هولى حسام
به عن مهجتي دفع الحمام
نقياً لا يلثم به الملام
فغيرى عاشق وى السقام
تجلى الظلم عني والظلام
وتخرقني ومن غيرى الضرام
فأين العدل عني والكرام
إذا حالت عن السكر المدام
فإن كلام أكثرهم كلام
إذا طاونعتهم والحمد ذام

(١) ديوانه في جمال الملك ص ١٧٨ .

وله في شكوى الزمان بمطلع قصيدة يمدح بها الأمير سديد الملك بن منقذ ،
تذكر بيائية لابن الرومي ، وتحس فيها بمصاحبه له وهو ينظمها . يقول فيها^(١) :

وحزمتي حزمتي في ظهور النجائب
غلبت به الخطب الذي هو غالي
قراع الليالي لا قراع الكتائب
يزيد اتساعاً عند ضيق المذاهب
رفعت وقد هدبتني بالتجارب
وأعطيت فضلاً في الله غير ذاهب
لدي ، ولا ماء الأمانى بساكن
زماناً ، ولا ديني عليها بواجب
وتقضى بهالي ، عادلات ، مناصبي
وأخرى ، وما من قطرة في المذانب^(٢)
إذا كنت ذا برق من الحظ كاذب
وبالبرق عن صوب الغيوث السواكن
تزهدي في نيل الغنى كل راغب
خضوعاً ، رأيت العدم خير مراكبي
وفضل مبين كنت أول راكب
وأظفر بالحاجات لست بطالب
ولا كل ناء عن رجاء بخائب

يقيني يقيني حادثات التوائب
سينجدي جيش من العزم طالما
ومن كان حرب الدهر عود نفسه
على أن لي في مذهب الصبر مذهباً
وما وضعت مني الخطوب بقدر ما
أخذت ثراء غير باقي على الندى
فما لي^{١٩} ، لا روض المساعي بمفرج
كان لم يكن وعدى لديها بخائن
وحاجة نفسي تقتضيها مخايلي
عددت لها برق الغمام هنيئة^(٢)
وهل نافعي شيء من العزم صادق
وإني لأغني بالحديث عن القرى
قناعة عز ، لا طماعة ذلة
إذا ما امتطى الأقوام مركب ثورة
ولو ركب الناس الغنى بيرة
وقد أبلغ الغايات لست بسائر
وما كل دان من مرام بظافر

ويذكر في مديحه لأحد الأمراء حصه على جهاد الفرنجة من الصليبيين ، وقد
جاشت جيوشهم في بلاد الشام ، وهاجمت حملاتهم أصقاعة شمالاً وجنوباً حتى
احتلوا القدس وبعض الثغور . يقول^(٤) :

إلى كم وقد زخر المشركون
وقد جاش من أرض إفرنجية
بسيل يهال به السيل مدداً
جيوش كمثل جبال تردى

(١) ديوانه ص ١٢ .

(٢) هنيئة اسم للمائة من الإبل وغيرها .

(٣) والمذانب جمع مذنب وهو الجدول يسيل في الروضة بمائها إلى غيرها .

(٤) ديوانه ص ١٨٤ .

بنو الشرك لا ينكرون الفساد
ولا يردعون عن القتل نفساً
فكم من فتاة بهم أصبحت
وأم عواتق ما إن عرفه
تكاد عليهم من خيفة
ولا يعرفون مع الجور قصداً
ولا يتركون من الفتك جهداً
تدق من الخوف نحرًا وخداً
من حرًا، ولا ذقن في الليل برداً
تذوب وتلف حزنًا ووجدًا

وفيهما يحضر على قتال الصليبيين مع بقية أمراء المسلمين مشيداً بجهاد
السلاجقة ، ومنهم ألب أرسلان يقول :

فقد أينعت أروس المش
فلا بد من حدهم أن يقل
فإن ألب رسلان في مثلها
فأصبح أبقي من الفرقدين
سركين فلا تغفلوها قطافاً وحصداً
ولا بد من ركنهم أن يهدأ
مضي وهو أمضى من السيف حداً
ذكرًا وأسنى من الشمس مجداً

وترك ابن الخطاط ديوانه رواه تلميذه أبو عبد الله محمد بن نصر القيسرائي
(ت ٥٤٨ هـ) وقد أعجب العلماء بشعره فقرطوه وأشادوا به .

يقول خليل مردم^(١) : « أما منزلته بين الشعراء في عصره فقد اتفق على أنه
كان من المحسنين ، بشهادة معاصريه من طبقة شيوخه ومن دونهم ، فقد شهد له
شيخه ابن حيوس بالإجادة وهو في ريق الشباب ، وجعله ولي عهد » .

وقال ابن عساكر : « ابن الخطاط ختم به ديوان الشعر بدمشق ، وكان شاعراً
مكثرًا مجيداً محسنًا » .

وقال السلفي : « كان ابن الخطاط شاعر الشام . وقد اخترت من شعره مجلدة
لطيفة ، وسمعتها منه » .

وقال أبو الفوارس نجا بن اسماعيل العمري : « ابن الخطاط في عصره أشعر
الشاميين بلا خلاف » .

وقال الذهبي : « ابن الخطاط شاعر عصره ، من كبار الأدباء ، ونظمه في
الذروة » .

(١) مقدمة ديوانه ص ٣٠ .

وقال ابن خلكان : « .. كان من الشعراء المجيدين .. وأكثر قصائده غرر » .
والذى نراه أنه ومعاصره أبا أسحاق إبراهيم الغزى طبقة واحدة ، وكلاهما محسن
ولكن الغزى رحل عن الشام ودخل بلاد العجم ، وبقي هناك بقية حياته ،
فأصبح ابن الخياط وحده شاعر الشام » .

وقال ابن العماد الكاتب فى المقارنة بينه وبين شاعر الشام الكبير آنذاك أبى
الفتيان ابن حيوس : « ابن حيوس أصنع من ابن الخياط ، لكن لشعر ابن الخياط
طلاوة ليست له » (١) .

ويقول خليل مردم (٢) : « والحسن من شعره أكثر من الوسط ، وقد يعلو
حتى يبلغ الأوج . وله قصيدة هى فى رأينا أحسن شعره ، ومن مختار الشعر فى
جميع عصوره ، سلمت جميع أبياتها ، عذبة الألفاظ ، خلاصة المعانى ، جعل
نسيها وصفاً لآراب الشباب ، ونزعات الصبا ، ونزوات الفتوة » . يقول :

وراح يحتال فى ثوبى هوى وصبا
كما يغادر فضل الكأس من شرنا
أن الزمان سيمحو منه ما كتبنا
إلا ارتدى برداء الشيب وانتقبا
فبادر العيش باللذات وانتهبا
فليس يوم بمردود إذا ذهبنا
لم أقض من حبه قبل التوى أربنا
وجاذبته جبال الشوق فالتجذبا
حتى إذا أدبرت حاولتها طلبا
صم المطالب لا ورداً ولا قربا
نأثي المحل ، طريدا عنه معتربا
فكلما رضىته فى مطلب صعبا
فكلما قلقته نهضة رعبا
هولا يزهد فى الأيام من رعبا

أعطى الشباب من الآراب ما طلبنا
لم يترك الشيب إلا فضل صبوته
رأى الشيبة خطأ موقفا فدرى
إن الثلاثين لم يسفرن عن أحد
والمرء من شئ فى الأيام غارته
ما شاء فليخذ أيامه فرصا
هل الصبى غير محبوب ظفرت به
إلى لأحسد من طاح الغرام به
والعجز أن أترك الأوطار مقبلة
مألى وللحظ لا ينفك يقذف فى
أصبح فى قبضة الأيام مرتبنا
ألح دهر الجوج فى معاندتى
كمخاض الرجل إذ طال العناء به
لأسكن صروف الدهر مقتحما

(١) مقدمة ديوانه ص ٢٧ .

(٢) مقدمة الديوان ص ٢٩ .

غضبانَ للمجيد، طَلَّاباً يَشارُ عَلَاً وَاللَّيْثُ أَفْتُكُ مَلاقى إِذا غَضَبَا
عِنْدى عَزائِمُ رَأى لَو لَقِيتُ بِها صَرَفَ الزَّمانَ لولِي مَعنَا هَرَبَا

وفى شعر ابن الخياط ذاتية واضحة ، ويختلف عن أستاذه ابن حيوس الذى تغلب عليه الموضوعية كما أشرنا . كذلك فإن صياغة ابن الخياط تختلف عن صياغة ابن حيوس لأنه يميل إلى رقة الكلام ، ولا يَجْنَحُ للجزالة والخطائية ، كما نرى الطبع والشاعرية يغلبان الصنعة والمباشرة . وهو فى عمله الشعرى يتبع طريقة البحرى ويتأثر به مخالفاً بذلك ابن حيوس الذى اعتمد طريقة أبى تمام .

ومعظم معانيه فى موضوعات المديح الغالبة على شعره مستمدة من التراث الشعرى السابق ، وما تأثر فيه بمعانى البحرى وصياغته واخيلته قوله :

يَبْضُرُ تَوَقَّدَ فى أَيْمانِهِمْ شُعَلِ هى الصَّواعِقُ إِذْ تَسْتَوِطُنُ السُّحُبا
وأحسن ما قال من الشعر كما أئحنا ليس فى المديح ، ولا شعر المناسبة والتكسب ، لكن ما قاله فى الشكوى كالقصيدة التى يرقى بها الشباب ، أو هذه القصيدة التى يشكو فيها الزمن :

أَلَا أَفْتى من صُرُوفِ الدَّهْرِ يَحْمِينى أَلَا كَرِيمٌ على الأَيامِ يُعْدينى
مُضَى الكَرَامِ وَقَدْ خُلِفْتُ بَعْدَهُمْ أَشْكو الزَّمانَ إلى من لَيس يُشْكِينى
كَمْ أَسْتَفِيدُ أَحْماً بَرّاً فَيَعْجُزْنى وَابْتَغى ما جِداً مَتَحْضاً فَيُعْصِنى
أَرْجو السَّماحةَ مِنْ لَيس يُسْعِفْنى وَابْتَغى الرِّفْدَ مِنْ لا يَواسِنى
لو كُنْتُ أَقْدِرُ ، والأَقْدارُ غَالِيَةٌ لَبِغْتُ فَضْلِي بِحِظِّى غَيرَ مَعْبُونِ
لو كانَ فى الفَضْلِ من بَخيرِ لَصابِحَةٍ لَكانَ فَضْلِي عَن ذى النَقْصِ يُغْنِينى
يا هَذا قد أَصابَ الدَّهْرُ حَاجَتَهُ مِنِّى فَجِئَما لا يَنْفَلُكُ يَرْمِينى
إِنْ كانَ يَجْهَدُ أَنْ أَصْلَحَ نَوائِبُهُ جَمْعاً ، فَوَاجِدَةٌ مِنْهُنَّ تَكْفِينى
كَانَهُ لَيسَ يَغْلُو مَرَمِيلاً يَدُهُ بِكُلِّ ما نالَ مِنِّى الدَّهْرُ وَيُسْلِينى
سَلَوْتُ لا مَلِكَ عَمَّنْ كَلَفْتُ بِهِ وَمِثْلُ ما نالَ مِنِّى الدَّهْرُ يُسْلِينى
ما كُنْتُ أَرْضى الهَوَى والوَجدُ يَتَجَلَّنِى حَتَّى بُلَيْتُ فَصارَ الهَمُّ يُضْنِينى
من كانَ ذا أُسوةٍ مِمَّنْ بِهِ حَزَنٌ فَاليَوْمَ بى يَتَأَسَّى كُلُّ مُحْزُونِ

آيات إنسانية صادقة العاطفة ؛ هى نفثات المكروب تمازجها ذاتية واضحة تكشف عن معاناة الشاعر ، ويجرى فيها نفس واحد من البداية حتى النهاية

تنساق في كلمات لا تكلف فيها ، ولا صنعة خارجة على طبيعة الشكوى الصادقة .

وطبع ابن الخياط وتلقائيته واضحان كل الوضوح ، وهو وإن تتلمذ على ابن حيوس ، واعتبره هذا خليفته في الشعر على شعراء الشام إلا أن الشخصيتان اختلفتا، بل تعارضتا، كما اختلف شعرهما، فابن حيوس أمير مستغني بما كان لديه من المال عن الطلب في معظم حياته ، وهو قصير حسن المظهر على غير حال ابن الخياط وبنيته ومظهره ، فقد كان فقيراً ، يعمل في حرفة الخياطة وتكسب بالشعر الذي قاله طبعاً لا تعليماً ، وكان قوى البنية تحسبه حملاً أو جملاً لبرزته وشكله وعرضه ، كما قال العماد الكاتب .

وطبيعي أن لا نجد في شعره آثار ثقافة متعددة المصادر ، منوعة الاتجاهات اللهم إلا ما اقتضته المعرفة ، ومن هنا كان استخدامه للغة في حدود محفوظة المحدود من الشعر ، وقراءته المحدودة كذلك .

ومن هنا لا تجد توظيفاً لمعلومات ، أو نصوص شعرية أو نثرية أو معرفية عامة .

إبراهيم الغزى*

(ت سنة ٥٢٤ هـ)

أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى عثمان بن محمد الكلبي .

ولد ونشأ بغزة ، ثم انتقل إلى دمشق لطلب العلم ، وأخذ بها على جماعة من مشاهير عصره ، وكان أول دخوله دمشق سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، ولعله كان حينذاك قد ودع الشباب ودرج إلى الرجولة والكهولة . وسمع بدمشق من الفقيه نصر المقدسي .

ولما بيع في العبد مرتبة ، وفي الشعر مكانةً رحل إلى بغداد ، والتحق بالدرسة النظامية وأقام بها سنين كثيرة ، وامتدح بها جماعة من رؤسائها وانتشر شعره هناك .

وقد أشاد به الحافظ ابن عسساكر وكذلك البغدادي ومن بعدهما ابن خلكان وعماد الدين الأصبهاني وذكروا له مقطعات من شعره ز ولم يوردوا قصائد بتامها .

قال ابن خلكان . وله ديوان شعر اختاره لنفسه ، وذكر في خطبته أنه ألف بيت .

وتم يستقر به الحال في بغداد ، بل ألقاه حب الرحلة ، والتنقل في البلاد ، فتوجه ناحية المشرق وطرق خراسان وكرمان ، ولقى بها جماعة من الفضلاء فمدحهم ، ونال رضاهم وعطاءهم .

قال ابن العماد بعد أن أثنى عليه : وتغلغل في أقطار خراسان وكرمان ، ولقى الناس ، ومدح بصر الدين مكرم بن العلاء وزير كرمان بقصيدته البائية التي يقول فيها ولقد أبدع :

راجع ترجمته في وفيات الأعيان ١ / ٥٧ بتحقيق الدكتور إحسان عباس وفريدة القصر — قسم شعراء الشام ج ١ وتاريخ بغداد . وتاريخ دمشق لابن عساكر

حسنا من الأيام مـلا نُظِفَه كما حَمَلَ العَظْمُ الكَثيرُ العَصَائِبَا
ومنها في قصر الليل وهو معنى لطيف :
ونيل رجونا أن يدبَّ عِذارُه فما اختطَّ حَتَّى صارَ بالفجرِ شائب
قال : وهي قصيدة طويلة .

وفيما روى مما بقى من شعره ما يوحى بأنه قاسى من العوز والحاجة ، ولم
يلق من مدائحهم لبعض وجوه عصره ما يرضيه ، فتناول بعضهم هاجياً
ومعترضاً يبخلهم ومنه قوله في أحد الوزراء :

من آلة الدُسِّ لم يُعطِ الوزيرِ سِوَى تحريكِ لحيته في حالِ إيماءِ
إن الوزيرَ ولا أزرَ يُشَدُّ به مثل العروضي له بحرٌ بلا ماءٍ
وقال بزم الناس لقلّة عطائهم :

وجفّ الناسُ حتى لو بكينا تعذّر ما تُبَلُّ به الجفونُ
فما بندى لمدوح بنانٍ ولا يَنذَى لمهجو جيين

ويبدو أنه يش من المديح فهجر الشعر وسأله الناسُ عن ذلك فقال :

قالوا هجرت الشعرَ . قلت ضرورةً بابُ الدّواعي والبواعثُ مُغلَقُ
نَحَلْتُ الدِّيَارَ فلا كريمٌ يُرتجى منه النّوالُ ، ولا مليحٌ يُعشَقُ
ومن العجائبِ أنه لا يُشترى ويُخانُ فيه مع الكَسادِ ويُسرَقُ

فالشاعر لا يجد ما يجيبه على مدائحهم ، وقد كسدت سوق الشعر ، فلم يجد
ما يحفز على قوله ، وكأنه يسترجع ما قال به القدماء من أن الطمّع كان في
مقدمة الحوافر لصنعتة . وتأتى بعده العاطفة .

ولاحساس الشاعر بأزمته تلك جعلته يريق ماء الوجه في غير طائل ، وكأنه
يتنجرع المر ، ويحتمل طعان الأسنة يقول شاكياً تلك الحال :

ونَحَرَ الأَسِنَّةَ والخضوعَ لناقصِ أمدانٍ في ذوقِ التَّهَى مُرايَ
والرَّأى أن يختار فيما فوّه الـ مُرايَ ونَحَرَ أَسِنَّةَ المُرَّايَ

وتتعدد أغراض الشعر عنده ، وتتعدد معانيه ، وإن لم نخط بها علماً سوى
شذرات هنا وهناك ، هي أبيات مشورة ، مفردة أو مقطوعات في بيتين أو
ثلاثة بيتين ولا تشفى غليلاً . من ذلك قوله متغزلاً :
إشارة منك تغنييني وأحسن ما رد السلام غداة البين بالنعيم

حتى إذا طاح منها المرط من دهش وأحل بالضم سلك العقيد في الظلم
تبسمت فأضاء الليل فالتقطت حبات منشر في ضوء منتظم

وذكر ابن خلكان أن هذه الأبيات مما تستعمله الأدباء وتستظرفه ، وإن
نظر فيها إلى بعض السابقين من الشعراء .

فمن معانيه مما ارتاده من قديم الشعر كقوله :

وبورك في خيام قبيل ليل وفي تلك المضارب والجبال
فما أوتأذن سوى المواضي ولا أطنأهن سوى العوالى

ومن معاني الغزل والفراق قوله (١) :

يجمع جفنيك بين البرء السقم لا تسفكي من جفوني بالفراق دمي
إشارة منك تغنييني وأفصح ما رد السلام غداة البين بالنعيم
تعلق قلبي بذات القرط يؤله فليشكر القرط تعليقاً بلا ألم
تضمرت وجنة في ماء جنتها والجر في الماء خاب غير مضطرب
ماء الأسيلين يكوى برد ملمسه فهل سمعت بماء محرق شيم
وما نسيت ولا أنسى تحشمها وملبس الجو غفل غير ذي علم
حتى إذا طاح عنها المرط من دهش وأحل بالضم سلك العقيد في الظلم
تبسمت فأضاء الليل فالتقطت حبات منشر في ضوء منتظم

وقال (٢) :

ومشكورة التسوييف في قدرة البغنى وخير نواي الحب ما لم يعجل
أني صدها أن تعدم العين قرة واللبس في إذاره حسن مقبل

(١) تأهيل الغريب ص ٢٩٨ .

(٢) تمام المتون ٧٩

وقال (١):

واجعل خُجْ تلاقينا مَواقِيتا
مُسَوِّدُ حاشاه من وَسْمٍ وجَوشيتا
فلاح من ناظرِكَ السَّحَرُ مَنكُوتا
مُوسَى ، وَعَيْنَاكَ هَارُوتَا وَمَارُوتَا
لكلِّ جَمْعٍ من الألبابِ تَشْتِيتَا
يَضُمُّ قَلْبَا من الأصْلَادِ مَنحُوتَا
فلا تَغَادِرُهُ مَسْحُوقًا وَمُنْفُوتَا
والله يَنْبِشُهُ فِيهِنَّ تَنْبِيتَا
ونُورُ وَجْهِكَ رَدُّ البَدَرِ مَبْهُوتَا

أَمِطْ عَنِ الدَّرِّ وَالزَّهْرِ اليَواقِيتَا
فَتَغْرِكَ اللَّؤْلُؤُ المَبِيعُ لِأَلْحَجَرِ الـ
قَابِلَتِ بِالشَّبِّ الأَجْفَانِ مَبْتَسِمًا
وَكَانَ فُوكَ اليَدِ البِيضَاءِ جَاءَ بِهَا
جَمَعْتُ ضَدِينِ كَانَ الجَمْعُ بَيْنَهَا
جَسْمًا من المَاءِ مَشْرُوبًا بِأَعْيُنِنَا
مَسْكَأَحْسِيثُ فَرَادَى كَانَ فِيكَ دَمًا
المَسْكُ من سُرَّرِ الغِرْلَانِ مَكْتَسِبُ
وَنَشْرُذَكَ أَذْكَى الطَّيِّبِ رَائِحَةً

وقال (٢):

سَأَلْتُ الصَّبَا عَنْ تَشْرِكُكُمْ أَيْنَ وَفُدُّهُ
وَعَلْتُهُ هَجْرُ الحَبِيبِ وَصَدُّهُ
وَمَا الحُبُّ إِلَّا مَا تَقَادِمُ عَهْدُهُ
لَهُ سِمَةٌ تُثْنِي الهَوَى وَتُهْلِكُهُ
فَفِي كَفِّهِ حُلُّ الجَمَالِ وَعَقْدُهُ
يَلْدُّ بِهَا الطَّرْفُ الذِي هُوَ حَدُّهُ
وَلَكِنَّهُ يَسْتَجَلِبُ الحَرَّ بَرْدُهُ

إِذَا فَاحَ نَوَارُ العَقِيقِ وَرَنَدُهُ
وَكَيْفَ تُرِيحُ الرِّيحُ مِنْ كُرْبَةِ الهَوَى
وَعِنْدَى عَهْدٍ مِنْ هَوَاكُمْ تَقَادِمَتْ
وَمُنْعُطِفِ الصَّدْغِينَ لَا عَطْفَ عِنْدَهُ
تَصَرَّفَ فِي مَعْنَى الجَمَالِ وَلُطْفُهُ
جَفُونِي تَرَى هَارُوتَ مَارُوتَ بَيْنِنَا
وَتَغَرَّ حَكِي الكَافُورِ طِيبُ رُضَايِهِ

وقال (٣):

لَكِنْ دِيَارُ الذِي تَهْوَاهُ أَوْطَانُ
سَمُّ الحَيَاظِ مَعَ الأَخْبَابِ مِيدَانُ
مَعَ الحَبِيبِ وَكُلِّ النَّاسِ إِخْوَانُ
وَالثَّارِحِينَ وَهُمْ فِي القَلْبِ سَكَانُ
كَأَنَّا قَطُّ مَا كُنَّا وَمَا كَانُوا

لَيْسَتْ بِأَوْطَانِكَ اللَّائِي تَشَاتُ بِهَا
خَيْرُ المَوَاطِنِ مَا لِلنَّفْسِ فِيهِ هَوَى
كُلُّ الدِّيَارِ إِذَا فَكَّرْتَ وَاجِدَةً
أَفِيدَى الذِينَ دَتُوا وَالهَجْرُ يُبْعِدُهُمْ
كُنَّا وَكَانُوا بِأَهْتَى العِيشِ ثُمَّ نَاوَا

(١) تأميل الغريب ٣٩ .

(٢) تأميل الغريب ص ٩٢ .

(٣) الكشكول ١ / ٢٨٧ .

ويشكو الزمان :

لا تُعَيِّنُ الزَّمانُ إِنْ ذَهَبَتْ
فالحولُ لولا الجُدودُ ما قصرتُ
نيوبُ ليثِ العربي من نُوبِهِ
أَيْدِي جَماداهُ عن عَلَا رَجَبِهِ

ويقول (١) :

لا تُشاكُ فالأَيَّامُ حُبلى رُبَّما
فكذا تصاريفُ الزَّمانِ مَشَقَّةٌ
جاءتكَ مِنْ أَعْجوبةِ بجنينِ
في راحَةٍ وخشونةٍ في لِينِ
ما ضاعَ يُؤسُّ بالعراءِ مجرِّداً
في ظِلِّ نابتةٍ من اليقطينِ
وتدورُ بعضُ أياتِهِ حولَ تجاربِ الحياةِ والأَيَّامِ ، يصوغُها في قوالبِ الحكمِ
والأمثالِ ، فيقول (٢) :

المجدُ سَهْلٌ والطريقُ إِلَيْهِ بِالإِجماعِ وَغَرُ

ويقول (٣) :

لا تُشكُّونَ مِنَ الخُمُولِ فربَّما
لولاَ كَمونُ الدُّرِّ في أَصدافِهِ
كانَ الخُمُولُ إلى السَّلامَةِ سُلماً
ومَشَقَّةٌ اسْتِخراجِهِ ما فُحِّمًا

ويقول (٤) :

قالوا بَعُدَتْ ولم تُقَرِّبْ فَقُلْتُ لَهُمْ
لولاَ التَّباعُدُ بَيْنَ الحاجِينِ بِهِ
بُعِدِي عن النَّاسِ في هذا الزَّمانِ حِجِّي
بأنَّ افتراقَهُما لم تُعْرِفِ البَلَجَا

ويقول (٥) :

صَقَلْتُ العُلا بِالْمَكْرَماتِ وإنَّما
يَنُمُّ بِأسرارِ السِّيوفِ الصِّياقِلُ

(١) الغيث للصفدي ٢/ ٢٩٥ .

(٢) المصدر نفسه ٢/ ٤٧ .

(٣) شرح اللامية ٢/ ٢٩٥ .

(٤) المصدر نفسه ٢/ ٢٩٥ .

(٥) تمام المتون ٦٨ .

وقال (١):

خلقتُ لذنب إبليسَ اعتذاراً ، وقالَ فُرتُ وحقَّ جيدي
إذا كانَ ابنُ آدمَ مثلَ هذا فكيفَ ألامُ في تركِ السُّجودِ

ويعللُ خروجه عن بغداد (الزوراء) فيقول :

مالي وللمكث في الزوراء يُجحفني من ألحاح العجز لم يُفرِّح بما نتجنا
قلبي أظنُّ هو المعدي مساكنتها بنارِ الوعيتِ لما ارتقى درجاً
فالتورُّ محترقاتُ وانجبرَ بها يُساعِدُ الهجرَ فيما يسلبُ المهجاً

ويقول (٢):

من ظنَّ أنَّ القوافي لا تُشورُ لها فليذكرِ القاسمَ العجلى والكرخا

ويقول :

لا تحقرنَّ ضيفَ الرزقِ وأرضَ به ما الغمرُ مجتَمِعٌ إلا من الوشيل
وانزلْ إذا لم تجدْ للمرتقى سبباً فباسقِ العودِ يَرجو نازلَ السَّيل

ويقول :

لو تملكُ الدنيا يدي لأرختُ من يُمسي ويصبحُ طالباً منحنأنا
وقسمتها بيني وبينَ أصادقِ وعيادي غيرَ مُميزٍ أثلاثاً

ويقول :

لا يُحطَّن رتبتي سوءَ حالي آيةُ الحسني في الجفون السقام
أنا كالنارِ أطفا القطرُ منها ولها بعد أن تُفحَّت احتدام

ويقول (٣):

ليتَ الذي بالعشقِ دولكُ تحصني يا ظالمي قَسَمَ الحبةَ بيننا
أنا في الهوى مثَلُ الخلالِ مُثَقَفٌ ولقد أضرتَ لي مناسبةَ الفنا

(١) المصدر نفسه ١١٦ .

(٢) شرح اللامية ص ١١٨ .

(٣) جوهر الكثر ٤٦٦ لابن الأثير . طبع منشأة المعارف .

وينت على الرحلة والإنتقال ، لأن الخمول من شأن من يستقر في مكان :

يا خليلي حلياً عاطل البــــــــــــــــيد بوجه النجبية الشمال
زحل أكبر الكواكب لا يحمل إلا من قلة الإنتقال
ويقول :

الحسن والقبح قد تحويهما صفة شأن البياض، وذان الشيب والشبأ
ظناً المحاريف أقلام مكسرة رءوسهن، وأقلام السعيد ظناً
يتحدث عن الآله يملكها صاحب الحظ النعس والسعيد ، فيشقى بها ذاك ،
ويسعد بها هذا . ويخص صنعة الكتابة يشقى بها ناس ويسعد آخرون ،
فأصحاب الأقلام ليسوا سواء في السعادة .

ومما عرضنا من نماذج شعر الغزى تبين لنا ملامح ، لا نملك لها تفصيلاً ما لم
نعثر على ديوانه ، ونعرض لجملة شعره ، وأول ملمح نلمسه في مضامينه
ومعانيه ، ما يكشف عنه قوله من أزمة أحس بها الشاعر في حياته وتعامله مع
الناس ، عبّر عنها في غزله وشكواه ، وما بثّه من نفثات ساقها على صورة
حكم وتجارب خاضها كما خاضها غيره من قبل فعبّر عنها تعبيرات متفاوتة
تعامل فيها مع المعاني التي تداولها الشعراء من قبل في مثل ما عاناه ، واستعان
أحياناً ببعض العبارات والألفاظ ، وأخرى بالصور والخيالات .

ولم تكن سلاسة اللفظ من خصائصه ، بل تغلب عليه الرصانة والجزالة
واللجوء أحياناً إلى اللفظ الغريب والحوشي . وقد لاحظته عليه الصقدي حين
قال : « ما أثقل قول الغزى في هذا المعنى ، وأوهى ، وأوهن ما شلده في هذا
البيت ، وهو :

ولا غرو أن كنت بعض الورى فإنّ الينجوج بعض الحطب

ومعانيه ، وأمثاله تنم عن أزمته ، وقلقه ، وإحساسه بظلم الحياة والناس
ومعاندة الدهر والحظ كأن يقول في إحباط واضح :

ولن يتساوى سادة وعبيدهم على أن أسماء الجميع موالى

وقوله :

مصاحبةً التي خطرَ وجهُها وكَمَ شرقٌ تولَّدَ من زُلَّالٍ

وقوله :

كَمَ عالمٌ لم يلج بالقرعِ بابَ مني وجاهلٌ قبل قرع البابِ قد ولجاً
ويستعين ببعض المعارف التاريخية والعلمية والفلكية .

ويستعين ببعض مصطلح العلوم كعادة معاصريه ، كأن يستعين بمصطلح
النحو في مثل قوله :

قالوا نزلتُ ، فقلتُ الذَّهْرُ أقسمَ بي لا وَجْهٌ للرَّفْعِ في المجرور بالقسمِ
وكرر هذا المعنى فقال :

غيري له المجد والأيام تقسيمُ بي وهي الجديرة بالضَّيْرُ من القسمِ
أظنها أقسمت باسمي لتخفُضَنِي ولم يكنْ غيرَ فضلي أخرفُ القسمِ
ويقع له المعنى الجيد كقوله :

كالشمعِ يَبْكِي ولا يُدْرِي أعْبَرْتُهُ من صُحْبَةِ النَّارِ أم من فرقةِ العَسَلِ
وبعد فقد كان العزى من الشعراء المحروبين القلقين ، تقلبت به صروف
الدهر ، فهاجر مغادراً بلده يلتمس حظاً من الدنيا ، فلم تعطه ما يريد وشرق
طالباً مطلع الشمس عليه يلقي في مشرقها ما لم يلقه في مغاربها ، وعمر وطال
عمره ، وعجز بعد هرمه ، وأحس بالموت يدب في أوصاله ، ففارق الحياة بعد
مرض أقعده ببلاد خراسان فلما أشرف على فراق الدنيا قال : أرجو أن الله
يفغر لي ثلاثة أشياء : لكوني من بلاد الإمام الشافعي وكوني شيخاً كبيراً ،
وكوني غريباً^(١) .

(١) الغيث المسجم — شرح لامية العجم للصفدي ١/ ١٦٧ .

الفصل السابع

شعراء وافدون من المغرب

- ١- التَّجِيبِيُّ الأندلسي (ت بعد سنة ٤٣٠ هـ)
- ٢- ابن القطاع الصقلي (ت ٥١٥ هـ)
- ٣- أمية بن أبي الصلت (ت سنة ٥٢٩ هـ)
- ٤- ابن أبي البشائر
- ٥- ابن حُيَيْش الشيباني
- ٦- محمود بن عبد الجبار الطرسوسي
- ٧- الرشيد الصقلي
- ٨- القلعي الأصم (محمد بن عبد الله)
- ٩- مجبر الصقلي (ت ٥٤٠ هـ)

-١-

التجيبى

أبو الطاهر إسماعيل بن أحمد بن زيادة الله التجيبى
(ت بعد سنة ٤٣٨ هـ)

من أهل القيروان ، وسكن المهديّة ، ويعرف بالبرق ، أخذ عن أبى إسحاق
الحصرى تآليفه ، وعن جماعة من العلماء والأدباء فى القيروان والاسكندرية
والقاهرة .

وكان عالماً بالأدب متبحراً ، شاعراً ، مجوّداً . من أهل التأليف والتصنيف مع
جودة الضبط وبراعة الخط .

ويروى أنه توجه إلى مصر فى طريق رحلته للحج فى تلك السنة ، والتقى بجماعة
من العلماء والأدباء والشعراء أخذ عنهم وأخذوا عنه ، فممن أخذ عنه أبو مروان
الطنبى ، لقيه بالإسكندرية .

ويبدو أنه تردد على مصر ، وكان حجة فيما يروى عام ٤٣٨ هـ ، ورافقه فى
رحلته أبو بكر محمد بن على بن الحسن التيمى ثم الغوثى سنة ٤١٥ هـ وانشده
أبو الحسن البصرى الشريف العباسى بمصر سنة ٤١٥ هـ كذلك .

وفى إحدى رحلات العودة من مصر سافر إلى صقلية حيث التقى بأديانها
ومن بينهم أبو الحسن على بن محمد الخياط الربعى شاعر صقلية آنئذ وجمعت
بينهما صداقة ، وتبادلا الأشعار فى الحنين والمودة .

قال ابن الأبار : « ومن جلة أصحابه المعاصرين أبو الحسن الربعى شاعر
صقلية ، وقد أكثر من إنشاد غرر شعره ومن الحنين إليه وإلى مجالس أنسه حنين
الواله إلى بكرها ، والطير إلى وكراها » ، ولا غرو فإنه كان شاعر صقلية إذ ذاك
حيث قضى التجيبى مدة غير يسيرة من كهولته بعد انفصاله عن مصر . وربما
بقى بها إلى ما بعد سنة ٤٣٠ هـ .

وفى رحلته إلى مصر صحب الشاعر أبا الحسن على بن حُيَيش الشيبانى^(١)
وبقى أبو الحسن وتخلف عن صاحبه بمصر بينما واصل التجيبى رحلته إلى تونس
(١) راجع المختار ص ١٢١ .

فصقلية — فيما يظن — ويذكر التجيبي أن أبا الحسن بعث إليه برسالة بعد
افتراقهما ضمّنها نظماً ونثراً يصف فيها نزها حضرها بعده بمصر سنة ٤١٤ هـ .
واستقر التجيبي فيما يبدو كغيره من المغاربة بالاسكندرية بعض الوقت قبل أن
يذهب إلى الفسطاط بالقاهرة .

وكغيره كذلك جاب في أنحاء مصر والجيزة ، ومتع بصره بمنازه النيل ومفاتن
الطبيعة الجميلة المحيطة بالقاهرة والفسطاط . ومن بين نزحاته تلك ما رواه في
المختار . قال (١) : « مشيتُ أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن يونس الأنصارى الإشبيلي
رحمه الله تعالى إلى ناحية أوسيم ، قرية تشرف على جيزة مصر ، فرأينا هناك من
نور الأفحوان ما لم يُر مثله قط في النضارة ، وإشراق أصفره وفقوعه في صفاء
أبيضه ونصوغه ، فعملنا عدة مقاطيع فيه ، فلم يتفق لنا من ذلك العمل ما نرضى
إثباته إلا بيتان قلتُهُما أنا . وهما :

كَأَنَّ الْأَفْحَوَانَ وَقَدْ تَبَدَّدَتْ مُحَاسِنُهُ فَرَاقَتْ كُلَّ عَيْنٍ
عِمَادُ زَرْجِدٍ وَقَبَابُ تَبَرٍ تَحَفَّ بِهَا شُرَافَاتُ اللَّجَيْنِ

فرضيناه جميعاً وأعجبَ أبا الحسن (على بن حُبَيْش الشيباني) إعجاباً
مفرطاً فأورده بعدُ في بيته ، ولم يتمكن له ذكر الزرجد ، فذكر الخضرة في البيت
الذي يليه فقال :

كَلِمَا هَبَّتِ الرِّيحُ تَمَازِلُ سَنَ عَلَى أَسْوَاقٍ مِنَ الرَّيِّ تُحْضِرُ

ومن التقى بهم في مصر وأنشدوه أبو الحسن البصري الشريف العباسي
قال (١) : أنشدني أبو الحسن البصري الشريف العباسي بمصر لنفسه سنة خمس
عشرة وأربعمائة :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْإِلْفَ يَعْزِمُ لِلنُّوَى عَزَمْتُ عَلَى جَفْنِي أَنْ يَتَرَقَّقَا
فَخَذَحُجَّتِي فِي تَرْكِ جِييِ سَالِمًا وَقَلْبِي فِي حَقِّيهِمَا أَنْ يُشَقِّقَا
يَدِي ضَعُفْتُ عَنْ أَنْ تُحَرِّقَ جِييَهَا وَلَمْ يَكْ قَلْبِي حَاضِرًا فَمَرْقَا

فاستغربت له هذا المعنى واستظرفته . فأنشدني بعده لنفسه من قصيدة له :

(١) المختار من شعر بشار ص ١٢٦

ولو أني جعلتُ أمير جيشٍ لما قاتلتُ إلا بالسؤالِ
لأنَّ الناسَ ينهزمون عنه وقد ثبُّوا لأطرافِ العواليِ
فأظهرت استظرافا لهذا المعنى أيضا » .

وللتجيبى شعر ساقه في مختاره ، منه قوله زمن شبابه^(١) :

وغيداء كالبدْرِ المنير تطلَّعت

(١) المختار ص ١٧٨ .

— ٢ —

ابن القطّاع الصقلّي^(١)

(٤٣٣ — ٥١٥ هـ)

أبو القاسم علي بن جعفر بن علي السعدى^(٢)

ولد بصقلية سنة ٤٣٣ هـ . ووفد إلى مصر . قال ابن خلكان : « الصقلّي المولد ، المصرى الدار والوفاء ، اللغوى » . وهكذا فقد نشأ وتعلم بصقلية ، وقال الشعر صبيّاً فى الرابعة عشرة .

كان أحد أئمة الأدب واللغة ، وله تصانيف نافعة . منها كتاب « الأفعال » أحسن فيه كل الإحسان . قال ابن خلكان : « وهو أجود من « الأفعال لابن القوطية » . وإن كان ذاك قد سبقه إليه . وله كتاب « أبنية الأسماء » جمع فيه فأوعى ، وفيه دلالة على كثرة اطلاعه . وله عروض حسن جيد ، وكتاب « الدرّة الخطيرة فى المختار من شعراء الجزيرة »^(٣) يعنى جزيرة صقلية من مواطنيه ، وكتاب « ملح الملح » جمع فيه خلقاً من شعراء الأندلس .

وكان من أساتذته فى صقلية ابن البر اللغوى وأمثاله . وأجاد فى النحو غاية الإجادة قال ابن خلكان : ورحل عن صقلية لما أشرف على تملكها الافرنج ، ووصل إلى مصر فى حدود سنة خمس مائة (٥٠٠ هـ) ، وبالف إلى مصر فى إكرامه . وكان أول ما نزل بالإسكندرية .

واتصل بالوزير الأفضل بن بدر الجمالى ، ومدحه بمدائح ، وتردد على مجلسه وكان من شعرائه . وأقام بالفسطاط أو القاهرة حتى زمن وفاته سنة ٥١٥ هـ بعد مقتل الأفضل . ودفن بقرب ضريح الإمام الشافعى .

وعمر طويلاً فقد جاوز الثمانين . وعلم ، وتخرج على يديه جماعة من المصريين ومما مدح به الأفضل قوله فى مطلع قصيدة :

(١) راجع فى ترجمته الخريدة ٥١/١ قسم شعراء المغرب بتحقيق عمر الدسوقي وعلى عبد العظيم ، طبع دار نهضة مصر سنة ١٩٦٤ م . والخريدة طبع تونس ٥١/١ ، ووفيات الأعيان ٢/٣٢٢ إحسان عباس . وأنباء الرواة ٢/٢٣٦ وبغية الرعاة ، ومعجم الأدباء .

(٢) ذكر اسمه فى تحقيق الدسوقي وعبد العظيم على بن عبد الرحمن بن جعفر على خلاف الوفيات .

(٣) والكتاب مفقود . وله مختصر اسمه « الكتاب المتحل من الدرّة الخطيرة فى شعراء الجزيرة » للشيع

أبى اسحاق بن أغلب — منه نسخة خطية بتمورية دار الكتب المصرية رقم ٢٢١٦ تاريخ وقام بنشرها المستشرق الإيطالى أمبرتو زيريتانو .

ذی دیارها فقفا
من حدیثها طرفا

صاحبی وأسفا
واسمعا أبثكما

وقال من أخرى :

وسناؤهم من عهد ساء ساء
يحميه منه لبث غاب حام

من ذا يطيق صفات قوم مجدهم
وحماهم من عهد حام لم يزل

ويقول :

مثل ما يدرك الصباخ المساء
منك ١٢. هيهات أين منك النجاء

أنت كالموت تترك الخلق طرا
كيف يرجو الذي أخفت نجا

وهو محيط بقول النابغة :

« وإنك كالليل الذي هو مُذكرى » .

ومعظم ما اختاره العماذ وابن خلكان من شعره في الشراب والغزل ،
والشكوى ووصف الشيب والزهد ربما في أخريات أيامه .

يقول في الغزل :

سُوطاً من الياقوت قدرُ صَعْتِ دُرّاً
ثُرْدُ عيون الناظرين لها حَسْرَى
كَأَنَّ بعينها إذا نظرت سِحْراً

إذا ابتسمت يوماً رأيت بثغرها
وإن أسفرت عاينت شمساً منيرةً
وتسلب عينها العقول إذا رنت

ومنها :

ومن قبح أفعاله استحسن العذرا
إلى البيض منها كان لو أنصفت أخرى

ألا إنما البيض الحسان غواير
يملن إلى سود القرون وميلها

ومن قوله في الشراب :

خلت ثغراً في كأسها لؤلؤياً
يخ إذا ما أصاب منها صبيّاً
رَهْنُ مَادام يُوجَدُ حَيّاً
كهلال أنار بدرأ سويّاً

قهوة إن تيسمت لمزاج
فاضطجعها سلافة تترك الشـ
واغتنم غفلة الزمان فإن المـ
قطع العذر يا عدول عذار

وقوله :

فاسقنيها قهوة منسفة

أقبل الصبح وصاح الديكة

قهوة لو ذاقها ذو نُسك
فأهن دُنياك تُعزّرك ، ولا
واغتنم عُمرَكَ فيها طائراً
وقوله :

شَرِبْتُ دِرْيَاقَةَ لَد
دَبْتُ بِجِسْمِي فَأُرِدْتُ
قَتَلْتُهَا بِمَزَاج
كَأَنَّهَا طَلَبْتَنِي
هُمُومَ إِذْ لَبِسْتَنِي
هُمُومُهُ وَشَفِيتَنِي
وَبَعْدَ ذَا قَتَلْتَنِي
بِالنَّارِ إِذْ صَرَعْتَنِي

ومن أوصافه ولعله من أبيات يصف أحد أعياد المصريين بالنيل والشموع
تنعكس على صفحته كما جاء في أقوال غيره من أشرفنا إليهم . يقول :
أنظر إلى الماء حاملاً هباً
واغضب لنارٍ تُضيءُ في ماءٍ
ومن وصفه قوله في الرمان :

رُمانةٌ مثلُ هذا العانيق الرّيم
كأنها حُقَّةٌ من عسجدٍ مُلِثُ
يُرْهِى بَلَوْنٍ وَشَكْلٍ غَيْرِ مَسْهُومٍ
من اليواقيت نراً غَيْرِ مَنْظُومٍ
ومن أقواله في الحكمة ، والشكوى ، وذكر الشيب والزهد :

فلا تُتَفِدَّنْ العَمَرَ في طَلَبِ الصِّبَا
ولا تُتَدَبَّنْ أَطْلَالَ مِئَةٍ بِاللَّوَى
فإنَّ قِصَارَى المَرَّةِ إدْرَاكُ حَاجَةٍ
ويقول :

فيا نَفْسُ عَدِي عَنْ صِبَاكَ فَإِنَّهُ
أَفْقَى إِنَّ فِي خَمْسِينَ عَاماً كُحْجَةً
قَبِيحٌ بِرَأْسٍ بِالمَشِيبِ مُعَمِّمٍ
على ذِي الحِجْجَى إن لم يكن قَلْبُهُ عَمِي

تَبَّهَ أَيُّهَا الرَّجُلُ الشُّومُ
وقد أَبْدَى ضِيَاءَ الصُّبْحِ عَمَّا
فلا تَغْرُوكَ يَا مَغْرُورُ دُنْيَا
ولا تَخْطِ بِمَجْوَجِ غَمُوضٍ
فقد تَجَمَّثَ بِعَارِضِكَ التُّجُومُ
أَجْنٌ ظِلَامُهُ اللَّيْلُ البَهِيمُ
غُرُورٌ لَا يَدُومُ لَهَا نَعِيمُ
فقد وَضَحَ الطَّرِيقُ المَسْتَقِيمُ

— ٣ —

أمية بن أبى الصلت (ت ٥٢٩ هـ) (١)

هو أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت :

قال عنه العماد فى الخريدة (٢) : « من أهل المغرب ، وسكن الإسكندرية » .

ويقول مؤرخوه إنه ولد بدانية سنة ٤٦٠ هـ — ١٠٦٨ م . وذكر ابن خلكان أن ذلك كان فى فاتح المحرم أو فى ذى الحجة من السنة السابقة .

وقد عاش يتيماً ، لأن والده توفى وهو صغير ، ويذكر المؤرخون أنه أصطحب أمه فى رحلته الأولى إلى مصر ، ولم يذكر والده .

ولا تفصل الأنباء شيئاً عن مدة إقامته بالأندلس ، ولا عن بقاءه فى بلده دانيه ، ويذكر المقرئ أنه عاش عشرين سنة فى أشبيلية ، أى أنه لم يغادر الأندلس إلا بعد العشرين من عمره ، وربما كان ذلك فى الخامسة والعشرين أو بعد ذلك .

وآثار أمية وعلمه يدلان على أنه حصل كثيراً من العلوم فضلاً على موهبته الأدبية التى مكنته من قول الشعر وإنشاء الرسائل ، وتأليف الكتب . ويذكر المؤرخون لحياته نبوغه فى علوم الطب والفلسفة والتنجيم والتاريخ والموسيقى . قال عنه العماد : « كان أوحّد زمانه وأفضل أقرانه ، متبحراً فى العلوم . وأفضل فضائله المنشور والمنظوم ، وكان قدوة فى علم الأوائل ذا منطق فى المنطق بدسحجان وائل » .

وكذلك قال عنه ياقوت : « كان أديباً فاضلاً ، حكيماً منجماً » .

وقال عنه ابن أبى أصيبعة : « قد بلغ فى صناعة الطب مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء ، وحمل من معرفة الأدب ما لم يكن يدركه كثير من سائر

(١) راجع ترجمته فى معجم الأدباء ج ٧ ص ٢٠ ، وفیات الأعيان . وخريدة القصر قسم شعراء المغرب ١ / ١٨٩ ، وعبود الأنبياء لابن أبى أصيبعة ج ٣ ص ٨٦ ، ونفع الطيب للمقرئ ٢ / ٣٠٨ ، وحسن المحاضرة للسيوطى ١ / ٥٣٩ ، شذرات الذهب لابن العماد ٤ / ٨٢ .

الأدباء . وكان أُوحد في العلم الرياضى والإلهى ، كثير التصانيف ، بديع النظم » .

وقد استزاد من العلم الذى حصله في بلده بما حصله من العلم والأدب سنوات إقامته بمصر والقاهرة والإسكندرية . ويقول المقرئ أنه أفاد كثيراً من قراءة الكتب بالمكتبة التى سجن فيها بأمر الأفضل نحو ثلاث سنوات . وألم بعلم الموسيقى والتلحين والغناء ، وأجاد العزف على العود ، وكثيراً ما كتب أشعاراً ليلحنها ويغنىها . قال المقرئ : « وأمتن علومه الفلسفة والطب والتلحين ، وهو الذى لحن الأغاني الأفريقية . قال ابن سعيد : وإليه تنسب إلى الآن » (١) .

وجاء أمية إلى مصر وقد بلغ من العمر نيفاً وعشرين عاماً ، وقضى بمصر عشرين سنة على حد قول ابن سعيد (٢) . وتضطرب أخباره في مصر وتحتلط عند المؤرخين .

ولكننا نرجح أنه تردد بين مصر والمهدية ، وأنه في أول أمره جاء إلى مصر مباشرة من بلده كغيره من الأندلسيين والمغاربة ، وصحب معه في تلك المرة أمه ، وكان ذلك في حدود سنة ٤٨٥ هـ (٣) ، وأقام بالإسكندرية زمناً لا نعرفه ، وربما التقى هناك بصديقه الشاعر ظافر الحداد شاعر الإسكندرية في عصره . وربما انتقلا معاً إلى القسطنطينية حيث أقاما . فقد روى صاحب البدائى أنه سكن في منزل بدار بالخططة المعروفة بدويرة خلف بمصر (القسطنطينية) وكان مكتوباً على جدرانها بعض الشعر مما تركه بها أمية (٤) .

ونفترض أن أمية ظل بالإسكندرية ما تبقى من سنوات القرن الخامس وبضع سنوات من أول القرن السادس ، وعاش أول وفوده بضع سنوات في خلافة المستعلى ، ثم بعد في خلافة الأمر إلى سنة ٥٠٦ هـ ، ثم غادر مصر إلى المهدية في هذه السنة حيث حلّ ييلاط يحيى بن تميم بن المعز قبل وفاته سنة

(١) فتح الطيب ٢ / ٣٠٨ .

(٢) المغرب ٢ / ٢٥٦ ، بتحقيق د . شوقي ضيف .

(٣) بدائع البداية ، ص ١٨٠ — ١٨٢ .

(٤) يحدد ابن خلكان سنة ٤٨٩ هـ .

٥٠٩ هـ بثلاث سنين ، ونفترض أنه عاش بها حتى عاد مرة ثانية إلى مصر ليلقى الأفضل سنة ٥١٤ هـ ويمدحه .

وقد تكون رحلته الثانية إلى مصر بعد وفاة يحيى بن تميم سنة ٥١٠ هـ على حد قول ابن أبي أصيبعة ووافقه قدرى حافظ طوقان .

ويقول المقرئ أنه جاء في المرة الثانية موفداً من صاحب المهديّة إلى خليفة مصر ، ولعلّ صاحب المهديّة آنذاك كان على بن يحيى بن تميم ، وأراد بهذه الوفاة أن يُصلح ما شاب العلاقة بين يحيى وخليفة مصر وحكامها من شوائب .

ومعلوم أن أمية خرج في زيارته الأولى لمصر غاضباً ، غير راضٍ لما لقيه من الأفضل الجمال من معاملة سيّئة ، فقد أمر بسجنه في خزانة البنود أو في خزانة الكتب . وألف رسالته المصرية . يعبر عن هذه الغضبة ، فذم المصريين ، وقدمها ليحيى بن تميم صاحب المهديّة بتونس ولولا أنه آنس في نفسه ميلاً إلى هذا الذمّ لما قدمها إليه على هذه الصورة .

على أية حال فإن المياه عادت إلى مجاريها مرة أخرى بعد تغيير أمير المهديّة ، ولعله أراد أن يكسب ودّ الأمر ، ووزيره الخطير الأفضل . ويمكن أن يكون مديح أمية للأفضل سنة ٥١٤ هـ بأبيات يقول فيها :

نسخت غرائب مدحك التشبيهاً	وكفى به غزلاً لنا ونسباً
لله شاهنشاه عزمتك التي	تركت لك الغرض البعيد قريباً
لا تستقرّ ظباك في أغمادها	حتى تروّحها دماً مصبوباً

وبقى في مصر هذه الزورة الثانية وكان قد فقد أمه ، واقتربت سنه من الخمسين وتجاوزتها ولا ندرى كم مكث بمصر والإسكندرية ، وإن كنا لا نرجح سفره قبل عام ٤١٥ هـ الذي قتل فيه الأفضل وتولى البطائحي الوزارة ، واضطربت الأمور رداً من الزمن بالقاهرة .

وهكذا غادر أمية مصر للمرة الثانية إلى القيروان فالمهديّة وظل هناك حتى توفي سنة ٥٢٩ هـ بعد أن قضى أربع عشرة سنة أو أقل ملازماً للأمير على بن

يحیی ، وقد وقع منه موقعاً طيباً ، ولأق من معاملة حسنة ، وأعدق عليه فرضی إلى جواره ومدحه بعدة قصائد بقى لنا منها بعضها فيما بقى من شعره .
وشعره لم يصلنا كله ، فديوانه لم يعثر عليه ، وكل ما بين أيدينا ما تفرق من شعره في مصادر متعددة ، قام أحد الدارسين بجمعه^(١) .

ويهمنا بالدرجة الأولى وفوده إلى مصر ، وعلاقاته بها ، ومن اتصل بهم من الرجال فقال فيهم شعراً ، ومن رافقهم من الشعراء والأدباء ، فكانت بينه وبينهم مودة ، وتبادلوا إياه الرسائل والأشعار .

ومن بين الرجال المشهورين الذين لقيهم ببلاط الأفضل تاج المعالي مختار ، وهو من خواص الوزير المقربين ، كانت منزلته عنده عالية ، ومكانته بالسعد حالية على حد قول ياقوت في ترجمته . وكانت خدمة أمية له بصناعتي الطب والنجوم . ويبدو أن هذه المهنة هي التي فتحت له أبواب قصر الأفضل أولاً ، ثم تبعها المديح وربما كانت هذه المهنة أو المعرفة بالعلوم والكيمياء من أسباب محنته كذلك كما كانت من أسباب سعده .

على أية حال فقد لقي قبولاً لدى تاج المعالي هذا فقدمه إلى الأفضل فكان من جلسائه الأدباء وتعرف في مجلسه على جماعة من رجال مصر بمن فيهم الأمير أبو الثريا .

وكان أبو الثريا هذا شاعراً ، وله مع أمية محاورات شعرية ، ومدحه .
وتنساءل عما إذا كانت معرفة أبي الصلت بأبي الثريا في آخر القرن الخامس أم أوائل السادس عند عودته إلى مصر بعد غيبة ما يقرب من خمس سنوات ؟..
لأن أبا الثريا يخاطب أبا الصلت بقوله :

أبا الصلت يا قطب المكارم والفضل	وأفضل من يُنمى إلى كرم الأصل
ومن حاز أسباب الرئاسة والعلا	وبالجود وبالفعل الجميل وبالتبّل
وأصبح في كلّ العلوم ميرزا	يسابق فيها كلّ مجر على رُسُل

(١) هو محمد المرزوقي جمعه بعنوان « ديوان الحكيم أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الداني » نشر دار الكتب الشرقية بتونس .

ولا يبلغ أمية هذا القدر من المعرفة والرئاسة قبل الثلاثين . وقبل أن يبلغ الأربعين وتكتمل له أسباب الرئاسة والعلم بما حصل ، وما لقي من التكريم والتقدير .

والرجل الثالث من رجالات العصر الذين لقيهم بمصر هو الشاعر ابن مكنسة إسماعيل بن محمد المتوفى سنة ٥١٠ هـ ، ونرى أن علاقته به تمت في رحلته الأولى وقد ذكره في رسالته المصرية التي ألفها بعد وصوله إلى المهديّة بعد سنة ٥٠٥ هـ ، وأثنى عليه من بين من لقيهم بمصر حيث ذ .

وظلت علاقة الود قائمة بين الرجلين بعد الفراق ، وتبادلا رسائل الشعر وبعد عودة أمية إلى مصر لقيه صديقه إسماعيل بهذه الأبيات (١) :

وما طائرٌ قصَّ الزمانُ جناحه	وأعدمه وكرأ وافقده إلّفا
تذكرُ فرخاً بين أفنانٍ بانيةٍ	حوافى الخوافى ما يطرنَ به ضَعْفًا
إذا التحف الظلماءُ ناجى همومه	بترجيع نوح كاد من دقة يخفى
باشفق منى مُدّ أطاحت بك الثوى	هوائية مائية تسبق الطرفا
تولّت وفيها منك ما لو أقيسُهُ	بما هى فيه كان فى فضله أوفى

والصديق الآخر السكندريّ أيضاً والذي ربطت بينه وبين أمية روابط المحبة الشاعر ظافر الحدّاد . عقدت بينهما أواصر الصداقة منذ مجيء أمية إلى الإسكندرية وهو شاب لأول مرة مع أمه ، وظلت العلاقة بينهما وطيدة ، فانتقلا معاً إلى القسطنطينية ، وسكنّا بها وجالساً الأفضل ومدحاه وتلازما في مجالسه حتى حدثت الجفوة بين الوزير وأمية فانفصل أمية إلى الإسكندرية ، ومنها غادر إلى القيروان فالمهديّة ، وبقي هناك ما بقى من السنين ، والملفت للنظر أن أمية على صداقته بظافر لم يذكره في الرسالة كما فعل مع صديقه الآخر ابن مكنسة .

وهذا الأمر يدعو إلى التساؤل ؟ . هل حدث شيء بين الصديقين قبل سفر أمية ، أو في أثناء أزمته مع الوزير الأفضل وحجسه ؟ . ربّما . لكن الشاعرين لم

(١) خريدة القصر ، القسم المعرى ٢ / ٢٠٣ .

يفصحنا عن شيء ، بل إن ظافراً بعث بقصيدة إلى صاحبه بالمهدية يتشوق فيها إليه ، عدتها ثمان وعشرون بيتاً . يقول فيها :

ألا هل لدائ من فراقك إفرأق هو السَّمُّ، لكن في لقائك درياق
فيا شمس فضل غرَّبْتُ ولضوئها على كل قطر بالشارق إشراق
سَقَى العهد عهداً منك عمر عهده بقلبي عهد لا يضيغ وميثاق
يجدده ذكر يطيب كما شدت ورِيقاً كَتَبْتُها من الأيك أوراق
لك الخُلُقُ الجزل الرفيع طرازه وأكثر أخلاق الخليفة أخلاق
لقد ضاء لتنى يابها الصلِّتْ مُدْنَاتُ ديارك عن دارى هموم وأشواق
إذا عَزَى إطفائها بَمَدَامِعى جرت ولها ما بين جسمى إحراق
يقول فيها :

أخى، سيدى، مولاى دعوة من صَفَا وليس له من رِقِّ ودك إعتاق
لئن بُعِدْتُ ما بيننا شقَّةُ النَّوى ومطر د طامى الغوارب خفاق

وقد أشرنا فى حديثنا عن ظافر إلى هذه الصداقة وما تبادلها فيها من أشعار .
والأديب الشاعر الثالث الذى تعرف عليه ببلاط الفاضل هو الكاتب على
بن منجب الصيرفى الذى كتب للأفضل ، وتولى ديوان الإنشاء فى عهد
الأمير . وقد ربطت زمالة تحولت إلى صداقة بين أمية والصيرفى .

وقد كتب أمية للصيرفى من السجن قصائد يرجوه أن يشفع له عند الأفضل
لإطلاقه فكان ردُّ الصيرفى عليه :

لئن سترتك الجُنْدُرُ عَنَّا فرجما رأينا جلايب السَّحابِ على الشمس

ولم تكن حياة أمية فى مصر جادة كلها ، بل كان يستمتع بملاهى الحياة
وملاذها ، تجول فى أنحاء مصر القريبة من الإسكندرية والقاهرة ، وزار كثيراً
من المنازة المعروفة فى عصره وأشرنا إليها مراراً فى حديثنا السابق كبساتين بركة
الحبش ، وساحل النيل والنيل ، والجيزة والمقطم ، ومرصد المقطم ، ودير
القصير ، ودير مازحنا ، ومتع نفسه بالشراب وسماع الغناء وغيرهما من متع
الحسن .

شعره

. ونبدأ حديثنا عن شعره الجاد ، وأوله المديح التقليدى .

قال يمدح الأفضل شاهنشاه أمير الجيوش الأفضل الجمالى :

نسخت غرائب مدحك التشيبيا وكفى به غزلاً لنا ونسيا
وتحس وأنت تقرأ أبيات أمية فى مديح الأفضل بآثار الصنعة والتكلف وأن
الرجل إنما ينطق من طرف اللسان . يقول :

لله شاهنشاه عزمتك التى تركت لك الغرض البعيد قرينا
لا تستقر طباك فى أعمادها حتى تُروّيها دماً مصبوبة
والخيل لاتنفك تُعْتَسِفُ الدجى تحباً إلى الغارات أو تقربا

ويَدع وصف صاحبه ومديحه ليصف الخيل فى تسعة أو عشرة أبيات حتى
يقول :

تُردى بكل فتى إذا شهّد الوغى نثر الرماح على الدروع كعوبا
وتأمل معى أى تكلف فى نظم هذا البيت ؟.

ويعضى فى هذا الكلام المصنوع يلفق فيه معانى السابقين ، ويُعيد صياغتها
بلفظ لا سلاسة فيه ولا موافقة لعصره ، ولا لمصره . وانظر معى إلى هذه
المعانى المستهجنة المستهلكة فى لفظ مكرور غث الصياغة :

وبكثت فى كل البلاد مهابة طفق الغزال بها يُوانخى الدنيا
وهمت يداك بها سحائب رحمة ينهل كل بنانها شؤبوا
ونصرت دين الله حين رأته مُتَحَضِّباً بيد الردى منكوبا

وهكذا يعضى فى نظمه هذا إلى آخر القصيدة فلا نعثر بمعنى يسترعى الانتباه
أو يملك على القارئ وجدانه ، ويثير إعجابه . حتى يصل إلى ختمها ،
فيضمنه استجداء صريحا إذ يقول :

وأنا الغريب مكانه وبيانه فاجعل صنيعك فى الغريب غريبا

وتختلف النعمة فى مديح الصنهاجين بالمهدية ، والتعريض بمن مدح المصريين
فيقول فى مدح يحيى بن تميم الصنهاجى :

فلم أَسْتَسِغْ إِلَّا نَدَاهُ ، ولم يَكُنْ
فما كُلُّ إنْعَامٍ يَخْفُفُ احْتِمَالَهُ
ولكنْ أَجَلَ الصَّنْعِ ما جَلَّ رَبُّهُ
وما شئتُ إِلَّا أَنْ أَذِلَّ عَوَازِلَ
وأُعْلِمَ قَوْمًا خَالِفُونِي وَشَرُّوا
لِيَعْدِلَ عِنْدِي ذَا الْجَنَابِ جَنَابُ
وإنْ هَطَلَتْ مِنْهُ عَلَيَّ سَحَابُ
ولم يَأْتِ بَابَ دُونِهِ وَحِجَابُ
على أَنْ رَأَيْتُ فِي هَوَاكَ صَوَابُ
وَعَرَّبْتُ أَنِّي قَدْ ظَفَرْتُ وَخَابُوا

ونقرأ هذه الأبيات من قصيدة يمدح بها علي بن يحيى الصنهاجي لنذكر فرق
ما بين صناعته في مديح الأفضل ، وصنعتة هنا . يقول :

تَأْتِي مِنْكَ لِلْحُرْصَانِ شُهْبُ
على لِمِ الدَّجَى مِنْهَا مَشِيبُ
نُجُومٌ فِي الْعِجَاجِ لَهَا طُلُوعُ
وَفِي ثَعْرِ الْكُمَاةِ لَهَا غُرُوبُ
وَقَدْ غَشَاكَ مِنْ سُودِ الْمَنَايَا
سَحَابٌ وَدَقُّهُنَّ لَهُ صَبِيبُ
فَلَا بَرْقَ سِوَى بَيْضٍ يَخْفَافُ
تَقَطُّ بِهَا الْجَمَاجِمُ وَالتَّرِيبُ
تَغَادِرُ كُلَّ سَابِغَةٍ دِلَاصِ
كَمَا شَقَّتْ مِنَ الطَّرَبِ الْجِيُوبُ

صحيح أن هذا الشعر في مرحلة متأخرة عن شعره الذي قاله في الأفضل
وقد يكون لنضج الشاعرية أثر في الاتقان إلا أن الروح الشعرية ، وصدق
الاحساس واضحان هنا ، مفقودان هناك ، وذلك — كما قلت — لأنه يتحدث هنا
من قلبه ، وحديثه هناك إنما كان من طرف اللسان .

ونسوق من مديحه هذه الأبيات في الحسن بن علي بن يحيى الصنهاجي :

لَمْ يَدْعُنِي الشَّوْقُ إِلَّا اقْتَادَنِي طَرِبًا
ولم يَدْعُ لِي فِي غَيْرِ الْعَسَا أَرِبًا
وَذُو الْعِلَاقَةِ مِنْ لَجِّ الْغَرَامِ بِهِ
وَكَلِمَا لَيْمٍ أَوْ سِيمِ النَّزْوَعِ أُنْبِي
كَانَتْ لِي لِنَا وَقْفَةً بِالشَّعْبِ وَاجِدَةً
عَنْهَا تَفَرَّغَ هَذَا الْحُبُّ وَانْشَعِبَا
وَلَا نَمُّ لِي لَمْ أَجْهَلْ مَلَامَتَهُ
وَلَا سَمَحْتُ لَهُ مِنْ بِنَا طَلِبَا

قال : اسأل فالحب قد غناك . قلت : أَجَلٌ حَتَّى أُرَاجِعَ مِنْ لِيّ الَّذِي عَزَبَا

طَرَفِي الَّذِي جَلَبَ الْبَلَوَى إِلَى بَدَنِي
فُلُمُهُ دَوْنِي فِي الْخُطْبِ الَّذِي جَلَبَا
هُوَ الْهَوَى ، وَهَوَانِي فِيهِ مُحْتَمَلٌ
وَرَبِّ مَرَّ عَذَابِي فِي الْهَوَى عَذَبَا
أَمَا تَرَى ابْنَ عَلِيٍّ حِينَ تَيْمَمُهُ
حُبُّ الْعَلَا كَيْفَ لَا يَشْكُو لَهُ وَصَبَا
أَغْرُ مَا بَرَحَتْ تَتْنَى عِزَائِمُهُ
سَيْفُ الْهُدَى بِنَجِيعِ الشَّرْكِ مُحْتَضِبَا
قَدْ أَصْبَحَ الْمَلِكُ مِنْهُ فِي يَدَيَّ مَلِكٌ
مُرُّ الْحَفِيزَةِ يَرْضَى اللَّهُ أَنْ غَضَبَا

وهذا المدح متوسط الجودة ، بل عادى ، وقد يكون النسيب فيه أكثر قبولاً
ورُبّما أدخل على الأبيات طرافة ما عرض فيها من وصف قصر الممدوح
وبساتينه حيث يقول :

إذا سقى الله أرضاً صوبَ غاديةٍ فليستِ قَصْرَكَ صوبَ الراح مَشرَباً
قصرٌ تقاصرت الدنيا بأجمعها عنه ، وضاق من الأقطار ما رَحَباً
يقول فيها :

وحبذا قُضِبَ النارجُ مشمرةً بين الزبرجد من أوراقها ذهباً
وحبذا الورق فوق القُضْب ساجعةً والماء في خللِ الأشجار مُشْرِباً
سَلْتُ سواقيه منه صارماً عَجَباً لا يأتلي الجَدب منه سمعنا هرباً
حسام ماء إذا كَفَّ الصَّبَا انبعثت لَصْقَلِهِ تركت في متنه شطباً
صَفَا ورقٌ فكاد الجوُّ يشبهه لو أنْ جَرَّ أجرى في الأرض وانسكبا
عقار دنٌ فهذى ترتقى شَرراً فوق البنان وهذا يرتقى حَبِيباً
حتى لقد جَهِلْتُ للبعد عاصيرها وأُسيِّتُ لتراخى عهدِها العنبا

ومزج وصف البستان مع وصف القصر ، وأدخل في آخر الأبيات وصف
الخمر . والمعاني دارجة ، وَيَسْمُجُ في التقليد إذ يصف جدول الماء بالسيف ،
وهو وصف مررنا به في كثير من الشعر القديم ، وتواردت عليه الشعراء ، وما
ندرى ما الملفت والمعجب بين بياض السيف وامتداده وجدول الماء ، ولا
علاقة بينهما إلا الشكل أما ما وراء الشكل من إبحاء فهما متناقضان ، فالسيف
يوحى بالموت وَالْهَلَاكُ والفزع والرعبة ، والجدول باعث الحياة ، والجمال
والحب ، والأنس .

لقد أحب أمية الطبيعة ، وأحب الحديث عنها في شعره ، كما عشق الخمر
وتغنى بالآثاء ، وفي أعماقه رغبة الحياة والجمال والموسيقى واللهو
والاستمتاع ، وله أناشيد في الطبيعة المصرية كغيره ممن وفد من الأندلسيين
والمغاربة .

وسبق أن ذكرنا أبياته في بركة الحبش^(١) :

(١) ديوانه المجموع ص ٦١ .

وبكر الرّاح بالطّاسات والشّحب
فرشاً من الثّور حاكته يد السّحب
قد أبرز القطر فيها كلّ محتجب
وأقحوان شهى الظّلم والشّنب
من نرجس ظلّ يحكى لحظاً مرتقب
والرّاح من ورق يطفو على ذهب (١)
بجأجم من حشا الإبريق ملتهب
موف على غصن يهترّ في كعب
كصعدة الرّيح في مسوذة العذب
على التّصايى دواعى اللّهُو والطّرب

غلّ فتؤادك باللذات والطّرب
أما ترى البركة العنّاء قد لبست
وأصبحت من جديد التّيب في حلّ
من سوسن شرق بالطلّ محجرة
وانظر إلى الوردي يحكى تحدّ محتشم
والنيل من ذهب يطفو على ورق
وربّ يوم نقعنا فيه غلّتنا
شمس من الرّاح حيّانا بها قمر
أرّجى ذوائبه واهترّ منعطفا
فاطرب، وتونكها فاشرب فقد نعبث

وقال فى الرصد (المرصد بالمقطم) الذى بظاهر القاهرة :

من كلّ شىء خلا فى جانب الوادى
والضّب، والثّون، والملاح والحادى

يا نزهة الرّصد التى قد اشتملت
فذا غدير، وذا روض، وذا جبل

وقال فى دير مزحنا بمصر :

لو شريت بالنفس لم تبغى
آدابهم عن شرف الألفى
كأنه الراهب فى التّرس
تغنى عن المصباح فى الجندى
أذكرى من الرّيحان فى المجلس

يا دير مزحنا لنا ليلة
نبتنا به فى ليلة أعربت
والليل فى شملة ظلمائه
نشرّبها صهباء مشمولة
وهى إذا نفّس عن أدائها

ولأمية غير الوصف المعروف لمظاهر الطبيعة وصف للحيوان والطير فيصف
لنا كلب الصيد على طريقة طرديات أبى نواس وغيره ممن أجاد فيه ، يقول (١) :
على وزن الرجز :

خير معدّ متخذ
منفرد بالحسن قد
سبق التّصوّل للقدّ
ليوم عيش مستلذ
سويقه بالجرد فبد
فما انبرى إلا معذ
ولا رأى حتى أخذ

(١) الورق : القصة .

وقال يصف الطاروس :

أهلاً به لما بدا في مشيه كالروضة الغناء أشرف فوقه ناديته لو كان يفهم منطقي يا زافعا قوس السماء ولايسا أيقنت أنك في الطيور مملكت
يختال في حلال من الخلاء ذنب له كاللوحه الغناء أو يستطيع إجابة لندائي للحسن روض الحزن غب سماء لما رأيتك منه تحت لواء

ووصف كثيراً من مظاهر الحضارة الزاهرة في القاهرة والقيروان . فيقول
مُصَوِّراً مجلس يحيى بن تميم الصنهاجي صاحب القيروان والمهدية ، وما فيه من فخامة وجمال :

لله مجلسك المنيف قباهه موف على حبلك الحجره ثلثي تتقابل الأنوار في جنباته عطفت حناياه دوين سمائه واستشرفت عمدة الرخام وظهورث فهوأوه من كل قد أغيد فلک تحير فيه كل منجم فبدا للحظ العين أحسن منظر
بموطد فوق السماك مؤسس فيه الجوارى بالجوارى الخس فالليل فيه كالنهار المشمس عطف الأهلة والحواجب والقسي بأجل من زهر الربيع وأنفس وقراره من كل خد أملتس وأقر بالتقصير كل مهتدس وغدا لطيب العيش خير معرس

وهكذا فإن شعره يعكس صورا من حضارة الإسلام الزاهرة في عصره ، ويرسم صورا من صور الترف الذي عاشه الحكام وسراة القوم ، ونلاحظ عامة أن الشعراء حين يصفون مظاهر النعيم والترف التي عاشها الأغنياء والقادرون ، فإنما يستدعون صور الجنة في أوصافهم لأن أولئك المملكون حاولوا أن يحققوا في حياتهم ، ما وفر في خلداهم من صور نعيم النعيم في الآخرة بما فيها من حور عین ، وبساتين ونخل ورومان ، وكؤوس شراب يطوف بها ولدان ، وهم متكئون على فرش من حرير ، ويلبسون أساور الذهب والفضة .

وتمر في شعره على كلام فيما لقيه في حياته من سفر وركوب للبحر ، وما عاشه من تجارب الحياة والناس بما فيها من فرح وتوخر ، ووفاء وجحود . ولفظه من ثروة معلوماته وعلمه ، وفيها من مصطلح علوم الطب والفلك وغيرها من العلوم التي برع فيها .

— ٤ —

ابن أبي البشائر

أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الكاتب الصقلي الشاعر :

عاصِرَ أُمِيَّةِ بن أبي الصلت ، وأورد له شعراً بالرسالة المصرية^(١) ، واصفاً
إياه بالبلاغة . قال أُمِيَّة : وقد تعاوَرَ الشعراء وصف وقوع الشعاع على
صفحات الماء . ومن مليح ما قيل قول بعض أهل العصر وهو أبو الحسن علي
بن أبي البشائر الكاتب :

شربنا مع غروبِ الشمسِ شمساً مشعَّعةً إلى وقتِ الطُّلوعِ
وضوءُ الشمسِ فوقَ التَّيْلِ بَادٍ كأطرافِ الأُسنةِ في الدُّرُوعِ

وذكر العماد^(٢) أنه قرأ في مجموع شعره نظماً جيداً يفوق ياقوتاً ودُرّاً — .
مشتملاً على المغاني العُزِّ ، فمن ذلك قوله في راقصة :

هيفاءُ إن رقصتْ في مجلسٍ رقصتْ قلوبُ من حوَّلها من جذقيها طرباً
خفيفةِ الوطءِ لو جالتْ بخطوتِها في جفونِ ذي رميدٍ لم يشتكِ الوصبا

وشعره كشعر الكتاب من حيث الخفة وسلاسة تدفق اللفظ ، وريق المعنى
ومما اختاره له مقطوعات وأبيات تدور في موضوع الغزل ، والوصف
وشكوى الشيب .

ولكن معظم ما جاء به في الغزل والشوق وذكر الفراق ، ورسائل المحبوب
من مثل قوله :

لنا في كلِّ مُقترحٍ وصَوِّبٍ مُفاجأةٌ بأسرارِ القُلُوبِ
فنفهمُ بالتشاكى ما نُلَاقِي بلا واشٍ تخافُ ولا رَقِيبٍ

وقوله :

وساقِ كمثلِ الغزالِ الريبِ بصيرِ اللَّحَاطِ بصيرِ القُلُوبِ
جسرتْ عليه فقَبَّلْهُ مجاهرةً في جفونِ الرَّقِيبِ

(١) راجع الرسالة المصرية .

(٢) خريدة القصر .

وأَهْدَاهُ لى سَكْرُهُ من قَرِيبٍ
ولَكِنَّهُ من مَلِيحِ الذُّنُوبِ !؟

فَلَمَّا تَوَسَّدَ كَفَّ الكَرَى
تَعَجَّلْتُ ذَنْباً بَفْتِكى به
وفى شكوى البعاد :

نَازِحٌ لَمْ يَدْعُ لِغَيْنى هُجُوداً
كَانَ يَوْمى به من الدَّهْرِ عِياداً
بِوَالآنِ قَدِ اسْتَفْرَقَ البَعَادُ الصُّدُوداً
لَقَّتْنِى الوُشَاةُ فِىكَ الجُمُوداً

أَتَرَانِى أُخْبِى إِلَى أَنْ يَعودَا
كَيْفَ أَرْجُو الحَيَاةَ بَعْدَ حَبِيبٍ
كُنْتُ أَشْكُو الصُّدُودَ فى القُرَى
أَشْتَهَى أَنْ أَبْرَحَ بِاسْمِكَ لَكِنْ
وقال :

فليس على البعدِ عندى جَلْدٌ
فَكَيْفَ أَكُونُ إِذَا مَا بَعْدُ

إلى الله أَشْكُو دَخِيلَ الكَمَدِ
ومن كنت فى القربِ أَشْتَأُهُ
وقال :

فِيضِى فَقَدْ فَضَحْتَنِى بَيْنَ جُلَاسِى
إِلَّا وَقَدْ رَقُّ لى من قَلْبِكَ القَاسِى
أَهلاً بِذَلِكَ على العَيْنينِ والرَّاسِ
ونلاحظ هذا الكلام الذى يجرى على السنة الناس بلا تكلف ولا تقعر .

إِلَيْكَ أَشْكُو عِيُونًا أَنْتَ قُلْتَ لَهَا
وَمَا تَرَكْتُ عُدُودًا لى عِلْمْتُ به
فَإِنْ رَضِيتَ بَأَنْ أَلْقَى الحَمَامَ فِىَا
وقال :

وَلَيْلى طَوِيلٌ بِالْهُمُومِ عَرِضُ
إِلَى عَزَمَاتٍ مَا لَهْنُ نَهْوضُ
إِذَا لَاحَ من بَرَقِ العِشَاءِ وَمِیْضُ
وَعَظْمُ بَرَاهِ الشُّوقِ فَهُوَ مَهِیْضُ
فليس له حتى الوصالِ غَمُوضُ

تَوَلَّوْا وَأَسْرَابُ الدُّمُوعِ تَفِیْضُ
وَلَمَّا اسْتَقَلُّوا أَسْلَمَ الْوَجْدُ مُهْجَتِى
تَوَقَّدُ نِيرانُ الْجُودِ بَيْنَ أَضْلَعِى
وَلَمْ تَبْقَ لى إِلَّا جَفُونُ قَرِیْحَةٍ
فَجَحْنُ لِحْزُونٍ جَفَا التُّومُ جَفَنُهُ
ويقول فى الطيف :

وَأَنْ يَطْرِقَ الهَائِمِ المَذَنِّقَا
وَحَلْفُ عِنْدَى مَا تَخَلَّفَا
لَذِيكَ يَنَاجِيكَ مُسْتَغْطِفَا
إِلَيْكَ مَحَا دَمْعُهُ أَحْرَفَا

أَلَمْ يَأْنِ لِلطَّيْفِ أَنْ يَعْطِفَا
جَفَا بَعْدَ مَا كَانَ لى وَاصِلَا
أَمَا تَعْطِفِينَ على خَاضِعِ
إِذَا كَتَبَتْ يَدُهُ أَحْرَفَا

مَنْعَتْ جُفُونِي أَنْ تَذُرْفَا
وما عُدُّرُ صَبٍّ بَكَى وَاشْتَفَى

ولو نُكْتُ أَمْلِكُ غَرْبَ الدُّمُوعِ
غَرَاماً بِإِشْعَالِ نَارِ الْغَرَامِ

وقال :

فها هما يحكيان العاشق الدنفا
برحاً، وصيرتني أستحسن الكلفا
لقد تناهيت في قتلي، وقد ظرفا

قد أنصف السقم من غيتك وانتصفا
ياساهر الطرف قد أغريت بي كلفاً
أظن خديك من جاري دمي اختضبا
وقال مُلغزاً في اسم حبيبه (١) :

لما انتضى من جفنيه مرهفاً
لأنه قد نسق الأخرفاً
جذراً لثليه إذا ألفا
وهكذا يخرج إن صُحفاً

إثم الذي صيرني مُدَنفاً
يلعب إن رُحِمَ معكوسه
ألم تر كيف غدا ثلثه
قد غلب القلب على صبره
ويقول في رسائل الحب :

قَلَمَ لِي الْبَيْتُ مَا الْإِقْبَى
ب ، فَأُضْحَى لِلْبَعْدِ مَرَّ الْمَذَاقِ
من ليالي الفراق يوم التلاقي

كيف لم يشتغل بنار اشتياق
كَانَ حُلُوَ الْمَذَاقِ عَيْشِي لِلْقَرِ
فوصبري لآخذن بشاري

ومن رسائله الشعرية ما ردّ به على رسالة حيث يقول (٢) :

عندي وأحسن قادم ألقاه
شمل المعاني للذي أهده
كتبته أو صرت عليه يده
جذلان مُبتهجاً بما أذاه
أعلاه ، ما أحلاه ، ما أجلاه
عُدمت له الأشكال ، والأشباه
أزهاره ، وتضوّعت رِيّاه
فتقابلت أولاه مع أخراه
منظومة كبراه مع صغراه

وَصَلَّى الْكِتَابُ وَكَانَ آتَسَ وَاصِلِ
لَا شَيْءَ أَنْفُسُ مِنْهُ مُهْدَى جَامِعاً
فَقَضَضْتُهُ وَجَعَلْتُ أَلْثَمُ كُلِّ مَا
وَفَهَيْتُ مُودَعَهُ ، فَرَحْتُ بِغَبْطَةٍ
وَعَجِبْتُ مِنْ لَفْظٍ تَنَاسَقَ فِيهِ مَا
وَلَقَدْ غَبَطْتُ عَلَيْهِ عِلْقَ مَضْنَةٍ
كَالرَّوْضِ بِأَكْرَهُ الْحَيَا ، فَتَفَتَّحَتْ
كَالْعَقْدِ فَصَّلَ لَوْلُؤُا وَزَبَرْجَدًا
دُرٌّ تَرْفَعُ قَدْرَهُ عَنْ قِيَمَةٍ

(١) واسم الحبيب ذكر وهو « علي » .

(٢) الحريدة ١/ ١٥ قسم شعراء المغرب ، بتحقيق عمر الدسوقي وعلى عبد العظيم .

وفيما اختاره العماد شعرٌ يتلاعبُ فيه بأوزانه ، فيخرج عن تقليد الشعراء .
من ذلك ما يقرأ على خمسة أوزان . وهو قوله :

وَعَزَالٍ مُشْتَفٍ قد رثا لي بعد بُعْدِي
لما رأى ما لقيتُ
مثل روضٍ مَفُوفٍ لا أبالي وهو عندي
في حُبِّهِ إِذْ ضَنَيْتُ
وجْهَهُ الْبَدْرُ طَالِعاً تاهَ لَمَّا حَارَ وَدَى
فإنني قد شقيتُ
في قضيبٍ مُهْفَهِفٍ لَدَّ فِيهِ طُولٌ وَجِدِي
جفا فَكَدْتُ أَمُوتُ
مانعٌ غير مُعْسِفٍ ليس يَأْبَى نَقْضَ عَهْدِي
وليسَ إِلَّا السَّكُوتُ
جائِرٌ غير مُنْصِفٍ حَالٌ عَمَّا كَانَ يُنْدَى
إِنَّ الْوَصَالَ بُخُوتُ

وفيه هذا التغير في الأوزان شبيه بنظم الموشح .

ويمكن قراءته على صورة أخرى ليصبح على وزن « بحر الحفيف » .

وَعَزَالٍ مُشْتَفٍ قد رَثَى لِي بعد بُعْدِي لما رَأَى مَا لَقِيْتُ
مثل روضٍ مَفُوفٍ لا أَبَالِي وهو عندي في حُبِّهِ إِذْ ضَنَيْتُ
وجْهَهُ الْبَدْرُ طَالِعاً تَاهَ لَمَّا حَارَ وَدَى ، فإنني قد شقيتُ
..... إلخ

ويمكن قراءته على وزن مجزوء الحفيف هكذا :

وَعَزَالٍ مُشْتَفٍ مثل روضٍ مَفُوفٍ
وجْهَهُ الْبَدْرُ طَالِعاً في قضيبٍ مُهْفَهِفٍ
مانعٌ غير مُعْسِفٍ جائِرٌ غير مُنْصِفٍ
وقراءته على بحر الجثث هكذا :
لَمَّا رَأَى مَا لَقِيْتُ في حُبِّهِ إِذْ ضَنَيْتُ

فَأُتِنِي قَدْ شَقِيتُ جَفَاً فَكِدْتُ أَمُوتُ
وَلَيْسَ إِلَّا السُّكُوتُ إِنَّ الرِّصَالَ بَخُوتُ

والوزن الرابع مجزوء الرمل هكذا :

قَدْ رَأَى لِي بَعْدَ بُعْدِي لَا أَبَالِي وَهُوَ عِنْدِي
تَاهَ لَمَّا حَازَ وَدَى لَدُّ فِيهِ طُولٌ وَجِدِي
لَيْسَ يَأْتِي نَقْضَ عَهْدِي مَالٌ عَمَّا كَانَ يُتَدِي

وأما الخامس فهو منهوك الرَّمْلُ — ولم يستعمله العرب . واستعمله
المحدثون . يقول :

قَدْ رَأَى لِي بَعْدَ بُعْدِي
لَا أَبَالِي وَهُوَ عِنْدِي
تَاهَ لَمَّا حَازَ وَدَى
لَدُّ فِيهِ طُولٌ وَجِدِي
لَيْسَ يَأْتِي نَقْضَ عَهْدِي
مَالٌ عَمَّا كَانَ يُتَدِي

وهكذا يمكن أن يكون رائداً لهذا اللون من النظم الذي عرف عند بعضهم
بالقصيدة ذات الأوزان . وكل هذه محاولات للخروج على الإيقاع التقليدي
إلى إيقاعات أخرى متنوعة تناسب تنوع الحياة الحضرية ، وما تسمعه الأذن من
تعدد الألحان .

وربما كان ذلك أثراً من آثار انتشار الموسيقى والغناء وتعدد مصادرهما من
المشرق والمغرب ، مما جعل الأذن العربية تعتاد هذا التنوع ، وتملّ رتبة إيقاع
البحور المعروفة في الشعر العربي .

ولم يكن الأندلسيون ولا المغاربة أول من حاول تلك المحاولات في الشعر
العربي بل سبقهم شعراء عباسيون في القرن الثالث ومحاولات أبي نواس وأبي
العتاهية واردة في كثير من كتب الأدب ... كما أشار مؤرخو الأدب إلى
محاولات شعراء آخرين في هذا السبيل .

ومن مجزواته المطربة المرقصة قوله :

يا ذا الذى كل يوم يزيد عقلي خبالاً
دلّهتني بك حتى رأيت رشدى ضلّالاً
أدعو عليك وقلبي يقول: ياربّ لا، لا

وهو في شعره خفيف الظلّ ، أما ترى كيف نعت مغنياً لم يُعجبه فقال :

ولنا مُعْنٌ لا يزا ل يغیظنا ما یفعل
صلّف وتیه زائدٌ وتبظّرّم وتّمحل
غنّی ثقیلاً أولاً وهو الثقیل الأول

وكنا نأمل أن نمضى مع شاعرنا لو أسعفنا الحظ بديوانه أو عثرنا على قدر
أوفر من شعره .

— ٥ —

شعراء وافدون آخرون

لقد توافد على مصر من صقلية والمغرب والأندلس جماعة من الشعراء في هذه المرحلة من منتصف القرن الخامس وحتى منتصف القرن السادس بلغ عددهم كثرة ما يفوق الحصر ، فقد ذكر الحافظ السلفي جماعة منهم في معجمه ، كما ذكر العماد جماعة نقلًا عن ابن الزبير والقاضي الفاضل وأمية ابن أبى الصلت كما ذكر ابن سعيد المغربي جماعة في المغرب .

ولا يسعنا الحديث عن هؤلاء جميعاً ، فقد يتعذر ذلك لقلة حديث المؤرخين عن حياتهم ، وشجعهم كذلك فيما يذكرون من أشعارهم .

ومن ذكرهم العماد^(١) : محمود بن عبد الجبار الأندلسي الطرسوسي ، وأبا الحسن عبد الودود بن عبد القدوس القرطبي — قال : أورده ابن الزبير في كتابه من الطائرين على مصر . قال ابن الزبير :

« كان انتجع مصر معتقداً أنه يُحمَدُ بها المرادُ ، ويُتأل المرادُ ، فاتفق لنكد الزمان ، وخط الحزمان أن ورد بعض ثغور مصر ، وبها رجل يُعرف بإسماعيل بن حميد المنبوذ بابن قادوس ، وكان ممن يهتم بالجمع والأدب ، ويدين بعبادة الدرهم والدينار ، لا تندی حصائه ، ولا يظفر بغير الحبة عُفائه ، ولا يرشح له كُف ، ولا يُعرف له عرف ، إلا أن له رِواءً وجدةً ، وبنين وحفدةً ، يُطِيعُ الغر في نواله ، ومنال النجم دون مناله ؛ فقصدته عبد الودود بمدائح أرق سلكها ، وأجاد سبكها ، وتأنق في وشيها وحبكها ، وظن أن سهمه قد أصاب الغرض وقرطس ، وأنه يفوز بأكثر ما التمس ، فكان بارقه تحلباً لا يجود بقطرة ، وشرابه سراباً بقررة . ولما تحقق إكداؤه كده ، وصلود قذجه في مدجه . قال :

شقي رجال ويشقى آخرون بهم	ويسعد الله أقواماً بأقوام
وليس رزق الفتى من حسن حيلته	لكن جدود بأرزاق وأقسام
كالصيد بجرمه الرايى المجيد وقد	يرمى فيرزه من ليس بالرأى

(١) الخريدة قسم شعراء المغرب ١ / ٣٣١ طبع الدار التونسية سنة ١٩٦٦ م .

وقال في هجو ابن قادوس :
تسلُّ فللاً يام بشرُّ وتعبسُ
صدئت على قربٍ وحلقك عسجدُ
ومنها :

ترحل إذا ما دئس العز ملبس
وما ضناقت الدنيا على ذى عزيمة
وكم من أخى عزم جفته سعوده
ثقل السيوف البيض وهى صوارم
ولولا أناس زينوا بسعادة
ولكن فى الأفلاك سير حكومة
أفاضت سعوداً بالحجارة دونها
وصار فلاناً كل من كان لم يكن
فحقق ولا يغررك قول مدلس
أفيقوا بنى الأيام من سينة الكرى
فى القسمة السيزى يحول جاهل
فإرضاء ذى جهل، واستخاط ذى جحى
تخذ العلم قنطاراً بفلس سعادة
ومذ لقب القرد القصير موقفا
وقالوا: سديد الدولة السيد الرضى
وأعجب من ذا أن يلقب قاضياً
وأكثر ما نصر الحديث فكاذب
وأعرف منه بالفرائض راهب
وما النين إلا أن تحكم نعمة
ومالى فوق الأرض مغير إبرة
مصائب من يسكت لها مائة حسرة

وأيقن، فلا التعمى تلوم ولا البوس
وملت إلى لغو ولفظك تقديس

وغيرك من يرضى به وهو ملبوس
ولا غرقت فلک، ولا نفقت عيس
يموت احتراقاً وهو فى الماء مغموس
ويرجع صدر الرمح، والرمح ديس^(١)
لما ضر تريع، ولا مر تسديس
تخير بطليموس فيها وإدريس
يطاف سبوعاً حولها الغلب والشوس
ودان له بالرق قوم مناجيس
فأكثر ما يدعو إليه نوايس
وسيروا بسير الدهر، فالدهر معكوس
وذو العلم فى انشوطه الدهر محبوس
نعاج مياسير، وأسد مقاليس
عسى العلم يقنى فيمتلى الكيس
هذى الدهر واستولت عليه الوساويس
فأكثر حجاب، وشدد ناموس
وأكثر ما يجرى من الحكم تليس
وأظهر ما صلى الصلاة فمنجوس
وأفقه منه فى الحكومة قيس
ونرغام أسد الغاب فى الغيل مفروس
وتحمل دمياط إليه وتيس
ومن ثقلها بقاء يموت وهو منحوس

(١) ديس: طمان .

(٢) بقصد بذلك مهجوه ابن قادوس .

وفي جورِ هذا الدهرِ ما بأقلِّه
ويتناغِ منكاً بالخرأِ مُذلِّسُ
وقالوا: ابن قاثوسِ تقدِّسْ كاسِجه
أيا مَنْ غدا ضداً لكل فضيلةٍ
وسنُضربُ في أرجاءِ مكَّةِ ناقوسُ
ويُعبدُ خنزيرٌ ، ويُرسَلُ جاموسُ
ومن هو قاثوسُ؟ ، فلا كان قاثوسُ
ومن نجمه في طالع السَّعيدِ منكوسُ
ومنها :

وقد قلَّتها هجواً ، وأثفك راغمُ
أبا الفضلِ إن أصبَحْتَ قاضيَ أمةٍ
فإنَّ قريضي بين أذُنِكَ ذرَّةٍ
تجمَعُ في الخيرِ والشرِّ جُملةُ
قال العماد : أطاعه في هذه القصيدة الطبع الجافي ، وجاد بالكدر خاطره
الصافي . وأبان فيها عن رقة دينه وتَهْلِيلُهُ ، وعدم عبوسِ بُوسِهِ بشرِّ الفضلِ في
تَهْلِيلِهِ .
ومنها :

القاضي الرشيد أحمد بن قاسم الصقلي :

قال ابن العماد^(١) : من الطارئین على مصر القاضي الرشيد ، وكان قاضي
قُضائِها في أيام الأفضل ، فدخل يوماً إلى الأفضل وبين يديه دواة من عاج
مُحلَّقة بمرجان فقال :

ألينَ لداوودَ الحديدِ بقلْدرِ
ولأنَّ لك المرجانُ وهو حجارةُ
يَقْدَرُهُ بالسَّردِ كيف يُريدُ
على أنَّه صعبُ المرامِ شديدُ
وكان الأفضل قد أجرى الماء إلى قراة مصر ، فكتب إليه يرجو إجراء الماء
إلى دار له بها :

أيا مؤلَّى الأنام بلا احتشامِ
لعبدك بالقراة دارُ نُزلِ
لموجودِ يعيشُ بها لوقتِ
وفي أرجائها شجرٌ ظمأُ
وسيدُّهم على رَغَمِ الحَسودِ
لموجودِ الحياة أو الفَقيدِ
ومفقودِ يُوارى في الصَّعيدِ
عُدْمَنَ الحسنِ من ورقٍ وعودِ

فَمُذْ غَدَتْ المَصَانِعُ مَمْتَعَاتٍ
يَقْلُنْ إِذَا سَمِعْنَ شَجَى السَّوَاقِي
أَرَى مَاءً وَبَى عَطَشٌ شَدِيدٌ
وَلَهُ فِي الغَزَلِ :

إِنْ لَمْ أَزِرْكَ وَلَمْ أَقْنَعْ بِرُؤْيَاكِ
يَا ظَلِيَّةَ ظَلْتُ مِنْ أَشْرَاكِهَا عِلْقًا
رَعِيَتْ قَلْبِي وَمَا رَاعَيْتِ حَرَمَتَهُ
أَتَحْرِقِينَ قَوَادًا قَدْ حَلَلَتْ بِهِ
مَا نَفْحَةُ الرِّيحِ مِنْ أَرْضٍ بِهَا شَجْنِي

وَوَاضِحٌ مُمَاتِنَتُهُ لِلرَّضَى فِي قَصِيدَتِهِ « يَا ظَلِيَّةَ الْبَانِ » .

ومنها :

أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ زَكَرِيَّا الْقَلْعِيُّ الْأَصَمُ^(١) :

وهو ممن ذكرهم ابن الزبير فقال : كان جيد الشعر ، وارى زناد الفكر
لكنه منحوس الجَدِّ . ورد إلى الإسكندرية ومصر ، وأقام بها زماناً لا يحصى من
يروى ظمأته ، ولا يسدُّ حاجته ، وعاد إلى المغرب في غير أوان سفر المركب ،
فسار راجلاً نعله مطيته ، وزاده كذيتته إلى أن وصل إلى قوم يعرفون ببني
الأشقر في طرابلس الغرب ، فامتدحهم بالقصيدة الميمية التي أولها :

« تَرَى فَاضَ شَوْبُوبٍ مِنَ الْغَيْمِ سَاجِمٍ »

فَأَحْسَنُوا صِلَتَهُ ، وَعَظَّمُوا جَائِزَتَهُ . وَلَمْ أَدِرْ مَا فُعِلَ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ .

فمن قصيدته الميمية تلك :

وَأَوْمَضَ مَشْبُوبٌ مِنَ الْبَرْقِ جَاحِمٍ
وَمَاذَا التَّدَى وَالْوَقْتُ بِالصَّيْفِ حَائِمٌ
لَكِنَّهَا أَيْمَانُكُمْ وَالصُّوَارِمُ
كَمَا لَمْ يَزَلْ فَوْقَ الْكُعُوبِ اللَّهَازِمُ

تَرَى فَاضَ شَوْبُوبٍ مِنَ الْغَيْمِ سَاجِمٍ
وَمَاذَا التَّدَى وَالْوَقْتُ بِالصَّيْفِ حَائِمٌ
فَمَا هَذِهِ مُزْنٌ ، وَمَا ذِي بَوَارِقٍ
بَنُو الْأَشْقَرِ اسْتَعْلَوْا بِحَقِّ عَلَى الْوَرَى

(١) الخريدة ١ / ٣٣٧ قسم شعراء المغرب .

وهكذا يمتدح في مدحيه التقليدي^(١) .

ويبدو أنه قصد الأفضل بن بدر الجمالي ، لكنه لم يحظ عنده بما أراد ،
فغادره وغادر البلاد ناعياً حظه ، وقلة سعيه . ويورد له العماديين في الأفضل
يقول فيهما :

مَلِكٌ أَنْتَ أَمَ مَلِكٌ حَارَ صَرْفٌ ثَأْمَلَكُ
أَنْتَ إِنْ أَسْعَدَ الزَّرَى فَلَكَ مَسْعَدٌ فَلَكَ

ومن غزله قوله :

لما استرقته من عيونك بابلُ بما عُلِّمْتُ من مُقْلَتِكَ المناصِلُ
بوجهك ماءُ الحسنِ في صفحاته كذكرِكَ مِنِّي في الضمائرِ جائلُ
خذوني على التجريبِ عبدُ فإنْ أكنُ أخالفُ أمراً فاطرًا مِعْجَلُ
فما طويْتُ إلا عليكم جوائِجُ ولا بُسِطْتُ إلا عليكم أناملُ
وله بشكو حاله وقلة ذات يده^(٢) :

مَضَى النَّاسُ يَسْتَسْقُونَ مِنْ كُلِّ وَجْهَةٍ إِلَى كُلِّ مَسْمُوعِ الدُّعَاءِ مُجَابِ
فَوَافَاهُمْ الْغَيْثُ الَّذِي سَمَحَتْ بِهِ لَهُمْ بَعْدَ طُولِ الْمَنْعِ كُلِّ سَحَابِ
وَفِي ظَنِّهِمْ أَنْ قَدْ أَجِيبَ دُعَاؤُهُمْ وَمَا عَلِمُوا أَنِّي قَدْ غَسَلْتُ ثِيَابِي

علي بن إسماعيل القلعي :

ومن مواطني أبي عبد الله المذكور علي بن إسماعيل القلعي أيضاً ويلقب
بالطُميش من الواردين على مصر كذلك في القرن السادس . وقد عاصر
أحداث مقتل أحمد بن الأفضل الجمالي أيام الحافظ .

قال ابن الزبير — فيما نقله عنه العماد^(٣) — : « من الواردين على مصر من
أهل العصر وله حين قتل ابن الأفضل أبو علي بعد حبسه الحافظ ، وإلقائه في
نفوس شيعته بذور الحفائظ ... واستيلائه على المملكة سنة يدعو إلى القائم

(١) المصدر نفسه ص ٣٣٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٣٩ .

(٣) الخريدة ١ / ٣٤١ قسم شعراء المغرب .

المنتظر ، ونقش اسمه على الذهب الأحمر ، ثم احتيل عليه فاغتيل وجان القليل ، فكان القتل ، وأعيد الحافظ بعد ضياعه ، وأذن ذلك بتأهيل ربايعه ، وتطويل باعه فنظم (الطميش — لقب الشاعر) فيه قصيدة منها^(١) — قال :

ولا بد من غزم يُخِيلُ أنبي	قدحْتُ على الظلماء من بذرهِ فجرا
يحبُّ ظلاماً كالظلم إذا سرى	إذا جنَّ جَوْنُ كان يبيضته البُدر
وليل صحبت السيف يرعد حده	وقد شاب فيه مفرق الصعدة السمر
حملت به درعى وسيفى وإنما	حملت غدير الماء والعصن والتها
وأشقر ورد اللون لولا انتسابه	إلى البرق سيراً خلته المسك والحجرا
إلى أن بدا وجه الصباح كآته	لحافظ دين الله آيته الكبرى ^(٢)

ومنها :

وقد كان دين الله بالأمس عابساً	لجراه حتى لاح في وجهه بشراً
وكان علياً حين كان الذى طغى	معاويةً والحارثي له عمراً

يشير إلى مقتل على ابن أبى طالب ونجاة معاوية وعمرو بن العاص من القتل فى الفتنة الكبرى بعد صيفين .

ومنهم الفقيه أبو محمد عبد الله بن سلامة .

أصله من بجاية ، وكان مقامه بالإسكندرية ، ثم مصر والصعيد والريف وهو القائل :

لى حُرْمَةُ الضَّيْفِ لو كُنْتُمْ ذَوِي كَرَمٍ	وحُرْمَةُ الجار لو كُنْتُمْ ذَوِي حَسَبٍ
لكنكم يابنى اللُخْناء لَيْسَ لَكُمْ	فَضْلٌ ولا أَنْتُمْ من طِينَةِ العَرَبِ
كَمْ لا أزال على حالٍ أَسَاءَ بها	منكم وأغضى على الفحشاء والرَّيْبِ
لأتركَنَّ لكم أرضاً بكم عُرِفَتْ	فأخبثُ البُومِ يأوِي أخبثُ الحَرَبِ
وما مقامى بأرضٍ تسكنون بها	مِنى يَطِيبُ. ولكن حُرْفَةُ الأَدَبِ

(١) ذكر العماد أن ابن الزبير قال هى منسوبة إليه مما ادّعاها .
 (٢) وعلق العماد على الأبيات بقوله : استغفر الله من ذلك ، فإنه لم يكن حافظاً وإنما كان مُضَيَّعاً — ومعلوم أن العماد كان سنياً مخالفاً فى مذهبه للفاطميين .

ومنهم علي بن يقطان السبتي^(١) .

من مدينة سبته ، قال عنه العماد : شاعرٌ أديبٌ ، متطبِّبٌ . ذكره بعض أهل الأدب بمصر ، وقال : ورد إلى البلاد المصرية سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ومضى منها إلى اليمن ، وسافر إلى المشرق في طلب الرزق ، وزار العراق ودار الآفاق .

ومن سبته وفد إلى مصر ابن شقرق السبتي .

ومن شعره وقد كتب به إلى صديق :

<p>دُعِنِي أَطِيلُ تَأْسِفِي . وَتَفْجِئِي ذَهَبَتْ بَيْنَهُمُ الْقَطَارُ فَأَصْبَحْتُ أَسْفَى عَلَى زَمَنِ الْوَصَالِ كَأَنِّي فَلَا مَنَعَ الْجَفْنَ مِنْ طَعْمِ الْكَرَرِي وَلَا حَفَظَنَ الْعَهْدَ مِنْ بَحْلِ نَائِي</p>	<p>قَلْبِي غَدَاةَ التَّيْنِ جِدُّ مُودَعٍ كَيْدِي وَقَلْبِي يَجْرِيَانِ بِأُدْمَعِي لَمْ أَسْتَظِلْ بِظِلِّهِ فِي مَرْبَعٍ أَسْفَا عَلَى ذَاكَ الزَّمَانِ الْمَرْعِ بَعْدَ التَّأْلِيفِ وَالْوَدَادِ الْمَمْتَعِ</p>
---	---

ومنها يصف السفينة :

<p>فَارَكَبْ عَلَى اسْمِ اللَّهِ مَتْنِي رَكُوبَةٍ تَخَذْتُ جَنَاحًا مِثْلَ قَلْبِي خَافِقًا تَسْرِي وَتَرْجِيهَا الرِّيحُ إِذَا سَرَتْ تَسْتَعْذِبُ الْمَلَحَ الْأَجَا جَ لَدَى الظَّمَا وَكَأَنَّمَا رُكْبَانُهَا أَبْنَاؤُهَا وَكَأَنَّمَا الْمَلَأُحُ فِيهَا أَمْسَرُ</p>	<p>خَضِرَاءَ تَسْبِيحُ فَوْقَ لُجٍّ مُتْرَعٍ وَحَوْثُ قَوَادِمَ كُلِّ طَيْرٍ مُسْرِعٍ وَعَمْرُ مَرِّ الْعَارِضِ الْمُتَقَشِّعِ مَهْمَا الْعَطَاشُ وَرَدَّنَ عَذْبَ الْمَشْرِعِ تُخْنُو عَلَيْهِمْ رَافَةٌ بِالْأَضْلَعِ يُمَضِي أَوَامِرُهُ لِأَوَّلِ مَوْقِعِ</p>
---	--

(١) الخريدة ١ / ٣٤٤ .

مجر الصقلي (توفي قبل سنة ٥٤٠ هـ)

هو مجر بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن مجر الصقلي .
الصقلي المولد ومن الوافدين إلى مصر بعد الأحداث التي مرت بها صقلية
بين النورمان والعرب والعرب أنفسهم .

وفد إلى الإسكندرية كغيره من المغاربة والصقليين بحراً ، والتقى ببعض
علمائها ، وجلس إلى محدثها السلفي الحافظ ، وترجم له هذا في معجمه قال :
إنه من أهل الأدب البارع والشعر الرائع .

وكان انتقله إلى مصر سنة ٤٨١ هـ في خلافة المستنصر ، وكانت سنة
السابعة عشرة . وذكر السلفي أنه كان يحضر عليه ويأخذ عنه . وينشده مجر
بعضاً من شعره ، فيقيده السلفي عنه .

وشهد السلفي له وهو شاب بأنه كان صائناً لنفسه غير متبدّل ووصفه بأنه
من فحول الشعراء .

وذكر العماد أن القاضي الفاضل ذكره بين شعراء المغرب والأندلس
الوافدين إلى مصر ، وأنه « قُرْظَه بالفضائل » .

قال العماد^(١) : « وهو صِقلِيُّ التُّجَّار ، مصريُّ الدار ، وهو قريب
العصر ، توفي قبل الأربعين والخمسمائة . قال : قال ابن الزبير : يُنْقَلُ إلى
المصريين بحكم أن نشوءه واشتغاره بمصر . غزير موارد الفكر ، وارى زناد
القريحة » .

ولا ندرى كم مكث بالإسكندرية ، ولنفترض أنه أتم بها القرن الخامس
وانتقل إلى القسطنطينية والقاهرة في أوائل القرن السادس ، وكان سلطان الأفضل
قد بلغ قمته ، فقد ولّى المستعلي ابن أخته الخلافة ، وحارب نزاراً بن المستنصر
حتى اختفى من مسرح النزاع . وظل اتباعه النزارية يتعقبون الوزير الأفضل
حتى قُتِلَ بيد أحدهم .

(١) خريدة القصر ٢ / ٨٣ قسم شعراء مصر .

وفي هذه الفترة من استبداد الأفضل بأمر السلطنة كان بلاطه مآلاً لكثير من الشعراء مصريين ووافدين ، وهكذا انضم مجير إلى ركبهم في رحاب الأفضل قال الصيرفي (١) : « أحد شعراء المجلس العالى المالكي ثبت الله سلطانه » يعنى مجلس الأفضل .

وبعد مقتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ اتصل بالوزير الذى جاء بعده وهو المأمون البطائحي ومدحه .

واتصل ببعض كتاب المصريين ومدحهم (٢) .

ومن مدائحه فى الأفضل التى رواها الصيرفي (٣) :

شعرٌ أرقُّ من التَّسِيمِ حواشياً	لَمْ تَرَوْا حَوْشِيَّ الْكَلَامِ رِوَاثُ
نُظِمْتُ لَهَا نَشَاءٌ مِنْهُ قَصَائِدُ	قَصِيدَتْ مَدَائِحُهُ بِهَا وَصَفَائُهُ
فَأَتَى بِدِيْعاً فِى بَدِيْعٍ أَطْمَعْتُ	أَلْفَاظُهُ ، وَتَمَتَّعْتُ طَرَقَائِهِ
كَالْرُّوحِ يُدْرِكُ بِالْحَقِيقَةِ فَعْلُهُ	وَتَغِيْبُ عَنْ أَهْلِ الْبَصَائِرِ ذَاتُهُ

ويقول فى وصف خيمة الفرج التى أقامها فى مناسبة وفاء النيل وكسر الجسر :

وبيض خيام يهتدى الركب فى الدجى	بها حين تخفى النيرات وتحجب
تبوأ منها خيمة الفرج التى	لراجيك قال فى اسمها لا يكذب
فتاة على إيوان كسرى وتاجه	رواق لها فى ظل ملكك يضرب
علا وعلت ، فاستوفت الجؤ هالة	بها منك بدر بالبهاء مستجب
يكاد من الإحكام صافين خيلها	يجول وساجى وحشها يتوثب
ويوم كيوم الجسر هولا وشدة	يرى الطفل فيه خيفة وهو أشيب
سقرت به عن وجهه جدران ضاحك	وللشمس وجه بالعجاج منقب
وأسمر عسال الأنايب قد سطا	على الأسد منه فى يمينك ثعلب
أخو الصل شينها ماله الدهر مذناى	عن الثرب إلا فى الترائب مشرب

(١) الأفضليات ١٠٩ .

(٢) الذخيرة ٨٣/ ٢ .

(٣) الأفضليات ١٨٠ ، والذخيرة ٨٦/ ٢ .

ومنها قصيدة لم يذكر العماد — متعمداً غالباً — الممدوح ، لكن القول
يرشح أنها في الأفضل ، وقد جاء ذكره تلميحاً في أثنائها . وبدأها بذكر
الشراب مقتفياً صنيع ألى نواس ، يعقبه بالغزل ثم المدح فيقول :

إملاً كؤوسك بالمدام وهاتها
أصرف عن المشتاق صيرف مدامة
وأحل أشربتي وأحلاها التي
ومريضة الأجفان رامت في الهوى
مازلت أصفح في القلي عن جزمها
حتى توهمت الصلود زيادة
يقول فيها :

ما خلعت أن النفس ينكد عيشها
أستودع الله القباب وأوجها
والورد يخسد نرجساً وبنفسجاً
تلك الرياض اللاء ما برحت يدي
ولرب قافية شروء شردت
حتى وردت من التأسف بعدها
مازلت أنظم طيب ذكرك عنبراً
حتى إذا نشر الصباح رداءه
وتمثلت عقداً تؤد كواكب الجو
أعددتها للقاء مجدك سبحة
ومدائح الكرماء خير وسيلة
وأحقها بالثجح. مدحك إنه
فاليوم أنثرها جواهر حكمة
فالبس بها حلل الناء فائها
وأفصح لنا في لثم بسطك إن أبث
قسماً بمن قسم الحظوظ فلت
وبنى العلاء ربياً فكن بفضله

حتى يكون الموت من شهواتها
فيهن كالأقمار في هالاتها
في شهل أعينها ونفس لثاتها
تجنبي ثمار الوصل من وجناتها
نومي فبت أجول في ألياتها
ثاراً دموعي الحمر من جمراتها
أرجاً خلال الدر من كلماتها
عن مثل نفع المسك من نفحاتها
زاء عقدته على لباتها
أدعوها لأنال من بركاتها
شفعت بها الآمال في حاجاتها
للنفس عند الله من قرباتها
عقمت عذاري الشعر عن أحواتها
حلل تروق علاك في بدنائها
يمناك إلا شغلها بيناتها
أول من استولى على غاياتها

لَوْلَا جُودُكَ فِي الزَّمَانِ وَجُودُكَ الْحَيِّ الْمَكَارِمَ بَعْدَ بُعْدِ وَفَاتِهَا
 لَمْ يُعْرِفِ الْمَعْرُوفُ فِي الدُّنْيَا وَلَوْ طُفْنَا عَلَيْهِ فِي جَمِيعِ جِهَاتِهَا
 وَقَدْ شَكِيَ فِي هَذَا الْجُزْءِ أَوَّلُ الْأَمْرِ مِنْ ضَيْقِ الْعَيْشِ ، عَرْضًا ، وَجَاءَ بِهِ فِي
 أَثْنَاءِ الْغَزْلِ وَالنَّسِيبِ ، وَغَزَلَهُ هُنَا غَزْلَ حَضْرَى ، وَإِنْ مَازَجْتَهُ بَعْضَ الْعِبَارَاتِ
 وَالْأَلْفَافِ الْبَدَوِيَّةِ ، وَهَذَا طَبِيعِي فِي الشَّعْرِ الْعَرَبِيِّ ، يَجْرِي عَلَى لِسَانِ الشَّاعِرِ مِنْ
 مَحْفُوظِهِ .

وَحَدِيثُ التَّشْبِيهِ بِالْأَزْهَارِ فِي الْغَزْلِ حَدِيثٌ حَضْرَى ، وَرَثَهُ عَنْ مَبْدَعِي
 بَغْدَادٍ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ ، وَعَنْ شُعْرَاءِ الْأَنْدَلُسِ الَّذِينَ أَغْرَمُوا بِالطَّبِيعَةِ وَوَرُودِهَا
 وَنُورِهَا وَزَهْرِهَا . وَكَذَا مَا اعْتَادَهُ الْمَصْرِيُّونَ مِنَ الْإِكْثَارِ فِي شَعْرِهِمْ عَنِ الطَّبِيعَةِ
 مِنْ ذِكْرِ الزَّهْرِ وَالنُّورِ .

وَأُظْهِرَ اسْتِحْضَارُ ابْنِ الرُّومِيِّ فِي بَعْضِ أَيْيَاتِهِ الَّتِي مَزَجَ فِيهَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ
 وَالرُّوْحِ .

وَيَهْمُ الشَّاعِرُ بِوَصْفِ قَصِيدَتِهِ بِأَنَّهَا عَذْرَاءٌ ، وَأَنَّهَا شَرُودٌ ، غَرِيبَةٌ ، لَا يَمِثِّلُهَا
 شَعْرٌ فِي غَرَائِبِهَا ، وَهِيَ عَقْدٌ يَنْتَظِمُ جَوْهَرُ الْمَعَانِي فِي مَدْيَحِ الْمَمْدُوحِ ، وَتَوَدُّ
 الْكَوَاكِبُ أَنْ تَكُونَ خُرَزَاتِ هَذَا الْعَقْدِ . وَكُلُّهَا مَعَانٍ تَدَاوَلَهَا الشُّعْرَاءُ وَخَاصَّةً
 أَبُو تَمَامٍ ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ أَغْرَبَ هُنَا فِي وَصْفِ قَصِيدَتِهِ بِالسُّبْحَةِ يَدْعُو بِهَا لَيْثَالِ
 مِنْ بَرَكَاتِهَا . وَبَرَكَاتُهَا بِالطَّبِيعِ مَا يَجُودُ بِهِ الْمَمْدُوحُ مِنْ عَطَاءٍ !

وَيُرْوَى الْعِمَادُ مِنْ شَعْرِهِ هَذِهِ الْأَيْيَاتُ اللَّامِيَّةُ عَنْ مَجْمُوعِ ابْنِ الزَّيْبَرِ (١) :

أَثَرِي يُضَيِّقُ مِنَ الصَّبَابَةِ عَاشِقٌ	قَذَفْتُ بِهِ الْأَهْوَاءَ فِي الْأَهْوَالِ
مُعَرَّى بِحَبِّ الْغَانِيَاتِ ، هَفَّتْ بِهِ	هَيْفُ الْخُصُوفِ ، وَرُجُحُ الْأَكْفَالِ
غَرَسَ الْقَضِيبَ عَلَى الْكَثِيبِ بِقَدِّهَا	فَأَثَتْ بِمِيَادٍ عَلَى مُنْهَالِ
تَتَرَدَّدُ الْأَبْصَارُ فِيهَا حَيْرَةً	فِي الْحَسَنِ بَيْنَ الْحَالِ وَالْخُلُخَالِ
عَرَّاءُ غَرْنُهَا الشُّبِّيَّةُ فَاكْتَسَتْ	تِيَّةَ الدَّلَالِ وَعِزَّةَ الْإِذْلَالِ
مَمْكُورَةٌ مَكْرَثٌ بَقْلِي وَالْهَوَى	يَسْتَضْعِفُ الْمُحْتَالَ لِلْمُحْتَالِ

(١) الخريدة ٢ / ٨٢ .

فِي الْحَبِّ قَتْلَى ، وَهُوَ غَيْرُ خَلَالٍ
بُؤْسُ الْمَحَبِّ ، وَلَا نَعِيمُ السَّالِي
فِي الْحَبِّ مَعْدُودٌ مِنَ الْبِحَالِ
حُلُوٌّ ، وَأَيَّامُ الشَّبَابِ حَوَالِي
تُغْنِي هُنَيْدَةً عَنْ هُنَيْدَةٍ مَالِي^(١)

حَلَّتْ مَوَاشِي الرِّفَاءِ وَحَلَّتْ
قَالُوا تَسْلُ ، وَفَسَّ مَا أَمُرُوا بِهِ
قَلْبِي مِنَ الْأَجْوَادِ إِلَّا أَنَّهُ
سَقَيْتُ لِيَالِنَا بَرَامَةً ، وَالْهَوَى
وَلَجْدَةُ الْعِشْرِينَ عِنْدَى ثَرَوَةً

يقول فيها ؛ من المديح :

مَعْرُوفِهِ فِي وَابِلِ هَطْبَالٍ
بِالْمَاءِ جَادَتْ كَفَّهُ بِالْمَالِ
بِالْحَمْدِ كُلِّ مُخَالِفٍ وَمُوَالِي
مَنْ لَا يُقَرُّ بِمُبْدِعِ الْأَشْكَالِ

غَيْثٌ مِنَ الْإِحْسَانِ مَا يَنْفُكُ مِنْ
وَسَحَابُ جَوْدٍ كُلَّمَا ضَنَّ الْحَيَا
نَادَى بِحَيٍّ عَلَى النَّدَى ، فَأَجَابَهُ
وَأَقَرَّ مُعْتَرِفًا بِثَابِتِ فَضْلِهِ

وصنعة البديع في هذه الأبيات واضحة ، وغرامه بالتجنيس لا يحتاج إلى
تبيين وإشارة ، وقد لاحظ هذا الغرام ابن الصيرفي عندما عرض لقوله (٢) :

غَارُوا فَعَارَ الْحَيْنَى فِيهِمْ قَمَرٌ هَوَيْتُهُ ، أَفَلَا أَبْكِي وَقَدْ أَفَلَا
قال ابن الصيرفي : والمتقدمون يسمون هذا تجنيس المماثلة ، وقوم يعبرون
عنه بتجنيس اللفظ والخط .

ويبدو أن مجر قد حاذى أبا تمام في صنعة التجنيس ، وأراد تقليده ، وبخاصة
عندما لقي هذا اللون من الصنعة ترحيباً في عصره ، وآثره بعض شعراء المرحلة
وبخاصة شعراء الشام على ما أشرنا .

وجمع إلى التجنيس التورية ، وكان بعض شعراء المصريين قد أولع بها ونقل
هذا القاضى الفاضل ، وصارت التورية فناً بديعاً غلب على المصريين خاصة ،
كما غلب الجنس على الشوام خاصة .

ويشير ابن الصيرفي إلى التورية في قوله :

فَسَقَى مَحَلَّ الْجِرْعِ مِنْ مَحَلِّ بِهِ غَيْثٌ تَدَوَّرَ عَلَى الرُّبَا كَاسَاتُهُ
سَفَحَ سَفْحَتْ عَلَيْهِ دَمْعِي فِي ثَرَى كَالْمِسْكِ ضَاعَ مِنَ الْفَتَاةِ فُتَاتُهُ

(١) هنيذة الاولى تصغير هند من أسماء النساء ، وهنيذة الثانية اسم يطلق على المائة من الإبل .

(٢) الأفضليات ص ١١٠ .

قال ابن الصيرفي^(١) : فقد ورى بضاع من الضياع عن ضاع من التضرع
- وإلى هذه التورية ، فاستخدامه الجنس واضح في محل ومحل ، وسفح
وسفحت ، والفتاة والفتات .

ويروى له كذلك بيتاً من أبيات قالها بمناسبة زيارة ملك غانة لمصر في
طريقه إلى الحج ، واستقبال الأفضل له واحتفائه به . قال :

كذا يجيب دعاء الله من عرفه من غانة غاية الدنيا إلى عرفه
فانظر كيف جالس بين عرفه الفعل وعرفه اسم الجبل ، وبين غانة وغاية .
ومن مديحه في الأفضل :

بأى لسان من معاليك أعرب وفى كل إحسان في معانيك تُعرب
يقول فيها :

هصور له السرود المضاعف لبدة لدى الحرب ، والعضب اليماني مخلص
وهى التى وصف فيها خيمة الفرج كما أشرنا . وفيها تشبيهات مجددة لآلة
الحرب .

ويعجب ابن العماد بقوله في أول قصيدة مشبها البرق :

أترى السحاب الجون بات مشوقاً ييكى الثوى ويعاتب التفرقا
فالبرق يلمع في حشاه كانه قلب المحب تلهباً وخفوقاً
وعلى ذكر البرق ، فإنه كرر ذكره في قصيدة أخرى ، وصوره صورة
مخالفة بل صوراً متعددة متتابعة حيث يقول^(٢) :

أرايت برقاً بالأبارق قد بدا
كيف اكتسى ثوب السحاب ممسكاً
وكأنما في الجوى كأس كلما
أو مرهف كشفت مداوس صيقل
كلحب أو رق اللجين يسيل من
وكلؤلؤ للغيث يأخذ الثرى

(١) الأفضليات ص ١١٣ .

(٢) الخريدة ٢ / ٨٦ .

ويستحضر بهذه التشبيهات بعض التشبيهات المتوارثة في الشعر القديم تقول
الشاعر يصف البرق :

يدو وتجبهُ التلاعُ كأنه سيفٌ يُسَلُّ على الظلام ويُعمدُ
وفي معاني الحب والتشوق نجد له ما يعجب من التصرف المبدع كأن
يقول :

لَوْلَا الهَوَى ما عُبِرَتْ عِبْرَاتُهُ عَنْ وَجْدِهِ وَتَصَاعَدَتْ زَفْرَاتُهُ
فَرَّقَ الْفِرَاقَ أَطَارَ حَبَّةَ قَلْبِهِ فَتَقَطَّعَتْ بِمُدَى النَّوَى عِزَمَاتُهُ
مَنْ كَانَ وَخَى الْحُبِّ بَيْنَ ضُلُوعِهِ نَزَلَتْ بِفَيْضِ دَمُوعِهِ آيَاتُهُ
لَا تَنْكُرُوا حَمْرَ الدَّمُوعِ فَإِنَّهُ جَمْرُ الْأَسَى وَتَنْفُسِي نَفْحَاتُهُ

وله أبيات رقيقة في وزنٍ وإيقاعٍ خفيفين ، وقافية تتهي بياءٍ مفتوحة وهاء
ساكنة . يقول فيها^(١) :

طَرَقَتْكَ غَيْرَ مُخْتَفِيَةٍ غَادَةً بِالْحَسَنِ مُرْتَدِيَةٍ
وَوَشَى طَيْبُ النِّسِيمِ بِهَا قَبْلَ أَنْ تَبْدُو قُفْلَتْ هَيَّةَ
ثُمَّ لَمَّا أَقْبَلْتَ طَلَعَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ مُعْتَلِيَةٍ
يَا لِقَوْمِي مِنْ لَوَاحِظِهَا إِنَّهَا بُرَى وَعِلَّتِيَةٍ
وَاصْلَتْ لَيْلٍ وَتَقَرَّهَا أَنْ رَأَتْ صَبْحاً بُوْفَرِيَةٍ
إِنْ صَبَحَ الشَّيْبُ أَيْقَظَنِي مِنْ كَرَى عَيْنِي وَغَفْلَتِيَةٍ

وهكذا ، فإن ما وصلنا من شعر مُجَبِّر القليل ينبيء عن شاعر مجيد ، تنشأ
على فن الشعر في الأندلس ، ومزج بينه وبين فنونه بالشرق ، وتحلى ببرقة
المصريين وإبداعهم .

(١) الخريدة ٢ ص ٨٧ .

ملاح شعر الوافدين المغاربة والأندلسيين :

لشعر الوافدين من المغرب ملاح عامة تكاد تتكرر في كل أشعارهم ، ومن أظهرها الإحساس بالغربة ، وألم الفقر والحاجة ، والشعور بالآلام الاضطراب للسؤال وطلب الجدوى .

ومنها وصف الرحلة ، والبحر ، والسفن وهول ركوب البحر ، وشكوى الزمان ، والشعور بعدم الاطمئنان إلى الحياة والناس ، وربما كان ذلك راجعاً إلى ما أصاب بلادهم من اضطراب ، واضطهاد وحروب وغارات للفرنجة والنصارى والتورمان في صقلية . وما أرتكب في المعارك من قتل وتعذيب وتشريد .

وقد استقبلت مصر منهم أعداداً كبيرة خلال القرون من الخامس إلى السابع . وجاءوا معهم بكثير من علوم الأندلس وآدابها ، كما جاءوا بفنونهم ، وبعض عقائدهم . وكان من بين ما جاءوا به إلى مصر التصوف المغربي .

كذلك وقد معهم الموشح ، وتأثر المصريون بموشح الأندلسيين فنظموا على شاكيلته . وبدأ الموشح المصري يأخذ طريقه إلى النظم منذ آخريات القرن الخامس ، وطوال القرنين السادس والسابع . وقد وقفنا على صور للموشح عند ظافر الحداد ، وهو سكندري ، اختلط بالأندلسيين والمغاربة الذين كثروا بالإسكندرية على عصره ، وربطت بينه وبينهم روابط أدب وعلم .

وكان من بين من تعرف عليهم وتأثر بهم أمية بن أبى الصلت ، وكان لأمية تلاميذ آخرون من الإسكندرية أدخلوا عنه .

ومن ملاح شعر الوافدين التجديد في الصياغة ، على نحو يبدو غريباً في بناء الصورة على غير المعهود في الشعر العربي المشرق ، والذي كانت تقاليده الفنية سائدة في الشعر المصري إلى القرن الرابع .

وكثرت في تعبيراتهم الألفاظ والتراكيب العامية أو غير الفصحى . ربما كان ذلك تأثراً بالموشح والزجل . كما حاول بعضهم إيقاعات جديدة تخرج عن نمط العروض العربي المعروف بأوزانه وضوابطه التي حافظ عليها المشارقة .

وكثير تشبيههم بمظاهر الطبيعة من شجر وماء وزهر ونجوم وسماء وإن كانوا يتصرفون في تشبيهات القدماء واستعاراتهم الجارية في الشعر حتى تلبس ثياباً جديدة من اللفظ تخرج بها عن معتاد الصياغة في شعر المشاركة .

وقد أثرى الوافدون المغاربة الشعر المصري في هذه المرحلة ، بما أشاعوه فيه من هذه العناصر التجديدية في اللفظ والمعاني ، والأخيلة والتراكيب .

وأضافوا إلى التجارب الفنية في شعر المشاركة والمصريين تجاربهم الخاصة التي عاشوها في بلادهم الغنية بالثقافات والتي تغاير إلى حد كبير ثقافات المشرق ، واستطاعوا أن يصوغوا هذه التجارب في القوالب التقليدية للشعر وإن حاولوا أن يخرجوا على الأطر الموروثة من حيث التمسك الصارم بشكل القصيدة ، وإيقاعاتها ، وقواعد الوزن والقافية .

كذلك حاولوا الإفلات من أسر التجارب المشرقية التي غلب عليها الشعر الجاهلي بصياغاته ، وصوره الصحرأوية وأخيلته وتراكيبه .

وكان أثر هذا كله واضحاً على الشعر المصري في القرون السادس والسابع والثامن .

الفصل الثامن

شعراء مصريون من القرن السادس

- ١- حسن بن زيد الأنصاري
- ٢- ابن النصر
- ٣- داود بن مقدم المحلي
- ٤- ابن الضيف
- ٥- ابن الكيزاني

بدأ القرن السادس باضطراب أحوال الخلافة الفاطمية ، والذي بدأت أسبابه تظهر في أخريات القرن الخامس . وكان من عوامله الدسائس المتبادلة بين أنصار العباسيين والفاطميين ، وضغط الروم ، والصليبيين على الدولتين ، والخلل السياسى والإدارى الذى أصاب الخلافة بالضعف ، وأطمع كثيرين من المتطلعين للسلطة . وكان لبدر الجمالى وابنه الأفضل — على قدر ما سيطرا على مقاليد الحكم دور فى هذا الاضطراب الذى أصيبت به الخلافة الفاطمية ، لما أبدياه من المظالم والاستبداد ، والميل إلى الانفراد بالسلطة ، والتقليل من دور الخلفاء ، مما أطمع فيهم كل مغامر يقتنص الفرصة للظفر بالسلطة .

لقد قتل الأفضل بتدبير من الأمر كما يقال ، أو بتأمر النزارية انتقاماً . ومن بعده اضطراب الأمر وتعاقب الوزراء والقادة على السلطة ، وصار الخلفاء لعبة فى أيديهم كما كان الحال فى بغداد .

وكانت قوة السلاجقة وأتباعهم من آل زنكى قد بدأت تظهر بشكل واضح بالعراق والشام . حتى انتهى الأمر بمقتل زنكى وتولى السلطان محمود ، وفى عهده انتهت الخلافة الفاطمية بعد هزيمة أسد الدين شيركوه للصليبيين فى مصر واستيلائه عليها تحت إمرة نور الدين محمود . ومن بعده خلصت لصالح الدين .

وقد شهد القرن الخامس كثيراً من الشعراء المقيمين بمصر والوافدين ، بعضهم شارك فى الأحداث ، كابن منقذ وعمارة اليمنى ، وابن رزّيك . وقد سجّل شعر هذا القرن بعض أحداثه فى مصر وخارجها ، فضلاً عن الموضوعات التقليدية من مدح وهجاء ووصف وغزل .

وعرف فى هذا القرن كالقرنين السابقين جماعة ممن نظموا الشعر من كُتّاب الدولة، ولم يقتصر قول الشعر على المحترفين المجتدين . فقد كان من الشعراء فرسان كابن منقذ ووزراء كبار كابن رزّيك .

واستمر الشعراء الوافدون من المشرق والمغرب فى وفادتهم إلى مصر قاصدى الحج راغبين فى نيل الجائزة ، وكان أصحاب السلطة والجاه فى الدولة ، جنباً إلى جنب مع الخلفاء ينعمون على الشعراء ، ويجزلون العطاء ،

لأن الشعر كما قلنا كان أداة إعلام واسعة الانتشار ، يحرص كل صاحب مصلحة أو نفوذ على أن يلهج الشعراء يذكره فيسير في الآفاق مشرقاً ومغرباً .

ولما كان القرن السادس قسمة بين الفاطميين والأيوبيين في مصر والشام ، فقد كان الشعر والشعراء كذلك قسمة بين الدولتين ، بعضهم خلص للفاطميين ، وبعضهم الآخر خلص للأيوبيين ، وبعض ثالث شارك في الدولتين ومدح الحكام والقادة فيهما ، واضطر بعضهم أو رغب تقريباً أن يغير اتجاهه ، ويعارض أقواله وينكب عن ولاء كان قد أبداه للفاطميين فعاد منقلبا عليهم ، موالياً للحكام الجدد من الأيوبيين ونذكر من هؤلاء القاضي الفاضل ، وابن عنين .

إلا أن بعض شعراء المرحلة ممن ذاق أنعام الفاطميين حفظ الجميل ، ولم يتخل عن ولاءه لهم في محنتهم ، ولقى في سبيل هذا الحفاظ على الجميل والوفاء نهايته مصلوباً كالشاعر الفقيه عمارة اليمني .

وعلى هذا التغير الذي حدث في ولاء الشعراء وتغير خطاب المديح بأشخاصه وقيمه ومعانيه ، لم تتغير أشكال الشعر تغيراً واضحاً في أخريات القرن ، وظل التطور التدريجي يعمل بفضل اجتهاد الشعراء والتفاعل بين جماعات الوافدين من المشرق والمغرب والمصريين المقيمين .

- ١ -

حسن بن زيد الأنصارى^(١)

شاعر من بيت مصرى عريق ، جدّه لأمه المجيد ابن أبى الشخباء العسقلانى من مقدمى الكتاب فى عصر المستنصر بالله .

وقد عمل حسن بالكتابة كجده لأمه ، قال ابن العماد : كان من المقدمين فى ديوان الإنشاء بمصر . وصفه القاضى الفاضل وأثنى على فضله ، وأنه فى فنه لم يسمح الدهر بمثله .

كان من شعراء الأفضل بن بدر الجمالى .

قتله حسن بن الحافظ الخليفة الفاطمى لدسياسة رتبها له ابن قادوس إذ نظم على لسانه أبياتاً هجا فيها الحسن . وشعره رصين الصياغة يذهب فيه مذهب مقدمى الشعراء العباسيين فى القرن الثالث . ومن ذلك قصيدته يمدح الأفضل ويصف خيمة الفرج التى سبق أن ذكرنا بعض من وصفها من شعراء . يقول :

وأبدت العجز منها هذه الهيم
ويقظة ما نراه منك أم حلم
تسمو علواً على أفق السها الحيم
فى مارى الدهر من تيه بها شيم
أن احتوتك وأنت الناس كلهم
حتى كئيبير علماً أنها علم
أضحى تجاوزها الآساد والأجم
لما تحقّقن منها أنها حرم
مُصوّر ، وكلا الجيشين مُزدجِم
فمقدّم بينهم فيها ومنهزم
فليس تترع عنها الحزم واللجم
فكلهم لغمار الحرب مُقتجِم
فقد تسالمت الأسياف واللمم

مَجْداً فقد قصرت فى شأوك الأمم
أخيمة ما نصبت الآن أم فلك
ما كان يخطر فى الأفكار قبلك أن
حتى أتيت بها شماء شاهقة
إن الدليل على تكوينها فلكاً
يُمَدُّ من فى بلاد الصين ناظره
ترى الكناس وآرام الأطباء بها
والطير قد لزم فيها مواضعها
لذلك جيش ، وجيش فى جوانبها
إذا الصبا حرّكتها مآج موكبها
أنجلها خيلك اللآلى تُغير بها
علمت أبطلها أن يُقدّموا أبداً
أمّنتهم أن يخافوا سطوة لردى

(١) ترجمته فى خريدة القصر قسم شعراء مصر .

لا يستطيع على أعمارهم هَرَمَ
للفرقدين، وفي سَمْعِيهَما صَمَمَ
وقد هَمَّت فوقها من كَفَك الدَّيَمِ
أَصْبَحَتْ فَأَلَا به تستبشِّر الأُمَمُ

كَأَنَّهَا جَنَّةٌ فَالْقَاطِنُونَ بِهَا
عَلَتْ فَخِلْنَا لها سِرًّا تُحَدِّثُهُ
إِنْ أَنْبَتْ أَرْضُهَا زَهْرًا فَلَا عَجَبُ
يَا نَحِيمَةَ الْفَرَجِ الْمُيْمُونُ طَائِرُهَا
ومنها :

زَكَمَ لَهُ نَقَمٌ فِي طَيِّهَا نِعَمُ
إِذَنْ رَأَيْتَ الْمَعَالِي فِيكَ تَخْتَصِمُ
فِي نَاطِرِ الشَّمْسِ مِنَ الْأَلَانِهَا سَقَمُ
تَوَدُّ لَوْ أَنَّهَا فِي الْمَدْحِ تَنْتَضِمُ

مَا قَالَ لَأَقُطَّ مَذْ شُدَّتْ ثَمَائِمُهُ
لَوْ كُنْتُ شَاهِدَ شِعْرِي حِينَ أَنْظِمُهُ
أَزْرُتْكَ الْيَوْمَ مِنْ فِكْرِي مُحَبَّرَةٌ
تَرَى النُّجُومَ لِلْفُطَى فِيكَ حَاسِدَةٌ
ومن قصيدة أخرى يمدحه :

أَرَاكَ بِهِ مَرَأَى الْيَقِينِ التَّوَهُّمُ
كَوَاكِبُهُ فِيهَا سَفَائِنُ عُومُ
أَضَاءَ بِهَا وَجْهُ الدُّجَى وَهُوَ أَسْحَمُ
وَيَسِيمُ مِنْهَا الْكَالِخُ الْمُتَجَهِّمُ
فَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنْ جَوْدِهِ تَتَعَلَّمُ

أَطَارِقُ طَيْفِ أُمِّ خِيَالٍ مُرْجَمُ
سَرَى وَكَأَنَّ الْأَفْقَ صَفْحَةً لُجَّةُ
وَكَمْ لِلْكَرَى مِنْ مِثْلِهِ قَبْلَ هَذِهِ
وَمَا شَيْئُ الْأَيَّامِ أَنْ تَمْنَحَ الْمُنَى
وَلَكِنْ رَأَتْ نَعْمَى شَهْنَشَاةٍ فِي الْوَرَى
ومنها :

لَخَجَلَتْهَا مِنْ نُورِهِ تَتَلَقَّمُ
وَلَكِنَّهُ عَجَبًا بِهَا يَتَبَسَّمُ
بُنْصَرِيَّةَ يَوْمِ الْوَعَى يَتَرْتَّمُ
لَوْ أَنَّ غَنَاءَ ابْنِ الْأَرَاكِةِ يُفْهَمُ

إِذَا كُسِفَتْ شَمْسُ النَّهَارِ فَإِنَّهَا
وَمَا أَطْلَعَ الْأَفْقُ النُّجُومَ لَرِيَّةُ
وَلَيْسَ صَلِيلُ الْبَيْضِ إِلَّا لِأَنَّهُ
وَمَا غَرَّدَ ابْنُ الْأَيْلِكِ إِلَّا بِمَدْحِهِ

ومدائحه للأفضل فيها ترديد لبأسه وصولاته في الحرب ، وقد يكون هذا
منطقيًا في هذا العصر الذي شغل فيه القادة بمصر بغارات الصليبيين بالشام ،
وتعدتها إلى الغارة على مصر سنة ٥١١ بقيادة بلدوين صاحب بيت المقدس .

ومحاولات بعض فرسان الصليبيين المهجوم على الثغور الشامية وبها حاميات
مصرية . لقد استعرت حَرْبُ الْحَيَاةِ أَوْ الْمَوْتِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالصَّلِيبِيِّينَ فِي
خِلَالِ هَذَا الْقَرْنِ السَّادِسِ وَأَحْسَّ النَّاسُ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَبِخَاصَّةٍ فِي مِصْرَ بِخَطَرِهِ

الهجمة الشرسة التي يشنها الصليبيون من أوروبا على سائر البلاد الإسلامية في المشرق والمغرب .

ومن هنا لم يكن غريباً الإكثار من الحديث عن الجهاد والقتال ، وشحن الهمم لصد الأعداء وهم ذوو بأس شديد ويجوسون خلال الديار يهددون مصائر الناس وحيواتهم .

ولم يعدم المسلمون في ذلك الوقت أبطالاً يخوضون المعارك ويصلُّون المغيرين ، ويقاومون الغزاة بكل ما يحملون في صدورهم من حقد وطمع في حضارة المسلمين الزاهرة وأرضهم العامرة .

ولم تقتصر مدائح الأنصارى على الأفضل بل مدح من رجالات مصر أبا محمد بن أبى أسامة أحد كبار القادة ، من رجال الأفضل . يقول فيه من أبيات :

لعل سنا البارق المتجيد	يُخبر عن ساكني تهجد
ويا حبذا خطرة للنسيم	تجدد من لوعة المكيد
وفي ذلك الحى تحمصاة	لها عنق الشاذن الأغيد
ثيئه لفره بدر التمام	وسالفة الرشا الأغيد
وتلحف عطف قضيب الأراك	رداء من الأسحم الأجيد
أعاذل أمحت لوماً على	يروح بعدلك أو يغتلى
تلوم زمانى على صمته	وصوتى من ضربه المعيد
ففضلى ييكى على نفسه	بكاء لبيد على أريد ^(١)
ولو كان حظى لون الشباب	لما حال عن صيغه الأسود
قلا تأيسن لمطل الزمان	فأنى منه على موعيد
ولا تشك دهرك إلا إليك	فما فى البرية من مُسيد
ولا تغترز بعطايا اللثام	فقد ينضح الماء من جلعد

وعجيب أن يرد فى شعر مديحه البيتان الأخيران ، لكن أحوال الزمان السيئة أجرت على لسانه هذا الكلام ، كما أجرى عليه كلاماً آخر فى مناسبات وأشعار أخرى يشكو ويلوم الزمان ، وينظر إلى الناس والدهر نظرة سوداء متشائمة .

(١) أريد هو أخو لبيد الذى أكثر من رثائه .

وتلتقى في شعر الأنصارى الذى اختاره العماد بأيات يَتَمَرَّدُ فيها على الحياة وأوضاعها ، ونحس وهو يذكر القتل والقتال أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش في عصر اللثام إلا إذا تسلَّح ، وقاتل ، واعتصب حقّه بالسيف .

يقول على سبيل المثال :

منال الثريا دون ما أنا طالبُ	فلا لومَ إن عاصت على المطالبُ
وإني وإن لم يسمُح الدهر بالمنى	فلى فى كفالات الرماح مآربُ
تقربُ لى مستعداتِ مطالبى	جياذى، وعزى والقنأ والقواضبُ
فما أنا ممن يقبض العجزُ خطوهُ	وتعفى عليه فى البلادِ المذاهبُ
إذا ما كسناك الدهرُ ثوباً من الغنى	فعجلُ بلاهُ، فالليالي سؤالبُ
ولا تغترَّرِ ممَّن صفا لك ودُّهُ	فكم غصَّ بالماء المصفى شاربُ
نلوُم على الغدير الزمان ضلالةً	وقد سنَّه أحيابنا والحبابُ

ويقول :

أطلب الرزق لا أنضى الركاب له	لا تفرس الأسد أو تنأى عن الأجم
وكيف أغضى على ضمِّ وما رويث	منى السيوف ولم تسق الصعأذمى
من لى يعود زمان كنتُ أكرهه	وكيف للميت بالرجعى إلى الألم

ونحس أحياناً ونحن نقرأ بعض شعر الأنصارى روح المتنبى فى تمرده وضيقة بالبشر والعصر ، وبالحياة أحياناً . بل إنه قد يصطنع صياغته وخطابه الشعرى .

والأنصارى مثلاً من الشعراء المتمردين على العصر وأهله وهو يمثل هذا الإنسان الغاضب المتمثل لنفسه الطامح إلى أمل أبعد من قدرته ، فى عصر يظن أن الغالب فيه بالغ ما يريد . ولم يزوده الله إلا بقدرة البيان ، والغلبة لصاحب السيف والسلطان .

— ٢ —

ابن النضر — الأديب^(١)

القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن النضر
من شعراء الصعيد في عصر المستعين والامر — وقد اتصل بالأفضل
شاهنشاه بن بدر الجمالي .

تولى قضاء الصعيد زمناً بإخميم . ذكره أمية بن أبي الصلت في الرسالة
المصرية وأشاد به . وقال عنه العماد : من أهل صعيد مصر . من الأفاضل
المعروفين من حسنات الزمان . ذو الأدب الجم ، والعلم الواسع ، والفضل
الباهر ، والنثر الرائع والنظم البارع . وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى .
نشأ بالصعيد ، وتلقى به العلم ، وكان يحفظ كتاب سيبويه ، وكان
متصرفاً في علوم كثيرة ، وله في الأدب مادة غزيرة .

قال صاحب الطالع السعيد : وأكثر شعره في تشكّي الزمان والإخوان .
وله مدائح في الأعيان ، وفي جماعة من بني الكثر أعيان أسوان .
وقال عنه ابن حجر : أحد قضاة الصعيد . كان نحويّاً أديباً . روى عنه ابن
برى النحوى من رجال القرن السادس وغيره .

قال ابن أبي الصلت والعماد : وقد كان ورد الفسطاط يلتمس من وزيرها
الملقب بالأفضل نصرة أو خدمة ، فخاب فيه أمله ، وضاع رجاءه ، وأخفق
سعيه ، فقال من قصيدة يعاتب فيها الزمان ، ويشكو الحيلة والحرمان :

بين التعزّز والتذلّل مَسَلَكٌ	بادى المنار لعين كلّ مُوفّقٍ
فاسلكهُ في كلّ المواطنِ واجتنبْ	كَبَّرَ الأَبَى وذِلَّةَ المَتمَلِّقِ
ولقد جَنَيْتُ من البضائع خيرا	لأَجَلِ مُخْتَارٍ ، وأكرم مُتَّقِي
ورجوتُ خَفَضَ العَيشِ تحتَ رواقِهِ	لأَبَدٍ إِن نَفَقَتْ وَإِن لَمْ تَتَّقِ
ظَنَّا شيها باليقينِ ولم نُحَلِّ	أَن الزَّمانَ بما سَقَانِي مُشْرِقِي

(١) راجع في ترجمته الرسالة المصرية في مجموعة نوادر المخطوطات بتحقيق عبد السلام هارون ص ٤٠ .
والخرقة ٩٠/٢ شعراء مصر والطالع السعيد وبغية الوعاة للسيوطي .

ولعائبي بالجرصي قول بين
ما ارتدت إلا خير مرتاد ولم
وإذا أبى الرزق القضاء على امرئ
ولعمر عادية الخطوب وإن رمت
لأقار عن الدهر دون مروءتي

لو كنت شئت سحابه لم يطرق
أصيل الرجاء بخبل غير الأوتق
لم تكن فيه جيلة المسترزي
شعلى بسهم تشتت وتفرق
وحربت غز النصر إن لم أصدق

قال : وله في سفرته هذه ، وقد قوى يأسه من بلوغ أملة ، ونيل بغيته ،
وعزم على الصّدر عن الفسطاط إلى مستقره ، يحض على الزّهادة ، ويحرض على
القناعة ، ويدم الضّراعة ، ويتأسف على إذالة خده ، وإراقة ماء وجهه :

لهفي للملك قناعة لو أننى
ولكن يأس كنت قد أحرزته
أليث أجعل ماء وجهي بعده
وأخ من الصبر الجميل قطعه
يا قائل الله الضرورة حالة
كم بات مشكواً إليه تحيفت
وفم على قدم رمت ونواظر
ومسر بل بالصبر والتقوى دعت
ظلت تصرّفه كتصريف العصا
لا أنشأني الحادثات لمثلها

متعت فيه بعزة المملك
لو لم تبت فيه الخطوب وتفتك
كدم يهل به الحجيج بمنسك
في طاعة الأمل الذي لم يدرك
أي المسالك بالفتى لم تسلك
خلفاته قرعا براحة منسك
كجالت محاجرهما عوطى سنسك
فأجابها في معرض المتسلك
رأس البعير لمبرك عن مبرك
ورميت قبل وقوعها بالمهلك

وله مرثية في الشاعر القاضي الرشيد بن الزبير جدّ اثنين من شعراء مصر
ورجالها المشهورين ممن اتصلوا بالوزير طلائع بن رزيك . ويدل ذلك على أنه
كانت تربطه به صلة ما ، والشاعران من الصعيد . يقول :

يا مزن ذا جدت الرشيد فمّل معي
وأمسح بأردان الصبا أركانه
فبود نفسي لو سقيت ثرابه

نسفح بساحته مراد الأدمع
كي لا يلم به شحوب البلقع
دم مهجتي ، ووقته بالأضلع

ومنها يخاطب القبر :

عَلَيْقَتْ عَلَيْكَ مَرَاحِمٌ كَفَلْتُ لِمَنْ
وَتَنَفَّسَتْ فِيكَ الصَّبَا مَفْتُوحَةً
يقول فيها :

أو ما عَجِبْتُ لَطَوْدٍ عَزُ بِإِذِخٍ
وَلَحْدٌ مِنْ وَطِيءِ الْكَوَاعِبِ رَاقِبًا
ويقول :

ولقد وَقَفْتُ عَلَى رِبْوَيْكَ شَاكِيًا
فَحَمَدْتُ طَرْفِي كَيْفَ أُرْشَدَنِي بِهَا
وَذَكَرْتُ مُزْدَحِمَ الْوَفُودِ بِيَابِهَا

ومعظم ما اختاره العماد من شعر ابن النضر من هذا اللون من الشكوى
والحكمة والسخط على الحياة والناس . كأن يقول وقد أوهنه العُمر :

يَا عَيْشُ إِنَّ لَمْ تَطْبُ فَلَا تَطْلُ
كَمْ وَإِلَى كَمْ نَفْسِي مَقْسَمَةٌ
لَا حَالُ لِي تَحْمِلُ الْمَقَامَ وَلَا اسْتَطَعْتُ
يَصْرِفُنِي الْيَأْسُ ثُمَّ تُعْطِفُنِي
وَيَا حَيَاةُ أَهْجَرِي وَلَا تُصَلِّي
بَيْنَ حُلُولِي وَبَيْنَ مُخْتَمَلِ
سَاعَةٍ تَسْتَعْلُ بِالرَّحْلِ
عَوَاطِفٌ مِنْ كَوَاذِبِ الْأَمَلِ

وقال وقد شعر بالغربة عند فراقه وطنه بالصعيد في سفرته إلى القسطنطينية :

يَا دَارَ مَا أَنْتَ لِي دَارًا وَلَا وَطَنًا
لَيْنٌ تَنْكَرُتُ لِي عَمَّا عَهَدْتُ لَقَدْ
أَتَشْتَكِينُ لَبِينَ حُمٍّ عَنْ بَلَدٍ
وَلَا قَطِينُكَ لِي أَهْلًا وَلَا سَكَنًا
خَرَيْتُ فِيكَ الَّذِي عَمَّرْتَهُ زَمَنًا
نَفْسِي، تَرَى الذَّلَّ فِي أَنْ تَسْكُنَ الْبَدَنَا

ومن هذا الإحساس بالغربة وفراق أهله وولده ينطلق قوله :

تَخَلَّفْتُ خَلْفِي لِلْحَوَادِثِ صَبِيَّةً
يَعْلَقَنَّ مِنْهُ بِحَبْلِ رَحْمَةٍ رَاحِمٍ
وَلَقَدْ وَجِدْتُ لَهُنَّ إِذْ وَدَّعْتَنِي
بِمَحَلٍّ لَا عَمَّ لَهُنَّ وَلَا أُخٍ
أَوْ يَعْتَصِمْنَ بِظِلِّ نَخْوَةٍ مُتَبَخٍّ
وَجَدَ الْقَطَاةَ بِدَامِيَاتِ الْأَفْرَخِ

(١) اليرمع الحجارة الرخوة .

ويبدو أن الرجل حين ضاق بالفسطاط والعاصمة حنَّ إلى بلده شأن كثير من أبناء الصعيد المغتربين ، فعادَ إلى بلده ليستقر ، وليقنع نفسه أن الحياة كلّها قبض ربح ، وخيال زائل ، فارتضى لنفسه بالزهد ، وكفَّ الهمة عن التطلع والطمع خاصة وأنه قد بلغ من العمر حَدًّا لم يعد يسعفه فيه البدن على مجاهدة الحياة والسعى في أحراشها . وحياة عصره تحكمها المغالبة ، وتسودها قوانين الغاب ، والسيادة فيها لمن غلب قوةً واقتداراً ، أو دسيسة وغدراً وخداعاً . فيعزى نفسه وأمثاله بأن يقول :

جهاذُ النَّفسِ مفترضٌ فَخْذُهَا	بآدابِ القناعة والزَّهَادَةِ
فإن جنحتَ لذلك واستجابتْ	وخالفَتْ الهوى فهو الإرادة
وإن جمحتَ بها الشهوات فاكبتْ	شكيمتها بمَقْمَعَةِ العبادَةِ
عساك تُحلُّها درَجُ المعالي	وترفعها إلى رُتَبِ السَّعَادَةِ

داود بن مقدم بن ظفر المحلى

ينسب إلى المحلة الكبرى .

من شعراء القرن السادس ، ذكره ابن الزبير في كتاب جنان الجنان ، ونقل عنه ابن العماد قال (١) : هو من أبناء الجند بأسفل مصر إلا أن همته سمت به من الأدب إلى دوحة يقصر عنها أمثاله ، ولا يطمع فيها أضرابه ، وأشكاله . وعضده على ذلك جودة الطبع ونفاذ القريحة ، حتى أدرك بعفو خاطره وسرعة بديته ما لم يبلغ إليه كثرة من أبناء عصره من الدأب على اقتناء الأدب . وذكر ما معناه أنه كسدت سوقه ، وجمحت حقوقه .

وهو منحوس الحظ غير مبخوت ، منكوب الجاه بحرفة الأدب منكوت . وقال عنه القاضي الفاضل : شاعر ملء فكيه توفى في عصرنا هذا (٢) .

قال ابن الزبير : وما أنشدني لنفسه قصيدة مضمنة شرح حاله . وهى :

وقد بكرت تلوم على تحمولى	كأن الرزق يحلبه احتيالى
تقدّر أننى بالحرص أحوى	كأن الرزق يحلبه احتيالى
تقول إذا رأيت إرشاد قولى	هيك ألا تنب إلى المعالى
(ومن لم يعشق الدنيا قديما	ولكن لا سبيل إلى الوصال)
فلو أدليت دلوك في دلاء	منحت به من الماء الزلال
وكم أدليت من دلو ولكن	بلا بلل يرد على قدالى
وكم غلقت أطماعى رجاء	يحلب بأرقى ووميض آل
فلا أنا بالكفاف التزير راض	ولأنا عن طلاب الكثر سالى
ولكن ذاك من قبل اعتمادى	على عبد العزيز أنى المعالى

وهو يتخلص إلى ممدوحه لعل وعسى أن يجزل له فيرضيه ، وعبد العزيز الذى يعنيه هو القاضي الجليس بن الحباب أحد كتاب الدولة المرموقين .

وينمى على كتاب عصره ممن يقصدهم يطلب رفدهم ، فلا يجودون بشيء يرضيه فينقلب عليهم هاجياً ليقول :

(١) الخريدة ٢ / ٤٦ قسم شعراء مصر .

(٢) المصدر نفسه ص ٤٥ .

تُعَدُّ لها الرِّقَى مثل الصَّلَالِ
فَعَادَتُهُ احْتِجَانِي وَاعْتَرَانِي
كَأَيْدِي الْخَيْلِ أَبْصَرْتُ الْخَالِي
أَنْمَقُهُ وَذَلِكَ جُلُّ مَالِي
بِجَالِسِهِمْ فَأَرْجِعْ بِالْمُحَالِ
يَهُونَ عَلَيَّ مَقْبَلُهَا سَبَالِي
إِلَى أَنْ خَفَ مِنْ ثِقَلِ طَحَالِي
بِوِطْءِ نَعَالِهَا مِثْلَ الْهَلَالِ
وَذَلِكَ يُعْلِنِي كَأْسِ الْمَطَالِ
يُبَاسِرُ أَنْ سَيَصْرِفُنِي تَمَالِي
وَمِنْ بَابِ التَّمَحُّلِ قَوْلُ خَالِي

وَكِتَابُ لَهُمْ أَبَدًا خِمَاتُ
وَكُلُّهُمْ يَنْجُرُ إِلَيْهِ نَفْعًا
بِأَيْدِي تَبْتَدِرُنَ إِلَى الرِّشَاوِي
وَنَسْتُ أَرْوَرَهُمْ إِلَّا بِشَعْرِ
فَأَغَشَنِي بِالْمِحَالِ الصَّرْفِ مِنْهُ
وَكَمْ قَبْلْتُ مِنْ كَفٍّ وَلَكِنْ
وَأَحْضَرُ مِنْ رِكَابٍ فِي رِكَابِ
وَأَثَرْتُ السَّنَابِكُ فَوْقَ رَجُلِي
وَهَذَا يَسْتَطِيلُ عَلَيَّ زَهْوًا
وَقَدْ عَلِمُوا وَإِنْ لَمْ يَصْرِفُونِي
وَحَالِي كُلِّ يَوْمٍ فِي انْتِقَاصِ
وَيَقُولُ مِنْهَا :

فَقَدْ نَبَّهْتُ مِنْكَ أَجَلُ كَالِي
فَمِنْهُ نَشَأْتُ وَلَهُ مَالِي
بِكُمْ عَوْدَ النِّصَالِ إِلَى التَّبَالِ
رَجُوتُ الرِّىَ مِنْ سُحْبِ ثِقَالِ
فَإِنَّ الذَّنْبَ لِلْأَيَّامِ لَالِي

فَيَا عُمَرَ الْخَوَاصِ قُمْ بِأَمْرِي
فَهِيَ أَنَا قَدْ رَجَعْتُ إِلَى ذِرَائِكُمْ
وَعَدْتُ كَمَا عَهَدْتُ مِنْ اتِّصَالِ
فَإِنْ أَبْلَغَ بِكُمْ أُمْلِي فَإِنِّي
وَإِنْ أَحْرَمَ فَقَدْ أَبْلَغْتُ عُذْرِي

وهذا النفس الشعرى صوت العامة من سواد الشعب ، لا صوت الخواص من طبقه العلماء واللائذين بأصحاب السلطة وذوى الجدد ، فصاحبه من الاجتاد أى من سواد الجنود لا الفرسان ولا القادة ، وهو صوت شعبى يشكو بنقض عامة الناس ويث ما يحسون به من استئثار السادة من الحكام والقادة ، من أصحاب السيف والقلم بكل خيرات البلاد ، ويفضلون على الأشقياء من عامة الناس بالكفاف وهم المناضلون الكادحون ، لكن عملهم وكدهم يذهب إلى غيرهم ينعمون به دونهم ، ويضطّر هذا الجندى من عوام الناس أن يسأل بشعره . وترى في قوله نعمة الشعب ، ولفظه ودارج كلامه ، وهذا اللون من الخطاب تطور في الشعر المصرى وظهر بوضوح بعد ذلك في العصر التالى عصر الأيوبيين والمماليك ، وتمثل في شعراء من أضراب الجزار ، والوراق ، والبوصيرى ، وغيرهم .

ويقول :

فأثر كُنُوتنا معاشر الجند واغتنوا بدرُورِ الأرزاقِ كلَّ أوَّانٍ
والولايَاتِ والحمايَاتِ والغُرِّ مِ وأخذ الأُخبالِ من كلِّ خانٍ
والمعاصيرِ والسواقِ .وتسويِبُ الضياعِ المُفَرَّداتِ الحِسانِ
وارتعوا في جُزُورِ ذى الدَّولَةِ الهِـمَى نَداها في أطيب اللُّحمانِ
واشغلونا بما به يُشغَلُ الهِـمَى لِنفَعِ أو خيفة العُدَّوانِ
بالطُّحالِ المُسدودِ أو طرف التريـبَةِ ، أو بالمِلاقِ والمُصرانِ
واغنموا هدنة كَتَهْويمة الرِّكـ سِ وقِثْمُ بها من الحُدَّانِ

والقصيدة صارخة الشكوى من استبداد الجند وقادتهم من أرباب السيف
المتسلطين على العباد يأخذون أرزاقهم ، ويسترقونهم ، فيفوزون من جزور
الدولة بأطيب اللحمان ، وينعمون منها بالأموال والنعم والحياة الرغدة ، ولا
يدعون لعامة الشعب إلا ما فضل منهم من اللذينة أنحس لحمها ، من الرقة
والمصران وهم مع هذا لا ينهضون بما ينبغي عليهم النهوض به من جهاد الأعداء
بالشام وقد تكالب الصليبيون على أرض المسلمين وسلبوا منها واقتطعوا
الامارات والاقطاعات وعاثوا . لقد تقاعس هؤلاء الجند عن الواجب المناط
بهم وبدلاً من جهاد الأعداء جاهلوا الناس واستولوا على أرزاقهم ليعيشوا في
نعمة وترف على حساب الرعايا يتركونهم يشقون بشظف العيش ، ومكابدة
الفقر .

— ٤ —

ابن الضيف^(١)

حيدرة بن عبد الظاهر بن الحسن بن علي الربعي

قال عنه العماد : « كان من دعاة الأدعياء ، الغلاة لهم في الولاء . وكان في حدود خمسمائة في عهد أمرهم . وله فيه مدائح كثيرة . وقع إلى ديوانه بخطه وكنت عزمت لفرط غلوّه على خطّه ، لأنه أساء شعراً ، وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كفراً ، فلم يستحقّ لإساءته كُفْراً ، ولا غُفْراً ؛ لكنني لم أر أن أترك كتاباً منه صفراً ، لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البر والفاجر ، يحمل الغنائم كما يحمل الدرّ ، والمركب فيه يجمع العبد والحرّ وقد أوردت من مستحسناته كلّ ما يُعفى على سيئاته ، ويُغضى به على هفواته .

فما عُتبت بإثباته من قصائده ومقطوعاته قوله من قصيدة يعارض بها ابن هانيء المغربي :

طلعت صباحاً مُشرقاً يتهلّل	ووراءها بالوَحيف ليلٌ أليلٌ
وَدَنَتْ لها شمسُ الظهيرة تُجْتَلِي	نوراً، وما للشمس طرفاً أكحلٌ
وثنت قضيبَ الخيزرانة تحتَه	حقف يكادُ تُسرّعاً يتهلّل
والحدّ ضمّخه حريقٌ مُشعلٌ	والشعرُ عطّره رحيقٌ سلسلٌ

واختار له العماد أبياتاً في الغزل تبدو فيها شاعريته ، ورقة أحاسيسه ، وبديع صوره .

قمرٌ لاثٌ عليه مُطرفاً	لازوردياً رقيق الحاشية
وعليه صبغةٌ من حُسنه	فهى في كلّ فؤادٍ سارية
يضحكُ القلبُ إذا عاينها	ولكم عينٌ عليه باكية
طرفه جنةٌ عدنٍ أزلقت	وبخذه جحيمٌ صالية
ننمّ الصُّدغين فيها طرراً	كُبت من ذهب في غالية
شبهته العينُ لما أن بدا	روضة ذات قطوفٍ دانية

أو يقول :

(١) ترجمته في الخريدة ١/ ٣٨٥ ، المغرب لابن سعيد .

آذن قلبي بالهوى شادين أيقظهُ من طرفه الثاعس
ألْبَسَهُ الحُسْنَ رِداءً لَهُ نفسى فداءً القمر اللابس
غرسْتُ في وَجْنتِهِ وَرْدَةً من نظرة المسترق الخالِس
فخاف أن أقطفها خُفِيَةً بقبلة والغرس للغارس
فمِرٌّ في ميدانه مسرعاً يا ليتنى فارسُ ذا الفارس^(١)

وكم رِقٌّ في تعبيره عن حمرة الخجل في الخد ، وجاء بهذا البدع في التشكيل
وحلاوة الصورة .

ومن إبداعه في الوصف قوله في عازف على العود :

وُسْمِيعٌ مبدعٌ بَصْنَعَتِهِ يُريك من فَضْلِ حُسْنِهِ عَجَبًا
حَرَكٌ عوداً كالرَّعْدِ مَقْتَرناً بالبرقِ في كَفِّهِ إذا ضَرَبَا
تَسْرَى قواه في نفس سامعه فيكتسبى كُلُّ مِفْصَلٍ طَرَبًا

ونستشف من شعره أنه كان من شعراء الأفضل بن بدر الجمالي إذ يقول :
وتلاف الكريم في ذلة اللوعة عِزٌّ ، وراحسةٌ في كلال
مثلما يتلف الأجل جلال الملوك أمواله يحفظ المعالي
من تخلص إلى المدح بعد مقدمة غزلية جميلة يقول فيها ، وقد جاء بالبديع
من المعالي :

ذاك مَغْنَى يَغْنِيكَ مَرَأَى عَنِ السُّنْعِ بتجديده الهوى وهو بالى
طالما أمكنت به فرصٌ جا ذُبْتُ فيها مغازلات الغزال
بين وردٍ كورِدٍ خُدَّيه في الحُسْنِ وَرَوْضٍ كوجْهه في الجمال
وندى كالدُموع في مُقَلِّ التُّرِّ جِسٍّ ، أو فيض عبيرة في دلال
يا لقومي من سِخْرِ تفتير طرف وَقَعَةٍ في القلوب وقع التبال

يتجلى أعلاه عن بدرٍ تَمُّ ويبارى رَدْفاه دِعْصَ رِمَالٍ
وعليه مجاسدُ ألْبَسَتْهُ الـ حُسْنٌ من فرقه إلى الخللخال
فإذا لآخ في السَّوادِ رأينا شمس دجن أو هالة في هلال

(١) ورى بين فارس وفارس ففارس الثانية من قَرَسَ .

ويقول في وصف الشراب ومجلس طرب وأتس وهو :

بتنا بها نجلو عروس زجاجة	قد ألبست ثوب الرجيعي الذهبا
نشرت عليها بالمزاج لآلء	عامت فعاذت كالبرين تسربا ^(١)
فصفاؤه يفتّر عنه ترققاً	ويزوده يزداذ منه تلّها
ومغرد لي من فتور جفونه	سكّر، وسكّر إن شدا وتطربا
نبتّه ويد النعيم تؤوده	لينا، وتكسو وجنتيه تخضبا
لأروض روضاً بالتداني ممرعاً	وأزور معني بالمغاني معشبا
وأشّم ريحان الشعور مطيباً	وأعلّ خمرأ بالشعور مشباً
وأمض زمان الصدور مشرباً	وأعض تفاح الحدود مكتباً ^(٢)

(١) البرين حلقات من معدن تضعها النساء في الأنف تزيها .
(٢) المكتب المثلء .

—٥—

ابن الكيزاني الشاعر الصوفي الواعظ صاحب الطريقة (ت سنة ٥٦٠ هـ)

عرف ابن الكيزاني في مصر في أخريات العصر الفاطمي شاعراً واعظاً صاحب طريقة . سكن الفسطاط ، وتعبد في جبل المقطم ، وسلك في حياته مسلك الفقراء من أصحاب الطريق ، زهادة ، وبعداً من صخب الحياة وترفعاً عن نهم المال ، ورغبة في اصطناع الأولياء ، واصطحاب الرفاق .

هو أبو عبد الله محمد بن ثابت إبراهيم الكيزاني^(١) ، جمع بين علوم الشرع وعلم العقل حتى أنه عد عند بعض المؤرخين ممن أخذ بآراء المعتزلة ، ويرى بعضهم أنه كان من المشبهة بالجسمة والقائلين بقدّم أفعال العباد ، وهو ما يتناقض مع القول بآراء المعتزلة ، وإن اتفق رأى بعض الصوفية في مراحل من تاريخهم مع المبادئ العامة لأراء المعتزلة ، وبخاصة متصوفة الفكر لا متصوفة الطريقة .

وعلى أية حال فإن الشيخ ابن الكيزاني قد اتخذ لنفسه مذهباً في الزهد والتصوف وعرف به وتبعه فيه جماعة من المصريين عرفوا بالكيزانية وهو في مواعظه وشعره لا يخرج في صورته العامة عن أقوال الصوفية وبخاصة من أصحاب مذهب العشق الذي كان ابن الفارض في القرن السابع شاعرهم الأكبر ، إلا أن فرقاً كبيراً . يباعد بين كل من الرجلين في الشخصية والشعر ، ومضامين كل ومعانيه ، فشعر ابن الكيزاني ومواعظه من الضرب السهل القريب إلى أفهام العامة وتعبيراتهم ، وهو أقرب إلى المنظومات الشعبية التي تنشأ في الموالد والمواسم الدينية من فرق الصوفية ورجالها .

وكان ابن الكيزاني يعظ الناس بالفسطاط والقاهرة بعد صلاة الجمعة أيام الجمع وفي المناسبات الدينية المختلفة ، فيقف بين الجمع يعظهم في خطبة أو كلمات منثورة مسجعة منمقة اللفظ ، مدعمة بآيات القرآن الكريم والأحاديث الشريفة للتذكير والترهيب والترغيب ، أسلوبها مسجوع مقطع

(١) راجع في ترجمته في : خريدة القصر قسم شعراء مصر ١٧/ ٢ والمغرب (قسم مصر) بتحقيق د. زكي محمد حسن ، د. شوقي ضيف ، وقد قام بدراسة حياته وشعره الدكتور علي صافي حسين

وجمع ديوانه — طبع دار المعارف بمصر .

يحرص فيه على الإيقاعات المترددة والجمال القصيرة في معظمها مع دعمها بكثير من مقاطيف القصص الديني .

وتارة يدعم مواظمه بتلك المنظومات التي تعرض صوراً منها من مثل قوله :

قَفْ عَلَى الْبَابِ طَالِباً	وَدَعْ الدَّمْعَ سَاكِباً
وَتَوَسَّلْ بِهِ إِلَيْهِ	مِنَ الذَّنْبِ تَائِباً
تَلَقَّ مِنْ حُسْنِ فَضْلِهِ	عِنْدَ ذَاكَ الْعَجَائِبِ
ثُمَّ خَفْ مِنْهُ أَنْ يَرَا	كَ عَلَى الذَّنْبِ رَاكِباً
فَهْوً يَجْزِي عَلَى الْيَسِيرِ	وَيُعْطَى الرِّغَائِبِ
زِينَةَ الْعَبْدِ بِالتَّقَى	فَاجْعَلِ الصَّدَقَ صَاحِباً

وشعره الصوفي الذي يدور في موضوع « الوجد » و « الحب » شعر بسيط كذلك في لفظه وتعبيره من مثل قوله :

إِذَا نَفَحَتْ رِيَّاحُ الْعَذْرِ يَوْماً	إِنِّ الْدَّمَعَ يَجْذِبُنِي وَيُغْرِى
تَذَكَّرْنِي الَّذِي قَدْ غَابَ عَنِّي	فِيْلِقَانِي وَالْقَاهُ بِذِكْرِ
نَائِي عَنِّي وَقَلْبِي مِثْلُ بَرْقٍ	وَأَجْفَانِي سَحَابٌ ذَاتُ قَطْرِ
وَيَا لَهْفِي عَلَيْهِ ثُمَّ لَهْفِي	نَائِي بَنَوَاهُ يَوْمَ الْبَيْنِ صَبْرِي
أَيَّتْ مَعْلَلًا رَوْحِي بِرُوحِ النِّسِيمِ	مِنَ أَرْضِهِ أَيَّانَ يَسْرِي
وَلَا وَاللَّهِ مَا ذَاقْتُ جُفُونِي	مَنَاماً وَلَا أُخْلَيْتُ ذِكْرِي
وَوَاسَقِي عَلَى أَنْ ذُبْتُ شَوْقاً	وَأَحْسَبُهُ بِذَلِكَ لَيْسَ يَدْرِي

قال العلماء والأدباء أقوالاً مختلفة ومتعارضة في شعر الكيزاني وقيمتة الفنية قال ابن سعيد المغربي^(١) :

وقفت على ديوانه ، وهو مشهور عند الناس ، قريب من أفهام العامة غير مُرضٍ عند صدور الشعراء ، وأصحاب عويص الكلام وفرسان النظم ولم أكتب من ديوانه ، وقد ضجرت من اختياره ومطالعه — شيئاً تهش النفس إليه ، وإنما أوردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه ، وكثيراً ما يباع في سوق الفسطاط وسوق القاهرة ، وكان من لا عرف معاني الشعر المستحسنة وألفاظه

(١) المغرب قسم مصر ص ٢٦١ ، بتحقيق د . زكي محمد حسن ود . شوق صبت .

المستبدعة يحضني على الوقوف عليه ، فلما وقفت عليه أنشدن متمثلاً : (أنا المعيدى فأسمع في ولا ترفي) .

وأما العماد الأصهباني فقد أطرى شعره ، فقال (١) :

« وله ديوان شعر يتهافت الناس على تحصيله وتعظيمه وتبجيله لما أودع فيه من المعنى الدقيق واللفظ الرشيق ، والوزن الموافق ، والنوعظ اللائق ، والتذكير الرائع ، والقافية آثار الحكم ، والكلمة الكاشفة أسرار الكرم » .

وكلام الأصهباني إطراء مسجوع لا سبر لغور الشعر كما سبره ابن سعيد وليس ذوق العماد كذوقه وهيات ، ومختارات كل منهما شاهدة على ذلك ، فلم يكن الأصهباني نقادة للكلام ولا شاعراً كابن سعيد يهتز للجمال .

ونقتبس مما اختاره العماد مقطوعات تصورات اتجاهه وصنعتة ، فمن ذلك قوله متغزلاً — لعله غزل عادي أو غزل صوفي — قال :

اصرفوا عني حبيبي	ودعوني وحبيبي
عللوا قلبي بذكرها	هـ فقد زاد ليهيبي
طاب هتكبي في هواه	بين وافر ورقيب
لا أبالي بهوان النفس	ما دام نصيبي
ليس من لأم وإن أظن	ب فيه بمصيب
جسدي راض بسقيبي	وجفوني بنجيب

ومن مواظله قوله :

أسعد الناس من يكاتم سره	ويرى بذلك عليه معرة
إنما يعرف اللبيب إذا ما	حفظ السر عن أخيه فسرته
إن يجد مرة حلاوة شكوا	هـ سيلقى ندامة ألف مرة

ومن جيد غزله الذي تحسن فيه بنفحة صوفية قوله :

أي طريق أسلك	وأي قلب أملك
وأي صبر ابتغي	وهو بكم مستهلك
أدأرنسي حجبكم	كما يدور الفلك

(١) خريدة القصر — قسم شعراء مصر ١٧/ ٢ .

أَلْأَنشَى وَكُلَّ عُضْوٍ مِنْكُمْ فِيهِ شَرَكٌ
أَخْلَصْتُ فِيكُمْ بَاطِنًا فِيهِ هَوًى لَا يُدْرِكُ
جَلَّ فَمَا فِي وَصْفِهِ شَوْبٌ وَلَا مُشْتَرِكٌ
وَلَاؤُكُمْ لِي مَذْهَبٌ وَذِكْرُكُمْ لِي نُسْكٌ
وَمُنْهَجِي مَمْلُوكَةٌ يَا حَبْدَا الْمَلِكِ
وَأَنْ أَرَدْتُمْ فَأَحْقِيقُوا إِنْ أَرَدْتُمْ فَاسْفِكُوا
مَا أَنْتُمْ مِمَّنْ يَخْشَى حَبَّةً وَيَتْرُكُ

ومما هو قريب من الاتهالات قوله :

يَا مُنْصِفًا فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ لَا تَخْرُجْ إِلَّا نَصَافًا عَنْ رَسْمِهِ
هَبْ أَنَّنِي أَبْدَيْتُ جُرْمًا وَقَدْ يَعْتَذِرُ الْإِنْسَانُ عَنْ جُرْمِهِ
قَدْ كَثُرَ الْقِيلُ وَحَاشَاكَ أَنْ تَسْمَعَ قَوْلَ الْخَصْمِ فِي خَصْمِهِ
انْظُرْ إِلَى الْبَاطِنِ مِنْ أَمْرِنَا فَرَاخَةُ الْعَالَمِ فِي عِلْمِهِ
فَإِنْ رَأَيْتَ الْحَقَّ حَقًّا فَلَا تَمَكِّنِ الظَّالِمَ مِنْ ظُلْمِهِ

وقيل إن صلاح الدين عندما جاء إلى مصر ومر بالفسطاط سمع بالكيواني وأشعاره وتعلق الناس به فاقتنوا ديوانه، واختار منه العماد ما ضمنه خريدة القصر في مختاره من شعراء مصر .

يقول : واستعرت من الملك الناصر صلاح الدين — وقد لقيته قبل أن ملك مصر — قطعة بها من شعره في الغزليات وغيرها والزهديات، وأثبت منها هذه المقطوعات (١) .

ويقول القفطي : رأيت في بعض المجاميع أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لقي ابن الكيواني بمصر لما طلع في نصرتها ، وقبل أن يلى على مملكتها ، واستكتبه جزءاً من شعره (٢) .

ومهما يكن من أمر ابن الكيواني، فإنه شاعر له لونه الخاص الذي مزج فيه معاني التصوف بالزهد والحكمة والوعظ في لفظ سهل وتعبير شائع غير مستعصي ، فراق لدى العامة وراج .

★ ★ ★

(١) خريدة القصر — شعراء — ١٨/٢ .

(٢) المحدثون من الشعراء .

الفصل التاسع
شعراء نهاية العصر
ابن رزّيك وجماعته

— ١ —

طلّاع بن رزّيك

الوزير القائد الشاعر (ت سنة ٥٥٦ هـ)

ولد طلّاع سنة ٤٩٥ هـ بأحدى مدن أرمينيا ، وكانت خاضعة آنذاك لسلّاطين السلاجقة ، وتعلم ببلده وحفظ القرآن ، وأتقن علوم الدين واللغة والأدب على جماعة من شيوخ عصره ، كما اتصل ببعض رجال الشيعة ، فأخذ عنهم مذهبهم ، ووعاه وتمسك له ، وزار مع بعضهم النجف الأشرف ، وذكر ابن العماد الحنبلي تعصبه للمذهب بقوله « وكان في نصر التشيع كالسكة المحماة » (١) .

وذكر المقرئزي زيارته للنجف ومشهد على بن أبى طالب به فقال (٢) : « زار مهد الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه في جماعة من الفقهاء (لعله يقصد الصوفية) وأمام مشهد على رضى الله عنه يومئذ السيد ابن معصوم فزاره طلّاع وأصحابه وباتوا هناك ، فرأى السيد في منامه الإمام صلّوات الله عليه يقول له : قد ورد عليك الليلة أربعون فقيراً من جملتهم رجل يقال له طلّاع بن رزّيك من أكبر محبيننا ، فقل له اذهب ، فإننا قد وليناك مصر . فلما أصبح أمر أن ينادى : من فيكم من اسمه طلّاع بن رزّيك فليقم إلى السيد ابن معصوم ، فجاء طلّاع إلى السيد ، وسلم عليه ، فقص عليه رؤياه فرحل إلى مصر » .

وكأنّ صاحب هذه القصة أراد القول بأن ذهاب ابن رزّيك كان بناءً على توجيه غيبي من الإمام الوصي ، ليثبت لدى الرعية من الشيعة شرعية توليه الأمر في مصر دون خلفائها من الفاطميين .

وهكذا وصل طلّاع إلى مصر على تلك الصورة ، واتصل في مرحلة الشباب . وربما كانت سنة آتخذ في حدود العشرين أو تعداها بقليل ، ولعله عاصر خلافة الأمر في أخرياتهما ، والتحق بديوان الكتابة لما عرف فيه من النباهة . واتصلت أسبابه بالقصر على نحو ما ، وظلّ كذلك في خلافة الحافظ عبد

(١) شذرات الذهب ٤ / ١٧٧ .

(٢) الخطط ٤ / ٧٣ — ٨١ .

المجيد . وربما كان تعيينه لتولى إحدى ولايات الصعيد في عهد الله الخليفة ووزيره الأرمني تاج الدين بهرام شاه . الذى ذكر صاحب المختصر أنه تحكّم واستعمل الأرمن على الناس . (من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٣١ هـ) (١) .

ذهب طلائع إذا إلى الصعيد ، وبقي بها حتى بعد سنة ٥٣١ هـ ، وتقلب في مناصب ولايات الصعيد ، فولى قوص ، ثم أسوان ، وربما جمع بين ولاية قوص وأسوان ، وتولى الأشمونين ومنية بنى خصيب (المنيا الآن) حيث يذكر المؤرخون أنه انتقل بعدها إلى القاهرة لإنقاذ الخلافة من الفوضى التى عمت العاصمة بعد مقتل الخليفة الظافر بأيدى عباس وابنه نصر .

وعليه فيكون طلائع قد بقى بالصعيد ما يقرب من عشرين عاماً بين قوص ، وأسوان والأشمونين ، وقد مهدت له هذه الإقامة بالصعيد كى يصبح نافذ الكلمة ، ولا شك أنه خلال تلك السنين الطويلة قد مكن لنفسه بين أبناء الصعيد ، ولعله اجتذب إليه جماعة منهم ، وكان لسياسته وحسن أدائه ، وتجيئه إلى رعيته أثر واضح فى ولائهم له . فتقوى بهم جُنُوداً ، ومناصرين ، وعرف الخلفاء ، ومن التقى بهم من رجال القصر ونسائه ، وكبار رجال الدولة بالقاهرة بقوة طلائع وقدرته . وما يملكه من جند ومال فاتجهوا إليه حين حزبهم الأمر يستجدون به ضد طغيان عباس وابنه نصر بعد مذبحه القصر التى دبرها نصر وقتل فيها الخليفة الظافر وجماعة من الأمراء .

قيل إن نساء القصر استنجدوا بطلائع ، وكتب القاضي الجليس ابن الحباب يستدعيه ، ومع الكتاب خصلة من شعر بعض نساء القصر .

فهب ابن رزيك للنجدة ، ووجدها فرصة لارضاء تطلعه والإيقاع بأعدائه من المغاربة المستوزرين من أمراء الصنهاجين الأعداء التقليديين للخلافة الفاطمية ، والذين انقلبوا عليهم فى عهد تميم بن المعز بن باديس الذى يخرج على طاعة المستنصر ، وأعلن ولاءه للعباسيين ، وأعاد الخطبة لهم بالقىروان . كان

(١) راجع المختصر فى أحوال البشرى حوادث سنة ٥٣١ هـ حيث يقول : « وفيها عزل الحافظ وزير بهرام شاه الصرافى الأرمنى بسبب توليته الأرمن على المسلمين ، واهانتهم لهم ، فأنف من ذلك شخص يدعى رضوان وجمع جمعاً وقصد بهرام ، فهرب بهرام إلى الصعيد » .

عباس الصنهاجي إذا وابنه نصر قد ورثوا الحقد عن آبائهم على الرغم مما أبدوه من قرف منذ تولى يحيى بن تميم ، وعلى بن يحيى حكم القيروان .

لقد كان عباسُ سنياً ، ووز للفاطميين الشيعة الإسماعيلية قسراً بالغلبة لا بالرضا بعد قتل ابن السلار الذي كان عباس ربيه .

وبينما كانت هذه الأحداث كلها تدور بالقاهرة ، كان طلائع يرقبها من مكانه المكين الآمن بالصعيد . وقد عمل كما قلنا على أن يدعم مكانته حتى يتهاز الفرصة للوثوب . ولم تلبث أن واثته هذه الفرصة سنة ٥٤٩ هـ ووجرت الأحداث الدامية التي أدت إلى استيلاء طلائع على زمام الأمور هكذا .

كان الظافر الذي تولى الخلافة شاباً حدثاً ، اشتغل باللهو لحداثة سنه ، وتعلق بنصر ابن عباس الصنهاجي ، وقيل إن علاقة شاذة ربطت بينهما وكان نصر هذا شاباً مستهتراً ، متهوراً ، طموحاً ، حدثته نفسه بقتل أبيه ليتولى الوزارة للظافر صديقه ، فلما علم أبوه عباس بما يفكر فيه من دس السم له للتخلص منه ، أغراه بقتل الخليفة ليطمعه في الملك . ويكون بذلك قد ضرب عصافورين بحجر ، تخلص من الخليفة الفاطمي ، الذي كان يطمع لا شك في ملكه حتى يصبح صاحب مصر بعد أن ملك أخوه القيروان . من ناحية وليبعد ابنه عن التفكير في قتله .

وكان الظافر ينادم نصراً ، ويعاشره ، ويثق فيه ، وينزل بالليل من قصر الخلافة إلى داره بالسيوفيين بالقاهرة . وذات ليلة نزل الظافر ومعه خادم له إلى منزل نصر ، فشرى ، ونام الظافر ، فقام نصر إليه فقتله ، وألقى بجثته في بئر .

وعرف القصر بما حدث ، فثار من فيه يريدون الانتقام من القاتل فما كان من عباس إلا أن جاء بثلاثة من أمراء القصر بأخوى الظافر وابن أخيه قتلهم صبراً بين يديه .

وأخفى مقتل الظافر ، وتظاهر أمام أعيان الدولة ببراءته وابنه من دم الخليفة . وادّعى أن الظافر ركب في مركب فانقلبت به وغرق .

ولكن هذه الخدعة لم تجز على من بالقصر ، فثار جتده وخدمه من السودان ومعهم أهل القاهرة على عباس وابنه لفعلته الشنعاء . وطالبوا برأس عباس

وابنه . وتلّبت عباس قليلاً وجمع من حوله بعض أعوانه ، وأراد مواجهة
الناشرين ، ولكن الأمور تفاقمت ، وضاعت الحلقة حوله بتحريك ابن رزيك من
الأشمونين ومنية بنى خصيب في جند كثيف إلى القاهرة .

ولم يجد أسامة بن منقذ ، وكان مصاحباً آنذاك لعباس وابنه بدأ من نصح
عباس بالتوجه إلى الشام هارباً من مصر ، ليفلت برأسه .

وهكذا خرج الثلاثة متخفين مشرقين إلى الشام ، وقرب مدينة غزة داهمتهم
جماعة من فرسان الصليبيين ، فقتلوا عباساً ، وأسروا ابنه وتمكن أسامة من
الإفلات قاصداً بلدة شيزر قرب حلب .

واختلفت المصادر في أخبار هذه الأحداث الدامية منذ شهر المحرم من سنة
٥٤٨ هـ وحتى تولى الصالح طلائع مقاليد الوزارة . فابن الأثير يقول^(١) : في
هذه السنة في المحرم قتل العادل بن السلار وزير الظافر بالله . قتله ربيبه عباس
بن أبي الفتوح يحمي الصنهاجي . أشار عليه بذلك الأمير أسامة بن منقذ ،
ووافق عليه الخليفة الظافر بالله ؛ فأمر ولده نصراً ، فدخل على العادل وهو عند
جدته أم عباس فقتله ، وولى عباس الوزارة بعده .

قال : وكان عباس جاء مع أمه بعد وفاة والده (يحيى) وحلّ بالإسكندرية
وبها العادل بن السلار (ربما كان ذلك في حدود سنة ٥١٥ هـ - سنة
٥١٦ هـ) فتزوج بأم عباس حتى ولى الوزارة . وكانت الوزارة بمصر لمن
غلب ، والخلفاء وراء حجاب . وقل أن وليها أحد بعد الأفضل إلا بحرب وقتل
وما شاكل ذلك .

وقال ابن القلانسي : « وكان الظافر قد ركن إلى أخويه وابن عمه ، وأنس
بهم في وقت مسراته ، فاتفقوا عليه واغتالوه ، وذلك في يوم الخميس سلخ
صفر وحضر العادل عباس الوزير وابنه ناصر الدين نصر وجماعة من الأمراء
والمقدمين للسلام على الرسم ، فقبل لهم إن أمير المؤمنين مُلْتَأَتُ الجسم ، فطلبوا
الدخول إليه ، فمنعوا ، فالتجّوا في الدخول بسبب العيادة ، فلم يمكنوا

(١) الكامل ٩ / ٣٨٩ .

فهبجوا ، ودخلوا القصر ، وانكشف أمره ، فقتلوا الثلاثة ، وأقاموا ولده عيسى وهو ابن ثلاث سنين ، ولقبوه بالفائز بنصر الله ، وبايعوه وعباس الوزير إليه تدبير الأمور .

ويبدو أن ابن القلانسي أراد أن يبرىء عباس وابنه نصر من قتل الخليفة الظافر .

وتعرض شهادة أحد المشاركين في الأحداث وهو أسامة بن منقذ كما دُونها بنفسه في مذكراته « الاعتبار » (٢) . قال :

وأما الفتنة التي قتل فيها الملك العادل بن السلار — رحمه الله — فإنه كان جَهَّزَ عسكرياً إلى بلبس ومقدمه ابن امرأته ركن الدين عباس بن أبى الفتوح (يحيى) بن تميم ابن باديس لحفظ البلاد من الإفرنج ومعه ولده ناصر الدين نصر بن عباس ، فأقام مع أبيه في المعسكر أياماً ، ثم دخل إلى القاهرة بغير إذن من العادل ولا دستور ، فأنكر عليه ذلك وأمره بالرجوع إلى المعسكر ، وهو يظن أنه دخل القاهرة للعب والفرجة ، وللضجر من المقام في المعسكر .

وابن عباس قد رتب أمره مع الظافر ، ورُتِبَ معه قوماً من غلمانه يهجم بهم على العادل في داره إذا أبرَدَ في دار الحرم ونام ، فيقتله . وقرر مع أستاذ من أستاذى دار العادل أن يعلمه إذا نام ، وصاحبة الدار امرأة العادل أم عباس وجدّة نصر ، فهو يدخل إليها بغير إذن .

فلما نام العادل أعلمه ذلك الأستاذ بنومه ، فهجم عليه في البيت الذى هو نائم فيه ، ومعه ستة نفر من غلمانه فقتلوه ، رحمه الله . وقطع رأسه وحمله إلى الظافر وذلك في يوم الخميس السادس من المحرم سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . وفى دار العادل من مماليكه وأصحاب النوبة نحو من ألف رجل . لكنهم في دار السلام . وهو قتل في دار الحرم ، فخرجوا من الدار ووقع القتال بينهم وبين أصحاب الظافر وابن عباس إلى أن رُفِعَ رأس العادل على رمح ، فساعة ما رأوه انقسموا فرقتين ، فرقة خرجت من باب القاهرة إلى عباس لخدمته وطاعته ،

(١) ذيل تاريخ دمشق ص

(٢) الاعتبار ص ٤١ ومابعدها — تحقيق الدكتور قاسم السامرائى طبع مؤسسة دار الثقافة والنشر بالرياض سنة ١٩٨٧ م .

وفرقه رمت السلاح وجاءوا إلى بين يدي نصر ابن عباس قبلوا الأرض ووقفوا في خدمته .

وأصبح والده عباس دخل القاهرة ، وجلس في دار الوزارة . وخلع عليه الظافر وفوض إليه الأمر ، وابنه نصر مخالطه ومعاشره ، وأبوه عباس كاره لذلك مستوحش من ابنه لعلمه بمذهب القوم في ضربهم بعض الناس ببعض حتى يفتنهم ويجوزوا كل ما لهم حتى يتفانوا ، فأحضراني ليلة وهما في خلوة يتعائبان ، وعباس يردد عليه الكلام وابنه مطرق كأنه نمر ، يرد عليه كلمة بعد كلمة يشاط منها عباس ، ويزيد في لومه وتأنيبه . فقلت لعباس : يا مولاي الأفضل ، كم تلوم مولاي ناصر الدين وتوبخه وهو ساكت ؟. لإجعل الملامة لي ، فأنا معه في كل ما يعمل ، وما أتبرأ من خطيئه ولا صوابه . أى شيء هو ذنبه ؟. ما أساء إلى أحد من أصحابك ، ولا فرط في شيء من مالك ، ولا قدح في دولتك ، خاطر بنفسه حتى نلت هذه المنزلة ، فما يستوجب منك اللائمة . فأمسك عنه والده . ورعى لي ابنه ذلك .

وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ، ويصير إلى الوزارة مكانه . وواصله بالعطايا الجزيلة ، فحضرته يوماً وقد أرسل إليه عشرين صينية فضة فيها عشرون ألف دينار ، ثم أغفله أياماً وحمل إليه من الكسوات من كل نوع ما لا رأيت مثله مجتمعاً قبله . وأغفله أياماً ، وبعث إليه خمسين صينية فضة فيها خمسون ألف دينار ، وأغفله أياماً وبعث إليه ثلاثين بغلاً ، وأربعين جملًا ، بعددها وغرائرها وحبالها . وكان يتردد بينهما رجل يقال له مرتفع بن فحل ، وأنا مع ابن عباس لا يفسح لي في الغيبة عنه ليلاً ولا نهاراً . أنام ورأسى على رأس مخدته .

فكنت عنده ليلة ، وهو في دار الشابورة ، وقد جاء مرتفع بن فحل فتحدث معه إلى ثلث الليل وأنا معتزل عنهما ، ثم انصرف . فاستدعاني وقال : أين أنت ؟ قلت : عند الطاقة أقرأ القرآن ، فإني اليوم ما تفرغت أقرأ . فابتدأ يفتنني بشيء مما كان فيه ليبصر ما عندي في ذلك ، ويريدني أقوى عزمه علي سوء ما قد حمله عليه الظافر ، فقلت : يا مولاي ، لا يستتر لك الشيطان ويخدع لمن يغرك ، فما قتل والدك مثل قتل العادل ، فلا تفعل شيئاً تلعن عليه

إلى يوم القيامة فأطرق وقاطعنى الحديث ، ونمنا ، فأطلع والده على الأمر ، فإلفه واستأله وقرر معه قتل الظافر .

وكانا يخرجان فى الليل متنكرين ، وهما أترابٌ وسنهما واحدٌ ، (يعنى الظافر ونصر) فدعاه أبى نصر إلى داره وكانت فى سوق السيوفين ، ورتب من أصحابه نفراً فى جانب الدار ، فلما استقر به المجلس خرجوا عليه فقتلوه . وذلك ليلة الخميس سلخ الحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ورماء فى جب داره .

وكان معه خادم له أسود لا يفارقه يقال له سعيد الدولة ، فقتلوه .

وأصبح عباس جاء إلى القصر كالعادة للسلام يوم الخميس فجلس فى خزانة فى مجلس الوزارة كأنه ينتظر جلوس الظافر للسلام ، فلما جاوز وقت جلوسه استدعى زمام القصر وقال : وما لولانا ما جلس للسلام ؟ . فتبلى الزمام فى الجواب ، فصاح عليه وقال : مالك لا تجاوبنى ؟ .

قال : يا مولاي مولانا لا ندرى أين هو ؟ . قال : مثل مولانا يضيع ؟ . إرجع فاكشف الحال ! . فمضى ورجع وقال : ما وجدنا مولانا ، فقال عباس : ما يبقى الناس بلا خليفة إدخل إلى الموالى إخوته يخرج منهم واحدٌ نبايعه ، فمضى وعاد وقال : الموالى يقولون لك نحن مالنا فى الأمر شيء ، والده عزله عنا وجعله فى الظافر . والأمر لولده بعده . قال : اخرجوه حتى نبايعه .

قال ابن منقذ : وعباس قد قتل الظافر وعزم على أن يقول : إخوته قتلوه ! ويقتلهم به ، فخرج ولد الظافر ، وهو صبيٌّ محمولٌ على كتف أستاذ من أستاذى القصر ، فأخذته عباس فحمله . وبكى الناس . ثم دخل به وهو حامله إلى مجلس أبيه ، وفيه أولاد الحافظ ، الأمير يوسف والأمير جبريل ، وابن أخيه الأمير أبو البقاء .

ونحن فى الرواق جلوس ، وفى القصر أكثر من ألف رجل من المصريين ، فما راعنا إلا فوجٌ قد خرج من المجلس إلى القاعة وصوت السيوف على إنسان فقلت لغلالم لى أرمنى : أبصر من هذا المقتول ؟ . فمضى ثم عاد وقال : ما هؤلاء مسلمون . هذا مولاي أبو الأمانة — يعنى الأمير جبريل قد قتلوه . وواحدٌ قد شق بطنه يجذبُ مصارينه .

ثم خرج عباس وقد أخذ رأس الأمير يوسف تحت إبطه ورأسه مكشوف ، وقد ضربه بسيف والدم يفور منه . وأبو البقاء ابن أخيه مع نصر بن عباس ، فادخلاهما في خزانة في القصر وقتلاهما ، وفي القصر ألف سيف مجرد . وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بى لما جرى فيه من البغى القبيح الذى ينكره الله تعالى وجميع الخلق » .

تلك شهادة ابن منقذ وكان مخالطاً لعباس وابنه وهو شاهد عيان لما حدث ، وقد شهد بقسوة الرجلين ووحشيتهما . والحق إن هذا الحدث من الأحداث الدامية السوداء والتي يستحق عليها عباس وابنه كل ما لقيا من العقاب والنهاية الدامية ، والله لا يدع الظالمين يرتعون كما يشاءون وراء أطماعهم الدموية . لقد عبث الرجال بمصير الخلافة الفاطمية هذا العبث وكان لعباس بن يحيى الصنهاجى البربرى على قول ابن رزّيك اليد الطولى فيما لقيه البيت الفاطمى من التكنيل والوحشية التي لم يسمع بمثلها على هذه الصورة البشعة . ومهماتكن الخلافات والأحقاد بين الناس ، ومهما تكن الأطماع فى السلطة ، فإنها لا تجرد الإنسان من آدميته على هذه الصورة لتحوّله إلى حيوان ووحش ضار بل إن من الحيوان ما يعف عن مثل هذا .

لقد فعل إذا عباس وابنه نصر فعلتهما وقد تجرد كل منهما من آدميته حتى تأمر الابن على أبيه والأب على ابنه . وكانا يأملان الفوز بنتيجة هذه المذبحة إلا أن القدر لم يمهلهما . فثار بهم جند القصر وعبيده ، وبعثت نساء القصر نستغيث بالأمير القوى بالصعيد طلائع لينقذ البيت الفاطمى والخلافة الفاطمية .

وأحسّ الرجال بالخطر فطفقا يجمعان الأموال وكل ما يستطيعان حمله استعداداً للهروب من غضبة الناس بالقاهرة ، وزحف ابن رزّيك ورجاله من الصعيد .

قال ابن منقذ : « وأما الفتنة التي جرت بمصر ونصر فيها عباس وابنه على جند مصر ، فإنه لما فعل بأولاد الحافظ رحمه الله ما فعل جفت عليه قلوب الناس وأضْمَرُوا فيها الغداوة والبغضاء . وكاتب من فى القصر من بنات الحافظ

فارس المسلمين أبا الغارات طلائع بن رُزَيْك — رحمه الله — يستصرخون به .
وحشَدَ وخرج من ولايته يريد القاهرة . فأمر عَبَّاسُ فعمرت المراكب وحمل
فيها الزاد والسلاح والخزانة ، وتقدم إلى العسكر بالركوب والمسير معه .
وذلك يوم الخميس العاشر من صفر سنة تسع وأربعين . وأمر ابنه ناصر الدين
بالبقاء في القاهرة . وقال لى (لابن منقذ) : تقيم معه .

فلما خرج من داره متوجهاً إلى لقاء ابن رُزَيْك خامر عليه الجند وغلَّقوا
أبواب القاهرة ، ووقع القتال بيننا وبينهم في الشوارع والأزقة خيالتهُم تقاتلنا في
الطريق ، ورجلُاتهم يرموننا بالنشَّاب والحجارة من على السطوحات ، والنساء
والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات .

ودام بيننا وبينهم القتال من ضحى النهار إلى العصر ، فاستظهر عليهم
عباس ، وفتحوا أبواب القاهرة وانهمزوا ، ولحقهم عباسُ إلى أرض مصر فقتل
منهم من قتل وعاد إلى داره وأمره ونهيه ، وأمر بإحراق البرقية (وهى محلة
شرق القاهرة نسبت إلى جماعة من جند برقة) لأنها مجمع دور الأجناد .
فتلطفُت الأمر معه ، وقلت : يا مولاي إذا وقعت النار أحرقَت ما تريد ومالا
تريد ، وعجزت عن أن تطفئها ، ورددت رأيه عن ذلك . وأخذت الأمان
للأمير المؤمن بن أبى رمادة — من كبار رجال القصر — بعد أن أمر بإتلافه .
واعترضت عنه فصفح عن جرمه .

ثم سكنت تلك الفتنة وقد ارتاع منها عباس ، وتحقق عداوة الجند والأمراء
وأنه لا مقام له بينهم وثبت في نفسه الخروج من مصر وقصد الشام إلى الملك
العادل نور الدين . رحمه الله . يستنجد به ، والرسل بين من في القصور وبين
ابن رُزَيْك مترددة .

وكان بينى وبينه — رحمه الله — مودة ومخالطة من حين دخلت ديار مصر
فانفذ إلى رسولاً يقول لى : عَبَّاسُ ما يقدر على المقام بمصر ، بل هو يخرج منها
إلى الشام ، وأنا أملك البلاد ، وأنت تعرف ما بينى وبينك ، فلا تخرج معه ،
فهو بحاجته إليك في الشام يُرْعِبُكَ ويخرجك معه ، فالله الله لا تصحبه ، فأنت
شريكى فى كل خير أنا له . فكأن الشياطين وسوست لعباس بذلك أو توهمه لما
يعلمه بينى وبين ابن رُزَيْك من المودة .

ويعضى ابن منقذ في ذكر حاله مع عباس وابنه وأمر خروجهم من مصر قبل وصول ابن رزيك إلى القاهرة ، فيقول :

« فأما الفتنة التي خرج فيها عباس من مصر وقتله الإفرنج ، فإنه لما توهم من أمرى وأمر ابن رزيك ما توهمه أو بلغه أحضرني واستحلفني بالأيمان المغلظة التي لا يخرج منها أني أخرج معه وأصخبه ، ولم يقنعه ذلك حتى أنفذ في الليل أستاذ داره الذي يدخل على حرمه ، أخذ أهلي ووالدتي وأولادي إلى داره وقال لي : أنا أحمل كلفتهم عنك في الطريق ، وأحملهم مع والدتي ناصر الدين . واهتمُّ بأمر مسفره بخيله وجماله وبغاله ، فكان له مائتا حصان وحجرة بمنوبة على أيدي الرِّجالة كعادتهم بمصر . ومائتا بَغْلٍ رحل ، وأربعمائة جمل تحمل أثقاله .

قال ابن منقذ : وكان عباس كثير اللهج بالنجوم ، وهو معول على المسير بالطالع يوم السبت الخامس عشر من ربيع الأول من السنة .

وواضح من مجربات الأمور أنه كانت بين عباس ونور الدين محمود صاحب دمشق والشام رسائل وتفاهم ، بل ربما كانت وقعة عباس وابنه بالخليفة الفاطمي وأمرائه من وحى هذه الرسائل ، حتى يتقرب من نور الدين بالقضاء على أعدائه في المذهب والسياسة .

وواضح كذلك أنه أراد من ابن منقذ أن يلعب دوراً في التقريب بينهما وكذلك لاصراره على السفر معه إلى الشام على ما جاء من كلام ابن رزيك لابن منقذ في خثه على تركه والبقاء بمصر .

وهكذا غادر عباس وابنه نصر وابن منقذ مصر إلى الشام حيث قتل عباس وأسر ابنه كما ذكرنا وهرب ابن منقذ إلى بلده .

ولم يلبث ابن رزيك بعد توليه الأمر بالقاهرة أن اتفق مع الصليبيين على تسليمه نصر مقابل مبلغ كبير من المال فجاء نصر إلى القاهرة في قفص من الحديد لينتقم منه أولياء دم من قتلهم ، وليصلب على باب زويلة جزاء فعلته الشنعاء .

جاء إذا ابن رزيك إلى القاهرة بعد أن كتب إليه ابن الحباب رسالة جلَّها

وصدر له السجل بتولية الوزارة وتلقيه بالملك الصالح ، وهو أول من لقب بلقب الملك من وزراء الفاطميين الكبار .

وهذه صورة السجل — المرسوم — بتعيينه ، كتبه أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلّال عن الفائز الخليفة في ربيع الثاني من عام تسع وأربعين وخمسمائة يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعدُ فالحمد لله المنعم على المخلصين من أوليائه بسوابغ الآله ، والمتكفل لمن نصره بنصره ، وتثبيت قدمه وإعلانه ، الممهد لمن قام بحقه أرفع مراتب الدنيا والآخرة ، والموضح لمن حامى عن الدولة الفاطمية آيات التأيد الباهرة ، والجامع القلوب على طاعة من أطاعه في الدفع عن أهل بيت نبيه . والمحسن لمن أحسن إلى مهجته ، غيرة لأئمة الهدى المصطفين من عترته وصيه ، والمذلّل الصعاب لمن رفع راية الإيمان ونشرها ، والميسر الطلاب لمن أحيا كلمة التوحيد ونشرها ، ممن حادّ الله ورسوله ممن اصطفاه من أبرار عباده والمأجى إساءة من أعلن ببيان الحق ، وجهر بعبادته ، والمعرض من أسعده بالسبق إلى مرضاته لنيل غايات المسنّ الجسيم ، والمرتب من جاهد في ذاته في أرفع مراتب الإجلال والتفخيم ، والموجب لمن أخلص منهم وأحسن عملاً تعجيل مقام الفخر الكريم . وتأجيل الخلود في النعيم . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

والحمد لله الذى أوضح أنوار الحقائق بأنبيائه الهداة ، وأبان برُسُلِهِ الأئمّة لعباده مناهج النجاة ، وجعل العمل بمراشدهم ذريعة الموقنين إلى أعلى المنازل ، ورفع الدرجات وختمهم بأفضلهم نفساً ومحتداً . وأحقهم بأن يكون لكفائهم سيّداً . محمد محمّدى الأنام والداعى إلى الإسلام ، والمخصوص بانشقاق القمر وتظليل الغمام ، وأورث أخاه وابن عمه باهر شرفه ، وبارع علمه . وأفرده بإمامة البشر وخصّ ، وأقرّها فيه وفي عقبه إلى يوم القيامة بجلىّ النصّ . فأصبحت الإمامة للملّة الحنيفة قداماً ، ولأسباب الشريعة بأسرها نظاماً . ونقل الله نورها في أئمة الهدى من نسله ، فتناولها الآخر عن الأول . وتلقاها الأكمل عن الأكمل . فكلّمنا رام معانيد أن يحيف بنورها ، أو قصد منافق أخفاء ظهورها زاد أنوارها إشراقاً ، ووجد لبورها كلاً واتساقاً ، ومكّن

قواعد دولتها ، وإن زحزحها الغادرون ، وأحكم معاقدها ، وإن اجتهد في حلها الماكرون . (يُريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله ميتٌ نُوره ولو كره الكافرون) .

والحمد لله الذي حفظ بأمر المؤمنين نظام الخلافة واتساقها ، وحمل بميامنه دوحه الأمانة ، وأبقى نُصرتها وإبراقها ، وأورث خصائص الأئمة الراشدين من آباءه وأودعه سرائر دينه المصونة في صدور أنبيائه ، وأيده بموارد الإرشاد والإلهام ، وجعل طاعته فرضاً مؤكداً على كافة الأنام . ونخصه بالتوفيق والعصمة وأفاض للأمة به سيجال الرحمة ، وأبرم بأمانته أمر الملة ، وجعله من الهداية . قال جل وعلا : (وجعلنا منهم أئمة يهتدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وكانوا لنا عابدين) .

يحمده أمير المؤمنين على ما نقله إليه من خصائص آباءه الأئمة الأطهار وأيده في أنصاري دعوته من العلو والاستظهار ، واتخذوه من جنود السماء والأرض وأظهر له من معجزاته وآياته ، وأظهر من مزيته من مظاهر الظفر لأثرته وراياته ، ونسأله أن يصلى على جده محمد النبي الأمين ، ورسوله المبعوث في الأميين ، الهادي إلى جنات النعيم ، والمحيطه متابعتة بالفوز العظيم . الذي جلا الله ظلمات الجهالة ببعثه ، وشرف الأئمة من ذريته بمقامه ومورثه ، ورد النافر إلى الطاعة بالبر والإيناس ، وجعله خير رسول إلى خير أمة أخرجت للناس . وعلى أخيه وابن عمه أينما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب قسيمه في المناسب والفضائل ، وثالثه في تشفيح الذرائع والوسائل ومفرج الكرب عنه بمؤازرته وصدق كفاحه ، وباب مدينة علمه الذي لا يوصل إليه إلا باستفتاحه . وعلى الأئمة من ذريتهما الذين بلغ الله بهم الأرب والسؤال ، وأغني الأئمة بهداهم عن التقفية بعده برسوله ، والعززة المصطفين ، وأحد الثقلين ، وبحار العلم الدائرة والمرجوين لصالح الدنيا والآخرة . وسلم ومجد ، ووال ، وودد .

وإن أمير المؤمنين لما مهدد الله من الشرف الباذخ ، وحازة لمنصبه من الفخر الأصيل ، والمجد الشامخ ، وأفرد به خلافته على العالمين ، وحباه به من ضروب الوجافة والكرامة ، وأفاضه عليه من أنوار الإمامة ، وواصله إليه من العناية الشاملة والبر الحفي ، وجمعه له من الإحسان الجلي واللطيف الحفي ، وأقره من

مواهب الفضل والإفضال لديه ، وجعل في كل حركة وسكون دليلاً واضحاً يُشير إليه ، يُقدّر نعم الله حق قدرها ، ويواصل العكوف على الاعتداد بها ونشرها . ويبلغ في شكرها قولاً وعملاً ونيةً ، ويجهد نفسه في حمدتها اجتهداً يرجو به ترك الأمتية ، ويتحقق أن أسماها محلاً وقدرأً ، وأولاهها على كافة البرية ثناءً وشكراً ، وأعلاها قيمة ، وأعمها نفعاً ، وأعذبها ديمةً ، وأجمعها لضروب الجدل والاستبشار ، وأجدرها بأن تؤثر في الأمم أحسن الآثار . وأوسعها في مضمار الاعتداد مجالاً ، وأعظمها على الرئيس والمرعوس نفعاً وجمالاً . النعمة بك أبا السيد الأجل ، والتغوُّث والدعاء ، إذ كنت نجدة الله المذخورة لأمنائه على خلقه ، والقائم دون البرية بما افترضه عليهم من مظاهرة أمير المؤمنين ، والأخذ له بحقه . واللطف الذي كان من الإمامية ومن أعلامها حاجزاً . والنصر الذي أصبح أمير المؤمنين بعون الله به فائزاً وحزب الله القاهر الغالب ، وشهاب أمير المؤمنين الصائب الثاقب ، بقاء ظلّه الذي على العام والخاص ، ومنهل فضله الذي يصفو ويعذب لذوي الولاء والإخلاص . وسيفه الذي يستأصل شائقة ذوى الشقاق والتفاق ، ويده التي ينبعث منها ينابيع العطاء وسحائب الأرزاق . والولي الذي ارتضاه أمير المؤمنين للمصالح كفيلاً ، والصفى الذي لا تبغى دولته عن مؤازرته تبديلاً . فعلوا قدرك عند - أمير المؤمنين لا يتنى إلى أمد محدود ، وقيامك بالأخذ بحقه يتجاوز كل سعي مبرور ومقام محمود . ودعائه بنصرك الله في طاعته يصغر عنده كل عظيم في مجافاتك . وشفاؤك صدر أمير المؤمنين من أعدائه أعجز القدرة عما يشفى غليله في إحسان مجازاتك .

ولقد حُزرت من المآثر ما فقت به أهل عصرك تقدماً وسبقاً ، وسموت بجلالك إلى ذرى مجد لا تجد الهمم العالية إلى تمنيتها مرقى ، ومازلت في كل أزميتك سلطاناً مهيباً ، وفرداً في المجالس لا تُدرك له الأفكار ضرباً . ومقولاً تُباري ببيانه الأندية والمحافل ، وهماماً باسمه المهاب تُذعن المحافل ، وسيداً تُلقى إليه مقاليد التقدمة والسيادة ، ومُعظماً ليس على ما خصه الله به من التعظيم موضع لزيادة . كشف الله أمرك في آلاء فدعاك لائمته ظهيرا ، وزاد في إنعامه على الأمة فارتضاك لهداة أهل بيته مُعيناً ونصيراً ، ووفر نصيبك من الفضائل والمناقب فوهبك منها ما أفاضه عليك شرفاً ، وأحظى الملوك بتمكنك

وكونك لهم فخراً وشرفاً ، فلا رتبة علا إلا فرعتها منزلاً ، ولا منزلة سناً إلا وقد سموت إليها منتقلاً . ولا مزية إلا احتويت عليها وحزتها ولا منزلة فخر إلا طلّتها بفضائلك وجزتها ، ولا مأثرة إلا وكنت فاتح بابها ، ولا منزلة خطيرة إلا وأنت مستوحيا وأولى بها ، ولا سماء مجد إلا وخصائلك طالعة في آفاقها أقماراً ، ولا موقف فضل إلا ولك فيه تقدم لا تُنازع فيه ولا ثمارى ، فما يوجد مقدّم إلا وقد فضّلته بآثارك وتقدمته ، ولا مميّز إلا أسمّته في جناب فضلك ورسمته .

تقلدت جلائل الأمور فلبستها نباهة وتقويماً ، وباشرتها فاحرزت مناقبك جلالة ووجاهة ، وتفخيماً ، تُجرّجُ بك الرُتب أفيال الفخر والإجلال وتزدهي بأفعالك التي يُبعثُ عليها ما أوتيته من شرف الخلال . ولم يزل تدبير أولياء الدولة ورجالها بفضائل سياستك . فتثبت لهم الأقدام ، وتكسيهم عزة النفوس . فليستينوا في حق الانتصار بك ملاقة الحمام .

ورمى الله بك طغاة الكفار لتأييد الإسلام ، واختارك للمجاهدة عن الملة فأصّبحت بك مرفوعة الأعلام ...

.... فما يبلغ التعداد ما جمعه من المناقب والفضائل ، ولا يستولى الإحصاء على مالك من المفاخر التي لا يحيط بها أحد من الملوك الأوائل . فتجمع زُهد الأبدال إلى همم الأكاسرة ، وتوفق في أعمالك بين ما يقتضيه صلاح الدنيا وحسن نواب الآخرة . فأنت البرّ التقيّ ، التقيّ الحسيب ، الطاهر ، المبرّ من كلّ دنس وعيب .

.... وحويت من الأخلاق الملوكية ما قصرَ بعظماء الملوك عن مجاراتك . واقتنيت من الحكّم والمعارف ما جعلَ كافة العلماء مُعترفين بعظيم فضيلة ذاتك ...

.... ولقد كان وقع التحامل على الحضرة ببعذك عن فنائها ... على أنك لم تُحلّ من نُصرتها على بُعد الدار ، بل نصرت الحق حيث كان ، وحزرت معه حيث دار .

وقد كان أمير المؤمنين حيث اشتدت الأمور، وحرجت الصدور، وحارثت الأبواب واستشرف للارتياح يرجو من الله أن يفجأه منك بالفرج القريب، ويضمي أعدائه من عزمك بالسهم المصيب. واستجاب الله دعائه فيك بما ماثل دعاء جده رسول الله ﷺ - وضاهاه. وحصل في ذلك على معنى قوله تعالى: (قد ترى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها). ولما أذهب الله بك أيها السيد الأجل الملك الصالح عن دولة أمير المؤمنين غايات الغنى، وأدرك بها تار أولياء الله من ذوي المباينة والبعى. وأحسن الله الصنيع بمؤازرتك، ... فقلدك من وزارته، وفوض إليك تدبير مملكته وكفالاته. وجعل لك إمارة جيوشه الميامين، وكفالة قضاة المسلمين، وهداية دعاه المؤمنين، وتدير ما هو مردود إليهم من الصلاة والخطابة وإرشاد الأولياء المستجيبين، والنظر في كل ما أغدقه الله من أمور أوليائه أجمعين. وجنوده وعساكره المؤيدين، وكافة رعاياه بالحضر، وجميع أعمال المملكة دانيها وقاصيها، وسائر أحوال الدولة باديها وخافيها، وكل ما تنفذ فيه أوامره، ويتوج بشعاره منابر. ورد إليك تدبير ما وراء سرير خلافته، وسياسة ما تحتوى عليه أقطار مملكته، وألقى إليك مقاليد البسط والقبض، والرفع والخفض، والابرام والنقض، والقطع والوصل، والولاية والعزل، والتصرف والصرف، والإمضاء والوقف، والغض والتنبية، والإخمال والتنويه، وجميع ما يقتضيه صواب التدبير من الإنعام والإرغام وما توصيه أحكام السياسة من الإبداء والإتمام تيمناً بما يحقق مبالغتك في متابعتك، واجتهادك في إعلاء منار دعوته. وعلماً بأن التوفيق لا يعدو وراءك والسعود لا يفارق أنعمائك.

وفصل بعد ذلك الأمور التي فوضها إليه وأوجزها من شئون الدولة الداخلية والخارجية وشئون الحرب والجيش، والشئون المالية والاقتصادية والإدارية، والأمور الدينية فيما يتصل بالقضاة ورجال الدين من الأئمة وخطباء المساجد... إلخ.

وهذا تفويض كامل بالحكم وشئون سلطانه ، بحيث لا يبقى شيء بعده للخليفة ليقول كلمته فيه ، فيصبح بهذا كما قيل صورة في القصر لا تقص يد ولا إبرام .

وهذا السجل بهذا التفويض الجامع الشامل لم يحظ به أحد من وزراء الدولة الكبار من قبل ، ولا الوزير الأفضل بن بدر الجمالي على ما كان له من السلطة والاستبداد بالأمر .

وأصبح الملك الصالح طلائع بن رزك بهذا السجل الحاكم الفعلي للبلاد . وربما استحق ذلك لأنه المنقذ للخلافة من الانهيار والضياع . وكان لإيمان طلائع بمذهب الشيعة وتحمسه له ما طمأن قصر الخلافة ورجالها ، فأودعوه ثقتهم لأن السابقين عليه ممن حاولوا التغلب على الأمر بالتطلع إلى الوزارة لم يخلصوا للمذهب بل كان منهم من كان من أعداء من يدين بالمذهب السني المعارض كالولعشي وعباس ، بل وبعض أمراء البيت الفاطمي نفسه كالحسن بن الحافظ الذي قيل إنه عارض أباه ودان بالمذهب السني وأراد أن يسلب منه الخلافة .

لقد جاء طلائع إذا وصار متعصباً لإرساء قواعد المذهب مدافعاً عنه بالسيف والقلم ، وإن لم يعلن العداء للسنة لعلمه بأنهم يملكون من القوة في الشام وبعض أنحاء مصر ما يمكنهم من حصاره ومضايقته . فآثر أن يسأهم ، ويسعى إلى التحالف معهم ، وبخاصة ملوك الشام من آل زنكي ، وأقوام نور الدين محمود .

وهذا السجل الفريد في تعيين الوزراء ، قريب من قصيدة المديح لما يحويه من ألفاظ الإطراء على الرجل وحمته وأخلاقه . ولا شك أن كاتبه الخلل كان يستوحى خطره وأحاسيسه الخاصة نحو الرجل إلى جانب استشعاره الحاجة إلى هذه الشخصية القوية التي تحفظ على البلد كيانه ، وتحوطه برعايته ونكبت أعداءه وكل من يترهب به من الخارج أو الداخل .

وقد أضاف الفائز الخليفة نفسه على هامش السجل ما يفيد هذا التقدير في عبارات من التكريظ والتبجيل لشخص طلائع .

ولقد قام طلائع بالدور المنوط به وأمسك بجميع الخيوط بين يديه وأعاد للحكم هيته ، وأعاد عهد الوزراء العظام ، وأجرى الدماء في عروق الدولة التي بدت قبل امساكه بالزمام وكأنها تلفظ أنفاسها ، وتمرّ بأخر أيامها .

ويبدو أن شخصية طلائع كانت شخصية محبة لخلطائه لما كان يجمع بين جوانحه من خصائل عدة ، فهو يتمتع بلباقة النطق والذكاء ، والأدب والشعر والحزم وحسن المعاشرة والكرم ، والمقدرة على اكتساب الأعوان والأولياء .

وقد دعت هذه الشخصية من سمع عنها ولم يخالطها إلى الإعجاب بها ، فهذا عماد الدين الأصبهاني معاصره ، وإن لم يره ولم يختلط به ، بل سمع عنه وعن سجاياه ، وأدبه وشعره فكتب عنه مقررًا في أول حديثه عنه شاعراً مصرياً في خريدته ما لم يكتب عن أحد غيره ممن كتب عنهم من شعراء المصريين باستثناء القاضي الفاضل صاحبه ، علماً بأن طلائع كان مخالفاً لمذهب العماد ووزيراً لخلفاء الفاطميين ، جاء العماد كاتباً في دولة أخرى تعقبته ، وحاولت نحو آثارهم وقرط ابن رزيك بكلام مطنب ، في الوقت الذي سخر فيه وقلل من شأن غيره من شعراء الفاطميين .

فمما قاله العماد (١) :

« سلطان مصر في زمان الفائز ، وأول زمان العاضد . ملك مصر واستولى على صاحب القصر ، وثفق في زمانه النظم والنثر ، واسترق بإحسانه الحمد والشكر وقرب الفضلاء ، واتخذهم لنفسه جلساء ، ورحل إليه ذور الرجاء ، وأفاض على الداني والقاصي بالعتاء .

وله قصائد كثيرة مستحسنة أنفذها إلى الشام يذكر فيها قيامه بنصر الإسلام وما يصدق أحد أن ذلك شعره لجودته ، وإحكام مباني حكمته ، وأقسام معاني بلاغته .

.... وفنك به في دهليز القصر في سنة ست وخمسين وخمسمائة بالقاهرة وانكسفت شمس الفضائل الزاهرة ، ورخص سعر الشعر ، وانخفض علم العلم ، وضاق فضاء الفضل ، واتسع جاه الجهل ، وانحل نظام أهل النظم

(١) الخريدة ١/ ١٧٣ قسم شعراء مصر .

وانتثر عِقد ذوى النثر . واستشعر الفاقة الشعراء ، وعدمَ البُلغةِ البُلغاء . وعُدَّ الفضلُ فضولاً ، والعقلُ عَقولاً ... وعمَّ الرُزءُ ... فلم تنزل مصر بعده منحوسة الحظ ، منسوخة الجذ ، منكوسة الراية ، معكوسة الآية إلى أن ملكها يوسف الثانى » .

وقد أعاد دولة الشغف والأدب إلى زاهر عصرها أيام الأفضل ، وصار بفضل تشجيعه لهم واجتماعه بهم مناراً فى هذه السّنوات التى قضاهما فى السلطة ، وكان يجمع الفقهاء وينظرهم على الإمامة وعلى القدر .

ويبدو أنه كان يرى رأى المعتزلة قال ابن العماد : « صنف فى ذلك كتاباً سمّاه » الاجتهاد فى الردّ على أهل العناد . قرّر فيه قواعد التشيع »^(١) .

بنى جامع الصالح خارج باب زويلة .

كان طلائع يعقد مجلساً فى منزله لىالى الجمع^(٢) ، يجتمع فيه مع جلسائه من العلماء والأدباء والشعراء ، والصفوة من رجال الدولة والمجتمع وأمرائه ، لسماع قراءة مسلم والبخارى وأمثالهما من كتب الحديث . وكان من جلسائه المهذب بن الزبير ، والقاضى الجليس بن الحباب وعمارة اليمنى .

قال عنه عمارة^(٣) : كان مرتاضاً قد شَمَّ أطراف المعارف ، وتميّز عن أجلاف الملوك الذين ليس عندهم إلا خشونة مجردة . وكان شاعراً محبباً للأدب وأهله ، ويكرم جلسيه ويبسطُ أنيسه . وكان كُرمه أقرب إلى الجزيل من الهزيل .

وقال^(٤) : ولم تكن مجالسُ أنسيه تقطعُ إلا بالمذاكرة فى أنواع العلوم الشرعية والأدبية ، وفى مذاكرة مواقع الحروب مع أمراء دولته . وكانت أحواله طوراً له وتارةً عليه .

فمما هو عليه فرط العصبية فى المذهب ، ولو شرحت هذه الواحدة لكثرت

(١) شذرات الذهب ٤ / ١٧٧ .

(٢) راجع بدائع البداهة لملى بن ظافر ١٨٥ .

(٣) النكت العصرية ص ٤٨ .

(٤) المصدر نفسه ص ٤٧ .

وطالت واتسعت وعالت . ومنها جمع المال واحتجازه . وهذه هي غرامه وأشجانه . ومنها الميل على جانب الجند وإضعافهم والقص من أطرافهم .

وكان يعرض شعره على من حضره من الشعراء ، من ذلك ما رواه عمارة قال (١) : ودخلت عليه ليلة السادس عشر من رمضان سنة ست وخمسين قبل أن يموت بثلاث ليال بعد قيامه من السباط ، ولم أكن رأيته من أول الشهر بليل ، فأمر لي بذهب وقال : لا تبرح ، ودخل ثم خرج إلي وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة وهما :

نحن في غفلة ونوم وللمو ب عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنيئاً ليت شعري متى يكون الحمام

ثم قال لي : تأملتهما وأصلحتهما إن كان فيهما شيء . قلت : هما صالحان . وكانت دار الصالح بالفسطاط ، حيث كانت دار الوزارة ، وبها كان يجتمع بأصحابه .

وانضمم عمارة إلى جلسائه سنة ٥٥٠ هـ بعد وفوده رسولاً من وإلى الحرمين الشريفين . وذكر من جلسائه من أصحاب القلم الشيخ الجليس ابن الحباب ، وابن الخلال ، والشاعر محمود بن قادوس ، والمهذب بن الزبير .

ومن أصحاب السيف ابنه رزّيك ، وصهره سيف الدين حسين ، وأخوه فارس المسلمين بدر الدين بن رزّيك ، وقريبه حسام . وهؤلاء من أهله ، وأما غيرهم من الأمراء فمنهم ضرغام الذي نال الوزارة من بعده ، وعلى بن الرّيد ، ويحيى بن الحياط ومحمد بن شمس الخلافة .

واتهم طلاب في شاعريته ، كما اتهم من قبله الأمير تميم بن المعز ، فقبل إن المهذب بن الزبير وابن الحباب كانا يصنعان له شعره . ودافع عنه العماد الأصهباني فنفي هذه الفرية وكذلك ابن خلكان قبله . وقال ابن خلكان إنه رأى ديوان شعره في مجلدين . وذكر العيني في عقد الجمان أن أكثر أشعاره في مدح أهل البيت .

(١) المصدر نفسه ص ٤٩ .

وكان ابن رزّيك ينتسب إلى غسان القبيلة العربية التي كان منها أمراء الشام قبل الإسلام . وكان الشعراء يمدحونه بذلك .

واهتم ابن رزّيك بحرب الصليبيين بالشام ، وأكثر من الغارة عليهم ولم تهدأ له عين في جهادهم ، ولقب بأبي الغارات لذلك .

ولم تدم أيام طلائع كثيراً فقد اغتيل في رمضان سنة ٥٥٦ هـ . في أيام العاضد وقيل في مقتله إنه كان بتدبير من بعض الخواص أى من رجال القصر وعلية القوم من الأعيان لأنه ضيق عليهم في المال . وقيل إنه كان بتدبير من عمّة العاضد وكان طلائع قد زوجه ابنته . وكانت هذه السيدة الشريفة تسمّى ست القصور وهى أخت الحافظ . وكانت لها كلمة مسموعة في قصر الخلافة منذ عهد أخيها ، وكانت تجيز الشعراء وتبعث إليهم جوائزهم ، ووصلت الشاعر عمارة أكثر من مرة .

وروى المؤرخون حادثة قتله قالوا :

« وكان سبب قتله أنه تحكّم في الدولة التحكم العظيم ، واستبدّ بالأمر والنهى وجباية الأموال إليه لصغر العاضد ، ولأنه هو الذى ولّاه ، ووتر الناس ، فأثّر أخرج كثيراً من أعيانهم ، وفرّهم في البلاد ليأمن وثوبهم عليه ، ثم إنه زوّج ابنته من العاضد فعاداه أيضاً الحرّم في القصر ، فأرسلت عمّة العاضد الأموال إلى أمراء المصريين . ودعتهم إلى قتله . وكان أشدهم في ذلك عليه إنسان يقال له ابن الدّاعى ، فوقفوا له في دهليز القصر ، فلما دخل ضربه بالسكاكين على دهش فجرّحوه جراحات مهلكة ، إلا أنه حُمِلَ إلى داره وفيه حياة ، فأرسل إلى العاضد يعاتبه على الرّضا بقتله ، فأقسم العاضد أنه لا يعلم بذلك ولم يرض به . فقال : إن كنت بريئاً فسلّم عمّتك إليّ حتى أنتقم منها ، فأمر بأخذها ، فأرسل إليها فأخذها قهراً ، وأحضرت عنده فقتلها ، ووصى بالوزارة لابنه رزّيك ولقب العادل » (١) .

(١) الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٨٩ في حوادث سنة ٥٥٦ هـ .

شعره موضوعاته وصنعتة

وديوآن شعره مفقود ، ما بقي منه مفرق في مصادر متعددة ، ومعظمه كما ذكر يدور حول آل البيت وعلى والحسين ذكرًا لمناقب أو رثاء وبكاء يليه أبيات في الحكمة والرهذ والنصح ، وقد استغرقت الرسائل بينه والشاعر الفارس أسامة بن منقذ حيزاً من شعره ، تحدث فيها عن بلائه الصليبيين ، وربما شاركه أسامة في غارة كنائبه على بعض مواقع الفرنجة بالشام .

وفي الديوان مطارحات شعرية بينه وبعض من كان يجالسهم من الشعراء أمثال الجليس بن الحباب والمهذب بن الزبير .

ونبدأ الحديث عن شعره الذي بث فيه عقيدته الشيعية وولاءه لآل البيت . من ذلك قصيدة هزمية في مدحهم ، يقول فيها^(١) :

من الأحباب قرّني ولائي	ومن أعدائي برائي
ألا إني تجرّث فكان يبعي	لغير أئمتي . ولهم شرائي
جرّث إليهم طلقاً عنائي	وخلف السوابق من ورائي
ولما صح لي بهم اعتقادي	بنور هداهم أستوقفت رائي

يقول :

فيامن قد تقدّم لي بنصح	تأخّر ، ما بجهلك من تخفاء
أأمسى في مسائل مُبهمات	وأرجع ويك عن سُنن السماء
ولو أني رأيت كما تراه	وقد لمح السراب هرق مائي
وكيف سباحتي في بحر بحر	بعيد الشاطئين من الرّواء
ولو اصغيت لحوك في سبيل الـ	تجمل كان يمنعي وقائي
هديث إلى الرّشاد وأنت كايي	زناد الطرف ممتنع الحياء

حتى يقول :

ألا إني لأهل البيت عبّد	مطيع ليس يمنح للإباء
بهم نلت السعادة ياشقيّا	وكم بين السعادة والشقاء

(١) ديوان طلائع جمع وتبويب وتقديم محمد هادي الأميني طبع النجف سنة ١٩٦٤ م .

ففى آل النبىِّ نظمتُ مدحى وشئتُ المسامحَ من ثنائى
وواضح من نظم الآيات فقرها الفنى ، ونغريتها ، وربما كان ذلك راجعاً إلى أنها
من أوائل ما صنع من الشعر ، وليست فى مرحلة نضجه . ربما كانت فى أول
حضوره إلى مصر وتولية العمل بديوان الكتاب .

وتجىء هذه القطعة البائية الروى أجود صياغة ، وقد قالها فى مدح الإمام على
بن أبى طالب :

لذاذة سمعى فى قراع الكتائب الذَّ وأشهى من عناقِ الحبايبِ
وأحسنُ فى عيني من البرقِ فى الدجى وميضُ المواضى فى غبُلِ المواقِبِ

وفىها ما يدلُّ على أنه قالها فى توليه منصب الوزارة ، وانشغاله بمحاربة الأعداء
المرتبطين بالدين والدولة . وفىها ردُّ على أتهمهم بالتهم فى جمع المال إذ يقول :

وما شغفى بالمال أبغى بقاءهُ ولكن أريه حتفه بالمواهبِ
وإنى لآتئى البخل عَنى لبغضه إلتى كما أنفى إمام النواصِبِ
وهو فى قوله الأول متعللاً فى جمعه المال برغبته فى انفاقه قريب من قول
الظفرانى :

أريد بسطة كف أستعين بها على قضاءِ حقوقٍ للعلا قبل
ولا ينسى فى عجز البيت الثانى غمز الخليفة العباسى ، فهو لإمام التلحبه عند
الشيعة :

ومضى فى الحديث عن ولائه لآل على فيقول :

ألا إننى أمسكتُ أغصانَ دُرّجَةٍ أثتُ بأفانينِ الثمارِ الأطايبِ
لقد لاح لى برقُ اليقين ولم يكنُ ليخدعنى برقُ الأمانى الكواذبِ
ومما تنساوى الأرض فى المجد والسما وكلُّ علا تربيته فى المراتبِ
بآل رسول الله ناجيتُ خالقي بصدق فأنجو من نيوب التوائِبِ
قضدتُ بهم بين المسالكِ مظلياً فما نجيتُ ، لكنى بلغتُ مَطالِبى
بهم تُبلغُ الآمالَ من كلِّ آمِلٍ بهم تقبلُ التوباتُ من كلِّ نائِبِ
أئمة حق لو يسرون فى الدجى بلا قمرٍ لاستصحبوا بالمناصبِ

.....

.....

يُخَيَّلُ لِي لَمَّا امْتَدَحْتُهُمْ عَلَا
رَغْبَتِي إِلَى آلِ الرُّسُولِ وَإِنِّي
فَمِنْهُمْ إِمَامٌ اتَّخَذَ حَيْدَرَهُ الَّذِي
عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَاؤُهُ
عَلَيْهِ، تَرَى الْإِجْمَاعَ لَاشْكَ وَقَعَا
وَزَوْجَهُ الرَّحْمَنُ بِالطَّهَرِ فَاطْمَأ
عَلَيْهِ هُوَ الشَّمْسُ الْمُنِيرَةُ فِي الضُّحَى
عَلَى الَّذِي قَدْ كَانَ إِنْ حَضَرَ الْوَعْدُ

بَأَنِّي بِهِمْ أَخْتَالُ فَوْقَ الْكَوَاكِبِ
إِلَى غَيْرِهِمْ فَلْيَعْلَمُوا غَيْرُ رَاغِبٍ
أَبَانَ غَمُوضَ الْمَشْكِلَاتِ الْغَرَائِبِ
يَرَاهُ ذَوُو الْأَحْسَابِ ضَرْبَةً لِأَرْبِ
وَلَمْ تَرَهُ بَعْدَ النَّبِيِّ لِصَاحِبِ
وَقَدْ رَدَّ عَنْهَا رَاغِمًا كُلَّ خَاطِبٍ
هُوَ الْبَدْرُ تِمًّا فِي سَمَاءِ الْمُنَاقِبِ
قَلِيلَ احْتِقَاءٍ بِالْقَنَاءِ وَالْقَوَاضِي

حتى يقول بأحقية علي وأبنائه في الخلافة ، وأنها صُرفت عنهم :

أَخَذْتُمْ عَلَى الْقَرَبِيِّ خِلَافَةَ أَحْمَدٍ
وَأَيْسَ عَلَى الْإِنْصَافِ تَيْمُ بْنُ مُرَّةٍ
وَصَيَّرْتُمُوهَا بَعْدَهُ فِي الْأَجَانِبِ
لَوْ اخْتَرْتُمْ الْإِنْصَافَ مِنْ آلِ طَالِبٍ

ويعمد في هذا اللون من الشعر الشيعي إلى معارضة بعض شعراء الشيعة
السابقين من مثل السيد الحميري والكميت ودعبل بن علي الخزازي . فهو على
سبيل المثال يعارض قصيدة دعبل البائية المشهورة :

مدارسُ آياتٍ خلت من تلاوةٍ
ومنزَلٌ وحِيٍّ مَقْفَرُ الْعَرَصَاتِ
فيقول طلائع^(١) :

أَلَايْمُ، دَعْ لَوْحِي عَلَى صَبَوَانِي
وَمَا جَزَعِي مِنْ سَيِّئَاتٍ تَقَدَّمَتْ
أَلَا إِنِّي أَقْلَعْتُ عَنْ كُلِّ شَيْئَةٍ
شَغَلْتُ عَنْ الدُّنْيَا بُحْبُيَ لِمَعَشَرٍ
إِلَيْكَ، فَلَا أَخْشَى الضَّلَالَ لَكُونِهِمْ
أُتْمَةً حَقٌّ لَا أَزَالُ بِذِكْرِهِمْ

فَمَا فَاتَ يَمَحُوهُ الَّذِي هُوَ آتٍ
ذَهَابًا إِذَا أَتَبَعْتُهَا حَسَنَاتِي
وَجَانِبْتُ غَرْقِي أَيْحَرِ الشَّيْئَاتِ
بِهِمْ يَصْفَحُ الرَّحْمَنُ عَنْ هَفَوَاتِي
هَذَا قِيٌّ، وَهُمْ فِي الْحَشْرِ سَقَنُ نَجَاتِي
مَوَاصِلَ ذِكْرِ اللَّهِ فِي صَلَوَاتِي

ويشير إلى من اغتصب حق العلويين وأنه سيلقى النبي ﷺ يوم القيامة
خجلاً حين يسألهم : لم ضيعتم حق عترتي :

إذا قال : لم ضيعتموا حق عترتي وكيف انتهكتكم جُرأة حُرَمَاتِي ١٩

(١) ديوانه ص ٦٦ .

أسأئتم صنيعاً بعد موتى فغاصب
ومن خصمه يوم القيامة أحمد
فواخزنى لو أننى فى زمانهم
لأطعن فيهم بالأسنة كلما
أقضى زمانى زفرة بعد زفرة
وصئدرى فيه حرقة بعد حرقة
لذريتى حقاً ، وآخراعات
لقد حل فى وادٍ من التقمات
وواحر أحشائى ، وواحرأتى
مضت حملة جاءت بمؤتقات
فقلبى لا يخلو من الزفراة
فليس بمنفك عن الحرقاة

وهكذا يمضى مستشعراً الندم كغيره من الشيعة الذين يقيمون موسم عاشوراء لأظهار هذا الندم على عدم نصرة الحسين ، ويتحرقون لذلك ، فيعاقبون أنفسهم ويذرفون الدمع ، ويلبسون السواد ، ويقولون المراثى الموجهة تحفل بالنذب والبكاء . وبشارك طلائع بشيعيته الملتبهة فى مراثى آل البيت ، فيقول فى رثاء الحسين من أبيات وكأنها ولولة نادب :

متضاعف الحشرات مـ	لوء الجوارح بالجراح
تغسأ لجبارين أصلـ	واخيرهم حد السلاح
حملوا رءوسهم الكريمة	فوق أطراف الرماح
.....
يا أمة غدرت وتو	ر الحق أبلج ذو التماح
وتعقبت سنن النبی	الطهر بالبدع القباح
وتأولت فى محكم القر	آن بالكذب الصراح
وغدت على ظلم الو	صبي وآله ذات اصطلاح
لا تقربوا منا فجز	ب الإبل حتف للصباح

ويرد فى شعره ما يتردد فى أشعار الشيعة من رموز ، وإشارات كالحديث عن غدير خم ، والوصية يوم هذا الغدير ، فيقول :

ويوم خم ، وقد قال النبى له	بين الحضور، وشالت عضدته يده
من كنت مولى له هذا يكون له	مولى أتانى به امر يؤكده
من كان يخذله فالله يخذله	أو كان يعضده فالله يعضده
قالوا سمعنا وفى أكبادهم حرق	وكل مستمع للقول يبحده

كما تردد فى أشعاره ما اعتاد الشيعة نسبته إلى على كرم الله وجهه من مآثر

ومن معجزات حصه الله به فيما يروون تقترب في حوارها من معجزات
الأنبياء ومنها باب الحصن في خير لدى قيل إن عبداً اقتنعه

وَقَلَّعَ الْحَصْنَ فَارْتَأَعَ الْيَهُودُ لَهُ وَكَانَ أَكْثَرُهُمْ عَمْدًا يُفَنِّدُهُ
نَادَى بِأَعْلَى الْعَلَا جَبْرِيلَ مَمْدَحًا هَذَا الْوَصِيُّ وَهَذَا الطَّهْرُ أَحْمَدُهُ
وَفِي الْفَرَاتِ حَدِيثٌ إِذْ طَغَى فَأَتَى كُلَّ إِلَيْهِ لِحُورِ الْهَلَكِ يَقْصِدُهُ
قَالُوا : أَجَزْنَا فَقَامَ الْمَرْتَضَى فَرِحًا بِالْفَضْلِ وَاللَّهِ بِالْإِقْضَالِ مُفْرَدُهُ
وَقَالَ لِلْمَاءِ : غَرَطَوْعًا، فَبَانَ لَهُمْ حَصْبَاؤُهُ حِينَ وَافَى يَهْدُهُ
وَيَعِدُ نَفْسَهُ سَيْفُ دِينَ آلِ أَحْمَدِ .

أنا سيف دينكم ابن رزيك الذي يرضيكم في كل وقت يبتدئني

ولم يورد أحد من ترجم لطلايع شيئاً من هذا الشعر ، لأنه يخالف عقيدة
معظمهم فقد ضربوا عنه صفحاً ، فيما عدا من تشيع منهم . فلم يختار صاحب
معجم الأدباء ، ولا ابن خلكان ، والعماد ، وابن سعيد ، والصفدي سوى
الأشعار التي تخلو من الإشارات الشيعية ، مع أنهم اعترفوا بأنه شيعي متحمس .
واكتفوا بما جاء في شعره من غزل أو وصف للمعارك ، أو مطارحات بينه وبعض
شعراء عصره وبخاصة الشعر المتبادل مع الشاعر الفارس أسامة بن منقذ .

ومثل هذا التجنب لجانب كبير من شعر الشاعر ضرب من الرقابة يفرضه
العلماء على الشعراء . وَحُجِبَ الْجَانِبُ مِنَ الْمَعْرِفَةِ عَنِ الْقُرَاءِ ، وهو تقصير
لاشك ، بل لعل أقول إنه مجانية للأمانة العلمية ، وتعمية ، وإخفاء للحقائق ، مما
يخفى معها ملامح الصورة ، بل ويضلل الباحث لأنه لا يملك ما يستطيع به قوله
الحق .

وهذا جانب من جوانب التراث ينبغي على كل باحث فيه أن يراعيه ، ويتنبه
لمزالقه .

وبعد أن عرضنا لهذا الجانب المهم من شعر ابن رزيك والذي يمثل غالبية ، لا
يفوتنا أن نكمل الحديث بالموضوعات الأخرى . ومنها ما يأتي بعد موضوعات
الحديث عن آل البيت من مديح ورثاء ، وإثبات حق ، ودفاع عن المذهب ، وأعني
موضوعات الزهد والحكمة ، والنصح ، وقد شغلت جانباً لا يستهان به من

شعره ، من ذلك قوله في دار الوزارة بالفسطاط يذكر من توالى عليها من الوزراء وما انتهوا إليه ، وكان بالقرب منها القرافة مدينة الأموات ، فترى الشاعر يربط ربطاً غريباً بين هذه الدار ، وهي مطمح الأحياء ، والقرافة دار الموتى وقد استحالوا إلى عظام نخرة وتراب . يقول (١) :

يا قَلْبَ كم ذا الغُرُورُ	تُخدعُ المتى كَذِبٌ وزُورُ
أَوْ مَا تَرى الآمالَ يَقْضُ	حُ طَوَّلَها العُمُرُ القَصِيرُ
وَيَمثُلُ ما صيرَنا إلى آ	نَ يَغْتَبِرُ البَصِيرُ
لو دَامَ مُلْكُ لم يَكُنْ	بعد المَلُوكِ لنا نصيرُ
أَنظُرُ لهذي الدَّارِ كَمَ	قد حَلَّ ساحتَها وزيرُ
ولكم تَبَخَّرَ آمناً	بين الصُّفوفِ بها أميرُ
ذَهَبُوا فلا والله ما	بقى الصَّغِيرُ ولا الكَبِيرُ
حتى ولا أضحت تُرى	بين القُبُورِ لهم قَبُورُ
ما استيقظوا من غَفْلَةٍ	إلا وأرؤسُهُم تطيرُ
ولحومُهُم مَمْضُوعَةٌ	ومن الوري أيضاً نُسُورُ
فاصْبِرْ فلا حَزَنَ على الدُّ	نبا يَدُومُ، ولا سُورُ

وقد ينظم في معاني بعض السور القرآنية ، فيأتى بمطلع السورة أو آية من آياتها ويتم القصيدة أبيات في معناها . أو مولدة منها ، كأن يقول : ويورد أبيات من سورة هل أتى على الإنسان حين من الدهر الآيات ٨ وما بعدها :

أَنَّ الْإِبْرارَ يَشْرِبُونَ بَكَاسٍ	كان حقاً . إمزاجها كافورا
وَلَهُمْ أَنْشَاءُ الْمُهَيْمِنُ عَيْنَتَا	فَجَرَّوْها عِبَادَهُ تَفْجِيرَا
وَهَذَاهُمْ وَقَالَ: يَوْفُونَ بِالْأَنْدِ	رِ فَمَنْ مِثْلَهُمْ يُوفَى الثَّنَوَا
وَيَخَافُونَ بعد ذلك يَوْمًا	هَاتِلًا كان شَرُّهُ مُسْتَطِيرَا
يَطْعَمُونَ الطَّعَامَ ذا الْيَتَمِ	وَالْمَسْكِينِ فِي حُبِّ رِئْهُمْ وَالْأَسِيرَا :
إِنَّمَا تُطْعِمُ الطَّعَامَ لَوَجْهَ اللَّهِ	هِ ، لا نَبْتَغِي لَدَيْكُمْ شُكُورَا
غَيْرَ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنا يَوْمًا	عَبُوسًا عَصَبَصَا قَمْطِيرَا
فَوْقَاهُمْ إِلَهُهم ذَلِكَ الْيَوْمِ	مَ يَلْقَوْنَ نَضْرَةً وَسُورَا
وَحِزَاهُمْ بَأْنَهُم صَبَرُوا فِي الْ	سَرِّ وَالْجَهْرِ جَنَّةً وَحَرِيرَا

(١) ديوانه ص ٧٦ .

في أنكائهم لا يرون لدى الجنِّ شمساً، كلاً، ولا زمهريرا
وعليهم ظلالها دانيات ذللت في قطوفها تيسيرا
وهكذا يمضي في معظم آيات هذه السورة . وله تجارب أخرى من هذا القبيل .
ومن نصائحه :

يامريض القلب بالذنِّ ب ، متى بالعفو ثبرا
كلما جدَّ يومُ توبةً، ضيَّعت أخرى
تشهى الأجر ولا تفعل ما يكسب أجرا
أترى بعد ذهاب العم تستأنف عمرا

ويقول من آيات أخرى في الموضوع :

ياراكباً ظهر المعاصي أو ما تخاف من القصاصي
أو ما ترى أسباب عمرك في انتقاض وانتقاصي ؟

وقال ينصح من يتصالي بعد المشيب :

مشيئك قد نضاً صيغ الشباب وحلّ الباز في وكّر الغراب
تنام ومقلّة الحدثان يقظي وما ناب النوائب عنك نايي
وكيف بقاء عمرك وهو كنز وقد انفقت منه بلا حساب

ومن الأغراض التي أكثر فيها القول حديث القتال والغارة على الأفرنج في ثغور الشام . وكان الأسطول المصري في عهده قد أغار على بعض الثغور بالشام ، ودمر ممتلكات وتحصينات للعدو الصليبي ، ووافق ذلك زلزلة عظيمة وقعت هناك فهدمت بعض قلاعهم ، ومات منهم عدد . وكذلك في أوائل ربيع الأول من سنة ٥٥٣ هـ خرج فريق وافر من عسكر مصر إلى غزة وعسقلان ، وأغاروا على أعمالهما . قال ابن القلانسي (١) : « وخرج إليها من كان بها من الفرنج الملاعين فأظهر الله المسلمين عليهم قتلاً وأسراً بحيث لم يُفليت منهم إلا اليسير وغنموا وظفروا ، وعادوا سالمين . وقيل إن مقدم الغزاة في البحر ظفر بعدة من مراكب . وهي مشحونة بالأفرنج ، فقتل وأسر منهم العدد الكثير والجسم الغفير . وحاز من أموالهم وعددهم وأثاثهم ما لا يكاد يحصى وعاد ظافراً غانماً » (١) .

(١) ذيل تاريخ دمشق ص ٥٣٧ .

وفي رمضان من نفس السنة كانت بين المصريين والفرنج وقعة قرب العريش انتصر فيها العسكر المصري ، وظفر بمجملته وافرة من الافرنج بحيث استولى عليهم القتل والأسر والسلب^(١) .

وضنع ابن رزيك في هذه الغارات المنصورة ألياتا يفخر فيها بصنيعه وشجاعة جنده . يقول :

توالث علينا في الكتائب والكتيب
بشائر تُهدى للموالى مسرة
ففي كبد من حرها النار تلتظى
جعلنا جبال القدس فيها وقد حرث
فقد أصبحت أوعارها وحزونها
ولما غدت لا ماء في جنباتها
وجادت بها سُحبُ الدروع من العدا
وأجرت بحاراً منه فوق جبالها
فقد عمها خصبها من رؤوسهم
وقد روعتها خيلنا قبل هذِهِ
وأخفى صهيل الخيل أصوات أهلها
وأبطال حرب من كتامة دَوَّخوا
وعادوا إلينا بالرعوس على القتا
ولمّا بنى رزيك مازال جارنا
ونفتك بالأموال في السِّلْمِ دائماً

بشائر من شرق البلاد ومن غرب
وتحدث للباغين رعباً على رُعب
وفي كبد أحلى من البارد العذب
عليها عتاق الخيل كالتفتف السُّهْب^(٢)
سهولاً تُوطأ للفوارس والركب
صبيهاً عليها وإيلاً من دم سكب
نجيعاً فأغتها العدا عن السُّحْب
ولكن بحار ليس تصلح للشرب
بحرهما ، وكم خضب أضر من الجذب
مراراً ، وكانت قبل أمنة السُّرْب
فعاقت نواقيس الفرنج عن الضرب
بلاد الأعادي بالمسومة القُب
وأغناهم كسب الثناء عن الكسب
يحل لدينا بالكرامة والخصب
كأنحن بالأعداء نفسيك في الحرب

وفي الرسائل الشعرية المتبادلة مع أسامة بن منقذ تسود هذه النغمة الحربية ، إلى جانب تبادل الودّ وعبارات المحبة والشوق بين الشاعرين الفارسين . كتب أسامة إلى ابن رزيك :

وما سكنت نفسي إلى الصبر عنكم ولا رَضِيتُ بعد الديار من القرب

(١) المصدر نفسه ص ٥٤٠ .

(٢) التفتف : الغارة : والسُّهْب المستوية .

فأجابه طلائع بقوله (١) :

من اليوم لا أعتزُّ بعدك بالحب
ولا أرتضى بالبعد عن ذى مودة
ولا سيما إن قال لي يتصنعا :
على أننى قد قلت حين أجبتُه
أخلائى لو دُمتم دُنوا لما أبى
ولكنكم بعتم وفاء بَعْدَرة
عليكم سلام الله إن بعادكم
يقول فيها :

وما روضة غناء هب نسيها
سقاهما الحيا من آخر الليل مُرَّة
ومن الرسائل بينهما الطائية التى أعجبت العماد (٢) . قال أسامة :

أجيرة قلبى تدانوا وإن شطوا
هى البذر لكن الثريا لها قرط
مشت وعليها للغمام غلايل
توم صريعا فى الرجال كأنه
فما اخضر ترب الأرض إلا لأنها
ولا طاب نشر الروض إلا لأنه
حتى يقول فى تخلصه :

ولما نأت عنا على كل حالة
لما ذكرنا ذاك البعاد معاشرأ
تساوى الرضا والسخط والقرب والشط
ناؤا ، فكأننا ما لقيناهم قط

.....
أحبائنا بالشام عفتهم جوارنا
وقد عشتم فيها زمانا ، فما اعتري
وكنتم لنا دون الآقارب أسرة
فجاوركم فى أرضها الخوف والقسط
رضاكم بها ، لولا نخوفكم سخط
ونحن لكم من دون رهطكم رهط

(١) ديوان ابن رزيق ص ٥٩ .

(٢) الخريدة ، ١/ ١٧٥-١٧٦ ، قسم شعراء مصر .

ويخلص مرة أخرى إلى الفخر فيقول :

وإنا أناس، ليس يرح جأونا
ومتاحنا زوارنا، فكأنما
ويصبح بسط المال بالكف عندنا
وتحرق شرق الأرض والغرب تحيلنا
وظلماء للشهب الدراري إذا سرت
كما أول الفجرين سقط يسئل من
سئلنا بها البيض السيوف فلاح في
سيوف لها في كل درج وجنة
ذخرنا سطاها للفرج، لأنها
لهم قسطهم في الحرب فيها، وماها

.....
وحرب لها الأرواح زاهقة لما
إذا أرسلت فرعا من النقع فأجما
كان القنا فيها أنامل حاسب
ردذناها ابن^(١) الفتش عنا وإنما
.....
تعاين، والأصوات من دهر لقط
فأستأن الرماح لها مشط
أجد بها في السرعة الجمع واللقط
يثبه في سرجه الشد والربط

وفي هذه القصيدة الجيدة ، يشير إلى حقيقة موقف نور الدين من حرب
الصلبيين بالشام، فقد رأى ابن رزيك أن يتعاونوا معاً على صد غارات الصليبيين،
بأن يؤازر جند الشام جند مصر في هذه الحرب المقدسة ، وكرر ابن رزيك ذلك
مرارا وألح على نور الدين بواسطة صديقه أسامة إلا أن نور الدين لم يستجب
لإلحاح ابن رزيك لأسباب بعضها ظاهر ، وبعضها الآخر باطن يُتَّصَلُ بأهداف
نور الدين والزنكيين وأتباعهم عامة .

فأما الظاهر منها فهو ما انتاب نور الدين من متاعب صحية ، وأسرية فقد
هاجمه المرض مرتين في سنوات ٥٥٢ هـ وسنة ٥٥٣ هـ ، وأوشك على الموت .
وكان بينه وبين إخوته متاعب شغلته عن حشد طاقته العسكرية لمواجهة
الصلبيين . كما أنه كان يتريث ولم يكن من طبعه المغامرة غير المحسوبة ولذلك كان

(١) أحد فرسان الصليبيين الذين كانوا يغيرون على الحدود المصرية .

يعقد الصلح حيناً بعد حين مع فرسان الصليبيين وقادتهم ريثما يعدُّ عُدته ، ويمكن لنفسه . وكان في طبع نور الدين ميل إلى الزهادة ، والعزوف عن الدنيا ، ولم يكن به تعطش للدماء . وكان رجلاً عابداً مجاهداً بالنفس والسيف .

والهدف البعيد الذي كان يعمل له ، ونكص به عن مؤازرة ابن رزّيك خشية من الانتصار ، وبعبده أن تقوى شوكة ابن رزّيك ، وهو الذي يملك إمكانات منصر كلها بكل ما تدخره من غيٍّ وقوة ، فيعطى الفرصة للقوة الإسلامية الفاطمية المعارضة أن تمسك بالزمام ، وأن تستعيد سيطرتها على المنطقة بعد أن آذنت شمسها بمغيب ، وتأمل القوى الإسلامية الأخرى وهي قوة الزنكيين واتباعهم من الأكراد والسلاجقة والشوام ممن يخالفونهم في المذهب تأمل هذه القوى في التمكين لنفسها ، ولا تظهر الجفوة للفاطميين مرحلياً ، حتى تأتى الفرصة ليثبوا وثبتهم . وقد كان .

ولاشك أن نور الدين تخوّف من قدرة ابن رزّيك ، وحماسه لحرب الصليبيين وربما أشار عليه ناصحوه وأعوانه بالتريث وعدم الاستجابة لمطالبه في العون على حرب الصليبيين إلا بقدر محدود .

وهكذا يشهد التاريخ الإسلامي مرة أخرى تشزّم العصبة الإسلامية وتفرقها أمام القوى المعادية لمطامع خاصة تضع في تيارها وتفرق الأهداف العامة ومصلحة المسلمين والإسلام .

يقول ابن رزّيك :

فقولوا لنور الدين: ليس لجائف الجرا	حابت إلا الكئي في الطبّ والبطّ
وحسّم أصول الداء أولى لعاقلي	لبيب إذا استولى على المدنف الخلط
فدغ عنك ميلاً للفرنج وهذنة	بها بدا يُخطى سواهم ولم يُخطوا
تأمل فكم شرط شرطت عليهم	قدماً ، وكم غدر به نقض الشرط
وشمر فائتاً قد أعنتا بكل ما	سألت وجهازنا الجيوش ولن يُطو

لقد اختار العماد أبياتا من هذه القصيدة ، لكنه تخاشى ما فيه ذكر نور الدين وأعجب بصنعة ابن رزّيك لا بمضمون كلامه ، ودعوته إلى وحدة جند المسلمين ، وتعجب لهذا التعصب الطائفي المذهبي الذي يغلب على الناس ، فيتناسوا أنهم شيعة وسنة مسلمون في النهاية ، وأنهم ، والخطر الذي يترصدهم لا يفرق بين

المذهبيين ، وإنما يدهمهم جميعاً ، لكنها مأساة المسلمين في التاريخ جعلتهم يفضلون العصبية المذهبية ، ويقدمونها على مصلحة الإسلام عامة ، والأوطان خاصة .

والرسائل الشعرية بين الشاعرين الكبيرين ترتفع في شعريتها إلى مستوى فنّي لا يلحق به شعرهم الآخر ، وخاصة شعر ابن رزيك ، ويكشف ذلك عن مدى الصدق في العلاقة التي ربطت بين الرجلين .

ومثل بهاتين القصيدتين المتبادلتين على ذلك . يقول أسامة (١) :

<p>أَذْكُرُهُمُ الْوَدَّ، إِنْ صَلُّوا، وَإِنْ صَدَّقُوا وَلَا تُرِيدُ شافعاً إِلَّا هَوَاكَ لَهُمْ بِهِ دَنَوْتُ، وَإِخْلَاصُ الْهَوَى نَسَبٌ رَأَى الْحَسُودَ تَدَانِي وَدَنَا فَسَعَى وَمَا الْبَعِيدُ الَّذِي تَنَائَى الدِّيَارُ بِهِ أَجِيرَةُ الْقَلْبِ، وَالْفُسْطَاطُ دَارُهُمْ أَدْنَى التَّدَانِي الْهَوَى، وَالِدَارُ نَازِحَةٌ فَارَقْتَكُمْ مَكْرَهَا، وَالْقَلْبُ يَخْبِرُنِي وَلَوْ تَعَوَّضْتُ بِالْأُنْيَا بَغْيِي، وَهَلْ وَلَسْتُ أَنْكِرُ مَا يَأْتِي الزَّمَانُ بِهِ كَمْ فَاجَأَتْنِي اللَّيَالِي بِالْخُطُوبِ، فَمَا وَاسْتَرْجَعْتُ مَا أَعَارَتْ مِنْ مَوَاهِبِهَا وَلَا أَسِفْتُ لِأَمْرِ فَاتٍ مَطْلَبُهُ مَنْ كَانَ لِي مِنْ حِمَاهُ نَحِيسٌ ذِي لَبِيدٍ مَنْ لَمْ يَزَلْ لِي مِنْ بَجْدَوَى يَدِيهِ غِنًى الْمَلِكُ الضَّالِحُ الْهَادِي الَّذِي شَهِدْتُ مَلِكٌ أَقْلٌ عَطَايَاهُ الْغِنَى، فَإِذَا أَغْرُ، أَرْوَعُ، فِي كَفِيهِ سَحَبٌ تَدْنِي</p>	<p>إِنَّ الْكِرَامَ إِذَا اسْتَعْظَفْتَهُمْ عَطَفُوا يَكْفِيكَ مَا اخْتَبَرُوا مِنْهُ، وَمَا كَشَفُوا كَمَا نَأَيْتُ، وَإِفْرَاطُ الْهَوَى تَلَفٌ حَتَّى غَدَتْ بَيْنَ دَارَيْنَا نَوَى قَذْفٌ بَلْ مِنْ تَدَانِي، وَعَنْهُ الْقَلْبُ مُنْصَرِفٌ لَمْ تُصَقِّبِ الدَّارُ، لَكِنْ أَصَقَّبِ الْكَلِيفُ (٢) وَأَبْعَدَ الْبُعْدَ بَيْنَ الْجِيرَةِ الشَّنْفِ (٣) أَنْ لَيْسَ لِي عَوْضٌ مِنْكُمْ، وَلَا تُخْلَفُ يُعَوِّضُنِي مِنْ نَفْسِ الْجَوْهَرِ الصَّدْفُ ١٩ كُلَّ الْوَرَى لِرِزَايَا دَهْرِهِمْ هَدَفٌ رَأْتُ فَوَادِي مِنْ رَوَاعِيهَا يَجِفُ فَمَا هَفَا لِي عَلَى آثَارِهِ اللَّهْفُ لَكِنْ لِفَرْقَةٍ مِنْ فَارَقْتَهُ الْأَسْفُ ضَارٍ، وَلِي مِنْ نَدَاهُ رَوْضَةٌ أَنْفُ وَفِي ذَرَاهِ مِنَ الْآيَامِ لِي كَنْفٌ بِفَضْلِ أَيَّامِهِ الْأَنْبَاءِ وَالصُّحُفُ أَدْنَاكَ مِنْهُ، فَأَدْنَى حَفْظِكَ الشَّرْفُ تَمْتَارُ سَحْبُ الْحَا مِنْهَا وَتَعْتَرِفُ</p>
---	---

(١) ديوان أسامة ص ٨٥ ، وديوان طلائع ص ٩٨ .

(٢) أصقبت الدار : دنت — والكلف شدة الحب .

(٣) الشنف : البغض والكراهة .

وَيَمْضِي فِي مَدْحِهِ حَتَّى يَقُول :

سَعَتْ إِلَى زُهْدِهِ الدُّنْيَا بِرَغْبَتِهَا
وَلَمْ تُزَفْ إِلَى كَفِّ سِوَاهُ، وَمَا
صَبَرَ، إِذَا اللَّيْلُ آوَاهُ بِجِنْدِسِيهِ
وَيُخَرَّبُ، مَا أَتَى الْخَرَابُ مُبْتَلَاً
مُسْتَهْذَافاً وَعَيُونََ الْخَلْقِ هَاجِعَةً

وَيَحْتِمُ الْآيَاتِ بِطَلَبِ الْعَوْنِ لِقَلَّةِ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَالِ، فَيَقُولُ :

إِلَيْكَ يَا عَادِلًا فِي حُكْمِهِ وَعَلَى
أَشْكُو زَمَانًا قَضَى بِالْجُودِ فِيَّ وَلَمْ
لَحَتْ نَوَائِبُهُ عُودِي، وَأَنْفَدَمُو
وَقَدْ دَعَوْتُكَ مَظْلُومًا وَمُتَرَجِّيًا
فَاجْمَعْ بِجُودِكَ شِمْلًا كَانَ مَجْتَمِعًا
وَالشَّرُّ بِمَعْرِفِكَ الْحُرُوفِ مَيْتُهُ
فَهُوَ الْقَرِيبُ مَوَالَاةً وَمَعْتَقِدًا
وَعِشْ عَلَى رَغَمٍ مِنْ يَشْنَاكَ مَقْتَدِرًا

فَأَجَابَ الصَّالِحُ بِقَوْلِهِ :

آدَابُكَ الْغُرُّ بِحَرِّ مَالِهِ طَرَفٌ
نَقُولُ لِمَا أَتَانَا مَا بَعَثَ بِهِ
خَطًّا تَنْزَهَتْ الْأَنْظَارُ حِينَ بَدَا
إِنْ نَظَّمَهُ طَرَفُ الْأَسْمَاعِ كَانَ لَهَا
رَقَّتْ حَوَاشِي كَلَامٍ أَنْتَ نَاطِلُهُ
وَرَدَّتْ بِحَرِّ الْقَوَافِي فَاعْتَرَفَتْ كَمَا

.....

إِذَا تَطَلَّعَ فَوْقَ الْأَرْضِ ذُو أَدَبٍ

حَتَّى يَقُولَ :

إِذَا ذَكَرْتَكَ مَجْدَ الدِّينِ، عَاوَدَنَا

فَأَنْتَ مِنْهُ عَلَى الْعَيُوقِ تَشْتَرِفُ

شَوْقُكَ تَجَدَّدَ مِنْهُ الْوَجْدُ وَالْأَسَفُ

(١) الثُّطَفُ : جَمْعُ نَظْفَةِ الْمَاءِ الصَّافِي قُلْ أَوْ كَثُرَ .

ودون ما وجدناه لفرقتكم
ولو عرفت الذى فى القلب منك لما
ولا عجيب إذا حاف الزمان على
فلا تكن جازعاً ، إن التجاوز عن
فإن حصلت على الصبر احتويت على الأجـ
يا من جفانا ، ولو قد شاء كان إلى
وحو من أمه وقد الحجيح ، ومن
إننا لنوفى على حال البعاد ، كما
ونغفر الذنب إن رام المسمى بنا
وإن جنى من رأى أننا نعاقبه
نعم ونحفظ عند الغيب صاحبنا
فما لإيعادنا يوم الوغى ميل
فعندنا جنة تدنو التمار بها
هذى مصاحبنا ضوء النهار ، وكم
فيل إلينا بآمال محققة
كفى اغتراباً ، فعجل بالإياب لنا
وقد أجبنا إلى ما أنت طالبه
فراينا فيك قد أضحي علانية
وقدمت لك تمهيداً ، وبها
كأننا حين تجرى ذكرة لكم
فإن يبالغ أناس في الشئ على

يحيط بالقلب من أرجائه التلّف
أن حلت عنا على الأحوال تختلف
حر ، وكلّ قضاياه بها جتف
إنفاقك الصبر في شرع الهوى سرف
الجزيل ، وفي إحرازه سرف
جنابنا دون أهل الأرض يتعطف
ظلت إلى بيته الركبان تحتلف
نوفى لمن ضمه في قرينا كف
عفواً ، ونستره في حين ينكشف
يردنا الصفح ، أو يعتاقنا الأنف
وليس يدركنا كبر ولا صلف
ولا لموعدا يوم الندى تحلف
إذا دنا مجتن منها ، ومقتطف
قد ضل من في ظلام الليل يعتسف
وكف غرب دموع لم تزل تكف
فيمتلك لا عوض ، يلقى ولا تحلف
فالآن كيف تروى فيه أو تقف ؟
والجند قد عرفوا منه الذى عرفوا
وحش الفلاة إذا ما روعت ألف
على اضطرام لهيب النار تعتكف
أوصافكم قصروا في كل ما وصفوا

وهذه الآيات والآيات الأخرى التى رد بها الصالح ، أو بدأ بها صديقه
أسامه إنما سجل واضح لصداقة ومحبة بين قائدين من قادة هذه المرحلة
وفرسانها تكشف عن علاقة إنسانية حميمة فضلاً عما يربطهما من عمل على
مصلحة عامة فى رد عادية المعتدين من الصليبيين ، تلمح فيها الاخلاص من
الجانين وصدق الحديث . اعتذار من أسامة عما حدث من ملايسات فى
أحداث القصر التى أدت إلى مقتل الخليفة الظافر وثلاثة من أعوانه ، لم يكن له
يد فيها ، وإنما وضعته الظروف رغماً منه فى أتون الأحداث للعلاقة التى ربطت

بينه وبين القاتلين عباس وابنه . مما جرَّ عليه غضب القصر رجاله ونسائه
وغضب جند الخلافة وقد شاهدوه وعباساً ونصراً في شوارع القاهرة
يحاربونهم . فالآتهام قائم ، وإن كانت يده لم تلوث بدم ، وإنما وقع عليه الظلم
كما وقع عليه في ظروف عديدة في حياته ، ويعرف طلائع مدى ما عاناه أسامه
من جنف الحياة ، وحيف الأقارب والأصدقاء والأعوان . ويعرف ما في نفس
صديقه من عزة ومن عفة ، ويعرف براءته مما ينسب إليه ، ويدرك كذلك
موقف التردد الذي يقفه من دعوته وقبوله العودة إلى مصر ، فإن في نفس
أسامة تخوفاً ، وشكاً ، لا من ناحية صديقه طلائع ، ولكن من ناحية القصر
والجند ، فهم مهماً طمأنه ، واعتذر عنه ، وأوضح موقفه ، فإنه لا يأمل
الغيلة .

وهذه الرسائل الشعرية المتبادلة فريدة في تاريخ الشعر العربي ، لأنها حوارٌ
يحمل في طياته كثيراً من المشاعر والأحاسيس الإنسانية والمودة بين صديقين كما
تحمل سجلاً لكثير من أحداث العصر وأسراره ، لا تكشف عنها مصادر التاريخ
المعتادة والتقليدية . فضلاً عما تحمل من شاعرية متدفقة لشاعرين من رواد
الشعر في عصرهما ، وفارسين من فرسان الجهاد .

ولطالما في هذه الحوارات الشعرية قصائد تسجل المعارك وتكشف عما قام
به جند مصر من أدوار في تلك المرحلة ، ربما أغفلها التاريخ ، أو لم يركز عليها
تركيزه على المرحلة التالية في عصر الأيوبيين والمماليك . فهذه القصائد تكشف
عما أهمله التاريخ من مواقف مُضيئة لأبطالٍ خاضوا من أجل العقيدة والوطن
معارك مهدت بعد ذلك للنصر :

فمن هذه القصائد ميميةٌ حماسيةٌ النبوة يقول فيها طلائع (١) :

ألا هكذا في الله تمضي العزائمُ وتمضي لدى الحرب السيوف الصوارمُ
وتُسْتَرَلُ الأعداءُ من طَوْدٍ عِزَّهُمْ وليس سِوَى سمر الرماح سَلَالِمُ
وتُعْرَى جيوش الكفرِ في عُقرِ دارِها ويوطأ جِماهاً، والأثوفُ رواغِمُ
ويوفى الكرامُ النَّادِرُونَ بِنَدْرِهِمْ وإن يَذَلَّتْ فيه النفوسُ الْكَرَائِمُ
نَدَرْنَا مَسِيرَ الْجَيْشِ في صَفَرٍ، فما مَضَى نَصْفُهُ، حتَّى انشَتَى وهو غَائِمُ

(١) ديوان أسامة ص ٢٢٠ ، وديوان طلائع ص ١٣٥ .

بَعَثْنَاهُ مِنْ مِصْرَ إِلَى الشَّامِ، قَاطِعاً
وَنَاهِيكَ مِنْ أَرْضِ الْجِفَارِ إِذَا التَّظَى
وَصَارَتْ عِيُونَ الْمَاءِ كَالْغَيْنِ عِزَّةً
فَمَا هَالَهُ بُعْدُ الدِّيَارِ وَلَا ثَنَى
يُهَجِّرُ وَالْعَصْفُورُ فِي قَعْرِ وَكْرِهِ
إِذَا مَا طَوَى الرِّيَابِ وَقَتَ مَسِيرِهِ
ثُبَارَى تُحْيِلُ مَا تَزَالُ كَأَنَّهَا
فَإِنْ طَلَبْتَ قَصْداً تَسَاوَيْنَ سُرْعَةً
هِيَ الدُّهْمُ أَلْوَنًا وَصَيِّغٌ عَجَاجَةً
تَصَاجِبُهَا عِلْماً بِأَنْ سَوَفَ تَعْتَدِي
كَمَا أَنَّ وَحْشَ الْفَقْرِ مَازَالَ مِنْهُمْ
خِيُولَ إِذَا مَا فَارَقَتْ بِمِصْرَ ثُبْنَى
يَسِيرُ بِهَا ضِرْغَامٌ فِي كَيْلِ مَازَقِي
وَرَفَقَتُهُ عَيْنُ الزَّمَانِ وَحَاتِمٌ
مَضَى طَاهِرُ الْأَثْوَابِ مِنْ كُلِّ رِيَّةٍ
هَيْثَا لَهُ يُسْقَى الرَّحِيقُ إِذَا غَدَتْ
وَلَوْ أَنَّنَا نَبْكِي عَلَى فَقْدِ هَالِكٍ
وَلَكُنَّا بَعْنَا الْإِلَآةَ نَفُوسَنَا
تَهَوَّنَ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ نَفُوسُنَا

ويذكر حشود فرق الجيش بأسمائها وقادتها ، ومن انضم إليهم من جند
القبائل المؤيدة المجاهدة مثل سبئيين ، وتعلبة ، وجذام بالبحوف الشرق من مصر
وأرض سيناء . حتى يقول :

جُيُوشٌ أَفْدَنَاهَا اعْتِزَامًا وَنَجْدَةً
إِذَا مَا أَثَارُوا النَّقْعَ ، فَالْتَقَرُّ عَابِسٌ
وَلَمَّا وَطَّوْا أَرْضَ الشَّامِ تَحَالَفَتْ
وَوَاجِهَهُمْ جَمْعُ الْفِرْنِجِ بِحِمْلَةٍ
فَلَقَوْهُمْ زُرْقُ الْأَسْنَةِ ، وَانْطَوَّأُوا
وَمَا زَالَتْ الْحَرْبُ الْعَوَانَ أَشَدَّهَا

فَطَاعِنَاتُ مِنْهُمْ ، وَمَنَا ، الْعَوَائِمُ
وَأِنْ جَرَّدُوا الْأَسْيَافَ فَالْتَقَرُّ بَاسِمٌ
فَأَضْحَتْ جَمِيعاً ، غُرْبُهَا وَالْأَعَاجِمُ
تَهَوَّنَ عَلَى الشُّجْعَانِ مِنْهَا الْهَزَائِمُ
عَلَيْهِمْ ، فَلَمْ يَتَّجِمْ مِنَ الْكُفْرِ ، نَاجِمٌ
إِذَا مَا تَلَاقَى الْعَسْكَرُ الْمُتَصَادِمُ

يُسَبِّحُهُمْ مِنْ لَاحِ جَمْعُهُمْ لَهُ
وَحَسْبُكَ أَنْ لَمْ يَتَّقِ فِي الْقَوْمِ. فَارْسُ
وَعَادُوا إِلَى سَلِّ السُّيُوفِ فَقَطَّعَتْ
فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ مُخَبِّرٌ
كَذَلِكَ مَا يَنْفُكُ تُهْدِي إِلَى الْعِدَى
وَتَسْرِي لَهُمْ أَرَاؤُنَا وَجُيُوشُنَا
نُقْتَلُهُمْ بِالرَّأْيِ طَوْرًا ، وَتَارَةً

بَلَجَةٌ بِحَرِّ مَوْجُهَا مُتَلَاطِمٌ
مِنْ الْجَيْشِ إِلَّا وَهُوَ لِلرَّمْحِ خَاطِمٌ
رُعُوسٌ، وَحَزَنٌ لِلْفَرْنَجِ غَلَاصِمٌ (١)
وَلَا قِيلَ : هَذَا وَحْدَهُ الْيَوْمَ وَسَالِمٌ
وَلِلْوَحْشِ أَعْرَاسٌ بِهِمْ مَا يَمُ
بِذَاهِيَةِ تَبْيَضُ مِنْهَا الْمَقَادِمُ
تَدُوسُهُمْ مَنَا الْمَذَابِجِي الصَّلَادِمُ

ويشير إلى مهادنة نور الدين للصليبيين ، مع احتلالهم لأرض شيزر وحصن
حارم وغيرها من الثغور والحصون الإسلامية بالشام ، ويستحثه على النهوض
لمناجزتهم متضافراً مع جيش مصر وأسطولها . ويقول إنه وجيشه لا يهدأون في
قتال الأعداء .

فَنَحْنُ عَلَى مَا قَدْ عَهَدْتَ نَرُوهُمْ
وَعَارِئًا لَيْسَتْ تَفْتَرُّ عَنْهُمْ
وَأَسْطُولُنَا أَضْعَافٌ مَا كَانَ سَائِرًا
وَنَرْجُو بَأْنَ نَجْتَاحَ بَاقِيَهُمْ بِهِ
عَلَى أَنَّا نَلْنَا مِنَ الْمَجْدِ مَا بِهِ
وَلَكُنَّا نَبْغِي الْمَثُوبَةَ جُهِدْنَا
وَنَحْتَمُ بِالْحَسَنَى الْحَيَاةَ ، وَإِنَّمَا

وَنُحْلِفُ جَهْدًا أَنَّا لَا نَسَالِمُ
وَلَيْسَ يُنْجِي الْقَوْمَ مِنْهَا الْهَزَائِمُ
إِلَيْهِمْ فَلَا حَصَنٌ لَهُمْ مِنْهُ عَاصِمٌ
وَنُحْوِي الْأَسَارَى مِنْهُمْ وَالْعَنَائِمُ
نَفَاحِرُ أَمْلَاكَ الْوَرَى وَنَقَاوِمُ
وَطَاقَتْنَا ، وَاللَّهُ مُعِطٌ ، وَحَارِمُ
تُزَيْنُ أَعْمَالُ الرَّجَالِ الْخَوَاتِمُ

لقد خلد المتبنى معارك سيف الدولة ضد الروم ، مع أنها كانت غارات ،
تبادل فيها الفريقان الكرّ والفرّ ، حتى كانت الغلبة في النهاية للروم فاصابت
إمارة سيف الدولة بحلب في مقتل وزعزعت أركانها حتى جاء الفاطميون
فأعادوا حلب إلى حوزة المسلمين .

وها هو طلائع بعيد وصف المعارك مع الصليبيين وإن اختلفت الدوافع
والظروف ، فطلائع هنا يحس بالخطر المهدق بالآمة الإسلامية ، ويعلم دعوة
الجهاد التي ينبغي أن يتضافر تحت لوائها المسلمون بدأ واحدة ، وقوة متماسكة
ليصلوا إلى غايتهم .

(١) الغلاصم : اللحم بين الرأس والعنق ، أو رأس الحلقوم .

ولكن يبدو أن دعوة طلائع ، كانت صحيحة في خلاء .. أو لم تلق الاستجابة على ما سبقت إشارتنا ، وبقي لنا بعد ذلك هذا الشعر ، الذي يكشف عن صفحة مجهولة ، ويرز جهداً كاد أن يضيع في طيات الأيام . كانت مصر قيادة وجنداً وإمكانات تعمل على بقاء الصرح . حتى أتيح لها بعد أن ترى رايات الانتصار ترتفع على بيت المقدس من جديد بقيادة صلاح الدين ، وبقوة مصر وجندها إلى جانب قوى الشام والمسلمين التي حشدتها القائد المظفر .

وقد استغرقت الموضوعات التي ذكرنا معظم ديوان ابن رزيك وما دونها قليل من الغزل ، والوصف ، وأبيات في مقطعات يصنعها بين يدي موقف ، أو جلسة من جلسات سمره مع الأدباء والعلماء . قال :

وَمُهَفَّهٍ ثِيْلِ الْقَوَامِ سَرَتْ إِلَى	أَعْطَاهُ النَّشَوَاتُ مِنْ عَيْنِهِ
مَاضِي اللَّحَاطِ كَأَنَّمَا سَلَّتْ يَدِي	سَيِّفًا غِدَاةَ الرُّوْعِ مِنْ جَفْنِيهِ
النَّاسِ طَوْعُ يَدِي وَأَمْرِي نَافِدٌ	فِيهِمْ ، وَقَلْبِي الْآنَ طَوْعُ يَدِي
فَاعْجَبْ لِسُلْطَانٍ يُعَمُّ بَعْدْلِهِ	وَيَجُورُ سُلْطَانُ الْعَرَامِ عَلَيْهِ
قَدْ قَلْتُ إِذْ كَتَبَ الْعِدَارُ بِخَدِّهِ	فِي وَرْدِهِ الْفَيْهِ لَا لَأَمْنِيهِ
مَا الشَّعْرُ لَاحَ بَعَارِضِهِ وَإِنَّمَا	أَصْدَاغُهُ تُفَضَّتْ عَلَى خَدِّهِ

وقال :

عَازِلِ عَذْلِكَ سَهْمٍ فِي الْحَشَا	كَيْفَ كَيْتَانِي وَسِرِّي قَدْ فَشَا
صَارَ مَا لِي مِنْ غَرَامٍ كَامِنٍ	ظَاهِرًا يَنْقُلُهُ وَاشِي وَشَى
مَنْ رَأَى قَبْلِي يَارَيْسَمَ الْفَلَا	أَسَدًا يَقْنَصُهُ لِحْظَ رَشَا

ومنها

وَجْهَكَ الرُّوضَةَ آتَتْ نَرْجَسًا	وَجَنِّي السَّوْدَ فِيهَا قُرْشًا
خَفْتُ أَنْ يُجَنِّي فَوَكَّلْتُ بِهَا	عَقْرَبًا طَوْرًا وَطَوْرًا حَشَا

وشعره في الغزل وسواه من الموضوعات لا يرقى إلى مستوى فخره ووصف المعارك والغارات ، وإخوانياته .

(١) خريدة القصر ١/ ١٧٧

وصيَّغته بصفة عامة تقليدية ، ولا يميل إلى الإكثار من البديع، وصوره مشتقة أحياناً من حياته العسكرية ، ومحيطه العام . ويغرب أحياناً في بعض خيالاته .

وظلَّ المتنبي يُطيف بعباراته أحياناً ومعانيه، فيحس قارئ شعره بنفس المتنبي يسائر الكلمات . وقد بدا هذا بوضوح في بعض قصائده في الفخر ووصف المعارك .

ويرى الصفدي أنه أخذ بعض معانيه من ابن هانيء الأندلسي ومنه قوله :
ماضيَّ اللحاظ كأنما يدي سيفي غداة الرُّوع من جفنيه
أخذه — كما قال الصفدي — من قول ابن هانيء^(١) :

ما كان أفتكني لو اخترطت يدي من ناظرَيْك على عذوبى مُرهفاً

(١) الواقي بالوفيات ، ترجمته ١٢ / ٥٠٣ .

—٢—

أسامة بن منقذ (٤٨٨ — ٥٨٤ هـ)

ولد في أسرة عريقة وليت اماره شيزر بالشام شمالي غرب حماة في النصف الثاني من القرن الخامس وحتى منتصف القرن السابع إذ دهمها الزلزال المدمر الذي ضرب كثيرا من مدن الشام في عامي ٥٥٢ ، ٥٥٣ هـ .

وعرفت شيزر بقلعتها الشهيرة ، وتقع على هضبة مرتفعة يحيط بها نهر العاصي ، فيجعل منها حصنا منيعا ، حاول الصليبيون والروم الاستيلاء عليه مرات .

وكان والد أسامة رجلاً صالحاً يقضي وقته في الصلاة وتلاوة القرآن ونسخه ، ويخرج أحياناً للصيد في رَضي شيزر ، وكان به فيما يروى على عهد أسود^(١) .

وترى أسامة منذ صغره على التمسك بالدين واداء العبادات وحفظ القرآن ، كما نشأ جريماً ، شجاعاً ، لا يبالي بالأخطار ، وقد تدرب على الصيد ، ومارس صيد الأسود مع والده . وقد أعد للقتال فتدرب على أصوله ، وتعلم الفروسية ، واستخدام أدوات الحزب من سيوف ورماح ونبال .

وتدل ثقافته من شعره ، وكتابهاته على سعة اطلاعه ، ومعرفته بعلوم الدين من حديث وفقه ، واثقانه لعلوم اللغة والأدب والنحو وقراءته وحفظه لكثير من الشعر القديم ، ومأثور كلام العرب في أمثالهم وخطبهم وحكمهم ، وألم بالتاريخ العربي والإسلامي ووعى وقائعه وأحداثه .

وكان عم أسامة أبو العساكر سلطاناً حاكماً أو أميراً على شيزر ، ولم يكن له ولد فأحب أسامة وتبناه وقربه ، وظل كذلك زمناً ، حتى أنجب ، فتغيرت عواطفه نحو ابن أخيه أسامة . وأحس أسامة بهذا التغير ، فأثر الابتعاد عن عمه وولده .

(١) وقد ورد حديث صيد الأسود ببعض أرض الشام في الأخبار ، ولعل مما يسجل ذلك غير ما جاء في ترجمة ابن منقذ مديح المتنبي لبدر بن عمار ووصف صيده للأسد في قصيدة مشهورة .

وحدثته نفسه بالخروج عن شيزر كلها إلى بلد آخر ، لما وجد من جفاء عمه فقصد الموصل ، والتحق بعماد الدين زنكى وصار رجلاً من رجاله وفارساً من فرسانه وحارب الصليبيين تحت قيادته في أكثر من معركة . وظل يمارس صناعة الحرب في « الرها » وبعض بلاد شمالى الشام حتى هاجم الفرنج والروم بلده شيزر عام ٥٣٣ هـ ، فاسرع للمشاركة في صد الروم عنها ، وأبلى في الدفاع بلاءً حسناً .

ولمّا عاد أسامة في هذه المرة ، كان قد بلغ من الفروسية والشهرة مبلغاً في القتال ، فتعلقت به نفوس أهل شيزر ، وخشى عمه على نفسه وإمارته أن يأخذها منه أسامة ، أو يرثها دون ولده ، فأمره وأسرته بمغادرة بلده ، وكان والد أسامة قد توفى قبل ذلك ، فخرج أسامة وأخوته وبقية أسرته من بلدهم ، وتشتتوا في البلاد ، رضوخاً لأوامر عمه .

ولم يمهل القدر عمه طويلاً ، فقد انتابت الشام هزات وزلازل كان أشدها عام ٥٥٢ هـ الذى دمر شيزر ، وذهب فيها عمه وأسرته فدفنوا تحت الأنقاض .

وكان أسامة قد قصد دمشق في خروجه الثانى من بلده حيث التقى بصاحبها معين الدين أنر أحد المجاهدين في حرب الصليبيين ، وعاونه أسامة في شئون السياسة والحرب ، ونجح في كل ما وكل إليه من أمورها حتى علت منزلته عند معين الدين . إلا أن الأمور لم تجر كما يهوى ، ولعله لاحظ بعض التغير من صاحبه الأمير ، فأثر كعادته الابتعاد ، والحفاظ على النفس والكرامة . وتنطق أبياته التى بعث بها إلى أنر بما حدث من تضييع لحقه إذ يقول :

بَلِّغْ أَمِيرِى مَعِينِ الدِّينِ مَالِكَةَ مِنْ نَازِحِ الدَّارِ ، لَكِنْ وَدَّهْ أَمُّمُ

.....

تَضِيعُ وَاجِبَ حَقِّى ، بَعْدَ مَا شَهِدْتُ بِهِ النَّصِيحَةَ ، وَالْإِخْلَاصُ وَالْخِدْمُ
وَمَا ظَنَنْتُكَ تَنْسَى حَقَّ مَعْرِفَتِى إِنَّ الْمَعَارِفَ فِي أَهْلِ النَّهْيِ ذُمُّ

ويلم في هذه الأيات بقصيدة المتنبي في وداعه لسيف الدولة :

وَاحِرَّ قَلْبَاهُ مِنْ قَلْبِهِ شَيْبُ وَمِنْ بِجْسِمِى وَرُوحِى عِنْدَهُ سَقَمُ

وربما كانت الظروف التي حكمت على الشاعرين بالفراق واحدة ، وهي تغير الأمير بمشورة أهل السوء ، والحسد في البلاط . ولأن الظروف واحدة ، فقد استعان أسامة بأبيات للمتنبي ضمنها قصيدته . كقوله :

ولأُ اعتقدتُ الذي بيني وبينك من ودُّ ، وإن أُجلبَ الأعداءُ يُنصرِمُ
لكن يُفأثكُ مازالوا بغشهمُ « حتى استوت عندك الأنوار والظلمُ »
والله ما نصحوا لِمَا استشرئهمُ وكلهم ذو هوى في الرأي مُتهمُ
كم حُرِفوا من مقالٍ في سِفارِتهم وكم سَعَوْا بفسادٍ . ضلَّ سَعِيهمُ

وكانت هجرته هذه المرة إلى القاهرة بعد مغادرته لدمشق . يم نحو الجنوب كما فعل أبو الطيب من قبل . فوصل إلى عاصمة مصر في جمادى الثانية عام ٥٣٩ هـ .

وصل أسامة إذا إلى القاهرة ، والتحق ببلاط الخليفة الحافظ ، جندياً فارساً ويبدو من حديث أسامة وترحيب الحافظ به أنه كان من المقرين يقول^(١) :

« .. فكان وصولي إلى مصر يوم الخميس الثاني من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ فقرئني الحافظ لدين الله ساعة وصولي ، فخلع عليّ بين يديه ودفع لي تحت ثياب ومائة دينار » .

ولعله التقى بطلائع في القصر الفاطمي ، إذ كان قد سبقه هذا إلى مصر وعمل بالقصر زمناً قبل توليه إمارة قوص وأسوان بالصعيد ، وربطت صداقة ومودة بين الرجلين . وغادر طلائع صاحبه بالقاهرة إلى قوص وأسوان ، وبقي أسامة ليشهد الصراع بين القادة ورجال الحكم لتولى الوزارة بعد وفاة الحافظ ، وتولى ابنه الصبي الظافر .

فقد استوزر الحافظ في آخر أيامه نجم الدين بن مصال . وكان شيخاً كبيراً فطمع في منصب الأمير سيف الدين أبو الحسن عليّ بن السلار وإلى الاسكندرية فحشد أعوانه وتوجه إلى القاهرة يريد الوزارة . فجمع الظافر الأمراء في مجلس الوزارة وكان بينهم أسامة قال : « ونفذ إلينا زمام القصور — أي متولى شئون القصر ، أو رئيس الديوان الخلفي — يقول : يا أمراء هلم نجم الدين وزيرى ونائبى ، فمن كان يطيعنى فليطعه ويمثّل لأمره » .

(١) الاعتبار ص ٢٩ ، طبع دار الثقافة والنشر والإعلام .

قال أسامة عن سكنه بالفسطاط .

« وأنزلني — الحافظ — في دار من دور الأفضل ابن أمير الجيوش في غاية الحسن ، وفيها بسطها وفرشها ، وآلتها من النحاس ، وأقامت بها مدة إقامتي في إكرام واحترام وإنعام متواصل وإقطاع » .

ويبدو أن الأمور لم تستقر بعد اجتماع الأمراء على إقرار ابن مصال مع رغبة الحافظ في وزارته ، وخرج بعض الأمراء على رأي الحافظ ، وأيدوا ابن السلار مما اضطر الحافظ إلى نصيحة ابن مصال بالخروج ومعه بعض جند مصر .

واصطدم انصار ابن مصال بعبّاس ابن زوجة ابن ! لسلار وانهزموا وكان أسامة آنذاك قد لقي ابن السلار بعد استدعائه من منزله . قال : « ويبلغ الخبر إلى ابن السلار فاستدعاني في الليل ، وأنا معه في الدار . وقال : هؤلاء الكلاب يعنى الجند قد هاجموا عباساً ، ودخلوا القاهرة ، فقال أسامة : يامولاي نركب إليهم في سحر ، وما يضحي النهار إلا وقد فرغنا منهم إن شاء الله تعالى (١) .

وهذا الاعتراف من أسامة يؤكد أنه اتصل بابن السلار الذي خرج على طاعة الحافظ ، وانضم إلى معسكره في مواجهة الخليفة ووزير ابن مصال . ويؤكد تورطه في الانحياز لأعداء القصر .

وانتهت المواجهة بين ابن مصال وابن السلار وعباس في دِلاص حيث قتل ابن مصال الوزير وتمكن ابن السلار من الوزارة يعضده عباس الصنهاجى ابن امرأته وابنه نصر .

وبعد هذا « لم يبق لسيف الدين بن السلار من يعانده ولا يشاقفه » على حد قول أسامة . فولى الوزارة قسراً .

وكان طلائع في هذا الوقت على ولايته بأسوان يرقب الأحداث من بعد ، وأدرك تورط أسامة صديقه مع ابن السلار وعباس في مواجهة الظافر . ولكن مرت الأحداث سراعاً ، ورضى الظافر والقصر بالأمر الواقع ، وخلع الظافر على ابن السلار خلع الوزارة ولقبه الملك العادل . وتولى الأمور (٢) .

(١) الاعتبار ص ٣٠ .

(٢) الاعتبار ص ٣١ .

قال أسامة : « كل ذلك والظافر منحرف عنه ، كارهة له ، مضمر له الشر ، فعمل على قتله وقرر مع جماعة من صبيان الخاص (حرس الخليفة) وغيرهم ممن استألمهم ، وانفق فيهم أن يهجموا داره ، وأن يقتلوه . وكان شهر رمضان ، والقوم قد اجتمعوا في دار بالقرب من دار الملك العادل ينتظرون توسط الليل ، وافتراق أصحاب العادل ، وأنا تلك الليلة عنده » .

قال أسامة ثم إن العادل أحس بمؤامرتهم وظفر بهم ، وهرب بعض هؤلاء إلى دار أسامة ، فقام بهربهم . وقد قتل في هذه الواقعة جماعة من المصريين والسودان ويبدو أن جند السلار كان معظمهم من المغاربة والأتراك . وكان معظم جند الخلفاء وحرس القصر من المصريين والسودان .

وفي وزارة ابن السلار قام أسامة ببعض المهام العسكرية ، منها تكليفه بقيادة كتيبة للذهاب إلى الشام ومناصرة نور الدين في حصار طبرية ومناوشة الصليبيين في بيت المقدس لينهض ابن السلار للهجوم على غزة وكانت بأيدي الصليبيين حتى لا يضايقوا عسقلان .

وفصل أسامة أخبار حملته تلك^(١) في طريقة من مصر إلى نور الدين ، ولقى نور الدين وأسد الدين شيركوه . ولم يخبرنا ماذا تم .

ولكن يبدو أن نور الدين لم يوافق على خطة ابن السلار في حصار طبرية ، فأزعم أسامة على تنفيذ البديل الذي أوصاه به وهو مناوشة الصليبيين على عسقلان وبها حامية مصرية . قال أسامة : « ولقينا الأفرنج فرددناهم ومضوا عائدين إلى بلادهم وهي قرية من عسقلان »^(٢) .

وقام هو وأخوه ، وكان فارساً من عسقلان يريدان الغارة على بيت جبريل وقتالها . قال : « فوصلناها وقتلناهم » .. وفي أثناء العودة — علموا بمحاصرة الأفرنج لعسقلان ، فتقدم أسامة ومن معه وعلم الأفرنج به فداهموه ، وقتلوا من فرقته من قتلوا ، ودافع أسامة وأخوه دفاعاً باسلاً حتى تمكنوا من النجاة . وظل بعسقلان لمحاربة الأفرنج أربعة أشهر يعد الغارات على بلاد الصليبيين المجاورة حتى استدعاه ابن السلار إلى مصر . فعاد وبقي أخوه بعسقلان ،

(١) الاعتبار ص ٣٤—٣٦ .

(٢) الاعتبار ص ٣٩ .

واستشهد في معركة بعد رحيله . قال عنه : « وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعُبادهم » .

وجاء أسامة إلى مصر ليجد نفسه مرة أخرى متورطاً في فتنة قتل ابن السلار مع عباس الصناجى وابنه نصر . قال أسامة إن نصر أرتب أمر مقتل ابن السلار مع الظافر وابيه عباس ، ودخل على العادل في بيته فقتله وقطع رأسه وحمله إلى الظافر . وذلك يوم الخميس السادس من المحرم سنة ٥٤٨ هـ .

وتولى عباس الوزارة . قال أسامة : وشرع الظافر مع ابن عباس في حمله على قتل أبيه ليصير في الوزارة مكانه ، وواصله بالعطايا الجزيلة .

وحدث ما ذكرناه من قبل في كلامنا عن المؤامرة ، وموقف طلائع وخروج ابن منقل وعباس ونصر من القاهرة .

وهكذا خرج أسامة من القاهرة مرة أخرى هارباً هذه المرة ، وخائفاً لتورطه مع قتلة الخليفة والأمراء الفاطميين الثلاثة . ونهب الفرنج أمواله ، ولجأ إلى دمشق حيث ملكها نور الدين ، عارياً من ثروته ، وأهله . وكاتب طلائع ليعث إليه بما بقى له في مصر من ثروة مع أهله وولده . ووفى طلائع ، فبعث إلى صاحبه أمواله وأهله في مركب ، إلا أنها عند عبورها أمام ساحل غزة شعر بها الصليبيون فاستولوا عليها ونهبوها .

وكان أسامة في مصر قد امتلك ثروة طائلة ، وخيلاً ، وعبيداً .

ويذكر جانباً من ثروته التي نهبت في الفتنة فيقول :

« فلما خرجنا من باب النصر وصلوا — أى جند الخلافة — إلى الأبواب فأغلقوها وعادوا إلى دورنا نهبوها ، فأخذوا من قاعة دارى أربعين غرارة جمالية مُحاطة فيها من الفضة والذهب والكسواتِ شيء كثير ، وأخذوا من اصطبل ستة وثلاثين حصاناً ، وبغلة سرّوجية ، نسبة إلى سروج بديار مُضَرَ — بسروجها وعدتها كاملة ، وخمسة وعشرين جملًا . وأخذوا من إقطاعى كوم أشفين^(١) مائتي رأسى بقر ، ومائتين والى شاة ، وأهراء غلة » .

(١) بلدة بالقليوبية .

وكان طلائع كما أشرنا يرغب في عودة ابن منقذ إلى مصر ، فكتب إليه وهو بدمشق يؤمنه ويعدده بالدفاع عنه أمام القصر وأهله . قال ابن منقذ^(١) :

« وكتب إلى يقول : ترجع إلى مصر وأنت تعرف ما بيني وبينك ، وإن كنت مستوحشا من أهل القصر ، فتصل إلى مكة ، وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينة أسوان إليك ، وأمدك بما تقوى به على محاربة الحبشة ، فأسوان ثغر من ثغور المسلمين ، وأسير إليك أهلك وأولادك » .

ولكن العادل نور الدين منعه عن تلبية طلب الصالح في العودة إلى مصر قال : « ففاوضتُ الملك العادل ، واستطلعتُ أمره ، فقال : يا فلان ما هددت متي تخلّص من مصر وفتها ، تعود إليها ، العمر أقصر من ذلك . أنا أنقذ آخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج ، وأسير من يحضرهم » .

ثم حدث ما حدث من تسيير الصالح له أهله في مركب ، نهبه الصليبيون ، وأخذوا كل ثروته وحليّ نسائه ، ووصل إليه أهله . وحزن وأسف ولكن نور الدين هون عليه الأمر بسلامة أولاده وأولاد أخيه .

وحز في نفسه ذهاب المال ، وأشدّ منه ذهاب الكتب فإنها بلغت كما قال أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة^(٢) . قال : فإن لذهابها حزازة في قلبي ما عشت .

وهكذا مكث بدمشق وطلائع يوالى رسائله إليه ، ولا ندرى هل استجاب لدعواته فقد ذكر على بن ظافر في البدايه^(٣) أنه ذهب إلى مصر سنة ٥٥٢ هـ . أي بعد مغادرته بثلاث سنوات أو أقل . والتقى في دار طلائع دلو الوزارة بالقاهرة بالشاعر المهذب بن الزبير . وليس في بقية المراجع ما يشير إلى هذه العودة .

وعلى أية حال فإن أسامة بعد أن قضى بدمشق عشر سنين بصحبة نور الدين شعر بوطأة السنين ، وثقل الحياة لبلوغه سنّاً متقدمة ، فقد قارب الثمانين فأثر الاعتكاف . وترك القتل والقتال ، ورحل عن دمشق إلى حصن كيفا وهناك خلا للقراءة والتأليف ، مستعيناً بما بالبلد من مكتبات عامرة بالكتب

(١) الاعتبار ص ٥٦ .

(٢) المصدر نفسه ص ٥٨ .

(٣) بدائع البدايه ص

القيمة ، وظلّ كذلك في عزله حتى عودة صلاح الدين إلى دمشق بعد استيلائه على السلطنة بمصر .

واستقبله صلاح الدين وأنس به ، وبشعره . وأعطاه داراً واقطاعاً وكان يستشير مقيداً من خبرته ومعرفته بالصليبيين ، وصحبه بعض الوقت في حله وترحاله . وعاش أسامة بقية حياته بدمشق حتى توفي في الثالث والعشرين من رمضان سنة ٥٨٤ هـ . وقد أرى على التسعين .

شعره

موضوعاته :

يغلب على شعر ابن منقذ أحداث حياته وعلاقاته بمن التقى بهم من الخلفاء والأمراء ، والقادة والوزراء ، وبذكر أحداث غربته ورحلاته بالشام ومصر ، وذكره الشكوى من الأيام وما فعلت به ، ورثاء أهله والتشوق إلى أصحابه وأحبابه . والوصف والغزل . ويخلو من الهجاء وذكر الشراب والغزل بالملذو . ولعل ما وصلنا من الديوان هو ما تبقى من شعره ، لا كل شعره فقد اختار من شعره في آخر عمره ما يرى أنه مناسب مستبعداً منه كل ما كان من إسراف الشباب وطيش الصبي ، واندفاعاته وثوراته .

وربما كان من شيم أسامة ، وترفعه عن بعض الموضوعات التي تنال من مروءة الإنسان ، وبخاصة مروءة فارس ملتزم ، ربما كان من هذه الشيم ما زجره عن الخوض في مثل تلك الموضوعات التي أكثر منها غيره من الشعراء المحترفين .

غزله :

ونبدأ حديثنا عن غزله . وهو غزل غير تقليدي في جملة ولا شبه بينه وبين النسيب القديم ، فهو أقرب إلى غزل المحدثين في نظره ، وإن كنا نحس في بعض أشواقه ، وعباراته الغزلية آثار حبّ قديم ، ولوعة صباية ربما عاناها رداً في شبابه أو في مرحلة من مراحل حياته .

وهو في هذا الغزل كثيراً ما يذكر الهجر ، وطيف الخيال ، وملال الحبيب كما نجد فيه رقة الخطاب والحوار ، وجمال أوصافه للحبيب والتدله في حبه

وقاموسه اللغوى فى موضوع الغزل ليس هو نفسه قاموس الغزل التقليدى بل كثيرا ما يدخل عليه عناصر تعبيرية جديدة أو مستجدة ، وإن اعتمدت على أسس تقليدية متداولة بين الشعراء .

ولم يلجأ إلى القوالب المعروفة ، ولا إلى الأشكال المصنوعة المتكلفة بل نراه يعبر عن صدق إحساس ، وعن شخصية ، شخصية الفارس التى ظهرت فى كثير من شعر الحب عند شعراء الفرسان أمثال عنترة والحمدانى أبى فراس . قوة فى الحرب وضعفاً أمام جمال المرأة وأنوثتها إلا أنه ضعف إرادى ، ولا يكون ضعف حيلة وعبث ، ولا تطلباً لرغبة ومتعة بضرب من التذلل والأذعان . لكنه ضعف إنسانى من فارس مقاتل جرىء فى الحرب ضعيف فى الحب .

وفى غزله أحيانا نلتقى بتحصره على ذهاب العمر ، وذهاب متع الحب بذهاب الشباب . ويغلب هذا على غزله فى مراحل الهرم .

ومن شعره الجيد فى الغزل قوله^(١) :

أما فى الهوى حاكمٌ يعدلُ	ولا من يكف ولا يعدلُ
ولا من يفلُ أسارى الغرامِ ،	والوجد من ثقل ما حُمِلوا
ولا منصفٌ عالمٌ أنه	إذا قال بالظن يستجهلُ
إذا هو لم يدْرِ ما يلتقى	أخو الوجد من دائه يسألُ
ليعلم أن سَهَامَ الغرامِ	قبل إصابتها تقبَّلُ

مساكينُ أهلُ الهوى ما لهم	مُجيرٌ ، ولا لهم مؤئلُ
قتيلهم ما له وإسرُ	ومظلومهم أبداً يُخلدُ
وإعلانهم للهوى فاضحُ	قتولٌ ، وكتائبهم أقبِلُ
وإن جَحَلُوا الحبَّ خوفَ الوشا	إِ أقَرْتُ به أدمعُ تَهْمِلُ

إلى أن يقول :

بنفسى مُستَهترٌ بالصُّلو	د ، حَاَزَ الجمال ، ولا يَجْمَلُ
--------------------------	----------------------------------

(١) ديوانه ص ٣٤ .

جنونى به أند رائد
بخيل على مقنتى بالثرقا
وماضى غرامى مستقبل
د، ونست عليه بها أبخل

ويقول مظهراً آثار العمر في علاقة الحب وكان بلغ السبعين (١) :

سُبْحَانَ باري سهام من الواحظه
إذا رُمِينَ فَمَا دُونَ الْقُلُوبِ وَإِنْ
كانت وليل الصبي تُخْفِي دِجَارُهُ
أُعْصِي النَّصِيحَةَ فِيهَا غَيْرَ مُعْتَذِرٍ
وَأَحْمِلِ الضَّغْنَ فِي وَجْدِي بِهَا وَأَرَى
حتى إذا نادى السبعون حسب من
من الملاحه، لا من أسهم القرب
حُرْمَنَ مِنْ جُنَّتِي تَحِيْمِي وَلَا حُجُبِي
عَنِّي سَبِيلَ التَّهَيُّ، وَالرُّشْدَ مِنْ أَرْبِي
وَأَرْكَبُ الْغَىَّ عَمْدًا، غَيْرَ مُتَثَبٍ
خَمَلِ الْهَوَى مِنْ وَقَارِ الْجِلْمِ أَجْدَرُ بِي
تعليل قلبك بالآمال والكذب

لقد شعر الرجل بأن الحب وأحلامه وآلامه، وتعذيبه، ولذته وآثامه كل أولئك قد انصرف عنه وهو يخطو في السبعين، فعاد يسترجع ذكرياته، ويعود بخياله بعد أن عصته قدراته إلى مجالى الصبا ونشاطه.

وهو الفارس المحارب، المصارع للأسود، لا يخشى بأسها، ويهاب الحبيب :

وكذا الصبُّ فَمَحْسُنُ الْجَوْرِ فِي الْحُبِّ
لا يهابُ الْأَسْوَدَ فِي حُومَةِ الْحَبِّ
ويجأزى عن النفار من الأحبا
يا مليح القوام عَطْفًا فَقَدْ يَعْطُ
لَكَ قَلْبٌ أَقْسَى عَلَيْنَا مِنَ الصَّبِّ
وَيُحَكِّمُ الْعَيْلُو تَحَكُّمُ الْحَا
بُ لديه، ويعذبُ التعذيبُ
رَبِّ، ويقتاده الغزال الرقيبُ
بِ بِالْقَرَبِ إِنْ ذَا الْعَجِيبُ
فَ مِنْ لَيْنِهِ الْقَضِيبُ الرُّطِيبُ
سِرِّ، وما هكذا تكون القلوبُ
ظَلَّكَ فِي قَلْبِنَا، وَأَنْتَ الْحَبِيبُ !!

ومع ميله إلى التجديد في حديث الغزل إلا أنه لا يفلت كما أشرنا من الصيغ المتداولة في خطاب الغزلين من سبق من الشعراء، والآلفاظ والتشبيهات هي هي أحياناً. يقول :

غصنٌ ودعصٌ، فالغصنُ من
شمسٍ وليلٍ، فاعجب لشمس ضحى
هَيْفَ يَمِيسُ لَيْنًا، وَالْدَّعْصُ مَرْتَجٌ
تُشْرِفُ، وَاللَّيْلُ رَاكِدٌ يَذْجُو

رحيق ريق عذب، فقى كيدى منه سعيّر، وفي فبى تلج
في وجهها كعبة الجمال للغب سبي إلى حُسن وجهها حج

فالمفردات هنا معروفة ، متكررة ، ولكن في الصياغة والتركيب ، يبدو
خارجاً على المألوف في قوالب التشبيه ، وفي تشبيهه في البيت الرابع عوداً إلى
تشبيهات في المعنى مررنا بها عند بعض شعراء مصر في القرن الماضي . وما
يتصرف فيه تصرفاً حسناً من قوالب التعبير التقليدية قوله :

نفسى فذت بذر تمام، إذا عاتبنى بالجد أو بالمزاح
سذت بالتقيل فاه على يسلك وذر، وعقيق وراخ

كذلك قوله :

مهفّف صحت على سقمها جفوته فهي مراض صبحا
لطرفه فتكة ييض الظبا وقدو هزة سمر الرياح
شمس نهار ترتدى بالدجى غصن برّاح، فوق ردف رداخ
طاف علينا والدجى راكدا يظلنا من جُنْحَه بالجناخ

ويقول ويذكرنا بأبيات سبقت لقيم بن المعز (١) :

عقال الحى أم سربُ المها سحا أفسدن ما كان بالسُلوان قد صلحا
برزن كالباي في الكثبان حاملة شمساً أضاعت، وليلاً راكداً جناحا
فاقتدن بالحب من أعطى مقادته طوعاً، ورُضن بحسن الدل من جمعا
من كل غيداء بكسالى إذا انتهت تنفست عن نسيم الرّوضي إذ نفحا
كانت منى النفس لولا وأعظ بسن للشيب أسمعني، ناهيه إذ نصحا

فقاموس الغزل المعروف من أسماء وأفعال تتردد ها هنا بصورة أو بأخرى ،
ويصوغها كما أشرنا صياغة يتنوع ويتفوّق فيها ، كفعل المحدثين الحضريين .

ولكن آثار الصنعة، والتقليد في غزل أسامة لا يقللان من صدق أحاسيسه
وبخاصة عندما يتطرق للفرقة والهجران ، والرحيل ، كأن يقول :

(١) يقول غيم : « أسرب منها عن أم سرب جنة » .

حَتَّى تَمَ أَرْغَبُ فِي مَوَدَّةِ زَاهِدٍ
وَالْإِمَ التَّزِمَ الْوَفَاءَ لِفَاضِلٍ
وَعَلَامَ أَعْمَلُ فِكْرَتِي فِي سَادِرٍ
وَأَرَوْضُ نَفْسِي فِي رِضَا مُتَجَرِّمٍ
وَأَقُولُ هَجْرَتُهُ مَخَافَةً كَاشِحٍ
وَأُظَنُّ يُنْدِي الصُّلُودَ ضَرُورَةً
مَنْ لِي بِنَيْلِ مَوَدَّةٍ مَمْنُوقَةٍ
أَرْضَى بِبَاطِلِهَا ، وَأَقْعَ بِالْمُنَى
يَا ظَالِمًا أَفْتَى اصْطِبَارِي هَجْرُهُ
كَيْفَ السَّيْلُ إِلَى وَصَالِكَ بَعْدَمَا
وَيَلُومُنِي فِي حَمَلِ ظَلَمِكَ جَاهِلٌ

وَأَرُومُ قَرَبَ الدَّارِ مِنْ مَتَاعِدِ
وَأَقْرُ بِالْعَتَبِي لَجَانِ جَاحِدِ
سَاهٍ ، وَأَسْهَرُ مُقْلَتِي لِرَاقِدِ
فَإِنَّتَ مَوَدَّتُهُ طِلَابُ النَّاشِدِ
يُقْرِى بِنَا ، وَحِذَارُ وَاشِ حَاسِدِ
فَإِذَا قَطِيعَتُهُ قَطِيعَةً عَامِدِ
مَنْهُ يُبْهِرُجَهَا اخْتِبَارُ النَّاقِدِ
مِنْهَا ، وَأُدْفَعُ غِيَبَهَا بِالشَّاهِدِ
وَابْتَرُ ثَوْبَ تَمَاسُكِي وَتَجَالِدِي
عَفِيتَ بِالْهَجْرَانِ سَبِيلَ مَقَاصِدِي
يَلْقَى جَوَى قَلْبِي بِقَلْبٍ بَارِدِ

هذا الخطاب الحوارى ، يحاور فيه نفسه ، ومحبوبه فى الهوى وما يلقاه ،
والحبيب وما يعامله به من جفاء ، وهجران ، فيه رقة ، وعذوبة ، وخروج
على النمط السردى فى الصياغة ، وفيه من المعانى والتجديد ما فيه ، كما لا يحرمه
من ملححة البديع ، وحليته ، فيأتى شية حسنة تزين الحديث ، فيكسب التقابل
والطباق معانيه حلوة ، كما يكسبها الجنس جرساً ، والأبنية المتقابلة ايضاً
محبياً

ولأسامة فى شعره الغزل تفنن فى الجرس والإيقاع يكسبه مذاقاً خاصاً وتراه
يتبع غيره من شعراء العصر فى هذا الوزن والجرس الذى يسود فيه صوت التون
برئاته وأثاته ، وكأنه وترٌ يحركُ ، أو رَقِي يُدَقُّ . يقول (١) :

مُحِبًّا مَا أَرَى أَمْ يَدْرُ دَجَنٍ
وَتَغَرُّ أَمْ سَنَانُ رَكْبُوهُ
وَأَيْنَ مِنَ الظُّبَا الْحَاطِ ظَنِي

وَبَارِقَ مَبْسِمْ أَمْ يَرْقَ مُزِنٍ
بِأَسْمَرٍ مِنْ بَنَاتِ الْحُطَا لَذِنٍ
تَتَابَى عَنْ سُلُوى بِالْثَنَنِ

فِيَا مَنْ مِنْهُ قَلْبِي فِي سَعِيرٍ
حَبَاكَ هَذَا مِنْ مَنَى مُحْضٍ وَدٍّ

وَعَيْنِي مِنْهُ فِي جَنَابِ عَذِنٍ
تَنْزَرُهُ عَنْ مُدَاجَاةٍ وَضِغْنٍ

(١) ديوانه ص ٤٦ .

ومن مفردات معانيه في الغزل التي أكثر منها حديث الطيف ، وخيال
المحبوبة فهو يشارك سابقيه البحترى والتهامى في هذا الحدث . يقول (١) :

يا ويحه من جوى يغدو عليه ومن جوى يروح ، إذا ليل الموم دجا
أفدى خيالاً سرى ليلاً فاشرقت الدنيا بأنواره ، والصبح ما انبلجا
عجبت منه تخطي الهول معترضاً أرض العدى ووشاة الحى ، كيف نجأ ؟
وقوله (٢) :

لا غرو أن هجر الخيال الزائر ما يستزير الطيف طرف ساهر
دون الكرى خطرات هم ذذته عن ناظري فهو النوار النافر
لا سورة الصباء تصرفه ولا يلهى فؤادي حين يطرق سائر
ومن مفرداته قبله الوداع ، وهى من معانى الغزل عند تميم . يقول أسامة :

نفسى الفداء لمن قبلته عجلأ والئين يعجب من وجدى ومن عجلأ
فمال عنى بفيه ثم عرض لى تحدا جرى فيه ماء الحسنى والحجل
فأخضلت أدمعى توريد وجنته فزاد إشراق ذاك الورد بالعلل
فارتاع من حر أنفاسى وحرقة أحشائى ، ونهى فاه العذب بالقبل
ورابه ما رأى من روعتى ، فبكى وقال : لا كان ذا توديع مرنجل

وتحدث الشعراء من قبل عن دمة الفراق التي تسقط على الخد ، وافتتوا فيها
ونذكر أقوالاً في ذلك لأبى تمام والمتنبى خاصة ، إلا أن صياغة هذين الشاعرين
بما فيها من رصانة وجزالة بناء ، قللت من رقة الحديث ، وإن اكسبت الكلام
روعة كأن يقول المتنبى :

في الخد أن عزم الخليط رجيلاً مطر تزيد به الخلود محولا
أو قوله :

وقد صارت الأجفان قرحى من البكا وصار بهاراً فى الخلود الشقائق
ويقول أبو تمام :

(١) ديوانه ص ٥٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٦٨ .

وأجرى لها الاشفاق دمعاً مورداً من الدّم يَجْرِي فوق خدّ مورّد

وقوله المشهور :

أظن دموعها ستنُ الفريد لها من لوعةِ البين التدام
وهي نيلكاهُ من نحرٍ وجيد يُعيدُ بنفسجاً ورْدَ الخلودِ

ومعانيه وصوره في رحلة الحبيب تقليدية في إطارها العام ، وإن غير في التعبير وتراكيب اللفظ . كأن يقول :

سأروا بقلْب أسيرهم بَعْدَهم مُتَلَدِّدٌ، فهو المقيمُ السائرُ
غاضتْ دموعي في المنازلِ وارَعوى صبري، وراجعتني الرقادُ النَّافِرُ

ومنها خطاب المطي (١) :

يا ناقَ شطّط دارهم فجنّني ما أرزمتَ وهنّا لِفَقْدِ إلّها
وأعْلِنِي الوجودَ الذي تُجنّني لا عَج شوقي وذكْرَتُ يَحْدِنِي
تذكرتُ أَلْفَها فَهَيَّجَتْ فقد شجاني حُزْنُها وحُزْنِي
أبكني اشتياقاً، وتحنُّ وحشةُ حسبك قد طالَ الأئينُ والأسَى
ولا تملّئي من تسييرٍ وسُرّي حتى تُتأخّني تحت بانّاتِ الجمي

ومن معانيه التقليدية الوقوف بالديار :

فاضت دموعي في المنازلِ وارَعوى صبري، وراجعتني الرقادُ النَّافِرُ
إن لم أسعَ بها سحائب أدمعَ ينجابُ خشيتها الغمامُ الباكِرُ
أَحْمَلُ الإطلالَ مِنّةً عارضٍ وسحابُ دمعى مستهلّ ماطرُ
إني إذا بشؤونٍ ذمّعي بائِلٍ وبعهد من سكن المنازلِ غادرُ

فالمضمون تقليدي لكن التشكيل بتصرف من الشاعر ، وقد أدخل هذا التشكيل اللفظي على المعنى عناصر مستحدثة ، وإن ظلّ المعنى الأساسي قائماً .

(١) ديوانه ص ١٠١ .

ويصور رحلة الطعائين عن البيوت فيحور في المعاني التقليدية والصياغات التي توارد عليها الشعراء فيقول (١) :

هذا وقوفك للوداع وهذه
فاستبقي دمعك فهو أول خاذل
مدد الدموع يقل من أمد التوى
ليت المطايا ما تخلقن فكم دم
ما مات صبب إثر إلف نازح
فلو استطعت أبحث سيفي سوقها
لو أن كل العبي ناقة صالح
ما حتف أنفسنا سواها إنها
أطعان من تهوى، وتلك دياره
بعد الفراق، وإن طما تياره
إن لم يكن من لجة تماره
سفكته يثقل غيرها أوزاره
وجذابه إلا لذيها ثاره
حتى يعاف دماءه غراره
ما ساعى أنى الغداة قداره (٢)
لهي الحمام أتيح أو إنذاره

ونرى كيف دار مع المعنى العمودي أو الأساس دورة ، نأى بها عن صورته الأولى التي ترددت في أشعار السابقين ، والتي تقصد إلى المباشرة في السرد . أو هو حاول التجديد في العرض مع الحفاظ على نواة المعنى .

وهكذا كان كثير من المحدثين في القرنين السابقين الرابع والخامس ممن لم يتخلصوا تماماً من أسر المعاني الشعرية التقليدية .

وندع هذا الحديث عن المنازل والرحيل أو الأطلعان ، والبكاء على البيوت ، أو البكاء للفراق من الشاعر أو صاحبه ، ندع هذا إلى ما وظفه الشاعر من عناصر الأحياء والجماد كالطير لمعانيه الغزلية ، أو معاني النسيب ونعرف أن من أثر الطير الحمام ، نجاه الشعراء وحاوروه بأسمائه ، من مطوقة وهديل .. وهذا صاحبنا يذكر بكاء الحمام لبكائه :

تبكى لأثيك الحمام ، وطالما
هَاجَ الجوى لأخى الهوى تُعْرِيدُه
ويقول (٣) :

بالوعتا لطائر ناج على
أظفهُ فارق الأفا، كما
غصن فأغرى بالآسى من قدا
فَارَقْتُ، أو كما وَجَدْتُ وَجداً

(١) ديوانه ص ٧٠ .

(٢) قلز هو اسم الرجل من عمود الذي عقر الناقة .

(٣) ديوانه ص ٦٧ .

أدمى جراحاتٍ بقلبي للنوى
لكن يهيج للحزين به
وما عَلِمْتُ ناح حُزناً أم شدا
إذا رأى على الحنين مُسْعِداً
ويقول (١) :

وهاج لي الشوق القديم حمامة
دعت شجوها مُخزنة لم تفيض لها
على غصن في غيضة يترنم
دُمُوعٌ ففاضت أدمعى مَزُجها دُمُ
ووجدت لها إن كنت خنساء لوعة
ويقول وقد دعاها ورقاء :

ويهيئني بعد اندمال صبابتي
عجماء تنطق بالحنين ولم يهج
ورقاء ماد بها قضيب مورق
شوق القلوب كأعجمي ينطق
في ما بها لكن كتمت، وأعلنت
ودمُوعها حُبست ودمعى مُطلق
ومن عناصره التعبيرية من الطبيعة « البرق » . في نار الجوى ، والمطر
للدمع :

وإذا السحاب سرى فنارُ بُروقهِ
من زَفَرَتِي ومياهه من أدمعى
شعر المارك والجهاد :

وقد استغرق كثيرا من قوله ، وغلب على ديوانه ، ويدخل فيه مديح قادة
عصره وفرسانه من أبلوا بلاء حسنا في جهاد الصليبيين من أمثال العادل بن
رزيك ، ونور الدين محمود ، ومعين الدين أنر .

وفي مديحه لهؤلاء القادة يشيد بمحاربتهم للفرنج ، ومواجهة قادة الصليبيين
وفرسانهم من استتارية ودأوية ، ونتائج المارك من أسر لبعضهم أو قتلهم
البعض الآخر واستشهاد جند المسلمين وبعض قادتهم في سبيل الله ، وما
سَيُجْزُونَ عليه من جنة النعيم في الآخرة .

من ذلك هذه القصيدة الميمية التي تجمع بين مديحه للصالح وفخره بنفسه
وأفعاله وجهاده . يقول فيها (٣) :

(١) يعنى الشاعرة الخنساء التي بكت أخاها صخرأ . وتميم بن نيرة الذي اشتهر بكاء أخيه مالك .
(٢) ديوانه ص ١٩٥ .

للصالح الملك الميمون طائره

يقول فيه :

مغامرٌ ترهبُ الآجالَ سَطَوته
يستقبلُ الحربَ بساماً، وقد كَشَرَتْ
يلقى الألفَ، ويحبوها، ففي يده
ما غرَّكم بصدوقِ الظنِّ يخبرُهُ الرّ
يرى الضَّعَّائينَ في قلبِ الحُسودِ له
فإن سَطَا عن يقين، أو عفا كرمًا
أدناكمُ فاعتليتمُ عن ذوى رَحِمِ
وعنكم سيبُ جودٍ منه ثَبَّةُ الحُمُولِ
كم غَمَّةٍ كَشَفَتْ عنكم صوارمُهُ
لولاهُ ما زالَ عنكم طَلَّةُ أبدأ
يا مالِكا مالِكا رَفِيَّ بَأْنَعِيهِ
ما الشُّكْرُ كَفَاءٌ لما أوليتَ من نَعَمِ
وإن أكن كزهرٍ في الثناء، فقد
وإن تكن مدحى وفقاً عليك فلا
ففى يمينك مَنى صارمٌ نَحِيمِ
في حده حتفٌ من ناداك وهو لمن
فمرُّ بما شئتَ مِنى، تلقى ممثلاً
مَجْرَباً طاعنى التجريبِ مُحْتَبِرِ
فبدلَ نفسى عندى فى رُضَاكَ فلا
صرفتُ صرفَ الليالى دُونَ غَشَمِهِمْ
وأوصلتُهُم بصلاتٍ من نَدَاكَ إلى

بحيده طوق من غير مُتَقَصِمِ

وتفرق الأسدُ منه فى حِمى الأجمِ
بها المنيَّةُ عن أنيابها الأرمِ (١)
من العطا والسَّطَا بحرا نَدَى وَدَمِ
أى الصَّحِيحِ بما فى الصِّدِّ من سَقَمِ
تدبُّ مثلَ ديبِ النارِ فى الفَحِمِ
فإنه خيرُ ذى عَفْوٍ ومُنْتَقِمِ
وحاطكم فاعتديتمُ منه فى حَرَمِ
منكم، وأغنى كل ذى عَدَمِ
ولم يزلَ كاشفَ اللّأواءِ والغَمِّ (٢)
عَلِمْتُمْ كيف تَأْتى فجأةُ النِّقَمِ
وملكٌ مثلُ لا يَتَناعُ بالقيَمِ
وإن تسهَّلَ لى مُسْتَوْعِرُ الكَلِمِ
عَلَوْتُ مجداً، وجوداً عن مدى هَرَمِ
تظنُّ أن ثنائى مُنتهى هَمَمِ
يَفْرِى إذا كلَّ الصَّارِمِ الخَلِمِ
والاك منبجسٌ بالباردِ الشَّيَمِ
بِهَمَّةٍ ما اعتوزتُها فترةُ الهِمَمِ
إن التجاربَ تجلو شبهةَ التَّهَمِ
حُرْمَتُهُ، بعضُ ما أتوينا من خِدَمِ سِى
أو كَفَّ بأسُك عنهم كَفَّ مُهْتَضِمِ
أرضِ الشَّامِ، لقد أغربت فى الكَرَمِ

وفى هذه الآيات يعدد أسامة ما اسدى إليه صديقه ابن رزيك من الأيادى
وكان أتمها عنده وأستأها حفاظه على أسرته بعد فراره ، وحمايتها وأمواله من

(١) الأرم : الفاتكة للمهلكة .

(٢) اللأواء : الشقة .

أن يبطش بها أعداؤه من اتباع قصر خلافة الذين تهموه بالاشتراك مع عباس وابنه ، وإرساله أهله وولده مع ما له إليه في مركب إلى الشام .

ويعصف رسائله الشعرية والنثرية التي بعث بها إليه فيقول :

لله درُّ طروس ضُمَّنْتَ دُرَّراً
أضحَّتْ على مفرق تاجاً وفي عُتْقِي
لفظ أرق من الشكوى والطف من
جرَّتْ لَطَائِفُهُ في قلب سامِعِهِ
فصاحبة تُسَمِّعُ من كان ذا صَمَمٍ
ووشى خَطَّ حكي زهر الربيع وَشَتَّ
أكرمَ بمشتر منها ومُنْتَظِمٍ
تيممة من عوادي الخطيب والعديم
عُتْبَى ، وأشهى من الإبلال في الأليم
مُجَرَّي الهوى من فؤاد الغارم السليم (١)
وحسن معنى أفاد الفهم ذا اللميم
أكامه عن بديع اللفظ والحكم

ومما كتبه مجابوا للصالح في قصيدته الطويلة :

أبى الله إلا أن يدين لنا الدهر ويخدمنا في ملكنا العز والنصر
وذكر فيها وقائعه وسراياه إلى الافرنج وتسييره الجيوش ، فاطلع عليها العادل نور الدين محمود ، وطلب إليه — إلى أسامة أن يجاوبه مبيناً ما شارك به في حرب الصليبيين فكتب يقول :

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر
ونخدمنا الأيام فيما نرؤمه
وتخضع أعناق الملوك لعزنا
بحيث حللنا الأمن من كل حادث
بطاعتنا لله أصبح طوعنا الآ
فأيماننا في السلم سحْب مواهب
قضت في بني الدنيا قضاء زمانها
وما في ملوك المسلمين مجاهد
جعلنا الجهاد همّاً واشتغلنا
دماء العدا أشهى من الراح عندنا
لتحيّا بنا الدنيا، ويفتخر العصر
ويتقاد طوعاً في أزمتنا الدهر
ويُرهبها منا على بعدنا الذكر
وفي سائر الآفاق من بأسنا دَعْر
نأم، فما يُغصّي لنا فيهم أمر
وفي الحرب سحْب وبلهْن دَمَ همر
فسير بها شطر، وسيء بها شطر
سيوانا، فما يشيه حر ولا قر (٢)
ولم يُلْهِنَا عنه السماع ولا الخمر
ووقع المواضي فيهم النأي والورث

(١) السليم : المهموم .

(٢) ينقل هنا على لسان نور الدين محمود .

ثَوَاصِلُهُمْ وَصَلَ الْخَيْبَ وَهُمْ عَدَا
وَفِي سَجَنَاتِهِنَّ الْفَتَى خَيْرٌ مُلُوكِهِمْ
أَسْرَانَهُ مِنْ جِصْنِ الْعَرِيمَةِ رَاغِمًا
وَسَلَّ عَنْهُمْ الرَّادِي بِإِقْلَيسٍ إِنَّهُ
هُمْ انْتَشَرُوا فِيهِ لَرْدَ رَعِيلِنَا
وَنَحْنُ أَسْرُنَا الْجُوسَلِينَ وَلَمْ يَكُنْ
وَكَانَ يَظُنُّ الْغُرَّ أَنَّا نَبِيْعُهُ
فَلَمَّا اسْتَبَجْنَا مُلْكَهُ وَبِلَادَهُ
كَحَلْنَاهُ نَبِيْعِي الْأَجَرَ فِي فَعْلِنَا بِهِ
وَنَحْنُ كَسْرُنَا الْبَغْتَوِينَ^(١) وَمَا لِمَنْ
فَسَلَّهُ اللَّعِينُ الْخَائِنَ الَّذِي
وَقَدْ ضَاغَتْ الدُّنْيَا عَلَيْهِ بِرُخْبِهَا
أَفَى غَدْرِهِ بِالْخَيْلِ بَعْدًا يَمِينِهِ
دَعَتْهُ إِلَى نَكْثِ الْيَمِينِ وَغَدْرِهِ
وَقَدْ كَانَ لَوْنُ الْخَيْلِ شَتَّى فَأَصْبَحَتْ
ثَوَهُمْ عَجَزًا حَلَمْنَا وَأَنَاثْنَا
فَلَمَّا تَمَادَى غِيَهُ وَضَلَالُهُ
وَسَرْنَا إِلَيْهِ حِينَ هَابَ لِقَاءُنَا
وَتَبَيَّرَ حَشَايَانَا السُّرُوجَ وَقَمَصْنَا
تَرَى الْأَرْضَ مِثْلَ الْأَفْقِ وَهِيَ نَجْوَاهُ
وَهُمْ الْمُلُوكُ الْبَيْضُ وَالسُّمُرُ كَالْدُمَى
صَوَارِمُنَا حَمْرُ الْمَضَارِبِ مِنْ دَمٍ
نَسِيرُ إِلَى الْأَعْدَاءِ وَالطَّيْرِ فَوْقَنَا
فَبَاسٌ يَذُوبُ الصَّخْرُ مِنْ حَرِّ نَارِهِ
وَجَيْشٌ إِذَا لَاقُوا الْعَدُوَّ ظَنَنْتَهُمْ
تَرَى كُلَّ شَهْمٍ فِي الْوَعْيِ مِثْلَ سَهْمِهِ
هُمْ الْأَسَدُ مِنْ بَيْضِ الصَّوَارِمِ وَالْقَتَا

(١) هُوَ بَلْدُونٌ أَحَدُ مُلُوكِ بَيْتِ الْمُقَدَّسِ الصَّلَاحِيِّينَ .

(٢) يَقْصِدُ بِالْأَدَمِ وَالْعَفْرِ الظُّبَاةَ وَهِيَ مِنْ صِيْدِ الْأَسَدِ .

زَيَارَتُهُمْ يَنْحَطُّ عَنَا بِهَا الْوُزْرُ
وَلَا يَكُنْ خَيْرٌ لَدَيْهِمْ وَلَا يَرْ
وَقَدْ قَتَلْتُ فَرَسَانَهُ فَهُمْ جَزُرُ
إِلَى الْيَوْمِ فِيهِ مِنْ دِمَائِهِمْ غَدْرُ
فَمَنْ ثَرَبَهُ يَوْمَ الْمَعَادِ لَهُمْ تَشْرُ
لِيُخْشَى مِنَ الْآيَاتِ نَائِبَةٌ تَعْرِو
بِمَالٍ، وَكَمْ ظَنُّ بِهِ يَهْلِكُ الْغُرُّ
وَلَمْ يَتَّقِ مَالٌ يَسْتَبَاحُ وَلَا تَعْرِ
وَفِي مِثْلِ مَا قَدْ تَأَلَّهَ يُحَرِّزُ الْأَجَرَ
كَسْرُنَاهُ إِبْلَالٌ يُرْجَى وَلَا خَيْرُ
لَهُ الْغَدْرُ دَيْنٌ: مَا بِهِ صَنَعَ الْغَدْرُ،
فَلَمْ يَنْجِهِ بَرٌّ، وَلَمْ يَخْجِهِ بَخْرُ
بِإِنْجِيلِهِ نَيْسِنَ الْأَنَامِ لَهُ غَدْرُ
بِذَمِّهِ النَّفْسُ الْخَنَاسِيَّةَ وَالْمَكْرُ
تَعَاذُ إِلَيْنَا وَهِيَ مِنْ دَمِهِمْ حُمْرُ
وَمَا الْعَجْزُ إِلَّا مَا أَقَى الْجَاهِلُ الْغُرَّ
وَلَمْ يَشْهَدْ عَنْ جَهْلِهِ التَّهْيُّ وَالزُّجْرُ
وَبَانَ لَهُ مِنْ بَاسِنَا الْبُؤْسُ وَالشَّرُّ
الدَّرُوعُ، وَمَنْصُوبُ الْخِيَامِ لَنَا قَصْرُ
وَلَا حَسَدَتْهَا عِزُّهَا الْأَنْجُمُ الزُّهْرُ
وَهَمَّتْنَا الْبَيْضُ الصَّوَارِمُ وَالسُّمُرُ
قَوَائِمُهَا مِنْ جُودِنَا تَضْرِبَةُ خُضْرُ
لَهَا الْقُوَّةُ مِنْ أَعْدَائِنَا، وَلَنَا النُّصْرُ
وَلَطَفٌ لَهُ بِالْمَاءِ يَنْبَجِسُ الصَّخْرُ
أَسْوَدَ الشَّرِّ عَنَّتْ لَهَا الْأَدَمُ وَالْعَفْرُ^(٢)
نَقُودًا، فَمَا يَشْبِيهِ خَوْفٌ وَلَا كَثْرُ
لَهُمْ فِي الْوَعْيِ النَّابُ الْحَدِيدَةُ وَالظَّفَرُ

يرون لهم في القتل لحدا فكيف باللقـ
إذا نُسبوا كانوا جميعا بنى أب
يظنون أن الكفر عصيان أمرنا
لنا منهم إقدامهم وولاؤهم
بنا أيّد الإسلام، وازداد عِزّة
قتلنا الرئيس حين سار بجهله
ولم يبقَ إلا من أسرتنا وكيف بالبقـ
فولّى يبارى عاترات سيّهمنا
وتخلّى لنا فرسانه ونحائمه
وما تنثنى عنه أسنة خيلنا
إلى أن يزور الجوسلين مساهمنا
وترتجع القدس المطهر منهم
إذا استغلقت شُم الحصون فعندنا
وإن بلد عزّ الملوك مرأته
وأضحى عليه للسهم وللظبا
بنا استرجع الله البلاد وأمن العباد،
فتحتا الرهاحين استباح عدائنا
جعلنا طلالا لفرسان أغماد يعضنا
ونحن افتتحنا تلّ باشير بعدها
أتى ساكنوها بالمفاتيح طاعة
وما كلّ ملكٍ قادرٌ ذو مهابة
وتلّ عزازٍ صبحته جيوشنا
وملنا إلى برج الرصاص (١) وإنه
وأضحت لانطاكية حارم شجى
وحصن كفرلاتنا، وهاب، تدانيا
وفي حصن باسوطا، وقورص ذلت الصعـ
وفامية والبارة استنقذتها

(١) مكان بالشام .

(٢) لأنوق : العقاب طير جارح .

(٣) يقصد بالفرع الدلو ، والفرع منزل من منازل القبر هو والدلو .

سواء لقوم قتلهم عندهم عُمُر
فقطعنهم شُرر وضربهم هَبَر
فما عندهم يوما لإنعامنا كفر
ومنا لهم إكرامهم والندى العُمُر
ودلّ لنا من بعد عزّته الكفر
تحفّ به الفرسان والعسكر المجر
سواء لمن أختت عليه الظبا البتر
وفي سمنه من وقع أسيفنا وقر
فشطّر له قتل، وشطّر له أسر
ولو طار في أفق السماء به التسر
له في دياج، ما لليلتها فجر
فلم يبق منها في ممالكهم شبر
مفاتيحهابيض مضاربها خمر
ورُمناه، ذلّ الصعب واستسهل الوغر
ووقع المذاكي الرعد والبرق والقطر
فلا خوف عليهم ولا قهر
جماها، وسنى ملكها لهم الخثر
وملكنّا أبكارها الفتكة البكر
وقد عجزت عنه الأكاسرة العر
إلينا، ومسرهم إلى بابنا شهر
ولا كلّ ساج يستتب له الأمر
فلم تحمه عنه الرجال ولا الجدر
لكا لسدّ، لكن الرصاص له قطر
وفيها لها والساكنين بها حصر
لنا، وذراها لأنوق به وكُر (٢)
لناهمة من دونها الفرع والعفر (٣)

ويمضى في ذكر المواقع التي نازل فيها زنكى وأبناؤه والعدل نور الدين
خاصة الفرنج وأجلاهم عن أرض الشام التي ملكوها عنوة . حتى يقول :

رددنا على أهل الشام رباعهم وأملأهم ، فارتاح عنها بها الفقر
وجاءتهم من بعد بأس وفاقه وقد مسهم من فقدوها البؤس والضّر
ومر عليها الدهر والكفر حاكم عليها ، وعمر من بعده عمر
فنالهم من عودها الخير والغنى كما نالنا من ردها الأجر والشكر

فهذه ملحمة من ملاحم الإسلام الكبرى صاغها الشاعر الفارس مشيداً
بأعمال نور الدين زنكى على لسان ابنه المجاهد نور الدين ليرد على طلائع اتهامه
بأنه يهادن الصليبيين وهم لا يؤمنون على ذمة ولا هدنة .

والقصيدة طويلة تظهر تمكن أسامة وشاعريته ، وقد اختار لها إيقاعاً متدفقاً
حماسياً ، جعل رؤية الرائء المضمومة وسنّادها السكون ، فتجاوبت القافية
صوتاً مع إيقاع الأبيات الحماسي .

وهذه الملحمة تسجيل شعري لكثير من معارك الشام المشهورة التي خاضها
عماد الدين زنكى وأبناؤه لتحرير الشام من مستعمرات الصليبيين ، وقلاعهم
وحصونهم المنيعه ، التي استقروا بها وضائقوا المسلمين ردحاً من الزمان .
وكان أول ما حرّر على ما نعرف الرها وتلتها أماكن كثيرة .

هذه أمثلة من شعره في الفخر ووصف المعارك تتكرر في ديوانه وتستغرق
جانباً من شعره الذي اختاره لنا . ويمثل هذا الشعر مع رصيفه من شعر طلائع
جانباً مشرقاً من شعر الجهاد الإسلامي في القرن السادس .

شعره في الغربة والاعتراب :

ومن جيد شعره ما قاله في الغربة والاعتراب ، وقد عرفنا أنه تنقل من بلده
وجاب بلاد الجزيرة والشام ومصر . ويقول من قصيدة له في التشوق إلى مصر
بعد غربته عنها وقد قضى فيها ما يقرب من عشر سنين (١) :

ما هاج هذا الشوق غير الذكر وزورة الطيف سرى من مصر
من بعد طول جفوة وهجر كم خاض بحراً وفلاً كبخر

(١) ديوانه ص ١٧ .

حتى أتى طلائعاً في قفر
حتى اغتدين كهلال الشهر
كانه مُهَنَّد ذو أنبر
للجدي سبغى، لا لكسب الزفر
ما كان إلا غرة في الدهر
وغاية المنية أم عمرو !
بعيدة القرط، هضم الحضر
تفعل بالآل باب فعل الخمر
كأنه لآل في نحس
تنفست عن مثل رياء الزهر

نجويه الليل خليف الذعر
قد أنطوين من سرى وضمر
يعملن كل ماجد كالصقر
بعيد مهوى همة وذكر
وهاً له من زمن وعمر
إذ الصبا عند التصالي غلري
غراء أبهى من ليالي البدر
أحسن من شمس بغب قطر
تبسم عن مثل نظيم الدر
إذا انثنت قبل نهوض الفجر

ويقول في نشوقه إلى طلائع واصدقائه بمصر (١) :

عن العيش والأيام لا تبعدوا سُخْطَ
غريق بحار ما للجتها شَطْ
جوى الشوق لولا أن تداركه الضبط
إياب، فقد طال التفرق والشحط
لكل فراق من مدامعه قسَطْ

أيا ساكني مصر رضانا لبعدم
إذا عن ذكراكم ظلمت كأنني
والزيم كفى صدغ قلب أطاره
فهل لي إليكم أو لكم بعد بُعْدكم
أراكم على بعد الديار بناظر

ويقول للصالح (٢) :

حتى غدت بين داريتنا نوى قدف
بل من ثدائي، وعنه القلب منصرف
لم تصقب الدار، لكن أصقب الكلف
وأبعد البعد بين الجيرة الشنف
أن ليس لي عوض عنكم ولا خلف
يعوضني من نفيس الجوهر الصدف
كل الورى لرزايا دهرهم هدف
رأت قوايدي من روعاتها يجف

رأى الحسود تداني ودنا فسقى
وما البعيد الذي تنأى الديار به
أجيرة القلب، والفسطاط دارهم
أوفى التداني الهوى، والدار نازحة
فارقتكم مكرها، والقلب يخبرني
ولو تعوضني الدنيا غيث وهل
ولسبت أنكر ما يأتي الزمان به
كم فاجأتني الليالي بالخطوب فما

(١) ديوانه ص ٨٠ .

(٢) ديوانه ص ٨٥ .

واسترجعت ما أغارث من مواهبها فما هفا بي على اثاره اللهنف
وما أسيفت لأمر فات مطلبه لكن لفرقة من فارقه الأسف
ويشتاق لأصدقائه بالقاهرة والفسطاط غير طلائع ، مثل القاضي الرشيد بن
الزبير وأخيه المهذب .

وعند ذهابه لمصر يتشوق إلى صديقه وجاره بالموصل نقيب الطالبيين
فيقول (١) :

ضياء الدين، ما شوق دغانى	فأسمعني بمصر من العراق
بمحدود فأشرحه ولا في	قوى الأقلام تسطير اشتياقي
ولكنني سأرجعه وأرجو	مشافهتي به، عند التلاقي
إذا ما كنت جارك ذا اشتياقي	إليك فكيف لي بعد الفراق

وكان القاضي الرشيد كتب إليه من مصر مشتاقا أياتا يقول في أولها :

أحبابنا ما مصر بعدكم مصر	ولكنها فقر، إليكم بها فقر
وإن تخل يوماً بقعة من شخوصكم	فلم يخل يوماً من مودتكم صدر

فكتب إليه ابن منقذ (٢) :

تذكره أحبابه الأنجم الزهر	فياويحه ماذا به صنع الذكر
هم مثلها: بعداً، ونورا، ورفعاً	ولكن لها، إذ شبت بهم الفقر
وقد كنت أشكوهم في دثوهم	فمن لي لو دام الثداني لا الهجر
سقى مصر جود الصالح الملك إنه	هو الوايل المحيي البرية لا القطر
ففيها كرام أسعروا بجوانحي	يبعدهم جراً، به يحرق الجمر
ومن عادتي الصبر الجميل وليس لي	علي بعدهم لا در در الثوى صبر
إذا ما أمين الدين عن اذكاره	ذهلت كأتى خامرت لبي الخمر
يذكرني الفاضلون، وإن غدوا	جداول إن قيسوا به، وهو البحر
إذا حضر النادى فرضوى رجاجة	وإن قال فالثر المنظم والسخر
ويعجبنى منه تدفق عليه	وأعجب منه كيف يجمعه صدر

(١) ديوانه ص ١٣٥ .

(٢) ديوانه ص ١٢١ .

تَنَاءَتْ بِنَا الدَّارَانِ وَالْوَدَّ مَصْفَتْ
كَأَنَّ اللَّيَالِي إِذْ قَضَتْ بِمِرْقَانَا
أَحُلَّ بِهَا إِنْ غَابَ عَنْهَا وَإِنْ أَغْبَى
فَلَيْتَ تَلَاقَيْنَا وَلَوْ بَعْضُ سَاعَةٍ
لَأَحْظَى بِرُؤْيَاهُ، وَأَشْكُرُ مَنْتَهُ .
فَلِلْقَرَبِ شَطْرٌ، وَالْبَعَادُ لَهُ شَطْرٌ
فَضَى جُوزُهَا أَنْ لَيْسَ تَجْمَعُنَا مَصْرٌ
يَحُلُّ بِهَا، فَاعْجَبْ لِمَا صَنَعَ الدَّهْرُ
يَتِمُّ وَشَيْكَاً قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ الْعَمْرُ
وَلِنْ لَمْ يَقُمْ عَنِّي بِوَاجِبِهِ الشُّكْرُ

ترى متى كان هذا الحلول بمصر ولم ير فيه القاضي الرشيد ؟. أظنه كان في عودته التي أشار إليها على بن ظافر سنة ٥٥٢ هـ ، ولعلها كانت زيارة عاجلة لم يبق فيها ابن منقذ طويلاً ، ولا نتصور أن يكون حديثه عن مدة إقامته بمصر التي زادت على عشر سنين ، فإنه لاشك تعرف في اثرائها بالرشيد ، ودامت بينهما صداقة ، وقد يكون تعرفهما بأسوان أيام كان بها طلائع أو بالقاهرة أو القسطنطينة قبل تولي طلائع الوزارة .

وله من أمثال هذا الشعر الذي يشترك فيه الأصدقاء مقطعات ، وقصائد بالديوان ومنها اشتياقه لابنه مرهف^(١) . وأبيه^(٢) وفد حديثه إليه إشارة إلى ضيقه بالمقام في شيزر ، وأنه هاجر منها لأنه لم يطق المقام لما لقي من عمه وبعض أهله المقربين . يقول :

لَا تَلْزِمْنِي بِالْهَوَانِ وَحَلِيهِ
دَعْنِي وَقَطْعَ الْأَرْضِ ذَوْنَ مَعَاشِرِ
تَغْلِي عَلَيَّ صُدُورَهُمْ مِنْ غِيْظِهِمْ
تَعْنِي إِذَا نَظَرُوا إِلَيَّ عِيُونُهُمْ
قَدْ أَفْسَلُوا عَيْشِي عَلَيَّ وَعَيْشَهُمْ
فَاسْمَحْ بِبَعْدِي عَنْهُمْ بِرِضَاكَ لِي
فَلَعَلَّ بَعْضَ الْعَمْرِ، وَهُوَ أَقَلُّهُ
فَضَّلَ الْأَقَارِبَ وَدَّهْمَ وَحَنُوهُمْ
إِنْ أَحْتَالِ الْهُونُ ثِقَلُ مُرْهَقِ
كَلَّ عَلَيَّ لَغَيْرِ جَزْمٍ مُحْتَقِ
فَتَكَادُ مِنْ غِيْظٍ عَلَيَّ تُحْرِقُ
حَتَّى كَأَنَّ الشَّمْسَ دُونِي تُشْرِقُ
فَأَنَا الشَّقِيُّ بِهِمْ، وَبِي أَيْضاً شَقُوا
إِنْ الَّذِي تَرْضَى عَلَيْهِ مُوَفَّقُ
أَلَا يُكَلِّرُ بِالْهُمُومِ، وَيُمَدِّقُ
فَإِذَا جَفَوْنِي، فَالْأَبَاعِدُ أَرْفَقُ

وكتب إليه متشوقاً وعاتباً ومعتزلاً لسماع أبيه أقوال أقرائه فيه . يقول :

أَمَّا كِفَاهُمْ تَوَى دَارِي وَبَعْدَكَ عَنْ
عَيْنِي، وَفِرْقَةَ إِخْوَانِ الصَّبَا الصَّدُوقِ

(١) ديوانه ص ١٢٤ .

(٢) ديوانه ص ١٢٦ .

وموضعي منك لا تسمو الوشاة له
وإنما قاله جاءت، فضاق لها
كذبتها، ثم ناجتني الظنون، بأن
والده من غربته عديدة ضمنها تلك المعاني التي أوردنا أمثلة
منها فيما عرضنا من قوله .

وكذا الحال فيما كتب إلى أشقائه .

وكتب إلى الأمير معين الدين أثر يعتذر عن فراقه له ومغادرته دمشق وهي
القصيدة التي حاذى فيها المتنبي ، وضمن بعض شعره من مثل قوله :
وأنت أغدِل من يُشكى إليه ، ولِ شَكِيَّة ، أت فيها الخصم والحكم
وقوله منها :

وما ظننتك تنسى حق معرفتي إن المعارف في أهل النهى ذمم
وقوله :

لكن ثقاتك مازالوا بغشهم حتى استوت عندك الأنوار والظلم
لقد أشرنا من قبل أن ظل المتنبي ألقى بجرانه على شعراء مصر والشام من
بعده وطول القرون التالية .

ولم يكن تأثر ابن منقذ بالمتنبي وحده ، ولكنه تأثر بجماعة غيره من الشعراء
العباسيين والأمويين ، ويحظى ابن الرومي بجانب من بين هؤلاء حظوة المتنبي ،
ربما لاتفاق الحال بين الشاعرين ، والإحساس بالظلم ، ومطاردة الدنيا له ،
وضيق العيش ، ومن يقرأ قصيدته في طلائع التي يقول فيها (١) :

عَرَفْتُ لَامِيعَ السُّرَابِ وَهَذَا الْبَحْرُ دُونِي عَذْبُ الْمِيَاهِ شَرِبْتُ
سَرْتُ ابْتَقَرِيءَ الْمُحَوَّلِ ، وَفِي أَرْ ضِي مَزَعِي عَيْنِ وَوَادٍ قَشِيبُ
وَسِحَابٍ مِنْهُ تَعَلَّمْتُ السُّحْبُ ، وَإِنْ لَمْ تُشَبِّهْ كَيْفَ تَصُوبُ

يدرك مدى تأثره بابن الرومي ببائية مشهورة طويلة (٢) كتأثره بالمتنبي في

(١) ديوانه ص ١٦٢ .

(٢) راجع ديوان ابن الرومي .

ميميته السابقة . وهو ينعى في القصيدة سوءَ حظه بضياح ثروته في البحر في طريقها من مصر بعد أن نهبا الصليبيون :

أذهب تالدى ، وطارق الطار
ىء فضاء الموروث والمكسوب
فهو شطران بين مصر وبحر
ذا غريق فىء ، وذا منهوب

وابن منقذ كما قلنا واسع الاطلاع على الشعر العربى قديمه وحديثه واسع الاطلاع على فنون الأدب واللغة ، وعلى التاريخ وعلوم الدين . تشهد له كتبه التى غرقت بالبحر ، ويشهد له عكوفه على الاطلاع والتحصيل وقد هرمت سنه لكنه لم يكف عن القراءة والتأليف فى حصن كيفا قبل عودته إلى دمشق للقاء صلاح الدين فى أخريات عمره .

ويوظف معارفه وثقافته فى شعره ، فترى استعانه بالقرآن والحديث والسيرة والتاريخ . وترى استعانه بمبانى وألفاظ كثير من الشعراء ممن حفظ لهم أو وقف على دواوينهم فعلمت ذاكرته ببعض منها .

وابن منقذ بعد هذا شاعر متدفق الشاعرية ، لا يميل إلى التكلف فى الصنعة ، وقد ترد فى اثناء أبياته أصباغ بديعية من جناس ومقابلة وكناية وتشبيه واستعارة ومقابلة ، ولكنه لا يتكلفها ، بل تراها ترد طواعية تؤدى دورها فى سياق الكلام .

وفى شعره تدفق عاطفى إذا ما اتصل أو تأثر بموقف تراه يهدر كالسيل فتطول قصائده ، وتجرى الألفاظ منطلقة كيفما اتفق لتعبر عن المعنى بأقصر السبل دون تثقيب أو تعمد تحسين أو انتخاب . ونحن هذا ما نجد فى بعض لفظه من الغريب أحيانا ، وعدم الاختيار أو الانتقاء أحيانا ، والخروج عن أصول البناء والتركيب أحيانا أخرى . .

وبعد فهو شاعر ثرى الشعر ، ثرى العاطفة ، ثرى فى حياته وأحداثها ترى فى مؤلفاته ، ولا تفى بالإحاطة بكل جوانبه هذه الصفحات ، ويكفيها هذه المحاولة للتعريف به وبقنه .

—٣—

القاضي الرشيد بن الزبير^(١)

(ت ٥٦٩ هـ)

من العصابة الصالحية ، شاعر مصري صميم من الصعيد ، أسوانى المولد والنشأة . من أسرة عريقة تنتمى إلى غسان اليمنية التى حكم بعض ملوكها الشام قبل الإسلام من قبل روم بيزنطة . وإن كان الأدفوى أرجعها إلى قريش .

وقد استقرت أسيرة الزبير فى أسوان منذ زمن ، وسواء أكان أصلها فرشياً أو غسانياً ، فإنها كانت ذات مكانة ، وظهر فيها جماعة من الأفاضل كان من أشهرهم آل الزبير أجداد الرشيد والمهذب أخوه وأباؤهما .

وكانت أسوان قصبة الجنوب ، تزدهر بمكانها بوابة مصر الجنوبية ، وموطناً لبعض عائلاتها العريقة كالكنوز ، والزبيريين هؤلاء ، كما نشأ بها جماعة من العلماء ، ووفد إليها آخرون .

وتولى أحد أجداد الرشيد حكم قوص ، واسمه القاضي إبراهيم بن محمد بن الحسين . تولى سنة ٤٧٢ هـ ، ورثاه الشعراء .

وكان والد الرشيد والمهذب عالماً فاضلاً هو على بن إبراهيم ، تزوج أخت ابن الخلال فأنجبت الشاعرين . ترجم له الأدفوى فى الطالع ، ونسب إليه شعراً ، وقال إنه كان شاعراً فاضلاً رئيساً . وهكذا نشأ والده أحمد ، الملقب بالرشيد ، وأخوه المهذب شاعرين .

وتنقل القاضي الرشيد فى مناصب الدولة ، وذهب إلى القاهرة ، فالتحق بقصر الخلافة وعمل فيه كأحد موظفيه ولقب « سيد الدولة » فضلاً عن القاضي ، ولم يكن الرشيد ذا سمعة معجب ، ولا مظهر حسن ، فقد كان أسمر الوجه قصيراً دميماً . لا يهتم بلباسه .

(١) راجع فى ترجمته الخريدة للعماد ١/ ٢٠٠ ، شعراء مصر ، معجم الأدباء لياقوت ٤/ ٥١ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٧٥ ، طبع إحسان عباس ، والطالع السعيد للأدفوى ، وشرفات الذهب ٤/ ١٩٧ .

روى أنه دخل مصر بعد مقتل الظافر وتولى الفائز ، وعليه أطمأزنة
وطيلسان صوف ، فحضر مأتم المقتول ، وأنشد شعراً في رثائه يقول في أوله :
ما للرياض تميل سكرًا هل سقيت بالمزن خمرًا^(١)
حتى بلغ قوله :

أفكر بلاءً بالعرا ق ، وكربلاء بمصر أخرى
فدرفت العيون ، وضج القوم بالبكاء ، وأنهالت عليه الهبات من رجال
القصر ونشأته . ويبدو أنه نال حظوة في القصر ، ودار الوزارة التي تولاها بعد
طلائع ، وكان هو وأخوه من نجوم مجلسه .
والثقة القصر والخلافة به عين في وظيفة هامة ، ثم تُدب لسفارة باليمن .
وبقى هناك زمناً ، وحدثت بينه وأحد دعاة الإسماعيلية جفوة ، ويبدو أن
القصر الفاطمي بعث بالقاضي الرشيد للدعوة أو الهداية ، وقال شاعر يمني
فيه :

بعثت لنا علم المهتدين ولكنه علم أسود
وفيه تعريض بالرشيد لسواد وجهه .

وقيل إنه سجن باليمن بسبب هذا الخلاف المذكور ، فبعث إليه أخوه
المهذب من مصر أياتاً يبيكه « سميت النواحة » ، وفيها يطلب من داعي الدعوة
هناك أن يعفو عنه ويطلق سراحه . يقول المهذب في هذه الأيات :

ياربع أين ترى الأحبة يَمُمُوا هل أنجدوا من بعدها أم أنهموا

ما كان بعد أخى الذى فارقت
هو ذاك لم يملك غلاة مالك
أقوت معانيه ، وغطّل ربه
ورمت به الأهوال همة ماجد
يا راحلاً بالمجد عنا والغلا
يقديك قوم كنت واسط عقدم
ليوح إلا بالشكاية لى فم
كلاً ، ولا وحدى عليه متيم
ولربما هجر العرين الضيغم
كالسيف يمضى عزمه ويصم
أترى يكون لكم إلينا مقدم
ما إن لهم مذ غبت شمل ينظم

(١) قال العماد إنها في مدح طلائع .

ورد عليه الرشيد بقوله :

رَحَلُوا فلا خَلَّتْ المنازلُ مِنْهُمْ ونَاوَا، فلا سَلَّتْ الجوانحُ عَنْهُمْ

يقول معرضاً بالشكوى وبما يقاسيه من مرارة :

ونزلت مقهورَ الفؤادِ ببلدةٍ
في مَعَشَرٍ خَلِقُوا شُخُوصَ بهائمٍ
إن كورمُوا لم يكرمُوا، أو عُلِمُوا
لا تنفُقُ الآدابُ عندهم ولا الد
صُمَّ عن المعروفِ حتَّى يسمعوا
فالله يُغْنِي عَنْهُمْ، ويزيدُ في
قَلَّ الصديقُ بها وَقَلَّ الدرهمُ
يَصْنَدُ بها فِكْرُ اللبيبِ وبينهم
لم يَعْلَمُوا، أو حُوطِبُوا لم يفهمُوا
إحسانَ يُعرفُ في كثيرٍ مِنْهُمْ
هُجَرَ الكلامُ فيقدموا ويُقدِّمُوا
زُهْدِي بهم، ويفكُّ أسرى مِنْهُمْ

ويذكر ياقوت أنه بلغ باليمن درجة قاضي القضاة ، وأنه طمح إلى رتبة الإمامة وربما كان هذا ما أحسَّ به أهل اليمن وأعيانهم وفي مقدمتهم داعي الدعاة هناك فدرس له عند الخليفة الناطمي بعد أن حبسه . وذلك بأن بعث إليه بأبيات من الشعر رغم أنها للرشيد ينوه بالقحطانيين ، ويعرض بالمصريين .
تقول :

لئن أُجِدِّبْتُ أرضُ الصعيدِ وأقحطوا
ومدَّ كِفْلْتُ لِي مُارِبٌ بِمَارِي
وإنْ جَهَلْتُ حَقِّي زَعَانِفٌ خَنْدِفُ
وأرضُ قحطانٍ هِيَ أرضُ اليمنِ وهدانُ قبيلةِ يمنية ، وأما خندف فهي مُضَرٌ وإليها تنسب قريش والفاطميون .

ولم يطل سجنه باليمن ، فقد سعى طلائع بن رزّيك إلى فكِّ أسره ، وعاد إلى مصر بعد عامين والتحق بالوزير ومجلسه ، ولزمه هو وأخوه المهذب ، وشاركوا جماعة من أعيان المصريين والوافدين من الشام وغيرها . شاركوا القاضي الجليس بن الحباب ، والشاعر ابن قادوس ، والشاعر عمارة اليمنى ، والشاعر أسامة بن منقذ .

وتبادل الرسائل مع أسامة بعد سفره إلى الشام يتشوق أحدهما إلى الآخر . وظلَّ يرأسه زمنا . ومن رسائله الشعرية إليه قوله :

آحبابنا ما مصرُ بعدكمُ مصرُ ولكنها قفرٌ ، إليكم بها قفر
رحلتم فعادَ الدهرُ ليلاً بأسره وليس له إلا بأوتكم فجرُ
تُرى فاضَ ما ألقى من الهمِّ والآسى لبعدكمُ ، فاسودَّ من صبغِه الدهرُ
وكيف ألوم الليلَ إن طال بعدكم وقد غاب عني منكمُ الشمسُ والبدرُ

ونظن أن علاقة الرشيد وأسامة بدأت قبل لقائهما في مجلس طلائع ،
ولعلهما لم يلتقيا في المجلس إلا بعد أن توثقت صلتهما ، ونعلم أن الرشيد عمل
بالقصر زمنا وكذلك كان ابن منقذ مقرباً من الحافظ قبل تولى الفائز ومقتله
على يد عباس وابنه .

ومن رد ابن منقذ على الرشيد نعلم أنه يشكره على ما أسدى إليه من يد
وهو في دمشق بعيداً عن مصر حيث يقول أسامة :

وكيف أشكر من أسدى إليّ يداً سرّث سري الطيف من مصر وإلى الشام
رأى مكاني على بعدى وقد عشيث عني غيونا أخلأني وأيامي
محافظاً لعهودي حين أفردني ظلي ، وأعرض عني ظيف أخلأني
ولعل لهذه اليد صلة بما خلفه أسامة بمصر من مال وولد . فربما ساعد
الرشيد في انقاذها والحفاظ عليها من المتربصين به بعد مغادرته مصر هارباً .
وربما سعى مع الوزير الصالح طلائع في إنقاذ المال والأهل على المركب إلى
الشام .

وأشار عمارة اليمنى في النكت^(١) إلى من لقبه في مجلس طلائع من كبار
القوم ، والشعراء ومن بينهم الرشيد وأخوه المهذب .

وبعد مقتل طلائع ، وتولى ابنه من بعده لفترة قصيرة اغتصب بعدها
الوزارة شاور ، ثم ناوله ضرغام ، وحدث ما حدث من أحداث وتدخل نور
الدين محمود والصليبيين ، ووفودهما إلى مصر أكثر من مرة لم يستقر الأمر
للرشيد .

ويبدو أن الرشيد ذهب إلى الاسكندرية متولياً إحدى الوظائف هناك ،
وظل بها ، واتصل بالحافظ السلفي عالم الاسكندرية وأخذ عنه .. وساعد

(١) النكت العصرية ص

صلاح الدين عند حلوله بالاسكندرية وحصار شاور والفرنج له حتى صمد للحصار مما احفظ شاور ، وكان ذلك داعياً للانتقام منه . وهكذا انتهت حياة الرشيد بمقتله سنة ٥٦٢ هـ أو سنة ٥٦٣ هـ . ويقال إنه تشيع ، ويؤكد ذلك سفرته إلى اليمن ، ودعوته ، فلعله كان داعية إسماعيليا .

وقد أشار مؤرخوه بفضله وعلمه . قال العماد : « كان ذا علم غزير ، وفضل كثير » . وله رسالة « منية الأملعي ، وبلغه المدعى » وهي مطبوعة وتدل على معرفته بالفقه والنحو واللغة والانساب ، والمنطق والمهنية والموسيقى والطب^(١) .

قال العماد عن هذه الرسالة : « وله الرسالة التي أودعها من كل علم مشكله ومن كل فن أفضله » .

وما بقي من شعره نزر يسير ، بعضه مما قاله في مجلس طائع ، والآخر في الفخر والشكوى ، والمديح ، والهجاء .

فمما قاله في مدح الاغتراب^(٢) :

فإنَّ التَّدَانِي رُبَّمَا أَحَدَتْ الْقَلْبَى
فإني رأيت السهم ما زاد بُعْدَهُ
ولن يستفيد البدرُ أكمل نُورِهِ
وإنَّ التَّنَائِي رُبَّمَا زَادَ فِي الْوُدِّ
عن القوسِ الأَزِيدِ في الشُّكْرِ وَالْحَمْدِ
من الشَّمْسِ إِلَّا وَهُوَ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ

وقال في الشكوى^(٣) ؛ والفخر :

جلت لدى الرزايا، بل جلّت، هنمسي
عبرى يغيره عن حُسنِ شيمته
لو كانت النَّارُ للياقوتٍ مُحْرِقَةً
لا تُغَرِّزَنَ بأطماري وقيمته
ولا تطنُّ خفاءَ النجم من صغره
وهل يَضُرُّ جلاءُ الصَّايِمِ الذِّكْرِ
صَرَفَ الزَّمانِ، وما يَأْتِي من الْغَيْرِ
لَكَانَ . يَشْتَبِهُ الْيَاقُوتُ بِالْحَجَرِ
فإنما هي أصداف على دُرِّ
فَالذَّنْبُ فِي ذَاكَ مَحْمُولٌ عَلَى الْبَقْرِ

(١) الخريدة ١/ ٢٠٠ .

(٢) الطالع السعيد ، ص ١٠١ .

(٣) وفيات الأعيان ١/ ١٦٢ .

ويقول في الغربة :

ولما تناءت أرضنا وديارنا
كفانا معالي كل أمر أهمنا
وأزلنا من ربعة الرّحب حسنه
لنعم الدرّى يلقى به الجار رحبه
فكّنا كأننا نازلون بأهلنا
ولم تثنأ أوطان علينا وأوطار

ومما قاله في التشوق إلى صاحب نأى ؛ وهو ابن قلاقس^(١) ، ويرد فيها على قصيدة بعث بها إليه :

يا مغرمًا بنفيس الدرّ يجمعه
أضحى ينافسنى في قربه زمنى
ولا أقول دنت منى منازلّه
كذلك الدرّ فى الأصدايف محتجب
إن غاب بدر سماء المجد عن نظرى
يذوب قلبى من وجد ومن أسف
ومولعًا بجميل البرّ يصنعه
فما يجود به إلا ويمنعه
إلا غدا وكبعد النّجم موضعه
حينًا ، وحينًا على تاج يرصعه
ففى فؤادى أفق منه مطلعّه
شوقًا إليه ، وقد حازته أضلعه

ومن قصيدته التى أجاب بها أخاه وهو محبوس باليمن ، يشكو فيها ما يعانيه هناك — وقد أوردنا منها أبياتا . قال :

رحلوا فلا تحلت المنازل منهم
وسرّوا ، وقد كتموا العداة مسيرهم
وتبدّلوا أرض العقيق عن الحمى
نزلوا العذيب ، وإنما فى مهجتي
ونأوا فلا سلّت الجوانح عنهم
وضياء نور الشمس مالا يكتّم
ردّت جفونى أى أرض بمّموا
نزلوا ، وفى قلب المتيمّ خيموا

وما وصل إلينا من شعر يسير للرّشيد لا يمكننا من التعرف على صنّعه . ونكتفى بحكم السابقين عليه والذين وصفوه بأنه أقل شاعرية من أخيه المذهب^(٢) . قال العماد عن المذهب : « وهو أشعر من أخيه ، وأعرف بصنّاعته وإحكام معانيه » .

(١) شعر الرّشيد والمذهب ، ص ١١١ .

(٢) راجع الخريدة ١٠٤/١ .

ويبدو أن اشتغال الرشيد بالعلم وتأليف الكتب كان على حساب شاعريته .
وقد انجب ابناً شاعراً هو علي بن أحمد بن الزبير ، مدح السلطان صلاح
الدين^(١) .

(١) المصدر نفسه ١/ ٢٠٢، ٢٠٣ .

-٤-

المهذب بن الزبير^(١)

(ت سنة ٥٦١ هـ)

وهو أبو محمد الحسن بن علي ، شقيق الرشيد ، قال العماد : « هو أخو الرشيد . محكم الشعر كالبناء المشيد . وهو أشعر من أخيه ، وأعرف بصناعته وإحكام معانيه » . « ولم يكن في زمانه أشعر منه أحد . وله شعرٌ كثير ، ومحلٌ في الفضل أثير » . وهو وإن كان أشعر من أخيه إلا أن الرشيد كان أعلم منه في رأى المؤرخين .

ولم يذكر هؤلاء أى الأخوين كان أكبر ، وإن ظننا أن الرشيد هو الأكبر . أو لعلهما كانا توأمين ، لارتباطهما معاً في العاطفة ، وتشابههما في بناء الجسد والصورة فقد كان المهذب كذلك ضئيل الجسم أسمر اللون ، بوجهه دمامة . ولد المهذب بأسوان كأخيه ، وكانت له علاقة بأسرة الكنز المشهورة بها ، وربما كانت هذه العلاقة امتداداً لعلاقة أسرته .

وكان الكنوز من أمراء ربيعة ، أهل فتوة ومكارم ومدحين يقصدهم الشعراء من بلاد بعيدة على حد قول الأدقوى .

وكان المهذب ممن مدحهم بالشعر الكثير ، احتفظت لنا المصادر ببعضه في مدح كنز الدولة بن متوج يقول فيها :

بأى بلادٍ غير أرضى أنجيمُ .	وأى أناسٍ غير أهلي أيممُ
ورائى أرضٌ ما بها متأخرُ	أمامى أرضٌ ما بها مُتقدّمُ
فها أنا اختار النواء على الثوى	ويكرهه الرأى الذى هو أحزمُ

وقد تلقى علمه ، ونضج شعره ببلده ، ثم طمح إلى عاصمة البلاد ، ورمى ببصره وهمته إلى القاهرة والفسطاط علّه يجد هناك ما يأمله من مكانة لدى الوزراء وقصر الخليفة ، وأعيان الناس .

(١) راجع ترجمته في وفيات الأعيان ٦/ ٧٥ ، ومعجم الأدباء لياقوت ٩/ ٤٧ ، والطالع السعيد .

(٢) الخريدة ١/ ٢٠٤ .

وأراد أن يقصد بشعره هؤلاء ، وأول من قصده من الوزراء على ما وصلنا من خبره رضوان بن الولخشى (تولى الوزارة من سنة ٥٣١ إلى سنة ٥٣٣ هـ) . يقول فيه :

إذا قابلته ملوك البلا دِ خَرْتُ على الأرض تيجانها
ولله في أرضه جَنَّة بنصر ، ورضوان رِضوانها

واستغل اسم الممدوح ، ووظفه في معنى مديحه .

ولما قُتل ابن الولخشى بأمر الحافظ ، رثاه المهذب بقوله :

بِنَفْسِي من أبكى السماواتِ مَوْتُهُ بغَيْثِ ظَنَنَّاهُ نَوَالِ يَمِينِهِ
فَمَا استعبرت إِلَّا أَسَى وتَأْسُفًا وَإِلَّا فَمَاذَا الْقَطْرُ في غَيْرِ حِينِهِ
وكانت السماء قد أمطرت ساعة مقتله على غير موعد ، فاستغل الشاعر ذلك لتوظيفه في رثاء ممدوحه .

وإلى القاهرة يفد الشاعر أسامة بن منقذ ، فيلتقى المهذب هذا الخير بسرور فيصحبه زمناً ، ويبعث إلى أسامة أبياتاً في ذكر الديار ، ولعله بعث بها بعد النكبة التي أصابت أهله في شيزر عقب الزلزال ، فيكون ذلك بعد رحيل أسامة إلى الشام ، ووقوع الزلزال هناك سنة ٥٥٢ أو سنة ٥٥٣ هـ . حيث يقول :

آحبابنا مالى إذا ما ذكرتكم وما أناناس—غال صَبِيرى غول

يقول :

لئن أقفرت منا الديار ومنكم وأمست مَعَانِيهِنَّ وهى ظَلُول
فإن لنا فى آل منقذ أسوة يهونَ لديها الخطبُ وهو جَلِيل
نَبَتْ بهم أوطانهم فترحّلوا وللنجيد فى ذاك الرحيل رَحِيل

ولغة التعزية واضحة فى الآيات .

وللمهذب أبيات كثيرة ، بعث بها إلى ابن منقذ بعد رحيله إلى الشام تدل على ما كان بينهما من مودة وعلاقة وثيقة ، ونحس هذا كذلك فى أبيات أسامة التى جاوبه بها .

وقد تكون هذه العلاقة توثقت بعد وصول أسامة للقاهرة، وكان الأخوان الرشيد والمهذب قد استقروا بالقاهرة، وعمل الرشيد زمناً بقصر الخلافة على ما عرفنا . وفي هذا الوقت نفسه تعرفا على الوزير ابن السلار ، وطلّاع بن رزيك وعباس الصنهاجي .

ومنها مديحه لابن السلار ولقبه سيف الدولة بمناسبة نصرته على ابن مصل بمشاركة عباس وطلّاع في موقعة دلاص . يقول :

أبى الله إلا أن تعان وتُصْصِرَا	وتظفرَ حتى لقبوك المظفرا
وتصبح سيفاً مثل نعتك قاطعاً	مُحلى بأصناف الفخار مُجوهرَا
يرك حديد الهند أشرف قيمة	وأعظم آثاراً، وأكرم عُصْرَا

ودارت الأيام ، وتولى ابن رزيك الوزارة بعد الأحداث التي ذكرنا ، فأصبح المهذب من أقرب جلسائه إلى نفسه ، وقد ذكرنا أن تعارفهما ربما تم بالقاهرة ، ثم توثقت الصلة عند تولى ابن رزيك أسوار وقوص . وأصبح هو وأخوه الرشيد صاحبين ملازمين في دار الوزارة بالقاهرة والفسطاط .

تولى المهذب بعض الوظائف في الدولة ، ولقب بألقاب أصحاب تلك الوظائف على عادة ذلك العصر مثل القاضي ، وصفي الدين ، وعميد الدولة .

وأهله ثقافته ومكانته ، ومكانة أسرته لتولى هذه المناصب ، وبلوغ مكانة خاصة في دولة الفاطمية . وقد ساعد على ذلك شيعيته ، واعتناقه مذهب الإسماعيلية ، مذهب الخلفاء ، أو التشيع عامة دون التزام بالإسماعيلية . وقد وردت في شعره أقوال ترجح هذا الاعتقاد . منها ما ذكره العماد وعلق عليه مستكراً من مثل قوله في مديح ابن رزيك^(١) :

فلو يكون لهم أمثاله عُضْداً فيما مضى ما غدت مغصوبةً فداً

قال العماد : « لقد أبطل في هذا القول المؤتلف ، وغفل عن سير الشريعة في فداك وفضل ممدوحه على السلف في الشرف ، وأدّت به المبالغة في الضلال إلى السرف » . وابن العماد السنّي ساءه أن يذكر المهذب هذا الحدث معرضاً بأبي بكر وعمر . فإنه يشير إلى ما كان من رأى أبي بكر وعمر في أن فاطمة الزهراء لا ترث فداك التي تركها الرسول ﷺ — لقوله : نحن معشر الأنبياء (١) الخريدة — قسم شعراء مصر (ترجمته) .

لا نُورثُ ، ما تركناه صدقة . والشيعه يرون أن أبا بكر وعمر أخطأ ، وأنه كان ينبغي أن يتركها لفاطمة .

وتتردد اعتقادات الشيعة وأقوالهم كثيراً في شعره . كما قال في مدح الخليفة العاضد :

وَأَنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَذَكَرَهُ قَرِينَانِ لِلْآيِ الْمُنْزَلِ فِي الذِّكْرِ
لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ: تَلْقَوْنَ عِثْرَتِي مَعاً، وَكُتِبَ اللَّهُ فِي مَوْرِدِ: الْحَشْرِ
إِذَا مَا إِمَامَ الْحَشْرِ لَاحَ لِنَظَرِي فَوَا الْعَصْرَ إِنَّ الْجَاهِلِينَ لَفِي خُسْرِ

وهي تحكي ما يعتقد به الشيعة من قول النبي ﷺ : « إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا : الثقلين ، وأحدهما أكبر من الآخر ؛ كُتِبَ اللَّهُ ، حَبْلُ اللَّهِ الْمَمْدُودُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَعِثْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي ، إِلَّا أَنْهَمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا الْحَوْضَ » .

ومن ذلك قوله في الإمام علي رضي الله عنه :

أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَخَيْرَ مَلْجَأٍ يُسَارُّ إِلَى حِمَاةٍ ، وَخَيْرُ حَامٍ
كَأَنِّي إِنْ جَعَلْتُ إِلَيْكَ قَصْدِي قَصَدْتُ الرُّكْنَ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ
وَنُحَيْلٌ لِي بِأَنِّي فِي مَقَامِي لَدَيْهِ بَيْنَ زَمَرٍ وَالْمَقَامِ

وقد يكون هذا التحمس للفكر الشيعي مما قر به من طلائع بن رزيك الذي عرف بتحمسه للمذهب علي ما ذكرنا . وسنرى أنه كان يدعو الشاعر عمارة اليمني إلى مذهبه وعمارة يتمسك بسنته شافعيًا ، ولا يرى ذلك مقللاً من حبه لابن رزيك وتقديره لماثر الفاطيين . وكان لسجايه الحميدة ما ساعده على حب الناس وتقديرهم له .

نجح إذا المهذب في بلوغ ما يريد ، وأصبح نجماً في سماء الدولة ، وظل كذلك حتى قتل صديقه ، الوزير ورجل الدولة القوي طلائع . بعدها تفرقت به السبل ، فلم يعد للمهذب بعد سنة ٥٥٩ هـ شأن ، وبخاصة بعد العادل ابن رزيك ، فلم يلبث شاور أن أودى به إلى الموت سنة ٥٦١ هـ .

شعره وشاعريته :

ذكر ابن خلكان أن شاعريته تفتحت أكامها وهو في السادسة والعشرين وخمسائة وربما كانت سنة آنذاك لم تتجاوز العشرين .
وقرظ شعره العماد ، وأشاد به قائلًا : لم يكن في زمانه أشعر منه أحد .
وكان معجباً بشعره ، يسأل عنه من يحفظه ، ويلق عليه بما يكشف عن وقوعه من نفسه موقعاً طيباً .

فمما علق به على لاميته التي اختار معظمها وهي قوله :

أَقْصِرْ فِدَيْتُكَ عَنْ لَوْمِي وَعَنْ عَذْلِي أَوْ لَا فَخَذْلِي أَمَانًا مِنْ ظَبَا الْمُقْلِ

« للشعراء المهذبين ، المذهبين المذهب على هذا الوزن المعجز المعجب قصائد فرائد ، قلائد ، وهذا مهذبٌ مُهَذَّبُهُمْ ، إذ هو وحيد العصر بجيد النظم والنثر » (١) . وكان لاجعابه به أثره في الإكثار من إختيارات شعره .

والحق أن المهذب بن الزبير هو أمير شعراء مصر في عصره ، لما أبدى من المقدرة الشعرية التي تجلت في أكثر من جانب من جوانب قوله الشعرى .
وشعره فيما يبدو كثير ، إلا أن ديوانه ضاع فيما ضاع من آثار الفاطميين ، ذلك إذا كان له ديوان مجموع .

وما وصلنا من شعرة يدور معظمه في موضوعات المدح والثناء والوصف والشكوى والتشوق والغزل . ولم يقل في الهجاء ترفعاً ، وصيانة للسانه من أن يخوض في الأعراض . اعترف بذلك في أبيات له وجهها إلى طلائع ، وقد أغرى بعض شعراء مجلسه به . يقول :

يا أيها الملك الذي أوصافه	غَرَّرَ تَجَلَّتْ فِي الزَّمانِ الأسْفَعِ
لا تطمِئُ الشعراءُ فيَّ فَإِنِّي	لَوْ شِئْتُ لَمْ أَجِئْ وَلَمْ أَتَحَشَّعْ
فليمسِكُوا عَنِّي ، فَلَوْلَا أَنِّي	أَبْقَى عَلَى عَرْضِي إِذَا لَمْ أَجْزَعْ

ولو أنه ناجى ضميري في الكرى	طَيْفَ الخيالِ بريئة لم أهْجِعْ
وإذا بدا لي الهُجْرُ لم أرَ شَخْصَه	وَإِذَا يُقَالُ لِي : لِحْنًا لَمْ أَسْمَعْ

(١) الخريدة ١ / ٢٠٨ .

وَالنَّاسُ قَدْ عَلِمُوا بِأَنِّي لَيْسَ لِي مَذَكَّتٌ فِي أَعْرَاضِهِمْ مِنْ مَطْمَعٍ

وظهرت خصائصه النفسية ، وملاخج همته في شعره ، فقد واجه في حياته ظروفاً متنوعة ، حيث قست عليه الحياة أحياناً ، ثم عادت فسالته ، وأرخت له الزمام ، وأغدقت . لكنها لم تلبث أن عاندته في أخريات حياته ، لهذا نجد في شعره الفرحه والثرحة ، الرضا والسعادة أحياناً ، والغضب والضيق والشكوى من الزمان وأهله أحياناً أخرى .

كان المهذب ذا نفس مرهفة ، وشاعرية صادقة ، فانعكس على شعره إحساسه بأحداث قومه وعصره ، وما رآه ، وما ابتلاه ، وعبر عنه بصورة تكشف عن تلك الرهافة النفسية والصدق الفني .

وكانت لثقافته ومحفوظه الكثير والمتنوع آثارها في صياغته ، وألفاظه وصوره ومعانيه على ما سنفصله بعد .

ونمثل على قدر ما يسمح المقام بما جدد من معاني الشعر ، وما قلدها على اختلاف موضوعاته .

ففي المدح يطرق المعاني المعهودة من صفات الممدوح بالكرم والشجاعة ويضيف بعض المعاني المتعلقة بمنصبه أو عمله ، وقد يعرض لنسبه كما فعل في مديحه لطلائع ، فقد أشاد بنسبه في غسان . ونذكر في هذا المقام انتساب آل الزبير إلى الغساسنة كذلك . يقول في نونيته :

أَعْلَمْتُ حِينَ تَجَاوَرِ الْحَيَّانِ أَنَّ الْقُلُوبَ مَوَاقِدَ النَّارِ
مَادِحاً طَلَائِعَ وَمَشِيداً بَرَقَائِعَهُ فِي الصَّلِيبِينَ بِالشَّامِ :

يَا كَاسِرَ الْأَصْنَامِ قُمْ فَانْهَضْ بِنَا
الشَّامَ مُلْكَكَ قَدْ وَرَثْتَ أَمْرَانِي
حَتَّى تَصِيرَ مُكْسَرِ الصُّلْبَانِ
عَنْ قَوْمِكَ الْمَاضِينَ مِنْ غَسَّانِ
فَإِذَا شَكَّكَتَ بِأَنَّهُا أَوْطَانُهُمْ
قَدِمَاً، فَسَلَّ عَنْ حَارِثِ الْجَوْلَانِ
أَوْرُمْتَ أَنْ تَتَلَوْا مَحَاسِنَ ذِكْرِهِمْ
فَاسْنَدِ رَوَايَتَهَا إِلَى حَسَّانِ

ويحسن في مديحه توظيف أسماء الممدوحين وألقابهم في سياق معانيه الشعرية كما أشرنا في مديحه لرضوان الوخشي ، وسيف الدين ابن السَّار وسيف الإسلام ابن رزيك ، ومنه قوله في مدحه :

كَأَنَّ فِي سَيْفِ سَيْفِ الدِّينِ مِنْ خَجَلٍ مِنْ عَزَمِهِ مَا بِهِ مِنْ حُمْرَةِ الْحَجَلِ
هُوَ الْحَسَامُ الَّذِي يَسْمُو بِحَامِلِهِ زَهْوًا فَيَفْتَكُ بِالْأَسْيَافِ وَالِدُولِ
إِذَا بَدَأَ عَارِيًّا مِنْ غَمَدِهِ تَخَلَّعَتْ غِمَدُ الدِّمَاءِ عَلَيْهِ هَامَةٌ الْبَطْلِ
إِذَا تَقَلَّدَ بِحِرًّا مِنْ أُنَامِلِهِ رَأَيْتَ كَيْفَ اقْتَرَانُ الرُّزْقِ بِالْأَجَلِ
مِنْ السَّيْفِ الَّتِي لَاحَتْ بِوَارِقِهَا فِي أَنْمَلٍ هِيَ سَجَبُ الْعَارِضِ الْهَاطِلِ

وهو في توظيف اسم الممدوح يجارى المتنبي أحياناً في توظيفه لاسم ممدوحه
سيف الدولة ابن حمدان .

ونلاحظ هنا إلمامه بمعنى من معاني البحترى في المديح بوصفه كفه في البطش
والعطاء بالبارق والسحاب .

كذلك توظيفه لبعض الأحداث كالزلازل الذي أصاب الشام وقت غزوات
ابن رزّيك هناك . يقول :

مَا زُلْزَلَتْ أَرْضُ الْعِدَا بِلْ ذَلِكَ مَا بَقْلُوبِ أَهْلِهَا مِنْ الْخَفَقَانِ
وَأَقُولُ إِنْ حُصُونَهُمْ سَجَدَتْ لِمَا أَوْتَيْتَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ سُلْطَانِ
وَالنَّاسُ أَوَّلَى بِالسَّجُودِ إِذَا غَدَا لِعَلَاكَ يَسْجُدُ شَائِعُ الْبِنْيَانِ

ويسمى علماء البديع هذا اللون من التعبير « حسن التعليل » . وهو أن
يغفل الشاعر العلة الأساسية للحدث ، ويأتى بعلة من عنده توافق سياق
معانيه ، وتدعم موضوع أبياته .

ويلجأ إلى الاشتقاق والتوليد على طريقة أئى تمام أحياناً ، وابن الزومى
أحياناً ، فيقول :

وَتَلَلْتُ فِي يَوْمِ الْعَرِيشِ عُروَشَهُمْ بِشَبَا ضَرَابِ صَادِقٍ وَطَعَانِ
الْجَائِئِمْ لِلْبَحْرِ لَمَّا أَنْ جَرَى مِنْهُ وَمِنْ دَمِهِمْ مَعَا بَحْرَانِ

ويلجأ إلى التضمين من شعر القدماء أو السابقين من محدثى الدولة العباسية
ومن بعدهم كأن يقول مضمناً بشعر لامرئ القيس والمتنبي . يقول :

مِنْ كُلِّ طَرَفٍ مَرِيضُ الطَّرَفِ تَشِيدُنَا أَلْحَاطُهُ « رَبِّ رَامٍ مِنْ بَنَى تَعْلٍ »
إِنْ كَانَ فِيهِ لَنَا ، وَهُوَ النَّسِيمُ شِفَاءً « فَرُبَّمَا صَحَّتْ الْأَجْسَامُ بِالْعِلَالِ »
وَكُلُّ يَبِضَاءٍ لَوْ مَسَّتْ أُنَامِلُهَا قَمِيصَ يُوسُفَ يَوْمًا قَدْ مِنْ قَبْلِ

وَنُورِدُ قَصِيدَتَهُ النَّلَامِيَّةَ الَّتِي أُعْجِبْتَ الْعِمَادَ مِثَالاً لِمُدِيحِهِ ، وَفِيهِ وَصَفَ
لِمَعَارِكِ طَلَائِعَ مَعَ الصَّلِيبِيِّينَ بِالشَّامِ . يَقُولُ :

أَقْصِرْ—فَدَيْتُكَ—عَنْ لَوْمِي وَعَنْ عَذْلِي أَوَّلَا فَخُذْ لِي أَمَانًا مِنْ يَدِ الْمَقَلِّ
مِنْ كُلِّ طَرْفٍ مَرِيضٍ الْجَفْنِ تَنْشِدُنَا الْحَاطِظُ « رَبِّ رَامٍ مِنْ بَنِي ثَعْلٍ »
إِنْ كَانَ فِيهِ لَنَا ، وَهُوَ السَّقِيمُ شِفَاً فَرَبَّمَا صَحَّتْ الْأَجْسَامُ بِالْعِلِّ
إِنَّ الَّذِي فِي جُفُونِ الْبَيْضِ إِذَا نَظَرْتُ نَظِيرٌ مَا فِي جُفُونِ الْبَيْضِ وَالْخِلِّ (١)
كَذَلِكَ لَمْ يَشْتَبِهْ فِي الْقَوْلِ لَفْظُهُمَا إِلَّا كَمَا اشْتَبَهَا فِي الْفَعْلِ وَالْعَمَلِ
وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى الْأَطْلَالِ أَحْسَنَهَا جِسْمِي الَّذِي بَعْدَ بُعْدِ الظَّاعِنِينَ بَلَى
أَبْكِي عَلَى الرَّسْمِ فِي رَسْمِ الدِّيَارِ فَهَلْ عَجِبْتُ مِنْ طَلَلِي يَبْكِي عَلَى طَلَلِ
وَكُلِّ بَيْضَاءَ لَوْ مَسَتْ أَنَا مِلْهَا قَمِيصَ يُوسُفَ يَوْمًا قَدْ مِنْ قَبْلِ
يُغْنِي عَنِ الدَّرِّ وَالْيَاقُوتِ مَبْسُومَهَا لِحْسِنِهَا ، فَلَهَا حَلَّى مِنَ الْعَطَلِ
بِالْحُلْدِ مَنَى نَارَ الذَّمُوعِ كَمَا لَهَا عَلَى الْخُلْدِ آثَارٌ مِنَ الْقَبْلِ
كَأَنَّ فِي سَيْفِ سَيْفِ الدِّينِ مِنْ خَجَلٍ مِنْ عَزَمِهِ مَا بِهِ مِنْ حَمْرَةِ الْخَجَلِ
هُوَ الْحُسَامُ الَّذِي يَسْمُو بِحَامِلِهِ زَهْوًا فَيَفْتِكُ بِالْأَسْيَافِ وَالِدُولِ
إِذَا بَدَأَ عَارِيًّا مِنْ غِمْدِهِ خَلَعَتْ غِمْدَ الدَّمَاءِ عَلَيْهِ هَامَةُ الْبَطَلِ
وَإِنْ تَقَلَّدَ بَحْرًا مِنْ أَثَامِلِهِ رَأَيْتَ كَيْفَ اقْتَرَانَ الرِّزْقُ بِالْأَجَلِ
مِنْ السُّيُوفِ الَّتِي لَاحَتْ بِوَارِقِهَا فِي أُنْمُلٍ هِيَ سُحْبُ الْعَارِضِ الْهَظَلِ
فَجَاءَنَا لَبَنِي رَزَيْكَ مَعْجَزُهَا بَايَةً لَمْ تَكُنْ فِي الْأَعْصَرِ الْأَوَّلِ
تَبْدُو شُمُوسًا هَمُّوْ أَقْمَارَهَا وَتَرَى شَهَبَ الْقَنَا فِي سَمَاءِ النَّقِيعِ لَمْ تُقَلِّ
قَدْ بَهَّارَتْ فِيهِمُ السُّمُرُ الرَّقَاقُ رَقَاقٌ الْبَيْضُ خَلْفَ سَجُوفِ النَّقِيعِ فِي الْكِكَلِ
إِنْ عَانَقُوا هَلِيبَهُ فِي يَوْمِ مَعْرَكَةٍ لَاحَتْ لَهُمْ بِلَظْطِي تِلْكَ كَالشُّعْلِ
وَقَدْ لَقُوا كُلَّ مَنْ غَارُوا بِمِشْبِهِ حَتَّى لَقُوا التُّجْلَ عِنْدَ الْعَرْضِ بِالنُّجْلِ
وَضَارَبَ الرُّومَ رُومٌ مِنْ سَيُوفِهِمْ وَطَاعَنَ الْعَرَبُ أَعْرَابٌ مِنَ الْأَسْلِ
وَهُوْهُمْ لِصَهِيلِ الْخَيْلِ تَحْتَ صَهِيلِ الْبَيْضِ مَا هَزَّ أَعْطَافَ الْقَنَا الْخَطْلِ (٢)
فَالْدَّمُ حَيَّرَ ، وَأَصْوَاتُ الْجِيَادِ لَهُمْ أَصْوَاتُ مَعْبَدٍ ، فِي الْأَهْزَاجِ وَالرَّمْلِ
وَالْخَيْلِ قَدْ أَطْرَبَتْهَا مِثْلَ مَا طَرَبُوا

(١) يقصد بالبيض السيوف ، والخليل أجفانها .

(٢) الحظلي : المضطرب .

من كلٍّ أجردَ مختالٍ بفارسيه
وكلٍّ سلَّهبةٍ للريجٍ نِسْبَتُها
أفارسَ المسلمينَ أسمعُ، فلا سمِعتُ
مقالَ ناءٍ غريبٍ الدارِ قد عدمَ الـ
يشكو مصائبَ أيامٍ قد اتَّسعتُ
يرجوكَ في دَفْعِها بعدَ الإلهِ، وقد
وكيفَ ألقى على الأيامِ مرزئةً
لولا هم كنتُ أَقْرِى الحادثاتِ إذا
وكيفَ أخلعُ ثوبَ الدَّلِّ حيثُ كِفِيلُ
فما تخافُ الرَّدَى نَفْسِي وكمَ رَضِيتُ
إني امرؤٌ قد قَتَلْتُ الدَّهْرَ مَعْرِفَةً
إن يروِ ماءُ الصِّبا عودى فقد عجمتُ
تجاوزتُ بى مَدَى الأشياخِ تجربتى
وأولَ العمرِ خَيْرٌ من أَوَاخِرِهِ
دُونِي الذى ظنُّ أنى دُونَهُ فَلَهُ
واليدُ تعظُمُ فى الأبصارِ صُورَتُهُ
ما أَضُرَّ شَعْرَى أنى ما سَبَقْتُ إلى
فإن مدحى لسيفِ الدينِ تاهَ بِهِ
واضح من البيتين الأخيرين فى القصيدة أن المهذب استدعى فى ذاكرته
قصيدة أبى الطيب التى ذكر مطلعها (١) :

أجابَ دمعى وما الداعى سِوَى طَلَلٍ دعا فلَّباةً قبلَ الرُّكْبِ والإيلِ
وكانت القصيدة فى ذهنه وهو ينظم قصيدته ، كذلك ربما استدعى مع أبى
الطيب لامية الطغرائى على الوزن والروى ، ومطلعها :
أصالةُ الرأى صالَتْنى من الحُطَلِ وزينةُ الخلمِ زائَتْنى لَدَى العَطَلِ

(١) ديوان أبى الطيب ، شرح البرقوق ١٩٨/٣ .

فأما قصيدة المتنبي فهي في مديح سيف الدولة، بعد أن نهض إليه، وخلع عليه، ويذكر فيها غاراته على الروم. وأما لامية الطغراني فكانت بعد أزمته وخروجه من الوزارة وعطله.

والمهذب يلم في قصيدته بمضمون قصيدتي الشاعرين الكبيرين السابقين، وقد ربط بينه وبينهما تشابه المواقف، والأحاسيس، وجارى الوزن والقافية.

وقصيدة المهذب لا تقل عن لاميتي الشاعرين صياغة ورصانة، وإبداع معاني، وصدق أحاسيس. وقد أجرى المهذب في قصيدته بعض ألفاظ القصيدتين، ومعانيهما. ولعله من أجل هذا ألمح العماد في تعليقه على القصيدة الذي سبق ذكره.

ومن فرائد المهذب في المديح ووصف المعارك، عن ذكر الأسطول المصري ووقائعه في ثغور الصليبيين بالشام قوله:

أَعْلِمْتُ حِينَ تَجَاوَرِ الْحَيَّانِ	أَنَّ الْقُلُوبَ مَوَاقِدُ الْخَيْرَانِ
وَعَرَفْتُ أَنَّ صُدُورَنَا قَدْ أَصْبَحَتْ	فِي الْقَوْمِ وَهَى مَرَايِضُ الْغَزَلَانِ
وَعْيُونُنَا عَوْضُ الْعَيُونِ أَمْدَهَا	مَا غَادَرُوا فِيهَا مِنَ الْغُدْرَانِ
مَا الْوَحْدُ هَزُّ قَبَائِهِمْ بَلْ هَزُّهَا	قَلْبِي عَشِيَّةٌ سَارَ فِي الْأَطْعَانِ
وَبِمَهْجَتِي قَمَرٌ إِذَا مَا لَاحَ لِلسَّ	أَرَى تَضَاعَلْ دَوْنَهُ الْقَمَرَانِ
قَدْ بَانَ لِلْعُشَّاقِ أَنَّ قِوَامَهُ	سَرَقَتْ شَمَائِلُهُ غَصُونُ الْبَانِ
وَأَرَاكَ غَصْنًا فِي التَّعِيمِ يَمِيلُ إِذَا	غَصْنُ الْأَرَاكِ يَمِيدُ فِي نَعْمَانِ
لِلرَّمِيحِ نَصْلٌ وَاحِدٌ وَلَقْدَهُ	مَنْ نَظَرِيهِ إِذَا رَنَا نَصْلَانِ
وَالسِّيفُ لَيْسَ لَهُ سِوَى جَفْنٍ وَقَدْ	أَضْحَى لَصَارِمٍ طَرْفُهُ جَفْنَانِ
وَالسَّهْمُ تَكْفَى الْقَوْسُ فِيهِ وَقَدْ غَدَا	مَنْ حَاجِيهِ لِلْحِظَةِ قَوْسَانِ
وَلَرُبُّ لَيْلٍ خِلْتُ خَاطِفَ بَرْقِهِ	نَارًا تَلْفَحُ فِي الدُّجَى يَدُخَانِ
كَالْمَائِلِ الْوَسْتَانِ مِنْ طَوْلِ السَّرَى	جَوْزَاؤُهُ، وَالرَّاقِصِ السَّكْرَانِ
مَا بَانَ فِيهِ مِنْ ثَرِيَّاهُ سِوَى	إِعْجَابِهَا وَالذَّلَالِ فِي الدَّيْرَانِ (١)
وَتَرَى الْحَجْرَةَ فِي النُّجُومِ كَأَنَّهَا	تَسْقَى الرِّيَاضَ بِجَدُولِ مَلَانِ
لَوْ لَمْ يَكُنْ نَهْرًا لَمَا عَامَتْ بِهِ	أَبْدًا نَجُومُ الْحَوِثِ وَالسَّرَطَانِ

(١) الديوان منزل من منازل القمر.

—دون الورى— وجذيمة أخوان^(١)
شهب الدجى عوضاً عن الخلان
ألهو عن الإخوان بالخوان
أسلت عن الأوطار والأوطان

نادمت . فيه الفرقدين كأننى
وترفعت همى فما أرضى سوى
وأنفث حين فجعت بالأحاب أن
واعترضت عن جود الوزير مواهباً
يقول فيها :

بقلوب أهلها من الخفان
أوتيت من ملك ومن سلطان
إلعلاك يسجد شامخ البنيان
كالاسد حين تصول في خفان^(٢)
أن البحار تحمل في غدران
جرداء خالية من السكان
يسرون تحت كواكب الخرصان^(٣)
هو في العديد ورمه سيان
يسطاك بعد العز دار هوان
وهم لك الضيفان بالذيفان^(٤)
بصوايرم سلث من الأجنان
بشبا ضراب صادق وطعان
منه ومن ذمهم معاً بحران

ما زلزلت أرض العدا بل ذاك ما
وأقول إن حصونهم سجدت لما
والناس أجدر بالسجود إذا غدا
ولقد بعثت إلى الفرنج كتاباً
لبسوا الدروع ولم تخل من قبلهم
وتيمموا أرض العدو بقرعة
عشرين يوماً في المغار ليلة
حتى إذا قطعوا الجفار^(٤) بمخفل
أغريتهم بجمي العدا فجعلته
عجلت في تل العجول قراهم
لما أبوا ما في الجفان قريتهم
وثلثت في يوم العريش غروشهم
ألجأتهم للبحر لما كن جرى

مدح الورى بالبأس إذ خضبوا الظبا
ولانت تخضب كل بحر زاجر
حتى ترى دمهم وخضرة مائه
وقال يصف الأسطول :

- (١) جذيمة الأبرش ملك الحيرة ، كان لتيكروه عن الناس لا ينادم إلا الفرقدين كما جاء في الأخبار .
(٢) خفان : مأسدة قرب الكوفة .
(٣) الخرصان : الرماح .
(٤) الخبار كانت تطلق على الصحراء بين العريش ومصر .
(٥) الذيفان : السم .

وكانَ بحر الرُّومِ خُلِقَ وجهُهُ وطَفَتْ عليه منابِثُ المرجانِ
ولقد أتى الأسطُولُ جِينَ غزا بما لم يأتِ في جِينِ من الأخيانِ
أحبَّ إلىَّ بها شوانِي أَصَبَحَتْ من فتكها ولها العداة شوانِي (١)
شَبَّهَنَ بِالْغُرَبَانِ فِي أَلْوَانِهَا وَقَعَلَنَ فِعْلَ كَوَاسِرِ الْعُقْبَانِ
أَوْقَرْتَهَا عُدْدُ الْقِتَالِ فَقَدْ غَدَّتْ فِيهَا الْقَنَا عَوْضًا عَنِ الْأَشْطَانِ
فَأَتَتْكَ مُوقِرَةٌ يَسْتَبِي بَيْنَهُ أَسْرَاهُمْ مَغْلُولَةٌ الْأَذْقَانِ
حَرْبٌ عَوَانٌ حَكَمَتِكَ مِنَ الْعَدَا فِي كُلِّ بَكْرٍ عِنْدَهُمْ وَعَوَانِ
وَأَعَدْتَ رُسُلَ ابْنِ الْقَسِيمِ (٢) إِلَيْهِ فِي شِعْبَانٍ، كَيْ يَتَلَاءَمَ الشَّعْبَانِ
وَالْفَالِ يَشْهَدُ بِاسْمِهِ أَنْ سَوْفَ يَغْ—
ويصف مقتل البرنس — أحد قادة الصليبيين — ويصف رأسه على الرمح
بمعنى بديع — كقول العماد :

قَتَلَ الرَّئِيسَ وَمِنْ عَسَاةٍ أَعَانَهُ لَمَّا عَتَا فِي الْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ
وَأَرَى الْبَرِيَّةَ حِينَ عَادَ بِرَأْسِهِ مُرَّ الْجَنَى يَتَذَوُّ عَلَى الْمُرَانِ (٣)
وَتَعَجُّبُوا مِنْ زُرْقَةٍ فِي طَرْفِهِ وَكَانَ فَوْقَ الرَّحْمِ نَصْلًا ثَانِي
فَلِيَهِنِهِ أَنْ فَازَ مِنْكَ بِسَيْدٍ أَوْفَى بِرَتَبَتِهِ عَلَى كَيَوَانِ (٤)
قَدْ ضَاغَ مِنْ أُرْمَاجِهِ لِمَسَامِعِ الْأَمِّ سَلَاكِ أَقْرَاطًا مِنَ الْخُرْصَانِ
وَالْخَيْلُ تَعْلَمُ فِي الْكَزْبَةِ أَنَّهُ قَدْ خَطَّ هَيْكَلَهَا عَلَى الْفَرَسَانِ
عَجَبًا لَجُودِ يَدَيْهِ إِذْ يَتَنَبَّي الْعُلَا وَالسَّيْلُ يَهْدُمُ ثَابِتَ الْأَرْكَانِ

وغزل المهذب في معظمه نسيبٌ بدوى الطابع والروح يعتمد فيه إلى العود
للمنموذج الجاهل فيقول من رائية رقيقة — على بداوتها :

هَمْ نُصَبُّ عَيْنِي، أُنَجِّلُوا أَوْ غَارُوا وَمَتْنِي فَوَادِي، أَنْصَفُوا أَوْ جَارُوا
وَهُمْ مَكَانَ السَّرِّ فِي قَلْبِي وَإِنْ بَعْدَتْ نَوَى بِهِمْ وَشَطَّ مَزَارُ
فَارَقْتَهُمْ، وَكَأَنَّهُمْ فِي نَاطِرِي مِمَّا تَمَثَّلُهُمْ لِي الْأَفْكَارُ

(١) الشوانى الأول نوع من السفن الحربية في زمانهم ، والثانية من شتا أى حاقدون .

(٢) يعنى بابن القسيم نور الدين محمود صاحب دمشق يومئذ .

(٣) المران الرماح .

(٤) كيان هو نجم زحل عند العرب ويمثلون به فى البعد .

إلا القلوب منازل وديار
منهم ديار الأنس وهى قفار
فلهم بأجواز الفلا أمصار
جاران : فيض الدمع والتذكار
هجرتهم الأوطان والأوطار
تبدو، ولكن فوقها أعمار
ألا يقر لهم عليه قرار
عنى، وهل بعد النهار نهار ؟

تركوا المنازل والديار فما لهم
واستوطنوا البيد فأصبحت
فليح غدت مصر قلاة بعدهم
أو جاوروا نجداً فلى من بعدهم
ألقوا، مواصلة الفلا والبيد مذ
بقلائص مثل الأهيلة عندما
وكأنما الآفاق طراً أقسمت
والدهر ليل مذ تناءت دارهم
ويقول فيها :

فلنا اعتبار فيك واستيعبار
أوقاته فجميعه أسخار
طالت لى الأيام وهى قصار
إتى على غير الهوى صبار

أمنازل الأحباب غيرك البلى
سقىا لدهر كان منك تشابهت
قصرث لى الأعوام فيه فمذ ناوا
يا دهر لا يغرك ضعف تجلدى

وله فى الوصف شعر جيد، وما صور فيه بعض ملاهى عصره من
راقصات، ومغنيات ومجالس خمر وشراب . فيقول ؛ وقد أبدع وصف
الشموع :

ترانا نمنح أركانها
وطوراً أنادم غزلانها
فضضنا عن الشمس أدنانها
قرأت بأنفك عنوانها
جعلنا من الروح فرسانها
تفضح خداه ألوانها
أحال إلى التبر مرجانها
دُرُّ يُفصل عقيانها
عروض ثقيد أوزانها
وجرت دياجيه أردادها
صنعنا من النار تيجانها

حججنا بها كعبة للسرور
فطوراً أعانق أغصانها
على عاتق إن خبت شمسنا
وإن ظهرت لك محبوبة
كميت من الراج لكنا
يطوف بها بابلى الجفون
بكأس إذا ما علاها المزاج
كان الحباب وقد قلده
وراقصة رقصها للحنون
ولما طوى الليل ثوب النهار
جلوتنا عرائس مثل اللجين

وصاغت مدامعها جلية
 رماحاً من الشمع تجلو الدجى
 بها ما بأفدة العاشقين
 وقد أشبهت رقباء الحبيب
 وفيها دليل بأن الثغر
 ومن قوله في الشمعة كذلك :

وَمُصْفَرَّةٌ لَا عَنْ هَوًى غَيْرِ أَنَّهَا
 شَجُونًا وَسَقَمًا، وَاصْطِبَارًا وَأُدْمَعًا
 إِذَا جَمَشَتْهَا الرِّيحُ كَانَتْ كَمَعْصَمٍ
 وَذَكَرَ الْعِمَادُ أَنَّ مِنْ أَوْصَافِهِ فِي الْخَمْرِ مَا سَارَ وَاشْتَهَرَ وَهُوَ قَوْلُهُ :

فَبِتُّ مِنْهَا أَرَى النَّارَ الَّتِي سَجَدْتُ
 رَاحٍ إِذَا سَفَكَ النَّدَمَانِ مِنْ دَمِهَا
 فَقُلْ لِمَنْ لَامَ فِيهَا إِنَّنِي كَلَفْتُ
 هَا الْمَجُوسُ مِنَ الْإِبْرِيْقِ تَسْجُدُ لِي
 ظَلَّتْ تَقْهَقُهُ فِي الْكَاسَاتِ مِنْ جَذَلٍ
 مُعْرِى بِهَا فَعَلَ مَا أَغْرَيْتَ بِالْعَدَلِ

وهو في الوصف ذو خيال مخلق يجتلب الصور الغريبة غير المألوفة فيما جرت عليه المعاني كذلك الصور والأخيلة الكثيرة التي مرت بنا في مدائحه ، وغزله ، ووصفه مجالس اللهو والشراب ومن غرائبها صورة الشموع والخمر ! فهي على غير مثال سابق . وتحسب من إبداعاته .

وشاعرية المذهب كما شاهدنا دافقة ، فطول النفس ، وانسياب القول في سلاسة دون تعقيد ولا تكلف . ولا يعدُّ من أصحاب الصنعة ، وإن اتفق في شعره ألوان من صبغ البديع ، فهو قد يستخدم الجناس حلية ، واقتنائاً في عرض المعنى ، وقريب منه التوشيح ، وهو البدء بلفظ وختام البيت باللفظ نفسه أو مشتقه وجنسه . وهو ضرب من الرباط اللفظي ، يوقر النسق الصوتي ، والأحكام المعنوي . ومن هنا سمى توشيحاً لأنه يضم بالصوت أفراد المعنى ، كما يضم الوشاح أعضاء الجسم .

ومن أمثلة جناسه في آخر البيت :

قَصْرْتُ عَلَى شُكْرهَا مَنْطَقًا رَطِيبَ اللِّسَانِ نَدَى النَّدى

ولعله اقتضى آثار أئى تمام فى صنعة الجناس هذه كما قلنا .

ومن صوره البديعية ومعانيه الطريفة قوله :

وليلة كإغماض الطرف قصّرها	وصل الحبيب، ولم تُقصِرْ من الأمل
بتنا يُجاذِبُ أهدابَ الظلام بها	كف الملام وذكر الصند والملل
وكلمنا زام نُطقاً فى مُعَاتِبَتِي	سدّدتُ فاهُ بطيب اللثم والقَبَل
وباتَ بدرُ تمام الحسن معتنّقى	والشمسُ فى فلكِ الكاساتِ لم تُقل

ويجمع قاموس شعره بين ألفاظ الشعر القديم ، ومحدث اللفظ ، ويجرى فيه بعض أسماء النجوم ، والأحجار الكريمة ، ومصطلح العلوم كالكيمياء وغيرها . وتنوع أوزان الشعر فى ديوانه ، فهو لم يؤثرأ وزناً على آخر ، وينظم فى مجزوءات البحور كغيره أحياناً فى مقطعاته أو بعض موضوعات الغزل واللهو والخرم .

وقوافيه محكمة غالباً ، وقد نثدّ منه أحياناً إذا طالت القصيدة بعض القوافي ، فتأتى قلقه فى موضعها ، أو غير مناسبة . ويعمد أحياناً إلى الضرورة فيتحول اللفظ ، أو يأتى به على غير اشتقاقه المعتاد . كما قد يغرب أحياناً فى اختيار اللفظ إذا اضطره الوزن .

ويوفر غالباً لتنظيمه سلاسة الإيقاع ، بمراعاة النسق بين أصوات الحروف وخراجها ، وهو يجمع بين جزالة الصوت ، ورصانة البناء ، والرقّة كل فى ما يناسبه من المعالى .

—٥—

عمارة اليمنى^(١)

(ت ٥١٥ هـ — ٥٦٩ هـ)

وهو عمارة بن علي بن زيدان الفقيه .

أصله من زبيد أو مرطان باليمن ، ولد بها سنة ٥١٥ هـ ، وبه تفقه ، ودرس ، وكان شافعي المذهب ، خرج من بلده اليمن سنة ٥٤٩ هـ قاصداً الحج ، ومكث في مكة زمناً اتصل فيها بأمرها قاسم بن هاشم ، وبعثه هذا رسولاً إلى الخليفة الفاطمي الفائز بالقاهرة .

ونشأ نشأة دينية في مكان من أماكن اليمن الممرعة يدعى وادي وساع . قال في النكت « بها المولد والمرى ، وأهلها بقية العرب في تهامة لأنهم لا يسكنهم حضري ، ولا يناكحونه ، ولا يُجيزُونَ شهادته .. ولذلك سلمت لغتهم من الفساد » .

وكانت أسرة عمارة أسرة سيادة بين قومه ، فقد كان والده سيدهم بعد وفاة عمه وخاله ، وكان كذلك من السادة .

قال : « وتماسكت أحوال الناس بوالدي إلى سنة تسع وعشرين وخمسمائة (٥٢٩ هـ) وفيها أدركت الحلم . قال وخرجت عنها — أى عن بلده — سنة ٥٣٠ هـ ونحن أحسن الناس حالاً وفيها بعض التماسك بسبب مال كانت والدتي ورثته عن أبيها »^(١) .

ويقول : « وفي سنة إحدى وثلاثين دفعت لى والدتي مصوغاتها بألف دينار ، ودفع لى أبى أربعمئة دينار وسبعين ، وذهبت بالمال إلى زبيد » .

ونصحه والداه بأن يتصل في زبيد بالوزير ، ويُنفق المال على نفسه لاصلاح حاله وقال له : لا ترجع حتى تفلح ، فقد احتسبناك عند الله وصيرنا عنك .

قال : « فأنزلني الوزير مسلماً في داره مع أولاده » .

(١) راجع ترجمته في الخريدة شعراء ، ١٠١/٣ ، وفيات الأعيان ٤٣١/٣ ، فوات الوفيات مرآة الزمان ٣٠٢/٨ ، وحسن المحاضرة ٤٠٥/١ ، النكت المصرية .

(٢) النكت المصرية ص ٢١ .

ولازم في زبيد الطلب ، وظل أربع سنين لا يخرج من المدرسة إلا للصلاة يوم الجمعة وفي السنة الخامسة زار والديه ، ورد المصوغ إلى والدته ، فلم يحتج إليه .

وفي زبيد تلقى أصول الفقه الشافعي ، والفرائض والمواarith .
قال : « ولي في الفرائض مُصنّف يُقرأ في اليمن » .

وفي سنة ٥٣٩ هـ زاره والده وخمسة من أخوته بزبيد ، فانشده شيئاً من شعره . فاستحسنه ، وكانت سنة أربعاً وعشرين سنة . وقال له أبوه بعد سماع شعره : تعلّم والله أن الأدب نعمة من نعم الله عليك ، فلا تكفرها بدم الناس . قال : واستحلفني ألا أهجو مسلماً قط بيت شعر ، فحلفت على ذلك ، ولطف الله بي فلم أهج أحداً والله المحمود ، ماعداً إنسان هجاني بحضرة الملك الصالح (طلائع) بيتي شعر ، فأقسم الصالح عليّ أن أجيبه ففعلت ^(١) .

وعرفنا أن الصالح بن رزيك كان يغري الشعراء بعضهم ببعض في مجلسه . وخرج عمارة من زبيد إلى مكة كما قلنا حيث أرسله أميرها في سفارة إلى مصر يقول : « فقدنا — إلى الدولة المصرية — في شهر ربيع الأول سنة خمسين وخمسائة والخليفة بها يومئذ الفائز بن الظافر ، والوزير له الملك الصالح طلائع بن رزيك » .

قال : ولما أحضرت للسلام عليهما في قاعة الذهب في قصر الخليفة أنشدتهما قصيدة أولها ^(٢) :

الحمْدُ للعِيسِ بعد العِزِّ والهِمِّ	حمداً يَقُومُ بما أوْلَتْ من النِّعمِ
لا أَجْحَدُ الحقَّ، عِنْدِي للركابِ يَدُ	تَمُنْتُ اللَّجْمُ فيها رُبَّةَ الحَطَمِ
قَرَّبْنِ بَعْدَ مَزَارِ العِزِّ من نظري	حَتَّى رَأَيْتُ إِمَامَ العَصْرِ من أَمِّ
وَرِحْتُ من كَعْبَةِ البَطْحَاءِ والحِزْمِ	وفداً إلى كَعْبَةِ المَعْرُوفِ والكَرَمِ
فَهَلْ دَرَى اليَسْتَأْتِي بَعْدَ فُرْقَتِي	ما سَبَرْتُ من حَرَمٍ إلَّا إلى حَرَمِ

(١) النكت ص ٢٤ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٢-٣٣ .

وذكر أن الصالح أعجب بالقصيدة ، واستعاد انشادها منه مراراً ،
والأستاذون ، والكبراء في المجلس يذهبون في الاستحسان كل مذهب . ودفع
الصالح له خمسمائة دينار . قال : « وإذا بعض الأستاذين قد أخرج لي من عند
السيدة الشريفة — عمة الفائز — وبنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار أخرى .

قال : وحملت المال معي إلى منزلي ، وأطلقت لي من دار الضيافة رسوم لم
تُطلق لأحد من قبلي . وتهادتني أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم . قال :
واستحضرتني الصالح للمجالسة ونظمتني في سلك أهل المؤانسة ، وانتالت على
صلاته ، وغمرني بره ، ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس
أبا المعالي ابن الجباب ، والموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء ، وأبا الفتح
محمود بن قادوس ، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير . وما من هذه الحلقة
أحد إلا ويضرب في الفضائل النفسانية ، والرئاسة الإنسانية بأوفر نصيب .

وبعد أن مكث في صحبة ابن رزيك بقية عام ٥٥٠ هـ غادر مصر إلى مكة
في أخريات السنة إلى مكة ، فعدن باليمن ، ثم عاد من اليمن إلى مكة مرة أخرى .
وعبر إلى مصر ، فتوقف بقوص ، ويدو أن عبوره كان عن طريق جدة عيذاب
عبر البحر الأحمر .

ومكث بقوص زمنا ، وكانت آنذاك عامرة بالعلم والعلماء . ورحل من
قوص إلى القسطاظ وأذن له الملك الصالح بالمثل مرة أخرى بحضرته .

وكان ابن رزيك فيما يرويه عمارة قد غضب عليه لتأخره عنه ، وبرر ذلك
عمارة بأن الحاج المصريين نهوا ذلك العام بالحجاز بواسطة أمير مكة ، فظن
الصالح أن عمارة كان يعلم بذلك إلا أنه اعتذر بأن لا علم له ولا دخل فيما
حدث . وأنشد ابن رزيك قصيدة يبرأ فيها مما ظن به .

وكان مما أغضب الصالح منه ما نقل عن عمارة أنه طعن في مذهب
الإمامية .

ومما استعطفه به قبل أن يصفح عنه قوله في بيتين بعث بهما من قوص :
ولي تحت دار الملك يومان لم تلح لعيني علامات الكرامة والبشر
وقد أخذت أيام قوص نصيبها فهل ثقلت تلك السجايا إلى مصر

قال عمارة : فخرج أمره بالنزالي وإكرامى . وإبصالي إليه . فأنشدته عند السلام عليه قصيدة أصف فيها وقعة العريش مع الإفريخ ، وأشرت فيها إلى البراءة مما تُسبب إلي من القول في مذهبه منها :

فأعلم وأنت بما أريد مقالة	متى ومن كل البرية أعلم
أنتي حُشدت على مقاتلتك التي	من أجلبها في كل أرض أكرم
وبدون ما أسديته من نعمة	سدى الرجال الحاسدون والحُموا
إن كان ما قالوا، وليس بكائين	فأنا امرؤ ممن سعى في الأم
غذرت كما اختار الحسود وموقف	ألزمت نفسي فيه ما لا يلزم
كذب وحقك، لو حلمت بذكره	أقسمت أني بعده لا أحلم
راجع جميل الرأي في نظرة	تضجى عواطفها تسبح وتُسجَم
فالليل إن أقبلت صبح مُسفر	والصبح إن أعرضت ليل مُظلم
بدأت صنائعك الجميل ومثلها	بأجل من تلك البداية تختم

قال : فزال ما كان عنده ، وعاد إلى أفضل عوائده ^(١) .

وعاد إلى المجلس ، قال وأمرني الصالح بملازمة الخدمة في المجالسة ، والمواكلة والمدح له . وتأكدت الحرمة ، وتضاعفت المزية والاختصاص . وكانت تجرى بحضرته مسائل ومذكرات يأمرني بالخوض مع الجماعة فيها ، وأنا بمعزل عن ذلك لا أنطق بحرف واحد ، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل (فلا تقعد معهم حتى يخوضوا في حديث غيره) . ونهضت فخرجت ، فأدركني الغلمان ، فقلت : حصاة يعتادني وجعها فتركوني ، وانقطع في منزلي أياماً ثلاثة ، ورسوله كل يوم والطيب معه . ثم ركبته بالنهار فوجدته في البستان المعروف بالمختص في خلوة من الجلساء ، فاستوحش من غيبيتي ، وقال : خيراً . فقلت : إن لم يكن لي وجع ، وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر ، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت ، وإلا فلا ، وكان لي في الأرض سعة ، وفي الملوك كثرة . فعجب من هذا وقال : سألتك بالله ما الذي تعتقد في أبي بكر وعمر ؟ قلت : أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا

(١) التكت ص ٤٣

عليكم . وإنه ما من مسلم إلا ومحبتها واجبة عليه ، ثم قرأت قوله تعالى :
(ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) فضحك . وكان مرتاضاً
حصبياً ، قد لقي في ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم .

وطابت الحياة لعمارة في رحاب الصالح ، واتصل بكثير من أعيان مصر
وأمرائها وكبار رجالها في حياة طلائع وبعد مقتله .

ومن مدحه من رجال الدولة الموفق ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء .
قال فيه (١) :

إلا تَأَلَّقَ بَارِقٍ بِالْأَبْسَرِ	ما هاج مزنة دمه المتفرق
يَسْرَى الْهَوَى فِي ضَوِيهَا الْمَتَالِقِ	برق يذكري وميض مباسم
عَافٍ طَرِيقُ رُضَائِهِ لَمْ يُطْرَقِ	من كل تغر منك ثغر مخافة
هَمُّ الْخِيَانَةِ عِنْدَهُ لَا يَزِيدُ	نسج الغفاف عليه ثوب صيانة
رَوْضَ الْحَيَاةِ وَزَهْرَهَا الْمُسْتَشْقِ	سقى لأيام الشباب فإنها
فِي ظِلِّ أَعْصَانِ الشَّبَابِ الْمُورِقِ	أيام يصطحب الغواني والغنى

وله مدائح كثيرة في رجال العصر غيره ، ولما استولى صلاح الدين على
الحكم ، مدحه بقصيدة طويلة يقول فيها :

لَنَفْثَةٍ مَصْلُورٍ وَأَلَّةٍ مُوجِّعٍ	أيا أذن الأيام إن قلت فاسمعي
فَلَا خَيْرَ فِي أَذِنِ تَنَادَى فَلَا تَعَى	وعى كل صوت تسمعين نداءة
فَقَصَّرَ مِنْ ذَرْعِي ، وَقَصَّرَ أَذْرَعِي	تقاصر لي خطو الزمان وباعه
وَأَنْزَلَنِي بِالْجُورِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِي	وأخرجني من موضع كنت أهله
أَقْضُ مِنَ الْأَوْطَانِ جَنِبِي وَمُضْجِعِي	بسيف ابن مهدي ، وانباء فاتلي
فَنَلِثَهُمَا فِي ظِلِّ عَيْشٍ مُنْتَعٍ	تيممت مصرأ أطلب الجاه والغنى
فَأَحَدَ مُرْتَادِي ، وَأُخْصَبَ مُزْبِعِي	وزرت ملوك النيل أرتاد نيلهم
مَوَاهِبُهُ لِلصَّنْعِ لَا لِلصَّنْعِ	وفزت بألف من عطية فائز
سَرَتْ بَيْنَ يَقْطَى مِنْ غَيُونٍ وَهَجِجِ	وكم طرقتني من يد غاضدية
بِمَا زَادَ عَنْ عَزَمِي رَجَائِي وَمَطْمَعِي	وجاء ابن رزيك من الجاه والغنى
فَخَبَّرْتُهُ مِنِّي بِأَكْرَمِ نُوْدُجِ	وأوحى إلى سمعي ودائع شيعره

(١) الروالي للصندي ٢٢ / ٣٨٨ .

وكان كما قلنا قد تعرف على جماعة من الأعيان ، مدحهم بشعره ، وذكر في النكت بعضاً ممن مدحهم من هؤلاء ، ومدائحه فيهم ، وما أعطوه من الجوائز . ومن بين هؤلاء الملك العادل رزيك ابن الصالح . وأخوه ، وصهره ، وضرغام وأهله ، وولده ، وشاور وابنه طى . وكانت له مع كل هؤلاء علاقات ، وصدقات ، وقد أولوه رعايتهم ، وأغرقوه بانعامهم من المال ، والجواري والمتاع والخيول ، والدور .

وكان من بين ما أهدى إليه دار لأحدهم على الخليج انتقل إليها بعد سكنه أول الأمر بالفسطاط ثم بدار بالقاهرة انتقل إليها بعد مقتل الصالح ، وقد احترقت داره التي على الخليج ، واحترق فيها كثير من متاعه وشعره .

وكان عمارة يخدم بشعره ، وكان له راتب معلوم على هذه الخدمة ، فطلب من شاور بعد توليه الوزارة أن يعفيه من الخدمة بالشعر . قال في النكت :

« ورأيت يوماً وقد انشرح صدره ، فقلت له إن لي مدة تنازعني النفس في الحديث معك في حاجة ، وقد عزم أن أقولها لك ، فإن قفيها ، وإلا كنت أبليل عند نفسي عذراً . قال : وما هي ؟ . قلت : تُعفيني من عمل الشعر ، وتنقل الجارى على الخدمة راتباً على حكم الضيافة ، فإني أرى أن التكسب بالشعر والتظاهر به نقیصة في حقى . قال : فما منعك أن تستغنى في أيام الصالح وابنه ؟ . قلت : كانت لي أسوة وسلوة بالشيخ الجليس ابن الحبيب ، وبابن الزبير ، الرشيد والمهذب . وقد انقرض الجيل والنظراء .

قال : تُعفى . ثم أمر بإنشاء سجل بإعفائي ، وأخذ عليه خط الخليفة وخطه بذلك ، فقلت أشكره من قصيدة :

تغدو مهائبه حجاباً دونه ونداه عناً ليس بالمحجوب
سكنت محبته وهية بأسيه من سوادى ناظر وقلوب .

وكانت خدمته هو وشعراء عصره للخلافة ، والوزراء والكبراء شبه إجبارية لأنهم يتقاضون عليها راتباً . فكان لابد لهم من نظم الشعر في كل مناسبة ، وكان هؤلاء الرسمىون في الدولة يطعمون منهم في ذلك ، بل ويتنظرونه ، ويميزون عليه فوق الراتب عطاء . فالشعراء حينئذ أشبه بالجرائد والصحف اليومية تنشر أنباء الأحداث وأخبار الناس .

ومعظم هذا الشعر الرسمي نظم متكلف متكرر المعاني يخرج بتكلفه عن معنى الشعر والشاعرية . ولا نتوقف منه إلا عند بعض الأجزاء التي انطلقت فيها شاعريته عن إحساس صادق تلقائي ، كالشعر الذي قاله يعبر عن علاقات مودة ، أو امتنان أو وصف لما أعجبه ، وأسعده ، أو ذكر لأشجانه وآلامه وشكواه وحسرتة ويقع في هذه الدائرة مرثيه ، وبخاصة لطلّاع بن رزّيك وابنه . وقد كان يكنّ لهما محبة ، ويدين لهما بالكثير مما وصل إليه من مكانة وغنى . ومنه قوله عقب مقتل الصالح :

أفئى أهل ذا النّادى عليم أسأله	فأنى لى ذاهب اللب ذاهلة
سمعت حديثاً أحسد الصم عنده	ويذهل واعي ، ويخرس قائله
فقد رابى من شاهد الحال أننى	أرى الدست منصوباً وما فيه كافله
وأنى أرى فوق الوجوه كآبة	تدل على أن الوجوه ثوابله
دعوى فما هذا بوقت بكائه	سيأتىكم طل البكاء ووائله
ولم لا بُكيه ونندب فقده	وأولادنا أيتامه وأرامله
فيا ليت شعرى بعد حُسن فعّاله	وقد غاب عنا ما به الدهر فاعّله

ويقول :

تنكّد بعد الصّالِح الدهر فاغتدت	مجالس أيامى وهن غيوب
أيجذب خدى من ربيع مدايعى	وربعى من نغمى يديه خصيب
وهل عنده أن الدخيل من الجوى	مقيم بقلبي ما أقام عسيب
وإن برقت سننى لذكر حكاية	فإن فؤادى ما حيث كئيب

وظل كئيباً بعده ، وإن ضحكت سنه مع من لازم من الوزراء الذين تقلبوا على الوزارة في هذه المرحلة المضطربة من تاريخ الفاطميين . فقد كثر فيها الطامعون واقتل الأعوان واغتال الخدم والأصحاب بعضهم بعضاً . لقد شارك خيرغام في قتل ابن الصالح ، وكان من أقرب أعوان أبيه طمعاً في الوزارة ، وقتل ضرغام ، وتولى شاور ، وقتل ابن شاور ثم قتل شاور بعد تغلب الغر من رجال نور الدين وصلاح الدين .

واضطّر عمارة أن يجارى الأحداث ، وأن يداهن أحياناً ، لكنه ظلّ على ولائه للفاطميين ولطلّاع وابنه وعشيرته حتى مقتله بأمر صلاح الدين ، وكان وفاؤه سبباً في نهايته المؤلمة .

لقد مدح صلاح الدين ، ومدح أباه نجم الدين ، وأخاه وعشيرته ، ومدح نور الدين محمود ، لكنّ هذا المديح لم يحمل حرارة الصدق ، وإن شارك هؤلاء في المذهب ، فقد كانوا شافعية سنّة ، وكان هو شافعيّاً سنّياً ، وكان ابن رزيك إمامياً متعصباً . ومع ذلك فقد كان شعره فيه وفي التحسر على الدولة بعد سقوطها وعزل الخليفة العاضد شعراً صادقاً ، لا صنعة فيه ولا تكلف . وقد ذكر له المؤرخون ذلك وأشادوا به .

قال ابن واصل^(١) : « وكان عمارة شديد التعصب لهم — أى الفاطميين ، لأنه قدم عليهم من اليمن فأحسنوا إليه ، وتولّوه ، فرعى ذلك ووفى لهم ، والإنسان كما قيل صنّيعه الإحسان . ولم يكن على مذهبيهم ، وإنما كان شافعيّاً سنّياً ، فلمّا زال أمرهم رثاهم بأحسن الشعر ، وذبّ عنهم باللسان إذ لم يمكنه الذبّ عنهم باليد . ثم لمّا تحرك جماعة في عود الأمر إليهم كان من جملة المساعدين على ذلك شكرا لهم على إحسانهم إليه ، فأدّى به ذلك إلى أن شقّق .. فمن جملة قوله فيهم يرثيهم قصيدة ذكرتها بجملتها لفرط حسنها . وهي^(٢) :

رَمَيْتْ يَا ذَهْرُ كَفِّ الْجِدِّ بِالشَّلَلِ	وجيده بعد حُسْنِ الحَلِيّ بالعَطَلِ
سَعَيْتْ فِي مَنَهِجِ الرَّأْيِ الْعُثُورِ فَإِنْ	قَدَّرْتُ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّهْرِ فَاسْتَقِلِ
جَدَعْتُ مَارِئَكَ الْأَقْتَى ، فَاثْفَلْ لَا	يُنْفَلْ بَيْنَ أَمْرِ الشَّيْنِ وَالْحَبْلِ
هَدَمْتُ قَاعِدَةَ الْمَعْرُوفِ عَنْ عَجَلِي	سُقَيْتُ مُهْلًا ، أَمَا تَمْشِي عَلَى مَهَلِ
لَهْفِي وَلَهْفُ بَنِي الْأَمَالِ قَاطِبَةً	عَلَى فَجِيعَتِهَا فِي أَكْرَمِ الدُّوَلِ
قَدِمْتُ مِصْرَ فَأَوْلَانِي خِلَافُهَا	مِنَ الْمَكَارِمِ مَا أَرَى عَلَى أَمَلِي
قَوْمٌ عَرَفْتُ بِهِمْ كَسْبَ الْأَلُوفِ وَمَنْ	كَأَلَهَا أَنَّهَا جَاءَتْ وَلَمْ أَسْأَلْ
وَكُنْتُ مِنْ وَرَاءِ الدُّسْتِ حِينَ سَمَا	رَأْسُ الْجِصَّانِ بِهَادِيهِ عَلَى الْكَفْلِ
وَنِلْتُ مِنْ عِظَمَاءِ الْجَيْشِ تَكْرِمَةً	وَنُحْلَةً حُرَيْسَتْ مِنْ عَارِضِ الْخَلْلِ

(١) مفرج الكرب ١/ ٢١٢ .

(٢) مفرج الكرب ١/ ٢١٢ .

يَا عَاذِلِي فِي هَوَىٰ أَبْنَاءِ فَاطِمَةَ
بِاللهِ زُرْ سَاحَةَ الْقَصْرِينِ وَأَبْكَ مَعِي
وَقُلْ لِأَهْلِيهِمَا: وَاللهِ مَا التَّحَمُّثُ
مَاذَا تُرَى كَانَتْ الْإِفْرَنْجُ فَاعِلَةٌ
هَلْ كَانَ فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ غَيْرَ قَسَمَةٍ مَا
وَقَدْ حَصَلْتُمْ عَلَيْهَا وَاسْمُ جَدِّكُمْ
مَرَرْتُ بِالْقَصْرِ، وَالْأَرْكَانُ خَالِيَةٌ
فَمَلْتُ عَنْهَا بَوَاجِهُ، خَوْفٌ مِنْتَقِيدٍ
أَسْبَلْتُ مِنْ أَسْفَدِ مَعِي غَدَاةً خَلَّتْ
أَبْكَى عَلَى مَأْتِرَاتٍ مِنْ مَكَارِمِكُمْ
دَارُ الضِّيَافَةِ كَانَتْ أَنْسَ وَإِفْدَكُمْ
وَفَطْرَةَ الصَّوْمِ إِنْ أَصْنَعْتُ مَكَارِمَكُمْ
وَكَسْوَةَ النَّاسِ فِي الْفَصْلَيْنِ قَدْ دَرَسْتُ
وَمَوْسَمٌ كَانَ فِي يَوْمِ الْخَلِيجِ لَكُمْ
وَأَوَّلُ الْعَامِ وَالْعِيدَيْنِ كَمْ لَكُمْ
وَالْأَرْضُ تَهْتَرُ فِي يَوْمِ الْغَدِيرِ كَمَا
وَالْخَيْلُ تُعْرَضُ فِي وَشْيٍ وَفِي شَيْءٍ
وَمَا خَمَلْتُمْ قَرَى الْأَضْيَافِ مِنْ سَعَةٍ
وَمَا تَخَصَّصْتُمْ بِيَرِّ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ
كَانَتْ رَوَاتِبِكُمْ لِلْوَافِدِينَ وَلِلضَّيِّفِ
ثُمَّ الطَّرَازُ بِنْتِيسَ الَّذِي عَظُمَتْ
وَلِلْجَوَابِيعِ مِنْ أَحْيَاسِكُمْ نَعَمْ
وَرُبَّمَا عَادَتْ الدُّنْيَا فَمَعْقِلُهَا
وَاللهِ لَا فَازَ يَوْمَ الْحَشْرِ مِبْغِضُكُمْ
وَلَا سَقَى الْمَاءِ مِنْ حَرٍّ وَمِنْ ظَمَرٍ
وَلَا رَأَى جَنَّةَ اللهِ الَّتِي خُلِقَتْ
أَتَمَّتْ وَهْدَاتِي، وَالذَّخِيرَةُ لِي
تَاللهِ لَمْ أَوْفِهِمْ فِي الْمُدْجِ حَقَّهُمْ
وَلَوْ تَضَاعَفَتْ الْأَقْوَالُ وَاسْتَبَقَتْ

لَكَ الْمَلَامَةُ إِنْ قَصَّرْتُ فِي عَذَلِي
عَلَيْهِمَا، لَا عَلَى صَفِينِ وَالْجَمَلِ
فِيكُمْ جُرُوحِي، وَلَا قَرْحِي بِمُنْدِيلِ
فِي نَسْلِ آلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ؟
مَلَكْتُمُونِي حُكْمِ السَّيِّ وَالنَّفْلِ
مُحَمَّدٌ، وَأَبُوكُمْ خَيْرٌ مُتَّعِلِ
مِنَ الْوَفُودِ، وَكَانَتْ قَبْلَةَ الْقَبِيلِ
مِنَ الْأَعَادِي، وَوَجْهُ الْوُدِّ لَمْ يَمِيلِ
رَحَابِكُمْ، وَغَدَتْ مَهْجُورَةُ السَّيْلِ
جَالُ الزَّمَانِ عَلَيْهَا وَهِيَ لَمْ تُحِلِ
وَالْيَوْمَ أَوْحَشُ مِنْ رَسْمٍ وَمِنْ طَلْلِ
تَشْكُو مِنَ الدَّهْرِ أَضْيَافًا غَيْرَ مُحْتَمِلِ
وَرِثَ مِنْهَا جَدِيدٌ بَعْدَهُمْ وَبَلِي
يَأْتِي تَجْمُلُكُمْ فِيهِ عَلَى الْجَمَلِ
فِيهِمْ مِنْ وَبَلٍ جَوْدٍ لَيْسَ بِالْوَشْلِ
يَهْتَرُ مَا بَيْنَ قَصَرَيْكُمْ مِنَ الْأَسَلِ
مِثْلَ الْعَرَائِسِ فِي حَلَى وَفِي حُلَى
الْأَطْبَاقِ إِلَّا عَلَى الْإِكْتِافِ وَالْعَجَلِ
حَتَّى عَمِمْتُمْ بِهِ الْأَقْصَى مِنَ الْمَلِ
حِفِّ الْمَقِيمِ، وَلِلطَّارِي مِنَ الرُّسُلِ
مِنْهُ الصَّلَاتُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ وَالْثُلُ
لَمْ تَصَلِّرْ فِي عِلْمٍ وَفِي عَمَلٍ
مِنْكُمْ، وَأَضْحَتْ بِكُمْ مَحَلُولَةُ الْعُقُلِ
وَلَا نَجَا مِنْ عَذَابِ النَّارِ غَيْرُ وَلِي
مِنْ كَفِّ خَيْرِ الْبَرَائِيَا خَاتَمِ الرُّسُلِ
مِنْ خَانَ عَهْدِ الْإِمَامِ الْعَاضِدِ بْنِ عَلِيٍّ
إِذَا ارْتَهَنْتُ بِمَا قَدَّمْتُ مِنْ عَمَلٍ
لَأَنَّ فَضْلَهُمْ كَالْوَابِلِ الْهَاطِلِ
مَا كُنْتُ فِيهِمْ بِحَنِيدِ اللهِ بِالْحَنِجْلِ

بابُ النجاة، فهم، دنيا وآخرة وحُبُّهم فهو أصل الدين والعمل
نور الهدى ومصابيح الدجى ومحب
أئمة خلقوا نوراً، فنورهم من نور خالص نور الله لم يقل
والله لازلت عن جبي لهم أبداً ما أئخر الله لي في مدة الأجل

قالها عمارة وهو في دولة معادية قامت بعزل آخر خلفاء الفاطميين، ويعلم
أنه سيقتل جزاء قوله الوفاء. وقد ألمح إلى ظلم صلاح الدين للعاضد وابنائهم
وعشيرته، وما نهب من أموالهم ومتاعهم وفرق على أخوة صلاح الدين
وأهله، وبعث بعضه إلى نور الدين.

وهذه القصيدة والقصيدة الأخرى التي مدح بها صلاح الدين أو تظاهر
بمدحه والتي ذكرنا منها أياتاً لم يخلها من غمز ولمز وسماها «شكاية المتظلم»،
ونكاية المتألم». يقول فيها ذاكراً فضل الفاطميين ورجاهم، وداعياً صلاح
الدين أن يرفق بهم وبمن لاذ بهم فيقول:

ملوك رَعَوْا إلى حرمة صار نبُّها
وردت بهم شمسُ العطايا لوغدهم
مذاهبهم في الجود مذهب سُنَّة
فقل لصلاح الدين والعدل شأنه
سكتُ فقلت ناطقات ضروري
فأذلتُ إدلال الحب وقلت ما

ويقوله مخاطباً صلاح الدين:

فيا راعي الإسلام كيف تركتنا
دعوناك من قرب وبعد فهب لنا

ويقول:

ألم ترعني للشافعي فإنه
ونصري له في حيث لا أنت ناصري

(١) ويوشع بنى اسرائيل الذي دعا ربه أن يؤخر غروب الشمس

لَيْلَى لَا وَقْتُ الْعِرَاقِ بَسَجَسَجِ بِمَصْرَ ، وَلَا رَيْحُ الشَّامِ بَزَعَزَعِ
كَأَنَّيْهَا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ مُؤْمِنٌ أَصَارَعَ عَنْ دِينِي وَإِنْ خَانَ مَصْرَعِي
حتى ينتهي إلى هذا الرجاء الذي يطلب إليه أن يحفظ عليه نفسه ، وأن
يعامله معاملة كريمة تليق بمكائنه ، وألا تناله نعمته على الفاطميين .

فِيَا زَارِعَ الْإِحْسَانِ فِي كُلِّ تَرْبَةٍ ظَفَرْتُ بِأَرْضِ ثُبُثِ الشُّكْرِ فَازْرَعْ
وَقَدْ صُورَتْ فِي طَيِّ ذَا النِّظْمِ رَقْعَةٌ غَدَا طَمَعِي فِيهَا إِلَى غَيْرِ مَطْمَعٍ
أُرِيدُ بِهَا إِطْلَاقَ دِينِي وَرَاتِي فَاظْلِقْهُمَا وَالْأَمْرُ مِنْكَ فَرَوِّعْ
ويختمها بقوله :

إِلَى هَا هُنَا أَنَسَى حَدِيثِي وَانْتَهَى وَمَا شُئْتُ فِي حَقِّي مِنَ الْخَيْرِ فَاصْنَعْ
وكان تعليق الصفدي على هذه القصيدة التي تبدو في ظاهرها مدحاً إلا أنه
مدح مطوئ على الذم ، ورجاء مغلف بالضيق والهجاء . قال الصفدي (٢) :
« الذي أظنه وتقضى به المعنى أن هذه القصيدة كانت أحد أسباب شنقه ،
والله أعلم ، لأن الملوك لا يخاطبون بمثل هذا الخطاب ، ولا يواجهون بهذه
الألفاظ ، وهذا الإذلال الذي يؤدي إلى الإذلال . وأظن أن هذه القصيدة ما
أجذت شيئاً .

قال الصفدي : فمال عمارة حيثذ وانحرف ، وقصد تغيير الدولة — والله
أعلم ، وكان من أمره ما كان . وعلى الجملة فقتل مثل هذا الفاضل قبيح من
الفاضل إن كان ذلك عن رأيه .

والصفدي ينتقد صلاح الدين والقاضي الفاضل الذي أشار بقتله ولم يشفع
له وقد عرف فضله أكثر من غيره لمعرفته به في دولة الفاطميين حين كان
الفاضل يعمل في ديوان الإنشاء مع ابن الخلال .

وهكذا قضى الفقيه الشاعر نخبه مقتولاً مصلوباً جزاء وفاته ، وصراحته .

وشعر عمارة : بعد هذا لا يحتاج إلى إيضاح أو تعليق ، فهو صورة
لحياته ونفسيته ، وسجل لأحداث عصره ، يصوغه متدققاً ، لا يصنعه ، فأثار
الصنعة قليلة به .

(١) الوافي ٢٢ / ٣٩٣

ويجري فيه على انعط الجزل ، لا يلين في لفظه ، ويدع أحياناً في معانيه وإن لم يخرج به عن المعاني التقليدية . وجمال شعر عمارة في صدقه وانطلاقه وبم عن مقدرته وثقافته ، ومحة اطلاعه .

ومن بديع معانيه التي جدد فيها معاني سابقه قوله :

ما هاج مزنة دمه المتفرق	إلا تالت باري بالأبرق
برق يذكركم وميض مباسم	يسرى الهوى في ضوءها المتألق
في كل ثغر منك ثغر مخافة	عاف ، طريق رضاءه لم يطرق
نسج العفاف عليه ثوب صيانة	هم الخيانة عنده لا يرتقي

وقوله وقد أحال المعنى في الأطلال بصنعة إلى جديد طريف :

بات يرعى السهي بطرف مورق	وفؤاد من الغرام محرق
ليت أيامه السوالف يزجف	من ، ويجمعن طيب عيش مفرق
دمن أنبت الجمال ثراها	ورعى الشوق غصنها حين أورق
فتح الطلل زهرها وتولى	نشرة راحة النسيم الذي رقى

والمتبع لشعره في أوله أيام كان في بلده اليمن أو في أوليات حياته بمصر ، ثم شعره بعد أن أقام بين المصريين وطالت إقامته ، وعاش الحياة في القاهرة والفسطاط والاسكندرية وشرب من النيل ، وتنقل في ربوع مصر وخالط أهلها يجد فرقاً بين أوله وآخره ، فقد اكتسب كما قال بعضهم فيمن جاء إلى مصر حلاوة النيل ، ولطفاً ورقة من شمائل المصريين .

ابن قادوس^(۱)

محمود بن إسماعيل (ت ۵۵۱ هـ)

أبو الفتح من شعراء الصحنه الصالحية ، جلساء ابن رزك ، عمل بديوان الإنشاء وكان من كتبه المرموقين ، وقيل إن القاضي الفاضل أخذ عنه . وأصله من دمياط ، وكان أبوه يعمل بها .

وكان القاضي الفاضل يعظمه ويسميه (ذو البلاغتين) يعني في الشعر والنثر قال ابن شاعر : « وكان لا يتمكن من اقتباس فوائده غالبا إلا في ركوبه من القصر إلى منزله ، ومن منزله إلى القصر ، فيسايره ويجاريه في فنون الإنشاء والأدب » .

وفي شعر ابن قادوس الذى اختاره العماد وابن شاکر يغلب طابع شعر الكتاب ومعظمه مقطعات ، ويدور فى موضوعات الغزل ، والهجاء ، والمدح والوصف من مثل قوله فى الغزل (٢) :

دياج خذيه بسندس عارضيه مفروزة
وبخذه خال لدا ثرة الملاحة مركز
وكقوله :

مَنْ عَازَى مِنْ عَازِلٍ يُلُومُ فِي حُبِّ رِشَا
إِذَا حَسَدَتْ حُبُّهُ قَالَ كَفَى بِالدمعِ شَا

يعني كفى بالدمع شاهداً ، وهذا ضرب من البديع ابتدعه بعض الشعراء المتأخرين ويقول في رسالة حبيب :

مِدَاوَةٌ فِي الطَّرْسِ لَمَّا بَدَا قَبْلَهُ الصَّبُّ وَمِنْ يَزْهَدُ
كَأَنَّمَا قَدْ حُلَّ فِيهِ اللَّمَى أَوْ ذَابَ فِيهِ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ

ويقول (٣) :

(١) ترجم له العماد بالخریفة قسم شعراء مصر ١/ ١٢٧ .

واہن شاکر فی فوات الوفیات ۴ / ۱۰۰ .

(٢) فوات الوفيات ٤ / ١٠١ .

(٣) الخريفة ١ / ١٢٨ .

وليلة كاعتراضي الطرف قصرها
بتنا يجاذب أطراف الظلام بها
وكلما زام نطقاً في معانتي
وبات بدر تمام الحسني معتقني
وصل الخيب، ولم تقصّر عن الأمل
كف الملام وذكر الصد والمثل
سدّدت فاه بطيب اللثم والقبل
والشمس في فلك الكاسات لم تقل (١)

وله قصيدة اختارها العماد في المديح لعلها في الأفضل أو طلائع بن رزيك ،
بدأها متغزلاً غزلاً حضرياً ، لم يذكر فيه الديار ولا الأطلال ، ولا الظعن ، ولم
يورد ألفاظاً بدوية مما اعتاده بعض الشعراء ممن ذكرنا من معاصريه ، ينتهي منه
إلى المديح ليقول :

يا من تساوت في العلا أقسامه
أرض سعت قدماك فيها لم تزل
ونداك كل مؤمل ما أملاً
ملك يلاقى الطيف وهو مذرّع
وسما بهمه فكان الأفضل
لذوى الممالك قبله ومقبلاً
إلا تجهم للعفاة وأملاً
حزماً ، ويقتض الفوارس أغزلاً
ومن مديحه قوله :

ملك تذل الحادثات لعزه
وكم كربة يوم التزالي تكشفت
تشيد بناء الحمد والمجد بيضه
رفاق الظبا تجرى بأجال ذي الوري
يعد ويئدى والليالي زواغم
بحملاته وهي الغواشي الغواشم
وهن لآساس الهوادي هواجم
وأرزاقهم ، فهي القواسي القواسم

ومما هجا به الرشيد بن الزبير في مجلس طلائع قوله :
إن قلت من نار خلقت ، وفقت كل الناس فهما
قلنا صدقت فما الذي أطفأك حتى صيرت فحجماً
وقد يفحش في هجائه فيقول في أحدهم واسمه ابن العلابي المعري وكان
شاعراً :

هذا ابن علا نيكم شجرة
إن لم يكن مثل امرئ القيس في
ينوب في الصيف عن الخيش
أشعاره فهو امرؤ الفيش
ويستخدم التنجيس في هذه النكتة القبيحة .

(١) سبت سبة الأبيات للمهذب ، وربما اختلطت أشعارهما عند الرواة ، وهي بطريقة المهذب أشبه

وقال في هجاء شاعر :

لو كان يُتَصَفَّ حين يُثْبِتُ شِعْرُهُ وسط القَلَا
صفوه عِدَّةَ كُلِّ حَرْفٍ فِيهِ لَكِن جُمْلًا
أى ما يساويه كل حرف من حساب الجُمْل .

ومن تطرقه على هذا النحو :

ابن فلان رجلٌ صالحٌ فامتحنوه واقبلوا رَأْيِي
إرموه في البحرِ لكي تنظروا فَإِنَّهُ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ

وله في هجاء رجلٍ كبير الأنف متظرفا :

عليك لا لك أنْفٌ ظَلَّ مُشْرِفًا حَتَّى غدا بنجوم الأفقِ مُلْتَصِفًا
فلا تُقَلِّ خَلْقَةَ اللَّهِ. ارْتَدَرْتُ بِهَا فَقَدْ يُعَادُ بِهِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَا

فتعجب كيف وَظَفَ الآية القرآنية في السخرية من أنف الرجل .

وكان يقصد زميله وجليسه الكاتب القاضي الجليسي ابن الحباب ، فقد كان
معروفاً بكبر انفه مما أغرى بعض الشعراء بالسخرية منه .

القاضي الجليس ابن الجباب (ت سنة ٥٦١ هـ)

أبو نعمان عبد العزيز بن الحسين بن جباب الأغلبى السعدى التميمي من سني الأغلبة أمراء أفريقية تولى ديوان الإنشاء للخليفة الفاتح مع ابن الخلال . وكان من جلساء طلائع بن رزيك . وكان مشهوراً بكبر أنفه مما جعله مادة لتندر الشعراء . وكثيراً ما كان طلائع يُغريهم به كعادته في إغراء الشعراء بعضهم ببعض . ولقب بالجليس لمجالسته الخلفاء . والجباب لأنه كان يجلس في سوقهم (يعنى سوق الجباب) .

قال عنه العماد^(١) : « جليس صاحب مصر فضله مشهور ، وشعره مشهور وقد كان أوحده عصره نظماً ونثراً ، وترسلاً وشعراً » .

وذكر عمارة أنه ذهب إلى اليمن في سفارة

قال الصفدى : وسمى الجليس لأنه كان يعلم الظافر وأخويه أولاد الخافظ القرآن الكريم والأدب ، وكان عاداتهم يسئون مؤدبهم الجليس .

وشعره كشعر ابن قادوس ، وابن الخلال ، غالبه مقطعات كشعر الكتاب ويغلب عليه الصنعة ورقة اللفظ . ومن صنعته في المديح قوله :

ومن عجب أن السيوف لديهم تحيض دماء . والسيوف ذكور
وأعجب من ذا أنها في أكفهم تأجج ناراً ، والأكف بحور

ومن شعره المصنوع قوله متممكا بطيب :

وأضلي بليتني من قد غزائي	من السقيم الملاح بعسكريني
طبيب طبه كغراب يئن	يفرق بين عاطفتي وئني
أنى الحمى وقد شاتحت وبأنت	فرد لها الشباب بنسختين
ودبرها بتدبير لطيف	حكاه عن سئين أو حنين
وكانت نوبة في كل يوم	فصيرها بحذقي نوبتين

(١) رجمته في الخريدة ١٨٩١ شعراء مصر والنكب العصرية نعمة . والواق ح ١٨ ٤٧٣
فوات الوفيات لابن شاكر ٢٧٨ . النجوم الزاهرة د ١٩٢
(٢) الخريدة ١٨٩١/١

ومن صنعته في الغزل قوله :

ربّ يضرّ سلّانَ باللّحظ ييضاً مُرهفاتٍ جفونهنّ جُفونُ
وخلودٍ للدمع فيها خلود وعيون قد فاضَ منها عيونُ
وقوله :

حبّذا ميعّةُ الشّبَابِ التي يُغف لَذرُ في حُبّها الخَلِيعُ العِذارِ
إذ بذاتِ الحِمارِ أمتِعْ ليلى وبذاتِ الحِمارِ ألهو نهاري
والغواني لا عَنْ وصالي غوانٍ والجواري إلى جواري جَواري

قال العماد : وقال وقد جمع ثمانى تشبيهات في بيت واحد :

بدا وأرانا منظراً جامعاً لما تفرّق من حسنٍ على الخلق مُوزّناً
أقاصاً ، وراحاً تحت وردٍ ورنجس وليلاً وصباحاً فوق غصن على نقا
لعله أراد ثمانى استعارات ، فالمشبه هنا مطوّى غير مذكور .

وربطت بينه وبعض الشعراء من أصحاب طلائع مودة . ومنهم المهذب
ونقل له العماد أبياتاً كتبها إليه مع طيب أهلاه :

بَعَثْتُ عِشَاءً إِلَى سَيِّدِي بما هو من خلقه مَقْتَبَسُ
هَدِيَّةٌ كُلُّ صَاحِبِ الْإِخَاءِ جَرَى مِنْهُ وَذَكَ جَرَى النَّفْسُ
فَعَجْدُ الْقَبُولِ وَأَيُّقُنْ بَأَنْ لَقَرِطِ الْحَيَاءِ أَثْتُ فِي الْقَلَسُ

كما حدثت بينه وبين بعضهم نفرة ، فقد هجّا عمارة بيتين يقول فيهما :
وكم في زبيدٍ من فقيهٍ مُصَدِّرٍ وفي صَدْرِهِ بحرٌ من الجهلِ مُزِيدٍ
إذا ذابَ جسمي من حرّورِ بلادكم علقت على أشعاركم أُتِيرِدُ

يلزم شعر عمارة ، ويصفها بالبرود .

وهجاه بعض الشعراء ومن بينهم من يُسمّى ابن الصيّاد ، فقد أغرى بأنفه
الكبير وأكثر من السخرية منه . ودافع عنه صاحبه ابن قادوس فقال :

يا ابن يعيبُ أنوفنا إل شَمُّ التي - ليستْ ثُعَابُ
الأنف خلقَةُ رَبَّنَا وقروئك الشَّمُّ اكتسابُ

ونقل العماد شعراً له في طلائع بمناسبة وقعة عباس وابنه نصر في مقتل
الخليفة الظافر وبعض أخوته وعمه يستنفره . يقول :

فأين بنو رزيك عتاً ونصرهم وما هم من منعة وزياد
فلو عاين عيناك بالقصر يومهم ومصرعهم لم تكتحل برقاد
تدارك من الإيمان قبل دثوره حشاشة نفس آذنت بنفاد
فمزق جموع المارقين فإنها بقايا زروع آذنت بحصاد
وبعث بشعر له مع خصلات شعر بعض نساء القصر .

ويشير إلى نهوض ابن رزيك من الصعيد إلى القاهرة لملاقاة عباس وابنه
وفرار هذا لعدم قدرته على المواجهة إلى الشام . قال الجليس :

ولما ترامى البربري ببجله إلى فتكة ما رامها قط رائم
ركبت إليه متن عزمك التي بأمثالها تلقى الخطوب العظام
وقدك له الجرذ الجياد كأنما قوائمها عند الطراد قوام
وتنصل منها والعجاج خضابها هواد لأركان البلاد هواد
تجالت عن الماء القراح فريها دماء العدى فهي الصوادي الصوام
وقمت بحق الطالبين طالبا وغيرك يفضي دونه ويسالم
أعدت إليهم ملكهم بعدما لوى به غاصب حق الأمانة ظالم
فما غالب إلا ونصرك غالب وما هاشم إلا وسيفك هاشم
فأذرك بثار الدين منه ولم تزل عن الحق بالبيض الرقاق ثمخاضم

وقال يمدحه :

سُيُوقُكَ لا يُقَلُّ لها غرارُ فنوم المارقين بها غرارُ
يُجَرِّدُهَا إذا أُحْرِجَتْ سُخْطُ على قوم ويغمدنها اغتفارُ
طريدك لا يفوتك منه نثارُ وخصمك لا يُقال له عثارُ

فمر يا صالح الأملاك فينا بما تختارُهُ ، فلك الخيارُ
فقد شفعت إلى ما تبتغيه لك الأقدارُ والفلك المدارُ
ولو نوث النجوم له خلافاً هَوَتْ في الجوّ يذروها انتشارُ
وله غزل حضريّ مثل قوله :

داح فجلاؤه مُحْبَاهُ
والبدْر لا يُكْتَمُ مَسْرَاهُ
كما وشى بالمسك رِيَاهُ

زار وجنح الليل محبوك
مُلْتَمِماً يَنْدِيهِ لَأْلَؤُهُ
نَمَّ عليه طيبُ أنفاسِهِ

وقوله :

فكسَاهُ لونَ الحَزْنِ من أَرْهَارِهِ
خَذِيهِ لا يُطْفِئُ تَلْهُبُ نَارِهِ
نارِ الحَشَاءِ وتزِيدُ في استعارِهِ
وإذا انشَى فالطَّرْفُ في آثارِهِ
وجوانحِي للحينِ من أنصارِهِ

قد طرّزت وجنائه بعذارِهِ
وتألّفت أضدادَهُ فالْمَاءُ في
وحكيته فمدامعي تهجى على
وإذا بدا فالقلبُ مشغولٌ به
فمتى أعانُ على هواهُ بنصرَةٍ

ويجيد في الوصف بين وصف المعارك ووصف الرياض والزهور . يقول في

معركة :

تناكّر أحياناً ، وإن قُرْبَ النَّحْرِ
وإن لمعت أسياقه طَلَعَ الفَجْرُ
وقَتْلَى يعافُ الأَكْمَلُ من هَامِيهَا النَّسْرُ

تكادُ من التَّقَمِ المثارِ كُمَائِهَا
عَجَاجٌ يظَلُّ الملتقى منه في دُجَى
وخيل يلفُ النَّسْرُ بالثَّرِبِ عَدُوَهَا

ويصف النرجس فيقول :

يحكي العيونَ فقد حَبَّأها نَفْسَهَا
شَغْفاً إذ الأشياءُ تعشَقُ جَنْسَهَا
كم مَنَّةٌ في أنسِهِ من أنسِهَا
واحشُ على حدقِ الحدائقِ كَأْسَهَا

وفد الربيع على العيونِ بَنَرِجَسٍ
عَلِقَتْ على استحسانِهِ أَبْصَارُنَا
يُلْهِى ويؤنسُ من جفاهُ خَلِيلُهُ
فأَرْضِ الرِّياضِ بزورة تلهو بها

ولا نستطيع مما انتقاه ابن العماد أن نلم بكل ما قال الشاعر ولا بأحسن ما قال فنحن نعرض لما اختار من خلال ذوق غير ذوقنا وموقف غير موقفنا ، فللعماد موقف معروف يتكرر من شعراء الفاطميين ، فهو لا يختار من أقوالهم إلا ما يتفق مع عقيدته ولا يتعارض مع أهواء سادته من الأيوبيين أعداء الفاطميين التقليديين . ذلك إلى ميل العماد في حكمه على الشعر إلى الشعر الذي به صنعة البديع . ونلاحظ على كثير من اختياراته اهتمامه بهذا اللون .

وشعر الكتاب عامة في هذا العصر لا يخلو من البديع ، وهو من جنس
إنشائهم فيه الصنعة ظاهرة . وقد تعلم القاضي الفاضل في ديوان الإنشاء ،
وتأثر بهم ، وحفلت كتاباته بضروب من صنعة البديع ، افتن فيها حتى
أعجبت معاصريه ومن بعدهم وكذلك كان شعره من اللون نفسه ، وهو ابن
هذه المدرسة نفسها من شعراء كتاب الفاطميين .

مصادر ومراجع

آدم متر :

١ — الحضارة العربية في القرن الرابع — ترجمة أبو رييدة ، طبع مصر .

إحسان عباس .

٢ — الوزير المغربي — طبع دار الشروق بعمان ، الأردن سنة ١٩٨٨ م .

أحمد أحمد بدوى

٣ — الحياة العقلية في عصر الحروب بمصر والشام — طبع نهضة مصر .

الأدفيى :

٣ — الطالع السعيد الجامع لأنباء أبناء الصعيد — تحقيق سعد محمد حسن ،

ومراجعة الدكتور طه الحاجرى ، طبع دار الكتب بمصر سنة

١٩٦٦ م .

أبو الفداء :

٤ — المختصر في أخبار البشر — طبع القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ .

أحمد أمين :

٥ — ظهر الإسلام — طبع لجنة التأليف .

إدريس عماد الدين :

٦ — عيون الأخبار في أخبار الفاطميين — تحقيق دكتور مصطفى غالب ،

طبع دار الأندلس ببيروت سنة ١٩٨٥ م .

ابن الأثير — نجم الدين أحمد بن اسماعيل :

٧ — جواهر الكنز — تحقيق الدكتور محمد زغلول سلام ، طبع منشأة

المعارف بالإسكندرية .

ابن الأثير : عز الدين على

٨ — الكامل في التاريخ .

ابن أبى أصيبعة :

٨ — عيون الأنب، فى طبقات الأصباء

أسامة بن منقذ :

٩ — ديوانه — تحقيق د . حامد عبد المجيد .

١٠ — الاعتبار .

١١ — المنازل والديار — طبع القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

أمية بن أبى الصلت :

١٢ — الرسالة المصرية — تحقيق محمد عبد السلام هارون — مجموعة نوادر المخطوطات .

طبع لجنة التأليف سنة ١٩٥١ م :

١٣ — شعره — جمع محمد المرزوق — طبع دار الكتب الشرقية بتونس .

الأمين العاملى : السيد محسن

١٤ — أعيان الشيعة — طبع دمشق سنة ١٩٤٦ م .

الباخرزى :

١٥ — دمية القصر وعصرة أهل العصر — طبع مصر .

ابن بسام :

١٦ — الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة — تحقيق إحسان عباس ، طبع بيروت .

التجيبى :

١٧ — المختار من شعر بشار — تحقيق لجنة وطبع لجنة التأليف بالقاهرة .

ابن تغرى بردى :

١٨ — النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة — طبع دار الكتب المصرية بالقاهرة .

١٩ — المنهل الصافى — طبع دار الكتب المصرية .

٢٠ — النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة — تحقيق د . حسين نصار ،

طبع دار الكتب بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م

نعم بن المعز :

٢- ديوانه — ضبع دار الكتب المصرية .

التهامى : على بن محمد

٢٢- ديوانه — تحقيق الدكتور محمد عبد الرحمن الربيع ، طبع مكتبة المعارف بالرياض سنة ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٢ م .

ديوانه — تحقيق رسالة ماجستير مخطوطة ، بإشراف د . محمد زغلول سلام ، كلية الآداب بالإسكندرية سنة ١٩٧٨ م .

التهالبي :

٢٣- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر — تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، طبع السعادة بالقاهرة سنة ١٩٥٦ م .

الجاحظ : عمرو بن بحر

٢٤- البيان والتبيين — تحقيق محمد عبد السلام هارون ، طبع لجنة التأليف سنة ١٩٤٨ م .

ابن حجة الحموى :

٢٥- ثمرات الأوراق — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم سنة ١٤٠٠ هـ .

٢٦- خزائن الأدب — طبع مصر سنة ١٣٠٤ هـ .

حسن إبراهيم حسن :

٢٧- تاريخ الدولة الفاطمية — طبع القاهرة سنة ١٩٣٢ م .

الحصرى القيروانى : إبراهيم بن على (أبو اسحاق)

٢٨- زهر الآداب — ضبطه ، دكتور زكى مبارك ، طبع مصر .

حسين نصار (دكتور)

٢٩- ظافر الحداد .

ابن حيوس :

٣٠- ديوانه — تحقيق خليل مردم ، طبع المجمع العلمى بدمشق سنة

١٩٥١ م .

داعى الدعاة : هبة الله بن موسى الشيرازى

٣١ — سيرة المؤيد — تحقيق د . محمد كامل حسين ، دار الكاتب المصرى
بمصر سنة ١٩٤٩ م .

٣٢ — المجالس المؤيدية — تحقيق د . مصطفى غالب ، ط . دار الأندلس
بيروت سنة ١٩٧٤ م .

ابن دقماق

٣٣ — الانتصار بواسطة عقد الأمصار .

داعى الدعاة :

٣٣ — ديوان داعى الدعاة — تحقيق د . محمد كامل حسين ، ط . دار
الكاتب المصرى سنة ١٩٥٠ م .

الدينورى : أبو حنيفة — أحمد بن داود

٣٤ — الأخبار الطوال — تحقيق عبد المنعم عامر ، طبع القاهرة سنة
١٩٦٠ م .

الريقى القيروانى :

٣٥ — تاريخ أفريقيا والمغرب — تحقيق المنجى الكمى ، نشر وطبع تونس .

٣٦ — قطب السرور فى أوصاف الخمور — طبع الجمع العلمى بدمشق .

ابن رشيق

٣٧ — الأتمودج فى شعر القيروان — طبع تونس .

٣٨ — العملة فى الشعر .

ابن سعيد المغربى :

٣٧ — المغرب — الجزء الأول من قسم مصر — تحقيق د . زكى محمد

حسن ، د . شوق ضيف ، طبع جامعة فؤاد سنة ١٩٥٣ م .

السيوطى :

٣٨ — بغية الرعاة — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . طبع القاهرة سنة

١٩٦٥ م .

٣٩ — حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .

٤٠ — تاريخ الخلفاء .

ابن شاکر الکھی :

- ٤١- عبون التوارخ - ح ١٢ ، تحقیق دکتور فیصل السامر ، ط . العراق
سنة ١٩٧٧ م .
٤٢- فوات الوفیات - تحقیق د . إحسان عباس ، طبع بیروت سنة
١٩٧٣ م .

الشابشتی :

- ٤٣- الدیارات - طبع دار الکتب بمصر .

الشریف العقیل :

- ٤٤- دیوانه .

ابن الصیرفی :

- ٤٥- الوزراء المصرية - طبع مدبولی بالقاهرة .
٤٦- الوزراء المصرية - طبعة أورویة .
٤٧- قوانین الدواوین - طبع القاهرة .
٤٨- قوانین الدواوین - طبع مدبولی بالقاهرة .
٤٩- الأفضلیات - تحقیق د . ولید قصاب ، ود . المناع ، طبع دمشق سنة
١٩٨٢ م .

الصوری : عبد المحسن

- ٥٠- دیوانه - محقق . طبع بغداد سنة

الصفدی : صلاح الدین

- ٥١- الوافی بالوفیات - مجموعة أجزاء ، طبع معهد المشرقین الألماني .
٥٢- الفیث المسجده ، شرح لامية المعجم ، طبع بیروت .
٥٣- نکت الهمیان -

طه حسین

مع أمی العلاء فی سجنه

طلائع بن رزیک :

- ٥٤- دیوانه جمع د . أحمد أحمد بدوی - ط . مكتبة نهضة مصر بالقاهرة
سنة ١٩٥٨ م .

٥٤ — ديوانه جمع محمد هادي الأمين — نشر المكتبة الأهلية بالتجفيف بالعراق
سنة ١٩٦٤ م .

ابن الطوير :

٥٥ — نزهة المقلتين في أخبار الدولتين — حققه د . أيمن فؤاد السيد ، طبع
بمصر سنة ١٩٩٢ م .

ظافر الحداد :

٥٦ — ديوانه بتحقيق د . حسين نصار ، طبع مكتبة مصر بالفجالة سنة
١٩٦٩ م .

ابن ظهيرة :

٥٧ — الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة — تحقيق مصطفى السقا ،
ط . دار الكتب سنة ١٩٦٩ م .

عبد الرحمن ياغي :

٥٨ — حياة القيروان — طبع المكتب الإسلامي بدمشق .

عادل زعيتر (مترجم) :

٥٩ — نجالى الإسلام .

علي إبراهيم أبو زيد

٦٠ — وسائل ابن أبي الشخاء — طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٩١ م .

علي بن خلف :

٦٠ — مواد البيان — طبع الجامعة الليبية بطرابلس .

عبد اللطيف حمزة . دكتور :

٦١ — أدب الحروب الصليبية — طبع دار الفكر سنة ١٩٤٨ م .

٦٢ — الحركة الفكرية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي — طبع دار
الفكر سنة ١٩٦٨ م .

علي بن ظافر :

٦٣ — بدائع البدائ — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبع مكتبة الأنجلو
بالقاهرة سنة ١٩٧٠ م .

٦٤ — تاريخ الدولة السلجوقية .

٦٥ — أخبار الدولة الحمدانية — تحقيق نمة السروات — طبع دار حسان .

عماد الدين الأصبهاني :

٦٥ — خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء مصر — طبع القاهرة سنة ١٩٥١ م .

٦٦ — خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء الشام — طبع المجمع العلمي بدمشق .

٦٧ — خريدة القصر وجريدة العصر قسم شعراء المغرب — طبع تونس .

أبو العلاء المعري :

٦٨ — رسالة الغفران — تحقيق الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، طبع المعارف بمصر سنة ١٩٥٠ م .

٦٩ — ديوان سقط الزند .

٧٠ — ديوان اللزوميات .

ابن العماد الحنبلي :

٧١ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب .

العاملی : بهاء الدين

٧٢ — الكشكول — تحقيق أحمد الزواوي ، طبع الحلبي بالقاهرة سنة

العباسي : عبد الرحيم

٧٣ — معاهد التنصيص على شواهد التلخيص — تحقيق محمد محيي الدين عبد

الحמיד ، ط . السعادة بمصر سنة ١٩٤٧ م .

عمارة اليميني :

٧٤ — النكت العصرية في الوزراء المصرية .

الفارقي :

٧٥ — تاريخ الفارقي — تحقيق د . بدوي عبد اللطيف ، ط . دار الكتب

الليمانية بيروت سنة ١٩٧٤ م .

أبو الفرج الأصبهاني :

٧٦ — الأغاني طبع دار الكتب المصرية .

القفطى : على بن يوسف

٧٧ — إثبات الرواة على أنباء النحاة — تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

٧٨ — المحدثون من الشعراء — تحقيق رياض مراد ، طبع دمشق سنة

١٩٧٥ م .

القلقشندي :

٧٩ — صبح الأعشى في صناعة الإنشا — طبع دار الكتب المصرية .

محمد عبد الغنى حسن :

٨٠ — مصر الشاعرة في العصر الفاطمي — طبع مصر .

٨١ — تميم بن المعز الأمير الشاعر — طبع دار الرفاعي بالرياض سنة ١٩٨٠ .

محمد كامل حسين :

٨١ — في أدب مصر الفاطمية — ط . دار الفكر العربى سنة ١٩٧١ م .

محمد عبد الله عنان :

٨٢ — الحياة الفكرية في مصر حتى آخر الدولة الفاطمية — طبع النهضة العربية .

محمد عبد الحميد سالم . دكتور

٨٢ — شعر المهذب — تحقيق ودراسة ، طبع دار هجر بالقاهرة سنة ١٩٨٨ م .

٨٤ — الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية — نشر الخانجي سنة ١٩٨٣ .

المقريزى :

الخطوط :

٨٣ — البيان والإعراب — تحقيق د . عبد المجيد عابدين ، طبع القاهرة سنة ١٩٦١ م .

٨٤ — اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء — تحقيق ونشر د . جمال .

٨٥— كتاب النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم — تحقيق د. حسين مؤنس — طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٩٠ .

٨٥— الدين الشيال — ط . دار الفكر العربى سنة ١٩٤٨ م .

المقدسى : شهاب الدين

٨٦— كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين — تحقيق د . محمد حلمى بالقاهرة سنة ١٩٦٢ م .

محمد مصطفى رضوان :

٨٧— المهذب بن الزبير حياته وشعره — طبع دار الرسالة بالقاهرة سنة ١٩٨٤ م .

المحاسبي :

٨٨— أخبار مصر فى سنين — طبع المجمع العلمى .

المسبحى :

٨٩— أخبار مصر — تحقيق وليم ميلورد ، طبع الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٠ م .

المقرى :

٩٠— نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب — تحقيق إحسان عباس سنة ١٩٦٨ م .

النويري :

٩١— نهاية الأدب — طبع دار الكتب المصرية .

النعمان القاضى : (مترجم) .

٩٢— دعائم الإسلام — تحقيق آصف فيظى ، نشر دار المعارف بمصر .

ابن هانئ :

٩٣— ديوانه — طبع بيروت سنة ١٩٦٤ م .

ابن واصل : جمال الدين محمد

٩٤— مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب — تحقيق د . جمال الدين الشيال طبع مصر سنة ١٩٥٣ م .

الوطواط :

٩٥ — مناهج الفكر ومباهج العير — تحقيق عبد العال الشامي ، طبع الكويت
سنة ١٩٨١ م .

اليافعي :

٩٦ — مرآة الزمان — ح ٣ ، طبع بيروت .

ياقوت الحموي :

٩٧ — معجم الأدباء .

٩٨ — معجم البلدان .

Lane Poole: History Of Egypt In Middle Ages.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل الأول : حال الشعر والشعراء	٧
حال الشعر	٩
موضوعات الشعر	١٤
شعراء العصر	٣٨
الفصل الثاني : شعراء مصريون في القرن الرابع	٤٣
١- تميم بن المعز	٤٥
٢- الرّسبيون	٨٧
٣- ابن وكيع التنيسي	٩٦
٤- الشريف العقيلي	١٠٢
٥- شعراء مصريون آخرون في القرن الرابع	١١٥
الفصل الثالث : شعراء وافدون في القرن الرابع	١٢٥
١- أبو الرقعمق الأنطاكي	١٢٧
٢- الرقيقي القيواني	١٣٧
٣- صريع الدلاء البغدادي	١٤٤
٤- عبد المحسن الصوري	١٤٧
الفصل الرابع : شعراء مصريون من القرن الخامس	١٥٩
١- ظافر الحداد	١٦١
٢- ابن مكنسة	١٩٦
الفصل الخامس : شعراء وافدون من المشرق في القرن الخامس	٢٠٥
١- التهامي	٢٠٧
٢- داعي الدعاة شمس الدين	٢٤٠
٣- ابن حيوس	٢٤٧

الموضوع	رقم الصفحة
الفصل السادس : شعراء معاصرون بالشام	٢٥٥
١- أبو العلاء المعري	٢٥٧
٢- ابن سنان الخفاجي	٢٩٦
٣- ابن الحياط	٣٠٣
٤- إبراهيم الغزي	٤١٥
الفصل السابع : شعراء وافدون من المغرب	٣٢٣
١- التجيبي	٣٢٥
٢- ابن القطاع الصقلي	٣٢٨
٣- أمية بن أبي الصلت	٣٣١
٤- ابن أبي البشائر	٣٤٢
٥- شعراء وافدون آخرون	٣٤٨
٦- محمود بن عبد الجبار الطرسوسي	٣٤٨
٧- الرشيد الصقلي	٣٥٠
٨- القلعي الأصم - محمد بن عبد الله	٣٥١
٩- مجير الصقلي	٣٥٥
الفصل الثامن : شعراء مصريون في القرن السادس	٣٦٥
١- حسن بن زيد الأنصاري	٣٦٩
٢- ابن النضر	٣٧٣
٣- داود بن مقدم الحلبي	٣٧٧
٤- ابن الضيف	٣٨١
٥- ابن الكيزاني	٣٨٤
الفصل التاسع : شعراء نهاية العصر (ابن رزيك وجماعته)	٣٨٩
١- ابن رزيك	٣٩١
٢- أسامة بن منقذ	٤٣١
٣- القاضي الرشيد بن الزبير	٤٥٧
٤- المهذب بن الزبير	٤٦٤

٤٧٩

٤٩١

٤٩٤

٤٩٩

٥- عمارة اليمنى

٦- ابن قادوس

٧- القاضي الجليس

المصادر والمراجع

